



ایں سب سے پہلے ایک طالب علم

((بسم الله الرحمن الرحيم))

(مقدمة)

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده . .
وبعد /

فقد كنت ومازلت ذا كلف شديد بالدراسات الاندلسية والشغف بها ، ومن وحي هذه الرغبة الذاتية جاء اختياري لهذه الدراسات الاندلسية محالا رحبا لرسالتى فى الماحسستير . والدراسات الاندلسية ما زالت ميدانا بكررا لم تسطع الدراسات التاريخية والادبية التى تمت حتى هذه اللحظة أن تستوعبه وتحتويه وتكشف عن أهم دقائقه وتفصيله ، ذلك لأن الدراسات الاندلسية لم تبدأ على يد المستشرقين الا منذ منتصف القرن الثالث عشر الهجرى / التاسع عشر الميلادى ، كما أنها لم تبدأ على يد الكتاب والمؤرخين العرب مشاركة أو مغاربة الا فى مطلع القرن الرابع عشر الهجرى / العشرين الميلادى .

ومن المستشرقين الذين كان لهم دور ملحوظ فى الكشف عن خبايا الروائع الاندلسية المؤرخ الهولندى راينهرت دوزى ، وخليان ربيرا ، وفرانسسكو كوديريه ، وآسين بلاجيوس ، وجامينجوس ، ثم المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال الذى كان ذا حظ عظيم فى اكتشاف كثير من المخطوطات الاندلسية القيمة ، ثم معاصريه من أمثال رامون مندث بيدال وأمبروس هويسى ميرانده ، وأميليو غرسيه غومس وأنخل جنثالت بالنثيا وغيرهم .

وقد دفعت هذه الجهود العلمية كثيرا من الباحثين العرب المشتغلين بالادب والتاريخ مشاركة بدرجة أوسع ومغاربة على نطاق أقل الى الاهتمام بالدراسات الاندلسية وغوص ميدانها الرحب . وكان ذلك ابتداء من مطلع القرن الرابع عشر الهجرى / العشرين الميلادى أمثال أحمد زكى ، وشكيب أرسلان ، وعبد الحميد العبادى ، ثم جاء جيل آخر من المشاركة ليدفع بالدراسات الاندلسية شوطا بعيدا . ومن هؤلاء حسين مؤنس ، أحمد مختار العبادى السيد محمود عبدالعزيز سالم ، حسن أحمد محمود ، عبدالعزيز الاهوانى ، لطفى عبد البديع ، محمود على مكى وغيرهم ، وكان لجهود محمد عبد الله عنان التى قام ومازال يواصلها دورا كبيرا فى تقدم الدراسات الاندلسية والكشف عن مكوناتها .

ومع هذا فيتراءى لى بحكم ما توافر لى من خبرة متواضعة فى هذا المجال أن الدراسات الاندلسية بشقيها التاريخى والحضارى ما زالت بحاجة الى البحث والتقيب والدراسة والتحليل . ويتراءى لى ايضا أن هناك صفحات من التاريخ الاندلسى لم تشر بعد بفعل الظروف الدقيقة التى عاشتها المصنفات الاندلسية ، وخاصة بعد اجلاء المسلمين عن أسبانيا ، ومحاكم التفتيش وطمس آثارهم .

وبوحى من هذا المفهوم ، وتحقيقا لرغبة ذاتية محضة عن لى أن اشارك فى مسيرة الدراسات الاندلسية التى نشطت فى النصف الثانى من القرن العشرين نشاطا كبيرا ومؤثرا

علمنى قد أتمكن من نشر صفحة مطوية ، أو تصحيح فكرة ، أو مفهوم خاطئ ... الى غير ذلك .
ولقد اجتزت من ذلك السجل ، وذلك التاريخ الاسلامى المشرق فى أحيان ،
والقائم فى أحيان أخرى موضوعا جعلته عنوانا لرسالتى فى الماجستير هــ :
بنو عباد فى اشبيلية دراسة سياسية وحضارية (٤١٤-٤٨٤هـ / ١٠٢٣-١٠٩١م) .

ولقد كان هذا الاختيار فى واقع الامر نابعا عن رغبة دفينة فى النفس تطمح الى
تحسس الاسباب التى أدت الى زوال الوجود الاسلامى فى الاندلس من جهة ، وتطمح فى
الوقت نفسه الى الفوصىة فى تلمس الاسهامات الحضارية التى أهداها الاجداد بالاندلس
لمسيرة البشرية العلمية والحضارية ارتواء من معين من المجد التالذ أولا ، وحفز اللهم
والمعقول الاسلامية والعربية ثانيا .

ولملى أزعج أن هذا الموضوع الذى انتقيته من التاريخ الاندلسى ذو أهمية بالغة
فى فهم الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية فى الاندلس . فدولة بنى عباد ظهرت فى
التاريخ الاندلسى بعد انتشار وحدة الدولة الاموية ومعد سقوط الخلافة لابل فى سنوات
احتضارها الاخيرة . بل يمكن أن نقرر أنها كانت هى وغيرها من ممالك الطوائف الأخرى
نتيجة مباشرة لذلك السقوط ، كما كانت دولة بنى عباد هى وغيرها من ممالك الطوائف سببا
أساسيا فى تصدع الوجود الاسلامى فى الاندلس كليا . وكان ظهور تلك الممالك وما مارسته
من ثم من سياسة ، وما ارتكبتها من أخطاء استراتيجية فادحة ايذانا بضياح الاندلس . ذلك
لأن القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى كان مسرحا لمنعطف تاريخى بارز ومهم فى
تاريخ اسبانيا الاسلامية والنصرانية على السواء . اذ شهدت اسبانيا الاسلامية فى هذا القرن
انهيار الخلافة الاموية ومن ثم تصدع وحدتها وما تلا ذلك من تفتت وتمزق سياسى شهدت فيه
الاندلس نشوء حكم دويلات المدن أو ممالك الطوائف كما سماها معظم المؤرخين أو دول الفرق (١)
والتي بلغ تعدادها أزيد من بضع وعشرين دولة ، وقد مارست هذه الدول سياسة اقليمية ضيقة
الأفق ودخلت فى منازعات ضد بعضها البعض وكادت هذه الممارسات الخاطئة أن تعجل فى
انهاك الوجود الاسلامى لو لم يقيض الله للأندلس قوة فتيية مدت فى عصر الوجود الاسلامى
أربعة قرون أخرى ، أغنى بذلك المرابطين . وفى نفس الوقت شهد ذلك القرن صحوة
اسبانية نصرانية انتقلت باسبانيا المسيحية من مرحلة الدفاع الى مرحلة الهجوم . ونمت وترعرعت
خلال سنوات ذلك القرن خمس دول نصرانية ، استقرت أحوالها فى الأغلب الأعم واستتفظ
عودها وانتهجت مستغلة الأوضاع الحرجة للمسلمين آنذاك ، سياسة تهدف الى انتزاع أراضي
الآباء والأجداد كما كانوا يصرحون دائما . هذه السياسة هى التى عرفت تاريخيا بحركة
الاسترداد الاسبانية . ولقد اضطلعت مملكة قشتالة الاسبانية آنذاك بالدور الرئيسى فيها ،

(١) : وردت هذه التسمية على لسان ابن الكردبوس فى كتابه الاكتفاء ، ص ٧٨ .

وكان لملوكها ابتداءً من عهد الملك فردناند الأول الدور الأساسى فى تلك السياسة ، اذ كان فردناند هو أول من بلور حركة الاسترداد وأعطاهما الشكل الذى سارت عليه وقتذاك ، كما سيتضح لنا فى ثنايا الرسالة .

وفى ظل هذه الاوضاع فى اسبانيا الاسلامية والنصرانية معا واجهت الكثير من المصاعب ، اذ لا يمكن فصل تاريخ دولة بنى عباد عن تاريخ ممالك الطوائف الاخرى . وكيف يمكن أن يحدث ذلك وهم القوة السياسية الكبيرة المؤثرة فى التاريخ الاندلسى فى القرن الخامس الهجرى بحكم ما توافر لهذه الدولة من مقومات قوية ؟ اذ أنه ليس خفياً أن نؤكد بأن مملكة بنى عباد كانت وقتها قطب رحى ممالك الطوائف وواسطة عدها . وكانت معظم احداث الاندلس وقتذاك قد ارتبطت بهذه الدولة قليلاً أو كثيراً وكان بنو عباد القوة السياسية المؤثرة سلباً وإيجاباً فى مجريات الأمور السياسية والأدبية أيضاً فى الاندلس فى تلك الفترة موضوع بحثنا .

ومن هنا كان لابد لى لمعرفة تاريخ بنى عباد ، ومن ثم التحدث عنه من اللام بتاريخ الممالك الاسلامية والنصرانية معا . ذلك أن تسلسل الاحداث ومقتضيات الاشياء تدفع الى معرفة القوى السياسية الاخرى التى كانت تموج بها أرض اسبانيا بشقيها المسلمة والمسيحية آنذاك . ولعل من المسلمات التاريخية التى كثيراً ما تصدق فى كل زمان ومكان أن نجد فى مقابل الانحلال والتمزق السياسى الذى تشهده منطقة ما نجد فى المقابل تطوراً وازدهاراً حضارياً مميزاً . فالقرن الخامس الهجرى بقدر ما يعتبر قرن تدهور وانحلال وتمزق سياسى بقدر ما كان نقطة مضيئة فى تاريخ التمدن والحضارة الاندلسية . اذ شهدت الاندلس أدباً رفيعاً وتديناً ثقافياً وعلمياً كبيراً ، كما شهدت الحياة الاجتماعية والمعاشية ترفاً حضارياً راقياً . ذلك شئ مسلم به ، فالشرق الاسلامى شهد ما يماثل هذا الوضع فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى .

بقى أن أشير الى أن هذه الدراسة المتخصصة عن بنى عباد لم تكن الاولى من نوعها ، فقد سبقنى الى الولوج فى هذا الموضوع بعض من الباحثين المحدثين . وكان منهم من انصب اهتمامه على الحياة السياسية للدولة كعبد السلام الطود ، وكان هناك من انصرف اهتمامه الى النواحي الاقتصادية والاجتماعية فى دولة بنى عباد كمحمد بركات البيللى الذى أعد رسالته للماجستير بهذا العنوان ، وكصلاح خالص الذى كتب مؤلفاً بهذا العنوان ، وهناك من تناول شخصية ملك من ملوك بنى عباد ، وهو المعتمد بالذات فتناولوا بالحد يث شخصيته بدرجته أساسية وركزوا على الجانب الادبى فيها ومن هؤلاء صلاح خالص نفسه وعلى أدهم ، وعبد الوهاب عزام ، ورضا الحبيب السويسى ، وأحمد أحمد بدوى ، وحامد عبد المجيد ، وأما دراستى هذه فتتناول التاريخ السياسى لدولة بنى عباد منذ كانت حلماً راود مؤسسها القاضى أبى القاسم محمد بن عباد حتى سقوطها بيد المرابطين أخيراً ، فضلاً عن

أبرز مظاهر التطور الحضارى بها ومعنى أننى تابعت الاحداث السياسية لهذه الدولة طوال مدة حكمها التى تاهت بعضا وسبعين سنة برؤية جديدة وطرح جديد بحكم ما زخرت به الدراسات الاندلسية أخيرا أى فى الثلث الأخير من القرن الميلادى الحالى . إذ شهدت الدراسات الاندلسية حديثا نشاطا تاريخيا وأدبيا مهما واضطلع بعض الباحثين من العرب والاجانب بكشف الستار عن كثير من المصادر النفيسة وأخرجوها اخراجا صحيحا دقيقا أتاح الفرصة للكشف عن مزيد من تفاصيل الحياة السياسية والحضارية فى الاندلس فى القرن الخامس الهجرى مثل كتاب ابن حيان : القتبس وكتاب ابن الكردبوس : الاكناف ، وكتاب ابن الأبار : الحلة السيرة الذى حققه حسين مؤنس أخيرا تحقيقا تاريخيا وأدبيا ، ثم المصدر المعاصر والمهم جدا وهو مذكرات الملك عبد الله بن زبير ماء غرناطة إحدى دول الطوائف آنذاك والذى عثر عليها المستشرق الفرنسى ليجى بروفندال كما شهد القرن العشرين الميلادى اهتماما ملحوظا من جانب المؤرخين العرب المشرق والمغرب . فظهرت مصنفات جديدة ساعدت الباحثين كثيرا فى فهم الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى الاندلس كما سيتضح بعد قليل .

ومن هنا أحسب أنى قد شاكلت الصواب ، كما أحسب أنى قد استطعت رسم صورة تكاد تكون موضوعية للحياة السياسية فى الاندلس فى القرن الخامس الهجرى على وجه التخصص فى الامام هشيم من أهم مظاهر التطور الحضارى فى اشبيلية خاصة وفى الاندلس عامة كما يرمى الى ذلك عنوان رسالتنا .

وفىما يتعلق بخطة الموضوع هذا لى أن تكون على النحو التالى :

تمهيد وخمسة أبواب ، ثم الملاحق . فقد رأيت اقتضاء المنهجية البحث العلمى أن يسبق حديثى عن دولة بنى عباد باشبيلية تمهيد تاريخى يوضح الظروف التى نشأت فى ظلها مملكة بنى عباد . ولذلك فقد عنونت التمهيد بالمثنوان التالى : حالة الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية . وقسمته الى فقرتين هما الفقرة الأولى بعنوان : سقوط الدولة الأموية وعرضا فى هذه الفقرة الاحداث والحقائق التاريخية التى شهدتها الاندلس منذ قيام دولة بنى أمية بصورة مقتضبة توسعنا فى الحديث عن الاحداث التاريخية التى شهدتها الاندلس منذ وفاة الخليفة الحكم المستنصر وتولى ابنه الخليفة هشام السلطة من بعده وما تلاه من وقائع أدت الى قيام دولة بنى عامر التى أسسها المنصور بن أبى عامر أحد رجالات الدولة البارزين فى قلب الخلافة الاموية ثم انتهاء الدولة العاصمية وبداية الفتن التى عرفت اصطلاحا بالفتنة البربرية وما تبع ذلك من ظهور خلفاء ضعاف فى الدولة الأموية ثم ظهور دولة بنى حمود التى أسسها على بن حمود أحد رجالات الدولة الأموية آنذاك فى قلب الخلافة الأموية ثم سقوط الدولة أخيرا عام ٤٢٢ هـ ثم عقبنا بتمهيد

بتحليل الأسباب المباشرة وغير المباشرة لسقوط الدولة وعرضنا في ثنايا ذلك لنشوء ممالك النصارى .

أما الفقرة الثانية من التمهيد فقد عنوانها بالعنوان التالي : قيام ممالك الطوائف وأشهرها . تحدثنا فيها عن كل دولة في اقتضاب من حيث موقعها ومؤسستها ونهايتها ، وعقبنا من بعد بنبرة وافية عن العناصر التي كونت هذه الممالك والظروف التي هيأت لها ذلك . أما الباب الأول فقد اخترنا له العنوان التالي : قيام دولة بني عباد وقد قسمناه إلى أربع فقرات ، الفقرة الأولى : أصل بني عباد . وسطنا الحديث في هذه الفقرة عن أصل بني عباد والأقوال التي قيلت في ذلك ثم مساكنهم ومداية ظهور أمرهم . والفقرة الثانية تحدثنا فيها عن الموقف السياسي في الأندلس قبيل قيام دولة بني عباد . وعرضنا للموقف السياسي في إقليم الأندلس وعاصمة الخلافة قرطبة بالذات ، والموقف مع خلفاء بني حمود . ثم رسمنا صورة للموقف السياسي في ممالك النصارى . وفي الفقرة الثالثة وعنوانها: اشبيلية مسرحا للصراع بين بني حمود وسكانها . تعرضنا فيها للأسباب والظروف التي هيأت للقاضي أبي القاسم محمد ابن اسطعيل بن عباد الاستبداد بالأمر في اشبيلية بحكم منصبه القضائي العالي الذي جعله الشخصية الاشبيلية البارزة في ذلك الوقت ، وتحدثنا عن مقومات تكوين الدولة التي ستنشأ على التو .

والفقرة الأخيرة من الباب الأول خصصناها للحديث عن دولة القاضي أبي القاسم محمد (٤١٤-٤٣٣هـ / ١٠٢٤-١٠٤٢م) وفرعها إلى نقاط عدة مثل : تكوين مجلس الرئاسة الذي اضطلع بحكم اشبيلية بعد تخلصها من نفوذ بني حمود ، ثم شرحنا أبعاد الموقف السياسي غداة استقلال اشبيلية في الممالك الإسلامية والنصرانية معاً ثم خطوات القاضي أبي القاسم في الاستئثار شيئاً فشيئاً بالحكم لنفسه ، والخطوات التي قام بها إلى أن استطاع أن يؤسس دولة بني عباد ويصبح حاكمها المطلق ثم تحدثنا عن سياسته الداخلية والخارجية حتى وفاته .

أما الباب الثاني فقد خصصناه لثاني ملوك دولة بني عباد واخترنا عنوانه على النحو التالي : الدولة العبادية في عهد المعتضد بالله . وقسمناه بدوره إلى فقرات خمس :

الفقرة الأولى : تولى المعتضد السلطة بعد وفاة أبيه وآراء المؤرخين فيه ، حللنا فيها شخصية هذا الملك التي دمغت بكثير من صفات الذم والقدح . ثم تحدثنا في الفقرة الثانية عن الموقف السياسي في إسبانيا الإسلامية والنصرانية غداة تولى المعتضد السلطة ، والفقرة الثالثة خصصناها للحديث عن سياسة المعتضد الخارجية فيما عواناها ب : التوسع العسكري على حساب الإمارات عربية غربية مجاورة لمملكة بني عباد . ثم اقتضانا التسلسل المنطقي للأحداث أن نقطع حديثنا عن السياسة الخارجية ، فنورد فقرة عن حدث داخلي مهم

وقع في الدولة وهو انشقاق اسماعيل بن المعتضد على أبيه وتمرد عليه وما أفضى ذلك من القضاء عليه ثم عدنا الى التحدث عن السياسة الخارجية للدولة ، فنعرضنا بالحدث عن التوسع العسكري على حساب الامارات البربرية في جنوب الاندلس ، وتحدثنا في الفقرة ما قبل الاخيرة من الباب عن نشاط حركة الاسترداد المسيحي في عهد المعتضد بالله . وقد استفاضينا الحديث في هذه النقطة ، ورسمنا صورة نزرع أنها دقيقة للأوضاع ولنشاط تلك الحركة التي استهدفت انتزاع أراضي الابرار والاجداد كما كانوا يصرحون ومواقف كل مملكة من ممالك الطوائف الكبرى من تلك الحركة كمملكة سرقسطة أو طليطلة ومطليوس وأشبيلية وغيرها من الممالك الأخرى .

وقد ختمنا الباب بفقرة خصصناها لحياة المعتمد العائلية والشخصية ثم وفاته واستأثرنا ثالث ملوك هذه الدولة بالباب الثالث وأطلقنا عليه العنوان التالي : الدولة العبادية في عهد المعتمد بالله . وقسمنا الى خمس فقرات ، تحدثنا في الفقرة الأولى منه عن تولي المعتمد السلطة بعد وفاة أبيه وأقوال المؤرخين فيه التي حملت طابع المدح والثناء دونما موضوعية في كثير من الاحيان ، ثم تعرضنا للموقف السياسي في اسبانيا الاسلامية النصرانية غداة تولي المعتمد السلطة ، ثم تحدثنا عن السياسة الخارجية للمعتمد وظهور أمر الوزير محمد بن عمار الاشبيلي والدور الذي اضطلع به في تلك السياسة وبعد ذلك أسهبنا في فقرة مستقلة عن خروج الوزير ابن عمار على المعتمد وما جرى بعد ذلك من احداث أدت في النهاية الى مقتله على يد المعتمد نفسه ، وخصصنا الفقرة الاخيرة من الباب عن الحياة العائلية والسمات المميزة لشخصية المعتمد بكل ما لها وما عليها .

أما الباب الرابع فقد عنوانته بالعنوان التالي : تطور الاوضاع السياسية في الاندلس ونهاية دولة بني عباد . وأحسب أنني قد بذلت جهداً شاقاً في هذا الباب ، بل أستطيع أن أقرر بأنه لسب الرسالة ومركز الثقل فيها . وقد قسمته الى أربع فقرات : الفقرة الاولى : تحدثت فيها عن اشتداد نشاط حركة الاسترداد المسيحي الذي قابله في الممالك الاسلامية ضعفاً وتمزقاً وحرماً أهلية أتاح لتلك الحركة أن تقوى وتشتد ثم ما أدى ذلك الى احداث خطيرة أهمها سقوط طليطلة ، وتحول حركة الاسترداد من حركة اسبانية محلية الى حركة صليبية نصرانية بعد تدخل البابوية وبعض الامارات الأوروبية . وفي الفقرة الثانية تحدثت عن تدور العلاقات السياسية بين الفونسو بن فردناند ملك قشتاله الذي اضطلع بالدور الرئيسي بالإضافة الى الشخصية القشتالية الأخرى وهو السيد القمبيطور . ثم بسطنا الحديث عن وفاته فعمل سقوط طليطلة عاصمة

ملكة بنى هود وواسطة عند مالك الطوائف فى الاندلس وفى العالم الاسلامى
وما أدى ذلك من خطوات سياسية مهمة ونعنى بها قضية التفكير بالاستعانة
بالمرابطين القوة الفتية التى بسطت سيطرتها على المغرب الاقصى والوسط ، والجهود
الشعبية والرسمية التى تمت بشأن ذلك وجهود المعتمد بالذات ، وما قيل حول
هذا الموضوع . ثم تعرضنا بالحدث عن اقتناع المرابطين بضرورة التدخل فى الاندلس
ومن ثم جوازهم الى الاندلس ليساندا وملك الطوائف ضد النصارى . ونحدثنا
فى فقرة خاصة عن تسارع الاحداث فى الاندلس ، وما أدى ذلك الى اللقاء المباشر
بين النصارى والمسلمين فى موقعة الزلاقة ، وأسهبنا كثيرا فى النهاية فى الحديث عن
الظروف والاسباب التى جعلت المرابطين يقررون خلع ملوك الطوائف جملة بما فيهم المعتمد
بن عباد ، وما تم بعد ذلك فعلا من خطوات لتحقيق هذا الهدف .

أما الباب الخامس فقد خصناه برمته للجانب الحضارى فى الدولة العبادية
واختارنا عنوانه على النحو التالى : أهم مظاهر التطور الحضارى فى اشبيلية فى عهد
بنى عباد . أما الفقرات فقد نسقناها على النحو التالى : الفقرة الاولى خصناها
للحديث عن نظم الحكم وفرعناها الى نقاط عدة مثل نظام الحكم الرئاسى ، وهو النظام
الذى استحدثته بعض ملوك الطوائف فى نظم الحكم ثم نظام التفويض الخلافى الذى
ميز الحياة السياسية فى اشبيلية عن مثيلاتها فى ملك الطوائف الاخرى ، وهو النظام
الذى زعم العباديون أنهم يمثلون به الخلافة الأموية والخليفة هشام المؤيد بالذات .
وفى هذه الفقرة أيضا شئ يسير عن بعض نظم الحكم فى اشبيلية كالنظم الادارية
والنظام المالى ، والنظام القضائى ثم عن الجيش والبحرية الاشبيلية .

والفقرة الثانية من الباب الخامس فرعناها الى فرعين : أهم مظاهر الحياة الاجتماعية
لدى العامة ، وأهم مظاهر الحياة الاجتماعية لدى الخاصة وذلك داخل عنوان هذه الفقرة
وهو : الحياة الاجتماعية . أما الفقرة الثالثة فقد تحدثنا فيها عن الحياة الاقتصادية فى
الدولة ، وعرضا فى هذه الفقرة للحديث عن أهم النشاط الاقتصادى كالتجارة والزراعة ثم
ألمعنا بشئ من الحديث عن النقود العبادية .

والفقرة الرابعة من الباب الخامس كانت عن الحياة العلمية والادبية فى الدولة
العبادية ، وسطنا الحديث فيها عن المجالات العلمية والادبية فى الدولة بحكم أن
الحركة العلمية والادبية هى أهم مظاهر التطور الحضارى فى اشبيلية على عهد بنى عباد .
والفقرة الأخيرة من الباب خصناها لأهم مظاهر العمران فى الدولة .

بحث في أهم مصادر ومراجع الرسالة

لعل لا أضيف جديدا إذا ما قلت بأن أول مصدر تاريخي مهم لكل باحث في الدراسات الاندلسية هو تاريخ ابن حيان المعروف : بالمقتبس من انباء اهل الاندلس . ومع ذلك فان هذا السجل التاريخي العظيم بقطعه الخمس التي عثر عليها تباعا ، وتولى نشرها وتحقيقها غير واحد من المؤرخين والباحثين العرب والاجانب ليس له صلة ببحثنا من قريب او بعيد اللهم الا نتفعا بسبيلها للخاتمة في القطعة الخامسة المتعلقة بعصر الحكم المستنصر والد الخليفة هشام المؤيد والتي حققها ونشرها عبد الرحمن على الحجى . ذلك لان الكتاب بقطعه الخمس عبارة عن مدونة تاريخية على نظام الحوليات ويتناول الفترة من بداية الفتح العربي حتى بداية الدولة العاصمية في أواخر القرن الرابع الهجرى .

على أننا قد أفدنا جل الافادة من نقولات المؤرخين القدامى الذين حفظوا في كتبهم ذلك الاثر النفيس الذي كتبه ابن حيان عن سقوط الدولة العاصمية وظهور الفتنة وقيام ممالك الطوائف ، أعنى بذلك كتاب : المتين الذي فقد للأسف ، بيد أنه من حسن الحظ أن المؤرخين القدامى نقلوا لنا في كتبهم مادة مهمة جدا من هذا الكتاب وهي التي تتعلق بعصر الطوائف ، وذلك في كتب ابن بسام ، وابن عذارى ، وابن الخطيب ، وابن الابار ، كما أن هناك كتبا أخرى غير المتين ، منها الدولة العاصمية ، والبطشة الكبرى .

أما عن اهتمامات المؤرخ ابن حيان وطريقته في الكتابة ، ووزنه العلمي وأمانته العلمية فقد كشفنا مؤنتها محمود على مكى في مقدمته الطويلة الرصينة الدقيقة . غير أن ما يجب أن أؤكد أنه ابن حيان (ت ٤٦٩ هـ) يعتبر أعظم مؤرخ اندلس أنجبته الاندلس ، لابل يعتبر من المؤرخين الأفذاذ القلائل في التاريخ الاسلامى كله قد يما وحدينا ، وهو بحق شيخ مؤرخى الاندلس يدون منازع كما أشار الى ذلك معظم المؤرخين القدامى والمحدثين ، كما يكفى أن نشير أخيرا الى أنه بالنسبة لكتاب المتين موضوع بحثنا قد عاصر الاحداث معاصرة دقيقة يوما بعد يوم حتى وفاته بثقة المؤرخ وأمانته .

أما المصدر التاريخى الآخر الذى ضاحينا في معظم أجزاء الرسالة فهو كتاب البيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب لابن عذارى المراكشى (ت ٦٩٥ هـ) وكتاب ابن عذارى عبارة عن تاريخ عام للمغرب والاندلس من الفتح العربى حتى عصر بنى (مرين) حكاه المغرب فى أعقاب سقوط الدولة الموحدية . ويقع فى ثلاثة

أجزاء ، حقق الجزء الأول والثاني منهما ونشرهما كلا من ج - س كولان وليشى بروفنسال وانفرد بروفنسال بتحقيق الجزء الثالث ، وقام احسان عباس اخيرا بتحقيق قطعة من كتاب البيان المغرب وتتعلق بمصر المرابطين ونشرها مع تعليقات موجزة عام ١٩٦٠ م .

ومن حق النزاهة التاريخية علينا أن نشير الى أنى قد استفدت استفادة عظيمة من هذا الكتاب وكان رفيقى الدائم فى معظم أبواب الرسالة بحكم ما توفر فيه من المادة التاريخية الغزيرة التى جمعها المؤرخ من الكتب التى كانت موجودة فى عصره ، والتى فقدت بعد ذلك . ومن هنا جاءت قيمة كتاب البيان المغرب . ومن أمثلة الكتب التى نقل منها : المتين لابن حيان والمقباس لابن الوراق ، وكتاب نظم الجمان لابن القطان . وابن عذارى مؤرخ ناقل وليس ناقدا ، وقد سار فى كتابه على نظام الحوليات وقد أوقفه ذلك فى عدة أخطاء تاريخية .

ويحيب كتابه أنه لم يكن يوضح نهاية نقولاته ، فتختلط تلك النقولات بكلامه هو ذاته ، وعلاوة على ذلك كان ينتزى على المادة العلمية التى ينقلها عن بعض المؤرخين بالحذف والاضافة ابتغاء للاختصار . ولم تكن له تعليقات خاصة وآراء شخصية الا فيما ندر .

بيد أنه رغم كل شئ فهو كتاب مهم للغاية بالمادة النفيسة التى جمعها المؤرخ فيه . أما المصدر الثالث الذى أفدنا منه جل الافادة ، فهو كتاب : الحلة السيرة لابن الابار القضاى . وابن الابار (ت ٦٥٨هـ) مؤرخ اندلسى عاش فى مدينة بلنسية فى عصر الموحدين . وكتابه الحلة السيرة يعتبر من أحسن كتبه على الإطلاق ، ويعتبر ولا سيما فى جزئه الثانى ذو أهمية كبيرة إذ هو رصد موجز فى بعض الأحيان وموسع مفصل فى أحياء أخرى لسير وحياة أمراء ووزراء وعلماء كان لهم شأن فى تاريخ الفترة التى يدور حولها بحثى . وهى فترة ملوك الطوائف والأخص مملكة بنى عماد والكتاب نسخة مطبوعة عن مخطوط وحيد وجده حسين مؤنس فى مكتبة الاسكوريال تحت رقم ١٦٥٤ مكتومة بخط مغربى . وقد حققه فى جزئين منفصلين . والتحقيق ذاته تحفة تاريخية وأدبية وجغرافية رائعة استفدنا منها أعظم استفادة . وكان جهده فى مقابلة الأسماء العربية للمدن والقرى الاندلسية بالأسماء الاسبانية قد يما وحديثا ، كان جهده فى ذلك شائعا لاتفيه عبارات المدح والثناء ، فجزاه الله خيرا .

أما عن المؤلف فبفض النظر عن حياته السياسية التي
عاشها على مدار نصف قرن بين العزة القمساء مرة ، وبين مرارة
السجن وذل القيد مرات أخرى . وفض النظر عن سلوكه الشخصي
الذي أفضى الى مقتله طعنا بالرماح عام ٦٥٨ هـ على يد حاكم افريقية
أبى عبدالله محمد بن أبى زكريا الحفصى . نقول بفض النظر عن ذلك ،
فان الكتاب مهم للغاية فى بحثنا لم نستغن عنه اطلاقا فى معظم أجزاء
الرسالة . فقد قسم المؤلف كتابه الى ستة قرون ، وانضوى تحت كل
قرن أشهر رجالات الاندلس والمغرب وأفريقية من خلفاء ووزراء وقواد
وعلماء . وزاد من قيمة الكتاب أنه خلا - وهبوشى نادر فى ذلك
الوقت - من السجع المتكلف الرخيص . فكان أسلوبه مشرقا قويا
رصينا ، فهو أقرب للكتب التاريخية الواقعية التى تعطى المترجم له
حقه فى غير ما إطالة ولا إسفاف أو تكلف . على أنه يلاحظ أن هذا
الاسلوب قد تغير عندما بدأ يتحدث عن سلاطين بنى حفص الذين
استوطنوا دولتهم فى افريقية ، ثم مات على أيدى يهم كما ذكرنا .

وأخيرا لا سمحنا اذا ما شئنا معرفة وزن المؤلف العلمى
الا أن نشير الى أنه يعتبر بحق كاتباً ومؤرخاً واسع الاطلاع بتاريخ
المسلمين العلمى والادبى ، وأنه كان ذا نظرة استشراقية للمستقبل ،
كما كان ناقد تاريخياً ينقل بعقل متزن ، وقلم يقظ ، رصين فى
حكمه . وكل هذه المميزات علت به فى نظر الأدباء والمؤرخين الذين
تلوا عصره . ونظر اليه الكتاب المحدثين الآن بنفس النظر .

وأخيرا فقد كان للمؤرخ كتب أخرى مثل التكملة
لكتاب الصلة ، وكتاب أعتاب الكتاب وغيرهم .

أما المصدر الرابع حسب الأهمية لبحثى فهو كتاب
الذخيرة لابن بسام (ت ٥٤٢ هـ) . وقد أطلق ابن بسام على كتابه
ذلك : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة . وهو كتاب أدبى فى
المقام الأول . وقد ألفه المؤلف للتأكيد على أن الاندلس لا تخلو من

(١) : أنظر مثلاً : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٤٨ .

رجال رفعوا آيات الأدب والثقافة ، واحتلوا مكانهم المخصص والمناسب
فى الادب العربى كله ، وهو كتاب يضاهاى به المؤلف كتاب الثعالبى :
يتيمة الدهر ، ويسير على منهجه ويترسم خطاه . والكتاب ينقسم
الى أربعة أقسام تناول فيه بالحديث الحياة الادبية فى أقاليم الاندلس
الثلاثة : الشرق والغرب والوسط . ثم قسم يتعلق بالطائفتين
على الاندلس ومن هاجر اليها من المراق والشام . وهو كتاب أدبى
كما ذكرنا أساسا الا أنه يعتمد فى بعض المرات التى تتداخل فيها
الاحداث الادبية بالتاريخية الى طرح الاحداث التاريخية باستفاضة
فى كثير من الأحيان .

أما من حيث منهجه فانه فيما يتعلق بالوقائع
التاريخية يسير سيرا تاريخيا زمنيا مطلقيا ، أما عن أسلوبه ففى
الكتاب ، فيميل الى استخدام السجع بكثرة مملة وتصنع ملحوظ مع
ولمه بالفريب والمجوج من الكلمات . وأما عن أمانته العلمية فهو
يعتبر فى الحقيقة أديبا وليس مؤرخا ولذلك فان فيما يختص بالاحداث
التي شهد لها القرن الخامس الهجرى . نراه يعتمد على كتب ابن حيان
وبالذات كتابه الثمين اعتمادا كلياً ، ثم يضيف ملاحظاته وتسجيلاته
التي تلت وفاة ابن حيان حتى وفاته هو أى ابن بسام .

ويحتبر ابن بسام كاتباً أديباً بمعنى الكلمة ، وهو
موسوعة أدبية تلتقط كل شئ وترصده فى ذاكرة قوية أفرزت ثقافة
أدبية واسعة تناقلتها ذخيرته الثمينة . وتظهر شخصيته وثقافته
الواسعة فى كل أجزاء كتابه فهو لا ينقل نقلاً حرفياً عندما يتحدث
عن كاتب أو أديب ، بل ينقل نقطة أو عبارة أو كلمة من حديث هذا الاديب
ثم يقف فجأة ويسرد أحداثاً ومواقفاً مشابهة استخدمت فيها هذه الكلمات
من قبل أدباء آخرين . ولا يمر عليه بيت من الشعر دون أن
يشرحه ويترجم لصاحبه . ونراه فى أحيان كثيرة يخرج من القناة
التي كان يصب فيها حديثه الى قنوات أخرى تعود هى الأخرى الى
قنوات أخرى تابعة .

على أن هذا لا يشتت ذهن القارئ ويجمع به بل
يميده ابن بسام الى الحديث الاصلى فى لطف ورقة ^(١) .

والمصدر الخامس حسب أهميته لبحثنا هو مذكرات
الامير عبد الله بن زيرى ، أو كتاب التبيان . وأهمية الكتاب جاء من كونه
عبارة عن مشاهدات واسهامات وملاحظات ورصد وتسجيلات تكاد تكون
يومية لسير الحوادث التى شهدتها الاندلس فى القرن الخامس الهجرى .
وأهمية الكتاب فوق هذا فى أن مؤلفه أحد ملوك الطوائف المهمين آنذاك .
والذى مارس دورا مهما فى سير الحوادث آنذاك . وقد ألفه المؤلف
بعد خلعته ونفيه عن ملكه وتوجهه الى مدينة أغمات القرية من مراكش .
وذلك فى عهد المرابطين وفى عهد يوسف بن تاشفين الذى قضى على
استقلال ممالك الطوائف . وجاء هذا المصنف عبارة عن مذكرات كتبها
المؤلف فى ساعات فراغه الكبير فى المنفى ، تطرق فيه الى معظم
الحوادث التى دارت فى ملكه وغيرها من ممالك الطوائف حتى تدخل
المرابطين ، فموقعة الزلاقة ، فالاحداث التى أعقبتها حتى قضاء
يوسف على استقلال كل ممالك الطوائف .

هذه هى أهمية الكتاب ، أما المنهج ، أما الأسلوب ،
أما الطريقة ، فالمؤلف لم يكن مطبوعا على أن يكون مؤرخا أو أديبا
ولذلك جاء كتابه مفككا ليس فيه تركيب منطقى أو حتى ذوقى ،
أما أسلوبه فركيك للغاية ، استخدم المؤلف فيه كثيرا من الكلمات
العامة الاندلسية والبربرية .

أما عن أمانته العلمية ، فلم يترك المؤلف موطننا يتعلق
بشخصه أو أسرته أو جماعته البربر دون أن يؤكد على وجهة نظره
ونظرهم ، وإن كان قد حاول فى كثير من الاحيان أن ينفى عن نفسه التحيز
والأثرة .

(١) : انظر للدلالة على ذلك : القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ١١٣ -

أما المصدر الرئيسى السادس لبحثنا هذا فهو كتاب
الحلل البوشية فى ذكر الاخبار المراكشية لمؤلف مجهول الاسم ،
اعتنى بنشره وتصحيحه ي . س . علوش . مطبوعات معهد العلوم
العليا المغربية ، ويعتقد أن المؤلف عاش فى القرن الثامن الهجرى .

وهذا الكتاب ذو أهمية بالغة للبحث وخاصة فيما يتعلق
بجواز يوسف بن تاشفين الى الأندلس . ولقد تناول المؤلف موضوع
جواز يوسف المتكرر الى الأندلس فى شئ واسع ومفصل وتقصى كبير
ثم تتبع ظهور الموحدين ، وقضاءهم على المرابطين . وقد
استفدت جل الاستفادة منه فى تتبع أخبار المرابطين فى الأندلس .
والكتاب لا غنى عنه لكل باحث عن شؤون المغرب والأندلس فى عهدي
المرابطين والموحدين ، رغم ما يفهم من عنوانه من أنه خاص بذكر
مراكش وأخبارها وتخطيطها . . . الخ .

واسلوب المؤلف سهل وأصح لا غموض فيه ،
يسير فيه المؤلف على طريقة التدبير أى الاحداث المترتبة على بعضها .

وقد اختلف فى معرفة أو تحديد اسم مؤلفه ، فقميل
أن مؤلفه أديب مالى اسمه أبو عبد الله بن أبى العالى بن السطاك
العامرى . غير أنه ليس هناك دليل على ذلك . وقد ظهرت فى تونس
طبعة لهذا الكتاب نشرها سنة ١٩١٠ م البشير الفيزنى تحمىل
خطأ اسم لسان الدين بن الخطيب كمؤلف لهذا الكتاب ، ثم صدر
ضمن مطبوعات معهد الدراسات العليا المغربية بالرباط طبعة
حدیثة سنة ١٩٣٦ م ، وكان الناشر لها الأستاذ ي . س . علوش .

هذه هى أهم المصادر التى صاحبنا بحثنا هذا .
وهناك مصادر تاريخية أخرى مهمة لم تخل رسالتى من فائدتها لكتاب
عبد الواحد المراكشى (ت ٦٤٧ هـ) وهو كتاب يتناول تاريخ دولته
الموحدين ، ولكنه على سبيل الاستطراد قدم لكتابته بقدمته موجزة
فى تاريخ المغرب والأندلس منذ الفتح العربى . والكتاب يعتبر ردفا
بالنسبة للبحث بمعنى أنه ليس رئيسيا لبحث ، ولكنه لا يمكن

الاستغناء عنه ، وهو في أجزاءه الأولى يهتم بالحديث عن الأندلس منذ الفتح حتى بداية دولة الموحدين . وفي هذا الجزء يبدو المؤلف ناقلاً ملخصاً دونما تحقيق وتمحيص إلا فيما ندر ، وأسلوبه سهل واضح خلا من السجع المتكلف والمبارات الغامضة الغريبة . أما فيما يتعلق بالتاريخ لدولة الموحدين فقد أسهب المؤلف في ذكر دولتهم انطلاقاً من كونه شاهد عيان وكمقتبع للأحداث وذى صلة شخصية بأمراء الموحدين . وقد حقق الكتاب ونشره محمد سعيد العريان .

ومن المصادر التاريخية الرديفة الأخرى ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب للمقرئ (ت ١٠٤١ هـ - ١٦٣١ م) ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . وهو عبارة عن موسوعة تاريخية وأدبية واجتماعية للمجتمع الأندلسي منذ الفتح وحتى نهاية الوجود الإسلامي في الأندلس . ولا يخلو من حادثة تاريخية مهمة ، أو نبذة جغرافية ، أو طريقة مستملحة ، أو قصة طريفة خالف فيه المؤلف ما رسمه لنفسه في العنوان فجاء حديثه عن الوزير الأندلسي ابن الخطيب كشئ مجتزأ من التاريخ الأندلسي ، أي بمعنى آخر جاء كفرع من فروع اهتماماته وليس اهتماماً أصيلاً كما رسم لنفسه . ولا يمكن البتة لأي باحث في الدراسات الأندلسية من العودة إليه والنقل منه .

ومن المصادر الأخرى التي أنارت لنا الطريق في بحثنا كتاب ابن الكردبوس (عاش في أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) : الاكتفاء في أخبار الخلفاء . وقد حققه أحمد مختار العبادي ونشره في مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد الثالث عشر ، ١٩٦٥/١٩٦٦ م . وهو كتاب تاريخي نفيس ساير فيه المؤلف منهج المؤرخين القدامى في التسلسل التاريخي الزمني للأحداث ، فقد اهتم بالاحداث السياسية بالأندلس منذ الفتح العربي حتى عصر الموحدين . وهو كتاب لا غنى عنه لأي باحث في الدراسات الأندلسية . وقد حققه كما ذكرنا أحمد مختار العبادي تحقيقاً تاريخياً دقيقاً . واستفدنا نحن من ذلك

التحقيق فى تحقيقنا للأعلام والمدن والقرى وغير ذلك كثيرا .

ومن المصادر المهمة فى التاريخ العام : كتاب مشرقى
هو الكامل لابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) ويكاد ابن الأثير يكون من قلائل
المؤرخين المشاركة الذى اهتم بالاندلس وتاريخها . وليس خافيا أنه
كان يسير على نظام الحوليات ، وكان يمرض فى كثير من السنوات الى
الاحداث المهمة التى شهدتها الاندلس آنذاك . ويجب أن نلاحظ
أنه كان ينقل مادته التاريخية نقلا حرفيا من كتب المغاربة والاندلسيين
حسبما كان يصل الى سمعه من أخبار المدونتين .

وفى ما يتعلق بكتب الأدب ، فضلا عن كتاب ابن بسام
السالف الذكر فقد أفدنا من كتابي : قلائد المقيان ، ومطمح الأنفس
ومسرح التأنس للفتح ابن خاقان الاشبيلي (ت ٥٢٨ هـ أو ٥٢٩ هـ
على الأرجح) . وهما مصنفان مهمان لرصد الحياة الادبية والعلمية
والاجتماعية فى المجتمع الاندلسي ، ويمكن اعتبارهما من كتب التراجم
والطبقات ترجم فيهما المؤلف لمديد من الرؤساء والوزراء والقضاة والقواد
فى الاندلس . ويهتم المؤلف بصفة أساسية بإيراد آثار
مترجميه النثرية والشعرية فقط . ولذلك جاء الكتابان خلوا من
الناحية التاريخية والتسجيلية لتسلسل الاحداث وتتبع المواقع .
الا ما استطعنا استخلاصه من بعض الاشارات الخاطفة . والمصنفان
كتبيا بأسلوب لحنه السجع والجناس ، وسداه المدح والمليح حتى
الاغراق أو الحط حتى الاقذاع رصف فيهما المؤلف مكتونات حفظه
للفريب من الكلام رصفا .

ولا يمكن بأى حال من الاحوال مقارنة ابن خاقان بابن بسام
الذى يعتبر ناقدا متينا ومحللا أدبيا لامعا .

ومن كتب التراجم والطبقات التى عدنا لها : جذوة المقتبس
فى ذكر ولاية الاندلس للحميدى (ت ٤٨٨ هـ) ، ثم كتاب بغية المتيسر
فى تاريخ رجال أهل الاندلس للضبى (ت ٥٩٩ هـ) . ثم كتاب الصلة
لابن بشكوال (ت ٥٢٨ هـ) . وهى كتب تشكل حلقة فى سلسلة كتب

التراجم والطبقات التى أخذت طابعاً يكاد يكون مثابها ابتداءً من كتاب أبى الوليد الفرضى (ت ٤٠٣ هـ) : تاريخ علماء الأندلس ، مروراً بالحميدى فى جذوة المقتبس والضبى فى بنية الملمس ، وانتهاءً بكتاب التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار ، وكتاب الموصول والصلة لعبد الملك المراكشى (ت ٧٠٣ هـ) ، وكتاب المرقبة العليا ^{فمن يستحق} القضاء والفتيا للنباهى (عاش فى القرن التاسع الهجرى) .

وتحتوى هذه الكتب على معلومات مقتضبة لا بأس بها عن تراجم واسعة لرجال الاندلس فى شتى مناحى اهتمامهم التى درجوا عليها ولا سيما الدينية منها .

أما كتب الجغرافية الاسلامية فقد اعتمدنا على كتب الجغرافيا الاندلسية المحضة لكتاب الحميرى (ت أواخر القرن الثامن الهجرى) : صفة جزيرة الاندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الاقطار ، نشر وتصحيح وتعليق أ . ليفى بروفنسال . وهو كتاب جغرافى تناول فيه المؤلف مدن وقرى الاندلس بالوصف والتعليق حسب الترتيب الابجدي ، على أنه من المهم أن نشير هنا الى أن استفادتنا من هذا الكتاب إنما جاءت من المادة التاريخية التى احتواها وتضمنها ، ذلك لأن المؤلف عندما بلغ فى حديثه لوصف مكان موقعة الزلاقة خالف منهجه فى الحديث عن النواحي الجغرافية وقدّم لنا مادة تاريخية غزيرة عن الاحداث التى سبقت وصاحبت تلك موقعة الزلاقة ، والفيد حثاً أنه قد نقل معلوماته الواقرة تلك عن كتب أصبحت فى حكم المفقود . ومن هنا كان للمادة التاريخية التى أوردها أهميتها الفائقة .

ومن كتب الجغرافيا الاندلسية اعتمدنا على كتاب البكرى (ت ٤٨٧ هـ) : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك . وقد حققه عبد الرحمن على الحجى . وأود أن أشير الى أن معظم تحقیقات المدن والقرى والانهار ، وكذلك بعض تحقیقات الاعلام إنما استمدتها من تحقیقات التى حقق بها الباحثون المحدثون من أمثال حسين مؤنس ، وأحمد مختار العبادى ، وعبد الرحمن الحجى الكتب التى حققوها ونشروها سالفة الذكر .

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

أما المراجع العربية والمصرية فهي في الواقع كثيرة أضأت ولا شك الطريق أمام الباحثين لاسيما وانها قد جاءت معتمدة على مصادر ووثائق أندلسية ومصرية عشر عليها على فترات متتالية في الثلاثين سنة الاخيرة من هذا القرن . ومن هنا جاءت معظم تلك المراجع دقيقة موضوعية ، ومفهوم ورؤية شاملة غالبا . ولقد استفدت استفادة كبيرة من بعض تلك المراجع العربية والمصرية ، وكان اعتمادي على بعضها شديدا أساسيا في توضيح ما أشكل وصعب المنور عليه في المصادر القديمة ، أو في الاستفادة مما كتب عن الممالك النصرانية في إسبانيا وغيرها .

وتأتى موسوعة محمد عبد الله عنان (دولة الاسلام في الاندلس) على رأس تلك المراجع العربية . ولا أكتف القارئ الحقيقة في أن كتب محمد عبد الله عنان قد يسرت لى مهمة البحث . وكنت في كثير من المواضع عالية عليه وخاصة في كتابه : دول الطوائف . وهو كما يدل عليه عنوانه يختص بالحدث عن كل دولة من دول الطوائف . إذ بحث محمد عبد الله عنان في كتابه هذا معلومات مهمة عن نشوء ممالك الطوائف ، ونشوء حركة الاسترداد ، وتحدث في كتابه هذا عن التدخل المرابطي وموقعة الزلاقة . . . الخ . وكانت استفادتي من بقية مصنفاته الأخرى ككتاب : الخلافة الأموية والدولة العباسية ، وتراجم اسلامية ، ومواقف حاسمة ، والآثار الاندلسية الباقية وغيرها أقول كانت استفادتي من تلك الكتب لاحقة لكتاب دول الطوائف .

على أن مما يعيب كتب عنان هو أن المؤلف أخذ على نفسه كتابة تاريخ الاندلس منذ الفتح حتى زوال الوجود الاسلامي . ومن هنا اضطر في مرات عديدة الى ضغط الوقائع والاحداث ضغطا أثر فيه البتر والاختصار . ولحققت موسوعته العيوب التي تصاحب كتب التاريخ العام عادة .

والمراجع الأخرى المهمة التي صاحبت بحثي وواكبته حتى النهاية مجموعة صلاح خالص المتخصصة في استطلاع أحوال ملكية

بنى عباد من الناحية الادبية والعلمية والتاريخية ، فقد كتب صلاح
خالص ثلاثة كتب هى : اشبيلية فى القرن الخامس الهجرى ، دراسة
سياسية وحضارية لنشوء دولة بنى عباد باشبيلية وتطور الحياة
الادبية فيها ٤١٤ هـ - ٤٨٤ هـ . والكتاب الثانى بعنوان : محمد بن عمار
الاندلسى ، حياته وشعره . والكتاب الثالث بعنوان : المعتمد بن عباد
الاشبيللى ، دراسة ادبية وتاريخية .

وكلها كتب أفدت منها حقا ، وحتى وان كانت تركز
على النواحي الادبية فى الدولة ، الا أنى قد استطعت استخلاص
المديد من النقاط . أما فيما يتعلق بالناحية الادبية ، فكان اعتمادى
عليها رئيسيا . والحق أن المؤلف عالج الحياة الادبية فى اشبيلية
من خلال كتبه الثلاثة معالجة موضوعية أدبية شائقة على عكس
معالجته للنواحي التاريخية التى جانبت فى بعضها جادة الصواب .
وقد أشرنا فى تضاعيف الرسالة لتلك المأخذ . كما أن من الملاحظ
أن المؤلف يبدى تماطفا ملحوظا مع المعتمد بن عباد ويتفاضى عن
سيئاته ، كما أشرنا فى ثنايا الرسالة .

والمرجع المهم الرئيسى الآخر فى بحثنا هو كتاب
على أدهم : المعتمد بن عباد . وهو كتاب صغير الحجم جم الفائدة ،
الا أنه يصنف فى قائمة الكتب الادبية . ومع هذا فقد خلصنا منه
بنقاط عديدة لم يقح لنا العشور عليها فى مظائنها الأصلية .

وأفادتنا كتاب خالد الصوفى : تاريخ العرب فى أسبانيا
(جمهورية بنى جهور) فى توضيح بعض الأحداث وان لم يفتنا أن
نسجل ملاحظتنا على بعض النقاط كما سيلاحظه القارئ فى ثنايا الرسالة .

ومن المراجع المهمة التى اعتمدنا عليها فى فهم أحداث
الاندلس بعد تدخل المرابطين كتاب حسن محمود : قيام دولة
المرابطين . وهو كما يدل عليه عنوانه مختصر بقيام دولة المرابطين ،
وقد شمل بالضرورة التدخل المرابطى فى الاندلس وجواز يوسف المتكرر
لها حتى اقصائه لملوك الطوائف جملة . وهو كتاب تاريخى مهم مدغم

بالمصادر الأصلية ، والمراجع العربية والأوربية ذات الصلة بمادته العلمية .
وكانت استفادتنا من هذا الكتاب كبيرة في شرح أبعاد التدخل
المربط في الاندلس وغير ذلك .

وأفدت من كتاب عبد الحق حموش : ابن تاشفين ،
وخاصة فيما يتعلق بشرح الدوافع العسكرية التي حتمت على الفريقين
المقاتلين في الاندلس آنذاك : المسلمين والنصارى اختيار بطحاء
الزلاقة مكانا مناسباً للمعركة ، كما أفدت من تحليله العسكري لقوات
الفريقين المقاتلين وخططهما الحربية في القتال مما عزز شك وقرر
في ذهني من أن المؤلف ربما كان رجلاً عسكرياً .

وهناك مراجع أخرى تأتي في المرتبة التالية من الأهمية
بالنسبة لموضوع رسالتي ، وأهمها كتاب : أحمد مختار العبادي : في تاريخ
المغرب والاندلس ، وكتاب حسين مؤنس : شيوخ العصر ، وكتاب أحمد
هيكل : الأدب الاندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة ، وكتاب
مصطفى الشكعة : الادب الاندلسي موضوعاته وفنونه ، وكتاب
محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ، وكتاب احسان عباس :
تاريخ الادب الاندلسي ، الى غير ذلك .

وأفدت كثيراً من الرسائل الجامعية التي أعدت لنيل
درجة الماجستير في فهم طبيعة تركيب المجتمع الاندلسي ، كرسالة
عبادة كحيلة : المولدون في التاريخ الاندلسي منذ الفتح العربي حتى
نهاية عصر الامارة ، المقدمة الى كلية الاداب جامعة القاهرة سنة ١٩٧٨ م .
كما استفدت من رسالة رجب محمد عبد الحليم : دولة بني حمود في مالقة
بالاندلس ، وخاصة أنها رسالة تختص بشرح وقائع قيام الأسرة العلوية
في قلب الخلافة الأموية . وهذه الرسالة مقدمة الى كلية الاداب جامعة
القاهرة سنة ١٩٧٦ م . وأفدت أيضاً من رسالة محمد بركات البيهلي
في فهم الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الدولة العبادية المقدمة الى
كلية الاداب جامعة القاهرة سنة ١٩٧٨ م . وأخيراً استفدت من رسالة
هشام سليم أبو رميلة : رسالة عن نظم الحكم في الاندلس في عصر الخلافة المقدمة

أيضا إلى كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٧٥ م .

أما بالنسبة للكتب المعربة فعلى رأسها كتب ليفي بروفنسال . وأهمهم هذه الكتب لبخشي : الاسلام في المغرب والاندلس ، وقد استندت منه فيما يتعلق بقضية زائدة (ابنة المتمد) التي تقول الروايات النصرانية أن المتمد قد مها لافونسو السادس ملك قشتالة ليساعده في حربه ضد منافيه . فقد توصل المستشرق الفرنسي الى خلاصة تاريخية منطقية تنفي نفيا قاطعا حدوث ذلك ، كما استندت أيضا من كتاب ليفي بروفنسال هذا فيما يتعلق بسقوط طليطلة والتاريخ الصحيح لذلك السقوط .

وأكدت من كتاب راينهارد دوزي : ملوك الطوائف ، وهذا الكتاب هو الجزء الرابع المعرب والمترجم بقلم كامل كيلاني عن كتابه : تاريخ مسلمي اسبانيا SPANISH ISLAM . ويتعلق بأحوال معظم ممالك الطوائف . على أنه يجب ملاحظة أن هذا الكتاب فيه شيء من المغالطات والتفسيرات غير المقبولة كما أشرنا الى ذلك في الرسالة .

ومن الكتب المعربة الأخرى التي أفادتنا في فهم الحياة السياسية في اسبانيا المسلمة والنصرانية معا كتاب يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، تحقيق محمد عبد الله عنان . أما بالنسبة للمراجع الأجنبية فقد استفدنا من كتاب :

— J. B. BURY, M.A., F.B.A. : THE CAMBRIDGE MEDIEVAL HISTORY. VOLUME VI, CAMBRIDGE 1929.

— JAN READ : THE MOORS IN SPAIN AND PORTUGAL , كتاب : LONDON. 1974 .

— ANGUS MACKAY AND MUHAMMAD BENABOUD : ومن الدوريات الأجنبية اعتمدنا على : AL FONSO VI OF LEON AND CASTILE., AL IMBRATUR DHU -L- MILLATAYN ' in BHS, LVI, 1979, UNIVERSITY OF EDINBURGH .

— MUHAMMAD BENABOUD Y ANGUS MACKAY : THE AUTHENTICITY OF ALFONSO VI's LETTER TO YUSUF B. TASUFIN, in AL-ANDALUS, VOL, XLIII, 1978, FASC,I.

أما الدوريات العربية والمصرية ، فقد استفدت عظيم الاستفادة من البحث الذى نشره حسين مؤنس فى المجلة التاريخية المصرية ، القاهرة ، المجلد الثالث ، العدد الاول ، ١٩٥٠ م ، بعنوان : السيد القميطور وعلاقته بالمسلمين ، واستطعت من خلال هذا المقال فهم طبيعة هذه الشخصية القشتالية النصرانية التى علت بها الأساطير والملاحم الاسبانية الى مرتبة القديسين رغم ما أثبتته البحث العلمى من تفنيد لذلك الادعاء .

واستفدت أيضا من البحوث التى كتبت فى مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمديره ، كالبحث الذى نشره حسين مؤنس أيضا بعنوان : سبع وثائق جديدة عن عصر المرابطين ، وكذلك البحث الذى كتبه محمود على مكى : وثائق تاريخية جديدة عن دولة المرابطين ، وذلك فى المجلدات : الثانى ، والسابع والثامن ، سنة ١٩٥٤ ، ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ م على التوالي .

كما استفدت أيضا من الابحاث التى كتبت فى مجلة تطوان المغربية مثل البحث الذى نشره احمد مختار العبادى بعنوان : دراسة حول كتاب الحلال الموشية ، وكذلك البحث الذى كتبه محمد الفاسى بعنوان : المؤرخان ابن أبى زرع وابن عبد الحليم . وذلك فى العدد الخامس ، سنة ١٩٦٠ م .

كما استفدت من البحث الذى كتبه مصطفى القصرى فى مجلة مركز البحث العلمى المغربى بعنوان : الشعر فى خدمة الحقيقة والتاريخ ، العدد الاول ، السنة ١٩٣٤ م . وغير ذلك .

بقى أخيرا أن أتقدم بالشكر الجزيل الخالص لأستاذى الدكتور أحمد السيد دراج ، الذى ما كنت لأضع قدمى فى مضمار الدراسات العليا المتخصصة لولا دعمه وتشجيعه وتأثيره . ومن حق النزاهة والأمانة على أن أشير الى أنه لم يأل جهدا فى مساعدتى ولم يبخل على بالمساعدة والملاحظة والمتابعة فيما عظم ودق وفيما كثر وقل . فله خاصة ولجميع من مدّ يد العون لى الشكر والثناء والمرفان بالجميل .

والله أسأل أن يوفقنا الى سواء السبيل .

*

((تمهيد))

حالة الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية

- سقوط الدولة الأموية .
- قيام ممالك الطوائف وأشهرها .

سقوط الدولة الأموية :-

تأسست الدولة الأموية في الأندلس عام ١٢٨هـ / ٧٥٦ م
عندما فرّ أحد أبناء الأمويين من الشام ، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام
بن عبد الملك بن مروان إلى المغرب فالاندلس بعد سقوط الخلافة الأموية على يد
العباسيين عام ١٣٢هـ / ٧٥٠ م ، وقد ظل يحكمها حتى وفاته . ثم تعاقب على
حكم هذه الدولة أو الإمارة الأموية ابتاءه وأحفاده : هشام ، الحكم ،
عبد الرحمن (الأوسط) ، ومحمد بن عبد الرحمن ، والمنذر بن محمد ،
وعبد الله بن محمد حتى عام ٣٠٠هـ / ٩١٢ م .

ثم تولى الإمارة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن
عبد الرحمن ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن (الداخل) . وذلك في عام ٣٠٠هـ
ثم أعلن الخلافة بعد ذلك في عام ٣١٦هـ / ٩٢٨ م ، وتلقب بالناصر . وقد ظل
يحكم الدولة الأموية حتى وفاته عام ٣٥٠هـ / ٩٦١ م بعد أن ارتقى بها إلى درجة
بلغت فيها الأندلس أوج قوة وحضارة وازدهارا ، حتى لقد أطلق على عصره
العصر الذهبي دلالة على ذلك التقدم (١)

(١) : عن الدولة الأموية في الأندلس منذ عهد عبد الرحمن الداخل وحتى عهد
عبد الرحمن الناصر انظر ،
ابن حيان : قطعة من كتاب المقتبس من انباء اهل الأندلس ، تحقيق وتقديم
وتعليق محمود على مكى . — ابن غزاري : البيان المغرب في اخبار
الأندلس والمغرب ، ٣ أجزاء ، ج ٢ كاملا تحقيق ج . س كولان ،
ول . ليفي بروفنسال . — ابن الأبار : الحلة السيرة ، جزآن تحقيق
وتعليق حسين مؤنس ، ط ١ ، ج ١ ، ص ٣٥ — ٤٣ ، وص ١١٣ — ١٣١
وص ١٩٧ — ٢٠٠ . — ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ،
٧ مجلدات ، المجلد الرابع ، القسم الاول ، ص ٢٥٢ — ٣١٢ . — ابن الأثير :
الكمال في التاريخ تحقيق نخبة من العلماء ، ٩ أجزاء ، ج ٥ — ٩ ، في صفحات
متفرقة . — المقرئ : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها
لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ١ ، ج ١ ،
ص ٣٠٦ — ٤٠٠ . — محمد عبد الله غان : دولة الاسلام في الأندلس : من الفتح
إلى بداية عهد الناصر ، العصر الاول — القسم الاول ، ط ٤ ، — والخلافة
الأموية والدولة العاصرية ، العصر الاول — القسم الثاني ، ط ٤ ، ص ٣٧٢ —
٣٨٢ .

وهناك مؤلفات أخرى تناولت نشأة وحياة الدولة الأموية ، وقد رأينا أن نكتفي
بهذا القدر فقط .

وبعد وفاة الخليفة عبدالرحمن الناصر ، خلفه في الحكم ابنه وولى عهده الحكم المستنصر ، فقام بالأمر خير قيام حتى توفى عام ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م . ثم خلفه ابنه القاصر هشام الذي ولاه عهده قبل موته ، وهو لما يبلغ الحادية عشرة من عمره بعد ، وتلقب بالمؤيد بالله .

غير أن السلطة الفعلية أصبحت بيد محمد بن ابي طاهر المعافى . وهو رجل من عامة الناس كتب له ان يتصل بمحض الصدقة بالبلاط الأموى في عهد الخليفة الحكم المستنصر . ثم قاده ذكاؤه وأطماعه وطموحاته الى تأليف القلوب حوله ، فلم يلبث كثيرا حتى سطع نجمه وعلا شأنه داخل القصر وخارجه . وقد غدا غداة وفاة الحكم ثانيا أبرز شخصيتين قويتين في الدولة الأموية بعد جعفر المصحفى . واستطاع بعد لآى أن يتخلص من خصومه ومنافسيه شيئا فشيئا حتى تمكن من الاستئثار بالسلطان كله داخل دولة الخليفة القاصر هشام المؤيد ، فاستبد بالأمر دونه حقيقا له على السلطة الاسمية فقط ، وقد تلقب بالمنصور بالله . واستمر يحكم الدولة حتى توفى عام ٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م بعد أن وضع نواة الدولة التى عرفت فى التاريخ الاندلسى بالدولة العامرية نسبة له ، فخلفه ابنه عبد الملك الذى قام بالأمر خير قيام حتى وفاته عام ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م (١) .

(١) : عن الدولة الاموية فى الاندلس فى عهد الحكم المستنصر وابنه هشام ، ثم الدولة العامرية انظر :

- ابن حيان : قطعة من المقتبس فى انباء اهل الاندلس ، وتتناول السنوات الاخيرة من عصر الحكم المستنصر . نشر عبدالرحمن على الحجى .
- ابن غدارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٥٦ - آخر الكتاب ، وج ٣ ، ص ١ - ٣٧ .
- ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الاول - المجلد الاول ، عنى بطبعه وتصحيحه ونشره لجنة من طلبة واساتذة جامعة القاهرة ، قدم له طه حسين .
- ابن الابار : الجلة السيرة ، ج ١ ، ص ٢٠٠ - ٢٠٥ ، و ص ٢٦٨ - ٢٧٧ .
- الحميدى : جذوة المقتبس فى ذكر ولاية الاندلس وقسمان ، القسم الاول ص ١٣ - ١٨ ، و ص ٧٨ - ٧٩ .
- عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد الصريان ، ص ٥٩ - ٨٥ .
- ابن الخطيب : أعلام الاعلام فىمن بويج قبل الاحتلال من ملوك الاسلام (تاريخ اسبانيا الاسلامية) تحقيق وتعليق . ليفى بروفنسال ، ص ٤١ - ٨٣ .
- المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ص ٣٨٠ - ٤٠٠ . وغير ذلك من المؤلفات الأخرى .

ونستطيع أن نحدد بداية سقوط الدولة الاموية وتفكك وحدتها بالفترة التي خلف فيها عبدالرحمن بن المنصور بن أبى عامر أخاه الحاجب عبدالملك الملقب بالمظفر . فلم يك عبدالرحمن فى حقيقة الأمر رجل الموقف أو أهلا لتولى الحكم ، اذ افتتح حكمه باكرهه الخليفة هشام على أن يوليه عهده ويسند له الخلافة من بعده . وهو أمر خطير لم يقدم عليه أخوه ولا أبوه من قبله ، الأمر الذى أثار عليه نفوس العامة والخاصة من بنى أمية الذين عظم لديهم أن يخرج ارثهم من بين أيديهم .

وقد تصادف أن تلاقى حقد بنى أمية مع حقد والدته أخيه عبدالملك التى وقر عندها انه قد سمم ابنها ، فلوحت لبنى أمية عن رغبتها فى الانتقام من عبدالرحمن ، فدلوها على محمد بن هشام بن عبدالجبار بن الناصر . فعرضت عليه المساعدة اذا ما أثار على عبدالرحمن ، ولأقضى هذا المرض هوى فى نفس محمد ليثار لأبيه قتيل بنى عامر من جهة ، وليثار لحق وتراث بنى أبيه المروانية من جهة ثانية الذى سلبهم اياه آل المنصور^(١) . فعمل على الثورة بعد أن جمع حوله قلوب بنى أمية الموتورين ، كما جند الكثير من المرتزقة من البربر والصقالبة وعامة أهل قرطبة .

(١) : ابن غدارى : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٧ . — ابن بسام :

المصدر السابق ، القسم الاول — المجلد الاول ، ص ٥٩ . —

ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ص ٩٣ — ٩٤ .

(٢) : عن الصقالبة أنظر فيما بعد ، ج ٣ ، ص ٤٨ .

واستطاع محمد بن هشام بعد خطوب كثيرة أن يستولى على قرطبة
فى نفس العام الذى تولى فيه عبد الرحمن الحُكم ، وهو عام ٣٩٩ هـ ، مستغلا
خروج عبد الرحمن الى جليقية غازيا ^(١) . وقد عمل فور دخوله القصر على استدعاء
ال خليفة المحجور عليه هشام وتقريره لموافقته على اخراج الأمر من آل بيته الى
ذلك الدعى ، ثم طلب منه خلع نفسه والاعتراف به هو خليفة . وغدا محمد
بن هشام من يومها الخليفة الشرعى ، وتلقب بالمهدى ^(٢) .

أما عبد الرحمن فما أن بلغت تلك الاخبار المزعجة حتى انفض من
حواله الانصار ، ولم يصل الى أبواب قرطبة الا بعدد ضئيل جدا من الانصار
والجنود . وأخيرا قبض عليه وذبح ذبح النعاج ، وحمل رأسه الى المهدى .
وانتهى بذلك حكم آل بنى عامر الذى أقامه المنصور بالكـ والجد ،
والحيلـ والجبروت ^(٣) . وقد عمل المهدى بعد أن تخلص من العامرين على أن يوتـ
تمثيلية طريفة زعم فيها أن الخليفة المعزول هشام بن الحكم توفى ، وأثبت ذلك فى
محضر رسمى عقد فى القصر ^(٤) .

بيد أن الخليفة المهدى لم يكن رجل تلك المرحلة المناسب ، فهو
وان استطاع أن يقضى على نفوذ بنى عامر بتلك السهولة ، الا أنه لم يكن يملك بعد
هذا رؤية سياسية أو خطة مدروسة . فكل ما كان يملكه هو التصميم على القضاء على
آل بنى عامر ، وعند ما تمكن من ذلك تبين أنه لم يكن رجل تلك المرحلة الخطيرة .
واتضح ذلك بسرعة عندما بدأ يتخبط فى اخطاء سياسية متعددة : كعداوته المكشوفة
للبربر الذين ساعدوه ، وخلعه لولى عهده سليمان بن هشام ، وتمثيلية
موت الخليفة هشام ٠٠٠ الخ ^(٥) .

- (١) : جليقية منطقة فى الاندلس (تمتد من نهر دويو Duero جنوبا حتى الساحل
الشمالى لشبه الجزيرة الايبيرية ، ومن الساحل الغربى لها حتى قشتاله
أنظر ، ابو عبيد البكرى : المسالك والممالك ^{Castille (Castilla)} (جغرافية الاندلس واوروبا)
تحقيق عبد الرحمن على الحجى ، حاشية رقم ١ ص ٧١ .
- (٢) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٥٩ - ٦٠ . — عبد الواحد المراكشى :
المعجب ، ص ٨٦ - ٨٧ .
- (٣) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٧١ - ٧٣ .
- (٤) : ابن عذارى : نفس المصدر والجزء ، ص ٧٧ - ٧٨ .
- (٥) : ابن عذارى : نفس المصدر والجزء ، ص ٧٥ - ٨٣ .

كل هذه الأمور جعلت النفوس تغلى حقدا عليه وتعمل على الثورة ضده ، فثار والد ولي العهد المخلوع سليمان ، الا أنه قتل هو وابنه وهزم البربر . وقام بعد ذلك ابن أخيه أى ابن أخ والد ولي العهد ، وهو سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر ودعا لنفسه وتلقب بالمستعين . واستعان بالبربر الحاقدين على المهدي ، وبالنصارى . وسنتبين بعدئذ خطورة الاستعانة بهذين المنصرين على الدولة الأموية ، بل وعلى الوجود الاسلامي في الأندلس .

وكان من جراء ذلك أن وقعت معركة " قنتش " في ربيع الأول ٤٠٠ هـ / نوفمبر ١٠٠٩ م . وقتل فيها من أهل قرطبة نحو عشرين ألف رجل ، ودخل سليمان على إثرها قرطبة بعدما فر منها المهدي الذي لحق بمدينة طليطلة التي كانت لا تزال تقع تحت طاعته . ومن هناك اتصل بالنصارى طالبا مساعدتهم ، وقادهم نحو قرطبة حيث دارت بينه وبين سليمان معركة " عقبة البقر " في ١٦ شوال ٤٠٠ هـ / ٢ يونيو ١٠١٠ م . وهزم فيها سليمان وجنوده . (١)

وعاد المهدي ثانية لقرطبة لتجدد بيعته ، غير أن البربر استطاعوا بعد ذلك بقليل خذلانه وهزيمته في مكان يدعى " وادي آره " فانصرف مخذولا الى قرطبة . وأظهر هشام المؤيد مدعيا أنه قائم دونه ، ولكن الأمر قوبل بالازدراء والاستهجان من البربر وغيرهم . فلم تفده تلك اللعبة ، وما لبث أن قتل على يد واضح الفتى العامري أحد فتيان الخليفة هشام في ذي الحجة ٤٠٠ هـ / يولييه ١٠١٠ م . (٢)

(١) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ٧٩ - ٩٥ .

(٢) : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٩٥ - ١٠٠ .

وعادات الخلافة مرة أخرى لهشام الذي تجددت بيئته ، إلا أن
البربر وسليمان رفضوا هذا الأمر ، وادعى المستعين أنه أحق بالخلافة
من هشام وحدثت وقتها خطوب كثيرة من غداة مقتل المهدي حتى دخول
المستعين قرطبة في شوال سنة ٤٠٣هـ / مايو ١٠١٣ م منها : مقتل واضح
الفتى المدبر الحقيقي لدولة هشام الثانية ، ومنها تنازل المؤيد عن
كثير من الحصون لأمير قشتالة سانشو غارسيا لقاء مساعدته له ضد
البربر ، ومنها المراسلات الفاشلة بين هشام وسليمان . الخ .^(١)^(٢)^(٣)^(٤)

وأخيرا دخل المستعين القصر واستدعى المؤيد هشام
فأنبهه على ما حدث منه ، وطلب إليه أن يخلع له نفسه ، ففعل ذلك وأقر
له بالخلافة (وتلقب من أول وقته باللقاب السلطانية) .^(٥) وابتداءً من تلك
اللحظة بدأت اسطورة هشام المؤيد كما سنرى لاحقا ، وقد بدأت هذه
الاسطورة عندما اختلفت الآراء حول مصيره بعد دخول سليمان القصر ،
فبعضها يقول أن سليمان قد أخفاه ، والبعض الآخر من تلك الروايات يقول بل قمر من محبسه

-
- (١) : انظر ، ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ١٠٠ - ١١٢ .
ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الاول ، ص ٢٤ - ٢٥ .
- ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ١١٦ - ١٢٧ . - المقري :
المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٧ .
(٢) : عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ٨٨ - ٩٩ . - الحميدى :
المصدر السابق ، ص ١٨ - ١٩ .
(٣) : محمد عبدالله عنان : الخلافة الاموية والدولة العباسية ، القسم الثاني ،
ص ٦٥١ .
(٤) انظر ، ابن عذاري : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١٠٩ - ١١٠ .
(٥) : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١١٣ - ١١٤ .

(١) وتوجه نحو مدينة المرية ، حيث عاش في قاعة مؤس وخمول . وسنرى انه سيظهر
بعد ذلك مرة اخرى كما زعم ابن عباد .

على ان سليمان بعد ان استتب له الامور في قرطبة لم يظن الى تفادى
خطأ المهدي الذي غجز عن التوفيق بين عناصر الشعب المختلف الاجناس ،
رغم محاباته للبربر وتوزيعه الاقاليم عليهم ، مما اثار حفيظة العقالية الذين
ينتمون بالولاء والطاعة للعالميين ، اذ كان معظم رؤسائهم من اتباع المنصور
ابن ابي طمر وقتيلانه ، فعند هؤلاء الى تكوين امارات خاصة بهم يمارسون فيها
(٣)
سياستهم المستقلة . وسنتبين بعد ذلك الدور الذي قاموا به في الاندلس .

كما ان سليمان لم يظن ايضا الى خطورة اسناد حكم مقاطعات طنجة وأصيلا
وسبته التابعة للدولة الاموية آنذاك ، الى اثنين من الادارة العلويين الذين
ينتسبون الى ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب ،
لم يظن وهو الاموي الى خطورة اسناد بعض اعماله الى علوي طالبي ، وهو
مالامه عليه احد قادته البربر . وكانت النتيجة ان سقطت دولته على يد احدهما
(٤)
وهو علي بن حمود الذي ولاه حكم مدينة سبته ، فقد رأى هذا بمثابة بصره
ان الخلافة يمكن انتزاعها من يد الامويين وتسييرها لبني عصبته العلويين

(١) : (المرية Almeria ميناء هام على ساحل البحر الابيض المتوسط
في جنوب شرق اسبانيا بناها الخليفة عبدالرحمن الناصر سنة ٣٤٤هـ / ٩٥٥م
وكانت في العصر الوسيط احدى القواعد البحرية الهامة للاسطول الاسلامي)
انظر ، ابن الكردبوس : الاكتفاء في اخبار الخلفاء ، تحقيق احمد
مختار العبادي ، منشورات مجلة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ،
المجلد الثالث عشر ، سنة ١٩٦٥ - ١٩٦٦ م ، ج ٣ ، ص ٨٩ .

(٢) : علي ادهم : المعتمد بن عباد ، ص ٢٣ .

(٣) : علي ادهم : المعتمد بن عباد ، ص ٢٢ - ٢٣ .

(٤) : انظر ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ١١٣ - ١١٤ .

(٥) : انظر في هذا :
رجب عبد الحليم : دولة بني حمود في مالقة بالاندلس (رسالة ماجستير مقدمة
لقسم التاريخ كلية الاداب جامعة القاهرة) ١٩٧٦ م ، ص ٥٣ - ٥٤ .

بقليل من الحسنكة والذكاء . فأدعى أن الخليفة هشام عهد إليه بولاية
عهده واخذ ثأره له من خالعه المستعين ، وتحين القرض للوثوب على سليمان ،
شاهرا هذا السلاح . والتقت كلمته مع خيران العامري أحد الصقالية من
الفتيان العامريين البارزين الذي استقل بمدينة المرية ، ونسق جهوده مع
على بن حمود ، وتبنى دعوته وخاض معه معركة ضد سليمان المستعين الذي^(١)
قامت عليه ثورة أخرى بقيادة مجاهد العامري أحد الصقالية البارزين أيضا ،
والذي استقل بمدينة دانية ، وتبنى هناك دعوة أحد الاشراف القرشيين فـ^(٢)
دانية ولقبه المعيطي ، ودعا له بالخلافة .^(٣)

واستطاع على بن حمود ان يضيق الدائرة على سليمان ، وان يهـ خـلـ
قرطبة ظافرا . وقد حاول ان يلقي تهمة قتل سليمان على المستعين ، لكـ
يمهد الطريق نحو مطامعه . وعلى الرغم من ان سليمان واباه الحكم نفيا ذلك
نفيا قاطعا ، الا ان عليا عجل بقتلهم .^(٤)

(١) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ١١٤-١١٦ .
ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الاول ، ص ٢٤-٢٥ .
عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ٩٠ - ٩١ . ابن الاثير
الكامل ، مجلد ٩ ، ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

(٢) : (دانية Denia تقع على ساحل البحر الابيض المتوسط جنوبي بلنسية ،
شرقي اسبانيا ، وهي الان مركز اداري في مديرية لقنت Alicante واسمها
العربي والاسباني مشتق من اسمها الروماني القديم دانيوم *Daniam* ولقد
لعبت دانية في العصر الاسلامي دورا هاما خصوصا بعد ان استقل بها
القائد الصقلي ، ابو الجيـش مجاهد العامري الذي تسميه المصادر
الاوربية (*Mugello*)

انظر ، ابن الكردبوس : الاكتفاء في اخبار الخلفاء ، ج ٢ ، ص ٩٦ .
(٣) : ابن عذاري : نفس المصدر السابق والجزء ١١٥ - ١١٦ .
(٤) : ابن عذاري : نفس المصدر السابق والجزء ١١٤ - ١١٦ .
ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الاول ، ص ٢٤-٢٥ .

وهكذا تولى على بن حمود الخلافة ، وهو العلوي في قلب الخلافة
الاموية . وقد امل أن تصفو الامور له ، الا أن خيران العامري رفيقه
في الكفاح ضد المستعين خاب أمله عندما لم يجد الخليفة هشام حيا ،
فسارع الى المرية في شرقي الاندلس ، ومن هناك تبني أحد بنى أمية
ودعا له هو وغيره من الاندلسيين ، وتلقب بالمرتضى . وهو عبدالرحمن
ابن محمد بن عبدالله الناصر .

وتقابل هؤلاء مع البربر في غرناطة قبل أن يتوجهوا الى
ملاقاة على بن حمود . غير أنهم هزموا شر هزيمة وقتل المرتضى المذكور ،
وتفرق شمل جيشه وانكسرت شوكة الاندلسيين ، وكان على بن حمود
قد توفي قبل قليل من المعركة في ذى القعدة ٤٠٨ هـ / مارس ١٠١٨ م^(١) .

خلافة القاسم بن حمود ونزاعه مع ابن اخيه يحيى بن على :

وتولى الخلافة من بعده أخوه القاسم بن حمود الذي
لم تصف له الأمور هو الآخر ، بسبب سياسته التفريقية بين عناصر
جيشه . فثار عليه البربر وثار عليه ابن اخيه يحيى بن على حاكم العدو
المغربية بمساعدة البربر . ولم يجد القاسم بدا من الفرار عن قرطبة^(٢)
الى اشبيلية في ربيع الاخر سنة ٤١٢ هـ / اغسطس ١٠٢٢ م .

-
- (١) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ١٢٠ - ١٢٧ .
عبدالواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ٩٨ . الضبي : بغية
الملتبس في تاريخ رجال أهل الاندلس ، ص ٢٧ .
(٢) : المقصود بها ثغر سبته المطل على البحر المتوسط في المغرب
الاقصى .

ودخل يحيى قرطبة فبايعه البربر والسودان فى صدر جمادى الآخرة من نفس العام ، وتلقب بالمعتلى . لما عمه القاسم فقد ذهب الى اشبيلية داعيا لنفسه بالخلافة ومنتظرا الفرصة السانحة للوثوب على ابن اخيه يحيى . وقد وهبه يحيى تلك الفرصة عندما اسهم بسوء سياسته مع السودان رجال عمه القاسم الموالين له ، ومع بربره الذين اهل شأنيهم ، فاختلفت عليه الحال . ولم يجد مفرأ هو الآخر من مغادرة قرطبة ، وطاد القاسم بسرعة الى قرطبة مرة اخرى فخطب اليه فى اواخر طم ٤١٣ هـ / ١٠٢٣ م .

غير انه لم يتمتع طويلا بخلافته الثانية ، فثار عليه اهل قرطبة واجتمعوا على خلعه ، وحاصروه فى القصر مدة شهرين حتى هزم . وخرج مرة اخرى الى اشبيلية فسدت ابوابها فى وجهه بتدبير القاضى محمد بن اسماعيل ابن عباد . وقد كانوا قد احتفظوا بابنيه اى ابنى القاسم بن حمود رهينة لديهم .

وقد اقتنع القاسم اخيرا ان لا جدوى من حصاره للمدينة ، فوافق على رفع الحصار عنها بعدما تعهد الاشبيليون باخراج ابنه له . والفعل (١) تم ذلك وانصرف القاسم وجماعته عن المدينة .

- (١) : عن هذه الاحداث المتعلقة بخلافة القاسم ويحيى الحمود بين يراجع :
- ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٣٥ — ١٣٩ .
- ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول — المجلد الاول ، ص ٧٨ — ٨٣ .
- و القسم الاول — المجلد الثانى ، ص بطبعه وتصحيحه ونشره لجنة من اساتذة وطلبة جامعة القاهرة ، وقدم له عبدالوهاب عزام وعبدالحميد العبادى ، ص ١٣ — ١٤ . — ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ٣٣ — ٣٤ .
- عبدالواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ٩٩ — ١٠٠ .
- المقرى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٠٧ — ٤٠٨ ، ج ٢ ، ص ٢٩ — ٣١ .
- رجب عبدالحليم : دولة بنى حمود فى ملقة بالاندلس ، ص ٦١ — ٦٥ .

عودة الامر ثانية لبنى امية :

اما بالنسبة لاهل قرطبة ، فقد قر رأيهم على عودة الامر لبنى امية مرة اخرى ، عليهم يكونون اهلا لذلك . فتصدر لهذا الامر ثلاثة منهم . ووقع الاتفاق فى النهاية على تأمير عبدالرحمن بن هشام بن عبد الجبار شقيق المهدي المذكور سابقا ، وتلقب بالمستظهر .

وكان فى الواقع شابا قويا سديد الراى ، غير انه كان الرجل المناسب فى غير الوقت المناسب ، فلم تتح له الفرصة لاطهار مواهبه . فثار عليه ابو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الناصر ، وقتل عبد الرحمن المستظهر ولما يتجاوز سبعة واربعين يوما من حكمه بعد (١) وتولى الخلافة بعده هذا الناصر ، وتلقب بالمستكفى (٢) الا ان امره انتهى بعد ذلك بالخلع والنفى ، ثم الاغتيال وذلك فى ظم ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م (٣) .

-
- (١) : عبدالواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .
ابن الابار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٢ .
(٢) : ارتبط اسمه ايضا باسم ابنته الادبية ولاده ، صاحبة الشاعر الاندلسي المشهور الوزير ابن زيدون الذى صاغ فيها اجمل قصائده .

- (٣) : عن المستظهر والمستكفى يراجع :
ابن غدارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٠ - ١٤٣ . ابن بسام :
المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الاول ، ص ٣٧٩ - ٣٨٣ .
عبدالواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٠٧ - ١٠٨ . ابن سعيد
المغربى : وشى الطرس فى حلى جزيرة الاندلس ، جزاءن ، وهذان
الجزءان خلاصان بالاندلس ضمن كتابه الاوفى المعنون بمنهـوان :
المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق وتحليق شوقي ضيف ، ج ١ ،
ص ٥٤ - ٥٥ .

اما يحيى بن على الحمودى فان اشياه فى قرطبة تبينوا دعوته مرة اخرى
فى نفس العام الذى خلع فيه المستكفى الاموى ، الا انه لم يدخل
قرطبة ، بل اكتفى بتولية احد رجاله امرها . وفى هوبدنة "قرونة" (١)
ثم خلعت طاعته عن قرطبة ثانية فى العام التالى ، فتوجه الى مدينة مالقه
التي كان يتولاها قبل قيامه على عمه القاسم .

عودة الامر لثالثه لبنى امية ، ثم خلعهم نهائيا :-

ورأى اهل قرطبة ان يعطوا بنى امية الفرصة الاخيرة لاثبات وجودهم —
واستعادة عرشهم النافر . فاجمعوا اثر خلع يحيى بن على فى طم ٤١٧ هـ
كما قلنا على رد الامر لهم . وتولى ذلك كبير قرطبة وشخصيتها النافذة
ابوالخزم جمهور بن محمد بن جمهور الذى راسل غيره من الرؤساء المنتزين
على الثغور والمدن فى ذلك . فتم رأيهم على تقديم ابى بكر بن هشام
ابن محمد بن عبد الملك بن الناصر الذى كان يقيم عند آل قاسم القاسم —
المغلبين على حصن " البنت " (٢) . فبايعوه فى طم ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م .

(١) : قرونة : فى التقسيم الادارى الاندلسى كانت عبارة عن كورة كبيرة
واسعة ، تضم عددا من المدن والحصون ، وقاعدتها تسمى بنفس
الاسم اى قرونة . واسمها لاتينى الاصل Carmona . وقد دخلت
قرونة فى حوزة المسلمين طم ٩٢ هـ / ٧١٢ م وسقطت بيد الاسبان
نهائيا طم ٦٤٤ هـ / ١٢٤٧ م ، وهى الان Carmona . وهى
مركز ادارى تابع لمديرية اشبيلية ، على بعد ٣٥ كيلومترا شمالى شرقى
اشبيلية .

انظر ، ابن الابار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ح ٤ ، ص ١٨٣ .
(٢) : البنت او البنت Alpuente ، كما ينقل شكيب ارسلان عن
ياقوت الحموى (قال ياقوت : حصن " البنت " بالضم والواو والنون
ساكان ، والتاء فوقها نقطتان ، حصن بالاندلس ، وربما قالوا
البنت ٢ .
انظر ، شكيب ارسلان : الحلل السندسية فى الاخبار الاندلسية ، ٣ اجزاء
الجزء الاول ح ٤ ، ص ١٨٠ .

وتلقب بالمعتد بالله ، واخذ يتأهب للوصول الى قرطبة حتى دخلها فسى
ط م ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م .

على ان الخليفة الجديد لم يك على مستوى ذلك التطلع الشعبى الكبير
كما لم يسك جديرا بعقد الآمال عليه طيلة مدة انتظاره التى بلغت عامين ،
اذ تكشف عن شخصية ضعيفة متهاكمة خبيث الآمال . فقد تخط فى كثير
من الاخطاء السياسية التى افقدته صفة رجل الدولة المطلوبة فى تلك المرحلة
العصية من تاريخ دولة بنى امية ، مما جعل اهل الراى والمشورة فى قرطبة
وعلى رأسهم ابن جمهور يقطعون كل امل فى صلاحية بنى امية للامر . فخلع
فى ذى الحجة ٤٢٢ هـ / نوفمبر ١٠٣١ م . كما استقر رأى اهل قرطبة على
خلع بنى امية اجمعين ، وطرد المعتد من المدينة ، وتولية الامر للوزراء
واهل الحل والعقد فسى قرطبة (١) .

اسباب سقوط الدولة الاموية :-

هكذا سقطت الدولة الاموية على هذه الصورة المؤسسية المحزنة . وقـد
رسم سقوطها اكثر من علامة استفهام كبيرة فى مخيلة المؤرخين والمفكرين
قدما وحديثا ، وعلى درجات متفاوتة فى التحليل والتفسير والتعليل والاستنتاج .
ومما يؤسف له ان هذا السقوط المريع بما كان له من انعكاسات وابعاد
خطيرة لم يلق من بعض المؤرخين القدامى تفسيرا وتحليلا دقيقين ، يكشف
لنا الستار عن الاسباب المباشرة وغير المباشرة لسقوطها .

(١) : يراجع فى انتهاء الدولة الاموية وانقطاعها :

— ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٥ - ٢٥٢ .

— عبدالواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٠٩ - ١١٠ .

— الضبى : المصدر السابق ، ص ٢٢ - ٢٨ .

— ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ١٣٨ - ١٣٩ .

— ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٤ ، ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .

فقد اكتفوا بالاسباب الظاهرة المباشرة^(١) والتي مهما بلغت من القوة فلن تستطيع ان تقضى على دولة بلغت اوج مجدها وعظمتها حتى عام ٣٩٩هـ / ١٠٠٩ م ، وهو العام الذى بدأت نذر السقوط تظهر تباط فيه .

انه لامر مشير حقا ان تسقط دولة عشت مجدها الذهبى فى عهد ————— :
 عبدالرحمن الناصر ، والحكم المستنصر ، الحاجب المنصور بن ابي ظر ، وولده
 عبدالملك المظفر . دولة أم بلاطاتها ملوك النصارى ورسل الدولة
 البيزنطية طلبا للمساعدة ضد منافسيهم ولتبادل العلاقات وتحسينها مع هذه
 الدولة المتعاضمة القوة^(٢) . دولة غشى بلاطاتها العلماء والادباء رغبة فى
 المجد والصيت . لذائم السدى كانت تسبغ على كل من يؤمها . دولة استطاعت
 الحد من هجمات مالِك النصارى التى لم تنقطع ابدا ، بل جعلت لفرط
 استقرار الامر فيها الههاد ضد مالِك النصارى فى عهد اولئك الحكام
 العظام شغلها الشاغل .

-
- (١) : كجعلهم سبب قيام محمد بن هشام المهدي هو رغبة والدة عبدالملك المظفر الانتقام من ابن زوجها عبدالرحمن لشكها من انه قد قتل ابنها بالسهم . وهو فى رأينا سبب ظاهرى لم يكن الا الوسيلة التى تذرع بها محمد بن هشام ، بل واستفاد منها للخروج على الدولة العامية التى سلبت بنى امية خلافتهم وارثهم المشروع .
- انظر فى هذا ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ٥ ، ص ٥٢ .
- (٢) : عن العلاقات الدبلوماسية التى نشأت بين الدولة الاموية والممالك النصرانية فى الاندلس واوروبا انظر ، ليفى برونفسال : الاسلام فى المغرب والاندلس ، ترجمة السيد محمود عبدالعزيز سالم ، ومحمد صلاح الدين حلمي ، مراجعة لطفى عبدالبديع ، ص ٩١ - ١١٨ . — احمد ابراهيم الشعراوى : الامويون امراء الاندلس الاول ، ص ٣٢٤ - ٣٢٧ . — عبدالمنعم ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، ص ٧٢ - ٨٢ . — محمد عبدالله غان : الخلافة الاموية والدولة العامية ، ص ٤٩٠ - ٤٩١ ، و ص ٥٨٣ - ٥٨٤ .

ومهما يكن من امر فالتا نعتقد انه كان لسقوط هذه الدولة اسبابا مباشرة ،
واخرى غير مباشرة ، نتناول شرحها على التو .

١ - ولعل اول ما نستطيع ايضاحه من تلك الاسباب المباشرة ، هو ما اقدم عليه
الخليفة الحكم المستنصر عندما عهد بالخلافة من بعده الى ابنه القاصر
هشام والبالغ من العمر احد عشر عاما كما مر بنا سابقا ^(١) . وقد كان هذا
امرا خطيرا ، وسابقه خطيرة في بلاد الاندلس ، اذ لم يحدث ان تولى
الحكم في عصر الولاة ^(٢) ثم الامارة ثم الخلافة صبي لما يتجاوز الحادية عشرة
من عمره بعد كما حدث هنا . وكان من الممكن بعد ذلك وبسهولة التكهن
بخطأ رأى الحكم المستنصر واعتقاره الى الحنكة السياسية والحكمة . فكل
المؤشرات كانت تؤكد ان الامور سوف لن تصفو لطفل قاصر تحيط به
اطماع رجال دولته وفتيان قصره لاحتوائه وجعله دمية في ايديهم .
وهذا ما حدث بالفعل بعد وفاة الحكم المستنصر ، اذ انقسم رجال
الدولة الى جناحين ، جناح يدعو لخلق هشام وتولية عمه المغييرة
الاكبر سنا للتأثير عليه ، والتطلع الى تولى المناصب الكبيرة في الدولة
لقاء ايصاله الى الحكم وعلى رأس هؤلاء فتیان القصر من العقابيه ،
وجناح آخر يدعو الى تنفيذ رغبة الحكم المستنصر بتولية ابنه هشام الخلافة ،
ومن ثم الاستفادة من هذا التعمين . وكانت الغلبة لهذا الجناح ^(٣)

(١) : انظر قبل ، ص ٣

(٢) : المقصود بعصر الولاة هي الفترة التي تولى حكم الاندلس فيها امراء
من العرب بالتعيين من خلفاء بني امية في دمشق حتى سقوط دولتهم
ط ١٣٢ هـ . واول هؤلاء الولاة العرب هو عبدالعزیز بن موسى بن نصير ،
وآخرهم يوسف بن عبدالرحمن القهرى ، الذى قتله عبدالرحمن بن معاوية
ابن هشام بن عبدالملك المعروف بالداخل . واسى في الاندلس امارة
اموية مستقلة .

(٣) : محمد عبدالله غان : الخلافة الاموية والدولة العامرية ،

ولقد قوبل اسناد الحكم المستنصر العهد لابنه هشام من بعده انتقاساد
 (١)
 المؤرخين والمفكرين قدامى ومحدثين على السواء . وكان نتيجة ذلك هــ
 ما اصاب الخلافة على يد المنصور بن ابي طمر وابنائهم من بعده ، مـ
 استبداد بالامر وزوال هبة الخلافة (عندما اتدى " اى المنصور بن ابي طمر "
 على الصفة الشرعية للخلافة واضعف شعور رجالات الاندلس بالولاء لها ،
 ونصب لهم القدوة وضرب لهم مثلا شرودا فى الاعتداء عليها والاستخفاف بها)
 (٢)
 وكان من نتيجة ذلك ايضا ان فقد اهل الاندلس الثقة من يومها بالتقهاء
 والعلماء الذين انساقوا فى مساهرة الحكم المستنصر مدفوعين فى ذلك بغرائز
 (٣)
 شتى .

على ان اخطر ما ترتب على ذلك — تلاوة على زوال هبة الخلافة — هــ
 ما حدث من اختلال فى نظام الحكم نفسه من فصل بين السلطتين السياسية
 والروحية . فالحقيقة ان الاندلس لم تشهد منذ فتحها فصلا بين السلطتين
 سواء اكان ذلك فى عصر الولاة ، ام فى عصر الامارة ، ام فى بداية عصر
 الخلافة وحتى ايام الخليفة الحكم المستنصر . كان والى ومن ثم الامير
 فالخليفة يقبض بكلتا يديه على السلطتين السياسية والروحية

(١) : محمد عبدالله عثمان : الخلافة الاموية والدولة العباسية ، ص ٥١ ، (نقلا

عن ابن حبان) . — حسين مؤنس : شيوخ مصر فى الاندلس ،

ص ٧٤ — ٨٠ . — على ادهم : المرجع السابق ، ص ٢٣ .

(٢) : على ادهم : نفس المرجع السابق ، ص ٢٣ .

(٣) : حسين مؤنس : نفس المرجع اعلاه ، ص ٧٤ ، و ص ٧٦ — ٧٧ .

وكان الناس ينظرون الى هذا بعين الرضا والقبول ، اذ لا فرق عند المسلمين بين السلطتين ابدا ، فالحاكم اميرا او خليفة هو فى نفس الوقت الحاكم المخلص .
يجئ الحاجب المنصور فيغطى بكل ما اوتى من جبروت على الخليفة الشرعى الذى تعودت النفوس على اجلاله ، ويحجبه عن رعيته ويتأثر بالحكم لنفسه مقيلا على المظهر الشكلى للخلافة ، فان الناس ستصاب بصدمة نفسية .
فلم يكن المجتمع فى الاندلس يحتاج الا لخليفة قرشى اموى يحكم ظنا ، ويخرج للناس ويقابلهم ويصلى بهم . وعلى هذا فاننا نستطيع تفسير شوق الناس الشديد الى رؤية الخليفة الشرعى المحتجب قسرا ، بل وتلفيقهم للشائعات المختلفة المبنية على الوهم والتضليل حول خليفتهم (١) .

ومن هنا ايضا نفهم خضوع الحاجب المنصور لهذا التطلع الشعبى الكبير عندما اظهر الخليفة هشام ، وخرج معه فى موكب هائل من قصره الى الزاهرة قصر الحاجب (٢) . بل ان هذا الموقف الشعبى ازاء الخليفة المحجور طيه جعل المنصور يتراجع عما طاف بمخيلته فى وقت من الاوقات عن الرغبة فى التخلص بالخلافة ، بل ويتراجع نهائيا عن ذلك بعد ان نصحه الفقهاء بالابقاء على الخلافة الاموية (٣) .

(١) : من الشائعات التى ترددت فى الاندلس ، ما صيغ على لسان الخليفة هشام نفسه من شعر يشرح فيه حاله مع حاجريه ، ويقال انه ينسب المتشدد العباسى :

ليس من العجائب ان مثل .. يرى ما قل متنعنا عليه
وتملك باسمه الدنيا جميعا .. وما من ذاك شئ فى يمينه

انظر ، محمد عبدالله غان : الدولة المأمورية وسقوط الخلافة الاندلسية ، الجزء الثالث من كتاب دولة الاسلام فى الاندلس ط ١ ، ص ٥٠ .

(٢) : محمد عبدالله غان : نفس لمرجع ، ص ٦٢ .

(٣) : انظر ، ابن حزم : نقط العروس فى تواريخ الخلفاء ، مجلة كلية الآداب القاهرة ، المجلد الثالث عشر ، الجزء الثانى ، ديسمبر ١٩٥١ م ، ص ٧٦ - ٧٧ .

وهذا هو الذى جعله يشدد فى وصيته لابنه عبد الملك على ان يراعى الخليفة
ويحافظ على الخلافة وقد رها ، ولا يحاول الانفراد بالتدبير دونه ولو مظهرى^(١)
وعلى هذا فاننا نستطيع القول بان اسناد الخليفة الحكم المستنصر ولا يسه
المشهد لابنه ، واستئثار المنصور بن ابي طمر وولده من بعده بالسلطة كان احد
اسباب سقوط الدولة الاموية وزوال هيبتها ، ان بزوال هبة الخلافة زالت
هبة الدولة .

٢ - وثانى الاسباب المباشرة لسقوط الدولة هو اكراه عبد الرحمن بن المنصور
الخليفة هشام على توليته عهده واسناد الخلافة له من بعده . وكان
هذا الامر شىء بالغ الخطورة ، ان هو الذى عجل بسقوط الدولة
سرا . وترتب عليه جميع النتائج بعد ذلك سواء ما حدث من وثوب
محمد بن هشام المهدي وتولى الخلافة خلفاء ضعاف ، وقيلام ممالك الطوائف
..... الخ .

(١) : اوصى المنصور ابنه عبد الملك بوصية سياسية وطائفة جامعة . واهم
ما ورد فيها هى وصيته له بمراعاة الخلافة والخليفة مما ، ان يقول :
(.....) وصاحب القصر قد علمت مذهبه ، وانه لا يأتيك من قبله
شىء تكرهه ، والآفة ممن يتولاه ويتلمس الوثوب باسمه . فلا تنم عن
هذه الطائفة جملة ولا ترفع عنها سوء الظن ، وطجل بها من خفتها
على اقل بادرة ، مع قيامك بحق صاحب القصر على اتم وجه . فليس لك
ولا لاوليائك شىء يقيمك الحنث فى يمين بيعته الا بما تقيمه لوليها من
النفقة . واما الانفراد بالتدبير دونه مع ما بلوته من جهله وعجزه عنه ،
فانى ارجوانى واياك منه فى سعة ما تمسكنا بالكتاب والسنة .
كما جاء فى هذه الوصية ايضا (واياك ان تضع يدك فى يد مروانسى
ما طاولك بنائك فانى اعرف ذنبى اليهم) .
انظر ، ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ٨١ - ٨٢

فقد ادعى عبدالرحمن بن المنصور ان الخليفة هشام لم يجد افضل منه لتولى
 الخلافة من بعده . (١) وهو شيء خطير كما قلنا ، فحتى ذلك التاريخ لم يجرؤ
 احد من المتغلبين على الخلافة الاسلامية على الدعوة لنفسه بالخلافة . فلا
 البويهيون فعلوا ذلك ، ولا السلاجقة ايضا من بعدهم ، ولا اسرة بسدر
 الجمالى التى كانت تمثل نفس الدور مع الخلافة الفاطمية التى كان قد ضعف
 امرها . (٢)

وقد حرك هذا الامر الشعور لدى بنى امية خاصة والمسلمين عامة ففى
 الاندلس . فخرج الخلافة عن قريش مثله فى بنى امية يعتبر مخالفة للشروط
 الامامة ، ومناهضة لشعورهم الدينى نحو الخلافة الاموية . فليس الامر بتلك
 السهولة التى تصورها عبدالرحمن بن المنصور بقلة تبصره ورعنته عندما
 استغل ضعف الخليفة هشام ابشع استغلال . فقد جرب بهذا التصرف الارعن
 على نفسه وعلى دولته من المصائب والمشكلات ما عجل بسقوطها .
 ولقد كان فى امكاننا ان نتكهن بان الوضع كان سيستمر كما كان فى ايام
 المنصور وابنه عبدالملك مع الخليفة هشام ومن يأتى بعده تماما مثل وضع بنى
 العباس فى بغداد مع البويهيين والسلاجقة ، وان يصبح ذلك امرا مألوفا
 لو لم يقم عبدالرحمن بتلك الخطوة . اذ ان يأتى هو فينسف كل الجسور مع
 بنى امية واتباعهم فى الاندلس ، فذلك الداهية التى ليس بعدها داهية .

(١) : ابن خضار : المصدر السابق والجزء ، ص ٤٣ وما بعدها . —

ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الاول ،

ص ٨٤ - ٨٥ .

(٢) : من الواضح اننا نقصد فى هذه النقطة بالذات الاشارة الى استمرار

المتغلبين على تلك الخلافات المذكورة على مراعاة هيئة الخلافة ،

والمحافظة على سلطانها الروحى ، سواء اكانت عباسية او فاطمية .

واما ما فسر به الامر بعد ذلك من ان انتقال الخلافة من بنى امية الى بنى طمر انما هو انتقال لها من القيسية الى اليمينية ، فانه فى رأينا قد بولغ فيه كثيرا ، فالقضية تتصل بما اجمع عليه فقهاء السنة من ان الخلافة فى قریش ، وليست قضية قيسية ويمينية .^(١)
^(٢)

ومرة اخرى نستطيع ان نؤكد ان ما حدث بعد ذلك من احداث سياسية انما هو نتيجة لهذا السبب سواء اكان ذلك قضية الانتقام التى تحدثنا عنها فيما يتعلق بوالدة عبد الملك المظفر ، او خروج محمد بن هشام عن الدولة الحامرية ، او الفتنة البردية كما كان يطلق عليها ، او ما تبع ذلك من تولى خلفاء ضعاف ، ثم سقوط الدولة اخيرا وقيام مالک الطوائف فى الاندلس .

الاسباب غير المباشرة لسقوط الدولة :-

اما الاسباب الاخرى التى اسهمت فى سقوط الدولة ، فقد كانت اسبابا غير منظورة اثر ببطء فى هدم بناء الدولة منذ تكوين الدولة الاسلامية فى الاندلس ، واثرت ايضا فى تشكيل تحركات الاحداث التاريخية فى الاندلس بعد سقوط الخلافة الاموية ، وهو ما نحاول الان ايضا فى شئ من الايجاز .

- (١) : من بين شروط الامة التى انعقدت عليها كلمة الفقهاء ان يكون الخليفة قرشيا لما ورد فى ذلك من الاحاديث .
انظر فى ذلك ، حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن : النظام الاسلامي ، ص ٢٤ - ٢٥ .
- (٢) : من القدامى الذين يرون هذا الرأى : ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٤ ، ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .
ومن المحدثين احمد مختار المبادى : فى تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

كانت التركيبة أو البنية الاجتماعية للمجتمع عاملاً رئيسياً
 في تصدع أركان الدولة . فالمجتمع الاندلسي كان مزيجاً من عناصر عرقية
 ودينية شتى يسود علاقاتها التشاحن والتصادم أبداً ، فقوام المجتمع
 الاندلسي عناصر رئيسية خمسة هي :^(١)

- العرب : على اختلاف قبائلها القيسية (المضرية) ، اليمانية .
- البوير : وهم الذين لم تنقطع هجرتهم منذ وطئت أقدام المسلمين
 بلاد الاندلس ، والذين ازدادت أعدادهم في الجيش على
 يد المأمريين بصفة خاصة .

(٢)
 - المسالمة : وهم الذين اعتنقوا الاسلام ، وأصبح لهم ما للمسلمين
 وعليهم ما عليهم ، وتسمى هذه العناصر المسالمة
 بالاضافة الى المسالمة ، بالمولدين . فأطلق على
 الاسبانيين الذين اعتنقوا الاسلام المسالمة ، وأطلق
 اسم المولدين على نسلهم . فنشأ هؤلاء في ظل
 الاسلام وترسوا بترسيخه وقد أصبحوا كثرة كبيرة
 في الاندلس وقتها .

-
- (١) : عن المجتمع الاندلسي وعناصره العرقية والدينية راجع :
- احمد هيكل : في الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة ط ٢ ،
 ص (٣١ - ٤٧) . — لطفي عبد البديع : الاسلام في اسبانيا ص ١٧ -
 ٣٦ . — عادة كحيل : المولدون في التاريخ الاندلسي ، ص ٦١ - ١٠٧ .
 - جودت الركابي : في الادب الاندلسي ، ص ٣٤ - ٤٢ . —
 صلاح خالص : اشبيلية في القرن الخامس الهجري " دراسة
 أدبية وتاريخية لنشوء دولة بني عماد في اشبيلية وتطور الحياة
 الادبية فيها ٤١٤/٤٦٤ هـ " ص ٣١ - ٣٣ .
 - (٢) : عادة كحيل في رسالته المذكورة سابقاً فقرة راسمة جمل فيها
 مصطلح المولدين ، كما تطرق في الحديث الى معنى المسالمة
 أو الأسالمة .
 انظر ، ص ١١٣ - ١٢٠ .

- المستعمرون (Mozarab) • وهم الاسبان الذين بقوا على دينهم المسيحي وكان لهم الحق في ممارسة تجارتهم والتقاضى فيما بينهم امام قضاة منهم ، وادارة شئونهم • وكان يطلق عليهم في الاندلس ايضا اسم المعجم •

- الصقابة : الذين بدأوا يتلمسون طريقهم نحو القوة منذ القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى •

- اليهود : ويكونون هم الآخرون قسما مهمما من سكان المدن ، وكان لهم نشاطهم الادارى والتجارى في الاندلس •

تلك هى عناصر المجتمع الاندلسى الذى لم تكن تجمعه لا وحدة عرقية ، ولا وحدة دينية ، وتسيطر على فئاته التنافسات والخلافات • ومع هذا فقد كانت هذه العناصر المتناحرة تشكل فى مجموعها ماعدا الطارئى كالبربر الذين استقروا منهم المنصور بن ابي طاهر الى الاندلس ما يمكن ان نطلق عليه المجتمع الاندلسى بكل خصائصه ومميزاته • ويلاحظ هنا ان هذا المجتمع لم يكن مجتمعا طبقيا عسكريا ينقسم الى ثلاث طبقات جنسية او اكر ، بمعنى انه لم يكن هناك طبقة عربية ارستقراطية ، ووسطى ، ودنيا ، وطبقة بربرية ومستعربة ومولدة بذات الانقسام • بل يمكن ان نقول انه كان هناك طبقة اندلسية ارستقراطية ، واخرى وسطى ، وثالثة دنيا ، وان كان هذا لا يفصل مكانة العرب كمنصر اشاد صرح حضارة جعلت من قرطبة المركز الثانى للحضارة الاسلاميه (١) بعد بغداد •

اما العرب فقد تناسوا عصبيتهم القبلية بين قيسية ويمنية ، لا لانهم قد استلقت من نفوسهم ، وانما اجلت ونحت ليحل محلها فى المرتبة الاولى الخوف المشترك من المصير المشترك •

(١) : صلاح خالص : اشبيليه فى القرن الخامس الهجرى ، ص ٣٤-٣٥ •

بعد أن دأب أمراء ثم خلفاء بنى أمية ثم المنصور بن أبى عامر على اهتمام
العصبية العربية بقسميها ، وتحجيم وجودها فى الجيش ، ولذلك فقد
انكفأت على نفسها . ولم تعد تلك القوة المهيمنة التى كانت عليها فى
عهد الولاة وبداية عهد بنى أمية . ومالت - كأختها فى المشرق - إلى
الاهتمام بمصادر دخلها وتنويعها وتوزيعها لتبلغ به للمصرف على ملذاتها
ورغباتها ، وأصبح وجودها فى بلاطات بنى أمية ذا بعد ترفيهي أو قل
تشريفي كولى الوزارة أو القضاء وغير ذلك . وغدا نفوذهم أى العرب
اقتصادي وثقافي بعد أن اضمحل نفوذهم السياسى . ومن هذا المنطلق
فرضوا أهميتهم على حياة المجتمع الاندلسى اليومية ، وخلدت كثير من
الاسر العربية أسماءها فى حياة المجتمع الاندلسى ، وانصبت جهود
هؤلاء العرب فى محاربة نفوذ الطوائف على البلاد كالبربر الذين
استقدمهم المنصور بأعداد كبيرة .

أما البربر وهم العنصر الثانى من عناصر المجتمع الاندلسى ،
فقد كانوا يشكلون كثافة سكانية كبيرة جدا ، ولم تنقطع هجرتهم منذ الفتح
وتدفقت أعدادهم من المغرب نحو الاندلس من القرن الاول وحتى نهاية القرن
الرابع الهجرى / العاشر الميلادى لأسباب عديدة منها : تشابه المناخ
والأحوال الزراعية والجغرافية بين العدوتين المغربية والاندلسية ،
ومنها اسباب أمنية انتهجها بعض أمراء وخلفاء الدولة الاموية تهدف إلى
استقدام أعداد كبيرة منهم لمقاومة العناصر العربية وغيرها من المناوئين للدولة .
بيد أنه يجب أن نذكر بأن البربر الذين قدموا إلى الاندلس إبان الفتح
ما لبثوا أن اندمجوا مع غيرهم من العناصر الأخرى كالعرب والمسالمة وغيرهم .
وشكلوا جميعا المجتمع الاندلسى أو القومية الاندلسية بكل خصائصها ومميزات
المعروفة فى كتب التاريخ والأدب .

(١) : السد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس من الفتح حتى
نهاية الخلافة ، ص ٢٦٦ - ٣٦٧ .

وفى عهد المنصور بن ابي طمر قدمت اعداد كبيرة من البربر الى الاندلس وكانت هذه العناصر الطارئة تشير استياء الاندلسيين بسبب ساركيا المعصور ، ان كانوا كغرق مرتزقة لا يهتمها الا مصالحها الخاصة لا تتورع عن نقل ولائها لمن يدفع لها اكثر . واتضح هذا الدور السيء لهم عندما بدأت الخلافة تنهار اذ ظهر مدى فسادهم وانعدام اى شعور بالصلاح لديهم ، حتى لقد سميت الفترة التى اغتبت سقوط الدولة بالفترة البربرية (١) .

اما المولدون فعلى الرغم من انتمائهم الى الاسلام ، وعلى الرغم من انهم ولدوا فى ظل الاسلام وثقفوا بثقافته . الا انه ارضعوا فى معظمهم الحقد والبغضاء للحرب منذ نشأتهم . وكانوا يفعلون ذلك للتعبير عن شعورهم بالفن والاحقاد ، فقد كانوا يشعرون بانهم يتحملون وحدهم المفارم المتمثلة فى الضرائب دون ان يكون لهم الحق فى المغانم والمناصب الرئيسية التى كانت وقفا على فئات من المجتمع بعينها . ومن ثم فقد هبوا الى الثورة على الدولة الاموية كلما امكنتهم الفرصة ومنح لهم السانح . وقد تسموا امعانا فى الاعداد باسمولهم الاسبانية باسماء قوطية كابن القوطية ، وابن غارسيا ونحوهما . وكانوا يقومون منذ عهد الامير الحكم بن هشام المعروف بالرضى وحتى عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر بثورات متتالية فى معظم الاندلس ، وقد استطاع عبدالرحمن الناصر القضاء على خطرهم عندما

(١) : السيد عبدالعزيز سالم : تاريخ المسلمين واثارهم فى الاندلس ،

ص ٥٦٦ - ٥٧٠ .

(٢) : ابن غارى : المصدر السابق والجزء ٦ ص ٧٦ .

(٣) : احمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والاندلس ٣٣٨-٣٣٩ . وانظر كذلك عبارة كحيل : المولدون فى التاريخ الاندلسى منذ

الفتح العربى حتى نهاية عصر الامارة . (رسالة ماجستير مقدمة

لقسم التاريخ كلية الاداب جامعة القاهرة) ١٩٧٨ م ص ٩٠ - ٩٤ .

(٤) : احمد مختار العبادى : نفس المرجع اعلاه ص ٣٣٨ .

أخذ الثورة الكبرى التي قام بها عرب بن حفصون (١) أحد زعماء المولدين الذي استقل بجطاعه بالمرتفعات الجنوبية الأسبانية الممتدة بين مدينتي رندة غربا ، ومالقه شرقا ، وكانت قاعدتهم قلعة ببشتر (٢) .

ولم يخل المجتمع الأندلسي من مضايقات المستعربين أو المستعربة . فقد ظلت هذه الطائفة محافظة على مسيحيتها فلم يعترضها معترض ، وكانوا يمارسون شعائرهم الدينية بحرية . ويتحاكمون فيما بينهم إلى قضاة منهم ، ويدبرون شؤونهم بأنفسهم . إلا أنه عُرِزَ على هذه الفئة وخاصة رجال الدين والقساوسة انصراف أبناء جلدتهم إلى الاهتمام باللغة العربية . لغة الثقافة العالمية آنذاك ، وعزوفهم عن لغتهم اللاتينية لغة كتابهم المقدس ، فعملوا (٣)

(١) : عن عرب بن حفصون وثورته التي شغلت الفترة من إمارة الأمير الأموي المنذر بن محمد ، وحتى عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر انظر ، ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ١٠٤ - ١٩٧ على صفحات متفرقة . - عبادة كهيصة : المولدون في التاريخ الأندلسي ، ص ١٩٦ - ٢٥٠ .

(٢) : حصن ببشتر هو كما يقول ابن غالب الأندلسي ، في كتابه قطعة من كتاب فرحة الأنفس - تحقيق لطفى عبد الهدى (الحصن المنفرد بالامتياز والواحد في الحصانة والانقطاع ، صخرة صماء من جميع النواحي ، وإذا توصل المتوصل إلى أعلاه الفاه منفسح ورجبا منفسط) .

انظر ابن غالب الأندلسي : فرحة الأنفس ، ص ٢٦ .
(٣) : انظر في هذا كامل كيلاني : نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي ، ص ٦٣٦ - ٣٤٠ .

جساهدين على تعبئة الشعور القوي والدفع لديمهم وحققهم بالحقد والكراهية ،
والانتقاص من الاسلام والاستخفاف بالرسول صلى الله عليه وسلم . وكانوا اى المستعربين
عنصر شغب منذ عهد عبدالرحمن بن الحكم (الأوسط) وحتى بداية الفتنة .
أما العنصر الرابع من عناصر المجتمع ، فهم الصقالبة الذين كتب عنهم الكثير
قدما وحديثا ، وقد لعبوا دورا هاما فى حياة المجتمع الاندلسى السياسية والاجتماعية والثقافية .

(١) : احمد مختار العبادى : المرجع السابق ، ص ١٥٥ - ١٥٨ . - محمد
عبدالله غان : دولة الاسلام فى الاندلس من الفتح الى بداية عهد الناصر ،
ص ٢٦٧ - ٢٧٣ .

وكذلك ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٩٧ - ٩٨ .
(٢) : الصقالبة شعب كتب عنهم الكثير قدما وحديثا ، وسنجزئ من كتاب :
فى تاريخ المغرب والاندلس ل احمد مختار العبادى ما يعنينا فى شئ
من الايجاز على معرفة ما تعنيه هذه الكلمة : الصقالبة (اطلق الجغرافيون
المغرب هذا الاسم على الشعوب السلافية سكان البلاد الممتدة من بحر
قزوين شرقا الى البحر الادرياتي . وهى البلاد التى كانت تسمى
فى العصور الوسطى باسم بلغاريا العظمى . ولقد دأبت بعض القبائل
الجرمانية على سبى تلك الشعوب السلافية وبيع رجالها ونسائها الى
عرب اسبانيا ، ولذا اطلق العرب عليهم اسم الصقالبة . ثم توسع
المغرب فى استعمال هذا الاسم فأطلقوه على ارقائهم الذين جلبوهم
من امة مسيحية . واستخدموهم فى القصر الخلفى ، ويذكر أن
الصقالبة كانوا يجلبون أيضا من سواحل البحر الاسود ومن لباردييه
وكلايريا فى ايطاليا ، ومن قطلونيا وجليقية فى شمال اسبانيا
كما يقول ابن حوقل فى كتابه : صورة الارض الذى ينقل عنه العبادى .
وجاء اغلب هؤلاء الصقالبة اطفالا الى اسبانيا الاسلامية حيث ربوا تربية
اسلامية ، ودرّبوا على اعمال القصر والحرس والجيش . واستطاع عدد كبير
منهم أن يحتل مكانة عالية فى المجتمع القرطبى ، فصار منهم الأدباء
والشعراء واصحاب المكتبات الكبيرة والنصايح الواسعة .

ومارسوا دورا مماثلا للدور الذى لعبه الاتراك فى عهد الدولة العباسية فى عصرها الثانى ، ومماثل للدور الذى لعبته الانكشارية فى الدولة العثمانية ، بل جاءت الانكشارية على صورة ماثلت الى حد ما اسلوب حياة الصقالبة المميز داخل القصور سواء أكان ذلك من ناحية الاسلوب التربوى ، ام من ناحية الاسلوب العسكرى الذى خضع له أولئك الصقالبة فى قصور الدولة الاموية وخارجها . وقد تعاضم نفوذ هؤلاء الصقالبة فى عهد عبدالرحمن الناصر ، ثم المنصور بن ابي عامر وابنه عبدالملك ، حتى لقد عرفوا بالعالميين .

وبجانب هذه العناصر كان اليهود يشكلون كما ذكرنا قسما مهما من السكان ، اضطلعوا بالتجارة والمهاتل المالية فى معظم الاحيان .

هذا المجتمع بكل عناصره الرئيسية المكونة له كان من المستحيل توحيد صفوفه ، بل قل توحيد قلوب سكانه نحو شعور قومى موحد ، وذلك لان كل منهم كان يهتم اهتماما مباشرا بعصبية الدينية والعرقية قبل اى شئ آخر ، فاذا دهمته داهم انشغل فى الدفاع عن مصالحه الشخصية أولا ، ثم عصبية الجنس ثانيا .

على أن من المهم أن نشير هنا الى أنه بالرغم من ذلك التناحر السياسى ، الا أن هذه العناصر العرقية والدينية المكونة للمجتمع الاندلسى لم تتحرج عن الاخذ ببعضها البعض فى باقى مناحى الحياة الثقافية والفكرية والعلمية والادبية .

== ويدوان بدء استخدام الصقالبة فى الاندلس كان منذ ايام الامير الحكم الربضى ، ثم اخذ عددهم يزداد بسرعة حتى بلغ على عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر حوالى ٣٧٥٠ من الرجال ، ٦٥٠ من النساء . وهذه الارقام مختلف فى تقديرها ، ولكنها تدل عموما على وجود طبقة جديدة فى المجتمع الاندلسى مثل الممالك الاتراك فى المشرق الاسلامى .

ويرى بعض المؤرخين أن اعتماد الامويين فى الاندلس على هؤلاء الصقالبة فى الجيش والحكومة ، كان هدفا من نفوذ الارستقراطية العربية فى الحكم وازعاف سيطرة الجند من العرب والبربر)) .

انظر ، ص ٢١١ - ٢١٣ ايضا

كما كتب احمد مختار العبادى فى مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمطريد ، المجلد الثالث عشر ، ١٩٥٣ م . بحثا مطولا عن الصقالبة فى اسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية . كما كتب سعيد طشور فى كتابه : اوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٥٩٦ - ٦٠٢ بحثا عن السلاف أو الصقالبة وحركتهم التوسعية .

أما من القدامى فقد كتب ابو عبيد البكرى فى كتابه المذكور سابقا فقرة واسعة عن الصقالبة من ص ١٥٤ - ١٩١ .

٢ - ولعل ثانياً الأسباب غير المباشرة لسقوط الدولة الأموية هو جغرافية إسبانيا وما لعبته من دور في عدم استقرار البلاد تحت وحدة سياسية منذ أيام القوط إلى الآن دون مبالغة . فشبّه جزيرة أيريريا تغلب عليها الطبيعة الجبلية الوعرة ، وجبّتها العناية الإلهية بأودية وهضاب وسلاسل جبلية ضخمة ، وأماكن نائية كانت ملاذاً للشائرين والخارجين على النظام . وانعكست هذه الطبيعة القاسية على الوضع السياسي في شبه الجزيرة الأيبيرية . فلم تستطع أية حكومة مركزية سواء أكان ذلك في عهد ملوك القوط الأسبان ، أم في عصر ولاية الأندلس ، أم في عهد أمراء وخلفاء بني أمية ومن خلفهم إلى وقت قريب من العصور الحديثة . نقول لم تستطع تلك الحكومات أن تحقق وحدة سياسية تضم شبه الجزيرة كلها أو معظمها إلا بالقوة المسلحة الشديدة ، وبفضل مميزات ذاتية فريدة لملوك أقوياء غير عاديين . فإذا ضعفت هذه الحكومة المركزية أو تولى أمرها ملوك ضعفاء طدت عوامل التفكك الجغرافي تلعب دورها . وهكذا فإن التاريخ السياسي لإسبانيا القوطية ثم المسلمة فالنصرانية كان يتأثر دائماً بهذا الواقع الجغرافي الطبيعي . فإذا تيسرت السلطة المركزية القوية في يد أي حاكم مسلم أو مسيحي ، استطاع أن يفرض الوحدة السياسية والعكس بالعكس . رأينا ذلك في عهد الولاة ، وفي عهد عبدالرحمن الداخل وخلفائه : هشام ، الحكم ، عبدالرحمن الأوسط ، وفي عهد عبدالرحمن الناصر والمنصور بن أبي عامر ، وسانشو غارسيا الكبير ، وابنه فرديناند الأول ، والفونسو السادس ، والفونسو المحارب ، والفونسو السابع وغيرهم من الملوك الأقوياء الذين وحدوا معظم شبه الجزيرة بقوتهم الشخصية والعسكرية .

٣ - وأخيراً فالتنازل عن نفوذ سبباً مهماً غير مباشر كان له دور ليس في سقوط الدولة الأموية فقط ، بل والدولة الإسلامية في الأندلس كلية . هذا السبب هو : نمو ممالك الطوائف واشتداد حركة الاسترداد الإسبانية (Reconquista) التي بلغت ذروتها في عهدي ملكي قشتالة وأرغون فرديناند وإيزابيلا ، عندما انتهى الوجود الإسلامي في الأندلس عام ١٤٩٢م / ١٤٩٢م .

والحقيقة ان اسبانيا كانت من الامصار التي لم يكتمل افتتاحها • فقامت فيها بالتالى مقاومة نصرانية مسلحة ضد المسلمين منذ عهد الولاة وتطورت الى قيام ممالك النصارى • فقد تكونت بذور هذه الممالك هذه ما عجز العرب المسلمون الفاتحون عن استكمال فتح اسبانيا كلها بفعل ظروف جغرافية قاسية وهى التى اشرنا اليها سابقا • وفعل ظروف سياسية وعرقية اخرى ساعدت كلها فى تكوين امارتين صغيرتين احدهما بقيادة القائد القوطى بلاجيوس أو بلاى ضد المؤرخين المسلمين • وهى التى قامت فى منطقة استوريش (استورية) فى ولاية جليقية القديمة فى شمال غرب شبه الجزيرة اليبيرية • وثانيهما هى امارة كانتا برياً فى شمال البلاد فى مقاطعة بسكونيه أو البشكش قرب منطقة نبره (نافار) بقيادة قائد يدعى بتروس احد ابناء ملوك القوط القدامى • فقد اعصم هذان القائدان بمقاطعتيهما بعد معركة (شريس) فى ظم ٩٢ هـ / ٧١٠ م • وكونا هاتين الامارتين مستغلين طبيعة المنطقة الجبلية • وخلافات المسلمين ومنازعاتهم • ثم توحدت هاتان الامارتان فى مملكة واحدة هى مملكة جليقية او استوريش بعد زواج ابن الدوق بتروس من ابنة بلاجيوس •

ولا يهمننا فى هذا المجال ظروف تكوين ممالك النصارى الا بالقدر الذى يفيدنا فى القاء الضوء على ممالك النصارى فى بداية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى • الذى رافق سقوط الدولة الاموية • فقد اطل هذا القرن على اوسع ممالك نصرانية هى مملكة نبره (نافار) وطصتها مدينة بنبلونه • وتمتد من بلاد البشكش حتى حدود مملكة ليون أو جليقية او استوريش كما كان يطلق عليهما • وظهرت امارة نبره كامارة مستقلة فى عهد الامير غارسيا اليجير انجو اريستا • وقد غدت بعد ذلك ذات اهمية فائقة فى عهد احد احفاده سانشو غارسيا الملقب بالكبير الذى كان يعاصر سقوط الدولة الاموية •

ثم مملكة جليقية او استوريش او ليون وقد سبق أن مر بنا انها كانت تقوم فى المناطق الشالية الغربية من اسبانيا • وقد استمر خلفاء بلاجيوس وبتروس يحكمونها حتى سقوطها نهائيا فى يد ملك قشتاله فرديناند ابن سانشو غارسيا الكبير • وانتهى بذلك وجودها كدولة مستقلة حيث انضوت تحت حكم ملك قشتاله (١) •

(١) : عن ملكتي جليقية ونبره انظر • محمد عبد الله خان : دولة الاسلام فى الاندلس • من الفتح الى بداية عهد الناصر • ص ٢٩٨ - ٢١٢ • ص ٢١٣ • ص ٣٥٣ - ٣٦١ • الخلافة الاموية والدولة العباسية • ص ٤٠١ • ص ٥٩٦ - ٦١٠ •

أما المملكة الثالثة فهي مملكة قشتالة التي تكونت في المناطق التي تعرف في الجغرافيا الإسلامية بولاية انبسه أو البسه ، والقلاع ، وفي الجغرافيا الأسبانية كانت تندرج ضمن منطقة برودوليا ، ثم سميت قشتالة بعد ذلك لكثرة الحصون فيها . ثم غدت بعد ذلك دولة مستقلة مارست دورا أساسيا في حياة أسبانيا وحتى زوال الوجود الإسلامي بها ، وتهد هذه المملكة شرقا حتى هضاب نهر (نائار) ، وغربا حتى مملكة ليون أو جليقية ، وجنوبا حتى أريوخا ونهر دويره . وقد أسسها زعيم من زعمائها البشكش وهو (فرنان كوثالت) فاستقل بها . ثم دخلت ضمن أملاك سانشو غارسيا الكبير بالوراثة والمصاهرة ، فولى عليها ابنه فرديناند .

أما الإمارة الرابعة فهي إمارة برشلونة (قطالونيا) في الشمال الشرقي من أسبانيا والتي خضعت لحكم أسرتين قوطيتين هما آل بوريل ، ثم آل برنجير المعاصرين أيضا لسقوط الدولة الأموية . ولم تظهر إمارة أرغون (أراجون) التي كانت تقوم في منطقة شيزروا ، والتي ضمت لها منطقة سورايبى القريبة منها إلا بعد وفاة سانشو غارسيا الكبير الذي عهد بحكمها إلى ابنه راميرو ، ثم ملبشت بعد ذلك أن أصبحت أقوى الممالك النصرانية ، وذابت بينها وبين مملكة قشتالة مملكة نبره المستقلة .

- (١) : البه والقلاع علمان جغرافيان يستعملان عادة معا في النصوص العربية . أما البه : Alava فهي الإقليم الواقع عند منابع نهر ابروه على الضفة اليمنى (الشمالية) للنهر ، واصل الاسم غير معروف . أما القلاع فيراد بها المنطقة التي تعرف اليوم بقشتالة القديمة (Castilla Vieja) سماها العرب كذلك لكثرة قلاعها وقد يكون العرب ترجموا بذلك اسمها القديم (Castellae) .
- والبه اليوم إحدى المديريات الثلاث التي يتكون منها إقليم (Vascongadas) وقاعدتها سان سباستيان وسكايبة (Vizcaya) وقاعدتها بالبواو Bilbao و Alava وهي أكبرها مساحة وعاصمتها Vitoria .
- انظر ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ١ ح ٢ ، ص ١٣٥ - ١٣٦ .
- (٢) : محمد عبد الله خان : الخلافة الأموية والدولة العباسية ، ص ٥٩٠ - ٥٩٢ .
- دول الطوائف ، ص ٣٧٧ - ٣٧٨ ، ص ٤٠٥ - ٤٠٦ ، ص ٤٠٩ - ٤١٠ .

هذه الممالك النصرانية مارست كل واحدة منها سياسة الاسترداد ، ولم تتوقف للحظة من التفكير في انهاء الوجود الاسلامي ، وساعدتها في ذلك الظروف الجغرافية ، كما واتتها ايضا فرص الخلافات والمنازعات بين المسلمين منذ الفتح وحتى نهاية الدولة الاسلامية في الاندلس . وازداد الامر خطورة عندما بدأ الشائرون على الدولة الاسلامية يطلبون مساعدة هذه الممالك ضد اخوانهم المسلمين ، فاستغل هؤلاء العرض ابشع استغلال حتى لقد باتت المساعدات الورقة الراححة في ايدهم يلوحون بها بل يبتزون بها حكام المسلمين .

على ان اخطر ما في القضية هو طلب الخلافة الاموية في اثناء تولي خلفائهم الضعاف السلطة ، المساعدة العسكرية من هذه الممالك النصرانية ضد بعضهم البعض . وهي سابقة خطيرة تجرفت فيها الخلافة وهوت معها كرامتها وهيبتها الى الحضيض . فلا يجب ان نفاجأ اذا ما رأينا الخليفة سليمان المستعين يطلب مساعدة سانشو غارسيا امير قشتالة ضد ابن عمه الخليفة محمد المهدي . ولا نعجب اذا ما رأينا المهدي يقوم بدوره بطلب مساعدة امير برشلونه الكونت رامون بوريل وأمير اورقلة الكونت آرمينجو . وكل هذه المساعدات كانت مقابل ثمن باهظ هو التخلي عن كثير من الاراضي والحصون لأمرأ هذه الامارات الاسبانية . بل رأينا للأسف الشديد الخليفة الشرعي هشام المؤيد يتهالك ويستجدي في طلب مساعدة سانشو غارسيا . وتأكد ما قلناه من أن أمراء وملوك انصارى كانوا يلعبون بورقة المساعدة لبيتزوا بها من يدفع لهم اكثر او بمعنى آخر من يتنازل لهم عن الكثير من اراضي وحصونه ، وفي نفس الوقت كرامته وعزته . فقد رأى سانشو غارسيا أن مصلحته تقتضى رفض طلب سليمان المستعين الذي رفض خلافة هشام المؤيد الثانية ، ومساعدة هشام الخليفة الشرعي لقاء تنازل ضخم عن عدد كبير من الاراضي والحصون .^(٣)

وهكذا فقد اصبحت عملية الاستعانة بالانصارى خطة اساسية في سياسة ملوك الفتنة بعد ذلك . وهذا ما ادى في النهاية الى سقوط الدولة الاسلامية في الاندلس كلها . وهكذا سقطت الدولة الاموية صريعة اخطائها السياسية الآنية ، وصريعة ظروفها وأوضاعها الاجتماعية والجغرافية والسياسية ايضا .

-
- (١) : حدث ذلك عند لقاء سليمان المستعين مع المهدي في معركة قنتش المذكورة سابقا انظر محمد عبدالله غان : الخلافة الاموية والدولة العمارية ، ص ٦٤٦ .
 (٢) : حدث ذلك عند لقاء المهدي مع المستعين في معركة عقبة البقر المذكورة سابقا .
 (٣) : محمد عبدالله غان : نفس المرجع السابق ، ص ٦٥٠ - ٦٥١ .

قيام ممالك الطوائف

أدى سقوط الدولة الاموية الى نتائج فورية مباشرة ، وهى افتراق كلمة الاندلس وتفرقها شيئا واحزابا ودولا . واستأثر كل من لمس فى نفسه القدرة والجرأة فى آحاين كثيرة ، والكفاءة والجدارة فى احيان قليلة بمنطقة من المناطق التى كان يعيش فيها او بالقرب منها . وتكونت من هؤلاء المنتزين دويلات المدن التى عرفت بممالك الطوائف والتى بلغ تعدادها بضعا وعشرين دولة . ودامت مدة حكم هذه الدويلات بضعا وسبعين عاما ، وان كان بعضها قد استمر بعد ذلك حتى بداية الثلث الاول من القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى كدولة آل هود حكام سر قسطه . ونعرض الان فى ايجاز بالغ لكل دولة من هذه الدول او معظمها بالاحرى ، من حيث الموقع وتوسعها ونهايتها ، على أن تفصل بعد ذلك علاقات هذه الدول مع دولة بنى عباد موضوع بحثنا هنا .

١ - مملكة اشبيلية :-

لن نمضى طويلا فى الحديث عن مملكة اشبيلية وذلك لانها بداية هى موضوع بحثنا هذا ، ولكن ما نستطيع ايجازه فى هذا المقام هو الاشارة الى ان هذه المملكة تكونت فى مدينة اشبيلية احدى الحاضرات الاندلسية الكبرى آنذاك . وقد تأسست على يد القاضى محمد بن اسماعيل بن محمد بن عباد احد ابرز البيوتات الاشبيلية العريقة وقتذاك . الذى ينتسب الى قبيلة لخم اليمنية الشهيرة . وقد تأسست هذه المملكة فى اشبيلية عام ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م ، واستمرت حتى عام ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م عندما سقطت على يد المرابطين كما سنعرف لاحقا . وقد شهدت هذه المملكة حكم ثلاثة ملوك من بنى عباد هم : القاضى ابوالقاسم محمد ابن اسماعيل مؤسس الدولة ، ثم ابنه المعتضد عباد الذى وسع رقعة الدولة ، ثم المعتمد بن المعتضد الذى بلغت الدولة فى عهده ذروة قوتها وحضارتها ورفيها ، الى أن سقطت على يد المرابطين كما سنرى بعد ان شاء الله .

٢ - مملكة قرطبة :-

الموقع : تقع هذه المدينة في الجزء الأوسط الجنوبي من الأندلس ، وتضم عاصمة الخلافة القديمة وما إليها من الأراضي المتوسطة .

مؤسسها : بعد الفاء الخلافة الأموية نهائيا عام ٤٢٢هـ / ١٠٣١م ، قرّر رأى سرة قرطبة ووجهاءها على أن يمهّدوا بحكمها إلى الوزير أبي الحزم جهور بن محمد بن جهور الذي كان ينتسب إلى بيت رئاسة وزارة طوال عهد الدولة الأموية . وقد قاد الدولة بنظام رئاسي شبه مجلس الرئاسة المعاصرة ، وإن كانت السلطة العليا قد ظلت في يده ، واستمر يحكم الدولة حتى وفاته . ثم تولى ابنه أبو الوليد الحكم بعده .

نهايتها : سقطت هذه المملكة نهائيا في يد المعتمد بن عباد عام ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م وقد عدت من يومها جزءا من مملكة اشبيلية ، وذلك على أثر الانشقاق العائلي الذي يكن للعباد بين هذه الفرقة (١) وهو ما سنتناوله بالشرح والتفصيل في فقرة قادمة إن شاء الله .

٣ - مملكة سرقسطة :-

الموقع : كان يطلق عليها أيضا الثغر الأعلى ، وتضم هذه الولاية : سرقسطة وأعمالها (تطيلة ، ووشقة ، وبرشتر ، ولاردة ، وأفراغة ، والطركونة ، وطوبوشة) (٢) .

- (١) : يراجع في ظروف قيام دولة بني جهور وموقعها ومؤسسها وسقوطها المصادر والمراجع التالية : - ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ٤ ص ١٨٥ - ١٨٧ ، ص ٢٠٩ - ٢١٠ ، ص ٢٥٩ - ٢٦١ . - ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الأول - المجلد الثاني ، ص ١١٤ - ١١٦ . - ابن خاقان : مطمح الأنفس ومسوح القانس في ملح أهل الأندلس ، ص ١٦ - ١٧ . - ابن بشكوال : الصلة في تاريخ علماء الأندلس ، قسمان ، القسم الأول ، ص ١٣١ . - ابن الأبار : الحلة الميراث ، ج ٢ ، ص ٣١ - ٣٣ . - ابن سعيد المغربي : وشى الطوس في بني جهورية الأندلس ، ج ١ ، ص ٥٥ . - ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ص ١٢٧ - ١٥١ . - خالك الصوفي : تاريخ العرب في أسبانيا (جمهورية بني جهور) .
- (٢) : عن الثغر الأعلى وغيره من الثغور أنظر فيما بعد ، ج ٢ ، ص ٣٧ .
- (٣) : محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ٢٦٥ .

أهميتها :- كانت مملكة سرقسطة اعظم ممالك الطوائف وأهمها ، اذ كانت تجاور ممالك النصرى الاسبانية الشمالية . وتقع بين برشلونه من الشرق ونبره من الشمال الغربى وقشتاله من الجنوب والغرب .^(١)

مؤسسها :- شهدت هذه الممالك منذ بداية الفتنة حكم اسرتين عربيتين هما : بنو تجيب الذين كانوا يلوها من قبل المنصور بن ابي طمر ، ثم انتهت هذه الاسرة بمقتل منذر بن يحيى الذى ولاه سليمان المستعين أحد خلفاء الفتنة سرقسطة . ثم اسرة بنى هود الجذاميين الذين ينتسبون الى روح بن زنباع الجذامى أحد مستشارى الدولة الاموية فى المشرق . وقد تولى اول هولاء الجذاميين وهو سليمان بن هود حكم سرقسطة بعد فرار قاتل منذر ابن يحيى التجيبى عنها ، فضبتها أحسن ضبط حتى توفى .

نهايتها :- استمرت هذه الدولة منذ ذلك التاريخ حتى سقوطها نهائيا فى طم ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م^(٢) .

٤ - مملكة بلنسية :-

الموقع :- تقع فى منطقة شرقى الاندلس وتتبعها مدينة شاطبة^(٣) .

مؤسسها :- كان يلى هذه المدينة من قبل الدولة الاموية الوزير عبدالرحمن ابن يسار ، ثم ما لبث أن غلب عليها اثنان من القتيلان الصقالبة .

- (١) : محمد عبدالله خان : دُول الطوائف ، ص ٢٦٤
(٢) : يراجع فى اخبار قليم دولة بنى هود فى سرقسطة وسقوطها والاحداث التى مرت بها :
- ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٧٥ - ١٧٦ ، وص ١٧٨ - ١٧٩ ،
وص ١٧٩ - ١٨٠ ، ص ٢٢١ - ٢٢٩ . - ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الثانى ، ص ١٥٢ - ١٥٣ ، ص ١٥٦ - ١٥٨ . - ابن الخطيب : الاحاطة فى اخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبدالله خان ، ٣ مجلدات ، مجلد ٣ ، ص ٢٨١ - ٢٨٤ . واعمال الاعلام ، ص ١٧٠ - ١٧٦ ، وص ١٩٦ - ٢٠١ .
(٣) : مدينة شاطبة Jativa مأخوذ اسمها من الاسم الرومانى Suetabis ، وهى مدينة تقع فى شرقى اسبانيا من اعمال بلنسية على بعد ٥٦ كم فى الجنوب الغربى منها . وكانت دائما تتبع اداريا مدينة بلنسية .
انظر ، ابن الكردبوس : المصدر السابق ح ٣ ، ص ٩٦ - ٩٧ .

وهما مبارك ومظفر اللذين توليا أمرها ، ثم تولاهما بليب الصقلي بعد مبارك .
وعندما سمى الفتيان العامريون وعلى رأسهم خيران ومجاهد في تقديم ابن مولاهم
عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور ، اسندوا اليه اى لعبد العزيز امر المدينة
بعد ان ثار اهلها بليب الصقلي ، وتلقب بالمؤمن والمنصور .
نهايتها :-

استمر عبد العزيز فى حكم مدينة بلنسية حتى وفاته طم ٤٥٢ هـ /
١٠٦٠ م ، فخلفه ابنه عبد الملك الى أن خلفه عنها المأمون بن ذى المنون
فى طم ٤٥٧ هـ / ١٠٦٤ م . وانتهى بذلك وجود تلك المملكة (١) وتولى حكمها
فعليا نيابة عن المأمون ، آل عبد العزيز من أعيانها ، ثم آل جحاف ، حتى
سقطت فى يد القبيطور طم ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م .

٥ - مملكة بطليوس :-

الموقع :- تقع الى الشمال من مملكة اشبيلية ، وتمتد من غرب مملكة
طليطلة عهـ مثلث نهر وادى يانة غربا حتى المحيط الاطلسى ، وتشمل
أراضى البرتغال الحالية كلها تقريبا حتى مدينة باجه فى الجنوب .
والعاصمة بطليوس تتوسط هذه الرقعة ، ويتبعها مدن هامة مثل :
مارده ، يابره ، أشبونيه ، شنترين ، شنتره ، قلمورية ، بازو ،
وغيرها (٣) .

(١) : يراجع فى اخبار دولة بلنسية المصادر التالية :- ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ،
ص ١٥٨ - ١٦٧ ، وص ٣٠٣ - عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٩ -
ابن سعيد المغربى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ - ابن الخطيب :
الاحاطة فى اخبار غرناطة ، مجلد ٣ ، ص ٢٩٢ - ٢٩٧ ، واعمال الاعلام ، ص ١٦٣ -
١٦٦ ، وص ٢٢٢ - ٢٢٦ - ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٤ ،
ص ٣٤٨ .

(٢) : عن القبيطور انظر بعد الباب الرابع ، ص ٣٠٤ - ٣٠٦ .

(٣) : محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٨١ .

مؤسسها :- كان يلى هذه المنطقة رجل يدعى سابور الفارسي العامري ، أحد اتباع فائق الخادم مولى الخليفة الحكم المستنصر . وقد استقل بها سابور استقلالا تاما بعد انتشار سلك الخلافة ، وكان يساعده فى حكم الدولة رجل يدعى ابو محمد عبدالله بن مسلمة المعروف بابن الاقطس ، وهو من اصل بربرى من مكناسه بالغرب . غير أن نفوذ ابن مسلمة ما لبث أن استتال حتى على سابور نفسه ، وعندما توفى سابور استبد بالامر دون ابيه اللذين طردهما .

نهايتها :- استمر ابن مسلمة هذا فى حكم بطليوس وتلقب بالنصور حتى توفى طم ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م . فخلفه ابنه محمد بن عبدالله وتلقب بالمظفر . وفى عهده بلغت الدولة أوج عظمتها . ثم توفى طم ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م ، فخلفه ابنه عمر الذى تلقب بالمتوكل والذى سقطت الدولة فى عهده فى ايدى المرابطين طم ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م .^(١)

٦ - ملكة طليطلة :-

الموقع :- تحتل مكانا استراتيجيا على مشارف الاندلس الشمالية وتمصرف بالثغر الاوسط وتشمل رقعة كبيرة فى قلب الاندلس ، وتمتد شرقى بطليوس^(٢)

(١) : يراجع فى اخبار ملكة بطليوس المصادر التالية :
- ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ٤ ، ص ٢٢١ - ٢٢٥ ، و ص ٢٥٠ - ٣٠٢ تقريرا
ابن سعيد المغربي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٦ - ٤٣٧ . ابن الخطيب :
اعمال الاعلام ، ص ١٢٠ - ١٢٦ . ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٤ ، ص ٣٥٠ - ٣٥٢ .

(٢) : الثغر وجمعها ثغور . هو فى الواقع اصطلاح اطلق على كل موضع قريب من ارض الاعداء فيقال له ثغر . وقد استعمل الاندلسيون هذا الاصطلاح للدلالة على حدودهم المجاورة للممالك النصرانية ، فكان هناك ثلاثة ثغور هى :
١- الثغر الاعلى : ويضم مدينة سرقسطة وأعمالها : تطيلة ولارده وطرشوشه ووشقه وغير ذلك . وهو يواجه امارة برشلونه ، ومملكة نبره (نافار) كذلك ، ويمثل هذا القطاع الان منطقة اراغون
٢- الثغر الاوسط : ويضم مدينة طليطلة وأعمالها : كمدينة سالم ووادي الحجارة وقونقه وغيرها . وهو يواجه ملكى ليون وقشتاله .
٣- الثغر الادنى : ويشمل المنطقة التى تقع بين نهر دويره ، ونهر التاجية ، ويضم مدن قورية ومارده وقلمورية وغيرها .
انظر ، ابو عبيد البكرى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٩٤ - ٩٥ .

من قورية وترجالة نحو الشمال الشرقى حتى قلعة ايوب ، وشنتميرة الشرق ،
وجنوب غربي مملكة بنى هود فى الثغر الاعلى . وتمتد شمالا فيما وراء نهر
التاجه ، متاخمة لقشتاله القديمة ، وجنوبا حتى حدود مملكة قرطبة عند مد ينتى
المعدن والمدور ، وتتوسطها طليطلة . ومن أعاليها مدينة سالم ، ووادي
الحجارة وقونقة ، ومويزة ، واقلش ، ومورة ، طلبيره ، ترجالة وغيرها .

مؤسسها :-

اسسها بنى ذى النون البربر ، وهم من قبيلة هواره على اختلاف
نسبهم بين المؤرخين ولم يكنوا ذوى شأن ونباهة الا فى دولة المتصور
بن ابى عامر عندما بدأ نجمهم يسطع . وتولوا حكم (شنت برية)^(١) .
أما طليطلة فقد كان يليها القاضى ابوبكر بن يعيش الاسدى الذى استقل بها
وكان يعاونه مجوعة من الرؤساء . ثم عزل وتولى مكانه عبدالرحمن بن متيوه
ثم قام عليه اهل طليطلة ، وحثوا لابن ذى النون حاكم (شنت برية) فأرسل
لهم ابنه اسماعيل بن عبدالرحمن .

نهايتها :-

استمر اسماعيل يحكم طليطلة حتى توفى ، فخلفه ابنه يحيى
وتلقب بالمأمون . وقد بلغت الدولة فى عهده أوج مجدها ، ثم توفى المأمون
وخلفه اثر ذلك حفيده القادر الى أن سقطت طليطلة فى عهده بيد الفونسو
السادس ملك قشتاله عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م .^(٢)

(١) : شنت برية او (شنت بريه) Santavay بلدة تقع الى شمال شرقى طليطلة . وكانت
كورة كبيرة فى ايام الامارة والخلافة الاموية بل كانت قاعدة هذه الكورة المسمية
باسمها .

انظر ابن البار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ .

(٢) : يراجع فى اخبار دولة بنى ذى النون المصدر والمراجع التالية :

ابن عذارى المصدر السابق والجزء ، ص ٣٥٢ - ٣٠٣ فى صفحات متفرقة .
ابن سعيد المغربى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١ - ١٣ . ابن خلدون :
المصدر السابق ، مجلد ٤ ، ص ١٤٧ - ١٤٨ . ابن الاثير : المصدر السابق ،
مجلد ٩ ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ . محمد عبدالله غان : دول الطوائف ، ص ٩٥ .

٧- مملكة غرناطة :-

الموقع :- تقع في الجنوب الشرقي من مملكة اشبيلية ، وتضم مدينة جيان ، وريه . وكان يطلق عليها ولاية البيرة .

مؤسسها :- عرفنا فيما سبق ان المنصور استقدم عددا كبيرا من البربر الى الاندلس وادخلهم في جيشه . ومن هؤلاء البربر الذين استقدمهم المنصور عشيرة بربرية من قبيلة صنهاجه **بهرقون بنى زوى** . وعندما بدأ تفكك الدولة الاموية ، اقطع سليمان المستعين المذكور سابقا ، بنى زوى الصنهاجين هولاء ولاية البيرة ، ثم . ما لبثوا ان استبدوا بحكمها تحت زطمة رجل منهم يدعى زاوى بن زوى وخاض هولاء البربر احداث تلك الفتنة التى سميت باسمهم وعندما هزم الاندلسيون فى لقاءهم مع البربر فى خلافة القاسم بن حمود كما مر بنا وقتل خليفتهم المرتضى المذكور ، أثر زاوى العودة الى افريقية بعدما رأى استحالة التوفيق بين البربر والاندلسيين ، غير أن اهل البيرة طلبوا منه البقاء ، فرفض فاتجهوا الى ابن اخيه جوس بن ماكسن حيث تولى امرهم وقد ظل جوس يحكمهم حتى طم ٤٢٨ هـ . وهو الذى مصرت فى عهده مدينة غرناطة ، ثم خلفه ابنه بهاديس فى الحكم طويلا الى ان توفى ، فخلفه حفيده عبدالله ابن بلقين .

نهايتها :- استمر عبدالله بن بلقين يحكم غرناطة حتى قدوم المرابطين الى

الاندلس ، حيث انزلوه هو واخوه تميم ملك مالقه من جملة ما انزلوا
(١)
من ملوك الطوائف عن حكمهم

- (١) : يراجع فى اخبار دولة بنى زوى المصادر التالية :
- عبدالله بن بلقين بن زوى : التبيان او مذكرات الامير عبدالله آخر ملوك بنى زوى بغرناطة ، تحقيق ونشر : ليفى بروفنسال ، ص ١ - ١٠٣ على صفحات متفرقة .
 - ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ١ ، ص ١٢٨ ، و ص ٢٢٢-٢٢٦
 - ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول ، المجلد الاول ، ص ٤٠١-٤٠٣
 - ابن سعيد المغربى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٦ - ١٠٨ . - مجهول : نهد تاريخية جامعة فى اخبار البربر فى القرون الوسطى ، منتخبة من المجموع المسمر بكتاب مفاخر البربر ، اعنى بنشرها وتصحيحها ، ليفى بروفنسال ، ص ٤٣ .
 - ابن الخطيب : الاحاطة فى اخبار غرناطة ، مجلد ٢ ، ص ٤٣١ - ٤٤٢ .

٨- مملكة مالقة والجزيرة الخضراء :-

الموقع :- تقع مالقة الى الجنوب من اسبانيا وتطل على البحر المتوسط ،
وتقع في احواز اشبيلية • اما مدينة الجزيرة الخضراء^(١) فتقع على البحر المتوسط
مقابل ثغر طنجة المغربي على البحر نفسه وقريبة من مدينة جبل طارق •
مؤسسها :-

تقلص نفوذ دولة بني حمود بعد خلع طاعهم في قرطبة كما مر
بنا سابقا ، ثم تقلص نفوذها ايضا بعد مقتل يحيى بن علي واقتصر فقط على
مدينة مالقة والجزيرة الخضراء ، بالاضافة الى مدينة سبتة المغربية • وقد
نشبت بين الاخوة من آل حمود وابناء العم كذلك الخلافات التي لم تنقطع ابدا
حتى سقوط دولتهم •

نهايتها :- انتهت امارة مالقة على يد باديس الصنهاجي امير غرناطة
في عام ٤٢٩ هـ / ١٠٥٧ م • وانتهت امارة الجزيرة الخضراء على يد المعتضد
ابن عباد عام ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م^(٣) •

٩- مملكة مرسية :-

الموقع :- تقع مدينة مرسية في شرقي الاندلس ، وهي مدينة اسلامية بحتة
بنيت حديثا بالقرب من مدينة تد مير التي كانت تنسب الى تد مير أو تيود مير

(١) : (تسمى اليوم Algeciras ، وهي ميناء في اقصى جنوب اسبانيا بجوار
جبل طارق ، وتسمى ايضا في المراجع العربية بجزيرة ام حكيم ، وهي جارية
لطارق بن زياد كان قد حملها معه عند فزوه لاسبانيا ، ثم تركها في هذا البلده
فنسبت اليها) •

انظر ، ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٥ •

(٢) : انظر قبل ، ص ٣٠ - ٣٤

(٣) : يراجع في اخبار الدولة الحمودية المصادر والمراجع التالية :

ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٢٠ - ٢٤٣ • ابن خلدون :
المصدر السابق ، مجلد ٤ ، ص ٢٣٠ - ٢٣٦ • ابن الاثير : المصدر
السابق ، مجلد ٩ ، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ • القلقشندي : صبح الاعشى في
صناعة الانشاء ، ج ٥ ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ • محمد عبدالله خان : دول الطوائف ،
ص ١٧٤ • رجب عبد الحليم : دولة بني حمود في مالقة بالاندلس ، ص ٧٠ - ١٠٠ •

حاكم هذه الناحية القوطى فى ايام فتح العرب لاسبانيا . وقد حول عبد الرحمن
الداخل كورة تدمير الى كورة عادية ، وكانت قاعدتها بلدة اوريوه^(١)
وفى عام ٢١٦ هـ / ٨٣١ م اخططت فى عهد الامير عبد الرحمن بن الحكم
(الوسط) مدينة مرسية ، ثم نقلت اليها القاعدة ، وسميت الكورة
كلها بكورة مرسية^(٢) .

مؤسسها :-

توجه خيران العامرى احد الفتيان العامرين كما مربنا
الى شرقى الاندلس بعد نزاعه مع على بن حمود ، فاستولى على مدينة
مرسية عام ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م ، وقد ولى عليها من قبله زهير العامرى
احد رفاقه ، ولما حدثت الوحشة بين خيران العامرى ومحمد بن
عبد الملك بن المنصور حاكم مرسية بعد زهير أنزله عنها ، وعهد
بها الى زميله زهير مرة اخرى . وعندما توفى خيران ، خلفه زهير
على المرسية ايضا بالاضافة الى مرسية ، ولكنه عهد بحكمها الى ابي بكر
بن طاهر احد وجهائها نائباً عنه ، ثم لما توفى زهير خلفه عبد العزيز
ابن عبد الرحمن بن المنصور على المرسية ، فأقر ابن طاهر على مرسية
واكتفى بالسلطة الاسمية عليها .

نهايتها :-

استمر ابن طاهر يحكم مرسية مستقلاً حتى توفى عام
٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م ، فخلفه عليها ابنه ابو عبد الرحمن بن طاهر ، واستمر
يحكمها حتى تطلع محمد بن عمار وزير المتمدن بن عباد الى ضمها

(١) : الكور مفرد ها كورة : مصطلح يطلق على الاقسام الادارية فى الاندلس

(ربما اشبه باللواء ، او المديرية ، المحافظة) . وكان هذا التقسيم

الادارى متبعاً فى الاندلس عدا الثغور .

انظر ، ابو عبيد البكرى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٠٤ .

(٢) : ابن الابار : الحلة السيرة ، ج ١ ، ص ٦٢ . وج ٢ ، ص ٢٠٢ .

ص ١١٦ .

ابنى عباد كما سيربنا ، فأنزل ابن طاهرهما ، ولكن نأشب
ابن عارفيها ما لبث أن غدر به واستقل بالمدينة حتى انزله عنها
المرابطون طم ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م^(١)

١٠- مملكة المرية :-

الموقع :- تقع في جنوب شرق اسبانيا • وكانت امارة المرية تضم
مدينة جيان وسطه واوريهله واوريله ، وتحتل المنطقة الممتدة
من ساحل اسبانيا الشرقى الجنوبى حتى وادى آش ، وحدود مملكة غرناطة ،
وشمالا حتى بسطة وجيان^(٢) .

مؤسسها :-

عندما اظلم الافق بين الصقالبة والبربر بعد استيلاء
سليمان المستعين على الخلافة ، وما حدث بعد ذلك من تولى على بن حمود
الخلافة ، توجه الفتيان العامريون الى شرقى الاندلس ، وتوجه
خيران احد زعمائهم الى مدينة المرية فاستبد بها وأنزل واليها
عنها • وعندما توفى طم ٤١٩ هـ / ١٠٢٨ م خلفه فى حكمها نائبه
زهير • واستمر يحكمها حتى عام ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م عندما قتل
على يد باديس بن حبوس امير غرناطة ، فعهد اهلها الى
كبيرهم ابى بكر الريمى الذى ضبطها • وراسل اهل المرية
بعد ذلك عبدالعزيز بن ابى طمر ملك بلنسية ، فقد مها واستولى عليها ،
ثم عين عليها صهره ابى الاحوص معن بن صيادح نائبا عنه •
وقد استقل بها بعد ذلك استقلالا تاما عن ابن ابى طمر ، ثم لما
توفى ، خلفه ابنه محمد بن معن وتلقب بالمعتصم •

(١) : يراجع فى اخبار مملكة مرسية المصادرات التالية :

- ابن الابار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ ، و ص ١٣٢-١٣٨
و ص ١٤٠ - ١٤٨ • - ابن خاقان : قلائد العقيان فى محاسن الاعيان ،
قدم له ووضع فهرسه محمد العنابى ، ص ٦٨ - ٦٩ ، و ص ٧٢ •
و ص ١٠١ - ١٠٣ • - عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٨٠-١٨٢ •

(٢) : محمد عبدالله غان : دول الطوائف ، ص ١٦١ •

نهايتها :- استمر محمد بن معين بن صلاح المعتصم الواثق
يحكم المرية حتى قدوم المرابطين الذين انزلوا خلفاءها عام
٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م .

١١- مملكة دانية والجزائر :-

الموقع :- تقع مدينة دانية في شرقي الاندلس كما ذكرنا وهي تقع
في شمال اللسان المثلث الممتد من ولاية القنت على البحر المتوسط
ويتبعها الجزر الشرقية : ميورقه ، منورقه ، يابسه المعروفة بجزر
البليار^(٢) .

مؤسسها :- مجاهد العامري احد القتيلان العامريين البارزين كما مر بنا ،
والذي كان يتولى حكم الجزر الشرقية من قبل المنصور بن ابي طمر ، ثم استبد
بحكمها واستقل بها استقلالاً تاماً . ومن اهم اعماله غزوته لجزيرة سردينيا
وتغلبه على جزء كبير منها .

(١) : يراجع في اخبار مملكة المرية الصادر التالية :-

- ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ٥ ، ص ١٦٦ - ١٦٨ . ابن الابار :
الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٧٨ - ٨١ ، و ص ٨٢ - ٨٤ . ابن سعيد
المغربي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٩٤ - ١٩٦ . عبد الواحد
المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٢٧ . ابن الخطيب : اعمال الاعلام ،
ص ١٨٩ - ١٩٢ ، و ص ٢١٠ - ٢١٧ .

(٢) : ميورقه Mallorca ، ومنورقه Menorca ، وجزيرة يابسه Ibiza .
تعرف بالجزائر الشرقية في الجغرافيا الاندلسية (Balearic Islands)
Islas Baleares ، وتقع في شرقي اسبانيا في البحر الابيض المتوسط ،
وتتبع اسبانيا اليوم .

انظر ، ابو عبيد البكري : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٦٦ .

نهايتها :- بعد خطوب كثيرة في عهد مجاهد وابنه علي الملقب
باقبال الدولة ، سقطت دانية نهائيا في يد التتار بن هود
(١)
ط ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م .

تلك هي أهم ممالك الطوائف ، وهناك كثير غيرها نعرض لها عند
الحدث عن علاقة بني عباد بملوك الطوائف ، وهي امارات : شتمرية الغرب ،
ولبله ، وولبه وجزيرة شلطيش ، وقرمونه ، ورنده ، ومورور ، وأركش
وغیرها .

وفي الحقيقة أن هذه الممالك لم تتألف الا من تلك العناصر المتنازعة
التي ذكرناها سابقا ، والتي أثرت في حياة البلاد السياسية والاجتماعية والثقافية .
هذه العناصر التي تكونت منها ممالك الطوائف هي : العرب ، البربر ،
الصقالبة .

أما العرب أو الارستقراطية العربية بالاحرى ، فقد كان لبعضها
من المكانة الاجتماعية والمالية هيا لها الاستئثار بالزعامة والتفرد بالرئاسة
كبني جهور في قرطبة . او كان لبعض الآخر علاوة على ذلك مكانة دينية
مرموقة هيا لها هي الاخرى التفرد بالرئاسة كبني عباد باشبيلية ، في
حين كان لبعض الآخر مكانة عسكرية أو سياسية في بعض النواحي أيام الدولة
الاموية وخلال الفتنة فاستغلت سقوط الدولة وأعلنت استقلالها بما كانت
تقيم فيه أو تحكمه من بلاد . ثم سعت في توسيع رقعتها بعد ذلك كدولة بني هود
في سرقسطة . وهناك من وجد نفسه بمحض الصدفة نائبا في حكم مدينة

- (١) : يراجع في اخبار مملكة دانية المصادر التالية :-
- ابن غاري : المصدر السابق والجزء ، ص ١٥٣ - ١٥٨ . الحميدي :
المصدر السابق ، ص ٣٣١ ، و ص ٣٥٢ - ٣٥٤ . عبد الواحد المراكشي :
المصدر السابق ، ص ١٢٣ . ابن الخطيب : اعمال الاعلام ،
ص ٢١٧ - ٢٢٢ . ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٤ ،
ص ٣٥٣ - ٣٥٦ .

أو ناحية كآل طاهر في مرسية أو نائباً لبعض اقربائه في ناحية من النواحي ، فابتهل الفترة واستقل بتلك الناحية كبنى صراح في ألمرية الى غير أولئك من المنتزين على الثغور والمدن .

أما البربر فقد استقلوا بحكم النواحي التي ولاهم عليها المنصور بن ابي طمر . ثم الخليفة سليمان المستعين وفاء لمساعدتهم له ، وفي نفس الوقت ابعاد لهم . فاستقلوا بتلك النواحي بمقيمين على السلطة الاسمية للدولة ، ومن هذه الامارات والممالك التي تأسست غرناطة ، مالقة ، الجزيرة الخضراء ، ورنده ، وقرمونه ، ومورور ، وأركش .

أما الصقالبة الذين بلغوا مبلغاً عظيماً من القوة ، فعندما شعروا برياح الانتزاع والاستقلال التي هبت في سماء البلاد بعد انتشار سلك الدولة ، وشعروا في نفس الوقت بأن دولة هشام الخليفة الشرعي الثانية لن يستقر لها قرار كما أسلفنا ، وأنهم بالتالي لن يستطيعوا تحقيق مآربهم . فقد فكروا بالانتزاع على ما تحت ايديهم من مقاطعات أو على ما يملكهم الانتزاع عليه ، فاستقلوا بالجانب الشرقي من البلاد ، وكونوا تلك الممالك التي ذكرناها وهي : ألمرية ، ثم دانية . واستمر بعضها حتى قدوم المرابطين ، وذاب البعض الآخر أو انضوى تحت سلطة دويلة أخرى ناشئة كما حدث في مملكة ألمرية .

هذه الدويلات التي تأسست اختلفت الواحدة منها عن الأخرى قوة وضعفاً ، وأهمية وهوان شأن ، وثراء وفقراً حسب شخصيات قادتها ومواردها الطبيعية . وقد انفتحت الدويلات القوية الغنية منها الكثير من مواردها للتوسع وسط السيطرة على الدويلات الأقل منها شأناً ، وأنفتحت أيضاً الكثير من الجهد والوقت والمال في حبك المؤامرات والفتن ضد بعضها البعض . وشاهدنا بكل أسف انقلاب الحليف على حليفه ، ومصادقة عدو الأعداء وازع من ضمير الا ضمير المصلحة البحتة .

على أن أخطر ما وقعت فيه دول الطوائف هو استمرارها في اتباع سياسة خلفاء الفتنة الهادفة الى الاستعانة بالنصارى ضد بعضهم البعض ، وتناسوا قضية الصراع بينهم وبين النصارى على الوجود الاسلامي في البلاد .

(١) واهتموا بمشكلاتهم وخلافاتهم الشخصية فقط كما سيتضح لنا لاحقا .
بيد أنه على الرغم من هذا التفكير والانحلال السياسى للاندلس
فى عصر ملوك الطوائف ، الا أنه يعتبر فى المقابل وكما سيتضح لنا لاحقا ايضا (٢) ،
أرهبى العصور الاسلامية فى الاندلس فى شتى مناحى الحياة الاجتماعية
والاقتصادية والعمرانية والعلمية والادبية . بمعنى أن الحضارة الاسلامية
بلغت ذروتها ، وأوجها بفضل هؤلاء الملوك الذين تنافسوا للارتقاء بممالكهم ،
والبهاة بها أمام الممالك الاخرى .

(١) : انظر بعد الباب الرابع ، ص ٣٤٦ - ٣٥٠ .

(٢) : انظر بعد الباب الخامس ، ص ٣٩٨ - ٤٠٤ .

الباب الأول

((قيام دولة بني عباد))

- أصل بني عباد .
- الموقف السياسى فى الاندلس قبل قيام دولة بني عباد .
- اشبهلية مسرحا للصراع بين بني حمود وسكانها .
- دولة القاضى أبى القاسم محمد (٤١٤ - ٤٣٣ هـ / ١٠٢٤ - ١٠٤٢ م) .

أصل بنى عباد

ينتسب العباديون الى قبيلة لخم اليمنية المشهورة التي فخرت وعزت بانتساب المناذرة ملوك الحيرة لها قبل الاسلام ، ثم فخرت وعزت بانتساب بنى عباد اليها مرة اخرى . ويقول ابن الخطيب فيما يقلبه عن ابن حبان مؤرخ تلك الفترة ومعاصرها في نفس الوقت (جاز الى الاندلس بعد الفتح رهط من لخم تفرقوا في اقطارها ، وانحاز منهم الى غريبها اخوان نعيم وعطاف . ونزل احدهما بقرية يومين ^(٢) ، وتنازل ولده بها مدة من الزمان ، ثم انتقلوا الى اشبيلية ، فتموا وتصدروا للوجاهة والنباهة في دولة الحكم المستنصر بالله ودولة ابنه هشام وحاجبه المنصور . وقد كان نشأ فيهم اصدربيتهم ومؤسسهم مجد هم اسماعيل بن عباد ، فقداه المنصور على خطة القضاء بها ، فاتصل استعماله الى زمن انقراض الامامة الاموية ^(٣) .

(١) : ينتسب العباديون الى قبيلة لخم بن عدي (وهو بطن عظيم ينتسب الى لخم واسمه مالك بن عدي بن الحارث بن موه بن ادد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان من القحطانية . كانت مساكنهم متفرقة واكثرها ما بين الرملة ومصر في الجفارة ومنها في الجولان ، ومنها في حوران والبثينة ومدينة نوى ، ومن بلادهم فلسطين رفح وحدس بالشام ، وقد نزل قوم منهم بمنطقة بيت المقدس ، فدعيت باسمهم ، وتسميها العامة اليوم بيت لحم . ومنهم آل المنذر ملوك العراق ومنوعباد ملوك اشبيلية ، ومنهم بطون كثيرة بالديار المصرية) .
انظر ، عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، المجلد ٣ ، ص ١٠١١ - ١٠١٢ .

(٢) : يقول حسين مؤنس ان دوزي صاحب كتاب تاريخ مسلمي اسبانيا حقق اسمها خلال تعليقاته على الترجمة اللاتينية للنص الذي يتناول يومين فقال ان يومين قرية كان العرب يسمونها Torconina ، غير الملك الفونسو اسمها الى مولينا Molina . وقد رجح دوزي ان الاسم مصحف وأن صحته هو Toriomina وهو بالعربية طور يومين أي جبل يومين .

وعلى أية حال فيومين قرية بقطر اشبيلية كانت اولية بنى عباد منها ، وقد ضبطها حسين مؤنس على نحو مخالف لما ورد في المتن ، وقال ان رسمها يومين أضبط .

انظر ، ابن الابار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ح ١ ، ص ٣٥ ، وح ١ ، ص ٦٣ ، وح ٣ ، ص ٤٥٧ .

(٣) : اعمال الاعلام ، ص ١٥٢ .

على أن هناك من يقول ان عطافا هو ابن نعيم وليس أخاه
 وأنه أول من دخل الاندلس في طاعة بلج بن بشر القشيري ، وأنه
 (كان من اهل حمص من مقلع الشام ، لخصي النسب صريحا وموضعه في حمص
 المريش • والمريش في آخر الجفار بين مصر والشام • ونزل بالاندلس
 بقرية يومين من اقليم طشان^(١) من ارض اشبيلية) •^(٢)

وتسلسل نسب اسماعيل الذي اشار اليه ابن حيان هو :
 اسماعيل بن محمد بن اسماعيل بن قريش بن عمرو بن اسلم بن عطا ، وعلى خلاف
 بين المؤرخين ايضا •

ولعل اول اشارة الى ظهور امر بني عباد هي • عندما
 تولى والد اسماعيل هذا : محمد بن اسماعيل بن قريش الصلاة بطشان^(٣) •

بيد أن انتشار صيتهم ومعد ذكرهم بدأ يظهر منذ أن
 تولى اسماعيل بن محمد هذا خطة القضاء للنصور بن ابي عامر • وقد ظل
 القاضي اسماعيل محط الاعجاب والثناء طيلة مدة حكم المنصور وحتى سقوط
 الدولة الاموية • وكانت مكانته الدينية والاجتماعية تتزايد يوما بعد يوم •
 فتولى بجانب خطة القضاء الامامة في جامع قرطبة • وكان كما يقول ابن عذاري
 (آية من آيات الله علما ومعرفة وأدبا وحكمة ، فحمى مدينة اشبيلية من سطوة
 البرابر النازلين حولها بالتدبير الصحيح ، والرأى الرجيح ، والنظر في الامور
 السلطانية الى أن أتاها أجله سنة أربع وعشرة وأربعمائة) •^(٤)

-
- (١) : طشانه هي *Tocina* في مدينة اشبيلية حاليا •
 انظر ابن الابار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ح ١ ، ص ٣٥ •
 (٢) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص ٦-٧
 (نقل عن ابي رافع الفضل بن علي بن حزم صاحب كتاب الهادي الى
 معرفة النسب المبادئ) •
 (٣) : ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٤ ، ص ٣٣٦ - ٣٣٧ •
 (٤) : المصدر السابق والجزء ٤ ، ص ١٩٤ •

أما ابن بسام وابن الأبار فقد نقلوا عن ابن حيان ما يتضمن
الاشادة به والثناء عليه ^(١) . وان كما لا نفهم تناقض ابن حيان عندما اشار
الى أن اسماعيل (لم يجمع درهما قط من مال السلطان ولا من خدمة) ، ففى
حين أنه قال قبل ذلك أن المنصور قد ولاه خطة القضاء واستعمله عليها .

وتبقى اخيرا قضية انتساب بنى عباد الى ملوك الحيرة ،
ففى قضية اشار اليها ابن الأبار عندما قال ((وقال غير ابى رافع : انهم من ^(٢)
ولد النعمان بن المنذر بن ماء السماء . وذلك كانوا يفخرون ويمدحون ، وهذا
ابن اللبانه يقول ^(٣) .

من بنى المنذر بنى هو انتساب . . . زاد فى فخره بنو عباد
فتية لم تلد سواها المعالى . . . والمعالى قليلة الأولاد ^(٤)))

وليت ابن الأبار كشف لنا عن المصدر الاخر الذى نقل عنه بجانب
ما نقله عن ابى رافع ، لكفانا مؤونة هذه البلبلة . وان كانت ليست بالقضية
المهمة فى تكوين ونشأة دولة بنى عباد ، غير أننا لا يمكن أن نمر عليها دون تعليق ،
خاصة وأن هناك من أنكرها . ويتراءى لنا أن راي نهرت ^(٥) الذى أنكرها ورأى أنها
ضرب من الزعم يحتاج الى دليل لنفيه . فدووى يمسب على هذا الانتساب افتقاره
للدليل ، ولكن فاته هو نفسه أن يقيم الدليل على نفس ذلك .

(١) : الذخيرة ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ٧ - الحلة السيرة ، ج ٢ ،
ص ٣٥ - ٣٦ .

(٢) : ابو رافع الفضل بن على بن احمد بن حزم : هو كما يتضح هنا ابن المفكر والفقير
الاندلسى المشهور ابن حزم . وقد ألف عن بنى عباد كتابا سماه : الهادى
الى معرفة النسب العبادى ، وهو كتاب مفقود اعتمد عليه بعض المؤرخين القدامى .

(٣) : سنعرض له قادم ان شاء الله .

(٤) : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٥ .

(٥) : ملوك الطوائف ونظرات فى تاريخ الاسلام ، ص ٢٠ .
وهذا الكتاب اى ملوك الطوائف وضع عنوانه كامل كيلانى الذى ترجم جزءا من
كتاب راي نهرت . دووى المعروف بـ Spanish Islam ، وهذا الجزء الذى
ترجمه كامل كيلانى يتضمن الجزء الرابع او القسم الرابع من كتاب دووى هذا .
ويقابل الفصول من ١ - ١٣ ، اى من ص ٥٩٥ - ٧١٢ من طبعة لندن عام ١٩٧٢ =

وعلى أية حال فهو يقول (ولكن فرع اسرة آل عباد الذى
تسلسل منه آباؤهم لم يقطن - على ما يظهر - الحيرة بتاتاً ، بل كانوا
يقيمون اخيراً قرب العريش الواقعة على حدود مصر وسوريا فى ناحية حمص) (١)
ويخيل لنا ان هذا ليس هو الدليل المقنع . فمذ متى كان
استقرار جماعة ما فى مكان ما غير موطنهم او مكانهم الاصلى دليلاً على عدم انتمائهم
لذلك المكان او الموطن ؟؟ .

ومهما يكن من أمر فان عدم اشارة ابن حيان معاصر بني عباد
ومؤرخ الاندلس فى ذلك العصر الى قضية انتساب بني عباد للمناذرة يلقى ظلالاً
من الشك ، نعم ولكن لا يرقى الى مستوى الانكار الكلى دونما دليل واضح
مقنع .

== وسنعمد منذ الان الى الاعتماد على ترجمة كامل الكيلانى لكتاب دوزى والمعنونه
بملوك الطوائف كما أسلفنا .
(١) : ملوك الطوائف ، ص ٣٥ .

الموقف السياسى فى الاندلس قبل قيام دولة بنى عباد

كانت اشبيلية بحكم موقعها فى غربي الاندلس وسبب قربها من قرطبة عاصمة الخلافة تتأثر شديد التأثير بكل ما يحدث فى تلك المدينة التى كانت بحكم كونها العاصمة مركز الاستقطاب وملتقى التيارات السياسية السائدة آنذاك . ولقد زادت اهمية اشبيلية ايضا عندما أصبحت ملاذا لاطراف النزاع فى ذلك الوقت ، وهو ما هيا لها بعد ذلك ممارسة اكبر قدر فى حياة الاندلس السياسية والعسكرية والثقافية .

وعندما توفى الخليفة الملعون على بن حمود فى عام ٤٠٨ هـ / ١٠١٨ م ، خلفه نائبه على مدينة اشبيلية اخوه القاسم بن حمود بعد قليل من مقتله . وقد استمر القاسم يحكم قرطبة حتى خلع لاول مرة فى سنة ٤١٢ هـ / ١٠٢٢ م . ومن ثم فقد اضحت الخلافة بعد ذلك نهبا لخلافات آل حمود وصراعاتهم ، اذ أنه عندما خلع القاسم تولى مكانه ابن اخيه يحيى الذى ثار عليه ، أما هو فقد توجه الى اشبيلية حيث دعى له فيها بالخلافة ، وظل هناك متحينا الفرصة للعودة الى قرطبة .

أما يحيى فقد تولى الخلافة اثر فرار عمه القاسم ، واستمرت خلافته سنة ونصف تقريبا ، حيث خلع بعدها . وعاد عمه القاسم مرة اخرى مسرعا ليلى الخلافة فى اواخر عام ٤١٣ هـ / ١٠٢٣ م ، بعد ان ترك فى اشبيلية ولده القاسم واليا عليها مع اخيه وحامية من البربر بقيادة محمد بن زيوى بن دناس اليفرنى . وبعد ان ولى على القضاء القاضى محمد بن اسماعيل بن عباد خلفا لابيه الذى نزل الماء فى عينيه .

غير أن دولته لم تطل طويلا ، فخلع بعد سبعة شهور من عودته قسرك اى فى منتصف عام ٤١٤ هـ / ١٠٢٤ م ، فتوجه الى اشبيلية غير أن اهلها اغلقوا ابوابها فى وجهه ، ورضى أخيرا أن يرفع الحصار عنها شريطة اخراج ولديه له . وانقطعت بذلك دولة بنى حمود فى قرطبة ، الى أن أعيدت

-
- (١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٢٢ - ١٢٥ . ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الاول ، ص ٨٢ - ٨٣ . ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .
 - (٢) : ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١٣١ - ١٣٢ .
 - (٣) : ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١٣٣ - ١٣٥ .

الخلافة يحيى ثانية عام ٤١٦ هـ / ١٠٢٦ م ، الى أن خلت طاعته مرة أخرى فى العام التالى مباشرة لتمدد الخلافة ثانية لبنى أمية حتى خلعوا^(١) نهائيا فى عام ٤٢٢ هـ / ١٠٣٣ م .

وهكذا فاننا لانستطيع فى حقيقة الأمر أن نصف مقدار الشموخ بالياس والخيبة فى عاصمة الخلافة وما يجاورها من المدن الكبيرة كاشبيلية وغيرها . فهم منذ أن بدأت نذر الفتنة تطل فى عهد عبدالرحمن ابن المنصور بن أبى عامر ، لم يهنأوا بالاستقرار والهدوء كلية ، فقد جربوا حكم الامويين بعد فترة تسلط ودكتاتورية فى عهد العامريين أى فى عهد المنصور وابنه عبدالملك وبداية حكم عبدالرحمن هذا ، فلم يجد ذلك فتىلا . وأسهم أولئك الخلفاء الضعاف فى توسيع الهوة فى أوضاع البلاد السياسية والاجتماعية ، وأسهم سليمان المستعين بصفة خاصة فى عظم ذلك بتقريبه للبربر وافتساح المجال لهم لتولى المقاطعات والتحكم فى مصائر السكان . وعندما نقول البربر نعنى بذلك بنى حمود الملويين أيضا ، فلقد تبربروا - ان صح هذا التعبير - وأصبحت لغتهم وعاداتهم لا تختلف عن لغة البربر وحياتهم .

وبدا كما لو أن الفريقين المتصارخين : الاندلسيون والبربر دخلا معركة اثبات الوجود حتى النهاية ، وظهر رد فعل الاندلسيين على تولى على بن حمود الخلافة سريعا ، عندما نادوا بالمرتضى المذكور سابقا خليفة ، وخاضوا به معركة الفاشلة ضد البربر ، أو عند طردهم للبربر ونى حمود فى عهدى القاسم وابن أخيه يحيى .

(١) : ابن غدارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٣ ، و ص ١٤٥ - ١٤٦ .

ولم يجد فتىلا عودة الأمر لبني أمية كما ذكرنا ، كما أن خلافة
بني حمود لم تستطع أن تستل من نفوس السكان الكراهية والحقد على البربر
للاعبارات التي ذكرناها سابقا ، كما أن قصر نظرة بني حمود السياسية وسوء
تفكيرهم من جهة ، وقصر مدة حكمهم من جهة ثانية لم تسهم بطبيعة الحال
فى بناء جدار الثقة بينهم وبين سكان العاصمة وما حولها • ونستطيع أن
نلمس حقيقة اليأس الشديد ، وحقيقة الشعور بالقلق المقترن بالتفاؤل فى
نفس الوقت عندما نرى أن اهل قرطبة وما يحيط بها يحاولون خلع بني حمود ،
واعادة بني أمية ، ثم خلعهم ، واعادة بني حمود ثانية ، ثم خلعهم أيضا ،
ثم اعادة الامر لبني أمية لآخر مرة • وكم كانت تحزنهم تلك المحاولات الفاشلة
التي لم تسفر الا عن مزيد من القلاقل والتفكك والانحلال •

اشبيلية مسرحا للصراع بين بنى حمود وسكانها

وأينا القاضي اسماعيل بن محمد بن اسماعيل يتولى خطة القضاء والامامة باشبيلية في تلك الفترة المضطربة من تاريخ الاندلس . وكان القاضي فضلا عن مكانته الدينية تلك ، ذا مكانة مالية في المدينة ، إذ كان يعهد بأراضيه الكبيرة الى فلاحى اشبيلية ليزرعوها له ثم يقاسمونه المحصول ، وهو ما يعرف بنظام المشاركة . ومن الطبيعي أن يكون والحالة كذلك عين اعيان المدينة وكبير وجهائها ، وعدم عجز عن القيام بمهام القضاء لنزول الماء في عينيه اقتصر على مشيخة البلد وتدبير الرأي (٢)

ويبدو لنا أن ذلك قد تم في طم ٤١٣ هـ أو منتصف طم ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م . أثناء خلافة القاسم بن حمود الثانية ، إذ يذكر المؤرخون أن الخليفة القاسم عهد الى ابن القاضي اسماعيل : ابي القاسم محمد بتولى خطة القضاء ، ولم يكن هذا التقليد في الحقيقة مستغربا أو مستكبرا . فقد كان لمحمد فضلا عن مكانة ابيه الدينية والمالية والاجتماعية ، رصيد من العلم والفقه والادب والمعرفة (٣) ما يجعل من تقليده أمرا متوقعا ، بل هو تحصيل حاصل . وبدأ من تلك اللحظة ارتباط قدر اشبيلية بآل عباد حتى طم : ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م .

أشرنا فيما سبق الى معاناة قرطبة مع حكمها من العامينين فالأمويين فالحموديين لأكثر من مرة وتحملها هي كل تلك الظروف ، واشبيلية وغيرها من المدن بدرجة أقل . وإذا كان لم يتح للأرستقراطية العربية ذات المكانة النافذة في قرطبة أن تحزم رأيها وأمرها نهائيا الا في عام ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م ، فان الارستقراطية الاشبيلية فعلت ذلك في طم ٤١٤ هـ الذي نستطيع أن نعتبره نقطة تحول مضيئة في تاريخ اشبيلية ومنى عباد على السواء .

- (١) : ابن الأبار : الحلة السيرة ج ٢ ص ١٤٦ ح ١ ص ٣٦ .
- (٢) : ابن غاري : المصدر السابق والجزء ٤ ص ١٩٤ .
- (٣) : الحميدى : المصدر السابق ص ٨٠ - ٨١ . ابن بشكوال : المصدر السابق ، القسم لثاني ، ص ٥٢٣ . النباهي : قضاة الاندلس المسمى بكتاب المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ص ٩٤ .

وفى واقع الأمر فان مقومات الدولة او المملكة المستقلة ، بمعنى أدق وجدت فى اشبيلية فى تلك الفترة • فاشبيلية أولا ليست حلبة الصراع الرئيسية بين بنى أمية وبنى حمود ، كما أنها فى الدرجة الثانية كانت تحت تدبير وإدارة (قاضيهما القديم الولاية ، ومطل الغرب قاطبة المتصل الرياسة فى الجماعة والفتنة)^(١) والذي استطاع ان يحكم سيطرته ونفوذه على اشبيلية منذ أن غادرها واليهما القاسم بن حمود طم ٤٠٨ هـ / ١٠١٨ م ليتولى الخلافة فى قرطبة بعد مقتل اخيه كما اشرنا •

ولم تذكر المصادر الاندلسية وغيرها من تولى حكم المدينة بعد خروج القاسم منها طم ٤٠٨ هـ / ١٠١٨ م ليتولى الخلافة فى قرطبة حتى عام ٤١٢ هـ / ١٠٢٢ م ، وهى السنة التى خلع فيها القاسم لأول مرة ، وتوجهه الى اشبيلية ليدعو لنفسه فيها بالخلافة • غير أن هذه المصادر ذكرت بأن القاسم ولى عليها بعد عودته الى قرطبة ثانية طم ٤١٣ هـ / ١٠٢٣ م ابنه محمد ، ويساعده اخوه الحسن وحامية من البربر بقيادة محمد بن زيرى •

واذا كانت المصادر لم تذكر من تولاهما من عام ٤٠٨ هـ حتى طم ٤١٢ هـ / ١٠١٨ - ١٠٢٢ م ، فاننا نستطيع أن نخمن أن السلطة الفعلية على الاقل كانت فى يد القاضى اسماعيل بن عباد الذى ضبطها احسن ضبط (وحوى مدينة اشبيلية من سطوة البربر النازلين حولها بالتدبير الصحيح والرأى الرجيح والنظر فى الامور السلطانية الى أن اتاه أجله سنة أربع عشرة وأربعمائة)^(٢)

واذا كان القاسم بن حمود قد ولى ابو القاسم بن القاضى اسماعيل القضاء فى اشبيلية بعد مرض أبيه ، فانه قد قدر له كفايته ومكانته ، وهى الامور التى مكنت له فى النهاية من تأسيس دولته فى وسط ذلك الكم الكبير من الزخم السياسى فى الاندلس • ولقد رأى القاضى بنظرة السياسى المحنك أن سلطان

(١) : ابن بسام ؟ المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ٧ (نقلا عن ابن حيان) •

(٢) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٩٤ (نقلا عن ابن حيان) •

بنى حمود لن يصمد امام الاطصير الضاغطة آنذاك ، كما رأى أيضا توثب أهل
عاصمة الخلافة للانقضاض على بنى حمود المرة تلو المرة ، فشعر أن في ذلك
فرصته السانحة .

واذا كان قد تعذر على والده الاستقلال باشبيلية في الفترة
من عام ٤٠٨ هـ حتى ٤١٢ هـ / ١٠١٨ - ١٠٢٢ م وهي فترة خلافة القاسم الأولى ،
فربما كان ذلك لأسباب شخصية ، او ربما لان الامر قد استقر بعض الشيء للخليفة
القاسم خلال تلك السنوات الأربع . نقول اذا كان ذلك لم يتم ، فان الوضع
كان على عكس ذلك في عهد القاضي محمد . فبالإضافة الى الانشقاق المائلي
في اسرة آل حمود بظهور يحيى بن على منافسا لعمه ومطالبها بالخلافة
دونيه ، فان خلال القاضي وصفاته تختلف عن صفات أبيه فلقد (كان القاضي
كما وصف زاخر العباب ، متألق الشهاب ، أذكى من قاش وقلد ، وأدهى
من اتهم واثجد ، يأخذ وكأنه يدع ، ويطير فيحسب أنه وقع)^(١) فمن الطبيعي
أن يعمل القاضي على الاستقلال باشبيلية ، فهو لم يكن أقل المنتزعين
المتغلبين على المدن شأنًا من جهة ، كما أن تعطيل ازدهار المدينة
وانهك مواردها التي تذهب استعدادا للحرب والحصار ، لاتسمح بالتراخي
والتخاضى من جهة ثانية . فلمل القاضي فكر أنه قد يستطيع أن يحقق
لمدينته ما تصبو اليه من استقلال وازدهار وشراء يبرز به مدينة قرطبة
وهو ما استطاع تحقيقه فعلا هو وابنه المعتضد وخفيده المعتمد بعد ذلك .

القضاء على نفوذ بنى حمود في المدينة :-

بعد أن سئم أهل قرطبة من حكم القاسم بن حمود عملوا
على خلع طاعته ، واستطاعوا تحقيق ذلك في سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٤ م كما ذكرنا
سابقا . ولذا فقد توجه القاسم الى اشبيلية للمرة الثانية علىه يستطيع
من هناك معاودة الكرة كما فعل في المرة الأولى مطمئنا هذه المرة من
أنه قد ترك ابنه واليا عليها تحت حماية البربر الذين تركهم هناك . وطلب من أهل
المدينة أن يخلوا له ألف وخمسمائة دار ليقطنها هو ومؤيدوه من البربر .

(١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص ٩ - ١٠ (نقلا عن
ابن حيان) .

وكان القاضي محمد قد دغدغ مشاعر قائد الحامية البربرية في المدينة محمد بن زيرى ، عندما مناه بأن يكون له الامر فيها اذا ما ساعد أهلها على خلع طاعة القاسم وطرده هو وأولاده من المدينة . وكان القاضي فى كل محاولاته هذه قد نسق جهوده مع اهل المدينة وخاصة ذوى الرأى والمشورة فيها . ولذلك فعندما ضمن الاشبيليون موقف قائد الحامية ، حاصروا محمد ابن القاسم وأخاه وجماعتهما من البربر فى دار الامارة . ووقع القتل فى صفوفهم ، ولم يستطع القاسم فعل اى شئ سوى ضربه الحصار على المدينة ، وأخيرا اقتنع بأن يرفع حصاره عنها مقابل أن يسلموا له أولاده وأموالهم ، فتم ذلك ، وتوجه القاسم وأولاده الى مدينة شريس^(١) .

وهكذا استطاع الاشبيليون رفع نير الحمود بين عن مد ينتهم والاستقلال بها بفضل سياسة زعمائهم وعلى رأسهم القاضي محمد بن اسماعيل . ولسنا نرى فى الحقيقة فى مسألة استقلال القاضي بالمدينة أى أثر للخيانة التى أشار اليها المؤرخون القدامى كبن بسام مثلا الذى يقول (وكان القاسم بن حمود قد اصطنعه بعد مهلك ابيه اسماعيل ورد عليه ميراثه من قضاء بلده بعد بعده عنه مدة ، وحصل منه بمنزلة الثقة فخانته بخون الايام عند ادبارها ايثارا للحزم وطلبا للحافية)^(٢) فكونه قد ادرك مصلحة بلاده وأنه لا يمكن لها التمتع بالاستقرار والهدوء والازدهار طالما ظلت فى حكم الحمود بين المضطرب والمكروه فى نفس الوقت . فان ذلك ليس دليل خيانة بل هو دليل ينم عن شعور وطنى محمود . صحيح أننا لانستطيع أن نفعل المطامع الشخصية للقاضى ، الا أننا نستطيع أن نعتبر موقفه ضربا من الوطنية لعب ورقتها لتصب فى قناته هو أخيرا ، وانا ما أخذنا فى الاعتبار أن القاضي لم يكن يصدر فى موقفه من فردية مطلقة ، انضح لنا أن كل وصف يمكن أن يلصق بالقاضى الا الخيانة التى لاتخامر الاذهان الحموديين فقط .

وسنرى بعدئذ أن القاضي ومن معه كانوا محقين فى خلع طاعة الحموديين ليقودوا المدينة الى الطريق المشرق الذى خطه لها هو وعائلته من بعده .

(١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ١٦ - ١٧ .

رجيب عبد الحليم : الرسالة السابقة ، ص ١٠٣ - ١٠٨ .

(٢) : ابن بسام : نفس المصدر السابق والقسم والمجلد اعلاه ، ص ٧ .

دولة القاضي أبي القاسم محمد ٤١٤-٤٣٣هـ / ١٠٢٤-١٠٤٢م

مجلس الرئاسة في اشبيلية :-

تخلص الاشبيليون كما رأينا من القاسم وابنائهم وجماعته بعد تلك المشقة التي عرضنا لها ، وبدأت المدينة تتحس طريقها الى الهدوء والاستقرار . وكان لابد من وجود قيادة تدير شئون المدينة وتعيد لها ما أفسدته الحرب والحصار ، وكان أن عرض أهل المدينة على القاضي محمد بن اسماعيل كبير وجهائها وأغنى أغنيائها الذي كان يملك وحده ثلث أراضي اشبيلية وصاحب الفضل الأول في تخليص المدينة من بني حمود أن يتولى حكمها .

ولم يفاجأ القاضي في حقيقة الأمر بهذا المطلب البتة ، فقد كان ذلك شيئاً طبيعياً . ولكن القاضي كسياسي مخنك يتقن من أحاييل السياسة والأعيابها الكثير أظهر التعفف والاباء ، غير أن القوم ألحوا في ذلك ، فوافق شريطة أن يشترك معه في حكم المدينة جماعة من أهل الرأي والمشورة والعلم ، وهؤلاء الرجال هم : الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي مؤدب هشام المؤيد وصاحب كتاب العين في النحو ، ومحمد بن يريم اللهاني ، وأبو الاصبح عيسى بن حجاج الحضرمي ، وأبو محمد عبدالله بن علي الهوزني على خلاف بين المؤرخين في عددهم (١) .

وتولى هذا المجلس حكم اشبيلية ، وكان القاضي يتولى كما يبدو لها السلطة التنفيذية ، في حين كان أعضاء المجلس الآخرين يتولون معه السلطة التشريعية . ويقول صاحب الذيل المضاف الى البيان المغرب (فسار أمر أهل اشبيلية الى ثلاثة من أهلها أحدهم القاضي محمد بن عباد ، والثاني الفقيه ابو عبدالله الزبيدي ، والثالث الوزير ابو محمد عبدالله بن مريم ، فكانوا يحكمون في النهار في القصر ، وينفذون الكتب تحت ثلاثة خواتم .

(١) : ابن غداري : المصدر السابق والجزء ، ص ١٥٥-١٦٠ . (نقلا عن ابن حيان) . - مجهول : ذيل مضاف الى البيان المغرب ويتعلق بأخبار دول ملوك الطوائف بجزيرة الاندلس ، ص ٣١٤-٣١٥ . - عبدالواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٤٨-١٤٩ . - ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٤ ، ص ٣٧٧ .

(١)
وينصرفون آخر النهار

وكانت تلك تجربة فريدة في حقيقة الامر في بلاد الاندلس لم يعتد اهلها على مثلها . والواقع اننا لا نستطيع ان نمثل هذا الشكل من الحكم وصفا دقيقا ، فلا نعلم هل يمكن وصفه بالنظام الرئاسي الديمقراطي أم أنه ام كان مجلس مشورة ينفرد فيه القاضي ابن عباد بالسلطة التنفيذية ؟ . نكاد نتبين انه اقرب الى الى هذا النوع من الحكم الذي يتولى فيه القاضي السلطة التنفيذية دون زملائه من الاعضاء في المجلس ، ثم ما لبث ان استبد بالامر وحده^(٢) . كما لا نعلم التاريخ المحدد الذي تولى فيه هذا المجلس الرئاسي الجماعي حكم المدينة ؟؟ ولكننا نحس انه قد تم عقب اخراج الحمويين عن المدينة ، كما اننا لا نعلم متى انتهت اعماله ايضا ؟؟ .

ويصعب علينا بالمناسبة قبول وجهه نظر دوزي ، ونشعر ازاءها بالتعجب من بساطة تفسيره لطلب اهل اشبيلية الى القاضي ان يتولى حكم المدينة . فهو يرى بأن (عامة اشبيلية) اتفقوا على ان يلقوا بحكم مسؤولية الحكم على القاضي وحده مستشعرين شعورا خفيا بدنو الساحة التي تصادف فيها ثروة القاضي الطائلة . وان القاضي ادرك الفاية التي رعى اليها (نبلاء اشبيلية واصحاب الرأي فيها) . ونلاحظ أنه قال قبل قليل (عامة اشبيلية) هم الذين طلبوا منه ذلك ، وان القاضي اظهر انه لا يستطيع ان يقبل هذا الامر الا اذا تولى معه الحكم هيئة شورية^(٣) .

ونحن نستبعد هذا فالقاضي خرج من معركته ومعركة مسدينته كأقوى ما يكون ، اذ التفت حوله قلوب سكان المدينة لموقفه الوطني ذلك . هذا من جهة ومن جهة اخرى لم نعلم بوادر حقد طبقى تسعى فيه طبقة العامة للانتقام من بنى عباد وغيرهم من الارسطقراطيين ، ومن جهة ثالثة نتساءل : ممن تصادرت تلك الثروة الطائلة ؟؟ ومع هذا فيجوز ان يكون دوزي قد قصد انه نظرا لما سبق

-
- (١) : مجهول : ذيل مضاف الى البيان المغرب ، ص ٣١٤ - ٣١٥ .
(٢) : J.B. Bury, M.A.F.B.A. : The CAMBRIDGE MEDIEVAL HISTORY, CAMBRIDGE-1929 - VOLUME VI, P 393
(٣) : ملوك الطوائف ، ص ١٩ ، ص ٢٢ - ٢٥ .

أن ذكر عن ثراء القاضى محمد بن اسماعيل ، فمن المحتمل ان اهل اشبيلية تطلعوا اليه لما يملكه من حيث المكانة والثراء ليتولى امورهم ، وينفق على شؤون المدينة ففى هذه الفترة المضطربة من امواله الخاصة حتى تستقر الاحوال فى مد ينتهم . وهذا ما لاحظته فى الواقع J.B.BURY ، وقد ما اشار الى انه بالنظر الى الثروة والجاه الذين كان يتمتع بهما القاضى ، فقد استطاع ان يحكم سيطرته على المدينة .

الموقف السياسى غداة الاستقلال :

لم يطرأ على الموقف السياسى فى الاندلس غداة الاستقلال اى غداة . استقلال اشبيلية تغيير كبير ، فالقوى السياسية التى كانت موجودة قبيل قيام دولة بنى عباد كانت تمارس دورها ونفوذها فيما عدا القاسم بن حمود ، فقد طوته الاحداث تحت ابطى ابن اخيه ، وانتهى وجوده السياسى بالسجن لديه ثم قتله اخيرا . اما يحيى نفسه فقد ارتد قبل خلع اهل قرطبة لعمه القاسم الى مدينة مالقة التى كان يتولاها عند وفاة ابيه بيد أنهم ^{أخذ} يثير القلاقل والمضايقات من هناك .

اما قرطبة فقد اعاد اهلها الامر لبنى امية ثانية . واما بقية القوى السياسية الاخرى ، فقد كانت لاتزال تواصل تحقيق تطلعاتها الاقليمية ومن هؤلاء بنى الافطس اصحاب بطليوس الذين انتظم امرهم بمؤسس دولتهم عبد الله بن محمد بن الافطس المعروف بابن مسلمة ، ان وطيد د عظم مملكته بعد تخلصه من ابناء سابور المذكور سابقا ، فتلقب بالمنصور وعمل من ثم على توسيع رقعة دولته ، وغدا ابن الافطس خصما عيدا قويا لرؤساء الجزء الغربى من الجزيرة .

اما القوة التى كما قد آثرنا التحد شجعها حتى حينها فهى امارة قرمونة البربرية المجاورة لمملكة اشبيلية . وتقع هذه الامارة بين امارة قرطبة شرقا ، ومملكة اشبيلية غربا فى منحنى الوادى الكبير او نهر الوادى الكبير ^(٣) . وتشمل بالاضافة الى قرمونة ^(٤) .

(١) : Op. Cit, VOL VI, P 344

(٢) : انظر قبل التمهيد ، ص ٤٤

(٣) : محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ١٤٨

(٤) : الوادى الكبير او نهر الوادى الكبير : Guadalquivir

هو النهر الذى تطل عليه قرطبة واشبيلية ويصب فى المحيط الاطلسى ، ويعرف ايضا بنهر قرطبة ، وكان يعرف بنهر بيطى

وطوله الى المحيط ثلاثمائة وعشرة اميال .

انظر ، ابو عبيد البكري ، المصدر السابق ، ح ٢ ، ص ٥٨ . ابن غالب الاندلسى ، المصدر السابق ، ص ٣٩

(١) العاصمة مدينة استجة الواقعة شرقها ، ومدينة أو حصن المدور الواقع في غربي قوطبة على نهر الوادي الكبير . وقد أسس هذه الإمارة الحاجب محمد بن عبد الله البرزالي زعيم بني برزال الزناتيين ، فلقد قدم هؤلاء البربر الزناتيين من المغرب إلى الأندلس في عهد الخليفة الحكم . وقد تولى الحاجب محمد بن عبد الله هذا حكم قرمونة منذ أيام الخليفة هشام المؤيد وحتى وقوع الفتن^(٢) .

وعندما استأثر كل واحد من حكام الأقاليم والمغامرين بمقاطعاتهم ، استأثر هو الآخر **نقص** الحاجب البرزالي بالمدينة . وكان له دور كبير في أحداث تلك الفتن وحتى وفاته . وقد وهم ابن البرزالي بالانتهازية والوصولية وترعرع الولاء بين القوى السياسية حسب المكان المسمى تكن فيه مصلحته الخاسرة . وسنتبين بعد الدور الذي مارسه في تلك الأحداث .

ولا شك أن هذا الموقف السياسي الشائك يستلزم قدرا كبيرا من الدهاء والحنكة من القاضي ، وهو ما نجح فيه فعلا .
تكوين الجيش الرسمي للدولة :

لسنا على يقين واضح متى بدأ القاضي يفكر في تأسيس جيش له ولتلك الفتية الوليدة حديثا غير أن مقتضى الأشياء ومنطق الأحداث يجعلنا نعتقد أن أول خطوة يجب أن يصنعها القاضي لتثبيت سلطته هي : تكوين الجيش ولا سيما وأن الظروف السياسية الدقيقة آنذاك يدعو لذلك وبسرعة . ولذا فأنا نضمهم دواعي القاضي وهو يشكل جيشه غضا النظر عن الفئات المتعددة التي تكون منها ذلك الجيش ، إذ يبدو أن الأهم إمامه هو تكوين جيش - كضرورة ملحة - يدافع عن الدولة ، أما

(١) : استجة *Ecija* واسمها القديم *Astigui* وتقع على نهر شنيل وهي الآن مركز إداري في محافظة أشبيلية)

انظر ابن الشباط التوزري : وصف الأندلس قطعة من كتاب صلة السبط وسنة الموطأ ، وهي قطعة في وصف الأندلس وصقلية ، تحقيق أحمد مختار العبادي نشر في مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمطبعة المجلد الرابع عشر - ١٩٦٦ - ١٩٦٧ ، ج ٣ ، ص ١١٢ .

(٢) : يراجع في أخبار دول بني برزال بقرمونة :
- مجهول : نبذ تاريخية جامعة في أخبار البربر في القرون الوسطى ، منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر ، ص ٤٤ - ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ص ٢٣٦ - ٢٣٨ .
(٣) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الأول ، ص ١٢ (نقلا عن ابن خيyan)

تلك الفئات فقد كانت خليطا من البربر والنصارى والعرب^(١)
وعندما نقول ان القاضي هو الذى اسس الجيش فاننا لا نملك الدليل لمعرفة
ما اذا كان ذلك قد تم بمشاركة المجلس؟؟ ام انه قد تم فى عهده بعد ان تخلص من
اعضاء المجلس وانفرد بالرياسة؟؟

الاعتراف بالسلطة الاسمية للخليفة يحيى بن على بن حمود : —

ما من شك فى ان السنوات الاولى لاستقلال اشبيلية كانت حرجة ودقيقة تستوجب
قدرا من الحيطة والحذر من القاضي محمد بن اسماعيل باعتباره رأس السلطة التنفيذية
بالمدينة . فكل دواعي المخاطر كانت تحيط بالدولة الناشئة ، فقد كانت هناك حامية
البربر بقيادة محمد بن زيرى الذى كان القاضي قد مناصحكم المدينة كما ذكرنا سابقا ،
وكان هناك الخليفة القاسم بن حمود الذى لم ينته خطره بعد . ثم خطر الخليفة يحيى
بن على المائل . ونعتقد ان القاضي لم يلق كبير عناء بصد التخليص من محمد
بن زيرى فما لبث ان تخلص منه ، وفخر (وصفت اشبيلية من البرابرة)

اما المأزق الآخر فقد كان مع الخليفة المطرود القاسم بن حمود . فعندما
رفع القاسم حصاره عن المدينة توجه الى مدينة قرمونة حيث كانت طاعته لاتزال قائمة
مؤملا بتنظيم صفوفه وجمع قواه لمعاودة الكرة ربما مع القرطبيين او الاشبيليين . بيد ان
القاضي الذى يتقن من فن الاقتاع والاغراء الكثير اوحى لحاكمها الحاجب محمد بن عبد
الله البرزالي المذكور سابقا بأن يخلع طاعة القاسم ويستأثر بحكمها لنفسه . ووافق الحاجب
اقتناعا منه بخطر القاسم على سلطته ، وطعما فى الاستئثار بها وحده كما كان الامر قبل قدوم
القاسم الى المدينة . وما زال البرزالي حتى اقنع الخليفة القاسم بالخروج الى مدينة شريش^(٣) .

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ٤ ، ص ١٩٤ - ١٩٥ .
وهذا هو ما جرى عليه العرف منذ الفتح وحتى عصر ملوك الطوائف عند تكوين
الجيش فى الاندلس

(٢) : هذا هو تعبير المؤرخين القدامى دائما .
انظر ابن بسام ، المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الثانى ، ص
١٦ - ١٧

(٣) : شريش هي قاعدة او عاصمة كورة شذونه ، وهي على مقربة من البحر ، ومدينة شذونة
كانت تعرف بمدينة ابن السليم ايضا وشذونة مركز ادارى حاليا فى مدينة قادي (الاسبانية)
على نحو ٤٠ كم الى شرقها .
انظر ابن البار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٤ ، ص ٣٣٣ ، ج ٢ ، ص ٢٩٧ .

ونستطيع أن نقدر فرحة القاضي وغيظته من زوال خطر القاسم إذا ما عرفنا بأن المسافة بين اشبيلية وقرمونة لا تزيد عن ثلاثين كيلو متراً فقط كما اشرنا ، وإذا ما عرفنا أيضاً بأنه ليس من السهل الاستخفاف بقوة القاسم العسكرية والعنوية ، فإذا كان القاسم قد قبل مرغماً رفع حصاره عن اشبيلية ، فإنه قد أقدم على ذلك لأسباب غائبية فقط ، أما الآن فله حرية الحركة والتصرف مدعماً من الحاجب البرزالي واليه على قرمونة . ولذا فقد كانت ضربة ناجحة من القاضي عندما استمال الحاجب البرزالي ودفعه للثورة على خليفته وأخراجه من المدينة .

على أن مأزقه الخطير كان مع الخليفة يحيى بن على الذى استطاع أن يهضم على عمه القاسم ويلقى به فى السجن ، فقد غدا بعد هذا الزعيم السياسى للبربر ، والخليفة الشرعى الذى تحيط به صفوفهم فى وجهه الاندلسيين . فلقد توجه يحيى بعد خلع طاعته عن قرطبة لأول مرة عام ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م الى مدينة مالقه التى كان يتولى حكمها قبل قيامه على عمه ، فاستقر بها . وعندما ساء موقف القاسم بن حمود فى قرطبة، خلعت طاعته ثانية ، وتوجه منها الى اشبيلية فصد عنها ، ثم انتهى الامر باعقاله لدى ابن اخيه يحيى ، واعاد اهل قرطبة الامر ثانية لبنى امية كما ذكرنا سابقاً^(١) . ولكن طاعته خلعت فى عام ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م وأعيدت طاعة يحيى بن على الى قرطبة ثانية دون أن يدخلها ، ثم خلعت طاعته ثانية فى عام ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م فتوجه الى قرمونة محتزماً التوجه الى قاعدته مالقه .

ولقد ادرك القاضي مخبة نزول يحيى بجواره وتحالف الحاجب البرزالى المتقلب الولاء معه ، وخشى منهما على استقلال مدينته المشهورة . وقد ظهر ما خشى منه القاضي فعلاً عندما ضربا حصارهما حول عاصمته ولم يكن أمام القاضي الا أن يساوم يحيى اذا لم تكن له القدرة على مواجهته . فاتفق رأيه ورأى اهل المدينة على أن يعترفوا بخلافة يحيى وسلطته الاسمية شريطة عدم دخول البربر الى المدينة . وقنع يحيى بذلك غير أنه

(١) : انظر قبل التمهيد ، ص ٢٢

اشتراط أن يعطوه رهاثن من أبناء النافذين فى المدينة ضمانا
لوفائهم بالشروط (فضن كل بولده ، وادر القاضى فراهنه ابنه عباد ،
فانفرد بالتدبير واستولى على الامور . (١)

وهكذا فلم يتردد القاضى بالمغامرة بابنه ، واثبت أنه
خير من يعرف من أين توكل الكف . كما أن الخليفة يحيى قنع به هذا
ورضى به فهو رهن عظيم . ومن الطبيعى أن يعظم قدر القاضى فى نفوس
أهل المدينة ، وأن يكبروا فيه وطنيته القائقة ، ونستبعد أن يكون أهل
اشبيلية قد عرضوا على يحيى تبعيتهم الاسمية خوفا من هجوم القاسم
عليهم كما جاء فى كتاب (اشبيلية فى القرن الخامس الهجرى) (٢) ، وذلك
لأن يحيى كان فى ذلك الوقت فى مدينة مالقة ، وأن الاعتراف بسلطته فى اشبيلية
لم يتم الا فى اثناء توليه الخلافة فى قرطبة للمرة الثانية طم ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م ،
أو بعد خلع طاهه عنها التى تمت فى طم ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م . اذ يقول ابن بسام
عن القاضى محمد (ولا سلم لأحد بعد لواءها الى أن استوسق الأمر ليحيى
بن على الحمودى حسبما تقدم ، فاضطر أهل اشبيلية الى الانطاع لطاهه والدخول
فيما دخل فيه الناس من جماعته) (٣) .

وكيفما كان الأمر فان اشبيلية رضيت مؤقتا بسلطة

الحموديين الاسمية على مضض .

التخلص من مجلس الرئاسة :-

يصعب علينا معرفة كم من الوقت والجهد احتاجهما القاضى
لتثبيت سلطته منفردا . واذا كان قد استطاع أن يؤسس جيش المدينة ،
ثم يعترف بالسلطة للخليفة يحيى فانه قد كان يصدر فى ذلك عن موافقة
جماعية لخطوته . أما الآن فقد صفا له الأمر وليس أسهل عليه من التخلص من
نفسه أعضاء هذا المجلس . ويبدو أن ذلك قد تم بصورة تدريجية ، ومعنى
آخر يبدو أنه قد بدأ بأقلهم شأنًا حتى انتهى باخطارهم دون أن يلحق كبير غاء

- (١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ١٠ - ١١ .
 - (٢) : صلاح خالص : (نقلا عن مخطوط أدباء مالقه لابن خميس) ، ص ١١٤ - ١١٥ .
 - (٣) : ابن بسام : نفس المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ١٠ - ١١ .
- رجب عبد الحليم : الرسالة السابقة ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(حتى انفرد بسابقته ومهد لدولته ، وأجمع أهل عمله على طاعته ، فدانوا له .
وسلك سيرة أصحاب الممالك بالاندلس لأول وقته ، وقام بايقظ جد وأصح عزمه ،
واخترع في الرياسة وجوها تقدم فيها كثير منهم) (١)

ويأخذ عليه ابن حيان كما ينقل عنه المؤرخون هذه السياسة
الانتهازية بأسلوب يمتزج فيه الانتقاد بالاعجاب المبطن (٢) . وقد شرع
القاضي فور تفرد به بالسلطة في تولية الوزارة لرجل من طمة الناس لم يذكر
لنا المؤرخون عنه شيئاً سوى أن اسمه حبيب . وسنعرض قداماً لما يعنيه
منصب الوزارة وما يشله من أهمية . فتولى حبيب مساعدة القاضي - الملك
في تدبير شؤون الدولة وتصريف أمورها ، ولم يسلم هو الآخر من ذم المؤرخين
ومؤاخذاتهم (٣)

محاولة توسيع رقعة الدولة :-

صفت الأمور للقاضي الداهية وأصبح خالي البال من
مضايقات الحموديين وازعاج مجلس الرئاسة . وزادت غبطته كثيراً عندما
تحالف مع محمد بن عبد الله البرزالي حاكم قرمونة القريبة من اشبيلية كما أوضحنا .
الامر الذي اعطاه حرية الحركة والتصرف ، ولم يكن هذا التحالف أو هذا
التحول في موقف الحاجب مستغرباً . فاذا كان متقلب الولاء فلانه قد خشي
على ملكه المستقل من الخليفة يحيى بن علي الذي نزل عليه بقرمونة ، ويبدو
أنه قد شعر بالراحة عندما غادر يحيى قرمونة الى مالقة قاعدته الاولى . ولذا فقد
تحالف مع القاضي الذي كانت تجميعه واياءه مصلحة واحدة هي ابعاد الحموديين
عن مد ينتيهما .

(١) : ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٣٧ - ٣٨ .

(٢) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ١٩٦ - ١٩٧ . - ابن بسام :

المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص ٧ - ١١ . -

ابن الأبار : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٣٦ - ٣٨ .

(٣) : كابن بسام : المصدر السابق ، والقسم والمجلد اعلاه ، ص ١٠ - ١١ .

ولذا فقد سعى القاضى من فسيوره الى توسيع رقعة مملكته ،
وتوجه ببصره الى النواحي الغربية من الاندلس ، اذ كانت مملكته تعتبر من
الناحية الجغرافية امتدادا لهذا الغرب . كما أن هذه المنطقة كانت تقع تحت
حوزة امراء ضعاف ، ولذا فقد سعى الى احتلال مد ينة باجة^(١) التى كانت
تجاذبها الاهواء والاحسن العرقية بين البربر والعرب ، فسارع الى ارسال
الجيش لاحتلالها بقيادة ابنه اسماعيل الذى ولاه قيادة الجيش ومساعدة
حليفه محمد بن عبدالله البرزالى . غير أن عبدالله بن محمد بن مسلمة المعروف
بابن الافطس صاحب بطليوس والذى اشرنا سابقا الى أنه كان خصما عنيدا ونادا
قويا لأمراء الجانب الغربى من الجزيرة ، لم يشأ أن تقترب حدود القاضى
ابن عباد منه لما يشكل ذلك من خطر على مملكته ، فسارع ومساعدة حاكم
مدينة مردلة الى تكوين جيش بقيادة ابنه محمد - الملقب بالمظفر فيما
بعد - وشقيق حاكم مردلة الى احتلال مدينة باجة ، وتم لهما ذلك
بالفعل .

وعندما قدم اسماعيل وحليفه ضهما الحصار على المدينة ،
واشتبكا مع جيش ابن الافطس ، وتم لهما اخيرا تفريق شمل هذا الجيش
والقبض على محمد بن المنصور بن الافطس ، وكذلك قبض على شقيق حاكم مردلة .
وقد احتفظ الحاجب بابن الافطس أسيرا لديه فى قرمونة ، ثم اطلق سراحه
بعد عقد الهدنة بين القاضى وابن الافطس . أما شقيق حاكم مردلة
فقد سيق الى اشبيلية حيث قتل هناك^(٢) . ويبدو أن هذه المعركة

-
- (١) : باجه فى البرتغال الحالية وتسمى اليوم : بيجا Beja وهى قاعدة
مد ينة ألينتيجو السفلى Baixo Alentejo ، وتقع على ١٤٠ كيلو مترا
جنوب شرقى الاشبونة (لشبونة ، ليسبو) . وكانت فى التقسيم الادارى
الاندلسى كورة واسعة تشمل مد ينة ألينتيجو السفلى الحالية فى البرتغال ،
وجزا من مد ينة بطليوس وولبة Huelva فى اسبانيا الحالية .
انظر ابن الابار : الحلة السيرة ، ج ١ ، ح ١ ، ص ٦٢ .
(٢) : ابن غدارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٠٢ . - ابن بسام : المصدر السابق ،
القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ١١ - ١٢ .

قد حصلت عام ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م ، ان يشير ابن بسام الى هذا عهد حديثه
عن اطلاق سراح ابن الافطس على يد الحاجب محمد بن عبدالله البرزالي^(١) .

وقد استولى القاضى على مدينة باجة اخيراً عندما تنازل له
عنها أميرها عميد الدولة محمد بن عيسى . وكان والده الحاجب عيسى
يلى حكم مدينة شلب و باجة منذ الفتنة ، وعندما توفي عام ٤٣٢ هـ /
١٠٤١ م خلفه ابنه محمد هذا الذى تنازل كما قلنا للقاضى عن المدينة^(٢) .
ودخلت باجة فى عداد مدن المملكة الاشبيلية بعد ذلك حيث ولد فيها
المعتمد بالله حفيد القاضى فى حياة جده عام ٤٣٢ هـ / ١٠٤١ م^(٣) .

ولقد اعطيت هذه الحملة نتائجها القسورية ، فقد علت مكانة
القاضى وازدادت هيبتته . وركن ابن الافطس الى الدعة والسكون مهيض
الجناع واهن الطرف .

(٤)
مغامرة الهجوم على ملكة ليون النصرانية :-

هدأ روح القاضى بعد عقد اتفاقية الهدنة مع ابن الافطس ،
وكان قد ارتاح قبل ذلك بتحالفه مع الحاجب محمد بن عبدالله البرزالي أمير
قرمونة واعترافه بالسلطة الاسمية للخليفة الحمودى يعنى بن على . وغداً مطلق
اليد فى مواصلة البناء الداخلى لدولته ، ولسنا على يقين من معرفة
خطوات البناء الداخلى التى تمت ، ولكننا نفاجأ فى عام ٤٢٥ هـ / ١٠٣٤ م
بمغامرة عسكرية موجهة لأراضى ملكة ليون النصرانية ، فقد فكر القاضى فى
مهاجمة ملكة ليون فى ذلك العام . ويبدو أن ذلك قد حدث فى عهد آخر
ملوكها من نسل بلاجيوس وسيتروس القوط ، وهو الملك برمودو الثالث ابن الفونسو
الخامس^(٥) .

(١) : ابن غارى : المصدر السابق والجزء ٥ ، ص ٢٠٣ . - ابن بسام : المصدر السابق ،
القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ١٢ - ١٣ .

(٢) : ابن غارى : نفس المصدر السابق والجزء ٥ ، ص ١٩٢ - ١٩٣ .

(٣) : محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٥٩ . (نقلاً عن ابن اللبانه وابن زيدون)

(٤) : انظر قبل التمهيد ، ص ١٥١ .
(٥) : محمد عبدالله عنان : نفس المرجع أعلاه ، ص ٣٧٤ - ٣٧٥ .

على ان هذه الحملة لم يكتب لها ان تحقق اغراض القاضى ،
 فالطريق الى مملكة ليون لا بد ان يمر بأراضى مملكة بطليوس . ولم يخامر القاضى شك
 فى ان ينقض ابن الافطس هدنته معه ، ولذلك فقد جهز جيشاً بقيادة ابنه اسماعيل
 وعبر به اراضى ابن الافطس الى تخوم مملكة ليون واوغل فيها .
 ويبدو ان هذه الحملة كانت ذات هدف عسكرى محدود هو
 المناوشة فقط واظهار مدى ما تحقق للقاضى ابن عباد من قوة فى مملكته الحديثة العهد .
 غير أن ابن الافطس فكك بعهدته مع القاضى ، وكن جيش ابنه اسماعيل
 بشعب ضيق ، ثم هاجمه . فوقع الاضطراب فى صفوف جيشه ، واضطر الى الفرار الى
 مدينة اشبونة المطلّة على المحيط الاطلسى والتابعة لمملكة ابييه ، ووقع ابن الافطس
 ونصارى ليون القتل فى صفوف جيش اسماعيل . ولكن اسماعيل استطاع ان ينجو بجلده^(١)
 ففهل فكر القاضى فى مواصلة سياسة المنصور ابن لبى طمر الراميه
 الى مهاجمة ممالك النصارى والانتقال بالدولة الاسلاميه من خطه الدفاع الى الهجوم ؟؟
 اذا افترضنا حسن الظن فأننا نقول ان شيئاً من هذا قد فكر فيه القاضى ، ومع هذا
 فأننا ننظر الى هذه المفامرة على انها تنطوى على قصر نظر سياسى . فأذا كان الفرض
 هو مهاجمة ممالك النصارى فهو تفكير ساذج ، فكيف يتسنى له ان يخطى بجميشة المكون
 حديثاً الى ارض العدو البعيدة عنه والمتاخمة لحدود عدوه ملك بطليوس والذى لا تربطه
 به سوى هدنة مؤقتة ؟؟ . وعلى افتراض انه استطاع ان يحتل بعضاً من اراضيها ، ففهل
 كان يقدر على تأمين حمايتها بعدئذ ؟؟ . وخلاصة الامر ان هذه المحاولة كانت فاشلة ،
 وكان من الممكن توفير الجهد الكبير الذى تم فى اعدادها للبناء الداخلى . ومع هذا
 فربما كان القاضى يقصد بذلك مجرد الاشعار بقوته وللمناوشة فقط كما سبق ان وضعنا .
 خلع طاعة الحموديين وظهور الخليفة هشام من جديد :-

خلع القاضى محمد بن اسماعيل طاعة الخليفة يحيى بن على الاسمية
 ولا نعرف على التحقيق متى وقع ذلك ؟؟ . ولكننا نخمن انه قد حدث فى اواخر عام ٤٢٦هـ /
 ١٠٣٥م بعد ان استطاع يحيى الاستيلاء على مدينة قرمونة من يد صاحبها محمد بن عبد
 الله البرزالى الذى فر الى اشبيلية مستجيراً بالقاضى .

(١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ٢٤ - ٢٥ .

وفى بداية عام ٤٢٧هـ / ١٠٣٥ م ودفعاً لمضايقات يحيى ابن حمود وأملا فى زعزعة الخلافة الحمودية وضربها فى جوهر مبرر تكوينها ووجودها ، ادعى القاضى محمد بن اسماعيل أنه قد سقط لديه خبر هشام الخليفة المختفى الذى اختلف فى موته . فاستقدم من قلعة رباح^(١) رجلاً يدعى خلف الحصرى يشبه هشام المؤيد تماماً ، وكان يعمل فى صنع الحصر والخيزران . فطلب منه التوجه معه الى اشبيلية فى موقف مسرحى طريف للغاية^(٢) ، ودعى له هناك بالخلافة . وتقول رواية أخرى انه استقدمه من قرية تابعة لاشبيلية ودعى الناس الى طاعته ، وانه هو الخليفة هشام بعينه ، وطلب من أهل اشبيلية أن يشكروا الله تعالى على ما أكرم به مد ينتهم واستأثرها وحدها بفضيلة ظهور الخليفة الشرعى فيها . وأوقف شهوداً على باب خلف الحصرى فشهدوا بأن الخليفة عهد بحجـابة بابه الى اسماعيل بن القاضى محمد . وعلى أثر ذلك طلب القاضى من الرؤساء والامراء فى الاندلس قبول دعوة الخليفة هشام والدخول فى طاعته^(٣) .

تلك هى خلاصة هذه القضية السياسية التى شغلت الفترة الزمنية الممتدة من عام ٤٢٧هـ حتى عام ٤٣١هـ / ١٠٣٥ - ١٠٣٩ م ، ونشأت عنها ذىول سياسية أخذت تتفاعل فى نطاق الصراع بين القوى السياسية المتناحرة فى الاندلس . وأدت الى مقتل الخليفة يحيى بن على ، ثم تكوين حلف بربرى صقلبى ضد القاضى ، ثم مهاجمة مملكة قرطبة ومقتل اسماعيل بن عباد قائد جيش اشبيلية .

-
- (١) : قلعة رباح (من عمل جيان ، وهى بين قرطبة وطليلطة ، وهى مدينة حسنة ولها حصون حصينة ، وهى مدينة محدثة فى أيام بنى امية) .
الحميرى : الروض المعطار تحقيق أ . لافى بروفنسال ، ص ١٦٣ .
 - (٢) : انظر ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ (نقلاً عن ابن القطان صاحب كتاب نظم الجمان المفقود) .
 - (٣) : ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء ونفس الصفحات . — ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى — المجلد الاول ، ص ٩ - ١٠ .

وفى الحقيقة ان موضوع وفاة الخليفة هشام المتكررة من الموضوعات الغامضة فى التاريخ الاسلامى كله ، وهى قضية تركت معلقة تتجاذبها التفسيرات والتعليقات حتى الوقت الحاضر . ولقد رأينا فيما مر بنا أن ادعاء الخليفة محمد بن هشام المهدي بصدد وفاة هشام فى عام ٣٩٩هـ / ١٠٠٨م هو محض اختلاق وتلفيق . وظاهر ذلك واضحا عندما أعاد الخليفة هشام الى الظهور وادعى انه قائم دونه . وعندما قتل المهدي تولى الخلافة ثانية هشام المؤيد نفسه . وهو ما تأكد للجميع فى ذلك الوقت ، ومر بنا موقف سليمان المستعين بعد ما دخل قرطبة من الخليفة هشام وكيف طلب منه أن يخلع نفسه له ، وأوردنا الاقوال التى تناولت هذا الموضوع ، وأشرنا الى أن هناك من يقول ان سليمان المستعين أخفاه حينما قتل ، وهناك من يقول بل فر من محبسه وقصد مدينة ألمرية وعاش هناك فى برؤس وخمول حتى توفى (١) .

وعندما استطاع على بن حمود دخول قرطبة والقبض على سليمان المستعين بحجة أنه ولى عهد هشام وولى دمه أيضا ، لم يجد الخليفة حيا ، فدله على قبره فأخرجه منه ، وشهد امامه بأنه الخليفة هشام . وقد أوردنا نفى سليمان هو وأبوه أن هشاما قد قتل ، وانهما انكرا ذلك بشدة ، رغم أن عليا لم ير أثرا لسلاح فى جسد الرجل الذى أخرج من القبر فتوهم فيه الخنق ، ورأينا ايضا أن عليا عجل بقتلهم خوفا من تبديل الافكار حول هشام ووجوده حيا ، لأن ذلك ليس من مصلحته بتاتا (٢) .

ويبدو أن ابن الاثير يميل الى هذه الرواية ، فينفرد برواية تؤكد أن هشاما لم يقتل ، بل هو حى يرزق ، اذ يقول بأن عليا بن حمود وخيران العامرى عندما نبشا قبر الرجل المدفون على أنه الخليفة هشام ، أحضرا أحد فتيان المؤيد ، وعرضاه عليه . ففتشه هذا الفتى ، وفتش أسنانه ، لانه كان له سن سوداء كان يعرفها ذلك الفتى ، فأجمع هو وغيره على أنه المؤيد خوفا على أنفسهم من على بن حمود . فأخبرهما أى الفتى بأنه هو المؤيد نفسه . وكان ذلك الفتى يعلم أن المؤيد حى ، فأخذ على بن حمود سليمان فقتله . على أن هناك من يقول بأن سليمان اعترف لعلى بن حمود بأن ابنه

- (١) : انظر قبيل ، ص التمهيد ٣٨٥ .
 (٢) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١١٧ - ١١٩ ، ص ١٢١ .
 ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الاول ، ص ٢٨ - ٢٩ ، ص ٢٨ - ٢٩ .
 ابن الخطيب : تاريخ المغرب العربي فى العصر الوسيط ، القسم الثالث من كتاب اعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ .
 (٣) : الكامل فى التاريخ ، مجلد ٩ ، ص ٢٧١ .

(١)

محمد قد قتل هشام المؤيد فعلا .

فمنهما يكن فان من المحقق ان هشاما قد قتل على يد الخليفة سليمان المستعين ، فالمستعين له مصلحة في اخفاء المؤيد عن المسرح السياسي . ذلك أن وجوده سيثير أنصاره من الصقالبة والعرب . ويدفعهم الى مناصره ، لا بشيء إلا لمقاومة البربر وكسر شوكتهم ، كما أن وجوده وهو الخليفة الشرعي الذي توالى عليه وعلى شخصه الرسمي الاهانات من العاصريين ومحمد المهدي . نقول ان وجوده يؤثر على مركز سليمان و يجعله في نظر سكان الاندلس بمثابة مفتصب للعرش ، وقد رأى ما حدث عند ما ترك المهدي الخليفة هشام حيا فقد اضطرب بعدها بشيء يسير الى تكذيب نفسه . وكانت النتيجة ان قتل المهدي وأعيد هشام الى الخلافة ثانية . فنحن نميل الى القول بأن سليمان المستعين قد قتله تخلصا من تأثيره الروحي كخليفة شرعي ، أو على الأقل نصدق الشق الثاني من تلك الروايات التي تقول بأنه قد فر من مجبسه وقصد مدينة ألمرية أو غيرها حيث عاش في برؤس وخمول حتى توفي .

x x x x x x x x x x x x x x x x x x

وكانما كتب على هذا الخليفة أن يكون رمزا غامضا في حياته ومماته أيضا . فلقد عاش الفترة من عام ٣٦٦ هـ ، وهو العام الذي تولى فيه الخلافة حتى عام ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م وهو العام الذي أجبره فيه عبدالرحمن ابن المنصور بتوليته عهده ، عاش رمزا يحيطه الغموض وتلفه التخرصات والاقاويل . ومن الطبيعي أن تلفق حوله وحول شخصيته المحتجبة قسرا تلك الشائعات . ولم يكن حظّه مع بنى عموشه بأحسن حال من العاصريين ، فقد زادوا وضعه غموضا وتخرصا . ولذا فقد شاعت وزادت حوله الروايات والاساطير ، فمن قائل انه قتل ، ومن قائل انه فر وتوجه الى الشرق وعاش فيه مدة من الزمن . ثم عاد الى الاندلس فأنشأ في قلوب الناس ، ومن روايات ينسجها نساء وخصيان في قصر الخلافة عنه ، وأنه حى ، ومن قائل انه أخذ يعمل فترة من الزمن في قرطبة متخفيا . ثم رحل الى المشرق وحج وعمل هناك ليكسب قوته ، ثم عاد الى الاندلس ودخل مدينة ألمرية في ايام حاكمها زهير العاصري . وذلك في عام ٤٢٦ هـ فتخوف منه هذا فطرده ، الى قائل (ان زهير ذهب مذهبه في رجل سقاء شديد الشبه بهشام فسموه زمنا من سنة ٤٢٦ هـ ، ثم طرده زهير) الى قائل آخر بأنه اختفى

(١) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ١١٧ .

مدة في مدينة مالقة وقت خلافة علي ابن حمود ، ثم فر الى المرية فطرده زهير ، فتوجه الى قرية رباح التابعة لابن ذى النون ، الى ان استقدمه القاضي ابن عباد (٢) .

كل هذه الروايات على الرغم من عدم الاعتداد بها الا أنها ترمز الى اهمية الخلافة في قلوب المعاصرين ، رغم أنها مشقة في شخص هشام الرجل الضعيف والخليفة المغلوب على أمره . ومع هذا فقد كانت هذه الاقاويل والشائعات مركبا مستباحا تلوكه الألسن وتلهج به القلوب . غير أن من الراجح أن شيئا من هذا لم يحدث . فهل يعقل أن يكون هناك أربعة أشخاص يشبهون هشاما تماما الشبه ، ويزعم في حالة كل واحد منهم أنه الخليفة هشام بعينه ثم يتضح أنه ليس هو ؟؟ فالمهدى أظهر رجلا يهوديا أو نصرانيا شبيها بهشام تماما ، وادعى أنه هو الخليفة ، وأنه قد مات ميتة طبيعية ، والفتى الذي كان يخدم عند هشام المؤيد كما تقول رواية ابن الاثير السابقة أكد لعلى بن حمود أن الرجل الذي نبش قبره هو هشام بعينه وذلك خوفا من على كما يزعم (٣) . وزهير العامري كما تقول رواية ابن الخطيب أظهر رجلا شديد الشبه بهشام فدعى له ثم طرده ، وأخيرا القاضي ابن عباد الذي جاء بخلف الحضري وكان هو الآخر شديد الشبه بهشام . فدعى له بالخلافة وأكد للجميع بأنه الخليفة هشام بعينه .

اننا نرجح بأن هشاما قد قتل على يد سليمان المستعين ، أو أنه قد فر كما تقول الروايات وانتهى دوره تماما . وما زعمه ابن عباد وأظهره في صورة مسرحية طريفة لا تستحق أن يقف عندها الانسان طويلا . ولكن ما ينبغي أن نقف عنده طويلا هو عدد من الاسئلة المهمة التي تفرض نفسها فرضا منها : لماذا أظهر القاضي ابن عباد الدعوة للخليفة هشام المؤيد في ذلك الوقت بالذات ؟؟ ولماذا انتظر طيلة تلك الفترة ابتداء من قيام المملكة حتى ذلك العام أي عام ٤٢٧هـ / ١٠٣٥م ؟؟؟ وما هي الفائدة التي جناها القاضي من تلك الدعوة ؟؟؟

-
- (١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ٦ ، ص ١٩٠ ، ص ١٩٧-١٩٨ .
 (٢) : ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء ٦ ، ص ٧٧ - ٧٨ ، ص ٨٣ .
 وص ٨٩ ، وص ١٠١ ، وص ١٠٥ .
 (٣) : الكامل ، مجلد ٩ ، ص ٢٧ .
 (٤) : اعمال الاعلام ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

ما من شك أن السبب الجوهرى الذى حدا بالقاضى الى اظهار دعوة الخليفة هشام هو رغبته فى دفع مضايقات يحيى بن على عنه ، وخاصة بعد أن استقر يحيى فى قرمونة القريبة جدا من اشبيلية . وما علة بعض المؤرخين القدامى لاسباب تلك الدعوة كان حقيقة لا مراء فيها ^(١) ، وان كنا نجد رواية لمبد الواحد المراكشى ^(٢) تفسر سبب دعوة ابن عباد تلك . وهى رواية لا يعتد بها ، بل انه يقول بأن الذى أظهر دعوة هشام هو المعتضد وليس والده القاضى محمد ابن اسماعيل ^(٣) . ومهما يكن فان يحيى غدا فى ذلك الوقت زعيم البربر ، غير ضارح ، والتقت حوله كلشهم ضد الاندلسيين خاصة بعدما صفا له الجوبعد أن قبض على عمه القاسم وسجنه واستتب الأمر له هو وأخوه ادريس فى جنوبى الاندلس .

أما لماذا انتظر ابن عباد طيلة تلك الفترة ؟ فلربما أن الظرف لم يكن يسمح له ، أو أنه لم يخطر له وقتذاك فكرة الدعوة لهشام المؤيد ، أو لأن الألسن لم تلهج بهشام وتتناقل شائعاته الا فى ذلك الوقت أى قبل عام ٤٢٧ هـ . وهو العام الذى أشرنا الى أن ابن عباد دعى فيه لهشام المؤيد .

(١) : ابن خلدون : المصدر السابق والجزء ، ص ١٩٠ ، و ص ١٩٧-١٩٨ .
ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ١٠٠ .
- ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ١٥٣ - ١٥٤ . - مجهول : ذيل
مضاف الى البيان المغرب ، ص ٣١٥ . - الضبى : المصدر السابق ، ص ٣٦ .

(٢) : المصدر السابق ، ص ١٥١ - ١٥٢ .

(٣) : يقول عبد الواحد المراكشى : ان المعتضد خاف من اضطراب الامور فى اشبيلية ، واضطراب أهلها عندما سمعوا بظهور خلفاء أمويين فى قرطبة . فاستقبحوا بقاءهم بخير خليفة ، وأنه قد بلغه أن اهل اشبيلية طلبوا من أولاد بنى أمية أن يقيموا أحدهم عندهم فادعى ما ادعاه .

أما ما جناه ابن عباد من تلك الدعوة فهو كثير حقا ،

فبادئ ذي بدء ستخرج هذه الدعوة الحموديين بالذات ، وستزعزع شرعية وجودهم كما قلنا ، فهم لم يتولوا الخلافة الا لأنهم أولياء عهد هشام وأولياء دمه أيضا . فاذا ظهر هشام حقيقة فان مبرر خلافتهم يكون قد انتهى ، وهو نقض لكل دعواهم في الخلافة ، فهي فعلا ضربة ناجحة جدا من القاضي هزت كيان الحموديين . ولسنا نتفق مع خالد الصوفى فيما ذهب اليه عندما أشار الى أن القاضي ابن عباد عمل (على الدعوة لأحد الأمويين لاضفاف دعوة يحيى بن حمود في الخلافة)^(١) . لسنا نتفق معه فقط من عدم دقته عندما لم يفرق بين تبني دعوة هشام بالذات ، وبين تبني دعوة أحد الأمويين . فتبني دعوة أحد الأمويين لا يضير الخلافة الحمودية ، فلقد تبني أهل قرطبة من قبل دعوة هشام المعتد آخر خلفاء بنى أمية ولم يضر ذلك الخلافة الحمودية . ولكن ما يهدد كيانها هو ظهور هشام نفسه صاحب الحق الشرعى من جديد الذى بلغ الحموديين الى ما بلغوا اليه بحجة أنهم ولاية عهده وطالبى ثأره . كما أننا بهذه المناسبة أيضا لا نتفق مع خالد الصوفى عندما خمن بأنه (عهد موت هشام المزعوم لن يكون له وريث يحل محله ، ويكون أحق الناس بذلك حاجبه ، فيصبح ابن عباد خليفه مكانه وينقل الخلافة الى مركزها الاساسى قرطبة)^(٢)

لا نتفق معه ان هل انقطع نسل بنى أمية حتى يحل محله ابن عباد ؟؟ . ذلك من جهة ، ومن جهة أخرى لا يتذكر القاضي ^{لورانه قد} دوس عبد الرحمن بن المنصور القريب ؟؟ . نعتقد بأن خالد الصوفى استنتج بأن القاضي سيستغل وفاة هشام ، ويعمل ^{نفسه} اميرا على الاندلس لكان قد حاله الصواب .

ومعد هذا نحن نتفق مع خالد الصوفى وغيره من أن القاضي كانت تحدوه آمال وأمانى دفعت به الى اظهار دعوة هشام وأهملها على الاطلاق

(١) : تاريخ العرب فى اسبانيا أو جمهورية بنى جهور ، ص ٧٠ .

(٢) : نفس المرجع ، نفس الصفحة .

تأليب كتلة العرب والصقالبة ضد البربر والحموديين ، ودفع مكروه يحيى بالذات ، ثم رغبته فى أن يكون صاحب النفوذ المريح فى الاندلس كلها التى توخى أن تستجيب لدعوته ، وبالتالى تدفع عنه صفة التسلط والدكتاتورية وتجعله حاجبا للخليفة يأتمر بأمره وينفذ تعاليمه .^(١)

موقف رؤساء وأمراء الاندلس من دعوة الخليفة هشام :-

تباينت مواقف رؤساء الاندلس حسب انتماءاتهم العرقية والسياسية من دعوة الخليفة هشام ، فمن الطبيعي أن يقبل هذه الدعوة الأمراء العرب والأمراء الصقالبة المجاورون لمملكة اشبيلية . كعبدالمزيز ابن ابي عامر صاحب بلنسية ، ومجاهد العامري صاحب دانية ، ومقاتل الصقلبي صاحب طرطوشه ، ومحمد بن عبد الله البرزالي أمير قرمونة المطرود والمستجير بالقاضى وغيرهم .^(٢)

أما المعارضون فمن الطبيعي أن يكون أغلبهم من البربر وعلى رأسهم يحيى بن على ، ثم جيسوس بن ماكسن بن زيرى صاحب غرناطة على عكس ما يراه ابن خميس صاحب مخطوطة أدباء مالقة^(٣) . أما ما يلفت النظر حقا فهو موقف زهير العامري الصقلبي المؤيد لفريق البربر الذى يبدو أن معارضته نابعة ربما من عداوة وحسد شخصى للقاضى^(٤) .

أما بالنسبة للممالك الأخرى الكبيرة كمملكة سرقسطة وطليطلة وطليوس فان المؤرخين القدامى لم يعنوا بإيضاح موقفهم وان كنا

(١) : خالد الصوفى : المرجع السابق ص ٧٠ - على أدهم : المعتمد ابن عباد ، ص ٤٨ - ٥٠ - صلاح خالص : اشبيلية فى القرن الخامس الهجرى ، ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٢) : ابن غدارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٩٠ .

(٣) : صلاح خالص : نفس المرجع ، ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٤) : ابن غدارى : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١٩٠ - ١٩١ .

نلمس أن موقف ابن ندى النعمان صاحب طليطلة كان مائعا فلا ندري أن كان قد قبلها أم لا ؟؟ . أما ابن الأفطس صاحب بطليوس فمن الطبيعي أن يعارض هذه الدعوة خاصة وأن العلاقات بينه وبين القاضي كانت سيئة للغاية منذ الفائه للهدنة وموقفه من غزو بلاد النصارى . أما موقف الرئيس أبو الحزم ابن جهور صاحب قرطبة فيحتاج إلى وقفة معه . فعندما ظهرت هذه الدعوة وبدأت مضاعفاتها تتفاعل في الجزء الجنوبي من الأندلس رأى ابن جهور فيها خطة مأكرة محكمة من القاضي لبسط سيطرته على الأندلس كلها ، ولذا فقد أنكرها في قرارة نفسه ، بيد أنه أمام الحساس الشعبي الذي عم الأندلس كلها وقرطبة بصفة خاصة بقبول مسألة ظهور الخليفة هشام من جديد ، نظرا لما سبقها من شائعات وأقاويل لاقتها الألسن . رأى أن يقبل هذه الدعوة ، وفي نفس الوقت رآها مجدية لوقفه (لما رآه من دفع ابن حمود الفاعرفاء على قرطبة)^(١) ولذا فقد قبل هذه الدعوة وجدد البيعة لهشام بقرطبة وكتب خطاب البيعة له ، وأرسله إلى الخليفة وحاجبه اسماعيل بن عباد باشبيلية . بل جرى استقبال رسمي في جامع قرطبة بمناسبة الدعوة للخليفة الشرعي^(٢) .

غير أن ما حدث بعد ذلك بقليل ، أعنى به مقتل

الخليفة يحيى بن علي في محرم عام ٤٢٧ هـ / نوفمبر ١٠٣٥ م ، والذي سنعرض له بعد هذه السطور بقليل ، جعل ابن جهور يتحمل من تلك الدعوة ويسب صاحبها ومن دعى له . وسنتبين بعد قليل رد فعله القاضي تجاه ابن جهور وما حدث بعد ذلك من أحداث .

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢١٩ ، وص ١٩٨-١٩٩ .

— ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني — المجلد الأول ، ص ١٠ .

(٢) : صلاح خالص : اشبيلية في القرن الخامس الهجري ، ص ١٢٢ . —

خالد الصوفي : المرجع السابق ، ص ٦٤ — ٦٥ .

مقتل الخليفة يحيى بن على الحمودى :-

نميل بادئ ذى بدء الى القول بأن طرد محمد بن عبدالله
البرزالى عن قرمونة قد حدث قبل ٤٢٧ هـ ، وهو المام الذى دعا فيه القاضى
لهشام كما ذكرنا . ان يشير تسلسل الاحداث الى أن يحيى بن حمود
قد استولى على مدينة قرمونة قبل ذلك العام ربما لى يكون قريباً من اشبيلية
وقرطبة ، ففر منها واليهما محمد بن عبدالله البرزالى هذا الى اشبيلية
مستجيراً بالقاضى .

ولا نعرف بالضبط متى حدث ذلك ؟؟ ولكن عندما
اظهر القاضى دعوة هشام فى اواخر طم ٤٢٦ هـ أو فى أوائل محرم ٤٢٧ هـ /
نوفمبر ١٠٣٥ م قبل البرزالى دعوته . وكان ذلك شيئاً طبيعياً على عكس
ما ذهب اليه صلاح خالص من أن يحيى بن على استولى على قرمونة بعد اعتراف
صاحبها بدعوة هشام (!) . وما يؤكد ما ذهبنا اليه هو ما نقله ابن عذارى
وابن بسام عن ابن حيان ان قالوا : (قال حيان بن خلف حكى لى الفتح
البرزالى قال لما كان عيد أضحى سنة ست وعشرين وأربعمائة ، وانغمس
يحيى فى شربه ولهوه ، سرت ومعى أحد من بنى عسى الى اللحقاق
باشبيلية للاجتماع بابن عينا محمد بن عبدالله البرزالى ، والقاضى ابن
عباد ، فوصلنا وأنبأنا هما من خبر يحيى بن حمود ولهوه ، فرأيا
ان يوجها اليه بجيش لقتاله ، فخرج اسماعيل بن عباد مع ابن عينا فى المحرم
من سنة سبع وعشرين وأربعمائة ، وهما فى بيعة هشام بن الحكم المنسوب
عندها باشبيلية تلك الايام . فجئنا الى باب قرمونة بالجيش ١٠٠٠ الخ) (٢).

-
- (١) : اشبيلية فى القرن الخامس الهجرى ، ص ١٢٣ .
(٢) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٨٦ - ١٨٧ . ابن بسام :
المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الاول ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

وقد تلاحقت الاحداث سراها ، فقد جاء اسماعيل بجيشه
مع البرزالي امير قرمونة المطرود وقتها ، واستطاع بفضل الخدمة العسكرية
القديمة الجديدة وهى طريقة الكائن أن يقتلا يحيى بن على . وحمل
رأسه الى القاضى فى اشبيلية ، وعاد محمد البرزالي الى مدينة قرمونة
مرة ثانية^(١).

تكوين الحلف البربرى الصقلبي ضد القاضى :-

وفى شعبان من نفس عام ٤٢٧ هـ تكون حلف بربرى صقلبي
بقيادة حبوس بن ماكسن بن زيرى الصنهاجى ، وعضوية كل من زهير الصقلبي
حاكم ألمرية ، ومحمد بن عبد الله البرزالي الذى نقض بيعة هشام بعد
استتباب الامر له فى قرمونة . وشن هذا الحلف سلسلة من الغارات
والحملات غير المجدية على اراضى القاضى ، وقد اعترف هؤلاء الرؤساء
بخلافة ادريس بن على بن حمود شقيق يحيى الذى خلفه فى تولي
الخلافة فى قاعدته مالقة^(٢) . على أن هذا الحلف لم يترك كبير أثر على
مملكة اشبيلية كما ذكرنا .

نقض ابن جهور دعوة هشام المؤيد :-

أشرنا الى أن ابن جهور تحلل من بيعة هشام المزعوم
بعد أن أزاح مقتل يحيى عن كاهله حملا ثقيلا . وبعد أن جاءت شهادات
الشهود الذين ذهبوا من قرطبة للتثبت من هشام المزعوم تؤكد على أن ذلك
المنسوب باشبيلية هو رجل دعى ، وليس هو المؤيد هشام على الاطلاق ،
ولذلك فقد تبرأ منه ومن بيعته .

- (١) : ابن غدارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٨٦ - ١٨٧ . - ابن بسام :
المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الاول ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ . -
رجب عبد الحليم : الرسالة السابقة ، ص ١٠٩ - ١١٥ .
(٢) : ابن غدارى : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١٩٠ .

وعندما بحث اسماعيل بن عباد حاجب الخليفة هشام المزعوم برسالة الى ابن جهور يدعوه الى طاعته على أن يبقيه على ما هو عليه من حكم قرطبة ، استغل ابن جهور ذلك فأعلن تبرأه من ذلك الرجل وسبه وسب من دعى^(١) له . ومن الطبيعي أن يكون رد فعل القاضي عنيفا ، إذ كان يهيمه قبل أى شئ آخر قبول قرطبة عاصمة الخلافة القديمة والمركز الروحي الذي تهفو اليه القلوب تلك الدعوة . ولذا فقد جهز جيشا بقيادة ابنه اسماعيل ومعه هشام المزعوم ليدخل به قرطبة ، وضرب اسماعيل حصاره حول المدينة وضايقها مضايقة شديدة . وقد حرك هذا الأمر شعور باديس بن حبوس الصنهاجي الذي تولى حكم غرناطة مكان أبيه حبوس ، فأرسل جيشا ضخما قابل به اسماعيل . وكان جيش اسماعيل يحوى عددا كبيرا من البربر الذين سرعان ما ظهر تضامنهم مع بنى عصبته . وقد فت ذلك فى غضد اسماعيل ، ولم يبق معه الا عدد يسير من عبيده وفتيانه ، ووقع السيف فى صفوف جيشه وانتهت الموقعة بمقتل اسماعيل ابن عباد بعد أن كبا به فرسه داخل هوة ، وحمل رأسه الى باديس بن حبوس . وقد وقع هذا الخبر من القاضي موقع الصاعقة ، فولى ابنه الثانى أبا عمرو عباد حجابة باب الخليفة هشام^(٢) .

-
- (١) : ابن غدارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٩٨ - ١٩٩ ، وص ٢٠٠ - ٢٠١ . ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ١٠ . ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٤ ، ص ٣٤٣ .
- (٢) : ابن غدارى : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

وهناك رواية أخرى لعبد الواحد المراكشي فيما يتعلق بمقتل اسماعيل تنص على أن مقتله كان نتيجة لتحالف زعماء البربر عليه ، وهم محمد بن عبد الله البرزالي ، وساديس بن حبوس ، وادريس بن علي بن حمود . وذلك بعد أن هاجم اسماعيل أراضي البرزالي (١) ، ولكن يبدو أن الرواية الأولى أصح وأصوب .

وفاة القاضي أبو القاسم محمد بن اسماعيل :-

وفي عام ٤٣٣ هـ / ١٠٤٢ م توفي القاضي محمد بن اسماعيل بعد أن وضع لبنات بناء الدولة . وكان بحق مؤسس المملكة العبادية وساني مجدها السياسي والعسكري والادبي أيضا . وإذا كانت الظروف السياسية لم تسعفه بالالتفات إلى بناء الدولة الحضارية ، فقد تولى ابنه المعتضد وخفيده المعتمد فعل ذلك . وقد ترك القاضي من بعده دولة راسخة الاستقلال قوية البنيان لا ينقصها إلا المسحة الحضارية ، وهو ما وفره لها خلفاءه بعد ذلك كما ذكرنا .

(١) : المصدر السابق ، ص ١١٣ - ١١٤ .

(٢) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

مجهول : ذيل مضاف إلى البيان المغرب ، ص ١١٦ .

ابن الأبار : رحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٣٨ . ابن خلدون :

المصدر السابق ، مجلد ٤ ، ص ٣٣٧ .

والغريب أن ابن عذاري ناقض نفسه ، فهو يقول في ص ٢٠٣ أن القاضي

توفي عام ٤٣١ هـ ، بينما يقول في ص ٢٠٤ أنه توفي عام ٤٣٣ هـ . أما

صاحب الذيل المضاف إلى البيان المغرب فيقول أنه توفي عام ٤٣١ هـ أيضا .

غير أن ابن الأبار وابن عذاري نفسه وابن خلدون يتفق على أنه توفي

عام ٤٣٣ هـ .

الباب الثاني

الدولة العبادية في عهد المعتضد بالله

- - تولى المعتضد السلطة بعد وفاة أبيه وآراء المؤرخين فيه
- - الموقف السياسى غداة تولى المعتضد السـلطة
- - التوسع العسكرى على حساب الامارات العربية الغربية المجاورة
- - انشقاق اسماعيل بن المعتضد وقضاء المعتضد عليه
- - توقف المعتضد عن الدعوة لهشام المؤيد الأموى المزعوم
- - التوسع العسكرى على حساب امارات البربر فى الجنوب
- - نشاط حركة الاسترداد المسيحى فى عهد المعتضد بالله
- - حياة المعتضد الخاصة ووفـاتـه

==

==

تولى المعتضد السلطة بعد وفاة أبيه وآراء المؤرخين فيه

توفى القاضي أبو القاسم محمد بن اسماعيل عام ٤٣٣ هـ /
١٠٤٢ م كما ذكرنا سابقا ، فخلفه ابنه عباد الذى تولى حجابة باب الخليفة
هشام المزعوم بعد مقتل اخيه اسماعيل فى عهد أبيه . وقد بدأت ولايته
منذ اليوم الذى توفى فيه أبوه فى نهاية جمادى الاولى من نفس العام
الذى ذكرناه . وكانت سنة لما تولى الحكم لا تتجاوز السادسة والعشرين
بمعد . وقد تلقب فى بادئ الامر بفخر الدولة ثم تلقب بالمعتضد بالله .

ولقد دمنت شخصيته بكثير من الأوصاف والنعوت .
ولم يحظ ملك من ملوك الطوائف بمثل ما حظى به المعتضد من انتقادات
المؤرخين ، واشاداتهم وثنائهم عليه فى نفس الوقت . فمعظم هؤلاء
المؤرخين كالوا للمعتضد من مر السدم والنقد مثلما كالوا له من حلو
الاشادة والثناء . فهم من جهة يستفظمون قسوته وشدته وجبروته
حتى لنكاد نشكك فى انسانيته ، وهم من جهة أخرى يشيدون به ويشنون
عليه لدرجة الاعجاب به . فيصفه ابن حيان فيما نقل عنه (١) شهاب الفتنه
صاحب الحوادث الفظيعة الشنيعة ، والوقائع المبيرة) ، ويدم سياسته فيقول
(وجاء منها عيولات تدع من سمع بها ، فضلا عن عاينها) .

على أن ابن حيان باحساس المؤرخ الموضوعى النزى
لا ينساق فى تصديق ما أشيع عن المعتضد . اذ يبدى شكه فى ذلك
ما لم يقم عليه الدليل ، ثم يشخص الحالة بدقة ، فيقول عنه فيما ينقله ابن
الابرار (فلقد حمل عنه على مر الأيام فى باب فرط القسوة وتجاوز الحدود
والابلاغ فى المشقة ، والاخذ بالظنة ، والاخفاف للذمة حكايات شنيعة لم
يبد فى أكثرها للعالم بصدقها دليل يقوم عليها . فالقول ينشاع فى ذكرها ،
ومهما برئ من منبتها ، فلم يبرأ من فظاظة السطوة وشدة القسوة وسوء الاتهام
على الطاعة ، سجايا من جبلته لم يحاش فيهن ذوى رحم ، ولا غلبهن بحيلة) (٢) .

(١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ١٦ .

(٢) : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٤١ .

والحجاري صاحب كتاب المسهب كما ينقل عنه صاحب كتاب
نفوس الوفيات^(١) يقول (وهذا الرؤوف العطوف الدم في الاخلاق الألف ، ما مات
حتى قبض أرواح ندمائه وخواصه بيده ولم يكلهم الى غيره ولم يحوجهم الى أحد
بعده . فجزى عنهم بما هو أهله . وقد عرف منه ذلك واشتهر . فصار
الادباء يحاسنونه . ومن شنيع ما روى عنه أن غلاما دون البلوغ دخل عليه
من غير استئذان ، فقطع رأسه . فسمع جارية تقول : والله القبر أحسن من
سكنى هذا القصر فقال : والله لأبلفنك ما طلبتيه . فأمر بها فدقت
حية) .

وابن اللبانة المذكور سابقا وشاعر ابنه المعتمد فيما بعد
يقول عنه فيما ينقله المقرئ : (ولقد حكى عنه من أوصاف التجبر ما ينبغي
أن تصان عنه الاسماع ولا يتعرض له بتصريح ولا الماع^(٢))

- (١) : ابن شاکر الکلبی ، ج ٢ ، ترجمة رقم ١٧٤ (كما ينقل عن الحجاري) .
والحجاري هو : ابو عبدالله محمد بن ابراهيم الحجاري . وهو أديب أندلسي
طش في القرن السادس الهجري ، ووفد في عام ٥٣٠ هـ على عبدالملك بن سعيد
صاحب قلعة بنى سعيد القرية من غرناطة والتي كان يليها من قبل المرابطين .
فاكرمه وقربه . ثم صنف له كتاب (المسهب في غرائب المغرب) . وقد أعجب
ابن سعيد بهذا الكتاب كثيرا ، ثم عمن له أن يضيف للكتاب ما أعقله الحجاري ، وأن
يحذف ويختصر ما لم يوافق غرضه . وكان هذا الخاطر هو بداية ذلك الجهد
الرائع الذي بذله ابناء ابن سعيد الذين تناولوا تصنيف المسهب بالاضافة والزيادة
ورائه على مدى ١٥٠ عاما . وجاء آخر هؤلاء : وهو علي بن موسى بن سعيد فوضع
الشكل النهائي لذلك الكتاب بعنوان المغرب في حلى المغرب . وهو على ثلاثة أقسام ،
يتعلق القسم الاول منه بمصر والثاني بالمغرب والثالث بالاندلس . وهذا القسم الاخير
هو المعروف بكتاب وشى الطرس في حلى جزيرة الاندلس .
وللاطلاع على معلومات وافرة عن هذا الكتاب ومؤلفيه أنظر :
المغرب في حلى المغرب (وشى الطرس في حلى جزيرة الاندلس) ج ١ ، ص ٩ - ١٠ .
(٢) : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

أما ابن بسام فقد ذم المعتز بقسوة بالفة عندما قال
 (قطب رجلي الفتنة ، ومنتهى غاية المحنة من رجل لم يثبت له من قائم ولا حصيد ،
 ولا سلم له قريب ولا بعيد ، جبار أبرم الأمر وهو متناقض ، وأسد فسررس
 الطلى وهو رابض مشهور تتحاماه الدهاة ولا تأمنه الكماة • متعسف اهتدى ،
 ومنبت قطع فما ابقى ، ثار والناس حرب وكل شيء عليه الب فكفى أقرانه
 وهم غير واحد ، وضبط شأنه بين قائم وقاعد ، حتى طالت يده واتسع بلكه
 وكثر عد يده وعدده • افتتح امره بمقتل وزير أبيه حبيب طمنه في ثغر
 الايام ملك بها كفه ، وجبار من جبابرة الانام شرد بها من خلفه ، فاستمر
 يفسري ويخلق ، واخذ يجمع ويفرق ، له في كل ناحية ميدان وعلى كل رابية
 خوان • حر به سم لا ييطئ وسهم لا يخطئ ، سلمه شر غير مأمون
 ومقاع الى ادنى حين) (٤)

أما الحادثة التي استفظعها المؤرخون كثيرا - وحق لهم ذلك -
 فهي حادثة حديقة الرؤوس ، فقد وضع على باب قصره (حديقة لا تثمر الا رؤوسا
 ولا تثبت الا رؤيسا ومرووسا ، فكان نظره اليها أشهى مقترحاته ، وفي التلفت
 اليها استعمل جل بكره وروحاته) (٥)

-
- (١) : الطلى : الاعناق • وفردها الطل بالضم العنق •
 انظر ، الفيروزآبادي : القاموس المحيط ، أربعة أجزاء ، ج ٤ ، ص ٨ •
 (٢) : (هذا مثل معناه ينفذ ما يعزم عليه ، وهو من قول زهير " ابن ابى سلمى :
 ولا انت تفري ما خلفت ومعض القوم يخلق ثم لا يفري)
 انظر ، ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ،
 ج ٢ ، ص ١٥ •
 (٣) : خوان (كتاب ما يؤكل عليه الطعام) •
 انظر ، الفيروزآبادي : القاموس المحيط ، ج ٤ ، ص ٢٢٢ •
 (٤) : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص ١٥ •
 (٥) : المقرئ : المصدر السابق ، المجلد ٥ ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ •

وأضافة الى هذا الولاء الغريب فقد كان يحتفظ بخزانة أودع
جوفها في قصره رؤوس أعدائه المناوئين له الذين استطاع قتلهم في صراعه معهم .
وهم محمد بن عبد الله البرزالي ، وابن خزررون ، وابن نوح ، وابن أبي قرة
وغيرهم . - وسوف نعرض لظروف مقتل هؤلاء بالتفصيل بعد ان شاء الله .
وقد اضاف هذه الرؤوس الى رأس الخليفة يحيى بن على الذى قتل فى عهد ابيه
القاضى . فقد استشعر لذة عظيمة عندما جمع رؤوس هؤلاء وأودعها تلك
الخزانة فى قصره (فخر رؤوسهم بالصون والى فى تطييبها وتنظيفها
للشواء لا للكرامة ، وأودعها المعادن الحافظة لها . فبقيت غده ثاوية
تجيب سائلها اعتباراً) (١)

وكان اذا ما أعوزته القسوة والبطش يستعين بالحييلة
والخداع فى تنفيذ مآربه وأهدافه ، وقد أورد عبد الواحد المراكشى قصتين
تدلان على شديده هائه وذكائه (٢)

واذا كانت القصة الاولى ليست جديدة فى ظلم التصفية والاعتقال (٣)
فان القصة الاخرى تمت على صورة تحوى الجدة والطراقة معا . فلقد أراد أن
يبحث برسالة مهمة جداً لأحد جواسيسه فى مدينة قرمونة . ولما كان يخاف
أن تقع فى يد أعدائه ، رأى أن يبحثها مع رجل بدوى من بادية اشبيلية .
فدس الرسالة داخل ثوب وخاط عليه ، ثم كساه البدوى وأمره أن يذهب
الى قرمونة وزوده بكومة من الحطب ، أكد عليه أن يبيعها لمن يشتريها
منه بخمسة دراهم فقط . وكان قد نسق ذلك مع تابع له فى قرمونة . وعندما

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٢) : المصدر السابق ، ص ١٥٣ ، و ص ١٥٤ - ١٥٦ .

(٣) : هذه القصة تدور حول رجل من اهل اشبيلية فر الى مكة المكرمة بعدما
صادر المحتضد أمواله . وظل هناك يدعو عليه . وحين بلغه
ذلك أرسل له مع رجل أراد الحج نقوداً مسمومة . وبالرغم من أن الرجل
توجس خيفة من ذلك فقد تسلم النقود . وما لبث أن سرى السم فى
جسمه فمات . وتخلص من مناوى آخر له كذلك بنفس الطريقة ، فعمل
على قتله حتى تمكن من ذلك وحمل رأسه اليه من مكان منفاه .
انظر ، المعجب ، ص ١٥٣ .

جاء البدوي الى قرمونة ليبيع حطبه ، جاءه عين ابن عباد
فاشترى منه حزمة الحطب بنفس المبلغ المتفق عليه . ثم أخذ البدوي الى منزله
وهناك أشار عليه بخلع ثيابه للتهيز للنوم ، وعندما حصل هذه الثوب
أخرج رسالة ابن عباد ووضع مكانها رده عليها بنفس الطريقة السابقة . وعند
الصباح غادر البدوي قرمونة متجها الى اشبيلية . وقصد المعتضد من
فوره وأبلغه ما حدث . فأمره بخلع ثيابه فأخرج منها الكتاب وعلم ما فيه ،
ثم خلع على البدوي ثيابا حسنة وصرفه بعد أن أوهمه بأن ذلك الخلع هو
تكريما له . ويعلق عبدالواحد المراكشي على ذلك بقوله (وخرج من غده فرحا
يرى أنه قد خلع عليه ، ولم يعلم فيم ذهب ولا بما جاءه)^(١)

على أنه حظى بكثير من الاشادة والثناء والاعجاب ،
فينقل ابن بسام عن ابن حيان وصفه له بالشهم صاحب الهمم العليق والسطوة
الابية^(٢) . وفي موضع آخر يشيد ابن حيان بسياسته فيقول فيما ينقله عنه
ابن بسام ايضا^(٣) (واتخذ الرجال الذادة تتقاهم من كل فرقة ، فساس
طبقاتهم ما بين ادرار الأعطية وضمنان الزيادة على صدق الصيال . والوفاء
بالوعد على النكول عن العدو . سياسة أعييت على أئداده من أملاك
الاندلس ، فخرج منها رجالا مساعير حروب أباد بهم أقتاله)^(٤)

(٥) ويعود ابن حيان فيما ينقله ابن بسام فيشيد بسياسته
ويقول (ومن نادر أخباره المتناهية في الغرابة أن نال بغيته وأهلك تلك
الامم العاتية وأنه لغائب عن مشاهدتها مترفه عن مكابذتها مدبر فوق
أريكته ، منفذ لحيلها من جوف قصره ، ما مشى الى عدو أو مغلوب من

(١) : نفس المصدر ، ص ١٥٤ - ١٥٦ .

(٢) : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص ١٦ .

(٣) : نفس المصدر السابق والقسم والمجلد ، ص ١٧ .

(٤) : أقتاله ، جمع قتل بالكسر . وهو العدو والمقاتل .

انظر ، الفيروزبادي : القاموس المحيط ، ج ٤ ، ص ٣٦ .

(٥) : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص ١٧ .

من أقتاله غير مرة أو اثنتين ، ثم لزم عريسته ^(١) ، يدبر داخلها أموره . جرد
نهاره للإبرام والتدبير وخلص ليله لتملى السرور ^(٢) ، فلا يزال تدار عليه
كغوس الراح ويحيها عليها بقبض الأرواح التي لأنابيها من أعدائه .

وينقل ابن بسام عن ابن حيان أيضا مزيدا من إعجابه به فيصفه
بسباطة البنان أو البنيان ، وثقوب الذهن ، وحضور خاطر ^(٣) . ولا يعمل
ابن حيان كما ينقل عنه ابن بسام كذلك من الأشادة والإعجاب بالمعتضد
أن يمود فيقول (فجمع هذه الخلال الظاهرة والباطنة الى جود كيف
باربها السحاب) ^(٤) .

وابن بسام على تحامله عليه لا ينكر عليه دهائه وذكائه
فيقول عنه (ثار والناس حرب وكل شئ عليه الب فكفى أقرانه وهم غير واحد
وضبط شأنهم بين قائم وقاعد حتى طال يداه واتسع بلكه وكثر عديده وعدده) .

(١) : (العريسة : مأوى الأسد) .

انظر ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ،

ج ٤ ، ص ١٧

(٢) : هكذا وردت في الذخيرة غير أن الأصح هو ما نقله ابن عذاري في كتابه المذكور سابقا

ج ٣ ، ص ٢٠٥ : وهي كالاتى : ويحيا عليها بقبض الأرواح التي لا تناسيه

”كذا ! !” من أعدائه .

(٣) : نفس المصدر السابق والقسم والمجلد ٤ ، ص ١٩ .

(٤) : نفس المصدر والقسم والمجلد ٥ ، ص ١٥ .

(١) وينقل ابن عذارى عن ابن القطان صاحب كتاب نظم الجمان ما يتضمن الاشادة به والثناء عليه (٢) وكذلك فصل الحميدى (٣) وعلى نفس النهج صار الضبى (٤) ومدحه ايضا الفتح ابن خاقان باسلوبه المتكلف المسجوع (٥)

وأخيرا نقول مع عبد الواحد المراكشى (وجملة أمر هذا الرجل أنه كان اوحده عصره شهامة وصراحة وشجاعة قلب وجدة نفس • وكانوا يشبهونه بأبى جعفر المنصور من ملوك بئى العباس • وكان قد استوى فى مخافته ومهابته القريب والبعيد •) (٦)

(١) : ابن القطان : هو ابو على او ابو محمد كما فى بعض الروايات الحسن أو الحسين بن على بن محمد بن عبد الملك بن يحيى الكتامى • ويعتبر ابوه من أكبر دة الموحديين وابرز رجال دولتهم • وقد اتصل ابن القطان الابن ببلاط الخليفة الموحدى المرتضى وطشفس كفه وألف له كتاب نظم الجمان الذى يعتبر من أهم المراجع التاريخية للمغرب والاندلس وان كان يعتبر تاريخا بلاطيا توجه فيه كثيرا الى الاشادة بالدولة الموحدية بالمغرب والاندلس • وعنوان هذا الكتاب بالكامل على الأرجح هو : نظم الجمان لترتيب ماسلف من أخهار الزمان على اختلاف فى الشطر الثانى من العنوان • وهذا الكتاب موسوعة ضخمة فى تاريخ المغرب والاندلس وقد استفاد منه كثير من مؤرخى المغرب والاندلس كابن عذارى وابن الخطيب وغيرهما • فقد تناول المؤلف فى هذا الكتاب كما يظن ، المغرب من الفتح حتى عصره اى فى اواخر ايام الدولة الموحدية فى الثلث الاخير من القرن السابع الهجرى • وقد نشر ليفى بروفنسال جزءا من هذا الكتاب وهى ست قطع منه فى مقاله (ست قطع مخطوطة من تاريخ مجهول لظهور الدولة الموحدية •) كما نشرت منه اجزاء ضمن نقول ابن عذارى عنه فى كتابه البيان المغرب • ثم عكف محمود على مكى على تحقيق الجزء السادس من هذه الموسوعة الضخمة التى تمكن معهد الدراسات الاسلامية بمدريد من الحصول عليها • وقد نشر هذا الجزء بتحقيقه وتولت نشره كلية الآداب والعلوم الانسانية ، جامعة محمد الخامس ، الرباط • للاطلاع على مزيد من المعلومات الوافرة عن الكتاب ومؤلفه أنظر :

ابن القطان : نظم الجمان ، تحقيق محمود على مكى ، المقدمة وبقية

ويترأى لنا بعد هذا كله أن قسوة المعتضد وشدة

وطباع السيئة التي وصفه بها المؤرخون لم تكن تنم عن طبع وسجية غريزية بقدر ما هي طبع مقصودة ومصطنعة ألزم بها نفسه وأخذها على فعل ذلك . حتى يصل الى غياته وأهدافه . فالإنسان يميل طبعاً وسجية الى الخير ، ولكنه قد يجنح الى الشر لارضاء نزوات او تحقيق اهداف شخصية . ويبدو أن هذا هو بعض واقع المعتضد بالله . وبالإضافة الى هذا يجب ألا ننسى مدى تأثير روح العصر وخاصة في عصر ملوك الطوائف الذي تفككت فيه وحدة الاندلس وتمدد فيه الملوك الذين كانوا يتنافسون ويتبارون في توسيع رقعة ممالكهم على حساب الممالك المجاورة . فروح العصر آنذاك كانت نادراً ما تلتزم بخلق أو مبادئ .

ولقد قضى المعتضد الفترة من توليه الحكم حتى وفاته وهو في صراعات سياسية وعسكرية ونفسية مضطربة . وكان بحق مالى دنيا الاندلس وشاغل الناس فضلاً عن الحكام . فمعظم أحداث الاندلس الاسلامية ارتبطت بشخصه قليلاً أو كثيراً باعتبار أن مملكته أقوى ممالك الطوائف في ذلك الوقت وأبرزها وأفسحها مساحة وشراء . ولذا فقد غدا المعتضد هاجساً مخيفاً مرغماً لامراء الاندلس حتى لمن كان يدانيه همة وشجاعة واقداماً وحكمة .

== الكتاب ==

- (٢) : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .
- (٣) : المصدر السابق ، ص ٢٩٦ .
- (٤) : بغية الملتبس ، ص ٣٩٥ - ٣٩٦ .
- (٥) : مطمح الانفس ومسرح التأنس ، ص ١١ .
- (٦) : المصدر السابق ، ص ١٥١ - ١٥٢ .

الموقف السياسى غداة تولي المعتضد السلطة

لم يكن هناك تفسير كبير فى الموقف السياسى لممالك الطوائف غداة تولي المعتضد السلطة • فالقوى السياسية التى كانت موجودة فى عهد والده القاضى لم تتغير كثيرا • فمملكة قرطبة وطلوس وسرقسطة وطليلة وغرناطة وألمرية ومرسية ولنسية ودانية والامارات الاخرى الصغيرة • كانت كلها لاتزال تحت سيطرة من استبد بها ابان الفتنة او من خلفهم من المفتزين • أو كانت تقع تحت يدى أبنائهم الذين تولوا السلطة فى عهد القاضى محمد بن اسماعيل •

والتفسير الوحيد فى ميزان القوى هو ما صار اليه أمر الحموديين • فعند ما قتل يحيى بن على طم ٤٢٧ هـ كما ذكرنا خلفه أخوه ادريس بن على بن حمود • واستمر يحكم دولة الحموديين فى مالقة والجزيرة الخضراء • وما يبعه البربر فى ذلك الوقت حتى توفى طم ٤٣١ هـ / ١٠٤٠ م •

وبوفاة ادريس بن على نشب الانشقاق والصراع المائلى بين الحموديين • وفقدت دولتهم فى مالقة والجزيرة الخضراء وما حولهما وحدتها السياسية • واستمر النزاع بين أبناء ادريس ويحيى ابنى على بن حمود طويلا • وتقلب على عرش الخلافة فى مالقة غير واحد منهم • والغريب فى الامر أن كل واحد من ابناء الممم هؤلاء • ما أن كان يخلع حتى ينتقل الى موضع آخر من أحواز مالقة ويدعو لنفسه به (١) • أما الجزيرة الخضراء فقد وقعت بعد خطوط كثيرة تحت سلطة محمد بن القاسم بن حمود الذى دعا لنفسه هناك وتلقب بالمعتصم (٢) • وعدهما تولي المعتضد السلطة كانت هيئة الخلافة (الحمودية) ووقاؤها قد مرغت فى التراب • فكان الوضع أشبه بالفضيحة كما يقول ابن حزم منه بنظام حكم شرعي • ويصف ابن حزم الامر فيقول (فضيحة لم يقع فى العالم الى يومنا مثلها أربعة رجال فى

(١) : عن بنى حمود فى مالقة انظر قبل • التعهد ص ٦١

(٢) : عن هذا الانشقاق المائلى انظر :

رجب عبد الحليم : الرسالة السابقة ، ص ٧٧ - ١٠٠ •

مسافة ثلاثة أيام فى مثلها ، كلهم يتسمى بامرة أمير المؤمنين ، ويخطب لهم بها فى زمن واحد وهم : خلف الحصرى باشبيلية على أنه هشام ابن الحكم ، ومحمد ابن القاسم بن حمود بالجزيرة ، ومحمد بن ادريس بن على بن حمود بمالقة ، وادريس بن يحيى بن على بن حمود ببشتر^(١) .

وفى عام ٤٣٥ هـ / ١٠٤٤ م انقسمت الاندلس الى معسكرين ، معسكر ينادى بهشام العزوم باشبيلية ، ويضم العرب وبعضا من البربر كاسحاق بن محمد بن عبدالله البرزالى وأبى نور بن أبى قرة صاحب رندة وتاكرنا . ومعسكر يضم البربر بزعماء باديس بن جوس . وينادى بمحمد بن القاسم بن حمود على الأرجح . وكان كل معسكر من هذين المعسكرين يناصب الآخر العداء والبغضاء . وبعد ذلك التاريخ بعام أى عام ٤٣٦ هـ اعترف المأمون بن ذى النون بدعوة هشام بحد أن استنكرها أبوه نكاية بسليمان بن هود صاحب سرقسطة مقابل مساعدة المعتضد له .^(٢)

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

أما الموقف السياسى فى ممالك النصارى فى اسبانيا النصرانية فى الشمال ، فلم يكن بأحسن حالا من الممالك الاسلامية . فكما مر بنا سابقا استطاع سانشو غارسيا الثالث الملقب بالكبير والعظيم الذى حكم من عام ١٠٠٠ حتى عام ١٠٣٥ م أن يوحد ممالك النصارى تحت امرته . ولم يك خارجا عن هذه المملكة التى تضم نبرة وأرغونة وقشتاله وليون وجليقية سوى امارة قطلونية^(١) (برشلونة) فى الشمال الشرقى من اسبانيا فقط .

على أنه ما أن طواه الموت حتى نشبت الخلافات بين أبنائه الاربعة ، وطحنت الخلافات العائلية ممالك النصارى ومزقت وحدتها . وذلك لأن سانشو العظيم هذا فرّق مملكته على أولاده الاربعة ، فعهد الى ابنه

(١) : نقط المروس فى تواريخ الخلفاء - فصلة من مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ، المجلد الثالث عشر ، الجزء الثانى ، ص ٨٣ - ٨٤ .

(٢) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

الأكبر فرناندو الأول ، فرديناند Fernando أو فرذلانف كما يعرف في المصادر الإسلامية أيضا حكم قشتاله . واستطاع هو في عام ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م أن يستولى على مملكة جليقية وليون بعد مقتل برمودو الثالث آخر ملوك القوط من نسل بلاجيوس وبتروس . وأعطى ابنه الثاني غارسيا Garcia نبره . وأعطى ابنه الثالث راميرو الأول Ramiro أرغونة . وأعطى ابنه الرابع جنزالو أو كنزالو ولاية سوبرابي وريا جرسيا في أواسط جبال البربات .

وقد وقع الخلاف والشقاق بين الاخوة . واستمر حتى استطاع فرناندو السيطرة على ممالك اخوته . على أنه تنازل بعد ذلك عن مملكتي نبره وأرغونة لابني أخويه غارسيا وراميرو . وعادت الى اسبانيا النصرانية في عهده بعض وحدتها^(١) .

على أن المهم هنا هو أنه في غداة تولي المعتضد السلطة كانت الشخصية القوية المؤثرة في ممالك النصارى هو فرديناند الأول ملك قشتاله وجليقية وليون وغيرها . فهو الذي خاض مع المسلمين بدءا من العام الذي انتهى فيه بسحق الفتن الداخلية حرب الاسترداد الاسبانية المنظمة .

- (١) : عن هذه الاحداث السياسية في الممالك النصرانية أنظر :
- J.B. BURY, M.A., Op. Cit., P 394 - 395
 - Jan Read : The Moors in Spain and Portugal, London, 1974. P 101 - 102 .

- محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٣٧٦ - ٣٨٢ .
- ابن الكردبوس : الاكتفاء في اخبار الخلفاء ، ص ٦٩ - ٧١ مع الحواشي .

التوسع العسكري على حساب الامارات العربية الغربية المجاورة

لم يهنأ المعتضد براحة بال مذ ساقته اليه الاقدار الحكم بعد وفاة أبيه القاضي ، ففضلا عن الموقف السياسي في الاندلس كلها فان ما يتميز به من حدة نفس وجراءة وشجاعة واقدام ، اضافة الى شرح صبا متأجج جعله لا يرضى أن يستبد بالامور في دولته وزير أبيه حبيب المذكور سابقا . ومملكة بنى عباد من ممالك الطوائف القلائل التي لم يتمتع بها وزير أو حاجب بسلطان حقيقى وصيت ومجد ذائمين . فكان بنو عباد يستبدون بالامر وحدهم ، وكان وزراءهم وزراء تنفيذ وليسوا وزراء تفويض (٢) كما حدث في بعض الممالك الاخرى . وسنفتقد من الان فطالما أى ذكر لوزير من وزرائه ، وكلما يمر بنا اسم وزير من الوزراء في عهدى المعتضد وابنه المعتمد فهو لا يزيد عن كونه مستشارا في البلاط العبادى أو شخصا يعهد اليه فقط بمهام محدودة .

تخلص المعتضد من وزيره حبيب ، ثم تخلص من آخر نفوذ لزميلى أبيه في المجلس الرئاسى . فاضطهدهما وصادر أموالهما وتفرغ لتحقيق مشروعه الضخم . وكان في الحقيقة مشروط ضخما يتوجب السير اليه بحذر شديد ، فالاندلس كانت تتنازعها كما ذكرنا دائما ثلاث قوى رئيسية هي العرب والبربر ثم الصقالبة . وكل قوى من هذه القوى كانت تناصب الاخرى العداء . وقد تولى الضرورة على مملكة أن تتحالف مع مملكة اخرى ضد مملكة ثالثة حتى وان كانت من غير عصبيتها العنصرية . وكان الباعث في ذلك كله هو المصلحة الشخصية في المقام الاول ، والمعتضد كان يشعر بأن مملكته لا تحظى بالحب والمودة من ممالك الطوائف الاخرى . فالكل كان يخشى من مملكة بنى عباد ومن خطورة رفعها شعار الدعوة للدخول في طاعة الخليفة هشام المزعوم ، حتى ولو كان ذلك اسميا . غير أن المعتضد ما كان بالذى يقنع بالسلطة الاسمية ابدا ، فرأى أن يوجه اهتمامه للممالك العربية الصغيرة الواقعة الى الغرب من اشبيلية وان يكون توسيع مملكته على حسابها هي السياسة التي يتعين عليه اتباعها الان وقبل اى شئ اخر ، حتى اذا ما تم ذلك وشعر بالقوة والثبات ، وجه همه الى الامارات البربرية الاخرى ليصفى معها الحساب .

(١) : انظر قبل الباب الاول ، ص ٨٧

(٢) : انظر بعد الباب الخامس ، ص ٣٥٦

ولسنا نزع هنا بان المعتضد قد وضع لنفسه خطة دقيقة مرتبة منظمة للقضاء على الممالك العربية بالغرب • وانما نقول بانه قد وضع تصورا واضحا لنفسه في وجوب القضاء عليها • وسنرى ان الصدف الحسنة كثيرا ما كانت تثقف بجانبه •

الاستيلاء على امارة مردلة : =====

من هذه الامارات الصغيرة التي التهمها المعتضد امارة مردلة وسبق لنا ان راينا امير مردلة يد يد العون والمساعدة لابن الافطس في حربه ضد القاضي وابنه اسماعيل عندما اراد الاستيلاء على مدينة باجة • وكيف ان القاضي استطاع القبض على ابن الافطس وحليفه شقيق امير مردلة الذي قتل فيما بعد • على أن المعتضد لم يكن بحاجة الى التدرع بسبب ما لمهاجمة اى مملكة او امارة • ولذا فقد وجه جيوشه الى مهاجمة هذه الامارة وانتزاعها من يد صاحبها • وقد تم له ذلك فعلا عام ٥٤٣٦ هـ / ١٠٤٥ م (١) •

النزاع بين المعتضد وابن الافطس واستيلاء المعتضد على امارة ليلة : =====

نشأ النزاع بين ملكي اشبيلية ومطليوس القويين حول قضية امير ليلة •

وامارة ليلة Niebla تقع الى الشمال من كورة اكشونية (Ocsanoba) وتسمى ليلة الحمراء • وتقع ايضا الى الغرب من اشبيلية على بعد خمسين كيلو متر على الضفة الغربية للنهر الاحمر Riotinto • (٢) وقد آثرنا الحديث عنها هنا لارتباطها بالاحداث التي جرت في هذا الوقت • وقد ثار بها في ابان الفتنة ابنسبو العباس احمد بن يحيى اليحصبي ثم اللبلى في سنة اربعة عشر واربعمائة • وبايعه اهل تلك المنطقة • وعندما توفي خلفه في الحكم على الارجح اخوه ابو عبد الله عز الدولة محمد ابن يحيى اليحصبي عام ٤٣٣ هـ / ١٠٤٢ وان كانت هناك رواية اخرى تقول انه ابنه وليس اخاه • وقد سما للمعتضد امل في التغلب على ليلة • وبدأ يستعد لمهاجمتها • فسارع ابن يحيى الى طلب معاونة المظفر ابن الافطس • ويبدو ان ذلك قد حدث عام ٤٣٧ هـ / ١٠٤٧ م

- (١) : ابن خلدون : المصدر السابق • مجلد ٤ • ص ٣٤٠ - ٣٤١ •
- (٢) : ابن الابار : الحلة السيرة • ج ٢ • ص ١٨٠ •
- (٣) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ٥ • ص ٢٠٩ - ٢١٠ • ابن بسلم : المصدر السابق • القسم الثاني - المجلد الاول • ص ٢٣ - ٢٤ •
- مجهول : ذيل مضاف الى البيان المغرب • ص ٢٩٩ - ٣٠٠ •

او بعد ها بقليل ، اذ توفي المنصور بن الافطس مؤسس دولة بنى الافطس فى ذلك العام ، وخلفه ابنه محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة وتلقب بالمظفر^(١) وقد لى المظفر

طلب يحيى ، غير ان المعتضد هاجم على عجل اراضى ابن الافطس نفسه فى حركة مهاجمة لشغل باله عن حليفه . فحرب اراضيه واضربها ووقع بها خسائر فادحة ، ولم تجد

نداءات الرئيس ابو الوليد محمد بن جمهور بن محمد الذى خلف ابيه فى طم ٤٣٥ هـ /

١٠٤٤ م (٢) لم تجد فتيلاً نداءته بضبط النفس مع المتحاربين^(٣) ثم هاجم المعتضد

مدينة لبلة بنفسه ، واشتبك مع جيش ابن الافطس . وكانت الخلبة له عليه ، غير انه هزم

منه بعد ذلك فى اشتباك اخر . ولم تسفر تلك الاشتباكات عن شئ ففى قيمة^(٤) .

وفى طم ٤٣٩ هـ / ١٠٤٨ م تكون حلف من امراء البربر : باديس ابن حبوس

صاحب غرناطة واسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالى الذى خلف ابيه الحاجب طم

٤٣٤ هـ / ١٠٤٣ م . وسنتناول امارة قرمونة بالحد يث بعد ان شاء الله ، ومن محمد بن

نوح الدمرى صاحب امارة مورور ، وعبدون بن خزرون صاحب امارة اركش - وسنعرض لهما

بعد اينما . - ويايح هؤلاء لمحمد بن القاسم بن حمود بالجزيه الخضراء الذى تلقب

بالمهدى ، وانضم اليهم المظفر بن الافطس . وكان هذا الحلف موجهاً فى المقام الاول

ضد المعتضد بصفة خاصة . ويذكر بن غدارى ان هؤلاء جاءوا الى اراضى اشبيلية ،

فعاثوا فى (نظر اشبيلية ، وانقطعت السبل جملة ، وكثر القتل والهرج والسلب ، وامسى

الناس فى مثل عصر الجاهلية) ، ثم يضيف قائلاً (ثم انصرفوا مع خليفتهم ، ولم يقض

الله لهم ارباً ، فلم يكن بعد ذلك اجتماعاً ولا اتفاقاً)^(٥) .

وفجأة حصل تحول فى موقف ابن يحيى امير لبلة . وتأكد ما سبق

ان رددناه دائماً من ان ملوك الطوائف لم يكن يحكم تحالفاتهم وعداوتهم الا المصلحة

الخاصة فقط . وقد يكون هذا هو منطق الحياة ، ولكن ليس على حساب المبادئ بداهية

ولكننا نستطيع تفهم موقف ابن يحيى عندما رجع عن تحالفة مع ابن الافطس ، اذ رأى مصلحة

الخاصة تقتضى ان يتحالف مع المعتضد ، يقول ابن غدارى عنه (ثم والى

(١) : ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٢) : خالد الصوفى : المرجع السابق ، ص ٧٢ .

(٣) : ابن بسام المصدر السابق ، القسم الثانى المجلد الاول ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٤) : نفس المصدر والقسم والمجلد ، ص ٢٤ - ٢٥ .

(٥) : ابن غدارى ، المصدر السابق ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(١) ابن يحيى المعتضد بعد ذلك لضرورة دعه ، ولا نحتاج الى كبير جهد لمعرفة هذه الضرورة . فالمعتضد الداهية كان اذا ما اعزته القوة والبطش كما ذكرنا ، استعان بالهكر والخداع والدهاء ، فأقنع ابن يحيى بخطورة وضعه مع البربر . ويكفى ان يحذره من مغبة انتصار البربر حتى يجعله يترك حليفه ابن الافطس ومثقة حلفائه البربر .

وهذا ما حدث بالضبط ، ودهى ان يكون رد فعل المظفر بن الافطس عيضا لهذا التنكر والتقلب . فكان ان وضع يده بآدى ذى بدء على ما كان قد تركه عنده ابن يحيى من اموال . ولا نعرف متى تم ذلك التحول بالضبط ، غير ان المناوشات بين المدوين اللدود بين المعتضد والمظفر كانت تدور رحاها بينهما آنذاك . فقد اشتد ضغط المعتضد عليه طم ٤٤٢ هـ / ١٠٥١ م فهاجم مملكته واراضيه وأوقع بها خسائر فادحة . ولم يستطع المظفر ان يفعل شيئا . ويفهم من سياق هذه الرواية أنه فقد زهرة فرسانه فى تلك الاشتباكات (٢) ورغم ان هذه الاشتباكات قد الحقت الكثير من الخسائر بالمظفر وانتهكت قواه الا انه ابى ان يظهر بمنظر الضعيف او المهتم بما حدث . فبعث وهو فى عز محنته الى قرطبة رسولا (فورد قرطبة اثر هذه الوقائع عليه يلتبس شرا وصائف ملهيات يأنس بهن ، نافيا بذلك الشماتة عن نفسه ، ولم تكن له طدة بمثلها) (٣) . وأشار طلبه وهو الاديب البليغ الرصين (٤) أعجاب ود هشة المؤرخين ، وعزوا ذلك الى كبر نفس المظفر وقوة شكيته . (٥)

-
- (١) : المصدر السابق والجزء ، ص ٢١٠ - ٢١٢ (نقلا عن ابن حيان) .
 (٢) : نفس المصدر السابق والجزء والصفحات .
 (٣) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ٢٦ .
 (٤) : كان المظفر بن الافطس ادبيا مؤرخا طالما شاعرا لم يصرفه الحكم عن الاهتمام بالعلم والشعر والادب . ويكفى ان نشير الى عظم منزلته الادبية انه ألف كتاب (المظفرى) . وهو كتاب تاريخى جديد ، حلاه ووشاء كما يقول ابن عذارى (بالطرف المستملحة ، والنكت البديعة ، والفرائب الملوكية ، واللغات الفريفة . ويقع فى نحو ٥٠ مجلدا ، فتصرف به تصرفا بديعا ، ولكبهره لم يتمكن كل الناس من اكتسابه ، فانه لا يصلح الا للخزائن الملوكية .
 انظر : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ . - مصطفى الشكعة
 الادب الاندلسى - موضوعاته وفنونه - ص ٢ ، ص ١٠٣ .
 (٥) : ابن بسام : نفس المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ٢٦ .

على ان الخلاف ما لبث ان نشب مرة اخرى بين الخصمين ،
 فقد جهز المعتضد جيشاً بقيادة ابنه اسماعيل ووزيره الجديد ابن سلام ، وخرج هذا
 الجيش الى مدينة يابرة ^(١) . وجهز ابن الافطس جيشاً بقيادة ابنه وقيادة حليفه اسحاق
 بن محمد بن عبد الله البرزالي ، والتقى الفريقان عند يابرة . وقد انتهت هذه المعركة
 بهزيمة شنيعة لابن الافطس قتل فيها من جيشه حوالي ثلاثة آلاف ، وقتل ابن خليفه
 العزيز اسحاق ، وحز رأسه وحمل مع رأس لابن عم المظفر الى اشبيلية . وقد استطاع
 الرئيس ابن جمهور أخيراً ان يصلح بين الخصمين اللدودين في اوائل طم ٤٤٣هـ / ١٠٥١م
 وما كاد المعتضد يعقد هذا الصلح مع المظفر حتى انقلب على حليفه ابن يحيى ، وأخذ
 يضايقه ويهدد أن ابن يحيى رأى ان من الصعب طلب مساعدة المظفر الذي سيرفض ذلك
 ختماً ، نكايه فيه وجزاءً على خيانتة له . وبدأ المعتضد يضيق الخناق على ابن يحيى
 في لبله وأخيراً رأى ان لا مخلص من مفادرة لبله والتوجه الى قرطبة لاجئاً لدى ابن
 جمهور ويجب ان نلاحظ هنا ان بنى جمهور كانوا دائماً ملاذاً للأمراء المطرودين والمنفيين
 عن اماراتهم . وكان موقفاً طريفاً عندما شارك المعتضد بفرقة من جيشه لتشجيع ابن يحيى
 الى قرطبة ^(٢) . وعندما خرج ابن يحيى عن لبله تولى حكمها من بعده ناصر الدولة ابي نصر
 فتح بن خلف بن محمد اليحصبي . وقد رأى هذا ان يكفي شر المعتضد بدفع جزية
 سنوية له ، وان يعترف له بالسيادة الاسمية . ووافق المعتضد مؤقتاً ، ولكن ما كان هذا
 ليرضيه او يقنعه . فحاصره فيها وضيق عليه . وطأت في اراضيه فساداً . ولم يعلم ابن
 يحيى روح الانفة والسزة فبادل المعتضد بخارات شديدة الى ان ضاق به الحال وعجز
 عن مقاومة المعتضد ، فخرج عنها والتجأ الى قرطبة ايضاً طم ٤٤٥هـ / ١٠٥٣م ، وسلم
 المدينة للمعتضد ^(٣) .
 الاستيلاء على اماره ولبة وشلطيش :-

تقع ولبة او ابنة ، وشلطيش في كورة اكشونية Ocsnoba
 وكانت تشمل الركن الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة مما يلي كورة اشبيلية غرباً .

- (١) : يابرة Evora بلدة في جنوب البرتغال الحالية ، وهي عاصمة
 مديرية الميتيجو Almetejo على ١١٢ كيلو متراً بالسكة
 الحديدية من اشبونة .
 انظر ابن البار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٣ ، ص ٩٧ .
 (٢) : ابن بسام المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الاول ، ص ٣٦٢ ، والقسم
 الثاني - المجلد الاول ، ص ٢٦ .
 (٣) : مجهول : الذيل المضاف الى البيان المغرب ، ص ٣٠١ .

وولبة Hueva وشلطيش Saltes داخلتان اليوم في زمام مديرية ولبة الحالية (١) .
وهي من الامارات التي آثرنا الحديث عنها ايضا حتى حينه ، وقد استبد
بها أحد وجهائها وهو محمد بن أيوب بن عرابان الفتنة ، ثم لما توفي
خلفه على الأرجح أبو زيد عبد العزيز على عكس ما جاء في رواية ابن البار (٢) .

ولقد غدا سقوط لبلبة في يد المعتضد هاجسا يخيف
أمراء الامارات العربية الغربية . اذ أخذت كل واحدة منها تشعر بالخطر
الحقيقي على كيائها وتحاول جاهدة التقرب من المعتضد والتودد اليه . وكان
هذا حال أمير ولبة وشلطيش عبد العزيز البكري ، فعند ما رأى لبلبة تسقط
في يد المعتضد بادرا اليه يهنئه بما تهيأ له ، وذكر المعتضد بما كان
يجمع بين جديهما من مودة وألفة . ثم اعترف له بالسيادة بل وتخلى له
عن مدينة ولبة طائعا مختارا مقابل أن يقيه على حكم جزيرة شلطيش ، ووافق
المعتضد بتهجها ، ولكن لأمد محدود فقط (٣) .

أما البكري فقد توجه الى شلطيش ومقى فيها هناك ،
وما عثم أن ضايقه المعتضد في طم ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م ، فنكت بعهد له
وحاصره في جزيرته . ورأى البكري أن ينسحب بشرف طالما ليست له القدرة
على مواجهة قوة المعتضد الكاسحة . ففاوضه على تسليمها له مقابل شروط ،
فباعه سفنه بعشرة آلاف مثقال ذهب . وغادر البكري شلطيش متجها الى
قرطبة لدى ابن جهور ، شأنه شأن ابن يحيى حاكم لبلبة السابق .

-
- (١) : ابن البار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ح ٤ ، ص ١٨٠ .
(٢) : روى ابن البار نقلا عن غير ابن حيان - ولم يسمه - أن أبازيد هو محمد بن أيوب ،
وأنه والد عبد العزيز ، غير أن رواية ابن حيان تبد وأصدق وأوضح . فأبو زيد هو
عبد العزيز وليس محمدا ، ومما يذكر أن أبازيد هذا هو والد أبي عبد البكري
الجغرافي المشهور ، وصاحب كتاب المسالك والممالك .
أنظر ، الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٨٠ ، وص ١٨٣ - ١٨٥ .
(٣) : ابن غداري : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

رواية أخرى الى أشبيلية على أنها ضعيفة ^(١) . وأراد المعتضد مع هذا أن يقبض عليه وعلى أمواله ، وهو فى طريقه الى قرطبة . غير أن البكرى فطن الى ذلك ، فقدم على صاحب قرمونة محمد بن عبد الله البرزالى . والواقع أن هذه الرواية فيها خلط كبير ، فان محمد بن عبد الله كان قد قتل طم ٤٣٤هـ / ١٠٤٣ م كما سنعرف بعد قليل . ويبدو أن ذلك قد حدث فى عهد ابنه اسحاق . وقد ساعده البرزالى بالفصل فى التوجه الى قرطبة سالماً بأمواله ، ونجا من جائل المعتضد ^(٢) .

الاستيلاء على اماره شنتمرية الغرب ((شنت برية)) :-

قامت هذه الامارة فى منطقة شنت برية ، وهى بالاسبانية وهى عبارة عن بلدة حصينة تقع فى شمال غرب قونقة وجنوب شرقى مدينة وادى الحجارة بالقرب من منابع نهر التاجية . وهى قاعدة كورة شنت برية فى التقسيم الادارى الاندلسى الواقعة بين منطقة قونقة واقليش حتى شرقى طليطلة . وتعرف بشنتمرية الغرب تميزاً لها عن شنتمرية الشرق أو شنتمرية بنى رزين ، أو سهلة بنى رزين . وتعرف شنت برية اليوم بمدينة هارو فى البرتغال الحالية ^(٣) .

وهذه الامارة أيضاً من الامارات الصغيرة التى استبد بحكمها ابلان الفتنة أحد رؤسائها وهو سعيد بن هارون الذى تولى أمرها حتى طم ٤٣٣ هـ أو عام ٤٣٤ هـ / ١٠٤٣ م على اختلاف بين المؤرخين . ثم توفى وخلفه ابنه محمد بن سعيد بن هارون وتلقب بالمعتصم ^(٤) .

-
- (١) : ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٨١ - ١٨٣ .
 - (٢) : ابن الأبار : نفس المصدر والجزء ، ص ١٨٣ - ١٨٥ .
 - (٣) : محمد عبد الله هان : دول الطوائف ، ص ٤٣ ، و ج ١ ، ص ٩٤ ، و ج ١ ، ص ٢٥٣ .
 - (٤) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢١٥ . - مجهول : الذيل المضاف الى البيان المغرب ، ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .

ورأى المعتضد أن يواصل جهوده نحو تحقيق هدفه بسرعة
بالفة مستغلا هدنته مع ابن الافطس . وكما جاء استيلاؤه على لبله وولبة
وشلطيش مفاجئا وسريعا - وان كان مكلفا - جاء استيلاؤه على شنتمريية
الغرب بنفس الصورة أيضا . فقد ضيق المعتضد الخناق على المعتصم
وأوقع بأراضيه خسائر شديدة ، فلما (رأى أنه لا يقاومه ولا له به طاقة ،
خطب سلمه على أن يخلع له نفسه ، ويخرج بمن معه الى اشبيلية فقبل منه ،
فتخلى له عن البلد في سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة) (١) .

على أن ابن عذارى يشير الى أن ذلك قد حدث طم ٤٤٩ هـ /
١٠٥٧ م ، وهو أمر مستبعد كما يتراءى لنا . لانه أى ابن عذارى فى تناوله
لاحداث هذا المام على نظام الحوليات الذى أخذ به وبغيره لم يشر
الى هذا الحادث بتاتا . وحادث بمثل هذه الاهمية لا يمكن أن يحدث
فى هذه الفترة دون أن يشير اليه .

الاستيلاء على اماره شلب :-

قوام هذه الامارة هى مدينة شلب *Silve* (وهى قاعدة
كورة أكشونبه ، وهى مدينة بقبلى مدينة باجة) . وشلب الان مدينة
صغيرة فى جنوب البرتغال تابعة لمدينة " الغرب *Algarve* " (٢)
رأينا فى حديثنا عن عهد القاضى ابى القاسم محمد بن اسماعيل ،
الحاجب عيسى يستبد بحكمها فى ابان الفتنة . وقد استمر الحاجب
عيسى يحكم شلب ونواحيها حتى توفى طم ٤٣٣ هـ / ١٠٤٢ م ، ورأينا كيف أن
ابنه محمد بن عيسى يخلفه فى حكم هذه الامارة ، وقد رأينا أيضا أنه تنازل
عن مدينة باجة للقاضى ابن عباد ، واكتفى محمد بن عيسى بحكم مدينة
شلب حتى توفى عام ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م (٣) .

-
- (١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢١٥ .
(٢) : أنظر الحميرى : المصدر السابق ، ص ١٠٦ . وكذلك ابن البار :
الحلة السيرة ، ج ٢ ، ح ٢ ، ص ١٣١ .
(٣) : مجهول : الذيل المضاف الى البيان المغرب ، ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .

وهنا حدث تغير في البيت الحاكم . فعندما توفي عبيد الدولة محمد بن عيسى في هذا العام ، اضطربت الأمور في المدينة ، فثار بها القاضي أبو الأصبح عيسى بن محمد بن سعيد بن جميل بن سميد المزيني ، وذلك في عام ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م . فبايعه أهلها وتلقب بالمظفر ، وقد ساس البلاد أحسن سياسة . ورغم أنه قد هادن المعتضد وتودد إليه وهو يرى أن الوقت وقته والمجد مجده ، فإن المعتضد لم يقنع بهذا ، بل أخذ يشن عليه الغارات . وعندما رأى المظفر ذلك ، نازل المعتضد بكل قواه وبكل عزة وكرامة حتى قتل في طم ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م . وخلفه ابنه محمد وتلقب بالناصر ثم توفي بعد خمس سنوات من حكمه ، فخلفه عيسى بن محمد وتلقب بالمظفر أيضا . وفي عهده سقطت دولته نهائيا في يد المعتضد بعد أن ضايقه وشدد عليه الحصار . ثم استطاع جنوده أن يدخلوا القصر ويقبضوا على المظفر ويقتلوه . واستولى المعتضد على المدينة طم ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م (١)

ونحن لانوافق صاحب الذيل الذي يعلقنا به ما جرى لأمرنا شلب مع المعتضد فيما يتعلق بالسنوات . فاننا نستبعد ما ذهب إليه من تحديد لتاريخ سقوط المدينة في يد المعتضد . إذ نستبعد كثيرا أن يكون السقوط النهائي لشلب قد حدث في طم ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م وذلك لاننا سنرى بعد قليل في استعراضنا لانشقاق اسماعيل بن المعتضد وتمرده على أبيه الذي حدث في عام ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م على الأرجح أن المعتضد قد استدعى ابنه الثاني محمد - الملقب بالمعتمد فيما بعد - من شلب التي كان واليا عليها (٢) . بل أن هناك إشارة صريحة إلى أن محمد بن المعتمد كان واليا على شلب في طم ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م (٣) . وعلى أبعد احتمال نراه نعتقد

(١) : مجهول : الذيل المضاف إلى البيان المغرب ، ص ٢٩٦ - ٢٩٨ .

(٢) : ابن غداري : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٤٤ .

(٣) : صلاح خالص : المعتمد ابن عباد الاشبيلي ، دراسة أدبية

وتاريخية ، ط ١ ، ص ٢٤ - ٢٥ .

أن ولاية شلب قد تولاهما محمد بن المعتضد قبل عام ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م ، أى قبل مقتل أخيه بقليل استنادا الى تلك الآراء والروايات التى أشرنا اليها .

وهكذا صفا الجو للمعتضد ، ولم يعد هناك من يخشى بأسه ومعنى آخر من يسبب له ازعاجا ، ولم يعد أمامه الا تصفية حسابه مع إمارات البربر ، وغيرها من منازعه .

الاستيلاء على إمارة بنى حمود بالجزيرة الخضراء :-

بعد أن استطاع المعتضد القضاء على استقلال الإمارات العربية الغربية وضمها الى مملكته ، لم يعد أمامه الا الإمارات البربرية التى كانت تتركز فى الجزء الجنوبي من بلاد الاندلس . وهذه الإمارات هى : مالقة ، والجزيرة الخضراء ، التابعة لى بنى حمود العلويين ، وإمارة قرونة ، وإمارة رندة ، وتاكرونا ، وإمارة مورور ، وإمارة أركش ، وأخيرا مملكة غرناطة . فرأى بعد تلك السلسلة من الانتصارات التى حققها على تلك الإمارات أن يولى وجهه شطر الإمارة الحمودية بالجزيرة الخضراء التى كما قد تركناها تستظل بخلافة محمد بن القاسم بن حمود الذى استقر فيها وتلقب بالمعتصم . فقد رأى المعتضد ولمس حاسته السياسية النافذة أنها أضعف الإمارات البربرية شأنا ، إذ توفى الخليفة محمد بن القاسم عام ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م ، فخلفه ابنه القاسم بن محمد بن القاسم الا أنه كان ضعيف الشخصية مهالكا . فشرع المعتضد يعد المدة للانقضاض عليه . وفى هذا الصدد جاء فى البيان المغرب^(٢) ما نصه (ثم مد يده بعد الى القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء " وذلك " أنه لما وجد هذا الفتى على نهايته وجلالة عمله ، أضعف أمراء البرابر شوكة صمد له وحصره) .

(١) : أنظر قبل ، ص ١٢٢

(٢) : ابن عذارى ، ص ٢١٣ ، وص ٢٣١ .

كما جاء في كتاب البيان المغرب أيضا ما نصه (فبدأ ابن عباد
يتطلب العلاقات عليه حتى كاشفه بمعاملته ، وتبدى اليه بحربه ، وأطمعته
في الجزيرة قوته على ركوب البحر ، فاجتمع عنده من الاساطير ، واكمل اليه
المدة بتلك البلاد التي افتتحها ^(١) . فأرسل عند ذلك جيشه نحو الجزيرة
الخصراء برا وبحرا ، وأخرج على الجيش وزيره عبدالله بن سلام ، فحاصرها
ورحل القاسم في سفينه مع اهل بيته الى سبته ، وكان صاحبها سراجا
البرغواطى ، وقيل اسمه سقوت . فاستولى ابن عباد على الخصراء في سنة
ست وأربعين وأربعمائة ^(٢) .

وهكذا سقطت اماره بنى حمود بالجزيرة ، ولم يمه
بالاندلس منهم سوى الموجودين بمدينة مالقة والذين سيتهى وجودهم
السياسى أيضا كما سنرى بعد ^(٣) . وأخيرا كان من المنظور أن نستبقى سقوط
الجزيرة الخصراء الى مكانها الملائم ، وهى الققرة المعنونة بالتوسيع
المسكرى على حساب امارات البربر والجنوب . بيد أن التسلسل الزمنى
للأحداث اضطرنا الى أن نتعرض الى ذكر ذلك عقب سقوط الامارات
العربية المذكورة . ونزعم أننا قد شاكلنا الصواب ، فامارة بنى حمود
- وان كانت بربرية اللسان والعادات - فهى عربية قرشية علوية ، ولا بأس
من تصنيفها فى عداد الامارات العربية أيضا .

-
- (١) : المقصود بها لبلة ، وولبه وشلطيش .
(٢) : ابن غدارى ، ج ٣ ، ص ٢٣١ ، رجب عبدالحميد : الرسالة السابقة ، ص ٩٧ - ١٠٠ .
(٣) : انظر بعد ، ص ١٤٦ .

انشقاق اسماعيل بن المعتضد وقضاء المعتضد عليه

فى عام ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م على الأرجح حدثت جفوة بين المعتضد وابنه اسماعيل ، وأفضت أخيرا الى قتل اسماعيل على يدى أبيه . وكان مبدؤ ذلك عندما فكر المعتضد بعد سلسلة الانتصارات التى أحرزها ضد مرء الامارات العربية الغربية المجاورة ، ومعد قضاءه على استقلال امارة بنى حمود بالجزيرة الخضراء ، فكر فى أن يهاجم ملكة قرطبة من نقطة ضعفها الامنى أى من مدينة الزاهرة التى تطل عليها . وطلب المعتضد من ولده التهيؤ للقيام بتلك الحملة العسكرية . غير أن اسماعيل أبدى اعتراضه على هذا الهجوم ، وعلل ذلك بأن هناك حلف بربرى يربط بين ملكتى قرطبة وغرناطة . وأن أية محاولة من المعتضد للتحرش بملكة قرطبة تعنى اعتداءا على ملكة غرناطة مما يجعلها تبادر الى مساعدة حليفها . وهو أمر بالغ الخطورة على موقف العباديين ، ويصعب بالتالى مهمته ويشقت قواه .

ورغم منطقية هذا المحذور السياسى والعسكرى ، فقد رفض المعتضد اعتراض أو اقتراح ابنه . ورد عليه بغلظة وقسوة ، ورماه بالجبن والخور . وطلب منه أن يسارع الى تنفيذ تلك المهمة . ونقف قليلا هنا لنستجلى خلفيات ذلك الحادث المؤلم الذى أودى بحياة اسماعيل ، وكدر صفو سمادة المعتضد الفائقة وانتشاء الثمل بانتصاراته على امارات لبلة ، وولبه وشلطيش ، وشنتمرية الغرب ، والجزيرة الخضراء . وظلل نفسه وعهده بسحابة قاتمة كما ذكرنا .

ولا نكاد نستبين خلفيات واضحة قبل خروج اسماعيل ومقتله للنفور والاستياء من قبله على أبيه الا ما نقله لنا عبدالواحد المراكشى من أنه كانت تدور على الألسن اخبار واشاعات عن اسماعيل منها ضيقه من استطالة عمر والده ، وتمنيه موته السريع ، حتى يخلص اليه الامر . وكان المعتضد يتلقى تلك الاشاعات فكان يفض الطرف عنها ويتغافل عن ابنه تغافل الوالد^(١) . تلك هى خلفيات تلك الموجة من النفور والاستياء الذى ابداهما اسماعيل .

(١) : المصدر السابق ، ص ١٥٢ - ١٥٣ .

ويخيل لنا ان هناك اسباباً أدت الى تدهور العلاقات بين الاب وابنه وولى عهده وقائد جيشه فأسماعيل ربما كان ييتم من عملية الاستنفار والمرابطه فلم يكن ليستقر فى مكان او يفتح حصناً او مدينة ما حتى كانت اوامر والده بالتحرك الى مكان آخر او حصار آخر تصدر اليه فى حركة لا هتة لا يستقر له قرار ولا يهدأ له بال .
ويبدو ان التعب والاجهاد قد اضنيه ، وان الاشتباكات الدائبة قد هدت ركه . ونحن لا نستبعد ان يكون اسماعيل قد حدث نفسه وطاف بمخيلته خلوصاً لمرأيه واستيلائه على اريكة الملك . كما اننا لا نستبعد ان تكون الحاشية المحيطة به قد زينت له الخروج على ابيه وانتهاز الفرصة للاقدام على ذلك . وقد يكون اسماعيل غير راض عن تصرفات والده ، فلربما استشعر خطل وخطر سياسة والده وشهوره فى استعداد مناوئيه من العرب .
فالمعتضد بقضائه على تلك الامارات العربية ، قد اجج روح الانتقام والثورة فى نفوس العرب كما الب خصومه عليه . وقد يكون اسماعيل قد استهجن انقلاب ابيه على حلفائه ورأى ان جوانب المخاطرة فى سياسة ابيه تفوق فوائدها . فهل كان البربر حلفاء ابيه حتى ذلك الوقت ليطمئنوا بعد ما حدث الى تحالفاتهم معه ؟؟

ومع اننا لم نطلع على تفاصيل السياسة الداخلية فى المملكة فاننا لا نستبعد ان يكون اسماعيل قد استهجن ما آلت اليه الاحوال الداخلية فى البلاد .
فالمعتضد . كما كم مستبد باطش لم يسمح بسماع اصوات معارضييه ، فقد كم افواههم وطمش بهم . وقد يكون للوحشة بينه وبين ابيه اسباباً غائبة بحته لا نعرف كمها .
وايما ما كان الامر فقد بدأت نفس اسماعيل تتغير على ابيه ، فحصلت الجفوة بينهما وجاءت مسألة الهجوم على مملكة قرطبة كالقشة التى قصمت ظهر البعير فلا منطق الاحداث ولا العقلانية يسمحان للمعتضد تنفيذ اغراضه بسبب هذه المخلفات التى ذكرناها

وغدا ما اغلظ عليه ابوه بالقول واستهجن فكرته وخوره رأى اسماعيل ان لا تلاقى بينهما البتة . فبدأ يجهز الجيش للخروج الى قرطبة ، وكان من جملة رجال اسماعيل رجلا يدعى عبد الله البزليانى . وهو احد العرب الهاربين القادمين من مالقة بعد سقوطها فى يدى باديس بن حبوس ملك غرناطة ، ثم اتصل سبيه ببلاط المعتضد ومال الى مصاحبة ولى العهد وقائد الجيش والاخلاص له . وكان البزليانى رجلاً ذا اثر ومطامع واهداف بعيدة . وكانت اقصى امانيه ان يصبح حاجباً ، وقد رأى فى القصور والجفوة بين المعتضد وابنه اسماعيل فرصته الذهبية لتحقيق مطالبه .

خرج اسماعيل بجيشه ومخاضته وعلى رأسهم البزلياني الى قرطبة .
 ونسبح لانفسنا ان ننقل من كتاب ملوك الطوائف شرح ذلك . فقد رجع اسماعيل بعد
 يومين من خروجه الى اشبيلية مع خاصته البالغ عدد هم ثلاثون فارساً تاركاً الجيش هناك
 مدعيّاً ان اوامر طجلة جاءت من ابيه . فجاء على عجل الى قصر ابيه واستولى على ما
 قدر عليه من مال وكوز ثم اخذ والدته واهله وخرج من اشبيلية في الوقت الذي كان والده
 يقبع في قصره على الضفة الاخرى لنهر الوادي الكبير . ولما تسرب الخبر الى المعتضد امر
 بغلق المنافذ والحدود والحصون امام ابنه . غير ان اسماعيل استطاع ان يصل الى قلعة
 القائد ابي ايوب والتمس من صاحبها الدخول ، ووافق صاحبها ان ينزل اسماعيل في
 حمايته شريطة ان يظل عند سفح الجبل الذي تطل عليه القلعة^(١) . ثم ادخله القلعة بعد
 ذلك وعاملة معاملة تليق به وبمث لابيه يخبره بنزول ابنه عليه ، وطلب منه ان يصفح عنه
 ووافق المعتضد على ذلك ، وارسل الى صاحب القلعة يخبره انه قد غي عن ابنه وصفح
 عنه وطلب من ابنه ان يعود الى اشبيلية فعاد اليها فعلاً .

وكان اول شيء فعله المعتضد هو قتله البزلياني ومن معه ، ثم جرد ابنه
 من كافة مناصبه ولكن دون ان يقطع عنه رزقاً او اعطيات ، واكتفى بتاديبه بالاعراض والهجران .
 وشعر اسماعيل بأن ابيه قد استدرجه الى شرك منصوب ، ولذا فقد بدأ يجمع من حوله
 الانصار والمؤيدين له للتخلص من ابيه . ولم يجد وسيلة الى ذلك الا باغتصاب السم ، واعد
 الخطة لذلك فعلاً . وكانت هذه الخطة تقتضي ان يتسلق مع اصحابه قصر ابيه ويطسرقوه
 ليلاً ويهجموا من هناك على المعتضد ويقتلوه في فراشه .

بيد ان الامور جاءت بغير ما يشتهي اسماعيل . فلم يروع هو واصحابه
 الا ووالده واقفاً شاهراً سيفه ، فاذ هلتهم المفاجأة ففروا من بين يديه وتطايحوا خائفين
 خائبين . الا انه قبض عليهم جميعاً . وفجر هذا العمل غضب المعتضد واججه ، فأمر
 بقتل رجال ابنه ، ونكل بهم وقتل ابنه اسماعيل بيده من شدة الغيظ ، واستصفى امواله^(٢)

(١) : دوزي ، ص ١٤٣ - ١٤٥ .

(٢) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

وقد انتاب المعتضد اثر ذلك حزن شديد ، وأسى
مؤلم انعكس على نفسيته .^(١) وينقل لنا ابن عذارى عن ابن بسام
صورة لهذه الحالة وذلك من خلال الكتاب الذى بحثه المعتضد
الى رؤساء الاندلس يشرح فيه ما حدث بالتفصيل . ويطلب منهم
أن يعتبروا من ذلك .^(٢)

وهكذا فقد ضحى المعتضد بابنه وولى عهده ،
عندما أدرك أن ملكه مهدد ، وأن ابنه يتآمر عليه ، حتى يظفر
بالمملك من بعده كما وقر فى ذهنه .^(٣)

-
- (١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ، (نقلا
عن ابن بسام) .
(٢) : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٢٤٥ - ٢٤٨ .
(٣) : والواقع أن هناك أمثلة عديدة فى التاريخ ، جعلت الأب لا يتردد
أبدا فى أن يضحى بابنه اذا ما تآمر عليه وعلى عرشه .
ومن هذه الامثلة احمد بن طولون حاكم مصر عندما قتل ابنه
العباس ، والمنصور بن ابي طمر الذى قتل ابنه عبد الله الذى
حامى حوله الشكوك الى آخر ذلك .

توقف المعتضد عن الدعوة لهشام المؤيد الاموى المزعوم

تركنا الخليفة هشام المزعوم يحتل اريكة الخلافة التي نصبه عليها (١)
القاضى ابو القاسم محمد بن عباد فى اواخر عام ٤٢٦هـ او ٤٢٧هـ / ١٠٣٥م كما ذكرنا
وقد ندرس ما لاخباره وانبائه ، او بمعنى ادق المتاجرة باسمه فيما عدا انتفا من الاخبار
هنا وهناك

كانت مسألة اظهار الدعوة الهشامية ومن ثم قبولها عرضة للمتاجرة
السياسية . فمعظم امراء وملوك الطوائف يعلمون ان ذلك اختلاق وانه محض هراء وافتراء
ومع هذا فنجد كثيراً من امراء الطوائف يعترف بتلك الدعوة للوصول الى غايته . والا فإى
منطق يستجيز ويستسيغ الوثوق باخبار موتاته المتكررة والفاضة ؟؟ حتى وفاته اخيراً
على يد المعتضد كانت غامضة ايضاً . ذلك ان المعتضد اعلن فى عام ٤٥١هـ / ١٠٥٩م
وفاة الخليفة هشام المؤيد . وقطع بذلك الدعوة له (٢) . ونعجب لاننا لا نجد تفسيراً لهذا
التوقيت ، فقد جاء خالياً من اى مضمون سياسى او عسكرى . صحيح ان المعتضد استطاع
ان يثبت دعائم ملكه وان يوطد سلطانه سواء اكان ذلك على الصعيد الداخلى او الخارجى
كما انه استطاع ان يوهب مناوئيه . ذلك كله صحيح ، ولكن الامر الذى قامت الدعوة من
اجله لم يزل ولم ينته وجوده بعد ، ونعنى به الوجود الحمودى . فما زالت هناك خلافة
حمودية فى ما لقى ، ولا زال هناك من يدعوا لها ويعترف بها ، كملك غرناطة وامارات قرمونة
ورندة ومورور واركن ، وهى ممالك وامارات بربرية ترفع تلك الدعوة نكايه بالعرب بصفة خاصة .
ويخيل الينا بأن تصرف المعتضد ذلك كان خاطئاً . فهو لم يتخلص
بعد من نفوذ بنى حمود البربر حتى يقطع تلك الدعوة التى قامت من اجل ارباك الحموديين
وسحب البساط من تحت ارجلهم . فقطع تلك الدعوة فى ذلك الوقت سيضر بموقفه لاسيما
وهو حامل لواءها ومتبنيها . ونحن لا نؤيد ما ذهب اليه على ادهم (٣) ان المعتضد بعد ما
شعر بأن ملكه قد اتسع ، وثبت له الامر فى كثير من الامارات التى فتحها ، رأى ان لا حاجة
به الى الخليفة هشام الدعى . فاعلن وفاته . لا نرى ذلك للاسباب التى ذكرناها .
واذا اخذنا نقيم هذه المسألة فأننا نجد ان تأثيرها كان ضئيلاً . ففيم عدا الهزة
او الخضة التى احدثتها هذه الدعوة وما ترتب عليها من ارباك وخلط للاوراق لدى ملوك
الطوائف طمس ، وبني حمود خاصة وذلك فى عهد القاضى محمد . فأننا لم نلمس لها
اى تأثير على الساحة السياسية فى عهد المعتضد فيما عدا ما حدث فى عام ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م

(١) : انظر قبل الباب الاول ، ص ٩١

(٢) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ٦ ، ص ٢٤٩ .

(٣) : انظر المرجع السابق ، ص ٧٤

من انقسام سياسى لمملك الطوائف أدى الى وجود فريقين من ملوك الطوائف • فريق يدعو لهشام المؤيد المنصب فى اشبيلية ، وفريق آخر وعلى رأسه البربر يدعو لمحمد بن القاسم بن حمود العلوى كما ذكرنا سابقاً ^(١) • وفيما عدا اعتراف يحيى بن ذى النون عام ١٠٤٤/هـ ١٠٤٤ م بالدعوة لهشام نكايته بمعدوه ابن هود صاحب سرقسطة ^(٢) •

ومع ضآلة هذا التأثير فان بقاء الدعوة لهشام كام أمراً مهما لبنى عباد ، يكسب تصرفاتهم الشرعية ويضفى عليها واقعا روحيا • فهى ان لم تلحق بهم الاذى والضرر فانها بالتأكيد قد نفعتهم واقادتهم • ومن هنا نقول بأن قطع هذه الدعوة فى ذلك الوقت الذى لم يصف فيه المعتضد حسابه مع أمراء البربر حاملى لواء الدعوة الحمودية ، كان خطأ سياسيا يدل على قصر نظر سياسى أو تعجلا لسير الأحداث • ومهما يكن من أمر فقد أعلن المعتضد للملأ وفاة خليفته • وصرح بأنه قد توفى أثر علة أصيب بها • ولكنه ولمصلحة البلاد والمسلمين العليا لم يصرح وقتها بذلك • فان الظروف السياسية وقتها لم تكن ملائمة أو مناسبة للتصريح بذلك • والان بعد أن استتببت له الأمور ، وهدأت الاحوال رأى أن يعلن ذلك ^(٣) وبالفعل فقد (اتصلت الانباء بالاندلس بصوت منابره فى جميع أعماله عن ذكر امامه هشام بن الحكم صاحب الترجمة ^(٤) الذى اتصل الدعاء له على منابره من عهد قيام والده الى آخر هذه السنة وهى سنة احدى وخمسين ^(٥)) وقد احتفى المعتضد بدفن جثة خليفته هشام احتفاء مهيبا شارك فيه بنفسه ومشى راجلا فى جنازته • وخلع طيلسانه ومشى معه فى تشييع الجنازة أرباب الدولة ورجالها وقد أرسل الى ملوك الطوائف وأمرائها ينمى الخليفة ، وطلب اليهم اختيار خليفة مكانه يايعونه • فلم يفعل أو يفكر أحدا فى ذلك بطبيعة الحال • ومن ثم فقد انتهز المعتضد ذلك وأعلن أن الخليفة الراحل قد عهد اليه أن يكون أميرا على الاندلس كلها من بعده ^(٦) •

-
- (١) : انظر قبل الباب الأول ، ص ١٣٣
 (٢) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٢٠ ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ •
 (٣) : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٤٩ •
 (٤) : من الواضح أن ابن حيان كما ينقل عنه ابن بسام لا يقصد بالرجعة تلك التى يؤمن بها الشيعة عند عودة امامهم المنتظر • وإنما يقصد بصاحب الترجمة الخليفة هشام الذى تكرر ظهوره ورجعاته للخلافة كما زعم •
 (٥) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى ، المجلد الاول ، ص ٢٧ - ٢٨ •
 (نقلا عن ابن حيان)
 (٦) : على أدهم : المرجع السابق ، ص ٤٧ - ٧٥ •

وإذا كنا قد تعودنا من بعض المؤرخين القدامى الوقوع فى كثير من الأخطاء التاريخية الفادحة . فأننا لا يمكن أن نجد تفسيراً لأن ينساق أحد المحدثين فى نقل تلك الأخطاء دونما روية أو تثبت ، فابن خلكان يقول (ولم يزل الأمر كذلك الى أن توفى المدعو هشاماً ، فاستبد القاضى محمد بالأمر بعده ، وكان من أهل العلم والادب والمعرفة التامة بتدبير الدول ، ولم يزل ملكاً مستقلاً الى أن توفى ليلة الأحد لليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ، وقيل انه طش الى قريب الخمسين والاربعمائة)^(١) وبعد الوهاب عزام يردد نفس ما قاله ابن خلكان من أنه عندما توفى هشام المزعوم استبد القاضى محمد بن اسماعيل بالملك^(٢) .

ومن جانبنا نقول كيف يستبد القاضى محمد بن اسماعيل بالملك بعد وفاة هشام المزعوم . وهو أى القاضى قد توفى قبل ذلك أى قبل وفاة هشام التى وقعت كما يقول المؤرخون طم ٤٤٥١ / ١٠٥٩ م ؟؟ . كيف يحدث هذا والقاضى قد توفى طم ٤٤٣٣ / ١٠٤١ م كما مرّ بنا سابقاً وكما يقول ابن خلكان وعزّام نفسهما ؟؟ ومهما يكن فكتمجبنا تلك المقلّة فى مسرحية اظهرار دعوة هشام ثم وفاته التى نقلها ابن عذارى وابن بسام عن ابن حيان وغيره ، (صارت هذه الميتة لحامل هذا الاسم الميتة الثالثة ، وعساها تكون ان شاء الله الصادقة ، وكم قتل ، وكما مات ، ثم انتفض عنه التراب وقال بعضهم فيه :

ذاك الذى مات مرارا ودفن فانتفض التراب ومزق الكفن

فقد مات فى يد أول خالعيه وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار ودفن علانية ، ثم نشر بيد واضح التقي مولى محمد بن ابى طمر وملك مدة ، ثم مات مرة ثانية بيد خالعه الثانى سليمان بن حكم صاحب البرابره ودفنه خفية ثم أبرز صداه على بن حمود الحسنى المنتزى بذكره الطالب بثأره على الدولة ودفنه الدفنية التى خلناها حقيقة الى ان وقعت عليه هذه الميتة الثالثة)^(٣)

-
- (١) : وفيات الاعيان ، مجلد ٥ ، ص ٢٢ - ٢٣ .
 (٢) : المعتمد ابن عباد الملك الجواد الشجاع الشاعر المرزأ ، ط ٢ ، ص ٧ - ٨ .
 (٣) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٤٩ (نقلا عن ابن حيان) .

وابن بسام بالذات ينقل عن ابن حيان كلاما هزليا مؤلما مفاده :
(فما نقول ونعتقد فى الفرق بين هذه الميمات المتواليات اذا كان مائتها
واحدا • وليس الا السيوف عليها أدلة • غير اخلاص الدعاء للكلمة
المسلمين فى الائتلاف لما فيه الصلاح (١) •)

وهكذا انتهت هذه المهزلة المسرحية التى جنى العباديون
جناها فى عهد القاضى محمد بن اسماعيل بصفة أساسية وفى عهد المعتضد
بالله بدرجة ثانية •

(١) : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ٢٨ •

التوسع العسكري على حساب امارات البربر في الجنوب

قبل أن نشرع في الحديث عن الاحداث التي وقعت بين المعتضد و امارات البربر وهو ثم استيلاؤه عليها بعدئذ يحسن بنا أن نلتم في ايجاز جغرافية ونشأة بعض تلك الامارات التي لم نقيم بعد بالحديث عنها .

امارة رنده و تاكرنا :

(رنده في التقسيم الاداري الاندلسي تابعة لاقليم تاكرنا)
وتقع كلتا هما داخل كورة استجه^(١) ، وهي مدينة Arunda الذي كانت تصرف به أيام الرومان والقوط ، وتقع على حافة خانق بسمية صاحب الروض المعطار : طلوسه ، وهو المعروف بجبال رنده Serraniade Ronda وتحت البلد يوجد الخانق المسمى باسم التاجه (el Tajo) عمقه ٦٠ مترا ، يجري فيه نهر وادي اللين Guadalevi الذي يتصل بعد ذلك بوادي آره Guadairo ، ورنده مشهورة في التاريخ الاندلسي جدا فعلى مقربة منها تقع بيشتر Bobastro بين قمم جبال رنده ، وهي اليوم تابعة لمدينة مالقة (الاسبانية) .

أما تاكرنا فمنطقة جبلية هي التي تسمى اليوم باسم جبال رنده ، ولفظ تاكرنا ، بربري يوجد في نواحي كبيرة من المغرب وفي صور مختلفة بعض الشيء أشهرها تكرونة في تونس^(٢) .

وهذه الامارة كانت في حوزة بني يفرن الذين كانوا يعيشون في المغرب وعندما قتل أميرهم على يد الخليفة الفاطمي المنصور ابن القائم بن عبيد الله بن المهدي ، لحق بنو يفرن بالاندلس ، واتصلوا هناك بخدمة المنصور بن أبي عامر . وعندما قامت الفتنة استبدوا بأراضي رية و تاكرنا وقاعدتها رنده^(٣) ، وقد استقل بها ابو نور هلال بن أبي

(١) : انظر قبل الباب الاول ، ص ٨٨

(٢) : ابن الأبار : الحلة السيرة ج ٢ ، ح ٤٣ ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٣) : مجهول : نبذ تاريخية جامعة في أخبار البربر في القرون الوسطى ، ص ٤٥ .

قرة اليفرنى أحد زعماء قبيلة بنى يفرن تلك بهذه الاراضى وأسس بها
امارة مستقلة . ويصعب علينا الاخذ بما جاء فى رواية صاحب الذيل المضاف
الى البيان المغرب من أن ذلك قد حدث فى عام ست وأربعمائة ^(١) ، لانه قد
قال بأنه بويغ لأبى نور فى تلك السنة التى توفى فيها ادريس ابن على بن
حمويه وهى سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م وهو أمر مرفوض ، فادريس توفى عام
١٠٣٩ هـ / ١٠٣٩ م كما نعلم ^(٢) .

وأيا ما كان الأمر فقد استبد بها هذا الثائر وأسس
لنفسه ولقبيلته امارة مستقلة سقطت أخيرا على يد المعتضد .

امارة مورور :

فى التقسيم الادارى الاندلسى كانت مورور كورة قاعدتها تحمل
نفس الاسم ، وكانت تقع جنوبى الوادى الكبير بين كورتى قرطبة وتاكورنا ،
وتقع بلدة مورور على سفح جبل يحمل نفس الاسم Sierra de Moron
ولهذا فقد اشتهرت بحصانتها وهى اليوم مركز ادارى فى مدينة اشبيلية (الاسبانية)
وتسمى : Moron ^(٣) وقد استغل بها اiban الفتنة أحد رؤساء البربر
من قبيلة زناتة من بنى دمر احدى فخذها . وقد قدم نوح بن ابى زيد
الدمرى الى الاندلس شأنه شأن غيره من البربر الذين قدموا فى عهد المنصور
ابن ابى طمر . وقد استمر يحكمها مستقلا فى اiban الفتنة الى أن توفى فخلفه
ابنه محمد عام ٤٣٣ هـ / ١٠٤١ م ^(٤) . وفى عهده غدت امارة مورور امارة كبيرة
وقد اغتيل نوح بن ابى زيد فى حادثة الحمام التى رتبها المعتضد ضده وضد
أمراء البربر الاخرين ، وسنعرض بعد قليل لتلك الحادثة .

(١) : مجهول : ص ٣١٢ - ٣١٤ .

(٢) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ٤ ، ص ١٩٢ .

(٣) : ابن الابار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ح ١ ، ص ٣٧١ .

(٤) : مجهول : الذيل المضاف الى البيان المغرب ، ص ٢٩٦ .

امارة أركش وشذونه :

Arcos de la Frontera

ارکش هي التي تعرف اليوم باسم :

وهي مركز إداري في مديرية قادس (الاسبانية) على نحوى خمسين كيلو مترا شمالى شرقى قادس (Cádiz)^(١) وقد استقل بها أيضا بنو خزرون من قبيلة يربنيان الزناتية الذين قدموا شأنهم شأن غيرهم من أبناء عمومتهم الزناتيين الآخرين المذكورين قبل . وقد استقل احد رؤساء بنى خزرون بكورة شذونه ونزلوا بقاعدتها مدينة قلشانه^(٢) فى مبدأ الفتنة ثم نزلوا بأركش ، وأسس فيها محمد بن خزرون الخزرى دويلة بربرية ، ولما توفى طم ١٠٢٩/٥٤٢٠ م خلفه ابنه القائم عماد الدولة عبدون بن محمد بن خزرون ، ويايعته أركش والأراضى التابعة لها كمدينة شريش وقلسانه والجزيرة^(٣) . وهو الذى ذهب اغتيالاً فى حادثة الحمام أيضا .

x x x x x x x x

وقد كانت علاقة المعتضد مع هذه الامارات الثلاث

رندة ، ومورور ، وأركش حسنة على وجه المموم . وكان المعتضد وهو فى اشد فترات انشغاله مع الامارات العربية التى ذكرناها لا يستهين بوجود وقوة هذه الامارات ، ولذا فقد كان يتودد الى امرائها ويتقرب اليهم ويهادنهم ويهاديهم فى نفس الوقت ، كل ذلك دهاءاً منه وخدعة يستميل بها قلوبهم ويأمن شرهم . بل انه قام فى سبيل ذلك بمغامرة كادت أن تودى بحياته عندما قام بزيارة امارتى رندة ومورور طم ١٠٥٣/٥٤٤٥ م . ومجمل

(١) : ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ح ٢ ، ص ٢٩٧ .

(٢) : قلشانه (بالسین والشین) كورة من كور شذونة ، وهى قرية من مدينة شذونة

(او مدينة ابن السليم كما كانت تعرف فى الجغرافية الاسلامية ايضا) .

انظره الحميرى : المصدر السابق ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٣) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ . - مجهول : الذيل

المضاف الى البيان المغرب ، ص ٢٩٤ .

تلك الحادثة أنه ذهب لزيارة أمير مورور محمد بن نوح الدمري منفردا الا من خادمين فقط . وقد فوجئ ابن نوح بهذه الزيارة ولكنه رحب بالمعتضد وأكرم وفادته . وقد استطاع المعتضد بعد هذه الزيارة الخاطفة أن يخرب ذمم بعض النافذين من وجهاء البربر وأن يستميلهم اليه . وبعد ذلك قام بزيارة مماثلة لابن أبي قره حليفه وصديقه الذي كانت تربطه وياه علاقات تحالف سياسي وصداقة شخصية دون زميليه أميرى مورور وأركش . وقد أكرم ابن أبي قره وفادته أيضا واحتفى به كثيرا ولمس المعتضد بحسه السياسي الموهب مقدار الكم الكبير من التذمر والمقت والسخط فى صفوف عرب مدينة رنده على البربر . وعندما شعر المعتضد بشئ من التعب والارهاق فى احدى حفلات التكريم التى أقيمت له ، رجا ابن ابى قره أن يسمح له بأن يخلد الى الراحة . فهيا له ابن ابى قره الفراش . ولحسن حظ المعتضد أنه لم يستغرق بسرة فى المنام ، مما أتاح له أن يستمع الى ما دار حوله من تأمر . فقد رأى رؤساء البربر التخلص منه بقتله وهو الصيد الثمين الذى سيق اليهم سوفا . ويبدو أنهم كادوا يقدمون على ذلك ، ولكن لحسن حظ المعتضد أيضا أن طرضهم أحد أمراء البيت الحاكم فى رنده وهو معاذ بن أبى قره . فسفه آراءهم وعاب عليهم القدر بضعفهم . كل هذا الهمس كان يدور والمعتضد يظهر التناوم ، وعندما لمس من القوم خضوعا لمنطق العقل والمبادئ الذين أشار بهما معاذ نهض من فراشه وأتى القوم فهبوا لاستقباله . فهش فى وجههم وش ، وطلب أن يعطوه ورقة وقلم . فبدأ يكتب لهم أعطيات وأرزاقا وهدايا كي يقضوها منه فى اشبيلية . ولم يشعر القوم بأن المعتضد قد استمع الى كل ما دار من حديث .

وبدا كما لو أن المعتضد قد نسى الحادثة وكل ذلك خدعة منه وحتى يطمئن قلوبهم . ثم وهو فى أشد فترات انشغاله مع ابن يحيى أميرهم استغل حفل ختان أحد أولاده . وكانت تلك مناسبة اجتماعية تقام فيها الحفلات وتنحرف فيها الذبائح - فأرسل الى أمراء رنده ، ومورور ، وأركش يدعوهم الى تلك الحفلة . ولبنى هؤلاء دعوة القدر لهم ، وأتوه بكامل زينتهم وأبهتهم فى عدد كبير من فرسانهم . فأنزلهم فى أحد قصوره ، ثم دعاهم لمقابلته . وبدأ الحديث بينه وبينهم حسنا ، غيراً

ما لبث أن تمكر صفو المجلس وبدأ المعتضد يقرعهم ويؤنبهم ويلومهم على تقصيرهم معه ضد أعدائه ، بل واستدعى عبيده فأذلوهم داخل مجلسه بالضرب ونسف اللحى ، ثم أمر بهم فسجنوا في أماكن متفرقة لمدة طويلة .

على أنه ما لبث بعد ذلك أن أمر بإخراجهم من سجنهم وأعاد إليهم كرامتهم وأموالهم وطيب نفوسهم ، بل أمر بزيادة في أكرامهم بأن يجهز لهم الحمام للاغتسال . وبالفعل ذهبوا إلى الحمام . وفي نفس الوقف أمر المعتضد البنائين بأن يبنوا جداراً على باب الحمام ، فمات هؤلاء القوم اختناقاً . ونجا من هذه الحادثة معاذ الشيم ، وكان المعتضد قد استبقاه دون غيره من أمراء البربر . وقد تأثر معاذ بالمصير الذي سيق إليه أولئك الأمراء ، ولكن المعتضد هون عليه الأمر وطيب خاطره واستبقاه في أشبيلية حتى وفاته . فمات في كف المعتضد بعد ذلك (١).

وفي الحقيقة إن هذه الحادثة كانت تعد مغامرة وتمهيداً لـ من المعتضد أكثر مما تعد سياسة وخنكة . فقد حدثت هذه الحادثة في عام ١٠٥٣ هـ / ١٠٥٣ م ، وكان في تلك الفترة لم ينته بعد من نزاعه مع أمير لبلة . فالمغامرة باستعداد تلك الإمارات الثلاث واستعداد حلفائهم الآخرين كبني برزال في قرمونة وماديس بن جوس بفرنطة أمر يحصل طابع المغامرة . وسنلمس رد الفعل لدى البربر فوراً .

الاستيلاء على إمارة رندة :-

رأينا أبا نور هلال بن أبي قرة بن دناس اليفرنى يتولى إمارة رندة وتاكرنا ويؤسس بها إمارة مستقلة . وكانت تربطه والمعتضد صداقة وطيدة وتحالف وثيق ، وعندما حدثت حادثة الحمام في عام ١٠٥٣ هـ / ١٠٥٣ م كما رأينا تضاربت الأخبار حوله ، فرواية تقول إنه قضى مختنقاً مع زميليه ابن نوح الدمري ، وإن خزرون ، ورواية تقول إن المعتضد أطلق سراح

(١) : يراجع في أخبار هذه الأحداث : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ،

ص ٢٧٠ - ٢٧١ . - ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى -

المجلد الاول ، ص ٢٩ - ٣٠ . - على أدهم : المرجع السابق ، ص ٦٧ - ٧١ .

ابن ابي قرة لما كان يربطه واياء من أوامر الصداقة . أما أهل رندة فقد عينوا باديس بن ابي نور هلال حاكما عليهم ، ويقول صاحب الذيل المضاف الى البيان المغرب انه قام اثنا توليه الامر بالكثير من المخازي وأنه كان فاسقا ماجنا ، ونسبت اليه جريمة فظيمة وهي اعدائه على زوجة أبيه وعنته . ولعلنا نأخذ برواية صاحب الذيل فيما يتعلق بقضية ابي نور لأننا لم نعثر على رواية أخرى تشير الى هذه الاحداث . فيذكر أن المعتضد أطلق سراح ابي نور هلال بن ابي قرة في ظم ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م . فسارع الى امارته وقبض على ولده باديس وضرب عنقه . على أن أبا نور هلال بن ابي قرة ما لبث أن مات في نفس السنة . وخلفه في الحكم ابنه الاخر ابي نصر فتوح فاستمر يحكم البلاد حكما حسنا حتى ظم ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م . عندما فقد امارته . وخلاصة ذلك أن المعتضد ما عثم يجهل المؤمرات والدسائس على ابي نصر هذا حتى استطاع أحد اعوانه ويدعى ابو يعقوب (ولا نعرف أصله) على وجه التحقيق وان كان يعتقد انه من العرب المتقدمين من البربر وحكمهم أن يقوم مع جماعة من المساعدين برفع شعار الدعوة العبادية . فلم يزعج ابو نصر الا والنداء بشعار المعتضد يصك الاسماع . فعظم عليه الامر ورأى أن يقتل نفسه انفة وعزة من ان يقع بيد المعتضد ورجاله . فألقى بنفسه من شرفة طالية في قصره فوق على صخرة قد قتت عظامه وتكسرت ومات اثر ذلك (١) واستتب الامر لابي يعقوب تابع المعتضد في المدينة . وكان فرح المعتضد بسقوط اماره رنده عظيما حتى لقد نظم قصيدة لهج بها ، وألزم الناس باللهج بها لمدة طويلة (٢)

الاستيلاء على اماره مورور :-

رأينا محمد بن نوح الدمري يقضى اختناقا في حادثة الحمام المذكورة ، وعندما بلغ الخبر الامارة بويج لابنه مناد بن محمد وثلقب بعماد الدولة ، وقد توافد عليها الناس من المدن المجاورة لمورور فكثرت جمعهم وساس

(١) : الذيل المضاف الى البيان المغرب ، ص ٣١٢ - ٣١٤ .

(٢) : من هذه القصيدة انظر :

ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٤٩ ، وح ١ من نفس الجزء ، ص ٥٠ .
صلاح خالص : محمد بن هار الاندلسي ، ص ٣٠ .

البلاد سياسة حسنة . ورأى المعتضد أنه لابد من التثنية بمورور . فبدأ
بسياسته التقليدية القاضية بشن الغارات المركزة على أعدائه . فشن حملاته
على اراضي ابن نوح الذي لم تكن له قناة . وكان كما يقول صاحب الذيل المذكور
(شجا في حلق المعتضد) . بيد أن المعتضد ضيق عليه وحاصره
محاصرة شديدة . فاضطر ابن نوح الى التفاوض معه وعرض عليه أن يسلم
اليه البلد مقابل تأمين سلامته والخروج الى اشبيلية . ووافق المعتضد
مبتهجا وغازر مناد بن محمد بن نوح امارته متوجها الى اشبيلية ، فأكرمه
المعتضد واحتفى به احتفاء بالغا .

وهكذا انضوت مورور ضمن مدن مملكة اشبيلية اخيرا .
(١)
وكان ذلك في طم ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م .

واذا كنا قد اعتمدنا في شرح تفاصيل هذا السقوط على صاحب
الذيل المذكور ، فاننا لانستطيع أن نوافقه في كل ما يورده . فهو يذكر أن دولة
مناد بن محمد بن نوح الدمري من يوم ولادته الى أن خلع ثلاثين طما . فاذا
كانت حادثة الحمام قد وقعت في عام ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م كما أشرنا (٢) ، واذا كان
مناد قد تولى الحكم اثرها كما يذكر هو نفسه (بويح له بمورور يوم موت أبيه)
فان مدة حكمه لاتزيد عن أربعة عشر طما .

الاستيلاء على امارة قرمونة :-

كما قد تناولنا شيئا من الحديث عن امارة قرمونة من ناحية جغرافيتها
وظروف تكوينها السياسي . ورأينا حاكمها الحاجب محمد بن عبد الله البرزالي
يتولى امرها مذ حدثت الفتنة حتى عام ٤٣٤ هـ / ١٠٤٢ م أي بعد وفاة القاضي
محمد بن اسماعيل . وهنا تضاربت الاقوال ، فرواية تقول انه مات ميتة طبيعية
في هذا العام الذي ذكرناه ، ورواية اخرى تقول بسل انه قتل (٣) . وهو ما نذهب اليه
نحن . فابن عذارى في وصفه لحديقة الرؤوس التي أشرنا اليها آنفا (٤) يقول

- (١) : مجهول : الذيل المضاف الى البيان المغرب ، ص ٢٩٦ .
- (٢) : انظر قبل ، ص ١٣٦ - ١٣٨ .
- (٣) : من الذين يميلون الى الاخذ بتلك الرواية صاحب الذيل المضاف الى البيان المغرب ،
ص ٣١٢ . اما ابن عذارى فقد اخذ في كتابه المذكور ص ٢٠٦ بالرواية الاخرى ،
وكذلك فعل ابن خلدون في كتابه المذكور ايضا ، مجلد ٤ ، ص ٣٤٠ - ٣٤١ .
- (٤) : انظر قبل ، ص ١٠٧ .

بأنه كان من جملة تلك الرؤوس رأس محمد بن عبدالله البرزالي . وفى وصفنا لاحداث تلك الواقعة التى دارت بين المعتضد والمظفر بن الافطس أشرنا الى مقتل العز بن اسحاق بن محمد بن عبدالله البرزالي^(١) ويقول ابن عذارى ايضا مشيرا الى هذا الحادث بأن رأس العز حمل الى اشبيلية . وأضيف الى رأس جده محمد بن عبدالله البرزالي المختزن عنده^(٢) .

ومع أن ابن خلدون يشير الى مقتل محمد بن عبدالله البرزالي فى العام الذى ذكرناه وهو طم ٤٣٤ هـ ، الا أنه يخلط كثيرا فى الاحداث والاسماء . فهو يقول فى حديثه عن خلاف محمد بن عبدالله البرزالي مع المعتضد (فاتصلت الفتنة بينهم الى أن قتله ابنه اسماعيل . خرج اليه فى سرية فأغار على قرمونة ، وأكمن الكائن ، فركب محمد البرزالي فى أصحابه واستطرد له اسماعيل الى أن بلغ به الكمين ، فخرج عليه فقتلوه وذلك فى سنة أربع وثلاثين^(٣)) . ونحن نستبعد أن يكون اسماعيل بن المعتضد هو الذى قتل محمد بن عبدالله البرزالي ، وذلك لان المعتضد تولى السلطة فى طم ٤٣٣ هـ / ١٠٤١ م . وكان عمره اذ ذاك ستا وعشرين سنة كما مر بنا . ومعنى هذا أنه كان يبلغ وقت مقتل ابن البرزالي سبعة وعشرين عاما . واذا كان قد انجب اسماعيل وهو لما يتجاوز السادسة أو السابعة عشرة من عمره ، فان عمر ابنه اسماعيل وقت مقتل ابن البرزالي يكون عشرة أو احدى عشر سنة ، وهى سن لا تسمح لصاحبها بقيادة الجيوش واكمان الكائن . واذا كان ابن خلدون يقصد اسماعيل بن القاضى محمد فان ذلك يعتبر خلطا أيضا . فاسماعيل قتل طم ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م كما ذكرنا ، وأبوه القاضى توفى طم ٤٣٣ هـ / ١٠٤١ م^(٤) .

(١) : انظر قبل ، ص ١١٩

(٢) : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٣٥ .

(٣) : المصدر السابق ، مجلد ٤ ، ص ٣٣٨ .

(٤) : انظر قبل الباب الاول ، ص ١٠١

وأيا ما كان الامر فان محمد بن عبدالله البرزالي قتل على يد المعتضد بن عباد في عام ٤٣٤ هـ / ١٠٤٢ م . وتولى حكم قرمونة بعده ابنه اسحاق بن محمد . ويقول صاحب الذيل المضاف الى البيان المغرب المذكور سابقا ، ان الذي تولى حكم قرمونة هو المستظهر عزيز بن محمد بن عبدالله البرزالي ، وان أخاه اسحاق بايع له ^(١) وابن عذارى يقول في روايته لاحداث النزاع بين المعتضد والمظفر بن الافطس أن اسحاق هو ابن محمد بن عبدالله البرزالي ^(٢) على أنه يهود فيناقض نفسه مرة اخرى فيقول بأن الذي خلف أباه في الحكم هو المعز بن اسحاق بن محمد بن عبدالله ^(٣) وفي الحقيقة انه لأمر محير فعلا فكيف نستطيع تحديد من خلف محمد بن عبدالله البرزالي مع هذا التناقض في اقوال مؤرخ واحد ؟؟ . ولكننا نميل الى اعتبار اسحاق هو ابن محمد ابن عبدالله البرزالي ، والى أن المعز هو ابنه . وهو الذي قتل وأضيف رأسه الى رأس جده محمد بن عبدالله البرزالي . وذلك لانه عدا أن ابن عذارى أشار الى هذا كما ذكرنا ، فان ابن الخطيب يقول بالحرف الواحد (فكتب رئيسهم المعز بن اسحاق بعد هلاك اسحاق) ^(٤) فمن المعقول أن اسحاق بعدما مات ابنه المعز عين أخاه المعز وليا لمهده ، ثم توفي اسحاق فخلفه ابنه المعز . ويجوز أيضا انه قد حدث تحريف في ذكر الاسماء ، فبدلا من أن يقول المعز قال المعز . ومهما يكن فقد رأى المعتضد أن يخلص من مضايقات اماره قرمونة القريية جديدا من طمسه . واذ كان قد تركها طيلة تلك الفترة فانه كان يخطط في قرارة نفسه للاستيلاء عليها متى ما حانت الفرصة المناسبة .

ولذا فقد بدأ يضيق عليها اتباعا لسياسته التقليدية القائمة على انهاك قوى الخصم واحراق أراضيها والعيث فيها فسادا حتى

(١) : مجهول ، ص ٣١٢ .

(٢) : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٣٥ .

(٣) : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ ، و ص ٢٨٣ .

(٤) : اعمال الاعلام ، ٢٣٧ .

يحكم قبضته على العاصمة نفسها • وطلب ابن اسحاق البرزالي مساعدة باديس بن حبوس ملك غرناطة وزعيم البربر قاطبة في ذلك الوقت وعدو المعتضد الرئيسي • فلبى دعوته وخرج بجيشه لملاقاة جيش المعتضد بقيادة ابنه محمد - المعتضد والظافر فيما بعد - • وقد انتهى هذا اللقاء بهزيمة باديس هزيمة شنيعة وانتصار المعتضد انتصارا عظيما جعل الشاعر محمد ابن عمار الاندلسي ينظم قصيدته الدالية التي يقول مطلعها :

ألا للمعالي ما تميد وتبدي وفى الله ما تخفيه غا وما تبدي

وهي قصيدة مجيدة تفيض مدحا بالمعتضد وابنه • كما تفيض بنفذا وشماتة بالبربر وأمرائهم جدد فيها ابن عمار الشعور المتحكم بالعداء بين الاندلسيين والبربر • (٢) ويبدو أن جولة ثانية قد حدثت بين المعتضد وامير قرمونة ابن اسحاق البرزالي ضيق فيها المعتضد الخناق عليه كثيرا • وذلك في عام ٤٥٩هـ / ١٠٦٧ م • فلما بلغ منه الفاية ولم يعد يقدر على تحمل مضايقاته وحصاره رأى أن يكتب الى يحيى بن اسماعيل بن ذى النون ملك طليطلة معترضا أن يتنازل له عن مدينة قرمونة وما حولها • على أن يعطيه ابن ذى النون احد حصون ملكه ليخرج من جوار المعتضد ومضايقاته ويرتاح من ابن عباد • (فاتفقا على ذلك وخرج العزب بن اسحاق " العزيز " عن قرمونة الى حصن المدور • وكان من جملة بلاد ابن ذى النون ، فأخلاه له • وحصل بقرمونة رجال ابن ذى النون •) (٣)

واذا لم يدرك الشئ لدى المعتضد بالقوة والبطش فالدهاء كفيلا به • والمعتضد فى هذا لا يحتاج الى الوسيلة • فقد قام بخدعة سياسية ذكية للغاية ازرى بها بعقلية ابن ذى النون • ولننظر الآن فى عجب لما حدث

(١) : الذى بدأ يتحسس طريقه نحو بلاط المعتضد والعباديين جميعا • وسنتبين

بعدئذ عظم الدور الذى لعبه فى البلاط العبادي وخاصة بلاط المعتضد •

(٢) : صلاح خالص : محمد بن عمار الاندلسي • ص ٤٠ • وص ٤٢ - ٤٣ (نص القصيدة)

(٣) : ابن عماري : المصدر السابق والجزء • ص ٢٦٨ - ٢٦٩ • وص ٢٨٣ •

يقول ابن غزاري (ولما بلغ ذلك ابن عباد كتب الى ابن ذي النون في السر يقول له : ان قرمونة قريبة من بلدي وهي أليق بي لانها بعيدة عن بلادك فاصرفها الى وتكون يدي ويدك واحدة على مدينة قرطبة حتى تكون لك ، وكانت مدينة قرطبة امنية ابن ذي النون فأجابه ابن ذي النون في ذلك وتوثق منه بالايمان وأخلى له قرمونة فرجعت لابن عباد فشحنها بالطعمة وقواها بالرجال . وغدر ابن عباد بابن ذي النون ولم ينف له بشيء ، فاغتاظ ابن ذي النون ووجه الى قرطبة عسكريا عظيما (١)

وستتابع قصة هجوم ابن ذي النون على مملكة قرطبة في حديثنا عن المعتمد والعلاقات بين مملكتي طليطلة وقرطبة . وما يهنا هنا هو ما صار اليه أمر قرمونة وسقوطها لقمة مستساغة في فم المعتمد الداهية .

الاستيلاء على امارة أركش وشذونه :-

لم يبق أمام المعتمد بعد قضائه على امارة رنده ومورور وقرمونة سوى امارة أركش . فكما أشرنا فان أركش وشذونه قد استقل بها ابان الفتنة بنى يزيان الزناتيين . وقد ذكرنا آنذاك بأن محمد بن عبدون بن خزررون الخزري أسس فيها دويلة لاسرته وقبيلته ، وعندما توفي خلفه ابنه عبدون بن محمد الذي مات مختنقا مع زميله أميرى رنده ومورور (٢) وعندما بلغ الخبر أركش تولى حكم الامارة اخوه محمد . ولم يشأ المعتمد أن يجمل محمدا يهنا براحة بال وهدوء خاطر ، فحاصره وضيق عليه ، بل واستحدث معه طريقة حربية للحصار وهي بناء حصن عسكري قريب من عاصمته ووضع فيه الرجال والسلاح . وبذلك فقد وضعهم تحت رحمته . وضاق بنو خزررون ذرعا بهذا الحصار الرهيب فراسلوا باديس بن حبوس وفاوضوه على أن يخلو له أركش مقابل إعطائهم بلدا يسكنون فيه . وبالفعل حصل الاتفاق وجهز باديس جيشا ضخما لمساعدة ابن خزررون .

(١) : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٢٨٣ .

(٢) : انظر قبل ، ص ١٣٨

على أن الاحداث لم تأت وفق ما يشتمى الحلفاء ،
فقد كمن المعتضد بجيشه لبني خزرون الخارجين عن المدينة على بعد عشرين
ميلا عنها . فتمرضى له وحصلت بين الفريقين موقعة انتهت بهزيمة جيش
باديس وبنى خزرون برئاسة زعيمهم محمد بن خزرون وقتل فيها قائد جيش
باديس وابن خزرون ايضا ^(١) . (وملك ابن عباد قلعة آرکش وسائر بلاد
شدونة وخطب له فيها ، واتصل نظره الى اول بلاد شرق الاندلس
ولم ينزل أمره يعلو ودولته تزداد نموا وظهورا الى أن قطع دابر أمراء
البرابرة ، ولم يبق منهم سوى باديس بن حبوس) ^(٢)

فشل المعتضد بالاحتفاظ بمدينة مالقة :-

كما قد تركنا مدينة مالقة تحت خلافة بنى حمود من
أبناء يحيى وادريس ابني على بن حمود ، وقتلنا وقتها ان الحروب الاهلية
بين ابناء المم قد طحنت البلاد وأدخلتها فى دوامة من النزاع والقتال .
وقد تولى حكمها قبل سقوطها فى يد باديس بن حبوس ملك غرناطة محمد
ابن ادريس بن يحيى بن على بن حمود وتلقب بالمستعلى .
وكان باديس يوقب باهتمام بالغ تطور الاحداث والاضاع
فى مالقة وغدما تولى الخلافة ادريس بن على خلفا لأخيه يحيى اعترف باديس
بسيادته وخلافته . وكذلك فعل مع من خلفه فى الخلافة . غير أنه غدما
احتدمت الخلافات والانشقاق العائلى فى خلافة بنى حمود بمالقة بدأ
باديس يتدخل فى مناوئة فريق ضد فريق اخر . وكان يرى نفسه
أحق منهم بتمثيل البربر فى الاندلس وأنه أولى وأجدر برئاسة

وغدما تولى محمد بن ادريس بن يحيى الخلافة وتلقب بالمستعلى
رفض البربر فى العاصمة ما يعته . فقد م باديس مسرط فى عام ٤٤٩هـ /
١٠٥٧ م ليضع حدا نهائيا لانفلات الامور بالخلافة . واستولى بسرعة

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٧١ - ٢٧٣ .

(٢) : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

على المدينة وضمها الى مملكته وغادرها أميرها طريدا . وانتهت بذلك دولة
بنى حمود بمالقة نهائيا (١)

ويعمل حفيد باديس عبدالله بن بلقين بن باديس بن زيوي (٢)
أسباب استيلاء جده على المدينة بعدة أسباب من بينها أنه قد استولى
على المدينة خوفا من أن تقع في يد غيره فيعمل على مضايقته وازعاجه ،
ويقول أيضا ان باديس سارع الى بناء قلعة حصينة شحنها بالعتاد
والسلاح تحسبا لأي طارئ يحدث له ولأسرته فيما لو أخرجوا من غرناطة (٣)

ويدعى أن ينظر المعتضد الى هذا الاستيلاء بعين الجسد
والحسرة ، فلا يسره بطبيعة الحال أن تتزايد قوة عدوه وخصمه الرئيسي
البربري لما في ذلك من خطر عليه . على أن تلاحق الاحداث وانتهت بالحوادث
الجسام التي مرت بدولته وهدم تهيب الظروف الملائمة من جهة أخرى
لم تتح له توجيه جهوده الى مالقة والعمل على الاستيلاء عليها .

وواتته الفرصة الثمينة عندما بدأ تملل العرب فيها وتذمرهم من
حكم البربر ، ومن الطبيعي أن تتجه انظارهم الى بنى عصبتهم العرب
واقوى ممالكهم واعظمهم ذكرا وهى مملكة بنى عباد . ورغم أنهم كانوا
يستفزعون أعمال المعتضد وميرهبون سطوته الا أنهم طمعوا فى الاستعانة
به ضد البربر (٤) . بل وراسلوه سرا بأن يبعث لهم جيشه للاستيلاء على
المدينة واخراج البربر منها ، وتعهدوا بنصرته وتأيينه . والفعل جهز
جيشا الى مالقة بقيادة ابنه محمد الذى غدا منذ مقتل أخيه اسماعيل

(١) : محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ١٣١ .

(٢) : عبدالله بن زيوي : التبليان ، ص ٤٣ .

(٣) : نفس المصدر ، ص ٤٣ - ٤٤ .

(٤) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ٣٩ .

وليا لمهد أبيه • وقد شاركه في قيادة حملة مالقة أخاه جابر (١).

حدث هذا في عام ٤٥٨ هـ / ١٠٥٦ م ولم يرع جيش باديس
الا والجيش المبادي يحاصر المدينة • وفي الوقت نفسه ثار العرب بالبربر
كما اتفقوا مع المعتضد • ولم يمض وقت قصير الا وقد استطاع الجيش المبادي
بمساعدة اهل المدينة العرب أن يستولى عليها • وهكذا جاء استيلاؤه على
مالقة أشبه بنزهة حربية عادية منها الى حرب حقيقية •

على أن محمدا بن المعتضد لم يستطع أن يحسم الموقف
مع الحامية البربرية التي كانت موجودة هناك • صحيح انه قد استطاع
أن يستولى على مالقة • ولكن بقى عليه أن يجهز على الحامية التي اقتصمت
بالقلعة وصمدت امام ضربات جيشه • ويظهر أنه قد استهان بأمرها وبدلا من
التحوط والحذر الذين نصحا له بهما كبار أهل مالقة • بدلا من هذا ركن
الى الانغماس في اللذات الحسية والمعنوية ولم يقيم بما يجب على أى قائد عسكري
فعله • فاذا كان لم يستطع القضاء على الحامية في الحصن • فانه لم يدرك
مدى خطورة بقاء هذا الحصن خارجا عن سلطته ولذا فقد ترك للحامية
الفرصة لتجميع قواها وطلب المعونة من باديس •

وجاء رسلهم باديس تستنفضه وتستنجد به فلم يخب لهم
ظنا وبعث بجيشه الى مالقة واستطاع بجيشه ومساعدة الحامية الموجودة بالحصن
النيل من المباديين • وحصل السيف في رقابهم • ونجا محمد وجابر

(١) : يحمل حفيد باديس • عبدالله بن بلقين بن باديس بن زيرو في كتابه المذكور
سابقا • ص ٥٨ على أهل مالقة ويقول (وكان حصول ابن عماد عليها لمداخلة
اهلها وميلهم اليه • اختيارا له علينا على احسان المظفر رحمه الله
" المقصود به باديس " وأنه وجدهم على أسوأ حاله • فأصلح من احوالهم
كثيرا وحمل فقائهم ومقرئهم على المطايا وأنزلهم على أفضل المراتب •
ما كان مشهورا عنه في الاقطار • اذ كانوا قبل في حال قلة وعلى غير
رتبه • ثم كافؤهم بما فعلوا) •

ومن الطبيعي جدا أن يمتدح ابن زيرو جده ويمجد صفاته الخيرة • وأن
يضع الملامة على اهل مالقة ويتأسف على المعروف الذي أسداه جده
لهم •

ابني المعتضد بجلد يهما من موت محقق ، واعصا بمد ينة رنده في عدد قليل من الجيش (١) .

وأفاق محمد بن المعتضد من هول الفاجعة ، فكيف يشرح الامر لابيه وكيف يعرف رد فعله لفقد تلك المدينة المهمة وما حولها ؟؟ . وبدأ هذا الخاطر يلح عليه ويؤرقه . وبالفعل كان رد فعل أبيه غيضا ، فقد فكر في اعتقاله وسجنه . ولكن محمدا استطاع أخيرا أن يستميل قلب أبيه عندما نظم قصيدة رائية مكونة من أكثر من أربعين بيتا ، فرفعها الى أبيه مستجدا عطفه ورضاه . ولقد تمكنت تلك القصيدة بالفعل من أن تؤثر في نفس المعتضد وتلين قلبه على ابنه . فقد كان المعتضد كما يقول على أدهم (ممن يهزمهم الشعر) (٢) فدبج هذه القصيدة التي تفيض (شكوى وأسفا وحسرة وألما وهجاء واعتذارا وفخرا ، وفيها فوق هذا وذاك فلسفة وآراء في الحياة والناس) (٣)

(٤)

ويقول مطلع هذه القصيدة :-

سكن فؤادك لاتذهب بك الفكر ماذا يعيد عليك البث والحدذر

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ٥ ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ . ابن بسام :

المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص ٣٩ .

(٢) : المرجع السابق ، ص ٨٤ .

(٣) : صلاح خالص : المعتمد ابن عباد الاشبيلي ، ص ٣٨ - ٣٩ .

(٤) : للاطلاع على هذه القصيدة يراجع : -

- ابن خاقان : قلائد المقيان ، ص ٢٠ - ٢١ . ابن البار : الحلة

السيرة ، ج ٢ ، ص ٥٦ - ٥٨ . صلاح خالص : المعتمد ابن عباد ،

ص ٣٨ - ٤٦ . رضا الحبيب السويسي : ديوان المعتمد ابن عباد

ملك اشبيلية ، ط ١ ، ص ٩٩ - ١٠٤ .

نشاط حركة الاسترداد المسيحي في عهد المعتضد بالله

قبل أن نمضى سويا في تتبع نشاط حركة الاسترداد المسيحي في عهد المعتضد بالله ، يحسن بنا أن نشير الى أن حركة الاسترداد هذه قد عمت جميع ممالك الطوائف وعلى الأخص الكبرى منها . ولم تسلم من هذه الممالك أى مملكة ، حتى مملكة اشبيلية رغم أنها قد ثبتت أقدامها على حساب ممالك الطوائف المجاورة العربية والبربرية كما سبق أن رأينا ، إلا أن مليكها رأى أنه لا طاقة له بالدخول في معارك حاسمة مع ممالك النصارى . ولذلك فقد اضطر أن يدفع الجزية للملك فرديناند ملك قشتاله اتقاء لشره كما سنرى بمرور قليل .

ولكى نلم بنشاط حركة الاسترداد في عهد المعتضد التى شملت معظم ممالك الطوائف يحسن بنا أن نلقى اضواء عن المناخين السياسى والمسكرى السائدین فى ممالك الطوائف الكبيرة وفى ممالك النصارى وسياسة هؤلاء اى ملوك ممالك النصارى الحثيثة فى الماضى قدما فى حركتهم الهادفة لاسترداد الاراضى الاسبانية شيئا فشيئا من يد المسلمين ، وهو الهدف الواضح الذى ظهر كسياسة رسمية محددة لملوك النصارى ابتداء من عهد الملك فرديناند الاول (١)

وفى هذا المجال نحن مضطرون الى أن نعود الى التذكير بالوضع الداخلى فى الممالك النصرانية فقد مر بنا أن الملك سانشو العظيم توفى طم ٤٢٩ هـ / ١٠٣٥ م مخلفا أربعة أبناء قسم بينهم مملكة الواسعة التى ضمت معظم اسبانيا النصرانية ، ولم يكن يشذ عن ملكه سوى اماره برشلونه فى الشمال الشرقى كما ذكرنا . وقد رايناه يعطى حكم نـبـره لابنه غارسيا ، ويعطى حكم قشتاله لابنه فرديناند الذى استطاع بجهوده وفضل ظروف عائلية حتمتها الوراثة أن يضم الى أملاكه مملكة ليون وجليقية بعد أن انتزعها من يد آخر ملوك القوط الاسبان بعد طمين من وفاة أبيه سانشو العظيم ، ويعطى ابنه الثالث راميرو أرغونة ، ويعهد لابنه الرابع جنزالو (كونزالو) بحكم منطقة سويرابى وسار جارسيا فى أواسط جبال البرتات .

(١) : انظر : Jan Read : Op cit. , p 101 - 102 -

وبذلك تصدعت الوحدة التي حققها هو نفسه لاسبانيا النصرانية بعد جهد جهيد ، فقد نشبت بين الاخوة الاربعة المطاحنات والحروب ، وحاول كل منهم التوسع على حساب اراضي اخيه المجاورة بمساعدة حلفاء من المسلمين من الممالك الاسلامية المجاورة . وكانت الممالك الاسلامية التي تلامس حدودها حدود هذه الممالك النصرانية أو القريبة منها هي : مملكة سرقسطة في الشمال الشرقي ، ومملكة طليطلة في وسط البلاد ، ومملكة بطليوس في الوسط الغربي ، واخيرا مملكة اشبيلية .

وقد اصطدمت هذه الممالك في عهد المعتضد بالله بأبناء سانشو العظيم ، واضطر بعضها الى دفع الجزية لهم منفردين ، والى فرد يناند وحده أخيرا بعد انه شمل بني جلدته ، واعادة بعض الوحدة لهم .

مملكة سرقسطة وعلاقتها مع النصاري :-

أشرنا في حديثنا عن قيام ممالك الطوائف أن مملكة سرقسطة شهدت حكم أسرتين عربيتين هما بني تجيب ، وبني هود الجذاميين . وقد اصطدمت كل من هاتين الاسرتين بالنصاري وكانت لهما معهم مواقف وأحداث . فقد أسس يحيى بن عبد الرحمن التجيبى في منطقة سرقسطة أو الثغر الاعلى في ابان سقوط الدولة الاموية لنفسه ولأسرته مملكة مستقلة تماما . وعندما توفي خلفه ابنه المنذر بن يحيى الذي لعب دورا هاما ابان ضعف الخلافة الاموية وظهر بنى حمود . فقد وقف مع بنى عبيته العرب الذين رشحوا للخلافة المرتضى المذكور سابقا ضد البربر وخليفتهم على بن حمود كما مر بنا سابقا . وقد استعان المنذر بفرقة من النصاري بقيادة رامويل بوريل أمير برشلونة . ولكن تلك الاحداث انتهت بهزيمة الفريق الاندلسي على يد البربر في عهد الخليفة القاسم بن حمود كما ذكرنا .^(١)

(١) : انظر قبل الباب الأول ، ص ٧٤

وفى الواقع فان حركة الاسترداد لم تكن قد تبلورت فى ذلك الوقت
كحركة رسمية منظمة ، الا أنها كانت أمنية غالية عند ملوك النصارى لاسترجاع
أراضيهم من يد المسلمين .

ومملكة سرقسطة ذات موقع استراتيجى مهم . فقد كانت تحيط
بها اماره برشلونه من الشمال الشرقى ، ومملكة نبره من الشمال ، وكونتية قشتاله
من الغرب . ولذا فقد كان على حاكمها أن يسير فى سياسته مع هذه الممالك
بسياسة حذرة واقعية . ولقد استطاع المنذر بن يحيى بالفعل أن يحقق
هذا . فقد عقد مع ريمند الجليقى (رامون بوريل) أمير برشلونه ، وشانجه
القشتالى (سانشو العظيم) ملك نبره محالفه وموادعة جنى ثمارها
رغم معارضة أهل سرقسطة لذلك . وقد اثبت المنذر بذلك أنه كان سياسيا
محتسكا حقا ، اذ أن هذه المعاهدة كانت غير الزامية له تفرض عليه تقديم
أراضى أو حصون أو غير ذلك . فضلا عن أنه كان ذا نظرة واقعية ، اذ لم
أنه لن يستطيع أن يفعل شيئا اذا ما داهمته قوى النصارى ولا سيما وأن سانشو
العظيم قد استطاع أن يوسع مملكته فى ذلك الوقت . وهذا الشخصية الرئيسية فى
أسبانيا النصرانية ، ويشاركه فى الزعامة رامون بوريل أمير برشلونه . ويحمد
المؤرخون للمنذر سياسته هذه ويثنون عليه ، اذ حققت له حفظ أطرافه ،
واستفاد أيضا هو نفسه منها . فقد اطلقت هذه المعاهدة يده فى مهاجمة
بعض الكونتات (القومسات) الأسبان دون أن يخشى من ملكي المملكتين
النصرانيتين القويتين اللتين مران ذكرهما . وقد عمل المنذر على أن يعقد
فى بلاطه معاهدة بين البيتين المالكين فى اسبانيا^(١) ، وان كان هذا قد
أغضب مواطنيه فانطلقت أسنتهم تعيب عليه ذلك وتقذحه . ولكنهم لم
يتبينوا فائدة هذه المساعي الحميدة الا عندما خيم الهدوء على المملكة . فالتفت
الناس الى البنيان الداخلى يشيدون ويننون . وقد استمرت الهدنة بين الفريقين
الى أن مات منذر (وقد اعترف الناس لرأيه ، وأقروا لسياسته ، ولم يأت بعد من يسد
مسده)^(٢) اذ خلفه ابنه يحيى فى عام ١٠٢٣/٥٤١٤ م ، فتنكب سياسة والده

(١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الاول ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٢) : نفس المصدر والقسم والمجلد والصفحات .

مع النصارى ، الا أنه قد تراجع عنها بعد أن لمس خطورة ذلك • ولم يفده
عدوله عن سياسته الجديدة شيئاً • فقد هاجم رامون بوريل حليف والده أراضيه ،
واضطر يحيى الى أن يتنازل له عن بعض القلاع والحصون • على أن يحيى توفى
بعد ست سنوات من حكمه ، فخلفه ابنه المنذر وهو الذى قتل على يد عبد الله
بن حكيم كما مر بنا • غير أن اهالى سرقسطة لم يرضو به ، واخيرا استقر
رأى الاهالى على استدعاء سليمان بن هود حاكم مدينة لاردة التابعة لسرقسطة ،
وعهدوا اليه بحكم المملكة • وكان ذلك فى طم ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م (٢)

وباستيلاء سليمان على سرقسطة يهدأ عهد اسرة بنى هود
الجدامين • وفى عهده بدأت حركات الاسترداد تثقل كاهله وكاهل رفاقه
من ملوك الطوائف • وأسهم هو نفسه بسبب رعونته السياسية وأهدافه
الشخصية فى تلك الاحداث • وأتاح للنصارى تحقيق بعض أغراضهم • وقد
خاض مع ملكة طليطلة حرباً لمدة ثلاث سنوات جرف فيها هو وملك طليطلة
الكثير من المصائب على المسلمين ، وهو ما سنراه فى حديثنا عن علاقة ملكة
طليطلة بالنصارى • وقد توفى سليمان بن هود فى عام ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م مخلفاً
خمسة أبناء قسم بينهم مملكته • وكان هذا خطأ سياسياً فى سلسلة اخطاء
ملوك تلك المصور الوسطى • يستوى فى ذلك ملوك الطوائف المسلمين ، وملوك
النصارى على فداحتهم وخطورته وضآلة نتائجه •

فقد قسم سليمان أعمال مملكته بين أولاده الخمسة • ونسب بين
الاخوة ما كان متوقفاً أن يحصل من الحروب الدامية التى يقع السكان فى هذه
المناطق فى مغبتها قتلاً وتخريباً وتنكيلاً • وقد استطالت الحروب الأهلية

(١) : محمد عبد الله غان : دول الطوائف ، ص ٢٦٨ •

(٢) : انظر قبل ، ص ٥٦

بين الاخوة وبالذات بين أحمد بن سليمان حاكم سرقسطة ، وأخيه يوسف حاكم لاردة (٢) .

ويحمل المؤرخون القدامى على أحمد بن سليمان الطقب بالمقتدر كثيرا - وحق لهم - ويعيبون عليه انتهازيته ووصوليته . فقد اتهم بمسء سياسته وتغلبه المصلحة الذاتية على المصلحة الدينية والقومية . ويهمننا هنا أن نتناول بالحديث الاحداث التي وقعت بين المسلمين والنصارى ، ومواقف ملوك الممالك الاسلامية منها كل فيما يخصه . فقد كان من جراء النزاع بين الشقيقتين أن انضمت مدينة تطيلة وهي تابعة لمملكة سرقسطة الى يوسف بن سليمان دون أخيه أحمد . وقد أوغر هذا نفس أحمد على اهالي المدينة . وصدق أن داهم داهم الفلاء والمجاعة المدينة ، فعمل يوسف على أن يرسل لها من قاعدته مدينة لاردة مؤونة غذائية طجلة . وأرسل يوسف الى ابن ريمند (غارسيا ملك نائصار) يطلب منه أن يسمح للقوافل بعبور بلاده الى مدينة تطيلة مقابل مبلغ من المال . ووافق ابن ريمند على ذلك . وكان السبب في ذلك أن يوسف اضطر الى هذا اضطرارا لصعوبة مرور القوافل في اراضي أخيه للنزاع الناشب بينهما . غير أن احقاد أحمد ومطامعه جعلته يتنكر حتى لابسط البادئ الانسانية ، فراسل غارسيا يطلب منه أن يسمح له بمهاجمة القوافل والقتك بها مقابل مضاعفة المبلغ الذي كان اخوه قد طاقده عليه .

ولسنا هنا في حاجة الى التذكير بما حدث ، فهو وصمة غار في تاريخ المقتدر ونقطة سوداء في صفحته . رغم أنها حققت على المستوى المنظور ما طمع اليه من تفتيت قوى أخيه ، واستعادة هيئته ومكانته . وقد أتاح أحمد بفعله

(١) : ابن غاري : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٢) : (لاردة Lerida) : مدينة قديمة مرتفعة حصينة على وادي شقر

Segre شرقى سرقسطة ، وفي منتصف الطريق بينها وبين برشلونة .

ولاردة الآن مديرية قائمة بذاتها . أما في العصر الاسلامي فكانت القاعدة

الثانية بعد سرقسطة في منطقة الثفر الأعلى .

انظر ، ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ح ١ ، ص ٩٨ .

هذا ويدخوله فى مشكلات وخلافات مع اخوته للنصارى التطلع الى مهاجمتهم وهم عن وحدتهم لاهون ، وفى أهوائهم سادرون^(١).

فقد حدث فى عام ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م حادثة شنيعة ترددت أصداؤها فى كل الاندلس الاسلامية . ولم يخف أمرها عن اسبانية النصرانية ايضا . فقد تكون جيش فى مقاطعة نورماندى الفرنسية من الاردمانيين (النورمان) قدر عدده بمشرة آلاف فارس بقيادة البيطبيين^(٢) (جيوم دى مونترى) قائد جيوش البابوية والدولة الرومانية المقدسة . فقد تكون هذا الجيش بناء على دعوة صليبية رفعها البابا اسكندر الثانى لمهاجمة المسلمين . وتحركت هذه الحملة من فرنسا وعبرت الى اسبانيا النصرانية عن طريق امارة برشلونة واتجهوا الى مهاجمة أعمال أول مملكة اسلامية فى طريقهم وهى مملكة سرقسطة فى هدف غير واضح . ولن ندخل فى تفاصيل

(١) : ابن غدارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٢) : البيطبيين كما يقول ابن غدارى ، والبكرى أو البسطين كما يقول ابن الكردبوس ، أو البيطش كما يقول الحميرى من الكلمات الغامضة فى التاريخ الاندلسى . ولقد كتب احمد مختار العبادى فى تحقيقه لكتاب ابن الكردبوس السالف الذكر ، ح ٢ ، مادة تاريخية مهمة حول هذه الكلمة ، وجول اسم قائدها . نسمح لأنفسنا هنا أن نجتزئ نقاطا مهمة منها . فأحمد مختار العبادى يميل الى الاخذ بترجيح رأى المؤرخ الهولندى دوزى من أن البيطبيين هو القائد النورماندى جيوم دى مونترى *Guillaume de Montreuil* الذى كان قائدا لفرسان البابا الكسندر الثانى فى رومانيا *Alexander II* ١٠٦١ - ١٠٧٣ م والذى قاد باسم البابا حملة عسكرية لاختضاع ثورة مونت كاسين فى ايطاليا . وقد نفى دوزى بهذا الترجيح أن يكون قائد حملة برشتر هو القائد روبرت كارسبين *Robert Crespin* كما رددته بعض المصادر المسيحية . وقد ناقش العبادى كذلك خطأ اعتقاد المؤرخ الاسبانى باسكوالدى جالنجوس من أن قائد تلك الحملة هو صاحب قشتاله ، وأن البيطيين هو تحريف لكلمة بطير أو البيطر أى بيدرو *Pedro* بالاسبانية . كما ناقش العبادى كذلك خطأ رأى المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال من أن المقصود بالبيطبيين هو أسقف مدينة ليون الاسبانية آنذاك والذى كان يسمى فى ذلك الوقت البيطس *Alvitus* .

وعقب ايراده لكل هذه الآراء يعقب العبادى بقوله (أما الروايات المسيحية الاخرى ، فهى كلها تشير الى أن هذه الحملة على برشتر وان كانت فرنسية نورماندية فى معظمها ، الا أنها صليبية مسيحية غامضة بشر لها البابا اسكندر الثانى فى ايطاليا وفرنسا واسبانيا .

ما حدث وما يعنينا هنا هو التذكير بما آل اليه أمر المسلمين في ذلك الوقت .
 فقد جاء هذا الجيش الجرار الضخم ، فحاصر مدينة وشقة التابعة لمملكة
 سرقسطه ، غير أنه عدل عن محاصرتها بعد قليل لمناعتها . فساروا الى مدينة
 برشتر . وكانت تابعة ليوسف المظفر شقيق احمد المذكور . وضرب هولاء
 الحصار على المدينة وضيقوا عليها الخناق . كل ذلك تحت سماع ونظر احمد المقتدر
 بن سليمان الذي لم يحرك ساكنا ، وقد كان في استطاعته لو شاء أن يصد
 هذا الجيش . كما أن اخاه يوسف لم يفعل شيئا لعدم قدرته على المواجهة ،
 فترك المدينة لمصيرها .

- == وكان الهدف منها هو الاسراع في انقاذ دولتي أراجون وناثارا في شمال اسبانيا
 من الخطر الاسلامي بمنطقة الثغر الأعلى ولا سيما بعد كارثة جرادوس Grados
 أو Grados التي قتل فيها ملك أراجون راميرو الاول سنة ١٠٦٣ م . على يد
 المقتدر بن هود ملك سرقسطه . غير أن هذه المصادر المسيحية وان كانت قد
 اتفقت حول هدف هذه الحملة إلا أنها قد اختلفت فيما بينها حول اسم
 قائدها العام ، فالبعض يرى أنه النبيل الفرنسي *Elbes de Roucy* ، والبعض الآخر
 يرى أنه الكونت بلدوين دي فلاندر *El Conde Balduino de Flandre* الذي كان وصيا
 على فيليب الاول ملك فرنسا ، وأن قواد الفرق التي عملت تحت قيادته في هذه
 الحملة هم : -
- ١ - جيوم دي مونتروي *Guillaume de Montreuil* حامل شعار البابوية الذي
 أرسله البابا على رأس فرقة من الفرسان الايطاليين .
 - ٢ - سانشو راميرز *Sancho Ramirez* ملك أراجون الذي خلف أباه المقتول
 راميرو الاول .
 - ٣ - الكونت أورجيل *Conde Urgel* ابن أخي ملك أراجون وقائد الجيوش
 القطلانية .
 - ٤ - البارون روبرت *Robert de Reims* قائد جيوش جنوب فرنسا مثل ولايتي
 نورمانديا واكلتانيا .
 - ٥ - جى جيو فروا *Gui Geoffroi* قائد جيوش بواتييه وبوردو ومقية تلك
 الجهات .
- وسواء أكان قائد هذه الحملة الصليبية على برشتر هو بلدوين أو خلافة ، فالذى
 يثير التساؤل في هذا الصدد هو أنه اذا كان اسم بلدوين قد اشتهر في الحروب
 الصليبية في المشرق العربي وحرفه المشاركة الى بغدادين ، أفلا يجوز نفس هذا
 الاسم قد عرفه الاندلسيين أيضا في المغرب العربي وحرفوه الى بيطين ؟)
 انظر ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٩ - ٧١

(١)

وسقطت برشستر بالفصل في أيديهم بفضل عدة ظروف كالخيانة والجوع والمطش وانتشار الأوبئة ، ولقى أهلها مصيرا سيئا للغاية ، وأعمل فيهم هؤلاء قتلا وفتكا وتنكيلا ، وعا حدث لهذه المدينة وأهلها نورد صورة تدل على ابتعاد هؤلاء عن الإنسانية . فقد أمر قائد هذا الجيش أهل المدينة بمصادرتها والخروج الى خارج أسوارها ، فتزاحم الناس على الخروج منها . وغدا خرجوا جميعا هالت كثرتهم جيوم دي مونترى وأفزعته ، وخشى أن تشور في نفوسهم نائرة النخوة والكرامة ، فأمر جنوده بإطلاق السيف فيهم .

وأخيرا أمر رجاله بمهاجمة الدور واستلابها واستلاب أهلها . ومن أبشع الأعمال التي بسطتها كتب المؤرخين القدامى هي حادثة انتهاك أعراض بنات ونساء المسلمين في وحشية مقززة . يقول ابن عذاري في روايته لاحداث هذه المدينة البائسة (وكانوا يؤخذ يهتكون حريم أسراهم ونسائهم بحضرتهم ابلاغا في نكائهم ويعبثون في الثيب ويفتضون البكر ، وزوج تلك وأبو هذه موثق في الحديد ، ومن لم يرض منهم أن يفعل ذلك أعطاهن لفلانته يعبثون فيهن . فبلغ الكفر يؤخذ منهم ما لا تحقه الصفة والحوول والقوة لله العظيم) (٢)

(١) : برشستر Barbastro مدينة ومركز اداري في مدينة وشقة (الاسبانية)

تقع على نهر Cinca أحد نهيرات الابرة التابعة من جبال البرت

وتقع على ستين كيلومترا في شمالي شرقي سرقسطة .

انظر ، ابن الكردبوس ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٧٢ .

(٢) : عن احداث برشستر يراجع :

— ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٢٤ — ٢٢٦ . — محمد عبد الله خان

دول الطوائف ، ص ٢٧٥ — ٢٧٩ .

— Jan Read : Op. Cit., p 103 - 104 —

ويروى البكرى الجغرافى المشهور عند وصفه لجغرافية بريشتر صورة مؤسفة لتلك الأعمال التى ارتكبها النورمان فيقول (وكان فى عسكره^(١) نحو أربعين ألف فارس ، فحصرها أربعين يوما حتى افتتحها وذلك فى سنة ست وخمسين وأربعمائة ، فقتلوا عامة رجالها وسبوا فيها من ذرارى المسلمين ونسائهم ما لا يحصى كثرة . ويذكر أنهم اختاروا من أبكار جوارى المسلمين وأهل الحسن منهم خمسة آلاف جارية وأهدوهن الى صاحب القسطنطينية ، وأصابوا فيها من الأموال والأمتعة ما يعجز عن وصفه .)^(٢)

وينقل ابن عذارى عن ابن حيان ما بسطه فى نقد ماريو لاذع لأحداث هذه المدينة ويستشف برؤية المؤرخ النابيه ما سيحدث بعدها ، فيلفت النظر الى تدارك هذا . ولكن صيحته هذه ذهبت ادراج الرياح . فيقول (وطرق الناعى بها قرطبة فى شهر رمضان ، فصك الأسماع وأطار الأفئدة ، وزلزل أرض الاندلس قاطبة ، وصار للناس شغلا تسكفوا فى التحدث به والسؤال عنه ، والتصور لحلول مثله أياما ، ولم يفارقوا ذلك عذتهم من استبعاد الوجع والاعتزاز بالأمل والاستناد الى أمراء الفرقة الهمل الذين هم منهم ما بين فشل ووكل يصدونهم عن سواء السبيل ويلبسون عليهم واضح الدليل . ولم تنزل آفة الناس منذ خلقوا صنفين منهم كالملح فيهم الأمراء والفقهاء ، فلما تتنافر أشكالهم بصلاحيهم يصلحون وفسادهم يردون ، فقد خص الله سبحانه هذا القرن الذى نحن فيه من اعوجاج هذين الصنفين لدينا بما لا كفأ له ولا مخلص منه فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق زيادا عن الجماعة وجريا الى الفرقة . والفقهاء أثمهم صوت غمهم صدف عما أكده الله عليهم من التبيين لهم قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم وخابط فى أهوائهم ، وبين مستشعر مخافتهم آخذ بالتقية فى صدقهم فما القول فى أرض فسد ملجها الذى هو المصلح لجميع أغذيتها . هل هى مشفية على بوارها واستعصالها ، ولقد طمّ العجب لهؤلاء الأمراء ان لم يكن عندهم لهذه الحادثة الشنعاء فى بريشتر الا القزع الى حفر

(١) : يقصد البيطبين قائد الحملة .

(٢) : جغرافية الاندلس وأوربا ، من كتاب (المسالك والممالك) ص ٩٤

الخنادق وتعلية الأسوار وسد الأركان وتوثيق البنيان كاشفين لعدوهم
عن السوء السوداء من القائهم يؤخذ بأيديهم اليهم أمور قبائح الصور ، مؤذات
الصدور ، بأعجاز تحمل الخير ،

أذن لنهي وسبب ما استطاع

أمر لو تدبرها حكيماً

فدهرنا هذا قد غرل أهله أشد غرله وسفسف أخلاقهم ، وخبث أعواقهم ،
وسفه أحلامهم ، واحتوى عليهم الجهل فلبثوا في غير سبيل الرشيد يمللون
أنفسهم بالباطل وذلك من أدل الدلائل على فطر جهلهم ، واغترارهم بزمانهم ،
ومعادهم عن طاعة خالقهم ، وقتلتهم عن سد ثغورهم ، حتى ظل عدوهم
الساعي لطفاء نورهم ، يتجبح عراض دورهم ، ويستقرى بسائط بقاعهم ،
يقطع كل يوم منهم طرفاً ويبيد أمه ، ومن لدينا وحوالينا مموت عن ذكرهم ،
لهاة عن بشهم ، ما أن يسمع بمثله من مساجدنا أو محفل من محافلنا مذكر
لهم أوداع لهم فضلاً عن نافر اليهم أو مواس لهم حتى كأنهم ليسوا منا
أو كأن فتقهم ليس بمفض إلينا ، قد بخلنا عليهم بالدعاء فبؤنا بالعناء .^(١)

ولقد هزت هذه الحادثة ملوك الطوائف هذا وأيقظتهم من

سباتهم ، وكان أكثر هؤلاء هالماً وخوفاً أحمد بن سليمان المقتدر ، إذ رأى نذر
الخطر تقترب منه وتحيطه . فسارع إلى رفع نداء الجهاد في سائر بلاد
المسلمين . وهب هؤلاء إلى اجابة دعوته ، وتكون جيش كبير على وجه
السرية ، وتشكل من ممالك الطوائف الأخرى وحدها ستة آلاف من الفرسان وبعث
ملك اشبيلية المعتضد بكتيبة من خمسمائة فارس . وتوجه هذا الجيش سراعاً
إلى برشتر التي كانت تقوم بها حامية من الارمنانيين تقدر بخمسة آلاف مقاتل .
وقد أصدق هؤلاء ربهم النية فحاصروا برشتر وضيقوا عليها وانتهى الأمر
بدخول المسلمين المدينة بقوة ، وانتصارهم انتصاراً باهراً . (فاستولى
المسلمون على المدينة وغسلوها من رجس الشرك وجلوها من صدا الألف .)^(٢)
وبذلك استطاع ابن هود أن يعيد الاعتبار لذاته ، وأن يسترد هيئته ومكانته المفقودة .

(١) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٢) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ٦٢ ، وكذلك ح رقم ٥٤٤٣ من نفس الصفحة .

(٣) : ابن عذاري : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٢٢٦ - ٢٢٨ .

ولم يقصر فرد يناند من جهته في مضايقة المقتدر احمد بن سليمان وابسترازه . يقول ابن عذارى (ثم ان الروم دمرهم الله استطالت أيديهم في مدة ابن هود على بلاد المسلمين بالشر الا على فأخذ معهم ابن هود في اعطاء الجزية وصالحهم . فأخذ الطاغية كالذي رتبته عليه وقسمه على رعيته وعلى أهل عسكره .^(١)

وعند ما توفي الملك فرد يناند طم ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ م قسم مملكته بين ابنائه الثلاثة ، فأعطى ابنه الأكبر سانشو قشتاله وحقوق الجزية على مملكة سرقسطة ، وأعطى ابنه الثاني الفونسو ليون واستوريش وحقوق أخذ الجزية من مملكة طليطلة ، وأعطى ابنه الثالث غارسيا جليقية والبرتغال وحقوق الجزية على مملكتي اشبيلية ومطليوس ، وأعطى ابنته اوراكا مدينة سمورة ، وأعطى ابنته الثانية البيرة مدينة توررو^(٢) وقد عمل سانشو على أخذ الجزية من أحمد ابن سليمان المقتدر . ولم يجد هذا بدا من دفعها له بانتظام .

مملكة طليطلة وعلاقتها مع النصراني :-

كانت مملكة طليطلة تشكل هي وممالك سرقسطة ومطليوس واشبيلية أكبر ممالك الطوائف وأقواها في الاندلس كلها وكانت تخوض في نفس الوقت مع بعضها البعض حروبا ومطامعات عسكرية للتوسع على حساب بعضها البعض للاستئثار بأكبر قدر من الاراضي وضمها اليها . وكان ذلك يتم كثيرا على حساب الممالك والامارات الاقل شأنًا والاصغر حجما . ولم تكشف مملكة من هذه الممالك للوصول الى غاياتها بالتحالف مع مملكة اخرى ضد الثالثة فحسب ، بل وجهت انظارها للاستعانة بالنصارى ، واصبح شيئا مألوفا أن يعتضد كل فريق من المسلمين بفريق من النصارى ضد منافسيه من اخصامه والنصارى المتحالفين معه . ورغم أن ممالك النصارى كانت تعاني

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٢) : انظر : J.B. Bury , op. cit. , p 396
- Jan Read , op. cit. , p 101 - 102

- محمد عبدالله غان : دول الطوائف ، ص ٣٨٩ .

فى ذلك الوقت من الحروب الاهلية بين ابناء سانشو العظيم ، الا أنها كانت تسارع الى تقديم مساعداتها العسكرية اذا ما طلبت منها ذلك احدى ممالك الطوائف لانها كقوى المسلمين من جهة ، ولابتزازهم والاستيلاء على ما بأيديهم من اموال وأراضى من جهة أخرى . ولم يتوقف هؤلاء النصارى عن العمل ضد المسلمين منفردين كل لحسابه الخاص ، غزاة مرات ، وطلبى جزية مرات أخرى . ومات غير مستغرب أن نجد فرديناند ابن سانشو يقف مع فريق من المسلمين ضد فريق آخر يقف معه اخوه غارسيا . وكلاهما تحصل على ثمن باهظ لتقديم نصرته .

وكان ذلك الخرق الذى فتح فى الكرامة الاسلامية الذى حدث ابان سقوط الدولة الاموية وقت أن استعان خلفاء الدولة الاموية الضعاف بالنصارى وهو ما أشرنا اليه سابقا وأوضحنا مدى خطورته وفداحة ثمنه . هذا الخرق ازداد اتساعا وشيوط فى عهد ملوك الطوائف هؤلاء . اقتداء لا يحمل الا سوء السياسة ووهن الايمان والخلق . حتى لقد بات ذلك الاندال المتمثل بالاستعانة بالنصارى ، المحور الذى دارت عليه العلاقة بين المسلمين والنصارى طيلة فترة وجودهم فى الاندلس وحتى خروجهم لنهائى فى عهدى فرديناند وايزابيلا .

أشرنا فى حديثنا عن قيام ممالك الطوائف^١ أن اسماعيل بن دى النون استطاع أن يؤسس لنفسه ولأسرته ملكا مستقلا فى طليطلة وذواتها . وعندما توفى خلفه ابنه يحيى بن اسماعيل وتلقب بالمأمون وقد بلغت طليطلة فى عهده عصرها الزاهى ، الا أنه كان على علاقة سيئة مع جاريه سليمان بن هود ملك سرقسطة والمعتضد بن عباد ملك اشبيلية ، وكذلك مع مملكة بطليوس . ولكن الخلاف الأشد وقعا والأكثر عداءا كان مع جاره من الشمال الشرقى ابن هود . وكان الخلاف على الحدود بينهما أبرز مظاهر النزاع المسلح ، بل هو لبس . فقد كان النزاع على الحدود والمناطق التى تمتد بين سرقسطة وطليطلة ، والمحصورة بين قلعة أيوب حتى مدينة وادى الحجارة^(١) تشمل نقطة الاحتكاك بينهما .

(١) : (وادى الحجارة Guadaluja) فى شمال شرق مدريد ، وكانت تعرف أيضا

بمدينة الفرج .

أنظر ، ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧٢ .

وكانت مدينة وادي الحجارة بالذات تنزويبصرها الى الانضواء تحت سيادة
بنى هود ، رغم كونها تتبع جغرافيا لمملكة طليطلة^(١) .

ومن هنا نشب النزاع المسلح بين يحيى بن اسماعيل بن ذى النون
وسين سليمان بن هود . وهو النزاع الذى آثرنا التحدث عنه كما أشرنا سابقا
هنا . وقد دارت رحى حرب قوية بينهما ، وبدأ المأمون نكاية بسليمان
ابن هود بطلب المعونة العسكرية من فرد يناند ، على أن يقر له بالسيادة
ويتعهد بدفع جزية سنوية له . ووافق فرد يناند على دعمه وتأنيده ،
فأرسل كتيبة من جيشه للاعتداء على أراضى ابن هود المتاخمة لأراضى قشتاله .
ولم يمد المأمون من جهته أى وسيلة لانهاك قوى عدوه اللدود ، فبعد
أن استعدى النصارى عليه ، هاجم أراضى سليمان بن هود لانهاك قواه
وتشتيتها^(٢) . وفى نفس الوقت سعى الى محالفة المعتضد بن عباد والاعتراف
بدعوة خليفته هشام المزعوم نكاية أيضا فى عدوه اللدود^(٣) .

ولم يجد ابن هود هو الآخر بدا من أن يستعين بالنصارى
ضد عدوه فطلب المون . . . ومن ؟؟ من فرد يناند نفسه ، ووافق هذا
على دعمه وتأنيده ضد ابن ذى النون حليفه أى حليف فرد يناند الى وقت
قريب . وقد رسخ هذا العمل المقولة القائلة بأنه ليس هناك فى السياسة
عداوة دائمة ، ولا صداقة دائمة بين الدول ، بل هناك مصالح دائمة^(٤) .
فكان أن أغار فرد يناند على أراضى ابن ذى النون ، وأثار هذا بطبيعة الحال
غضب المأمون فطلب من غارسيا ملك نبره وشقيق فرد يناند المعونة ،
فتفضل هذا وهاجم أراضى ابن هود . واستطاع أن يضع يده على مدينة
قلهره^(٥) فى عام ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م . غير أن غارسيا بدلا من

-
- (١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .
 - (٢) : نفس المصدر السابق والجزء والمفحات .
 - (٣) : نفس المصدر السابق والجزء أيضا ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .
 - (٤) : مقولة مشهورة للسياسى البريطانى المشهور دزرائلى .
 - (٥) : (قلهره Calahorra) هى الآن مركز ادارى فى ولاية لكرى
وتقع فى منتصف الطريق بين هذه المدينة الاخيرة وبين مدينة
طليطلة Tudela فى شمال غرب سرقسطة (٥٠)
انظر ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٧٤ .

أن يسلمها الى المأمون . احتفظ بها لنفسه (١) .

وهكذا فقد لجأ كل واحد منهما الى طلب معونة

النصارى ضد بعضهما البعض . وقد لجع سليمان فى عهده وظلمه ، فهاجم بمساعدة أعوانه من النصارى مدينة سالم التابعة لمملكة طليطلة ، وهاجم الاراضى التابعة لها . وقد أضرت هذه الغارات الوحشية بأراضى ومزارع أهل طليطلة وألحقت بهم الخسائر . وقد تمنى أهل طليطلة على فرديناند أن يكف عن اعماله ويشفق بهم كما سألوه الصلح والمهادنة . بيد أنه اشترط عليهم شروطا تعجيزية جعلت الالهالى يرفضونها ، وقالوا لرسله انه لو كانت لديهم الاموال التى طلبها لكانوا قد بعثوا الى البربر من وراء المدوة يستمدون عونهم . فكان رد فرديناند ردا قاسيا واقعيا ، يحمل طابع السياسة التى حددتها لاسترجاع ما يقدر عليه من أراضى اسبانيا . فقد جاء فى رده عليهم (وأما استدعاءكم البرابرة فأمر تكثرون به علينا وتهددون به ، ولا تقدررون عليه مع عداوتهم لكم ونحن قد صمدنا اليكم ما نبأالى من أتاننا منكم . فانما نطلب بلادنا التى غلبتمونا عليها قد يما فى أول أوبركم، وقد سكتموها ما قضى لكم . وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم فارجلوا الى عدوتكم واتركوا لنا بلادنا فلاخير لكم فى سكتاكم معنا بعد اليوم . ولن نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا وبينكم) (٣)

(١) : محمد عبدالله غان : دول الطوائف ، ص ٩٩ .

(٢) : مدينة سالم Medinaceli تقع فى شمال مدريد بنحو ١٥٠ كلم

فى الطريق الذى بين مدريد وسرقسطة ، وهى الآن من أعمال مقاطعة

سورية سوريا . وقد كانت مدينة قد يمة عرفت فى العصر الرومانى

باسم Ociliis . وقد عمرها ابان الفتح الاسلامى لاسبانيا

زعيم مغربى يعرف بسالم بن ورعمال المصمودى . وقد عرفت منذ ذلك التاريخ باسمه .

وقد خربت المدينة كما يعتقد فى عهد الامير عبدالله بن محمد الاموى ، غير أن الخليفة

عبدالرحمن الناصر أعاد تمصيرها فى عام ٣٣٥ هـ .

انظر ، ابن الكردبوس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٠ .

(٣) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

وما لبث المأمون أن عاد وحليفه غارسيا يهاجمان أراضى ابن هود ويعيثان فيها . وقد شغلت هذه الحروب المدمرة بأعصاب نفوس المسلمين فى المملكتين ردحا من الزمن ناهز ثلاث سنوفات من طم ٤٣٥ حتى طم ٤٣٨ هـ . فلم تنقطع الا بوفاة سليمان بن هود طم ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م . وعندما توفى سليمان قسمت مملكته بين أبنائه الخمسة كما مر بنا ، وركن المأمون الى الدعة بعض الشيء .

ومعد أن استتب الامر لفرديناند اثر انتهاء الحروب الاهلية بينه وبين أخويه غارسيا وراميرو ، تطلع الى العمل منفردا لحسابه الخاص هذه المرة . فهاجم سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م اراضى مملكة طليطلة وألحق بها خسائر فادحة . واضطر المأمون الى طلب الهدنة ودفع الجزية صاغرا .

وكان المأمون رجلا أعتته الاهواء الشخصية والطمع فى توسيع رقعة دولته . ولذا فقد اختلق مع عبد الملك بن عبد العزيز بن ابي طمو ملك بلنسية خلافا . وعمل من ثم على مهاجمة مملكته وضمها الى مملكة طليطلة . ولا يهمننا هنا من تفاصيل ذلك الا ما صنع المأمون من طلب المساعدة والعون من الملك فرديناند المستعد فى كل الاوقاف لتلبية طلبات العون والنصرة . ينقل ابن عذارى عن ابن يسام شرحه لتفاصيل هذه المعونة فيقول : (١) وفى هذه السنة كانت وقعة بطرنة من نظر بلنسية وذلك أن قطعة من الروم زلفت الى بلنسية ، فأناخت عليها وأهلها يؤمؤد جاھل غر أو مترف مغر قد خلوا بشهواتهم ، وانخدعوا بأغواء الدهر عن غراتهم ، مقفلين للتدبير ، غافلين عما يتعمور اطرافهم من التخيير ، فطار بهم الذعر كل مطار ، سارت عن زعمائهم فى ذلك أعجب أخبار . ثم كابد هم العدو باظهار الاضطراب والاستتار عن عيونهم ببعض تلك الهضاب استدراجا لهم واستطرادا . وجدا فى طلب مكروهم واجتهادا ، فماج رعاعهم وتنادى بالنفير مهنتهم وصناعهم . (٢)

(١) : أى سنة ٤٥٥ هـ .

(٢) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ٤ ، ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

ثم يعود ابن عذارى فينقل عن ابن بسام ذمه لأمره الاندلس في ظل عبد الملك فيقول: (١) وساعد أولئك الرعاع الحائنين أميرهم يومئذ المتوفى عبد العزيز بن أبي طاهر فخرج بالعير والنفير ، والجمل والفير يحسب الطعن كالقيل ، ويطن السيف كالقيل ، ويتخيّل صليل الحسام بين القصرتين والهيام ، ما كان اتسع له ذرعه ومرن عليه سمعه ، من نغم الأوتار وترنم الاطيار فلم يزعج العدو ويومئذ الا خروج أهل بلنسية الأغمار والاقبال ، الى تلك المصارع والاجبال يمشين مشى قطا البطاح تأود اهيف الخصور رواحج الاكفال ، فظفر المدو يومئذ بهم ، فأتاهم من ظهورهم فحكم السيف في جمهورهم ولم يبق الا من أحرزهم أجله ، وخفى على سهم المنية مقتله (٢) وينقل لنا المقرئ (٣) عن ابن بسام قول بعض الشعراء في أهل بلنسية حين خرجوا في ثوب الزينة والترفة فيقول :

لبسوا الحديد الى الوغى ولبستم حلل الحرير عليكم ألوانا
ما كان أقبحهم وأحسنكم بهما لو لم يكن ببطرنة ما كانا

مملكة بطليوس وعلاقاتها مع النصارى : -

بعد أن استطاع فرديناند ترتيب بيته وحل مشكلاته مع أخويه ، تفرغ لمهاجمة أراضي المسلمين تحقيقا لاهدافه في استعادة أراضي الآباء والأجداد ، فاصطدم بمملكة بطليوس التي تقع بين نهر التاجه ونهر دويرو . وقد فضل مهاجمة منطقة بعيدة في شمال غربي هذه المملكة وهي منطقة لامبيجو الواقعة في البرتغال الحالية ، واستولى عليها بالفعل . ثم اتجه الى مدينة بازو Vizcaya ، ولم تجد استماتة أهلها في الدفاع شيئا ، فسقطت بين يديه ولم يستطع ابن الافطس فعل أي شيء (٤) .

ورأي فرديناند أن ينتهز فرصة الخصومة المشتعلة بين ابن

الافطس وخصمه ابن عباد في الشرق ، وابن ذي النون في الشمال . فحاول

(١) بل هو عبد الملك لأن آباء عبد العزيز بن توفى عام ٤٥٢ هـ والموقعة حدثت عام ٤٥٥ هـ . انظر : محمد عبد الله عيان : دول الطوائف ، ص ٢٢٣ .

(٢) : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٣) : نفع الطيب ، ج ٦ ، ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٤) : انظر : J.B. Bury. Op. cit. p. 395 -

ابتزازه بطلب الجزية ، الا أن ابن الاطس رفض طلبه . فجهز فرد يناند جيشا ضخما عين عليه أحد قادته ، وقصد هذا الجيش مدينة شنترين ، ولم يجد ابن الاطس امام هذه الهجمة النصرانية بدا من أن يعقد هدنة مع فرد يناند . وتمهد له بموجبها بدفع جزية سنوية مقدارها خمسة آلاف دينار^(١) .

وكانت أنظار فرد يناند تذهب بعيدا نحو مدينة قلمرية الاستراتيجية أعظم مدن البرتغال التي فتحت في عهد المنصور ابن ابي عامر عام ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م وكان يليها من قبل ابن الاطس رجل يدعى رانده ، فتوجه فرد يناند نحوها في عام ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م وحاصرها محاصرة شديدة استطلت الى ستة شهور . واخيرا استطاع فرد يناند أن يشتري ذمة رانده وأمانته . وجرى الاتفاق بينهما على أن يخرج رانده بأهله وأمواله سالما من المدينة مقابل تسليمها له . ودهسى أن يفت غيابه عن المدينة في عضد أهلها ، فعرضوا على فرد يناند التسليم مقابل الأمان ، الا أنه رفض وضيق عليهم الخناق حتى استطاع بعدئذ أن يقتحم المدينة عنوة . وقد ارتكب جنوده من صنوف البذاءة والتكيل بما يدرج في مصنفات الأعمال الوحشية^(٢) . وقد ولى فرد يناند على المدينة حاكما من قبله هو الأسقف سشندو الذي نشأ وظهرت ألمعيتة كرجل من المستعربين في بلاط المعتضد بالله . غير أنه ترك بلاط المعتضد فارا بنفسه والتحق بفرد يناند حيث دخل في خدمته . وقد ولاء أخيرا حكم مدينة قلمرية ومنحه لقب الكونت أو الوزير^(٣) .

وبعد ذلك شرع فرد يناند من فوره في الاستيلاء على الاراضى الواقعة بين نهر دويوة ومينو (مندريجو) وذلك تنفيذا لخطته المذكورة الهادفة الى اجلاء المسلمين عن حدود مملكته شيئا فشيئا^(٤) .

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(٢) : نفس المصدر السابق والجزء ، والصفحات .

(٣) : محمد عبدالله غان : دول الطوائف ، ص ٨٦ .

(٤) : عن توسعات فرد يناند على حساب الممالك الاسلامية انظر :

مملكة اشبيلية وعلاقتها مع النصارى :-

= لم تسلم مملكة اشبيلية من هجمات الملك فرديناند الذى كان يفيض حماسة وانه فاط دينيا عظيما . ففى عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م وهو العام الذى هاجم فيه مملكة بطليوس هاجم اراضى المعتضد وغزاها . واضطر المعتضد الى التوجه لمعسكر الملك النصرانى ، فقدّم له الهدايا الثمينة ودفع له الجزية التى فرضها عليه بعد أن اخذ بمشورة الفقهاء فى مملكته .

ويقول دوزى : ان فرديناند عندما رأى رأس المعتضد وقد اشتعل شيا وتجلله هاله من الوقار - رغم أنه لم يتعد السابعة والاربعين من عمره - أشفق عليه من تكديرو خاطره بانتزاع شئ من اراضيه . ولكنه طلب اليه أن يسلمه رفات القديسة (جوست) العذراء التى قتلت فى عصر الاضطهاد الرومانى . ووافق المعتضد على هذا ، وقفل فرديناند عائدا الى ليون ، وبحث باثنين من الاساقفة لتسلم الجزية ، وتسلم رفات القديسة . على أن الاسقف (الفينوس) فشل فى العثور على رفات القديسة المذكورة ، على أنه نقل عوضا عن رفاتهما ، رفات القديس (ازيدور) مشيعا باجلال المعتضد ورجاله . واستمر المعتضد يدفع له الجزية السنوية بانتظام . وبعد وفاة فرديناند وحتى وفاة المعتضد فى عام ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م كانت الجزية تدفع بانتظام الى سانشو ابن فرديناند ملك جليقية الذى عهد اليه والده أيضا بأخذ الجزية من مملكة اشبيلية (٢) .

وفى الحقيقة لقد كانت سنوات ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ هـ /

١٠٦٣ - ١٠٦٥ م سنوات صعبة فى تاريخ المسلمين عموما فى الاندلس . فقد شهدت هذه السنوات الهجمة النصرانية الشرسة على معاقل المسلمين . فانتزعت منهم ما قدرت عليه من المدن والحصون ، وان كان بعضها قد استرد بعد قليل مثل برشتر .

(١) : ملوك الطوائف ، ص ١٧٢ - ١٧٥ .

(٢) : محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٧٢ .

وقد أصاب الهلع والجزع ملوك الطوائف ، وغصوا بالهجوم المسيحي كثيرا . وسمت موجة من المرارة والتأسي المسلمين مما دفع بعض المفكرين والادباء والشعراء الى دعوة أمراء المسلمين الى التكتف والتعاقد ونهذ الفرقة والخلاف .

واذا كانت لم تسلم مملكة من الممالك الثلاث وهى سرقسطة وطليلة وطلبيوس من فقد بعض أطرافها على يد ملوك النصارى ، فان مما يحمد للمعتضد أنه لم يحدث فى عهده النزول عن أى طرف من أطراف مملكته . كما أن مما يحمد له أنه لم ينساق كما انساق غيره من ملوك الطوائف الى الاستعانة بالنصارى فى سبيل أهداف ذاتية . فيكاد يكون الوحيد من بينهم الذى لم يطلب معاوننة النصارى ضد خصومه المسلمين . على أن هذا لا يجنبه المؤاخذة ويعفيه من المعرة ، إذ لم يسلم شأنه شأن غيره من ملوك الطوائف من معرة دفع الجزية عن يد وهو صاغر . كما أن مما يعاب عليه أنه قد ترك أخوته من المسلمين يواجهون هجمات النصارى الشرسة دون أن يسارع الى تقديم نصرته ، وهو الذى كان فى ذلك الوقت أقوى ملوك الطوائف على الإطلاق ، وكانت مملكته أقوى وأكبر ممالك الطوائف تلك . فقد كان فى وسعه أن يقدم نصرته الى أخوته ، وكان فى وسعهم كلهم أيضا الوقوف أمام هذه الهجمة النصرانية .

ولكن كيف يحدث هذا ؟؟ . وأحد هؤلاء يحارب أخوته ، وثانيهم ينشغل بتوسيع مملكته على حساب جيرانه ، وثالثهم منشغل بتشبيد القصور والمجالس منصرفا الى تذويقها وتأنيقها عن كل خطب وحدث .

ولقد حفظ لنا ابن بسام عن المأمون بن يحيى ملك طليطلة صورة تدل على فرط الإهمال وعدم البعالة والاكتراث ، والانشغال بالمترفات والشبهوات فى وقت كانت تهاجم فيه أراضي جيرانه سكان بطليوس على مسمع ومرآى منه . وكان جل اهتمامه منصبا حول انتهاء أعمال البناء والتذويق فى قصره الفخم المكرم الذى كان يشيده آنذاك .^(١)

(١) : انظر ، المصدر السابق ، القسم الرابع - المجلد الاول ، ص ١١٤-١١٥ .

ولقد ندب كثير من الفقهاء والعلماء والأدباء والمفكرين أنفسهم لتبنيه ملوك الطوائف وتحذيرهم ولفت أنظارهم للأخطار المحدقة والقادمة . وتطوع بعضهم الى التجوال لدى ملوك الطوائف بهذا الخصوص . ومن هؤلاء الشاعر الأديب أبو حفص الهوزنى - الذى سنعرض له قادمًا عند الحديث عن الحياة الأدبية فى اشبيلية ان شاء الله . فقد كان صادق الايمان والحس جريئًا فى الحق . فبعث الى المعتضد برسالة شرح له فيها حالة المسلمين السيئة مع النصارى ، حتى لقد خشى على الاسلام والايمان أن يصيبهما الاغتراب والانقراض . وقال له ان الحكم فى عقولهم سادرون ، والناس ذهول وخنوع ، كما طلب من المعتضد وتوسل اليه مؤملا انقاذ الوضع واستدراك الأمر ، كما طلب منه أن يقود الجيوش ويترأس الطلائع والجنود لتخليص المسلمين من النصارى . وهى رسالة طويلة تمثل معاناة الشعب فى ذلك الوقت . ولم يكن الوزير أبو حفص هو وغيره الا ضمير تلك الأمة وصوتها المسلم^{الراعى} الذى تعالى لاستدراك ما يمكن استدراكه^(١).

ونورد فيما يلى بعضا من تلك الأبيات التى نظمها الأديب الهوزنى مستحثا الحكام للجهاد وداعيا للاجتماع والوحدة ومتأسفا على وضع المسلمين المزرى :

أيا أسفا للدين ان ظل نهبة	بأعيننا والمسلمون شهود
أفى حرم الرحمن يلحد جهرة	ويجعل اشارك الاله شهود
ويشعل بيت الله بين بيوتكم	وقادرة عن رد ذاك قبيد
ويوضع للرجال بيت بمكة	ويخفى عليكم منزع وقصود
أعذكم أن تذهبوا فيمستكم	عقاب كما ذاق العذاب شهود
وأقبح بذكر يستطير بأرضكم	يؤم به أقصى البلاد وفود

وقال أيضا :

تبارك من تفرد بالبقاء	وأسلك خلقه سبيل الفناء
وشتت شملهم بعد انتظام	وكدر ورد هم اثر الصفاء

(١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ٧٥-٧٠ .

(٢) : نفس المصدر والقسم والمجلد ، ص ٧٨-٧٩ .

وقد أيقظت هذه التحركات من قبل العلماء والفقهاء بعض ملوك وأمراء الطوائف ، ونبهتهم الى ما يحدث . وقد بحث المعتضد برده الى الوزير أبى حفص بما يؤكد احساس المعتضد بخطورة الحالة السياسية في الاندلس . ومن فصول رسالته لأبى حفص : (١٠٠٠) ما سمعت بصحة دينك ويرد يقينك حتى نظرت الى ما دهم المسلمين من كلب العدو عليهم ، يجوسون البسيطة من ديارهم ويستبيحون المحوط من ديارهم . ليس الى الانقياد عن احكامهم دفاع ، ولا سوى الانحياز من امامهم امتناع ، قد تبين لهم أن تخاذلنا لهم علينا ناصر ، وتواكلنا مظاهر مؤازر ، فلا يعدون من يتخلى لهم عن بلد ويمطيههم الجزية عن يد ولو شاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليلو بعضكم ببعض . (١)

ثم يقول أيضا (وأما ما نددت اليه ، وحضضت عليه من اجهاد السعى فيما يقمع المشركين بمدد هم الله ، ويجمع كلمة المسلمين . فيعلم الله أنى قد ناجيت بذلك وناديت ، وراوحت وغاديت ، وشئت رسلى الى ذلك داعين ، ويصلون التفكير ، ويؤكدون التبصرة ، ويتسلون المواعظ ، ويستثيرون الحفائظ ، فصمت المسامح ، واتفقت في التشاقل المنازع ، وخلج بالخذلان ، وتجاوزت الجمجمة في ذلك الى الاعلان ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) . (٢) غير أننا في الحقيقة لم نجد ما يؤكد كلام وجهه المعتضد هذا الذي أشار به .

كما احتفظ لنا الفتح بن خاقان برسالة ابن طاهر صاحب مرسية الى المعتصم بن صمادح أمير المرية يبدى فيها القلق والتأسى لأحوال المسلمين ، وكيف ضيق عليهم أعداء الله الخناق ؟ ؟ ، ومن فصول هذه الرسالة (فليندب الاسلام نوادبه وليبك له شاهده وغائبه ، فقد طفى مصباحه ووطئ ساحته وهيض عضده وغيض غده . الى الله نفزع واليه فى

-
- (١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ٩٩ - ١٠١ .
 (٢) : خلج يخلج من انتزع ينتزع .
 انظر الفيروزابادى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٩٣ .
 (٣) : ابن بسام : نفس المصدر والقسم والمجلد أعلاه ، ص ١٩٩ - ١٠١ .

طارق الخطب ومثابه ، ولا حول ولا قوة الا به • وهو فارح الكرب وناصر
الحروب وظلم الغيوب ، لا رب سواه ، ذلك أن فرد يناد وقم الله نزل على
قلعة أيوب محاصرا لمن فيها ومنيرا على نواحيها بجموع يضيق عنها الفضاء ،
وتساقط لملاحظات الأعداء ، وأنه قد بنى على قصد جهاتنا ووطئ
جنباتنا ، الا أن يدرأ الله في نحره ، ويحصى من شره • وفرسيه دمه
الله بسرقة ، ورميهم أهلكه الله بوشقه وما والاها ينكى بما يبكي ،
والمسلمون بينهم سوام ترتع ، وأموالهم نهب توزع ، والقتل يأخذ منهم
فوق ما يدع ، فأطل الفكر في هذا الحزم الداخل والبلاء الشامل ،
وأسبل العبر وأطل العبرة والله المرجو لتلاقي الأمة ، وكشف هذه
الغمة بمنه • (١)

أما الشاعر الأديب أبو القاسم خلف بن فرج الالبيري المعروف
بالسميسر ، أحد شعراء عصر ملوك الطوائف آنذاك وأحد أبرز أصوات
المعارضة لملوك الطوائف ، فقد قال في نقد مريو لاذع :
(٢)

ناد الملوك وقل لهم	ماذا الذي أحدثتم
أسلمتم الاسلام فــــــ	أسير العدا وقعدتم
لاتكروا شق العصا	فقصي النبي شققتم

وقال أيضا :

رجونا كم فما أنصفتموننا	وأملناكم فخذ لتموننا
سنصبر والزمان له انقلاب	وأنتم بالاشارة تفهموننا

كما انتدب القاضي أبي الوليد الباجي نفسه للدعوة للجهاد والحض عليه -
وسنعرض له قادمًا ان شاء الله - فتطوف بممالك الطوائف يدعو الى الوحدة
والتآلف ، غير أنه لم يوفق في دعوته ، فقد قابلها ملوك الطوائف بفتور وسرود
شد يد ين •

وهكذا فقد شهد عهد المعتضد بالله اشتداد نشاط حركة الاسترداد
بشكل لم تسلم منه أي مملكة من الممالك إطلاقا ، اللهم الا مملكة اشبيلية التي سـلـمـت
لها أطرافها • ولكنها بالمقابل لم تسلم من دفع الاتاوة والجزية عن يد للنصارى
كما ذكرنا •

(١) : قلائد العقيان ، ص ٦٥ - ٦٦
(٢) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الثاني ، ص ٣٧٤ •
(٣) : انظر بعد الباب الخامس ، ص

حياة المعتضد الخاصة ووفاته

تناولنا فى حديثنا عن شخصية المعتضد بالله وآراء المؤرخين به جوانب سلوكية منفردة أشرنا الى أنها قد حتمتها عليه خلال غريزية فى احيان ، وظروف اضطرارية فى احيان اخرى ، ونهيج لا يخرج عن روح المصر فى معظم الأحيان .

ونحن هنا نعود لاستكمال الحديث عن شخصية المعتضد بكل جوانبها وما لها أو عليها لنرسم صورة دقيقة لهذه الشخصية المميزة فى تاريخ الاندلس كله فى ذلك الوقت .

والجانب الاخر من شخصية المعتضد هو ذلك الذى يتعلق بالحياة الخاصة له فى بلاطه وخارجته . وسنقتصر فى حديثنا عن هذا الجانب على شئ من اعماله فى دولته ، إضافة الى ما سنعرض له من وصف لحياته العائلية وشيئا من صفاته الشخصية كذلك .

ونحن لانعلم بالضبط وصفا مفصلا واضحا عن أعماله الداخلية والمشاريع العمرانية والمدنية فى مملكته . الا أننا لانتصور بأن دولة كانت اعظم ممالك الطوائف على الاطلاق فى ذلك الوقت مساحة وثروة وجاها الا ولا بد أن تكون قد حققت الكثير الكثير بالنسبة للمرافق العامة فى البلاد فى كافة المجالات . بحيث غدت اشبيلية ازهى ممالك الطوائف وأوسعها ثراء وأعرقها حضارة ورقى .

ويجمل ابن البار وابن بسام فيما ينقلان عن ابن حيان اعماله الداخلية تلك بقولهما (ولم يقصر عباد فى دولته التى مهدها فوق أطراف الأسنة ، وصير أكثر شغله فيها ، شب الحروب وكياد الملوك واهراج البلاد واحراز النداء ، من توفر حظه الأوفر فى الامور الملوكية والمعدد السلطانية والآلات الرياسية ، فابتنى القصور السامية ، واغمر العمارات المفلة ، واكسب الملابس الفاخرة وغالى الأعلاق السنية ، وارتبط الخيول السابحة ، واقتنى الفلمان الروقة ، واتخذ الرجال الذادة ، تنقاهم من كل فرقة .

فساس طبقاتهم ما بين ادرار الاعطية وضمان الزيادة . (١)

تلك هي أهم أعماله الانشائية . أما بالنسبة للسياسة الداخلية فيبدو أن المعتضد كان يتوجس خيفة من المحيطين به . وكان يعتمد الى اضعافهم وتشتيت قواهم ونفوذهم . وقد مر بنا أنه قد قتل جيباً (٢) وزير أبيه ربما لانه قد شعر بأن نفوذه أخذ يتعاضم . كما أنه شرع يعمل على قطع دابر وزرائه . فمنهم من قتله صبرا ، ومنهم من نفاه عن البلاد ، ومنهم من أماته خمولا وفقراً (٣) . وربما يعود هذا الى أنه لم يكن يطبق سماع أصوات المعارضة بالاضافة الى أنه كان يأخذ بالظنة . كما أنه لم يكن مأمونا الطوية ، فقد كان يوصف بالفدر والافشار للذمة . وسنرى بعد في حديثنا عن الحياة الادبية القادمة أنه قضى على عدد من وزرائه وأدباء بلاطه . وأن البعض منهم قد استطاع أن يتحاشاه ويفر من وجهه (٤) .

على أنه كان يتمتع بصفات أخرى حسنة . فقد اتفق رأى المؤرخين على أنه كان يتميز بالسخاء والجود والكرم . فابن غداري وابن الأبار ينقلان عن ابن حيان قوله (فجمع هذه الخلال الظاهرة والباطنة الى جود كف بارى بها السحاب) (٥) ، وابن القطان فيما ينقله عن ابن غداري يقول (وكان يغلب عليه الجود . فلا يعلم في نظرائه أبذل منه بالمال) (٦) .

وقد نظم هو نفسه في مناسبات عدة جملة من الاشعار يفخر فيها بكرمه وجوده وسخائه . وسنعرض قادمنا الى هذه الاشعار

(١) : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٤٠ - ٤١ . الذخيرة ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص ١٦ .

(٢) : انظر قبل ، ص ١٨٥ .

(٣) : عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٥١ - ١٥٢ .

(٤) : انظر بعد الباب الخامس ، ص

(٥) : البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٢٠٧ . الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٤٢ .

(٦) : البيان المغرب ، ص ٢٨٣ - ٢٨٥ .

ان شاء الله • ولسنا هنا فى حاجة الى كبير ذكاء لنستخلص من هذا الجود الفائق دوافع واهداف سياسية واضحة بجانب ذلك الميل الغريزى • فالمعتضد يتقن من تلك الحكمة القائلة : من جاد ساد ومن ساد قاد ومن قاد ملك البلاد الكثير الكثير •

وكان ذا اهتمام بالادب والشعر والمعرفة • وكانت سوق الادب كما يقول المؤرخون عادة غده نافقة ^(١) وكان هو نفسه ينظم الشعر ويتذوقه ويعطى عليه الاعطيات • وسنعرض ايضا الى هذا غده حد يثنا عن الحياة الادبية •

والاضافة الى تلك الخصال التى ذكرناها • فقد كان حازما قويا فى ممارسة اعماله وشؤونه فقد (جرد نهارة لابرام التدبير • واخلص ليله لتملى السرور • فلا يزال تدار عليه كؤوس الراح ويحيا عليها بقبض الارواح التى لا تناسيه من اعدائه •) ^(٢) ويقول ابن القطان فيما ينقله ابن عذارى ايضا (وكان يغلب عليه الجد) ^(٣)

ويقول هو عن نفسه بأنه قد قسم يومه ولياليه بين تصريف شؤون الدولة والاهتمام بوسائل المتعة والأنس • ولم يكن فى الحقيقة بدعا فى هذا الشأن عن غيره من ملوك الطوائف • وكان لا يصبر عن الخمر ويتماطاها مع الخلس من رجاله وادبائه فى مجالس الأنس والسمر التى كانت تعقد فى قصره •

أما فيما يتعلق بحياته العائلية • فقد كان المعتضد كما يقول ابن الأبار (ذا كلف بالنساء فاستوسع فى اتخاذهن وخلط فى أجناسهن • فانتهى فى ذلك الى مدى لم يبلغه أحد من نظرائه • فقل انه خلف من صنوف السريات منهن خاصة نحو من سبعين جارية • الى حرته المحظية لديه • الفذة فى حلاله بنت مجاهد العامرى أخت على بن مجاهد صاحب دانية والجزر الشرقية • ففشا نسل عباد

(١) : الضبى : المصدر السابق • ص ٣٩٥ - ٣٩٦ •

(٢) : ابن القطان فيما ينقله عنه ابن عذارى : المصدر السابق والجزء • ص ٢٨٣ - ٢٨٥ •

(٣) : نفس المصدر والجزء • ص ٢٨٣ - ٢٨٥ •

لتوسعه فى النكاح وقوته عليه . فذكر أنه كان له من ذكور الولد نحو من عشرين ،
ومن الاناث مثل ذلك ^(١) . ويعقب فى مبالغة واضحة بقوله ان المعتضد قد اقتض
ثمانمائة بكر ^(٢) .

ولا نملك تفاصيل واضحة عن العلاقة بينه وبين نساءه وأولاده .

غير أننا نستطيع أن نستخلص فيما يتعلق بعلاقته مع ابنائه شيئا ذا قيمة .
ان يبدو أنه كان حازما شديدا معهم ، فقد رأينا ان يغلظ فى معاملته لابنه
وولى عهده اسماعيل ، وأخيرا رأينا ان يفتك به ^(٣) . ورأينا شيئا من هذا
عندما غضب على ابنه محمدا وجابر غضبا شديدا ، تودعهما فيه بأشد
المقويات . ورأينا محمدا يرتعد خوفا وفرقا منه عندما فشل بالاحتفاظ
باستقلال مدينة مالقة . ولم ينجه من غضب والده الا القصيدة الرائية التى
نظمها مستعظفا مستصرخا طائفة أبيه . ورأينا شيئا من هذا عندما فرق
بين ابنه وولى عهده محمد ، وصديقه وأليف روحه آنذاك محمد بن عمار
الشاعر المذكور سابقا . فقد انزعج المعتضد جدا للعلاقة التى نشأت بينهما .
وما أفضت الى انصراف ابنه عن مهام الأمور الى الانغماس فى اقتناص فرص
اللذة واللهو ، مما جعل المعتضد ينف على ابنه . ويترجم هذا العنف
بإبعاد صديقه عنه ونفيه فالتجأ الى سرقسطة ^(٤) . على أنه مع ذلك كان
محبا لابنائه عطوفا عليهم ، حتى لقد كان سبب وفاته كما يقال هو
جزعه الشديد على ابنة له ماتت صغيرة ، وكانت أثيرة لديه ^(٥) .

وفى ظم ٤٦١ هـ على الأرجح توفى المعتضد بالله ،

وكان يبلغ وقتها السابعة والخمسين من عمره . وقد أورد ابن حيان فى رواية
دقيقة فيما نقله عنه ابن عذارى مدة حكم المعتضد فقال (وكانت سن عباد

-
- (١) : الحلة السراء ، ج ٢ ، ص ٤٣ .
 - (٢) : ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، ص ٥٢ - ٥٣ .
 - (٣) : انظر قبل ، ص ٣٦ - ٣٧ .
 - (٤) : صلاح خالص : محمد بن عمار الاندلسى ، ص ٥٤ .
 - (٥) : ابن الأبار : نفس المصدر والجزء أعلاه ، ص ٥٢ - ٥٣ .
 - (٦) : هذا هو قول ابن حيان المعاصر للمعتضد ، والذي نقل عنه
من جاء بعده . ولذا فإننا نعتد هذا التأريخ ،

سبعا وخمسين سنة وثلاث شهور ، وتسعة أيام تأقيتا من مولده يوم الثلاثاء لسبع بقين من صفر سنة سبع وأربعمئة الى وفاته يوم السبت ليثين خلثا من جمادى الآخرة . ومدة امارته من يوم بيعته بوفاة والده يوم الاثنين غرة جمادى الاخر سنة ثلاث وثلاثين - ثمان وعشرون سنة ويومان (١)

وقد شيع جثمانه فى موكب مهيب على رأسه ابنه وولى عهده المعتمد الذى تولى الحكم بعده . ودفن فى يوم الاحد فى المقبرة الملكية (٢)

وقبل أن نختم حديثنا عن المعتضد ينبغي أن نشير الى أنه قد غدا فى سنواته الاخيرة كاسف البال ، شاحب الوجه كبير الهموم . فقد كان هناك شيان يؤرقانه ويكدرن عليه صفو حياته . أولهما نشاط حركة الاسترداد المسيحى ، واحساسه بالخطر مما يخبئه له القدر ، وثانيهما خشيته على دولته التى أقامها أبوه ونماها هو من السقوط بيد البربر (٣)

ومن هنا رأيناه يشتد فى معاملته للبربر وأمرء الامارات البربرية كما ذكرنا حتى استطاع أن يقضى على نفوذهم ، ومع هذا فلم يسترح له خاطر ، بل زاد يقينه بأن الخطر على دولته انما سيأتى من المغرب على يد البربر . ولذلك كان دائم الاستطلاع لأحوال المغرب . وفى هذا الصدد يقول عبد الواحد المراكشى (وكان المعتضد فى كل وقت يستطلع أخبار العدو . هل نزل البربر رحبة مراكش ؟ وذلك لما كان يواه فى ملحمة كانت عنده أن هؤلاء القوم خالعه ، أو خالعه ولده ومخرجوه من ملكه ،

-
- لأنه التاريخ الصحيح والمتفق عليه تقريبا . ولا يمكننا أن نصدق رواية عبد الواحد المراكشى وابن تغرى بردى صاحبى : المعجب ، والنجوم الزاهرة . من أن المعتضد توفى عام ٤٦٤ هـ . فهو قول بعيد عن الصواب .
- أنظر ، المعجب ، ص ١٥٧ . - النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٩٠ .
- (١) : ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٥٣ - ٥٤ .
- (٢) : نفس المصدر والجيز ، ص ٥٢ - ٥٣ .
- (٣) : ابن بسلام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ١٨ . - ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٥٠ - ٥٢ .

فلما بلغه نزولهم جمع ولده وجعل ينظر اليهم ، مصعدا ومصوا
ويقول يا ليت شعري من تناله مصرة هؤلاء القوم ، أنا أو أنتم . فقال
ابو القاسم من بينهم جعلني الله فداك وأنزل بي كل مكره يريد
أن ينزله بك ، فكانت دعوة وافقت المقدار .^(١)

ومما يدل على ثقل ذلك الاحساس لدى المعتضد
هو ما رواه ابن بسام وابن الأبار عن ابن خيان إذ قال : (وافق أن دخل
عليه يوما بعض وزراءه وسين يديه كتاب قد أطال فيه النظر فاذا
كتاب سقوت المنتزى يومئذ بسبته . يذكر أن الملتصين المدعويين^(٢)
بالمرايطين قد وصلت مقدمتهم رحبة مراکش ، فأخذ الوزير يهـون
أمرهم ، ويخبر أن دونهم اللجج والمهامة . فقال له المعتضد :
هو والله الذي أتوقعه وأخشاه وإن طالت بك حياة فستراه . اكتب
إلى فلان - يعني عامله على الجزيرة^(٣) بحفظ جبل طارق حتى يأتيه
أمرى ، ففضى أن خلعوا ولده وقوضوا أمره .^(٤)

ومعيدا عن اسطورة الملحمة وغيرها . فإن ما يهـينا
هنا هو أن المعتضد وهو السيلاسي المخك كان يعرف أن قدر العدوتين
الاندلسية والمغربية مرتين دائما بوجود القوة الفتية التي تفرزها
الأوضاع السياسية والدينية في هذه المنطقة دائما . وتطلع إلى وسط
العدوتين أو معظمهما تحت ظل سلطة مركزية واحدة . كما أن المعتضد
مثله مثل غيره من الاندلسيين الآخرين كان يستشعر خطر البربر
سواء أكان ذلك خطر بربري في الاندلس ، أم خطر بربري خارجي
من المغرب ، إضافة إلى دوافع الحقد التي يكنها للبربر عامة .

(١) : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(٢) : ينتسب إلى قبيلة برغواطية البربرية .

(٣) : المقصود بها الجزيرة الخضراء .

(٤) : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٥١ - ٥٢ . — الذخيرة ، القسم

الثاني — المجلد الأول ، ص ١٨ ، ص ٣٠ - ٣١ .

الباب الثالث

الدولة العبادية في عهد المعتمد بالله

- تولى المعتمد السلطة بعد وفاة أبيه وآراء المؤرخين فيه .
- الموقف السياسى فى الأندلس غداة تولي المعتمد السلطة .
- جهود المعتمد فى توسيع رقعة دولته .
- خروج الوزير ابن عمار على المعتمد والقضاء عليه آخر الأمر .
- حياة المعتمد العائلية والسمات المميزة لشخصيته .



تولى المعتمد السلطة بعد وفاة أبيه المعتضد وآراء المؤرخين فيه

تولى المعتمد زمام الحكم فور اعلان وفاة أبيه المعتضد عام ١٠٦٩/٥٤٦١م كما قلنا . وقد كانت سنه غداة توليه السلطة تسعة وعشرين عاما وشهرين ومضة أيام^(١) . هذا ولم يلق ملك من ملوك الاندلس من الثناء والاشادة والاعجاب به أكثر من المعتمد بالله . فقد أسر هذا الملك بخلاله الباهرة وصفاته الحميدة وأدبه وشعره لب مؤرخى الاندلس القدامى ، ثم جاءت مأساته المحزنة ، وخاتمة المفجعة التى سنعرض لها قادميا ، وكأنها مسلسل روائى يروى قصة مأساة انسانية مثيرة لتضفى على المعتمد - زيادة على ما نبأه من الثناء - فيضا من الاعجاب المشوب بالاشفاق والأسى .

وفى الحقيقة فان المعتمد بالله كان جديرا بهذا الثناء والاعجاب ، ولكن يجب ألا يذهب بنا الاعجاب الى الحد الذى ننسى أو نتناسى مسؤولية ما وقع فيه المعتمد من أخطاء عن قصد أو عن غير قصد عندما ترك لأهوائه العنان . وإذا كان قد تدارك هذا أو بعضه ، فقد كان ذلك بعد فوات الأوان .

نعم ان نظرتنا للمعتمد تتناول الجوانب الايجابية والسلبية معا لشخصيته ، فنحن بقدر ما نعجب بخلاله وصفاته وشعره وأدبه ، يجب أن لا نفعل عن أخطائه السياسية أيضا ، وهو ما سنتناوله قادميا . فعندما تولى المعتمد السلطة كانت الدولة قد شهدت فى عهد أبيه عصرا زاهيا ، لحمة الاستقرار والهدوء ، وسداه الرقى والازدهار والثراء . فقد ترك المعتضد لابنه دولة مستقرة الأحوال بعيدة الأطراف ذات ازدهار ورفاء جعلها أعظم ممالك الطوائف .

وعندما خلف المعتمد أباه عاد للدولة اشراقها ووضاحتها ، كما لم يقصر المعتمد عن الارتقاء أكثر فأكثر بدولته حتى فاقت

(١) : انظر ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، ص ٥٣ - ٥٤ .

ما كانت عليه فى أيام أبيه من استقرار وازدهار وأصبح بلاطه فى اشبيلية أعظم بلاطات ملوك الطوائف فى الاندلس ، بل أصبح يضاهى بلاطات بعض كبار خلفاء بنى العباس^(١) . فاذا ما استعرضنا أقوال المؤرخين فى المعتمد يأتى ابن اللبانة صديقه ونديمه وشاعره فى مقدمة المعجبين به . فهو يقول فيما ينقله عنه المقرئ^(٢) (ملك مجيد ، وأديب على الحقيقة مجيد ، وهمام تحلى به للملك لبه ، وللنظم جيد ، أفنى الطفافة بسيفه وآد ، وأنسى بسببه ذكر الحارث بن عباد ، فأطلع أيامه فى الزمان حجولا وغررا ، ونظم معاليه فى أجيادها جواهر ودررا ، وشيد فى كل معلوة فناء ، وعمر بكل نادرة مستغربة ، وسادرة مستظرفه أوقاته وآنائه ، فنفت به للمحاق سقوق ، وسقت ثمرات أحسانه أى بسوق) .

أما ابن بسام فيأتى أيضا فى مقدمة المعجبين بالمعتمد فهو يقول (ثم استوسق الأمير عبد المعتمد لابنه المعتمد ، وكان مع انشغاله بالحرب ، وسعة مجاله بين الطعن والضرب ، وعلى أن أباه عباد يدير عليه الرحى ، ويفزع اليه كلما قرعت عصا^(٣) حتى صار أسوة لنجوم ليلها ، وحلسا^(٤) لمنون حبلها :

لا يشرب الماء الا من قليب دم ولا يبيت له جار على وجل

-
- (١) : يشبهه عبد الواحد المراكشى بالخليفة العباسى الواثق بالله .
 (٢) : نفح الطيب ، ج ٥ ، ص ٣٧٦ .
 (٣) : مأخوذ من المثل العربى القائل : ان العصا قرعت لذى الحلم . والمثل يضرب لمن اذا نبت انتبه . وأول من قرعت له العصا هو : عمرو بن ملك الكنانى ، وقيل هو عامر بن الظرب المدوانى من حكماء العرب ، وقيل غيرهما .
 انظر الميدانى : مجمع الامثال ، ج ١ ، ص ٣٧ - ٣٩ .
 (٤) : الحلس جمع احلاس ككتف ، والكبير من الناس وهو حلس بيته اذا لم يبرح مكانه .
 انظر الفيروز آبادى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢١٥ .

فقد كان متمسكا من الادب بسبب ، وضاربا في العلم
 بسم ، وله شعر كما انشق الكمّام على الزهر ، لو صدر مثله عن جميل
 الشعر صناعة ، واتخذته بضاعة ، لكان رائعا معجبا ونادرا مستغربا .
 فما ظنك برجل لا يجد الا راثيا ولا يجد الا عابثا . وهو مع ذلك يرمى
 فيصيب ويهمس (١) فيصوب . وشعره يوضح ما شرح ، ويقبر عما ذكر ،
 مع انه قد رويت أشعار أولى النباهة والاعيان على تديم الزمان لشرف قائلها
 مع قلة طائلها (٢) . وكان ابن بسام قد خشى من اللوم لاسرافه في الاهتمام
 بالمعتمد فيقول مستدركا (وقد رأيت ابوبكر الصولي أثبت لمالوك
 بنى أمية ومنى العباس ما لو صدر مثله لصفار الناس لاستهجن أو ظهر
 لضعفاء السوق لاستصغر ، فلنا في الصولي أسوة في اثبات هذا النوع
 من الشعر أن وقع في كتابنا هذا ، والمجب من المعتمد أنه مـرى
 سحابة في كتبا حاله ، فصاب رد يما خاطره ، فأجاب وما تراجع له
 من طمع ولا بعد الخلع . بل يومه في هذا الشأن دهر ،
 وحسنه في هذا الدهوان عشر ، فان أجاد فما أولى ، وان قصر
 فعذره أوضح وأجلى (٣) . أما ابن البار فيقول (وقد أفضى الأمر الى
 ولده ، وهو في رهبان شبابه ، وكما لجمال ابن تسع وعشرين سنة وشهرين

-
- (١) : همى : من الشيء يهمى هميا سقط .
 أنظر الفيروزابادي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٥٧ .
 (٢) : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص ٣٢ - ٣٣ .
 (٣) : هو ابوبكر محمد بن محمد الصولي ، وكتابه الذي يذكره ابن بسام هو :
 اشعار اولاد الخلفاء . وله بالاضافة الى ذلك عدة كتب أخرى مثل :
 الاخبار المنثورة ، الاوراق ، الوزراء ، وبعضها مفقود .
 أنظر فهرست أسما الكتب الذي وضعه حسين مؤنس في تحقيقه لكتاب
 الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٤٦٩ - ٤٧١ .
 (٤) : مرى الشيء استخرجه ، والمعنى استخرج الماء من السحاب .
 أنظر الفيروزابادي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٩٢ .
 (٥) : ابن بسام : نفس المصدر والقسم والجد اعاد ، ص ٣٢ - ٣٣ .

وأيام وائده مولده في العشر الآخر من شهر ربيع الأول سنة
اثنين وثلاثين وأربعمائة . وقال أبو بكر^(١) ابن أبي الوليد بن زيدون ،
مولده سنة إحدى وثلاثين ، وكذلك قال أبو بكر بن اللبانة ، وكان
المعتمد من الملوك الفضلاء والشجعان العقلاء ، والأجواد الأسخياء ،
المأمونين . عفيف السيف والذيل ، مخالفا لأبيه في القهر والسفك
والأخذ بأدنى سمايه ، رد جماعة ممن نفى أبوه ، وسكن وما نقر ،
وأحسن السيرة ، وملك فأشجع .^(٢)

أما عبد الواحد المراكشي فيكيل المديح للمعتمد^(٣)

كيلا حيث يقول (ثم قام بالأمر بعده ابنه أبو القاسم محمد بن
عباد بن محمد اسماعيل بن عباد ، وزاد المعتمد على الله ، الظافر
بحول الله ، وكان المعتمد هذا يشبه بهارون الواثق بالله
من ملوك بني العباس ، ذكاء نفس وغزارة أدب ، وكان شعره كأنه
الحلل المنشور ، اجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع
لملك قبله من ملوك الأندلس . وكان مقتضرا من المعلوم على علم الأدب
وما يتعلق به ، ويضم إليه ، وكان فيه مع هذا من الفضائل الذاتية
ما لا يحصى كالشجاعة ، والسخاء ، والحياء ، والنزاهة التي
ما يناسب هذه الأخلاق الشريفة .) ويترسل في مبالغة واضحة
في اشاداته به فيقول (وفي الحقيقة فلا أعلم خصلة حميد في رجل
الا وقد وهبه الله منها أوفر قسم وضرب له فيها بأوفى سهم ،
واذا عدت حسنات الأندلس من لدن فتحها الى هذا الوقت ،
فالمعتمد هذا أحدها ، بل أكبرها .)^(٤)

(١) : تولى الوزارة للمعتمد ابن عباد بعد وفاة أبيه الشاعر الوزير أبو الوليد
ابن زيدون .

(٢) : المصدر السابق والجزء ، ص ٥٣ - ٥٤ .

(٣) : المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

(٤) : عبد الواحد المراكشي : نفس المصدر والصفحة .

أما الفتح بن خاقان فقد أشاد به على
طريقته المتكلفة المصطنعة في الأسلوب ، فقال (ملك قمع
العدا ، وجمع البأس والسندا ، وطلع على الدنيا بدر هوى ،
لم يتمطل يوما كفه ولا بنانة يراعه ، وآونة سنانه ،
وكانت أيامه مواسم وشفور بره بواسم ، ولياليه كلها دررا ،
وللزمان أحجالا لم يغفلها عن سمات عوارف ، ولم يضحها من ظل
ايناس وارف ، ولا عطلها مأثرة بقى أثرها باديا . (١) ولقى معثفيه
منها الى الفضل هاديا . وكانت حضرته مطمحا للهم ومسرعا
لآمال الأمم وموقفا لكل كمي (٢) ومقذفا لذنو أنف حتى لم تخل
من وفد ، ولم يصح جوها من انسجام رفته ، فاجتمع تحت
لوائيه من جماهير الكماة ، ومشاهير الحماة أعداد يفص
بها الفضاء ، وأنجاد يزهى بهم النفوس والمضار ، وطلع فسي
سمائه كل نجم مققد ، وكل ذى فهم منتقد ، فأصبحت حضرته
ميدانا لرهان الأذهان ، وغاية لرمى هذا البيان ، ومضاهارا
لاحراز خصل فى كل معنى وفصل ، فلم يتسم فى ذمامه الا بطمحل
نجد ولم ينسق فى نظامه الا ذكاء ومجد فأصبح عصره أجمل
عصر ، وغدا عصره تسفح فيه ديم الكرم . ويفصح فيه لسيفانا
سيف وقلم ، ويفضح الرضى فى وصفه أيام ذى سلم . (٤)

ونفس الطريقة المتكلفة هذه ساق الفتح مدحه
للمعتمد فى كتابه الآخر مطمح الأنفس ومسرح التأنيس . (٥)
أما ابن خلكان فيقول فيما ينقله عن أبى الحسن على بن القطاع

-
- (١) : معثفيه من أعفى . ومعناها انفق العفو من ماله .
أنظر الفيروزآبادى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٦٦ .
(٢) : الكمي كفى الشجاع أو لابس السلاح كالتمكى .
(٣) : المقصود به الشاعر العلوى الشريف الرضى الشاعر العباسى المشهور .
(٤) : الفتح بن خاقان : القلائد ، ص ٤ - ٥ .
(٥) : ص ١١ - ١٢ .

السعدى فى كتاب (لمح الملح) (أقوى ملوك الأندلس راحة وأرحبهم ساحة وأعظمهم تمادا ، وأرفعهم عمادا ، ولذلك فقد كانت حضرتة ملقى الرجال ، وموسم الشعراء وقبلة الآمال ، والف العقلاء حتى لم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء كما كان يجتمع ببابه وتشتمل عليه حاشيتا جنابه (١) .

أما ابن الخطيب فيشيد بفروسيته وشجاعته وشاعريته كما يشيد بسيرته الحسنة السمعة أيضا (٢) .

وينقل المقرئ (٣) عن ابن خيمس صاحب كتاب أدباء مالقه ما نصه (وقال الفقيه القاضى أبو بكر بن خيمس رحمه الله تعالى حين ذكر تاريخ بنى عباد وقد ذكر الناس من أوصافه ما لا يبلغ مع كثرته الى انصافه) ويتأهب المقرئ للحدث عن المعتمد فيقول (وأنا الآن أذكر نبذا من أخباره وأردفها بما وقفت عليه من منظومات أشعاره ، فانه رحمه الله تعالى جسيم الأدب ، عالى النظم فائقه) .

وخلاصة الأمر أن معظم المؤرخين القدامى لم يتناولوا من شخصية المعتمد الا الجانب المشرق الوضاء فقط فلم يعنوا بمناقشة وانتقاد مسلكه السياسى الانتهازى الذى مالبث أن ظهرت نتائجه له وللمسلمين فى الأندلس من بعد . بل لم يعنوا أيضا بانتقاده على ما كان يقترب فى قصره وملاطه من المجون والخلاعة والاسراف والتبذير الى حد كبير .

(١) : وفيات الأعيان ، مجلد ٥ ، ص ٢١ .

(٢) : الاحاطة فى أخبار غرناطة ، مجلد ٢ ، ص ١٠٨ - ١١٠ .

(٣) : المصدر السابق ، ج ٥ ، ٣٧٧ .

(٤) : نفس المصدر والجزء والصفحة .

الموقف السياسى فى الأندلس غداة تولى المعتمد السلطة =====

تولى المعتمد السلطة عام ٤٦١هـ / ١٠٦٩م عقب وفاة أبيه المعتضد . وكانت الفترة التى سبقت تولى المعتمد السلطة والتى أعقبها بعد ذلك تؤذن بأخطار جسام ، فقد بدأت نذرها تطفو الى السطح وتؤذن بأوخم النتائج بالنسبة للأندلس الإسلامية على وجه التخصّص .

فقد كانت الأندلس الإسلامية تمر بمرحلة من أصعب فترات حياتها السياسية وأكثرها اضطرابا ، رغم ما بلغت به الممالك الإسلامية من رفاه ورفق اجتماعى وثقافى مجيد . أدت شهدت الأندلس آنذاك بعض تغييرات فى القوى السياسية المهيمنة على الممالك والأمارات الإسلامية .

ففى قرطبة أتضحت الأمور وأنجلت عن تفرد عبد الملك بن أبى الوليد بن جمهور بالسلطة وسحقه لكل أعدائه . وذلك بتخلّصه من سيطرة ونفوذ ابن السقاء وزير أبيه ، وملك البلاد غير المتوج والذى ذهب ضحية اطماعه وتطلعاته ، وتخلّصه أيضا من سيطرة ونفوذ شقيقه عبد الرحمن . ولقد لعب المعتضد والد المعتمد دورا مهما فى الوصول الى هذه النتيجة ، إذ أنتهز ظهور التنافس الشديد بين وزير الدولة الجمهورية ، عبد الملك بن الوليد بن جمهور الذى عزّ عليه انفراد ابن السقاء بكل النفوذ والسلطة الذين القاهما على كاهله الرئيس الشيخ أبو الوليد ابن جمهور . فاستغل ذلك التنافس بين الرجلين ، وبدأ ينصب دسائسه عندهما ، حتى تمكن من إيقاع الوقعة بينهما .

وعلى أية حال فقد أسفرت حائل المعتضد ومؤامراته ضد الرجلين الى تمكن عبد الملك بن أبى الوليد من الظفر بعدوه ابن السقاء وقتله على يديه ، وذلك أنفرد بالسلطة ، وتلقب بالظافر . على أن انفراد عبد الملك بالأمر أسفر داخليا وخارجيا عن نتيجتين رئيسيتين : فعلى الصعيد الداخلى استتب الأمر لعبد الملك بعد تخلّصه

من نفوذ أخيه عبد الرحمن ، وأصبح صاحب السلطات المطلقة
فى الدولة الجمهورية ، أما على الصعيد الخارجى فقد أدى هذا
الى تطلع ملوك الطوائف للاستيلاء على قرطبة . فقد غدت
مهيضة الجناح ضعيفة الشأن ^(١) . بل يمكننا القول أنها أصبحت تلدور
فى فلك مملكة اشبيلية .

وقد رأينا المأمون بن ذى النون يتميز غضبا وغيظا وهو يرى
المعتضد وقد خدعه عندما أغراه بإطلاق يده للاستيلاء على قرطبة
شريطة أن يخلى له مدينة قرمونة ^(٢) . وها هو يشمّر ثانية أن
المعتضد تمكن بخديعتة ودعائه أن يجعل محن مملكة قرطبة تابعة
له ، ولذلك فقد أعد العدة للتخرش بعبد الملك . وسنعرض
قائما لأحداث سقوط قرطبة أخيرا بيد المعتضد عند حديثنا عن
جهوده لتوسيع رقعة دولته . أما مملكة غرناطة ، فقد كانت
لاتزال تنعم بحكم مليكها باديس بن جوس . وقد خرج من محنته
ومشكلاته الداخلية ^(٣) مع ابنه ووزرائه كأقوى ما يكون بعد أن استكانت
له الأمور واستقامت .

وأما مملكة بطليوس فقد توفى المظفر بن الأقطس فى نفس
العام الذى توفى فيه المعتضد بالله ، وتولى الحكم بعده ابنه
يحيى . وتلقب بالنصور ، على أنه ما لبث أن دخل فى خلاف
مع أخيه عمر ، وأنتهى الامر بانتصار عمر وظفره بمملكة أبييه
بعد وفاة أخيه المفاجئ ، عام ٤٦٤هـ / ١٠٧٢م وتلقب بالمتوكل ^(٤) .

-
- (١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الثانى ، ص ١٢٣
- ١٢٤ . ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .
خالد الصوفى : المرجع السابق ، ص ٩٩ - ١٠٠ .
(٢) : انظر قبل الباب الثانى ، ص ١٤٤ .
(٣) : يراجع فى اخبار هذه الاحداث :
- عبد الله بن بلقين بن زيرى : المصدر السابق ، ص ٣٠ - ٦٩ .

- (٤) : ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ١٨٤ - ١٨٥ .

وفيمما يختص مملكة طليطلة فلم يحدث بها تغير يذكر
فيمما عدا ، فقد ما لبعض اطرافها التي انتزعها النصارى • فالأُمون بن دى
النون كان لا يزال يليها ، ويواصل تحقيق اطماعه فى الاستيلاء
على ما يقدر عليه من اراضى وأصقاع جيرانه • فقد أستطاع أن يقضى
على استقلال مملكة بلنسية ويعزل صاحبها صهره عبد الملك ابن عبد
العزیز بن أبى طمر ، ويعهد بحكمها نيابة عنه الى واحد من بيوتاتها
العريقة . (١)

أما مملكة سراقسطه فقد استقر الامر لمليكم احمد بن سليمان بن
المقتدر ، بعد أن ضم اليه أعمال اخوته ، ولم يبق هناك
من منافس له سوى أخيه يوسف حاكم لارده .

وأما بقية الممالك والامارات الأخرى ، فلم تشهد كبير
تغيير فى القوة السياسية الحاكمة لها . فقد استمر بعض حكام
تلك الامارات والممالك فى حكمها ، كما شهد بعضها وفاة بعض
من حكامها وتولى بعض من أبنائهم السلطة مكانهم .

X X

أما الموقف السياسى فى ممالك النصارى ، فقد كان
مفائرا للموقف السياسى لدى الممالك الاسلاميه ، اذا كانت
تلك الممالك تعيش على فوهة بركان غداة وفاة الملك فرديناند
الأول . ورغم أن فرديناند قد توفى عام ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م أى فى
عهد المعتضد الا أن اسبانيا النصرانية كانت تمر بفترة حالكة
من تاريخها . فقد عادت الخلافات بين الأخوة من أبناء فرديناند
الى اجواء الفترة التى عشتها اسبانيا النصرانية بعد وفاة الملك
سانشو العظيم من حروب أهلية بين الأخوة ، اذ قسم
فرديناند مملكته بين أبنائه كما مر بنا . وكان المعتضد كما
سبق أن ذكرنا يدفع الجزية بانتظام الى غرسيلا ملك جليقية (٢) .

(١) : محمد عبد الله خان : دول الطوائف، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(٢) : انظر قبل الباب الثاني ص ١٥٩

وقد اتخذت الحروب الاهلية بين الاخوة غداة تولي المعتمد
السلطة وجهها السافر ، اذ بعد وفاة والدتهم الملكة سانشاه
بعد عامين من وفاة زوجها فرديناند ، حاول سانشو التوسع على
حساب اخوته . فقد طمع في الاستيلاء على مملكة أخيه
الفونسو ، وذلك بعد عام واحد من وفاة والدته ، ودارت رحى
حرب أهلية بين الأخوة انتهت باستيلاء سانشو على مملكة أخيه
الفونسو ، والقبض عليه (١) عام ١٠٧١ م . ثم سميت شقيقته
اوراكا بالافراج عنه . مقابل أن يصرف الفونسو نظره عن الاشتغال بالسياسة ،
وأن يلبس لباس الرهبان ، وأن يعيش في أحد الديره . على أن الفونسو
لستطاع ومساعدة أوراكا أيضا الفرار من ديريه ، فالتجأ الى بلاط
ملك طليطله ، ومليكمها المأمون بن ذي النون . كما حاول سانشو
الاتحاد على أراضى أخيه غارسيا ملك جليقيه ، واستطاع بعد
حروب ومطاحنات عسكرية أن يقضى على نفوذه ويستولى على مملكته .
مما جعل أخوه غارسيا يفر الى بلاط المعتمد . وبعد ذلك حاول
سانشو الاستيلاء على أملاك شقيقته أوراكا والبيرو . ولكنه قتل
غيلة تحت أسوار طامة مملكة أخيه أوراكا بعد عام واحد فقط
من استيلائه على أملاك أخوينه (٢) .

وعندما قتل أجمع اشراف وكونتات قشتاله على استدعاء
أخيه الفونسو ليتولى حكم مملكة اخيه المقتول . والفعل عاد
الفونسو وأصبح الحاكم المطلق لمملكة قشتاله وليون وجليقيه في نفس عام
١٠٧١ م / ١٠٦٢ م .

- (١) : في موقعة جليجيرا Golpejerra : انظر :
- Jan Read : Op. Cit. , p 102
(٢) : انظر :
- Jan Read : Op. Cit. , p 396
- J. B. BuRy : Op. Cit. , p 395 - 396
- محمد عبد الله عان : دول الطوائف ، ص ٣٨٩ - ٣٩٢ .

أمّا غارسيا فلم ينضم بالعودة الى مملكته ، رغم
أنه قد عاد من منفاه لدى المعتمد ، فقد قبض عليه
شقيقه الفونسو . ويقول J.B.Bury ، ان المعتمد
زود غارسيا بكتيبة من جنده لمساعدته في كفاحه ضد
أخيه مفتصب مملكته . بيد أننا لانعرف متى تم
بعث تلك الكتيبة ؟؟ . كما أننا لم نعثر في الروايات العربية
أما يشير الى شيء من هذا .

وهكذا فقد عاد الفونسو بعد مرور خمس سنوات
من تولي المعتمد السلطة الحاكم المطلق لتلك المملكة الاسبانية
الكبرى كما كانت في عهد والده الملك فرديناند . ولم يشذ عن
ملكه سوى إمارة برشلونه التي كانت تحت حكم أمراءها
من آل برنجير الذين تولوا الحكم فيها من عام ٤٢٦ هـ / ١٠٣٥ م .
بعد القضاء على أسرة بورييل .^(٢)

(١) : Op.Cit. p 396

وانظر كذلك محمد عبد الله خان : دول الطوائف ، ص ٣٩٢ - ٣٩٤ .

(٢) : محمد عبد الله عنان : نفس المرجع ص ٤٠٧ .

جهود الممتمد فى توسيع رقعة دولته

استيلاء الممتمد بالله على قرطبة :-

رأينا قد حدثنا عن استيلاء المعتضد بالله على امارة قرمونة أنه قد استطاع خداع المأمون ابن ذى النون عندما طلب منه أن يكف عن مساعدة البرزالي اميرها ، على أن يطلق يده فى مهاجمة مملكة قرطبة . ورأينا المأمون يفلى حقدا وغيظا لخداع المعتضد له (١) وقد مررنا أيضا كيف استطاع المعتضد بأحابيله والأعيه أن يقرر بعبد الملك بن محمد بن جمهور وموزيه ابن السقاء معا ؟ . وكيف استطاع بد هائه أن يضرب الخصمين ببعضهما ؟ ، وما ترتب على ذلك من احداث مررنا بها من قبل (٢) .

وقعت هذه الاحداث والمعتضد والمأمون بن ذى النون كانا يراقبان تطوراتها . ولكن يبدو أن انشغال المعتضد بالاضاع الداخلية والحروب الخارجية لم يسعفه بفعل أى شئ لاستثمار نتائج خطته الماكرة بعكس المأمون بن ذى النون الذى ركز جهوده لاحتلال قرطبة التى كانت منتهى أمله وغاية مناه .

وتوالت الاحداث بسرعة وتوفى المعتضد عام ٤٦١هـ / ١٠٦٩م وعدها شمر المأمون بأن الجوق قد خلا له بوفاة عدوه القوى اللدود ، فشدد من ضغطه على المدينة وضرب عليها حصارا شديدا .

وكما قد ذكرنا أيضا أن مملكة قرطبة قد غدت مهيضة الجناح ، ضعيفة الشأن تدور فى فلك مملكة اشبيلية وتحتمى بحماها . وعندما اشتد ضغط المأمون على المدينة بعث عبد الملك الى الممتمد بن عباد يستغيثه ويستنجد به . وقد ابى الممتمد هذا الطلب بسرعة ، وجهز جيشا قوامه

(١) : انظر قبل الباب الثانى ، ص ١٤٤ ، ١٨٥

١٣٠٠ فارس بقيادة خلف بن شجاع ، ومحمد بن مرتين . وتوجه هذا الجيش الى قرطبة وعسكر بالجهة الشرقية منها . ومن الطبيعي أن يستشعر المؤمنون الخطر ، إذ أدرك أنه سيقع بين فكي الرحى أى بين القسوات القرطبية التى ستخرج لمهاجمته ، والقوات الاشبيلية المساندة له . ولهذا فقد اضطر الى رفع حصاره عن المدينة . وقد وقعت هذه الأحداث فى السنة الثانية من وفاة المعتضد بالله (١) .

وأثر هذا الموقف النبيل من جانب المعتمد فى نفس عبد الملك بن جهور ، مما جعله يلهث بالشكر والعرفان له . وتهيباً لتوديع الجيش توديعاً يليق به . غير أنه لم يرع والاً ورجال المعتمد يقتحمون أبواب قرطبة ويمتلكونها ، ويدخل على اثرهم الجيش . واستطاع رجال المعتمد أن يحكموا قبضتهم على المدينة ، وأن يحيطوا بقصر الحكم الذى اعتصم به عبد الملك مع جماعته من رجاله الخالص . كما احتس الشيخ ابو الوليد بن جهور بالمسجد مع بناته وحريمه . وقد استبسل عبد الملك فى الدفاع والمقاومة ، ولكن قوات الجيش وجماعة كبيرة من الرعايا والسوقة استطاعت اقتحام القصر وانهابه . فاضطر أخيراً الى طلب الأمان . وهكذا سقطت قرطبة بيد العباديين واستتب الأمر لهم فيها .

واعتقل عبد الملك وأخوه عبد الرحمن ، وأرسلوا مخفورين الى اشبيلية . أما الشيخ ابو الوليد فلم تحفظ له كرامة ، ولم ترع له حرمة رغم مرضه الشديد . وقد أثرت فيه هذه الحادثة كثيراً فيقال (انه لما وسط به قنطرة قرطبة خارجاً منها على مركب هجين ، وحاله تفر عيون الحاسدين ، ورفع يده الى السماء وأخذ يبتهل بالدعاء . فكان مما حفظ عنه قوله اللهم كما أجبت فينا الدعاء علينا فأجب لنا ، ثم مات بعد أربعين يوماً من نكته بجزيرة شلطيح ، مزال النعمة ، مدال الحرمة) (٢) .

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ١٤٩ - ١٥١ .

(٢) : نفس المصدرين السابقين ، ونفس الصفحات .

تلك هي خلاصة أحداث سقوط مملكة قرطبة على يد
المعتمد ابن عباد . والان يحسن بنا أن نقلب هذا الامر على كافة الجوانب
لعلنا نجد تفسيراً لما حدث . فقد اختلف في تفسير أسبابه ودوافع
تلك الحملة ومتى وقعت ؟؟ (١) فالبعض يقول ان هذا الامر كان مبيتاً حسب
خطة سرية وضمت في اشبيلية . اما البعض الاخر فيقول ان ذلك لم يحدث
الا عندما اقلع ابن ذي النون عن قرطبة (فاجتمع بعض اهلها في السر
على ان يخلصوا ابن جهور ويولوا ابن عباد ، فأبرسوا أمرهم وأحكموه ،
وقاموا بأجمعهم لما ضجروا من جور ابن جهور وتعديده هو وحاشيته
السفلة على الناس . وثاروا في صبيحة اليوم الذي اتفقوا فيه مع قواد ابن عباد (٢)

وفي الحقيقة أننا لانستطيع التصديق بأن ذلك التخطيط
كان خبط عشواء ، وانه قد جاء ارتجالاً بهذه السرعة . وهل يمكن
أن يحدث هذا الامر الخطير الا بالتفهم والتنسيق المسبق ؟؟
اننا نجزم بأن للرأي الاول وجاهته وصوابه ، فقرطبة كانت
أمل المباديين جميعاً : القاضي ابو القاسم والمعتضد بعده ، ثم المعتمد .
فقد كان هدف المباديين الاستيلاء على قرطبة مركز الخلافة الروحية ودائرة
الاستقطاب الثقافي والعلمي . وخاصة وأن الخليفة هشام كما يدعون لا زال بينهم ،
ويعتبرون اقامته في اشبيلية اقامة مؤقتة ، فمكانه الطبيعي هو في طلمعة
آبائه وأجداده . ولذلك كان عليهم هم المتبنون لدعوته والمنافحون والمدافعون
عنه أن يعملوا على أن يعود الى طلمعته ليشروعوا من هناك في اعادة سلطته
الخلافية على كافة بلاد الاندلس . نقول ان هذا الخاطر ، وهذا التفكير
كان محور سياسة القاضي ابي القاسم الرئيسية طوال مدة حكمه ، وجزءاً
غير يسير من مدة حكم المعتضد بالله . وعندما توفى المعتضد واشتد ضغط
المأمون ابن ذي النون على مملكة قرطبة ، رأى المعتمد أن ظروف مملكة قرطبة
قد اصبحت سيئة للغاية ، وغدت مستهدفة من قبل مملكة قوية لا تروم

(١) : يميل الى اخذ بهذا الرأي محمد عبدالله غان في كتابه دول الطوائف ، ص ٦١ .

(٢) : ابن عذاري المصدر السابق والجزء ، ٢٥٩ - ٢٦٠ .

الا القضاء عليها ، فبدت له بمشابة تفاحة قد نضجت واستوت وحن
قطافها . ونعتقد أن عبد الملك بن أبي الوليد بن جمهور كان يرى أن خطر
ملكة اشبيلية على مملكة لا يقل أى حال عن خطر مملكة طليطلة عليها ،
رغم روح المودة التى تبدى بها مملكة اشبيلية . ومع ذلك فقد اختار أهون
الشرين وهو الانضواء تحت سلطة مملكة اشبيلية . اما قضية الفتنة المعارضة
لعبد الملك بن جمهور ، فنحن لاننكر دورها فى التأليب عليه ، ومن الجائز
أن انصراف عبد الملك هو وخاصة الى اللهو والترف والمجون قد صرفه عن تركيز
الجهد فى تصريف امور الدولة . مما تتطلبه مواصفات رجل الدولة الحقيقى ،
اضافة الى هذا من الجائز أن حاشية عبد الملك وخاصة قد استغلت داتها
لديه . فأخذت تمرد فى الدولة نهبا وسلبا وظلما . كل هذه العوامل
ألبت عليه النفوس ، وجعلت المخلصين من ابناء البلد يتطلعون بأنظارهم
نحو مملكة اشبيلية التى يشعرون بأنها أصبحت الجديرة بقيادة الاندلس
كلها . فراسلوا المعتمد ونسقوا معه لمساعدته وتسليمه البلد اذا اقتضى
الامر ذلك ^(١) . ويتراءى لنا انه لو لم يطلب عبد الملك المساعدة من المعتمد
لكان ابناء قرطبة قد طلبوها منه . وأما ما قاله ابن الخطيب عن العامة ^(٢)
ومساعدتهم لجيش المعتمد فهم فى ما يجد ولا يعدون أن يكونوا من الافاقين
الذين يستهويهم ركوب الموجة المنتصرة أيا كانت .

وأيا ما كان الأمر ، فقد دخلت قرطبة وأحوازها فى طاعة
ملكة اشبيلية . واستطاع المعتمد بذلك أن يوسع رقعة دولته بالاتجاه
شرقا فى الجزء الجنوبى من الاندلس الاسلامية . واستطاع ايضا أن يحقق
حلمه عجز عن تحقيقه ابوه وجده من قبل . وغدت دولته تشير خوف
ورعب بقية دويلات الطوائف . وقد سر المعتمد بهذا الفتح المبين سرورا ^(٣)
بالفا جعل شاعريته تهتز فنظم فى ذلك ابياتا يمجده فيها فتحه لقرطبة .

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٢) : اعمال الاعلام ، ص ١٤٩ - ١٥١ .

(٣) : ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ١٢ .

وقد ولى المعتمد ابنه سراج الدولة عباد حكم مدينة قرطبة ، على أن يساعده فى تدبير أمورها قائده ابن مرتين .

وهكذا كانت الاندلس تعيش آنذاك وقتا عصيا ، وظرفا دقيقا البقاء فيه للأقوى . تغيرت فيه المفاهيم وتبدلت الى درجة سحيقة من الاحتلال الدينى والتسيب الأخلاقى ، واثبتت الشريعة التى تحكم تصرفات ملوك الطوائف آنذاك هى شريعة الفاب ، وشريعة السمك الذى يأكل فيه الكبير الصغير . وبات غير مستنكر أن تجتاح مملكة كبيرة مملكة أخرى ضعيفة مودعة مسالمة . ولقد شهد عصر المعتمد بالله بالذات ظاهرة سقوط أكثر من مملكة على يد مملكة أخرى ، ومن ثم زوالها عن الوجود . لقد سقطت مملكة مرسية بعد مملكة قرطبة — ذلك السقوط الذى سنعرض له قادمًا — وسقطت مملكة دانية التى أسسها مجاهد الحامرى على يد بنى هود ملوك سرقسطة ، وكانت مملكة بلنسية قد سقطت قبل ذلك فى عهد المعتضد بالله .

ومن أسف أن ذلك الاجتياح والاحتلال لتلك الامارات والممالك لم يكن نابعا عن شعور قومى أو دينى يهدف جمع الشمل . ونبيذ الفرقة والتجزؤ . لو حدث هذا لكنا التمسنا عذرا لتلك الحروب المدمرة وما نتج عنها عادة من مضار وأذى لفئات الشعب فى تلك الممالك . ولكن الخزى ... كل الخزى أن ذلك الاجتياح والاحتلال إنما كان يتم لأسباب ذاتية ومطامع أنية ، يمكن أن نصفها بكل الاوصاف والنعوت ما عدا الحرص على المصلحتين القومية والدينية .

ومهما يكن من أمر فقد استقرت قرطبة لبثى عباد وأسلمت لهم زمامها ، ولكن العباديين لم يستطعوا الاحتفاظ بها طويلا . وتكرر هنا درس مدينة مالقة التى خرج منها الجيش العبادى بقيادة المعتمد نفسه آنذاك مضطرا مقهورا . وإن كان هناك اختلاف فى المدة التى لبث فيها العباديون فى قرطبة هذه المرة . فقد طالت الى خمس سنوات ثم اخرجوا

عنها ثم أعيدت ثانية لهم . والحقيقة ان مما يصاب على المباديين هو تفريطهم في استثمار نتائج جهودهم وأعمالهم التي اقيمت بالعرق والكسب والقوة والخذاع . لذلك نراهم يفرطون في تلك المكاسب بسياسة اللامبالاة وعدم الاكتراث ، والانصراف الى اللهو والمجون . وهذا ما حدث بالضبط في تلك الحادثتين اللتين تركتا في قوة وكرامة المباديين أثرا لا يحى . أعنى بها حادثتي مالقة المذكورة سابقا ، ثم حادثة قرطبة هذه .

خروج قرطبة عن سلطة بنى عباد :-

فابن المعتد الملقب بسراج الدولة كان وقتها فتا يافعا لم يتعد طور المراهقة بعد . وكان من الطبيعي أن يسمى الى استئناف حياة اللهو والدعة والرفاهة التي كان أبوه وأترابه يحيونها في بلاط اشبيلية . ولم يكن قائد الجيش الوزير ابن مرتين بأحسن حالا من أميره الفتى ، فانصرف الاثنان يعبان من رحيق اللهو والمجون ما شاء لهم وطاب دونما ادراك للمسئوليات والتبعات .

استمر احتلال بنى عباد لقرطبة من عام ٤٦٢ هـ حتى عام ٤٦٧ هـ / ١٠٧٠ م حتى عام ١٠٧٥ م . وكانت هذه الفترة سائحة عظيمة للمأمون بن ذى النون لجبك المؤمرات وتدبير الحيل للانتقام من المباديين ، والظفر بقرطبة التي كانت قاب قوسين أو ادنى منه . ولذا فقد استمال اليه رجلا يدعى حكيم ابن عكاشه ، وكان يلى بعض الحصون المجاورة لقرطبة من قبله أى من قبل المأمون . وابن عكاشه هذا كان رجلا من اتباع الوزير ابن السقاء ، وعندما قتل ابن السقاء كما مر بنا فر هذا الرجل الى طليطلة ولجأ الى مليكها المأمون ، فوله هذا أحد الحصون القريبة من قرطبة^(١) . ولهذا فقد نسق المأمون معه على أن يعمل الى اجلاء المباديين عن قرطبة وضمها الى مملكته . وأباح له من المال ما يكفي لتدبير أمر ذلك من سلاح وشراء للذمم والضماير . واستطاع هذا أن يحكم اتفاقه مع عدد من الأعوان من الحراس وغيرهم في المدينة . وقد لفتت هذه الاستعدادات

(١) : ابن الأبار : الحلة السراء ، ج ٢ ، ص ١٧٦ - ١٧٧ .

والتحركات المشبوهة نظربعض الحراس المواليين للدولة ، فأبلغوا ابن مرتين بأن هناك شيئا يدبر فى الخفاء ، بل يقال أنهم أبلفوا الامير عباد نفسه . فلم يهتمما بالأمر بل ان ابن مرتين كما يذكر ابن الخطيب قد كذب الخبر واستهان به^(١) .

وعندما استكمل ابن عكاشة وضع الخطة ، وتحددت ساعة التنفيذ اقتحم برجاله المدينة ليلا بعد أن فتح له الاعوان بعضا من الأبواب . ولن نمضى فى تفاصيل تلك الاحداث ، فما يهمنا هنا هو أنها قد انتهت بمقتل الامير سراج الدولة عباد وقائده ابن مرتين . ونادى ابن عكاشه بالطاعة لابن ذى النون ، واستقرت له الأمور بعد هذا واستتبت . ومع ابن عكاشه برأس ابن المعتمد الى المأمون فى بلنسية^(٢) . ويقول ابن الخطيب (وخطب ابن ذى النون ، فتلاحق بقربطبة قد دخلها فى أبهة عظيمة ، وأخذ بيمة اهلها ، وكان وصوله اليها من بلنسية يوم الجمعة لخمس بقين من جمادى الاخرة سنة ٤٦٧ هـ) كل هذه الاحداث لانجد دافعا الى تكذيبها والشك فيها ، ولكن ما نستغربه بشده هو أن لا يكون بالمدينة جيش يدافع عنها . أفيعقل ألا يكون هناك جيش للدفاع عنها ؟؟ ان المؤرخين لم ينقلوا لنا من احداث تلك الاشتباكات الا مقتل عباد ابن المعتمد ووزيره ابن مرتين وعدد قليل من الانصار فقط . مما يدل على انه لم تكن هناك قوة عسكرية فى المدينة تحميها من غديات المعتدين . حتى لو تحققنا من وجود قوة صغيرة فقط لتولى شئون الأمن الداخلية . فان هذا يعد خطأ سياسيا وعسكريا كبيرا يضاف الى جملة اخطاء المعتمد الاستراتيجية الأخرى . ومع هذا فمن المحتمل أن يكون هذا التفسير راجعا الى حياة اللهو التى انغمس فيها سراج الدولة هو ووزيره .

وقد نزلت هذه الاحداث على المعتمد نزول الصاعقة ، فأذهلته

وأوجعته ، ولكنه تماسك واستجمع قواه .

(١) : اعمال الاعلام ، ص ١٥٨ .

(٢) : ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ١٥١ .

(٣) : نفس المصدر والصفحة .

عودة قرطبة الى حظيرة الدولة العبادية الثانية :-

يقول الفتح ابن خاقان في وصفه لحالة المعتمد تلك
(وشغل المعتمد عن رثائه بطلب ثاره ، ونصب الجبائل لوقوع ابن عكاشه
وعثاره ، وعدل عن تأبينه الى البحث عن مفرقه وجبينه . فلم تحفظ له فيه
قافية ولا كلمة للوعه شافية (١))

وهكذا فقد أخذ المعتمد يعد العدة لاسترجاع قرطبة
والثأر لولده وكرامته في نفس الوقت . أما المأمون ابن يحيى فلم ينعم
طويلا بالتربع على عرش قرطبة إذ ما عثم أن (أهل بقرطبة وتوفي فيها
لاثنى عشر ليلة بقيت من ذي القعدة سنة ٤٦٧) (٢) ويقول ابن خلدون
انه قد مات مسموما . ولاستبعد أن يكون ذلك قد تم بتدبير من ابن
عكاشه . فالملاقات بين الرجلين كان يسودها حالة من الفتور والجفوة .
ولابد أن ابن عكاشه قد لمس اثر ذلك في نفس المأمون ونظراته له (٤) ، فأعجل
بالتدبير عليه ، ولا تصور في أنه كان للمعتمد يد في مقتله ، طالما لم يكن هناك دليل (٥)

ومهما يكن من أمر فقد أعلن ابن عكاشه تبعيته ليحيى
ابن اسماعيل بن المأمون الملقب بالقادر حفيد المأمون المذكور ، وخليفته
من بعده (٦) .

(١) : قلائد المقيان ، ص ١٢ - ١٣ .

(٢) : ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ١٥٨ - ١٥٩ .

(٣) : العبر ، مجلد ٤ ، ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .

(٤) : يقول على اد هم ان المأمون (كان في صميم نفسه يخشى هذا اللص المخامر
التمرس بالجرائم ، وكان يرى أن من تناول على قتل الامراء وابناء الملوك
لا يؤمن شره ، ولذلك شرع يتحين القرم للخلاص منه ، ولم يستطع كتمان
ذلك عن حاشيته . ففي ذات يوم دخل عليه ابن عكاشه فرحب به وادناه
وهش له . فلما خرج تنفس الصعداء وأتبعه نظرة شوها ، وهينم
بكلمات نال بها منه ، ولما سأله أحد رجال حاشيته عن سبب ذلك
قال : من اجترأ على الملوك لا يصلح للملوك .)

انظر ، المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

(٥) : أشار ليفي بروفنسال الى امكانية ذلك .

انظر : الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ١٢٩ .

(٦) : ابن الابار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٧٦ - ١٧٧ .

ويبدو أن أهواء أهل قرطبة كانت تميل الى الانضواء تحت سلطة المباديين رمز الأرستقراطية الأندلسية ، بل لنقل رمز العنصر العربي كله في وجه البربر . فليس خفياً أن بنى ذى النون وإن كانوا قد تمسكوا إلا أنهم يعودون الى أصل بربرى . بالاضافة الى أنه من الصعب على أهل قرطبة الاطمئنان الى جانب مناصر أفاق لاخلاق له تجراً على قتل الملوك كما يقول المأمون بن ذى النون نفسه الذى ذهب ان صحت رواية ابن خلدون ضحية تدبيره . نقول من الصعب على أهل قرطبة الاطمئنان اليه ، لذلك فقد راسلوا المعتمد يعلنون له عن رغبتهم الصادقة فى عودة سيطرته على مد ينتهم ، ويتعهدون بمساعدته وتقديم يد العون له (١) ولهذا فقد جهز المعتمد بعيد موت المأمون المفاجئ بفترة وجيزة جيشاً (٢) توجه الى قرطبة ، واستطاع بمساعدة أهلها أن يقتحم المدينة ويحتلها .

(١) : أورد صلاح ^{خالص} رسالته كتبها المعتمد يشرح فيها تفاصيل وظروف استعادة قرطبة ،

توضح تماماً ما ذهبنا اليه من أن أهل قرطبة كانوا يميلون الى عودة سلطة

بنى عباد الى مد ينتهم ويتعهدون بمساعدته ومعاونته . وتشير تلك الرسالة الى أن تلك الفئة التى ساعدت ابن عكاشه لم تكن الا فئة ضئيلة الشأن قليلة العدد ، مأجورة مسخرة لا يعتد بها .

انظر : المعتمد ابن عباد الاشبيلي ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٢) : نميل الى تأييد ما ذهب اليه صلاح خالص من تصحيح لتأريخ استعادة

المعتمد لقرطبة . وذلك فى تصحيحه لما أورده عبد الواحد المراكشى الذى

قال بأن ذلك قد حدث طم ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م . وتبعه فى ذلك بعض

المؤرخين المحدثين الذين تناولوا شرح احداث تلك الفترة ، كدوزى ،

وعلى أدهم ، وعبد الوهاب عزام . وذلك لان ابن الخطيب فى كتابه

اعمال الاعلام اشار الى أن استعادة قرطبة قد وقعت بالتحديد فى

٢٧ ذى القعدة طم ٤٦٧ هـ (١٤ يوليو ١٠٧٥ م) لاتشير فى قليل

أو كثير الى أن المعتمد ظل يحاصر قرطبة ثلاث سنوات قبل أن يقتحمها .

انظر : المعجب ، ص ١٨٩ - ١٩٠ . اعمال الاعلام ، ص ١٥٩ .

صلاح خالص : المعتمد ابن عباد الاشبيلي ، ص ١٢٨ - ١٢٩ . دوزى ،

المرجع السابق ، ص ٢٣٧ . على أدهم ، المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

عبد الوهاب عزام ، المرجع السابق ، ص ٩٤ .

وقد حاول ابن عكاشه الفرار ، الا أن رجال المعتمد قبضوا عليه وجيء به الى المعتمد فقتل وصلب مع كلب امعانا في التشفى والتنكيل . وسقط المعتمد اثر ذلك سيطرته على اجزاء مهمة من مملكة طليطلة تشمل جميع ممتلكاتها بين نهر الوادى الكبير ، ووادى آنه . وقد عهد المعتمد بأمر قرطبة لابنه المأمون الملقب بالفتح^(١) والذي بقى حاكما لها حتى مجيء المرابطين وقتله على يد يهم كما سنتناوله قادم ان شاء الله .

كما امتدت حدود مملكة اشبيلية الى مدينة لورقة التابعة لمملكة المرية ، فقد انشق صاحبها عن المعتصم بن صمادح أمير المرية ، ثم اعترف بالطاعة للمعتمد ابن عباد . وقيمت المدينة فى حوزة ملكة اشبيلية حتى سقوط دولة بنى عباد على يد المرابطين كما سيأتى .

ظهور الوزير محمد بن عمار على المسرح السياسى ودوره فى توجيه جهود المعتمد نحو التوسيع :-

كانت الاحداث التى عرضنا لها فى حديثنا عن جهود المعتمد بالله للاستيلاء على قرطبة وما تبعها بعد ذلك من احداث اخرى . نتيجة لسياسة وضعها المعتمد بمفرده كما رأينا . أما الجهود الاخرى للمعتمد فى توسيع رقعة دولته ، فقد كانت نتاج سياسة وضعها وزيره محمد بن عمار ، وأقره عليها المعتمد بعد ذلك .

وفى الحقيقة لقد ارتبطت سياسة اشبيلية الخارجية فى عهد المعتمد بمحمد بن عمار الذى طبعها بطابعه الخاص ردا على غير يسير من الزمن حتى لنكاد لانجد غضاضة من أن نوافق من يدعو سياسة المعتمد الخارجية بسياسة محمد بن عمار^(٢) . اذ لمب دورا رئيسيا فى توجيه سياسة

(١) : ابن خلدون : المصدر السابق ، ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .

هذا ما يقوله ابن خلدون ، اما عبد الوهاب عزام فى كتابه المذكور سابقا كثير من الخلط فى تحديد السنوات ، وتحديد من من أبناء المعتمد تولى شأن قرطبة أول مرة ، وكذلك بعد عودتها الى المعتمد ثانية .

انظر : المرجع السابق ، ص ٩٤ ، وص ٩٦ - ٩٧ .

(٢) : كصالح خالص فى كتابه : محمد بن عمار الاندلسى ، ص ٨٥ .

المعتمد الخارجية ورسم خطوطها • وأسم محمد بن عمار قد لا مس أسماغا
فى حد يثنا عن المعتضد بالله ، وأيناه يدبج القصائد فى تمجيد المعتضد
والاشادة بأعماله وفتوحه كما مر بنا سابقا ، لذا فنحن ملزمون باستجلاء
بداية رحلته نحو السياسة الاشيلية وبداية العلائق بملوكها •

ينتمى محمد بن عمار الى أسرة عادية من طمة الناس
فى المجتمع الاندلسى ، ولد فى قرية من أعمال مدينة شلب تدعى شنبوس ،
ويكنى بأبى بكر ، وقد شب فى مدينة شلب الواقعة فى غربى الاندلس
وتلقى علومه فى الدين والادب على يد رجالها وشمرائها • وقد بدأت مزايل
الادب ، وبذور الموهبة الشعرية تصبغ حياته مذ رحل الى قرطبة حيث اختلط
بالصفوة من ادبائها وعلمائها ، فصقل ذلك شاعريته وفجرها ^(١) • ومن قرطبة
بدأ رحلته فى التسيار فى اقاليم الاندلس مادحا ، مشيدا متكسبا (لا يخص
بمدحه الملوك دون غيرهم ، بل لا يبالى ممن أخذ ولا ممن استعطف من
ملك او سوقه) ^(٢) •

وقد أسر سحر بلاط المعتضد واشراقه لب ابن عمار •
فألقى على التسيار فى طمته بعد طول تجوال فى ممالك الاندلس •
وفى اشبيلية ألقى بين يدي المعتضد قصيدته الرائية المشهورة التى أشرنا
اليها سابقا ، والتى لاقت من المعتضد الاعجاب والاستحسان • فأمر بأن
يكتب فى ديوان الشعراء وأن ينتظم فيه ^(٣) •

وفى بلاط المعتضد انعقدت أواصر صداقة متينة بين ابن عمار ،
وبين ابن المعتضد وولى عهده الفتى محمد الملقب بالمعتمد فيما بعد •
وكان توثق العلائق الوشائية السريع جدا بين الاثنين مشار تساؤل
واستعجاب • وفى الحقيقة فقد كانت هناك خلال وصفات جمعت بينهما •
فكلاهما كان شابا يافعا وان كان ابن عمار يكبر المعتمد بتسع سنوات • اضافة

(١) : عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٧٢ - ١٧٣ •

(٢) : نفس المصدر ونفس الصفحات •

(٣) : نفس المصدر ، ص ١٧٣ - ١٧٦ •

الى هذا كانت تربط بين الاثنين صفة جامعة مشتركة هى نظم الشعر وتذوقه • ولا خفاء فى أنه كان للشعر فى العصور الاسلامية دور رئيسى لافى حياة الشعب فحسب بل وفى حياة الدول والممالك ايضا • فالشعر عدا كونه أهم وسيلة للاعلام الرسمى والشعبى فى تلك العصور ، وهو ما تمثله اليوم الصحف والمجلات والاذاعة الصوتية والمرئية ، فانه كان الوسيلة الاكثر فاعلية فى التعبير عما يختلج فى النفس البشرية بكل حالاتها وتطلعاتها وآمالها وآلامها وأتراحها وأفراحها • ومن هنا نستطيع القول بأن نظم الشعر وتذوقه الذى يجمع بين ابن عمار والمعتد كان الرابطة الأوثق فى الجمع بينهما • وعدا هذا وذاك كان الاستعداد الفطرى للهو والمجون والانسياق وراء اللذات الذى يجمع بين الاثنين صفة ثالثة تقرسهما لبعضهما بعضا •

والواقع أننا نستطيع أن نلمس قواسم مشتركة بين الصديقين شدتهما ببعض ، ووثقت علائقهما بدرجة تذكرنا بالعلاقة التى كانت قائمة بين هارون الرشيد وجعفر البرمكى • وقد أفاض المؤرخون القدامى والمحدثون (١) فى وصف تلك العلاقة التى كانت بين المعتد وابن عمار ما يعفينا عن الاسهاب فى التحدث عنها •

ويكفى أن نورد لعبد الواحد المراكشى وصفه لتلك العلاقة اذ يقول (ثم تعلق بالمعتد على الله ، وهو اذ ذاك شاب ، فلم تنزل حاله بتزديد ، وتوالت خدمته له تقوى وتأكّد الى أن صار ابن عمار اقرب اليه من شعيرات فصته ، وأدنى اليه من جبل وريده •) (٢)

وعندما استطاع المعتد أن يسطر سيطرته على اماره شلب طم ١٠٦٣ هـ / ١٠٦٣ م ، ولى ابنه المعتد ولايتها • وقد استدعى المعتد اثر ذلك صديقه وأليف روحه محمد بن عمار اليه فى شلب ، وعهد اليه بالوزارة ، وشهدت أيامهما فيها الكثير من مغامرات الصبا وبعث الفتوة

(١) : من المؤرخين القدامى الذين افاضوا فى الحديث عن ابن عمار وعلاقته بالدولة العبادية : ابن بسام ، وابن الابار ، والمقرئ • ومن المحدثين صلاح خالص الذى ألف مؤلفا سماه : محمد بن عمار الاندلسى ، وكذلك ثروت اباظه الذى ألف كتابا بهذا العنوان •

(٢) : المصدر السابق ، ص ١٧٦ •

(١) واليفاعة ظلت ماثلة في ذهن المعتمد حتى بعد توليه الملك .

على أننا ما نلبك أن نفاجأ بالمعتضد يأمر بالتفريق بين ابنه وصديقه ولصيق روحه كما يقول عبد الواحد المراكشى . ولا يهمننا هنا تتبع ما حدث هناك ، فالواضح أن ثمة مسلك مشين كان يسلكه الصديقان في شلب ، جعل المعتضد يضيق جدا من الاشاعات والاقاويل التي تلوكتها الألسن عنهما . فأمر بالتفريق بينهما ، يقول صاحب المعجب (وساءت السمعة عنهما فاقضى نظر المعتضد التفريق بينهما ، ونفى ابن عمار عن بلاده حسبما تقدم الايماء اليه ، فلم يزل ابن عمار مغتربا في اقاصى بلاد الاندلس الى أن توفى المعتضد بالله) (٢)

وعلى أية حال وكم تبغى أحداث وتاريخ لا يهمننا من تفاصيل اغتراب ونفى ابن عمار الا القدر الذى يرتبط بموضوعنا فقط . وعلى هذا فنحن لانجد من تلك التفاصيل الا ما يشير الى القصائد التي بعثها ابن عمار من منفاه للمعتضد ، وابنه المعتمد مسترحما مستعطفا متبرما متأفقا . وعند ما توفى المعتضد تبسم فم الزمان لابن عمار ، فها هو صديقه ورفيق درب اللهو والاستمتاع بالذات يصبح الرجل الاول فى الدولة . وبالفعل لم يخب المعتمد لصديقه رجاء ، (فاستد طه المعتمد وقربه أشد تقريبا حتى كان يشاركه فيما لا يشارك فيه الرجل أخاه ولا أباه) (٣)

(١) : بحث المعتمد الى صديقه محمد بن عمار واليه على شلب بقصيدة يتشوق فيها الى الايام السعيدة التي قضياها فى تلك المدينة . وفى هذه القصيدة يقول :

ألا حى أوطانى بشلب أبا بكر وسلمن هل عهد الوصال كما أدرى
ويقول فيها ايضا :

ليال بسد النهر لهما قطعتها بذات سوار مثل منعطف البدر
أنظر ابن الأبار : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٣٢ .

(٢) : عبد الواحد المراكشى ، ص ١٧٦ .

(٣) : عبد الواحد المراكشى ، نفس المصدر ، ص ١٧٦ .

وقد قيل في وصف صفات ابن عمار الكثير ٠٠٠ الكثير
يعنيها ما اتفق عليه المؤرخون من أنه كان مغامرا انتهازيا وصوليا ذا اطماع
ومطامح واسعة ، وذا شخصية قوية نافذة متسلطة . كما يهمننا من تلك
الاصاف ما اتفقت عليه الكلمة من أنه كان سياسيا داهية ، ودبلوماسيا مخنكا (١)
اتضحت معالم تلك الصفات وبرزت عند ما تمنى ابن عمار على ملكه وصديقه
أن يعهد اليه بحكم ولاية شلب (وهي بلده ومنشأه كما تقدم ، فأجابه
المعتمد الى ذلك وولاه اياها أنبه ولاية جعل اليه جميع أمورها ، خارجها
ودواخلها . (٢)

ويبدو أن افتقار المعتمد لساعات الانس واللذة اللتين كان
يحياهما الصديقان قد أذكت في نفس المعتمد شوقا مبرحا (٣) ، جعله يبحث
الى صديقه ويستدعيه الى اشبيلية حيث هو ، فيمضيه عن شلب ويعهد اليه
بمنصب اهم ومركز اخطر وهو الوزارة (٤) .

وسنألف منذ الان فطالعا التعامل مع لقب الوزير ابن عمار
الذي غدا المهيمن الرئيسى على السياسة الخارجية الاشبيلية والموجه لها ،
ولاندري في الحقيقة تماما ما كان عليه الامر وقتذاك في الدولة وفي منصب الوزارة
بالذات . فمن نصرف أنه كان هناك وزير ذو أهمية بالغة في دولة اشبيلية ،
ونعنى به الوزير الشاعر ابن زيدون . واذا كنا لم نشر للوزير ابن زيدون
وأعماله في عهد المعتمد وهو الذى كان وزير دولته ، فذلك لاننا قد آثرنا
التحدث عنه عند حديثنا عن الحياة الادبية قادمنا من جهة ، ولكون شخصية
المعتمد النافذة المتسلطة لم تكن تسمح لبروز أى نفوذ أو سيطرة لأى من
كان مهما بلغت مكانته من جهة أخرى . نقول اننا لم نستطع معرفة صلاحيات
الوزير ابن زيدون ، كما لم نستطع معرفة ما يخص ابن عمار منها أيضا .

(١) : انظر ، صلاح خالص : محمد ابن عمار الاندلسى ، ص ٧٥ - ٨٢ .

(٢) : عبد الواحد المراكشى ، ص ١٧٦ .

(٣) : يرى صلاح خالص في كتابه المذكور اعلاه ، ص ٨٣ - ٨٤ أن عودة ابن عمار
من شلب الى اشبيلية لم تكن تنم عن اسباب طائفية وانما كانت لاسباب سياسية
تخدم كليهما .

(٤) : عبد الواحد المراكشى : نفس المصدر السابق ، ص ١٧٦ .

ولكن ما نستطيع الجزم به هو التأكيد على المكانة العالية الرفيعة التي بلغها ابن عمار (١) وأن المعتمد لم يزل يعده لكل أمر جليل ويؤمله لكل رتبة عالية ، وكان ابن عمار لا يناط به أمر الا اضطلع به وكان فيه كالمسكة المحماة (٢) .

على أن اخطر ما اضطلع به ابن عمار في عهد المعتمد هو مداخلاته وصدقاته وسفاراته مع أمراء وملوك النصارى فى اسبانيا . فقد اتفق على الاشادة بسياسته تلك وصدقاته ومداخلاته التي رسمها لتحقيق ما يطمح اليه هو أولا من صيت وشهرة ومجد ذائع - وهو ما نجح فيه - ثم تحقيق رغبات المعتمد وتطلعاته فى التوسع ثانيا (٣) وفى الحالتين كان هو المستفيد الاول ، ونستشهد هنا بعبد الواحد المراكشى فى وصفه لمكانة ابن عمار (وشهر امره ببلاد الاندلس حتى كان ملك الروم الاذفنش اذا ذكر غده (٤) ابن عمار قال : هو رجل الجزيرة) .

وما دنا بصدد الحديث عن دور ابن عمار فى رسم السياسة الاشبيلية تجاه الممالك النصرانية ، فلا يمكننا الا أن نقرباً أن سياسة الوزير ابن عمار هذه كانت تقوم على مبدأ سياسى واضح هو توثيق الروابط

(١) : يرى بعض المحدثين كصلاح خالص وغيره أن ابن عمار استطاع بد هائمه أن يتخلص من غريمه وشريكه فى الوزارة الاشبيلية ابن زيدون باقناع المعتمد بضرورة بعثه الى قرطبة لخماد ثورة اليهود التي قامت هناك . وكان يقصد من ذلك ابعاده عن ملكه ليخلو له الجو ويحتكر صداقته ، الا أن الارادة الالهية شاءت أن تزيج ابن زيدون عن طريق ابن عمار ، اذ لم يلبث ابن زيدون أن توفي طم ٤٦٣هـ / ١٠٧١ م . بعد قليل من بدء مهمته . انظر ، محمد ابن عمار الاندلسى ، ص ٧١ - ٧٣ . دائرة المعارف الاسلامية ، ج ١ ، ص ١٨٦ - ١٨٧ ، وص ٢٤١ - ٢٤٢ (مادة ابن عمار) .

(٢) : عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٧٨ .
(٣) : نفس المصدر ، ص ١٧٨ - ١٧٩ .
(٤) : الاذفنش : الاسم المعرب لألفونسو السادس ابن فرناندو الاول الذى تدور الحوادث التى سبقت موقعة اللقنة بينه وبين المرابطيين ،

وتأكيدهما مع ممالك النصارى وخاصة مملكة قشتالة ومليكنها ألفونسو السادس الذى بلغ من خطره السياسى والعسكرى أن أصبح كما يقول صلاح خالص الوحيد القادر على فرض رأيه ووجهات نظره فى الصراع القائم بين ملوك وأمراء الممالك الإسلامية^(١) . ولذا فقد كان ابن عمار يدرك أنه لكى يحقق مشاريع مليكنه وما تعود عليه هو ثانيا من فوائد شخصية بعد هذا ، عليه أن يوثق علاقته مع الملك القشتالى وحده . فكان من الطبيعى أن تتعقد أو أصر صداقة مقبنة بينه وبين ألفونسو السادس دفعت فى الواقع كثيرا من الاشكال والمصائب عن مملكة اشبيلية بفضل تلك الصداقة . ويورى لنا عبدالواحد المراكشى قصة^(٢) رواية طريفة تقوم على خدعة ذكية خلاصتها أن ابن عمار استطاع فى وقت من الاوقات التى كان الفونسو يشدد فيها ضغطه على اشبيلية ، استطاع بفضل تلك الخدعة الذكية التى مارسها مع الفونسو أن يرد الهجوم الكاسح الذى كان الفونسو يبيتة ضد اشبيلية . ولكنه لم يفعل ذلك الا مرغما وبعد أن ضاهف له ابن عمار الجزية السنوية المقررة على اشبيلية .

كما أن مما يشهد لابن عمار بالبراعة السياسية قول عبدالله ابن زيرى ملك غرناطة عنه (ولانه قد استمال النصارى واندخل معهم بحيلة ، فمتى داهمه أمر من قبلهم وجهته اليهم فينجلى من أمرهم ما يضيق الصدر به)^(٤) .

على أن مما يشهد لابن عمار بالبراعة السياسية الفاتحة أيضا أنه كان فى مفاوضاته الشاقة مع النصارى لا ينساق اطلاقا فى التفريط لهم فى الاراضى . وانما كان يضحى لتفادى ذلك بأموال جسيمة باهظة^(٥) . وهذا ما يؤكد ما ورد فى قصة عبدالواحد المراكشى .

== والحوادث التى أعقبتها بعد ذلك حول شخصه . وهو الذى تدور حوله أيضا علاقات ملوك الطوائف فى عهد المعتمد بالله مع مملكة قشتالة .

- (١) : محمد ابن عمار الاندلسى ، ص ٧٦ .
- (٢) : المصدر السابق ، ص ١٧٨ - ١٨٠ .
- (٣) : المقصود به المعتمد .
- (٤) : التبيان أو مذكرات الامير عبدالله بن بلقين بن زيرى ، ص ٧٦ .
- (٥) : صلاح خالص : محمد ابن عمار الاندلسى ، ص ٨٦ .

سياسة الوزير ابن عمار تجاه مملكة غرناطة : —

قبل أن نحدد طبيعة هذه السياسة وما نتج عنها من أحداث ،
يجدر بنا أن نلمح نكتة من أحوال مملكة غرناطة ، وشئ من طبيعتها
العلاقات بينها وبين مملكة أشبيلية حتى يكون تناولنا للأحداث طبيعياً
وموضوعياً . .

قلنا أن مملكة غرناطة كان يحكمها غداة تولي المتمدد السلطة
باديس بن جوس الصنهاجي . وذكرنا أنه خرج من محناته ومشكلاته
الداخلية كأقوى ما يكون ، إلا أنه توفي بعد هذا في عام ٤٦٥ هـ / ١٠٧٣ م ،
بعد حكم استطال إلى أكثر من ثلث قرن . ورغم أنه قد ترك أبناً يدعى ماكسن ،
إلا أنه لم يعهد إليه بولاية العهد لسوء سيرته ، ولخروجه
عليه ، ولم يدم أهليته لذلك . ولذا فقد عهد بمملكته إلى
حفيد محمد بن بلقين وأخيه تميم بن بلقين ، على أن
تكون العاصمة غرناطة وذواتها لعبد الله ، وما لقه إلى أخيه الأكبر
تميم الذي كان يتولاها منذ عهد جده (١) .

ولن ندخل في تفاصيل أخبار مملكة غرناطة ، فما يهمنا
هو الإشارة إلى أن عبد الله بن بلقين الذي خلف جده على
مملكة غرناطة كان يفتقد إلى كثير من صفات جده التي أستطاع بها
حفظ أطراف مملكته ، والمحافظة على دولته قوية مرهونة
الجانب داخليا وخارجيا . فلقد كان ضعيف الشخصية منها لكان
رغم ما حاول رسمه عن نفسه في مذكراته الوثائقية المعروفة بالتبيان
والتي نشرها ليفي بروفنسال بعنوان : مذكرات الأمير عبد الله .
وكان بجانب ذلك صفير السن لم تعمره التجارب ، وتصله السنون
بعد . .

وقد حاول المتمدد أن يستأنف معه الدور الذي مارسه
أبوه وجده من قبل مع البربر عموما . ونحن هنا في هذا
الصدد لا نميل إلى الأخذ بما ذهب إليه محمد عبد الله عن

(١) : محمد عبد الله عن : دول الطوائف ، ص ١٣٩ ، ص ١٤٢ .

فى تفسيره لسياسة العباديين مع البربر التى تقوم كما يقول على
التوجس منهم والقضاء على سلطانهم • أذانه يعلل سبب
هذا الصراع بأنه صراع حضارى بين العرب الذين يمثلهم العباديين ،
والبربر فى الأندلس عموماً • فتحين لا نميل إلى أخذ هذا
التعليل فى الاعتبار ، ذلك لأن الصراع كان أبعد ما يكون عن أن
نفسره بأنه صراع حضارى محض • كما أننا لا نزعجهم بأن
العباديين قد نصبوا أنفسهم القوة العربية القابلة للقوة
البربرية • ومعنى آخر أن العباديين لم يكفوا ينظرون إطلاقاً
إلى صراعهم مع البربر بمنظار عصى يدو كمحور لسياسة رسمية •
فبنو عباد سبق لهم أن ثلوا عروش أمارات عربية صميمه • ولا نزعجهم
أيضاً أنهم كانوا يطلعون فى فتوحاتهم وتوسعاتهم من منظار قومى
يهدف إلى تضيق الشقة ويدعو إلى الوحدة وعدم التجزؤ حتى لو
كان ذلك بالقوة المسلحة إذا اقتضى الأمر ذلك • فسياستهم لم تكن
إلا سياسة أشبيلية محلية فقط تهدف إلى بسط سيطرة مملكة
أشبيلية على كل بلاد الأندلس بأخبار أن حكامها مفوضين من
قبل الخليفة هشام المزعوم كما يدعون لقيادة الأندلس كلها •
وعندما مات الخليفة المزعوم عهد إلى المعتضد كما يقولون أيضاً لأن
يكون أميراً على الأندلس كلها من بعده • (٢)

ولهذا كله أنطلق العباديون فى جهودهم لتوسيع رقعة
دولتهم لا يبالون بالأقدام على فعل أى شئ يوصلهم إلى هدفهم المنشود •
ومن حق النزاهة التاريخية علينا هنا أن نشير إلى أن المعتمد
رغم أنه كان يختلف عن جده وعن أبيه من حيث الفلظة والقسوة
والجبروت ، إلا أنه كان أكثرهم انتهازية ووصولية • فقد سمح لنفسه
بمدارة النصارى ، والامتر منه الاستعانة بهم ضد أخوانه من
المسلمين لتحقيق أغراضه • وهو أمر بالغ الخطورة والخزى
خلت صحيفة أبيه وجده من معرفته •

(١) : المرجع السابق ، ص ٦٢ - ٦٣

(٢) : أنظر قبل ، ص ١٣٨

وعلى أية حال فقد استمد المعتمد لتوسيع رقعة دولته على حساب مملكة غرناطة جارتها من الجنوب الشرقى . أن رأى هو ووزيره ابن عمار أن مملكة غرناطة قد وصلت إلى غاية من الضعف والخور مثلها مثل مملكة قرطبة . ورأيا فيها أيضا تفاعلة قد نضجت وحن قفافها ، فجندا نفسيهما للعمل على الأجهاز عليها . ولكي تتضح معالم أحداث تلك الجهود لابد لنا من عودة على ذي بدء . ما تحدثنا عن الموقف السياسى فى الاندلس غداة تولى المعتمد السلطة . أذكر هنا قد أشرنا إلى أن الفونسو السادس استطاع أن يصبح سيد اسبانيا النصرانية شبه المطلق بعد تلك السلسلة من الحروب الأهلية ، والأحداث الأخرى التى عرضنا لها . ولم يعد فى الاندلس بدأ من عام ١٠٦٤م / ١٠٧٣م ، وهو العام الذى تبرع فيه الفونسو السادس على معظم اسبانيا النصرانية إلى مملكته الواسعة ، وأما برشلونه فى الشمال الشرقى .

وقد بدأ خطره يتعاضد شيئا فشيئا منذ استتبت له الأمور ، وكان فى الحقيقة أشد خطرا من أبيه . وأكثر منه انتهازيا ، وكانت سياسته فى الواقع أشد دهاء ومكر من سياسة أبيه . فوالده فرد ينادى كان حاضرا متأهبا فى كل الأوقات للعبادة أى دعوة من أى مملكة أو أمارة إسلامية . وكان لا يجد حرجا من نقل ولائه ومساعدته لمن يدفع أكثر . أما أبوه الفونسو السادس فقد فاقه فى هذا وبزه . بل أنه انتهج سياسة مكره تهدف إلى أنهاك قوى خصومه المسلمين المالكة والعسكريين بفضل الحصار الطويل والشديد الذى يضربه على معاقلهم . ثم يرفع ضغطه عن هذه المعاقل بعد أن يكون قد استطاع امتصاص قواهم العسكرية والمالية . ومن ثم يسهل عليه بعدئذ القضاء على استقلال تلك المعاقل .

وستتضح معالم هذه السياسة بعد قليل فى موضوعاتنا القادمة أن شاء الله . وسيتضح معها أن حكام الممالك الإسلامية فى الاندلس أنزلوا فى تورط مفرغ إلى خدمة مشاريع الفونسو السادس والإسهام فيها بسوء سياستهم بقصد ومغیر قصد .

(١) : أنظر قبل ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .
(٢) : أنظر فى هذا : عبد الله بن بلقين بن زيوى : التبليان ، ص ٧٣

(١)

فكر المعتمد ووزيره ابن عمار في مهاجمة مدينة جيان ذات الاهمية العسكرية والتي تقع الى الشمال الشرقى من ولاية قرطبة . ومن ثم الحمل على الاستيلاء عليها . وبالفعل استطاع المعتمد أن يضم هذه المدينة الى مملكته وينتزعها من صاحبها عبد الله حفيد باديس عام ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤ م . ثم فكر بعد ذلك في مهاجمة غرناطة نفسها ، إلا أن وزير الدولة الفرناطيه النائذ المدعو سماجه الصنهاجى استطاع أن يبدى قدرا من الحزم العظيم . فحصر المدينهم (٢) وأخذ العدة للمقاومة ، مما جعل المعتمد يأس ويوقع حصاره عنها . وفى تلك الاثناء شاء الفونسو السادس أن يوسع ضفوطه نحو مملكة غرناطة وأن يحاول أجبارها على الانسياق فى تنفيذ سياسته بأركانها على دفع الجزية شأنها شأن غيرها من ممالك الطوائف الأخرى وكان هذا دليلا ساطعا على رغبته فى جبر الممالك الاسلاميه نحو الغاية التى خططها بدقة . فقد بمثل الى عبد الله بن زيرى يطلب منه أن يدفع له عشرين ألف دينار كجزية مفروضة مستغلا حرج موقف المملكه . وفى هذا الصدد يقول ابن زيرى نفسه (وأما الفونسو لما تيقن هذه الفتن ، علم أن ذلك من أكبر سعادته ، وراعى عظم فرصة فى طلب الأموال . فأرسل اليه رسوله : أول مداخلة نشأت بيننا وبينه ، فأتى باطرشولش يطلب منىا ضربته ، فأبينا عليه واجتمع رأينا على أن لا نفعل . وأن ضرر الفونسو لا يخشى وفيها أماننا . نعى بذلك ابن ذى القرن (٣) . ولم نقس أن أحدا يعاقده على مسلم . فأصرف عنا دون عمل .)

(١) : جيان مدينة وكورة فى التقسيم الادارى للأندلس اسلامي . والبلد يقع على نهر الوادى الكبير الى شرق قرطبة . أما البلد فيقع على السفح الشمالى الشرقى لجبل كوز Jabalcuz غربى وادى بطون Guadalbun وبلد يقع على ارتفاع ٥٤٩ مترا . ولهذا يصفه جغرافيو العرب بالحصانة والامتناع وخاصة قصبته . وجيان اليوم مدينة واسعة من مديريات منطقة الأندلس (فى جنوب اسبانيا) .

أنظر : ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١ ، ص ١٢١ .

(٢) : محمد عبد الله خان : دول الطوائف ، ص ١٤٢ . رقم ٣

(٣) : ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ص ٢٣٤ .

(٤) : سفير اسباني نصرانى بعثه الفونسو السادس لأخذ الجزية من مملكة غرناطة كما

هو واضح .
(٥) : عبد الله بن بلقين بن زيرى : المصدر السابق ، ص ٦٩ .

ولكن ابن زيرى كان واهما ، فالعصر الذى يعيش فيه عصر
تغيرت فيه المفاهيم ، وقوضت فيه المثل ، واصبحت صفات الصولية والانتهازية
وغيرهما دلالة على ذكاء خارق وسياسة محنكة . هذا من جهة ، ومن جهة
أخرى فهذا دليل على عدم أهلية عبد الله للحكم وقلة تجاربه ومحدودية
ثقافته ، فالاندلس قد شهدت فى عهد جده نوعا من هذا التعاون الذى
يستبعده .

وأيا ما كان الأمر فقد انصرف السفير النصرانى غضبا ومتوعدا
بأوخم النتائج . وفى طريقه الى بلاده التقى فى مدينة باغة ^(١) بوزير مملكة
اشبيلية محمد بن عمار الذى كان يترصده مجيئه . ودخل الاثنان فى مفاوضات
سياسية اتضح منها المدى الكبير الذى انزلق فيه المعتمد ووزيره ابن عمار
على السوء فى تحقيق رغباتها الشخصية .

ويسرى عبد الله بن زيرى بكل امتعاض وحنق ما حدث بقوله
(وان ابن عمار انتهز هذه الفرصة وكان منتظرا له بباعة مرتقبا لما يصنع معنا ،
فلما رأى انه لم يتم له عمل ، ألقى يده فيه على المقام وقال له : ان كنتم
منعتم عشرين ألف دينار " وهى التى هـأل عن ضربته " فنحن نمطيكم ^(٢)
خمسین ألفا ، على أن نعاقدكم على غرناطة ، تعطونا القاعدة ولكم ما فيها من
الأموال ، فعاقده على ذلك . { ^(٣) ومعنى هذا أن ابن عمار كان يهدف الى أخذ
الاذن من الفونسو باطلاق يده ويد مليكه بمهاجمة مملكة غرناطة والاستيلاء
على غاصمتها مطمئني البال الا أن الفونسو سوف لن يعارض فى هذا ، أو بمعنى
آخر لن يعارض فيما سيحدث من تغيير من توازن القوى آنذاك . وذلك على
عجبار أن الفونسو سوف لن يخسر شيئا بل على العكس فان المبلغ الباهظ الذى
دفعه له ابن عمار سيساعده على تقوية جيشه استعدادا لجولات أخرى .

(١) : باغة مدينة صغرى ، هى غير باجة Beja ، المذكورة سابقا ، واسم
هذه البلدة فى القديم اياغوم Epagnum أو باغو ، وتسمى اليوم
عد الاسبان بريغو Priego .

انظر : شكيب ارسلان : الحلل السندسية ، ج ١ ، ح ٦ ، ص ١٣٠ ،
وح ٢ ، ص ١٨٩ .

(٢) : ما بين القوسين هو من تحقيق ناشر كتاب البيان ومحققه ليفى بروفنسال .

(٣) : عبد الله بن بلقين بن زيرى : المصدر السابق ، ص ٦٩ - ٧٠ .

وكان لهذا العمل دلالة الخطيرة فمجرد الاحتكام الى المدو
النصراني والاتفاق معه في شأن اسلامي بحث يهني انتقاها للسيادة الوطنية
الكاملة لأية دولة من دويلات الطوائف ، ويمطى بعدئذ الحق والبرر لملوك
النصارى في التدخل في الشؤون الداخلية للممالك الاسلامية ، ومحاولة دس أنوفهم
في همومها للوصول الى غاياتهم .

وقد نصت المعاهدة أيضا على أن يسمح لمملكة اشبيلية
ببناء حصن أو قلعة أمام مدينة غرناطة يقفل عليها السبل ويضيق عليها
الانفاس - وهى وسيلة عسكرية كانت سائدة في العصور الوسطى - . وقد اهتمدى
ابن عمار الى انتقاء مكان مناسب لهذا الحصن عند حصن يلىش القريب
من غرناطة بمساعدة بعض الخارجيين على المملكة الفرناطية . (١) وقد استطاع أن يبنى
ذلك الحصن بسرعة مذهلة بمساعدة بعض من مفرزات الجيش النصراني . يقول
ابن زيرى (وأكرى ابن عمار من عسكر الفونس ما قوى به البنيان بأعداد من
الاموال جسيمة ، يسوفهم فيها تارات ، ويمسدهم ويخادهم ، حتى تم
البنيان . وجعل المعتمد يحاول ذلك بنفسه ، ويبرز أبدا على مقربة
من غرناطة مدة كونه ، طمعا فى أن يقوم معه أهل البلدة ، فلما تم بنيانه ،
قواه بالندب ، واتخذ فيه جميع الاقوات وأمرهم بالقضيق ، وكانت الحال
شديدة (٢)

ومن الواضح والطبيعى أن يؤثر هذا التضيق ، وذلك
الاقفال للسبل على مملكة غرناطة ، رغم أن المعتمد وألفونسو قد غدارا مسرح
تلك الاحداث . وحاول عدالله بن زيرى جاهدا أن يخضع ذلك الحصن
لنفوذه ، ولكنه لم يستطع فعل أى شئ . وقد أثرت هذه الاحداث فى الجبهة
الفرناطية الداخلية المضمضة أصلا ، وقد أخذ ضغط الاحداث يمسى فى
الشمور الشعبى القنوط واليأس من استمرارية بقاء الدولة . وندم ابن زيرى
على تفريطه فى عدم موافقة ألفونسو عندما طلب منه الجزية مقابل مداخلته (٣)

(١) : عدالله بن بلقين بن زيرى : المصدر السابق ، ص ٧٠ .

(٢) : نفس المصدر ، ونفس الصفحة .

(٣) : نفس المصدر ، ونفس الصفحة .

ونحن هنا نستبعد ما أورده محمد عبدالله عنان من أن عبدالله
ابن زيरी هو الذي باد ر بطلب معونة الفونسو أسوة بمعظم أمراء الطوائف .
وأن المعاهدة التي عقدت كانت معاهدة حلف وصداقة ، تمهد فيها ابن زيرى
بدفع جزية قدرها عشرين ألف دينار . كما يقول عنان أيضا أن ابن زيرى
ووزيره سماجه الصنهاجى المذكور سابقا قد خرجا ومعهما سرية من الجند
النصارى التى أمدهما بها الفونسو . وقد أغار الجيش على أراضى اشبيلية .
واستطاع أن يسترجع حصن قبره^(٢) الذى يقع فى جنوب غربي جيان . نستبعد
هذا لأن ابن زيرى نفسه لم يشر الى هذه الاحداث فى كتابه السالك الذكر .
بل يقول انه فى أول اتصال تسم بينه وبين الفونسو وذلك عندما رفض اداء^(٣)
الجزية : (فأرسل الينا رسوله أول مداخلتنا بيننا وبينه فأتى ٠٠٠) ولو
أننا افترضنا أن ابن زيرى قد فاته رصد بعض الاحداث والاتيان بها ،
فاننا لم نعثر على رواية مساندة تؤيد هذا الرأى ، بل ان محمد عبدالله عنان
لم يورد عند روايته لهذه الاحداث مصدره أو مصدره التى اعتمد عليها .

شفلت هذه الاحداث الفترة من عام ٤٦٦ - ٤٦٧ هـ /

١٠٧٤ - ١٠٧٥ م . وقد أجهدت مملكة غرناطة كثيرا . على أن حدثا
جليلا وخطيرا حدث فى عام ٤٦٧ هـ بدل المواقف وخطط الأوراق السياسية
فى الجزء الجنوبي من الاندلس وأزاح عن كاهل غرناطة كابوسا ثقيلا ، ذلكم
هو خروج قرطبة عن طاعة بنى عباد ، وما حدث من مقتل عباد ابن المعتمد
كما مر بنا سابقا^(٤) . فقد أربك هذا الحدث سياسة اشبيلية ، وجعلها
تنسّق جهودها سراعا وتدفع باهتمامها نحو المشكلة المستجدة والنقطة
المتفجرة . ومن هنا فقد أرغم ابن عمار على تغيير استراتيجيته ، فاضطر
الى سحب جنوده من حصن يليلش والتوجه نحو قرطبة . وأعطى هذا الحادث
لابن زيرى الفرصة ليقول (فلما انقضت بقرطبة هذه الدائرة ، وسمع بالخبر
أهل يليلش أخلوها على المقام ، ودخلها رجالنا ، وصارت فى ملكنا مستبدة

(١) : دول الطوائف ، ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(٢) : حصن قبره هو اسم لكورة من كور جنوب الاندلس . وقبرة اليوم Cabra

مركز أدارى فى مدينة قرطبة . المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٦ ، ص ٣٦٥ .

(٣) : انظر عبدالله بن زيرى : المصدر السابق ، ص ٦٩ .

(٤) : انظر قبل ، ص ١٩٤ - ١٩٦ .

مبنية ، فنظرنا منها بالذى نصنع بقصبة غرناطة ، وتروح مخنقها من حيث لم يحتسب . (١)

عودة الوزير ابن عمار لمحاولات التوسع على حساب مملكة غرناطة :-

لم تستطع مملكة غرناطة أن تنعم بالهدوء الذى أسبغته أحداث قرطبة طويلا . اذ ما ان أستطاع المعتمد أن يستعيد قرطبة حتى توجه الوزير ابن عمار نحو الهدف الثانى فى سلم أولويات السياسة الاشبيلية ، ولكنه فضل هذه المرة أن يتجه نحو الفونسو السادس مباشرة ليحقد معه اتفاقية على غرار الاتفاقية الاولى ، ونفس المبلغ الذى تعاقد عليه فى المرة الاولى . ويقول ابن زيرى هنا (ومضى ابن عمار مرتها بما جعل على نفسه للنصرانى من كراء بليلش فى تبعات كثيرة ، وجرايات جسيمة يقطعها له ويمده بها ، وأدخل سلطانه من ذلك فى تشفيب ، لانه كان لا يريد أن يجعله يخلد الى راحة لكى يحتاج اليه فى تلك الفتنة لا يقر عن ادخال ضرر على المسلمين . ومتى ما كان المعتمد يسمى فى تهديدين الأمر ونروم معه الصلح ، أو تنشأ مهادنة لا ينأى فى نقضها واشغال نار الفتنة . فعاد ثانيا الى النصرانى الفونسو ، وزين له أمر غرناطة ، وصورنا عنده فى صورة من لا يقدر على شئ من أجل الضعف وسن الصبا وأنه ضامن له أموال غرناطة لتصير اليه بأسرها . على أن يعاقده اذ تمكن من البلدة أن يجعلها ملكه ، وله مالقى من أموالنا ، وألقى يده فى الفونسو عزمها عليه فى الاقبال عليها ، وأعطى على ذلك أموالا جسيمة ، ووعده بخمسين ألف مثقال اذا تمت القضية ، سيعطيها زائدة على ما يجد لمساعدته على السير . (٢)

وهنا تتضح مكيافيلية الفونسو - ان صح هذا التعبير - بأوضح ما تنجلي عليه الصورة ، اذ أنه عد الى الاستفادة من الجانبين وابتزازهما معا . وهذا ما لاحظته ابن زيرى نفسه عندما قال (فأدرك الرومى من ذلك طمع كبير وقال : "هذه نصبة لست أخلو فيها من فائدة ، وان لم تحصل البلدة)

(١) : التبيان ، ص ٧١ .

(٢) : نفس المصدر ، ص ٧٢ .

وأى فائدة لي في اعطاء بلدة من واحد لآخر الا تقويته على نفسه ؟
 وكلما أكثر الثوار ، ووقع بينهم التنافس ، كان لي أفضد ! " فأتى على نية
 أخذ مال الفريقين ، يكسر رؤوس بعضهم ببعض . ولا كان أيضا في أمه
 أن يأخذ البلد لنفسه ، فانه عمل في ذلك حسابا أن قال : " انا من غير
 الملة ، وكل الناس يشنأني ، فبأى وجه أطمع في اخذها ؟ ان كان من باب
 الطاعة فأمر لا يمكن ، وان كان من وجه القتال ، فيهلك فيها رجالى وتذهب
 اموالى ، وتكون الخسارة علي أكثر مما نرجوه ان صارت الي . ولو صارت ،
 لم تتمسك الا بأهلها ، ثم لا يؤمنون ! ولا من الممكن أن نستبيح أهلها
 ونعمرها بأهل ملتي ! ولكن الرأي ، كل الرأي ، تهديد بعضهم ببعض ،
 وأخذ أموالهم أبدا ، حتى ترق وتضعف ، ثم هى تلقى بيدها اذا ضعفت
 وتأتى غوا) . (١) ويضرب المؤلف مثلا لما حدث بعد ذلك من سقوط طليطلة
 بقوله (كالذى جرى بطليطلة انما كان من فقر أهلها وتشتتهم ، مع اندبار
 سلطانها ، وصارت الي بلا مشقة ؟) (٢)

كما يتضح هنا ما سبق أن قلناه عن سياسة الفونس والماكرة
 التى تهدف الى انهك قوى الخصوم ، واضعافها ليسهل عليه بعد ذلك
 القضاء عليهم . ورد ذلك فى اشارة أحد مستشاريه الذين بعثهم للتفاوض
 مع مملكة غرناطة ونصها (انما كانت الاندلس للروم فى اول الامر حتى غلبهم
 العرب وألحقوهم بأحس البقاع : جليقية ، فهم الان غدا يتمكن طامعين
 بأخذ ظلاماتهم ! ! فلا يصح ذلك الا بضعف الحال والمطاولة ، حتى اذا
 لم يبق مال ولا رجال ، أخذناها بلا تكلف !)

ومن أسف أن رد فعل ملوك الطوائف آنذاك كان سلبيا مخزيا
 منها لكا . ويشرح أحدهم وهو ابن زيرى نفسه رد فعلهم ومواقفهم آنذاك بقوله
 (فكان الجميع يسايرو الأمور ، ويدافع الايام ، ويقول : من هنا الى أن تتم
 الاموال ، وتهلك الرعايا بزعمهم ، يأتى الله بالفرج وينصر المسلمين !) (٣)

(١) : المصدر السابق ، ص ٧٢ - ٧٣ .

(٢) : نفس المصدر ، ص ٧٣ .

(٣) : نفس المصدر والصفحة .

ولقد قدم الفونسو الى غرناطة تحقيقا للهدف الذى قلناه قبل قليل ، وعسكر قرب غرناطة ثم طلب الاجتماع بالملك الفرناطى . وتداول عبد الله بن زيرى مع وزرائه ومستشاريه فى أمر هذا الطلب وأستقر رأى أخيرا الى مفاوضته فيما يريد . وتلاقى الملكان خارج العاصمة ، وأبدى عبد الله بن زيرى من ضروب الاكرام والحقاوة ما أوجب شكر الفونسو له ، وقد أوضح الفونسو له أنه قد سيق الى عقد المعاهدة مع ابن عمار سوفا لا خيار له فيه كما يزعم . ولذا فقد طلب منه أن يدفع له الجزية . والا فهو حر فى العودة الى مصافدة ابن عمار . وعلى هذا فقد طلب منه أن يدفع له خمسين ألف مثقال .

ولكن عبد الله بن زيرى رفض دفع هذا المبلغ وأشتكى له بأن أحوال البلاد المالية تمجز عن الوفاء بذلك المبلغ الضخم . وأخيرا أتفق معه على دفع ثلاثين ألف مثقال بمعدل طول مشقة (١) .

وهكذا أستطاع الفونسو أن يستحصل على ما يريد من أنهار قوى خصومه المسلمين واضعافهم . . . وقد بحث بعد ذلك الى ابن عمار يقول له (كذبت لى فى قولك أن غرناطة فى ضعف ، وأن صاحبها من صغر منه لا يعقل .) ورأيت من رتبته وأحوالها ما خالف قولك (٢) . وأخيرا ، وبعد أن وصل الفونسو الى ما يريد ولو مؤقتا ، رأى أن يحل الاشكال بين الملكين بمعرفة ووصايته . فقد أتفق مع المعتمد ومع عبد الله بن زيرى على أن يعطى كل منهما بعضا من الحصون ذات الاهمية العسكرية لكليهما (٣) ، وأن يدفع الجزية السنوية التى قررت على كل منهما فى تلك المصالحة .

وتعتبر هذه الاحداث آخر شئ فى سياسة ابن عمار تجاه مملكة غرناطة ، أذ ما لبث أن رفع ظله عنها بعد ذلك . وصفت الامور

(١) عبد الله بن زيرى : المصدر السابق ، ص ٧٤ - ٧٥ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٧٥ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٧٥ - ٧٦ .

لمبعد الله بن زيـرى ونترك له يـروى غـبطه تلك بقوله
 (وما هـياه الله أن فقدنا وسائط السوء بعـد ذلك بفقد
 ابن عمار وشغلـه فى مرسية • ونزوال سـاحـه عـا • وأتباعه •
 وتوفى قبل ذلك ابن ذى النون عند بلوغه أـماله بقـطـبة •
 وكانت الأندلس قد أرتجت له • وخافه الرؤساء • فلم يلبث
 بها يسيرا حتى مات • (١)

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

وما دنا قد ختمنا حديثنا عن العلاقة السيئة المتفجرة
 بين مملكتى اشبيلية وغرناطة والتي وضع لها القيسودا وحلا فرضه
 فرضا على الطرفين • فاننا نشعر ربطا للموضوع وأقتضاء للسياق
 أن نثمة ما يدعوا الى ايضاح ما آلت اليه العلاقات بين المملكتين بعد
 ذلك • وبعد أن رفع ابن عمار - الذى كان له الدور الأكبر فى
 تدهور العلاقات بين المملكتين - ظله عن غرناطة • وانشغل
 فى أمرا احتلال مرسية وما تبع ذلك فى النهاية من أحداث أدت
 الى مقتل ابن عمار كما سنرى بعد • (٢) بعد هذا شهدت علاقات
 عبد الله بن زيـرى ملك غرناطة المذكور بالمتمدد تحولا جذريا • إذ
 سرت فى العلاقات السياسة بينهما موجة من المودة والتعاون والمجبة •
 وفى الحقيقة أنه كان لغياب ابن عمار عن مسرح الأحداث وانشغاله بفتح
 مرسية ثم تعاقب الأحداث سـراعا • وما أفضت اليه بعد ذلك من مقتل
 ابن عمار • الدور الرئيسى فى تحسن العلاقات بين المملكتين • وقد
 أسـر هذا التحول الايجابى فى العلاقات المشبع بروح التفـاؤـل
 والمودة عبد الله بن زيـرى نفسه • فنراه يعلن عن سروره هذا
 عندما يتحدث عن هذه الأحداث بقوله (ليس كل الناس علم سـر
 الأمر كالذى نصفه نحن • والدليل على ما قدمناه ذكره من ارتباط
 المتمدد الى الخير وإيثاره للصالح بزوال هذا الفاسق ابن عمار عن
 دولته • ولم يمر بعد فترة بيننا وبينه • وحقق معنا

(١) عبد الله بن زيـرى : المصدر السابق • ص ٧٥ - ٧٦ •

(٢) أنظر بعد • ص ٣٢٤ - ٣٣٢

ففى كل أمر الذى فعلنا نحن معه ، وجددنا العقد على ما أرتضيناه من معاوضيات ، سوى ما كان قديما بيده ، مما خرج عنا فى أيام المظفر وأخذت الفتنة عليه خفها ، ولم يوجد فى طلبه ذلك خير ، ولا السى غير المصالحة سبيل (١) . كما يستطرد فى تعبيره عن رضاه التام للتطور الايجابى للعلاقات بين الملكتين فيقول : ففرت الاحوال قرارها ، وتهنى كل واحد منا بملكه الا ما كان من سيف برانى يعترض بلادنا من الروم ، فكان الرزم فيه واحدا ، والمشاركة سواء ، وإن كنا لا نقدر على ذلك بالامداد بعضنا لبعض لضعف الحال ، فكنا نتشارك بالمدخله وأعمال الرأى واتخذ يرم من أمر عسى أن يكون خفى عن الآخر ، وما أشبه ذلك (٢) .

وبالفعل فقد ترجم المعتمد عن حسن نواياه تجاه ملكة غرناطة ، وعن صدق غممه فى نهج خط الوفاق الجديد بين الملكتين ، وذلك عندما ساءت الاحوال الداخليه فى ملكة غرناطة ، وبدأ بعض الظالمين من حكام المدن والولايات يفكر فى الخروج على عبد الله بن زيرى والاستقلال بما تحت أيديهم . مستغلين ضغط الفونسو السادس على الملكة من جهة ، وتدهور العلاقة المائلية بين عبد الله بن زيرى وأخيه تميم ملك مالقة من جهة أخرى (٣) . فقد تطلع هؤلاء الظالمين من حكام المدن والاقاليم الى طلب مساعدة المعتمد بن عباد وعونه ، ولكن سياسة الوفاق الجديد التى رسمت بين الملكتين جعلت المعتمد يصم أذنيه عن ذلك أو لئلا يثارت الثائرين بالمساعدة التى طلبوها . بل أن المعتمد عمد الى التوسط لمصالحتهم مع مليكهم ورأب ذلك الصدع بينه وبينهم . وعندما أصر أولئك على الخروج لم يجدوا من المعتمد أية مساعدة أو عون على الإطلاق (٤) .

(١) التبيين ، ص ٨٢ .

(٢) نفس المصدر ، والصفحة .

(٣) أنظر نفس المصدر ، ص ٨٤ - ٩٥ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٩٥ - ٩٩ .

خروج الوزير ابن عمار على المعتمد والقضاء عليه آخر الأمر

صور عن متانة العلاقة بين الصديقين :-

لم يكن يدربخلد أحد من الناس لافى اشبيلية فقط بل وفى
الاندلس عموماً أن يوماً سيأتى تسوء فيه العلاقة بين الصديقين ، وأن يحل
الحقد والقدر محل المودة والخلة . لم يكن يدربخلد أحد أن علاقة
المعتمد مع صديقه ولزيق روحه ستتدهور وتسوء وتفضى أخيراً الى مقتل
الوزير على يد مليكه وصديقه المعتمد نفسه . فالعلاقة لم تكن عبارة عن
صداقة تقليدية بل هى علاقة أخوية حميمة ندر وصفها ، وعز شبيبها .
نقول لم يدربخلد أحد أن تنجلي الأمور بعد كل تلك الصداقة والعشرة
الى العداء والمقتل أخيراً ، حتى المعتمد نفسه كان يرى أن اليوم الذى
ستسوء علاقته بصديقه خارج عن حدود التاريخ والايام ، بل هو ضرب من
الخيال . ومع هذا حدث ذلك بل وحدث الاخطر منه وهو مقتل ابن عمار
على يد المعتمد نفسه . ويروى لنا عبد الواحد المراكشى فى هذا المعنى
قصة ذات طرافة ودلالة : (وله معه أيام كونهما بشلب خبر عجيب ،
وذلك أن المعتمد استدعاه ليلة الى مجلس أنسه على ما كانت عليه العادة
جارية ، الا أنه فى تلك الليلة زاد فى التحفى به والبر له على المعتاد .
فلما جاء وقت النوم أقسم المعتمد عليه لتضمن رأسك معى على وساد
واحد ، فكان ذلك : قال ابن عمار فتهتف بى هاتف فى النوم يقول : لا تفر
أيها المسكين انه سيقتلك ولو بعد حين ، قال فانتبهت من نومى فزعاً ،
وتعمدت ثم عدت فتهتف بى الهاتف على حالته الاولى ، فانتبهت ثم عدت ،
فسمعت ثالثاً ، فانتبهت فتجدت من أثوابى ، والتفت فى بعض الحصى ،
وقصدت دهليز القصر مستخفياً به ، وقد ازمت على أنى اذا أصبحت خرجت
مستخفياً حتى أتى البحر فأركبه وأقصد بلاد العدو فأكون فى بعض جبال
البربر حتى أموت . فانتبه المعتمد فاقتعدنى فلم يجدنى . فأمر بطلبى
فطلبت له فى نواحي القصر . وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشمعة
تحمل بين يديه . فكان هو الذى وقع على ، وذلك أنه أتى دهليز القصر

يفتقد الباب هل فتح ؟ فوقف بازاء الحير الذي كت فيه ، فكانت منى
حركة فأحس بنى وقال ما هذا يتحرك فى هذا الحسير ؟ ثم أمر به فنفض
فخرجت عريانا ليس على الا سراويل فلما رأى فاضت عيناه دموعا ،
وقال يا أبا بكر ما الذى حملك على هذا ؟ فلم أر بدا من أن أصدقته فقصت
عليه قصتى من أولها لآخرها ، فضحك وقال يا أبا بكر أضفك أحلام ،
هذه آثار الخمار ، ثم قال لى : وكيف أقتلك ؟ رأيت أحدا يقتل نفسه ؟
وهل أنت عندى الا كفسى ؟ • فتشكر له ابن عمار ودعا له بطول البقاء ،
وتناسى الأمر فنتسيه ، ومرت على ذلك الايام والليالى الى أن كان من أمره
ما سيأتى الايماء اليه • فصدقت رؤيا ابن عمار ، وقتل المعتمد نفسه
كما قال . (١)

ولقد رأينا فى حد يثنا فى الفقرة السابقة بعضا من الصور
الدالة على متانة العلاقة وتوثقها بين الصديقين ، ونلمع الآن الى بعض منها
أيضا لنرسم أكثر من علامة استفهام كبيرة عن المنزى الكبير الذى دفع بابن عمار
بالخروج والتمرد على مليكه • فرغم السود الوجدانى الشديد الذى كان يديه
المعتمد تجاه صديقه وأليف روحه - على ما ينطوى عليه من تشريف وتقدير
معنوى عظيم - الا أن هدايا المعتمد المادية لم تكن تقف عند حد • فلم
يكن يخل على صديقه بأغلى الهدايا وأثمنها مما يجعل ابن عمار يلجج شكرا
وعرفانا • ويقول : (٢)

بفضل نوال واهتبال يؤكّد

أنى كل يوم تحقّق وتفقّد

ويقول أيضا ،

وعدت بما أوليت والعود أحمد

تبرعت بالمعروف قبل سؤلّه

ولكنه مع هذا يعجز عن الوفاء لصديقه فيقول :

تقوم عليها أية النصح تعضد

فان أنا لم أشكرك صادق نية

ولا كرمت نفسى ولا طاب مولد

فلا صح لدين ولا برّ مذهب

(١) : المصدر السابق ، ص ١٧٧ - ١٧٨ .

(٢) : ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ١٠٠ .

ويهدى الشاعر الوزير لصديقه هدية فى مناسبة من المناسبات
ويرفقها بأبيات من الشعر • فيوجه اليه المعتمد بمكبة فضة فيها خمسائة
دينار • وقيل خمسة آلاف دينار ذهباً • وكتب معها :

هبة أتتك من النصار الوفها فاعظم جزيل المال من وهابيه
فلو أن بيت المال يحوى قفله أضاعفها لكسرتة عن بابيه
فألبحر يطفح جوده لك زاخرا لما كسوت البحر بعض ثيابه^(١)

ويقول ابن الأبار عنه^(٢) (وتعلق فى أول أمره بالمعتمد محمد بن عباد
حين وجهه أبوه المعتمد محاربا بشلب فنزع اليه وبلغ من المنزلة لديه
أن غلب عليه ثم صاحبه بأشبيلية • وكان يحضره فى مجالس أنسه • ويستدعيه
اليها • ويؤثره على خاصته ويستريح اليه بسرره • ومن ذلك قوله وكتب به اليه :

قد زارنا النرجس الذكى وحن فى مجلس أنيق
ونحن فى مجلس أنيق وقد عطشنا • وثم رى
ولى خليل غدا سمي يا ليتك ساعد السمي
فأجابه واصلا قائلا :

ليك لبيك من مناد له الندى الرحب والندى
ها أنا بالباب عند قن قبلته وجهك السننى
شرقه والداه باسم^(٣) شرفته أنت والنبنى

بل إن ابن عمار بلغ من عظم منزلته لدى المعتمد أنه كان
يمهد اليه بأجل الأعمال وأدقها • بل إنه كان يشل بالاضافة الى الوزارة
ما يمكن أن نسميه اليوم برئيس المراسم • فلا يعقد مجلس مع المعتمد
ولا ترتب مقابلة أو موعد الا عن طريقه • وفى هذا الصدد يقول ابن الأبار
(وسرى الى ابن عمار أن المعتمد كتب من قرطبة الى بعض كرائمه شعرا يعتذر
فيه من اللحاق بها • آخره " ان شاء رضى أو شاء ابن عمار ")^(٤) • بل ويروى

(١) : ابن الأبار : المصدر السابق • ج ٢ • ص ١٦٢ - ١٦٣ •

(٢) : نفس المصدر والجزء • ص ١٣١ - ١٣٢ •

(٣) : من الواضح أن نشير الى أن اسمي كلاهما أى المعتمد وابن عمار • محمد •

(٤) : ابن الأبار : نفس المصدر السابق • ج ٢ • ص ١٣٢ •

ابن الأبار أيضا صورة لعظم مكانة وعلو درجة ابن عمار لدى المتمدن أن يقول (وأتصل بالمتعمد في بعض سفاراته عنه التي جليقيه أن الطاغية أنفونش ثقفه هنالك ، ثم ورد الخبر بعمد بضد ذلك فلما قدم ابن عمار كتب اليه المتعمد :

لما نأيت نأى الكرى عن ناظرى وصرفته لما أنصرفت أطيحه

طلب البشير بشارة يحظى بها فوهبت قلبى واعتذرت اليه

الى غير ذلك ما أوردت من الدلائل على لطف المنزلة وتمكن الحظوه ، وتضاعف الأثره وحب الرئاسة في رأسه يدور الى أن نفذ بمصرعه على يديه المقدور)

ونعتقد أن ما أوردناه من الصور فيه من الدلالة والمفرد ما يدل على عمق الصداقة ، وقوة ووثوق الأصره التي جمعت بينهما ، والتي سمت وعلت الى مرحلة الخلقة النادرة في كل زمان ومكان .

أصرار الوزير ابن عمار على احتلال مرسية وبداية الوحشة بين الصديقين :-

كانت مملكة مرسية تأتي هي ومملكة دانية ، والمرية ، والنسيية وغير ذلك من الإمارات والممالك الأخرى في المرتبة الثانية من الأهمية السياسية والعسكرية للممالك الإسلامية في الأندلس المعروفة بممالك الطوائف . وكانت تشمل مع تلك الممالك التي ذكرناها خطا سياسيا مخالفا للخط السياسي الذي سلكته الممالك الخمسة الكبرى في الأندلس . وهي أشبيلية ، وغرناطة ، وطليطلة ، ومطليوس ، وسرقسطه . فقد نزعته هذه الممالك كما مر بنا نحو التوسع وسيط السيطرة والنفوذ . أما مرسية وغيرها من تلك الممالك المذكورة فقد تبنت حكومة بعواميل طبيعية وجغرافية وشريعه ، سياسة التعايش السلمى والعلاقات الودية المتوازنة مع تلك الممالك الخمسة . مع المحافظة في نفس الوقت على العلاقة الخاصة والمميزة التي تربط كل مملكة من ممالك الصف الثاني هذه بمملكة أخرى قوية سواء أكان ذلك بسبب الجوار ، أو المصاهرة أو غير ذلك . ولنا هنا في وارد ذكر تفاصيل تلك السياسة وذلك النهج فما يمكن أن نستخلصه من كل تلك العلاقات والأحداث هو

شيء واضح وهو أن ممالك الصف الثاني كانت دائماً تقع ضحية
أطماع وتطلعات الممالك الكبرى الخمسة .

قلنا أن مملكة مرسية قد أسسها خيران العامري أحد
فتيان المنصور ابن أبي طمر ، وعندما تركها خيران خلفه صد يقه
زهير العامري الآخر . ثم غادر زهير مرسية إلى المرية ليلى
حكمها بعد وفاة خيران . ولكنه عهد بحكمها إلى أحد أعيانها
ووجهائها ، وهو أبهكر أحمد ابن اسحاق ابن طاهر . وعندما قتل
زهير خلفه عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور بحكم الولاء على مملكته .
فأقر ابن طاهر عليها ^(١) . وقد استمر ابن طاهر يحكم مرسية مستقلاً
حتى توفي عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م . فخلفه في حكمها ولده أبو
عبد الرحمن محمد ابن أحمد بن طاهر . وقد أعترف أبو عبد الرحمن ابن
طاهر بالسلطة الاسمية لعبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الرحمن
ابن المنصور ملك بلنسية . ولكن عبد الملك ذهب ضحية مؤامرة دبرها
حماء المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة ، وأسفرت هذه المؤامرة
عن أقصائه عن الحكم ودخول بلنسية في طاعة مملكة طليطلة . وهنا
أنتهز أبو عبد الرحمن هذه السانحة ، فأعلن استقلال مرسية التام
الناجز عن مملكة بلنسية أو مملكة طليطلة بمعنى أدق ^(٢) .

وقلنا أيضاً أن ابن عمار رفع ظله الثقيل عن مملكة غرناطة
وأراحها من دسائسه ومؤامراته بفضل تدخل الفونسو السادس ، ودعوته
للمصلح بين الأطراف المتنازعة . ورأينا أن الاتفاقية التي عكشت
برطيقته قد طدت بيمض المكاسب المادية على مملكة أشبيلية
بفضل مساعي وزيرها . فهو وإن كان قد عجز عن تحقيق
أماله بسقوط مملكة غرناطة على يديه ، فإنه لم يمد يده
الغنيمة بالأياب . فقد أستحصل على بعض الحصون والقلاع من
مملكة غرناطة . وكان هذا كافياً لرفع أسهمه كثيراً لدى
مليكه ، ولعلو درجته وسموها أكثر عند . كما
أن مداخلاته وصادقاته للنصارى ولافونسو بالذات ، والجهد

(١) : أنظر قبل ص ٦٣

(٢) : أنظر قبل ص ٥٧

الوطني المشرف الذي بذل لمرد عاديات الفونسو بتلك الخدمة
الذكية التي ذكرناها سابقاً ، قد طادت عليه بالشهرة والمجد الذائعين .
ومن هنا فقد أحس في نفسه القدرة على ضم الأندلس
جميعها تحت إبطيه . ولا نستبعد أن يكون رأى الفونسو فيه الذي
قال ذات يوم عنه : أنه رجل الجزيرة ، قد نفخ في رأسه
وصور له بأنه الرجل الذي خبأته الأقدار للمتمد ليكون وسيته
في ضم الأندلس كلها لأمرته . ولذا فقد أخذ يتطلع الى
مد نفوذ مملكة أشبيلية نحو الشرق ، وهو مملكة مرسية بالذات .
ومهما تضاربت الأقوال في أسباب محاولة الاستيلاء على مرسية ، فإن
ثمة شيء واضح وأكيد كان قد قررره الصديقان وهو الاستعداد
للاستيلاء عليها وضمها الى مملكة أشبيلية . بعد أن أقنع ابن عمار
ملكه بضرورة وأهمية ذلك الاستيلاء . ورحب المعتمد بهذا المشروع
الذي سيضيف الى ملكته منطقة واسعة كثيرة الخيرات ، وما يضيف
عليه ذلك من مجد وصيت . وتنفيذا لسياسة المحارب
والأحلاف التي كانت سائدة آنذاك ، رأى الاثنان أن يسيرا في مشروع
الاستيلاء بمخطة مدروسة تهدف الى عقد محالفة مع أمانة برشلونه
الواقعة في الشمال الشرقي من أسبانيا ، والقريبة من مملكة مرسية ،
خوفاً من أن تسارع مرسية الى الاستنجاد بها فيما لو حاجتها
القوات الأشبيلية . ولذا فقد هدف ابن عمار الى عقد معاهدة
مع أمير برشلونه ابن ريموند . (٣) وفعلاً توجه ابن عمار الى برشلونه
ومر في طريقه اليها بمرسية ، وفزل ضيفاً على صاحبها ابن طاهر .
ويقال أنه داخل بعضاً من أعيانها في أمر التخلص من حكم آل طاهر .

(١) : أنظر قبله ، ص ٢٠٤

(٢) : ابن الأبار : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٠ - ١٢٢

(٣) : ابن ريموند : هو أمير برشلونه الكونت رامون برنجير (أو الكونت
- Raimundo (Ramón) Berenguer II el Fratricida

كونت برشلونه من سنة ١٠٢٦ م . سنة ١٠٩٦ م . وهو ابن رايونند
برنجير الاول الملقب بالعجوز المتوفى سنة ١٠٧٦ م . ولهذا يسمى
الاول منهما ابن ريموند .)

أنظر : ابن الأبار : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٠ .

(٤) : ابن الأبار : نفس المصدر والجزء ، ص ١٢٠ - ١٢٢ .

وعندما وصل ابن عمار الى برشلونة ، عقدت بين الطرفين معاهدة تنص على أن تمداً ~~مهاجرة~~ برشلونة مملكة أشبيلية بجيش يساعدها على احكام حصارها على مرسية ، مقابل أن تتمهد مملكة أشبيلية بدفع عشرة آلاف مثقال أو دينار لبرشلونه . وللتأكد من صلاح النوايا اتفق على أن يرهن كل واحد من الطرفين المتعاقدين رهينة - حسيماً كان سائداً في العصور الوسطى وحتى وقت قريب - فوهن الكونت رامون أحد أبناء عمه لدى المعتمد ، ووهن ابن عمار الرشيد ابن المعتمد نفسه لدى الامير البرشلونى .

وحاصر الحليفان مرسية وضيقا عليها الحصار ، وشنا عليها الغارات ، الا أن ذلك لم يفت فى عضدها . ويبدو أن أمير برشلونة قد أحس بنوع من الريبة من حلفائه ولا سيما وأن الأجل المضروب لدفع المبلغ المذكور اليه قد أنصرم . فعجل بالقبض على الرشيد ابن المعتمد مقدراً أن المعتمد سيتحرك حتماً للخلاص ابنه . وبلغ الخبر المعتمد فأزعجه جداً وأغضبته . فعمل على الأسراع فى دفع ما اتفق عليه . وقد كانت الميزانية تعاني وقتها من عجز مالى فأضطر الى سك نقود مزيفة ومكث بها الى أمير برشلونة الذى أطلق سراح الرشيد فوراً ^(١) . وقد كانت هذه الحادثة أول مؤشر يصيب علاقات الصديقين بالفتور والجفوة . بل وتحولت الى مراسلات أدبية شعريه تحمل فى طياتها التنصل من المسؤولية والعتاب من قبل ابن عمار ، والصفح والتطمين من قبل المعتمد بالـ ^(٢) .

والواقع أننا لم نعر على اشارات تدل على أن ابن عمار يتحمل تبعه فشل ذلك الاتفاق . ولكننا نعتقد أن المعتمد قد نقم عليه أن ينفرد بالأمر برهن ابنه الرشيد دون استشارته ، فوضعه بذلك أمام الأمر الواقع . ومن هنا سر غضبه وانزعاجه عندما علم نبأ القبض على ابنه الرشيد . وقد وقعت هذه الأحداث فى

ط م ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م

(١) ابن الأبار : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٠ - ١٢٢
(٢) أنظر صلاح خالص : محمد ابن عمار الاندلسى ، ص ١١٣ - ١١٨ .

احتلال مرسية :-

وبعد أن مضى على تلك الاحداث ثلاث سنوات ،
وفى عام ٤٧٤هـ / ١٠٨١ م عن لابن عمار أن يعاود الكرة مع مرسية ،
فأهلها كما ادعى ناقدون ، غاضبون على حكامها ، وأظهر للمعتمد
كتبا كثيرة زعم أنها وصلتته تحت على افتتاح المدينة وضمها للملكة
اشبيلية ^(١) .

وسواء أكان المعتمد قد اقتنع بهذا أم لم يقتنع فقد
أسال هذا المشروع لعابه ، فوافق عليه ، وفوضه فى العمل على الاعداد
له . وبدأ ابن عمار من فوره يعد العدة فجهز جيشا كبيرا توجه
به نحو قرطبة حيث التقى بحاكمها الفتح بن المعتمد واجتاز منها
الى حصن يدعى حصن بلج وكان تحت حكم رجل يدعى عبد الرحمن
بن رشيق وقد رحب به هذا واحتفى بقدمه احتفاء كبيرا ، جعل
ابن عمار يعهد اليه بقيادة جيشه . وتوجه الاثنان نحو أراضى ملكة
مرسية ^(٢) . واستوليا فى طريقهما اليها على بعض الحصون التابعة
لها . وقبل الوصول الى مرسية توجه ابن عمار لسبب غير معروف
الى اشبيلية ، وترك قيادة الجيش الى ابن رشيق . ووصل هذا
الى المدينة ، وضرب عليها الحصار . وفى نفس الوقت بدأ مراسلاته
ومداخلاته مع أهلها الموالين لابن عمار توطئة لتحديد ساعة
الثورة معهم على بنى طاهر . وأخيرا سقطت المدينة بيد ابن
رشيق ونودى بالبيعة للمعتمد ، ووقع صاحبها أبو عبد الرحمن ابن
طاهر أسيرا فى يد ابن رشيق ^(٣) .

بلغت هذه الاخبار ابن عمار فى اشبيلية ، فسر
سرورا عظيما ، وزاد فى تعاليه وغروره . وطلب من المعتمد أن يسمح له

(١) : ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) : ابن الأبار : نفس المصدر والجزء والصفحات .

(٣) : نفس المصدر والجزء والصفحات .

باللحاق بمرسية وكأنه قد أتى بحز الدنيا وجاهاها ، () وأشار على
المعتمد بذلك ، فما خالفه فواقا فلم يترك ابن عمار باشبيلية في ملك سلطانه
ولا ملك أحد من معارفه ، فرسا عتيقا ، ولا مطية ولا زاملة ^(١) إلا استخرج
ذلك من أيديهم رغبة ورهبة حتى لاجتمع له مائة جنبيه ، ومائة زاملة ،
وأحضر له التجار ما بأيديهم على اختلاف بضائعه من الديباج والخز
الى ما دون ذلك من نفيس الكسا ، ليصم بذلك أهل مرسية . على قدر منازلهم ،
ولم يخف عن ابن عباد وجهة مراده ، فلما سلم عليه مودعا قال له :
(سر الى خيرة الله ولا تظن أنى مخدوع ، فقال : لست بمخدوع ولكنك
مضطرب ، فحلم عنه ^(٢)) والفقرة الأخيرة هذه ذات دلالة خطيرة في سير
الحوادث ، ان يستدل منها على أن ابن عمار كان يعمل على التدبير على فعل
شيء خطير مجهول ، وتدل على أن المعتمد بدأ يتوجس من نوايا صديقه
ووزيره وأعماله المشبوهة . والمهم ان ابن عمار خرج من اشبيلية في موكب
مهيّب الى مرسية ، فدخلها في يوم مشهود ومشهور ، (وابن رشيق بين
يديه ، وقد برز له وخرج يرفقه الى القصر ، وجلس في اليوم الثاني مجلس
التهنئة للخواص والموام ، فجمعت الشعراء بأمداحه ، وقد تزي بزى ابن عباد
في حمل الطويلة ^(٣) ، وحكاه في التصيير ^(٤) ، وكثب " ينفذ هذا ان شاء الله " ^(٥)
في أسفل قرطاسه ، وتختتم في كلتا يديه ٠٠٠ الخ)

انهيار العلاقات بين ابن عمار والمعتمد وبين الممالك المجاورة له :

تولى ابن عمار حكم مرسية كما قلنا وانترى كما يقول ابن بسام فيما ينقله عنه
ابن الابار (٠٠٠) على مرسية وقعد بها مقعد الرؤساء وخطب سلطانه مخاطبة الأكفاء مستظفرا

- (١) : الزاملة التي يحمل عليها من الابل وغيرها .
انظر الفيروز آبادي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٠١ .
- (٢) : ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٠ .
- (٣) : المقصود بها القلنسوة التي كان يرتديها المعتمد . فقد تشبه به ابن عمار في لبسها .
- (٤) : التصيير : يراد به هنا التوقيع على الاوامر . كأن يكتب مثلا يصير هذا أى ينفذ .
انظر ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ج ١ ، ص ١٤١ .
- (٥) : ابن الابار : نفس المصدر والجزء ، ص ١٤٠ - ١٤٢ .

(١) بجر الانذال ، وأفساد قلوب الرجال (١٠٠٠) ولقد رأيناها يحاكى
المعتمد محاكاة الندّ للندّ في زيتة الرسمى . وفى تصرفه
لامور الدولة . والواقع أننا قد مررنا بشئ يدل على
ان ابن عمار كان يفسر الخروج والتمرد على المعتمد ، وأن
تمردة هذا لم يكن ابن ساعته أى عندما استقر بمرسية . كما
أننا فى الوقت نفسه نميل الى تأميد صلاح خالص فى أغلب
ما ذهب اليه من تحليل لدوافع ابن عمار للخروج والتمرد (٢)
فهو يرى أن أنتزاع واستئثار الفاتحين - ونرى معه هذا الرأى
ونضيف والاصهار كذلك - بسا المقاطعات والمدن التى يفتحونها لحساب
ساداتهم وأقربائهم كان شيئاً مألوفاً فى الأندلس ويعد خاصية
من خصائص عصر الطوائف كما يعبر عن روح العصر امدق تعبيري .
فابن عمار كان ابن عصره ما فى ذلك شك ، زيادة على هذا فان ابن عمار
كان يعتد بنفسه كثيراً ، وكانت ثقته الكبيره بحنكته السياسيه
والدبلوماسيه ، وتحاليه وخطرسته حتى على ابناء المعتمد نفسه
كان دافعا له ليجرب حظّه كما فعل الآخرون . . . وكانت
الصداقة المتينه التى تربطه بالفونسو السادس دافعا ثالثا له للانفراد
بحكم مرسية مستقلا . بل أن هناك من كان يعتقد ان ابن
عمار كان يعمل لحساب الفونسو وتحت امرته ، وان هناك من يقول
بأن فتح مرسية تم بالاتفاق مع الفونسو (٤) واخيرا فان ابن عمار كان

(١) المصدر السابق والجزء ، ص ١٣٤ - ١٣٥ .
(٢) محمد بن عمار الأندلسى ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .
(٣) جاء فى الرواية التى رواها ابن الابار والتى نقلناها فى المتن ان ابن عمار
تختم فى يده بخاتمين ، وكان هذا العمل هدفا للتميز عليه ، فقد كان
ابن عبد العزيز صاحب بلنسية يعتقد ان ابن عمار كان يعمل لحساب الفونسو
والموتى ابن هود مما ، ولذلك تساءل عندما بلغه هذا الخبر : أخاتم التامير
ام خاتم التامين ؟ . وهى عبارة فكاهية ذات مغزى سياسى هام . ويقال ان الذى
قال هذه الجملة هو ابن طاهر صاحب مرسية السابق .

انظر ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٠ - ١٤٢ . - ابن خاقان :
القلائد ، ص ٧٢ .

(٤) من الذين يعتقدون هذا الاعتقاد حسين مؤنس فى تحقيقه لكتاب الحلة السيرة
الذى ننقل عنه كثيرا كما هو واضح .

انظر ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٢ - ١٤٤ .

يرى أن تلك الممالك كانت تفتقر إلى السند الشرعى لوجودها •
إذا ان شرعية وجود تلك الممالك كانت تعتمد كما يبدو على
ركائز ثلاثة هى : القوة ، والمال ، والتفيعين والوصوليين
والمرتزقة • وتحت يده من هذه الركائز الكثير •

وعلى هذا فقد ساءت العلاقة بين ابن عمار ومليكه ،
ومضى ابن عمار بعيدا فى الاستقلال بالامر ، والانفراد بالتدبير •
والمعتمد مع هذا يحاول أن يوسط بعضا ضد قاء الطرفين •
يذكرون الوزير بالأذمة والآلاء ، ويدعونه إلى نبذ الفرقة
والتمرد • بل ان المعتمد كتب إليه قصيدة يعتب فيها
عليه عابا رقيقا ، فكان رد ابن عمار عليه يحمل من روح الصلف
والمناددة انصح هذا التعبير أكثر ما يحمل من روح التبعية
والاعتذار^(١) وهكذا أوحى تلك الاعتبارات والدوافع لابن عمار
ان ينسف كل محاولات الإصلاح وعودة المياه لمجاريها بينه وبين المعتمد •

وأقحم ابن عمار نفسه فى سلسلة من الأخطاء
السياسية مع جيرانه من ملوك الطوائف ، وكان لا يأبه بهذا
أبدا ظالما كان يعتقد ان الفونسو كان ضمانته الوحيد^(٢) ،
ولكن الفونسو لم ينفعه فعلا ، وسنرى بعد قليل اشارة إلى هذا •
نقول ان علاقاته مع جيرانه المسلمين كانت سيئة للغاية سواء
أكان ذلك مع مملكة غرناطة ، ام اشبيلية بالطبع ، ام بالنسيطة
وكانت علاقته بهذه الاخيرة بالذات متوترة للغاية ، فقد
نقم ابن عمار على صاحبها أبى بكر بن عبد العزيز غدره به •
اذ توسط ابن عبد العزيز لديه لاطلاق سراح ابن طاهر حاكم
مرسية السابق ، مقابل نزوله له عن أحد الحصون ، بيد
ان ابن عبد العزيز لم يفعل ذلك ، فألهب هذا غضب ابن عمار
وهيأجه ، فنظم قصيدة يهجو فيهها ومن ضمنها ابيات

(١) انظر ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٢ - ١٤٣ • - صلاح خالص :
محمد ابن عمار الاندلسي ، ١٢٧ - ١٣١ ؟

(٢) انظر بعد ، ص ٢٠٩

يمدح فيها نفسه . (١) وعندما بلغت القصيدة المعتمد ذيلها بعدة أبيات
يمرض فيها بابن عمار ، ويزدري به . وعندما بلغت هذه الأبيات ابن عمار
احتاج لها واستوحش . (٢)

ورأى ابن عبدالمزيز أن يسير في حقه على ابن عمار بعيدا ، فدبر
له مكيده بأن دس له بعض أعوانه الذي توصل الى أن يكون أحد ندماء ابن عمار
وجلسائه . واستطاع هذا أن يستحصل على قصيدة كان ابن عمار قد نظمها
في وقت من الاوقاف يهجو فيها المعتمد وكانت هذه القصيدة مقدمة حقا
فقد أفرط ابن عمار في القدح والهجو للمعتمد وزوجته اعتماد الريمكية وابنائها .
ولاقت هذه القصيدة لخطورتها وأهميتها اهتمام كل من عالج هذه الفترة من عهد
المعتمد بالدراسة الادبية والتاريخية ، بل وبلغ من خطورتها أنها كانت السبب
المباشر في مقتل ابن عمار بعدئذ . (٣)

وعلى أية حال فان ابن عمار لم يوفق في سياسته الخارجية
لمملكته ، فدخل في معارك كلامية مع جيرانه ، وظلل جبهته الخارجية بسياج
من جدار الشك وفقدان الثقة . أما على الصعيد الداخلي فلم يوفق فيه ايضا
ما يرسخ الاعتقاد بأن تولى المناصب القيادية أمر بالغ الخطورة ، وتحتاج
أى القيادة من صاحبها مؤهلات ومواصفات أكثر من طادية . وأن بروز قائد من
القواد أو وزير من الوزراء في قيادتهم للجيش أو فتحهم للمدن والمناطق لا يعنى
بالضرورة أن يكونوا جد يرين بتسليم مناصب قيادية عليا . نقول هذا لأن ابن
عمار الذى نجح بفضل مهارته السياسية ودبلوماسيته الفائقة في كثير من
المهام ، لم يستطع أن يحافظ على استقلاله بمرسيه التى هان عليه في سبيلها
كل شيء . فأخفق في اختيار نوابه ومساعديه ، وترك لهم الجبل على الفارب ،
وانصرف الى اللهو والمجون . وابن رشيق في هذا يقتضى الفرص ويتحين السوانح
لتعيين أهله وأقربائه وأتباعه في تولى المناصب والوظائف . ولم تجد نصائح

(١) : ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، ص ١٥٥ - ١٥٧ . - ابن خاقان :

القلائد ، ص ٦٩ - ٧٠ .

(٢) : ابن الأبار : نفس المصدر والجزء ، ص ١٥٥ - ١٥٧ .

(٣) : ابن الأبار : نفس المصدر والجزء ، ص ١٥٧ - ١٥٨ .

• صلاح خالص : محمد ابن عمار الاندلسي ، ص ١٣٧ - ١٤٠ .

الخلّيس من ناصحيه في لفت نظره وانتباهه شيئاً^(١) . ولانظن أن ابن عمار قد ترك مرسية طوعاً واختياراً فاراً على وجهه منها الى جليقية كما جاء في كتاب ابن الأبار^(٢) ، وذلك لان هذا أمر مستبعد ، ولكننا نعتقد أن ابن عمار فكر في وقت من الاوقات أن يخرج الى مقابلة الفونسو السادس شاكياً له معاملة ابن رشيق له . وفي نفس الوقت ليضع نفسه تحت تصرفه (ليخدم^(٣)) أمر الانظار التي تجاوره في الشرق ، وعسى يضمها في يديه مثل شنت مرية^(٤) ولكنه لم يوفق في مهمته ، فاتجه الى سرقسطة ومليكيها المؤتمن الذي خلف اباه المقتدر في الحكم عام ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م . وعقد ذلك أعلن ابن رشيق استقلاله بالمدينة كما يقول ابن زيري^(٥) . على أنه يجوز أن يكون ابن عمار قد عاد قبل ذهابه لسرقسطة الى الفونسو طالبا عونه ضد ابن رشيق الذي استبد بالمدينة ، ولكنه لم يحصل على ما يريد من ممنونة ، فقد قابله بفتور ، بل وأعطاه رأيه فيما فعله صراحة اذ قال له (يا ابن عمار مثلك مثل السارق سرق السرقة فضييعها حتى سرقت منه^(٦)) . ويعلق ابن بسام على موقف ابن عمار فيما ينقله عنه ابن الأبار بالمثل الساخر الذي يقول صاحبه بعد فقدانه لما سعى من أجله " أنفقت مالي وحجّ الجمل " .

نهاية ابن عمار المفجعة :-

وأيا ما كان الأمر فقد استقر القرار لابن عمار في سرقسطة لدى مليكيها المؤتمن ، وقد احتفى به هذا احتفاءً كبيراً ، وأجرى عليه وعلى أصحابه من المطايا والأرزاق ما اعتقد أنه يكفيهم ، ولكن حب المفاخرة والمخاطرة دفعته نحو نهايته المفجعة . فقد خرج أحد عمال ابن هود عليه واستبد بأحد الحصون ، فرأى ابن عمار في ذلك فرصته الذهبية ليثبت لابن هود وغيره من الرؤساء أنه لا زال بمقدوره تحقيق الصعب بفضل حنكته ودهائه ، فتحصل على اذن المؤتمن للخروج لمقابلة ذلك الثائر الذي تربطه

-
- (١) : ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ٤ ، ص ١٤٢ - ١٤٤ ، و ص ١٤٥ - ١٤٦ .
 - (٢) : نفس المصدر والجزء ٤ ، ص ١٤٥ - ١٤٦ .
 - (٣) : عبدالله بن زيري : المصدر السابق ، ص ٨٠ .
 - (٤) : عبدالله بن زيري : نفس المصدر والصفحة ١٠٠ .
 - (٥) : ابن الأبار : نفس المصدر والجزء ٤ ، ص ١٤٦ - ١٤٨ .
 - (٦) : نفس المصدر والجزء ٤ ، ص ١٣٤ - ١٣٥ .

واياه صداقة سابقة . والفعل استطاع بفضل خطة دنيئة وضعها أن يقضى على ذلك الثائر فى عقر داره^(١) وأعاد الى ابن هود حصنه الخارج عنه ، والأهم منه أنه أعاد الاعتبار والثقة لنفسه . وسرّ ابن هود سرورا عظيما ، وبحث للمعتمد بن عباد يتمنى عليه السلاح بتسريح أبناء ابن عمار وعياله اليه فى سرقسطة ، فوافقه المعتمد ، ولكنه حذره فى نفس الوقت من ابن عمار ومكره^(٢)

وهكذا عادت لابن عمار ثقته بنفسه ، وسمى ثانية الى أن يمارس نفس اللعبة مع حصن آخر خارج عن سلطته ابن هود . فقد سقطت مملكة دانية التى أشادها مجاهد العامرى كما قلنا فى يد المقتدر بن هود عام ٤٦٨هـ / ١٠٧٦ م . وكان من جملة الحصون التابعة لها حصن يدعى شقورة ، تحصن فيه حفيد مجاهد ، وعندما مات هذا الحفيد خلفه عليه عبدان من عبيده هما ابراهيم وعبد الجبار ابنا سهيل ، ورأى هذان العبدان أن أحسن ما يمكن أن يفعله هو مساومة رؤساء الممالك المجاورة للحصن لشرائه ، وعند ذلك رأى ابن عمار أن يستولى على الحصن بنفس الطريقة التى استخدمها فى الحادثة الأولى دون أن يخسر المؤتمن درهما واحدا . على أنه لم يوفق فى هذا وانقلبت الدائرة عليه . وقبض عليه هذان العبدان وأحكما وثاقه ، وأعلنوا للملوك الطوائف عن رغبتهما فى بيعه . ولم يكن هناك بطبيعة الحال من متشوق لذلك أكثر من المعتمد فأرسل ابنه الى ابني سهيل هذين فاشتري منهما الحصن وابن عمار معاً^(٣) وعاد به الى قرطبة (ووافق ذلك كون المعتمد بها قد دخلها ابن عمار أشنع دخول وأسوأه على بغل بين عدلي تبين ، وقيوده ظاهرة للناس . وقد كان المعتمد أمر باخراج الناس خاصة وعامة حتى ينظروا اليه فى تلك الحال ، وقد كان قبل اذا دخل قرطبة اهتزت له وخرج اليه وجوه أهلها وأعيانهم ورؤسائهم ، والسعيد منهم من يصل الى تقبيل يديه أو يرد عليه ابن عمار السلام وغيرهم لا يصل الا الى تقبيل ركبته ، أو طرف ثوبه ، ومنهم من ينظر اليه على بعد لا يستطيع

(١) : ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ١٤٨ - ١٤٩ .

(٢) : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) : نفس المصدر والجزء ١٤٩ - ١٥١ .

الوصول اليه ، فسبحان محيل الأحوال • ومد يـل الدول • فدخل ابن عمار
قرطبة كما ذكرنا بعد العزة القمساء ، والملك الشامخ والرياسة الفارحة ذليلاً
خائفاً فقيراً لا يملك الا ثوبه الذي عليه ، فسبحان من سلبه ما وهبه ، ومنعه
ما كان به أمتعته (١) • ثم أدخل على المعتمد فقرعه وأنبه ، وذكره بأفضاله عليه •
فلم يحجر ابن عمار جواباً ، ثم أخذ ابن عمار يعتذر له عن فعلته ويطلب
منه الاقالة والصفح • فلم يسمع المعتمد بهما ، وقد وقعت هذه الاحداث
فى عام ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م • وبعث ابن عمار من سجنه بقصائد الى ولدى المعتمد :
الرشيد والراضى يستعطفهما ويطلب منهما التوسط لدى أبيهما (٢) • بل
وأرسل للمعتمد نفسه قصائد (٣) لو توسل بها الى الدهر لنزع عن جوره ، أو الى
الفلك لكف عن دوره ، فكانت رقى لم تنجع ودعوات لم تسمع ، وتمايم لم تنفع (٤)
كما بعث صاحب شاطبة الى المعتمد يشفع فى ابن عمار ويرجو العفو عنه ،
فبعث له المعتمد برساله يوضح فيها أخطاء وذنب ابن عمار التى اقترفها
ويوضح له أن عشرته لا يمكن أن تقال بسبب تلك الاخطاء وسبب تعريضه
بالمعتمد وأسرته • وكان يذكى هذا الشعور بالحقد والمؤاخذه اعتماداً على
زوج المعتمد وأم اولاده ، فقد ألحت عليه بالتخلص منه ومعاقبته على فعلته •
وكان حقد ها ينم عن عداً شخصي حتى قبل أن يهجوها ابن عمار هجاء
مرا فى قصيدته المشهورة التى أشرنا اليها •

ويروى عبد الواحد المراكشى (٥) فى شئ من التفصيل كيفية مقتل
ابن عمار • وخلاصة هذه الرواية أن ابن عمار نظم فى آخر ما نظم للتوسل
بالمعتمد قصيدته الحاثية المشهورة التى يقول مطلعها :
سجايك ان عافيت أندى وأسجى وغدرك ان عاقبت اجلى وأوضح ... الخ

وهى من غرر قصائده وأجودها ، فأثرت فى نفس المعتمد
فأرسل اليه فأحضره ، فقرعه وأنبه كالمادة • ويظهر أن توسلات ابن عمار
واستعطافه الصادق للمعتمد قد حرك كوامن الرأفة فى قلبه فقال له قولاً

-
- (١) : عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٨٣ - ١٨٤ •
 - (٢) : ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، ص ١٥١ - ١٥٣ •
 - (٣) : عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٨٤ - ١٨٦ •
 - (٤) : محمد عبدالله غان : تراجم اسلامية ، ص ٢٨٢ - ٢٨٨ •
 - (٥) : المصدر السابق ، ص ١٨٦ - ١٨٩ •

فهم منه ابن عمار أن العفو عنه سيحصل يوما . وكان ابن عمار في أثناء سجنه يطلب أوراقا يكتب فيها قصائده ورسائله التي يبعثها للمعتمد وأبنائه . وكان قد طلب قبل هذه المقابلة مع المعتمد ورقتان سطر في الأولى القصيدة الحائية التي ذكرناها .

وعندما شعر بقرب غو المعتمد عليه سطر في الورقة الثانية رسالة وبعث بها إلى ابن المعتمد الراضى كما يقول عبد الواحد المراكشى أو الرشيد^(١) فيخبره بما حدث بينه وبين المعتمد . وكان يحضر مجلس ابن المعتمد بعضا من وزرائه وجلسائه فلما سمعوا بهذا خرجوا وتناقلوا الخبر وأضافوا عليه حقا منهم عليه إضافات سيئة للغاية . وكان أكثر الحاقدين على ابن عمار الوزير أبو بكر بن أبي الوليد بن زيدون الذي يكن له عداءا شخصيا لما فعله مع أبيه . وقد حمل ابن زيدون وزير هذه الشائعات^(٢) . وعندما بلغت الابليات المعتمد استشاط غيظا وبعث لابن عمار يستفسر منه عن حقيقة ما حدث . فأذكر أن يكون قد حدث أحدا بما دار بينهما ، وعندما سأله عن مصير الورقة الأخرى التي طلبها تبين له كذب ابن عمار . فطار صوابه ، وفقد اتزانه ، وتوجه نحو سجن ابن عمار ، وهناك ضربه بآلة تشبه الفأس وتعرف بالطبرزين حتى مات . ثم أمر بنفسه وتكفينه وصلى عليه ثم دفنه^(٣) . ويقال أن المعتمد ندم بعد ذلك على قتله^(٤) . وهكذا انتهت فصول حياة ابن عمار بهذه النهاية الفاجعة المؤسفة . وعلى كل حال فإن ما حدث لابن عمار يؤكد لنا حقيقة هامة هي أن الملوك يمكن لهم أن يتساهلوا في كل شيء إلا في شيء واحد فقط وهو منازعتهم ملكهم والرغبة في سلطانهم .

(١) : رواية صلاح خالص عن هذه الأحداث تشير إلى أن ابن عمار بعث بملك الورقة إلى الرشيد ابن المعتمد . ومهما يكن فإن المسألة ليست بذات الأهمية ، فالمهم أن ابن عمار قد أخطأ في استعجاله نشر خبر احتمال إطلاق سراحه . فأودى هذا الخطأ إلى مقتله أخيرا .

انظر محمد ابن عمار الاندلسي ، ص ١٦٤ .

(٢) : صلاح خالص : نفس المرجع ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٣) : عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٨٦ - ١٨٩ .

(٤) : ابن خاقان : الفوائد ، ص ١١٠ .

حياة المعتمد العائليّة والسّمات المميّزة لشخصيته

يجد ربنا ونحن نأتى على ختام عهد المعتمد أن نتحدث عن الحياة الأسرية له ، وعلى السّمات المميّزة لشخصيته . أما فيما يتعلق بحياته العائليّة ، فقد أطنب كثير من المؤرخين فى اعجاب بذكر تفاصيل العلاقة الماطفيّة والحياة الهانئة التى كان يحيها المعتمد مع زوجته وأم أولاده اعتماد الطّبيعة بالريميكية . فقد التقى المعتمد باعتماد فى أجواء ظلال رومانطيّة شاعرية عند موج القصة أحد مروج اشبيلية ومتمنّزها . وعندما عرف أنها جارية لأحد رجالات اشبيلية ويدعى حجاج بن ريميك ، بادر الى شرائها ، ومن ثم تزوجها ، رغم أنها احتفظت بقلب سيدّها ريميك فكانت لاتعرف إلا به .

ولقد هام بها المعتمد حباً وكلف بها كلفاً شديداً . وكانت ذات خلال باهرة ، وروح مرحّة ، وديهيّة حاضرة ، وممّرفة لا بأس بها بالشعر وتذوقه . وقد شاطرت المعتمد أيام أنسه وساعات صفوه وهنائه . كما شاركه فى أجل وأدق حياته العريضة حتى بعد خلعه وتفقيه الى المنسوب على يد المرابطين كما سنصف بعدئذ . وقد أحبها المعتمد حباً جما خالصاً لم يطفأ أواره وجود حسناوات كثيرات من حظياته وجواريه اللاتي كن يحمن حول بلاط المعتمد وقصره ، كما لم يطفئه زحف السنين وكر الأيام وكانت ذات دالة عظيمة عليه . فلم يكن يرفض طلباً لها مهما عز وغلا . وتحفظ كتب الادب والتاريخ بقصص من هذا النوع . ولنا معنيين هنا بذكر دقائق وتفاصيل

(١) : ابن الأبار : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦١ - ٦٣ . —

صلاح خالص : المعتمد ابن عباد الاشبيلي ، ص ٣٠ - ٣٥ .

(٢) : المقرئ : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٨ - ٩ .

(٣) : انظر المقرئ : نفس المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٨ - ٩ . —

صلاح خالص : نفس المرجع اعلاه ، ص ٦٢ - ٦٣ .

حياتها العاطفية والزوجيه مع المعتمد ، ولكننا نجتزئ بعض
مواقف نبيل وأخلاص من الطرفين مما ، فالمعتمد رغم أنه
كان على علاقات عاطفية حميمة مع عدد كبير جداً من
سراريه واماؤه ، الا أنه كان يحتفظ لها بالمكانة المثلى
والدرجة الأسمى فى قصره وقلبه مما . ويكفى أن نشير
الى أنه أى المعتمد لم يتلقب بهذا اللقب الا بعد اقترانه بها .
فقد كان يلقب بالظافر والمؤيد من قبل . كما يكفى أن نشير
الى أن معظم أبناءه الذين خلدتهم كتب الأدب والتاريخ كانوا أبناءها .
وكذلك يكفى أن نشير الى أنها بقدر ما شاركت المعتمد أيام أنسه وسعاده ،
بقدر ما شاركته أيامه القاسية البائسه فى ضفاه بالمغرب الأقصى .

وقد أنجبت منه كما ذكرنا عدة أبناء شهروا فى
التاريخ . وكان بكر أبناءهما سراج الدولة عماد والمكى بأبى عمرو ،
الذى مر ذكره سابقا . وقد ولد للمعتمد فى ظم ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م
فى حياة أبيه المعتضد . وعهد اليه بحكم ولاية قرطبة بعد
سقوطها على يد مملكة اشبيلية . على أنه قتل بعد ذلك كما شاهدنا
فى أحداث خروج قرطبة عن طاعة العباديين . ولم يكن عمره وقت
ذاك يتجاوز السابعة عشرة بعد . وثانى هؤلاء الأبناء حسب الأهمية
لا السن ، الرشيد وأسمه عبيد الله ويكنى بأبى الحسين ،
ويصفه ابن اللبانة بقوله فيما ينقله عنه ابن الأبار (وكان دمثاً
رقيق حاشية الطبع ، طالع شيئاً من العلوم الرياضية ، وكشف له عن
غيب الأغنى ، حتى قيل أنه يجيد ضرب العود ، وكان له أدب
وشعر) . ونضيف أيضاً الى هذا انه كان سياسياً محنكاً ، وكان ذا رؤية

- (١) يقال أن المعتمد خلع عن ثمانمائة امرأة فيهن أم الولد ، والجارية ، والأمة .
الا أن هذا أمر مهالغ فيه لاجدال .
- أنظر صلاح خالص : المعتمد بن عباد الاشبيلي ص ٦٠ .
- (٢) ابن الأبار : المصدر السابق ج ٢ ص ٦٠ - ٦٣ .
- (٣) نفس المصدر والجزء والصفحات .
- (٤) نفس المصدر والجزء ص ٧٠ - ٧١ .
- (٥) أنظر قبله ص ١٩٤ .
- (٦) ابن الأبار : نفس المصدر والجزء ص ٦٨ - ٦٩ .

سياسة بعيدة ، فقد طرض أباه الممتد في أمراستدعاء
المرابطين والاستجداء بهم^(١) . وقد نفى مع أبيه الى أغمات
المدينة التي نفى اليها بعض ملوك الطوائف ، ومات في
حوالي عام ٥٣٠ هـ^(٢) .

وثالث هؤلاء الراضى ، وأسمه يزيد ويكنى بأبى خالد ،
وكان ذا اهتمام بالثقافة والمعرفة . وقال عنه ابن الأبار (وكان
الراضى من أهل العلم والأدب ، كلفا بالمطالعة والدراسة ، قرأ
كتب القاضي أبى بكر ابن الطيب ، وأشرف على مذهب أبى
محمد بن حزم الظاهري ، فمهر في الأصول ، وذهب الى النظر
والاختيار) . كما يضيف ابن الأبار قوله عنه (وهو شاعر
بنى عماد بعد أبيه ، على أنه أقوى طرصة منه ، وأبوه
ألطف طبعا وأرق صنعا^(٣)) . وأطرب الفتح ابن خاقان في
المدح الرخيسى المتكلف بذكر شئله وأوصافه^(٤) . ويسبدو
أن اشتغاله بالأدب والمعرفة والثقافة قد شغل وقته كثيرا
حتى لقد أقعده هذا عن الاهتمام بالظروف الحرجة لدولة
أبيه . وقعد به عن مشاركة أخوته أخطر الأحداث والمعارك . وأتضح
هذا جليا عندما تهاطأ في تلبية دعوة أبيه له لخوض معركة ضد
النصارى . مما جعل المعتمد يحنق عليه ويكتب له قصيدة
يسخر فيها منه ومن تعلقه بالأدب دون المعارك والمواقع التي شهر
بنو عماد . فبعث اليه الراضى بقصيدة يعلن فيها توبته ويقر
بأخطائه ويستعطف أباه أن يعفو عنه ويصفح^(٥) . وقد ولاه المعتمد
حكم مدينة الجزيرة الخضراء . وعندما قدم المرابطون تلبية
لدعوة المعتمد ، طلبوا الجزيرة الخضراء منه . فولاه على مدينة
ربطه التي استمر يحكمها حتى مقتله على يد المرابطين كما سنرى بعد^(٦) .

(١) أنظر بعد ص ٢٧٤

(٢) صلاح خالص : المعتمد ابن عماد الاشبيلي ص ٨٣ - ٨٤ .

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ٧٠ - ٧١ .

(٤) قلائد العقيان ص ٣٥ - ٣٦ .

(٥) أنظر قلائد العقيان ص ٣٦ - ٤٠ . صلاح خالص : نفس المرجع ،

(٦) أنظر بعد ص ٩١ - ٩٦ . ٢٥٦ - ٢٥٧ و ص ٣٣١ - ٣٣٢ .

ورابيع هؤلاء الابناء ، المأمون وأسمه الفتح ويكنى
 بأبى نصر ، وقد تولى أمر ولاية قرطبة بعد عودتها
 ثانية الى سلطة العباديين عام ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م وقد استمر
 يحكمها حتى قتل على يد المرابطين عند خلعهم للمعتد^(١)
 وبالإضافة الى هؤلاء فهناك عدة أبناء من أعمام هذه هم :
 المعتد وأسمه عبد الله ، ويكنى بأبى بكر ، والربيع ويلقب
 بتاج الدولة ويكنى بأبى سليمان ، والمعتلى زين الدولة
 أبو هاشم ، ثم فخر الدولة ، وشرف الدولة . ثم أخيراً
 أبنته بثينة التى أخذت من الأدب والعلم بسبب^(٢) .

كما رصدت كتب الأدب والتاريخ بعض أسماء لابناء المعتمد
 من بينهم المؤتمن ، سراج الدولة يحيى ، وذخر الدولة حكم^(٣) ، وقد
 غرنا على ذكر لابن آخر للمعتد على عبد الوهاب ويلقب بمعز
 الدولة . وقد أخذ بطرف من الأدب والفقه والطب وتوفى بالمغرب
 عام ٥٢٠ هـ / وسنتعرف لاحقاً على ابن آخر كان له دور فى المقاومة
 العبادية ضد المرابطين ، وهو عبد الجبار بن المعتمد^(٥) .

ومن الحق أن نشير الى أن علاقات المعتمد بأبنائه
 وزوجته أعماد كان يسودها الألفه وروح المحبة والحنو ، فلم
 نعر على موقف واحد يشبه موقف أبيه المعتضد مع أبنائه
 ونستطيع أن نسجل هذا الترابط العائلى فى سجل المعتمد الايجابى
 فعلاقاته . المعتمد بأبنائه كانت تقوم على ركائز من المحبة
 والمطف والحنو . وكانت علاقات الأولاد بأبيهم تقوم على ركائز
 من الاكبار والاجلال والتقدير ، وليس على التوجس والخوف والرهبة
 مثلما كان وضع أبناء المعتضد مع أبيهم القاسى .

(١) ابن الأبار : المصدر السابق ، والجزء ، ص ٦١ - ٦٣ .

(٢) صلاح خال : المعتمد ابن عباد الاشبلى ، ص ٨٤ - ٨٥ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٨٥ .

(٤) عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة ، قسمان -

القسم الاول ، ص ٩٧ .

(٥) أنظر الباب الرابع ، ص ٣٢٠ .

واخيرا فان كتب الأدب والتاريخ حفظت لنا ذكر زوجة

ثانية حرة هى ابنة مجاهد العامرى ملك دانيية والجزائر الشرقية ، ولكن يبدو أنها لم تكن ذات دور خطير فى حياة المعتمد . ولذلك مر ذكرها فى المصادر المعاصرة مروراً سريعاً^(١) . كما نحب أن نشير الى أنه كلن هناك من السرارى والاماء اللاتى كن فى حوزته ، ولم يه دوراً مميّزاً هاماً فى جلب المتعة والسرور للمعتمد . وكن يشاركه ساعات أنسه ولياليه العابقة بمجالس الأئس والطرب والموسيقى ، كما كن النموذج الأنشوى الصارخ الذى استلهم منه المعتمد قصائده فى الغزل والنسيب مثل جوهرة التى قال فيها أعذب الأقوال والاصاف ، وسحره ووداده ، وأم عبيده^(٢) السمات المميزة لشخصية المعتمد :

لمل أبرز الصفات التى كان يتحلى بها المعتمد هى الرأفة والأشفاق والحلم فلم يكن قاسياً غليظاً مثل والده المعتضد ، وإنما كان حليماً رؤوفاً مع الناس عموماً يستوى فى هذا عائلته أو خاصته وحاشيته ، أو طمة الناس . ولقد رأينا ما يدل على هذا فى معرض حديثنا عن علاقته بأبنائه . فقد كان أقصى عقاب أتخذه ضد ابنه يزيد الراضى هو التتدر والتهكم . وهو فى هذا يختلف عن أبيه المعتضد الذى قتل ابنه بيده . وهدد المعتمد نفسه بالقتل أيضاً كما مر بنا سابقاً^(٣) .

وحتى فى حياته العامة كان يسير وفقاً لهذه الصفات الانسانية الحسنة . فقد أمن الكثيرين من الذين قسى عليهم والده ، ورد لهم أموالهم وحقوقهم ، كما أنه امتاز بحسن الظن وسلامة الطوية . ولم نعثر على صورة أو موقف واحد

(١) المقرئ : المصدر السابق ج ٥ ، ص ١٤٦ - ١٤٨ .

(٢) انظر : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الأول ، ص ٣٤ -

٣٥ - المقرئ : المصدر السابق ج ٥ ، ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

صلاح خالص : المعتمد ابن عباد الاشبلى ، ص ٧٣ - ٧٧ .

(٣) أنظر قبل الباب الثانى ، ص ١٧٤ .

بدا لنا فيه المعتمد كاسيا غليظا لا تعرف الرحمة
سبيلا الى قلبه فيما هذا موقفه من خروج ابن
عمار عليه . ومع هذا فانه يتراعى لنا بالنسبة لهذه
القضية أنه بجانب الامور الشخصية ، فان دواعى المحافظة
على سلطانة هـ هى التى دفعتة الى قتل وزيره
أكثر مما دفعتة كوامن القسوة والغلظة فى قلبه . وفى
الواقع فأنه يجب علينا ونحن نرسم هذه الصورة الشخصية
للمعتمد ومقارنتها بآبيه أن نأخذ فى الاعتبار أن شخصية
أبيه وما عرف عنه من قسوة ربما كانت نتيجة لأن ظروف
تكوين الدولة كانت تستدعى ذلك من آبيه . ولذلك أراد
المعتمد عن طريق المعاملة الحسنة لكل خاصته ورعاياه أن
يكسب محبتهم ، وذلك بتغيير صورة بنى عباد فى نظرهم . كما أنه
كان لشاعرية المعتمد ذاتها أثرا فى تلك المعاملة الحسنة
للناس . فما من شك أن شاعرية المعتمد أوجدت فى
ذاته هذا الجانب الانسانى الذى كان يفتقر اليه أبوه .

ومن أبرز مميزات شخصية المعتمد أنه كان سليم الطوية

— بالنسبة للناس والانصار فقط — حسن الظن والثقة . ولم يكن
متشككا متوجسا قليل الثقة فى الانصار والناس مثلما كان أبوه .
ولكنه كان شديد الثقة بالناس والانصار . ولم يصح لدواعى
التوجس والتشكك سواء أكانت تلك دواعى شخص ذاتية . أو
دسائس ومؤامرات يحكيها بعض المفرضين . ورأينا صورة واضحة
تدل على سمو أخلاقيات المعتمد وذلك عندما بعث بعض
المفرضين له عند تسلمه الحكم بقصيدة يحذرونه فيها
من الوزير . ابى الوليد بن زيدون ومن خطره وأطماعه ، فكذب
لهم قصيدة طويلا يكذبهم فيها ، ويميلن للملاء حسن ظنه
وثقته بوزيره ، ويحذره من الصيد فى المياه العكرة . وكان
هذا الموقف كافيا للجسم أفواه المفرضين والمفسدين (١)

(١) عندما تولى المعتمد السلطة بعد آبيه ، رفعت اليه رقعة فيها عدة
ابيات من الشعر تعرض بالوزير ابى الوليد بن زيدون ويقول =

وبالإضافة الى هذا يمدّ التقدير والاحترام لرجاله من أبرز صفاته أيضا • فقد كان شديد التقدير والاحترام لوزرائه وخاصته • وكان يعاملهم معاملة الصديق للأصدقاء وليس معاملة الملك أو السيد لأتباعه • بل لقد كان يتبسط معهم • ويفقد شؤونهم • ويحادثهم ويشاورهم مجالس أنسهم ومرحهم • بل انه كان يتمنى الخروج لملاقاة بعضهم والترحيب بهم لولا أن ناموس الملك ومقتضيات الحكم كانت تحول دون ذلك (١)

وبالإضافة الى هذا كان المعتمد كريما سخيا جوادا شأنه شأن والده • وسنرى بعد صورة مثالية رائعة لهذا الكرم والجود وحتى وهو في أعسر الأوقات وأحلك الظروف (٢) • ولعل من نافلة القول أن نشير الى أن المعتمد كان شاعرا متميزا • طرق معظم مقاصد الشعر وأغراضه وبرز فيها وحلق • ومن الطبيعي جدا أن يكون للأدب عنده سوق رائجة وفرصا رحبة واسعة • وأن يؤم بلاطه العلماء والأدباء والشعراء والمفكرين (٣)

تلك هي بعض الجوانب المشرفة في شخصية المعتمد • وهي التي جعلت المؤرخين بالإضافة الى نهائيه المفجعة يفيضون في الإشادة به والثناء عليه • دون أن يعنوا بالجانب السلبي من شخصيته • فلم يكلفوا

== مطالعها :

يا أيها الملك العلي الأعظم اقطع وريدي كل باغ ينأى
لاتترك للناس موضع شبهة واحزم فضلك في العظام يحزم • الخ •
فلما قرأها المعتمد وعلم ما تحمل من الدسيسة وقع خلف تلك الرقعة بعدة أبيات يقول فيها :

كذبت مناكم صرحوا أو جمجموا الدين أفتن والموءة أكرم
خنتم ورمتم أن أخون وانما حاولتم أن يستخف يللمم
— ويللمم هو ميقات أهل اليمن ويقع على بعد مرحلتين من مكة •

انظر ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني — المجلد الاول ، ص ٤٢ — ٤٠
• ابن خاقان : القلائد ، ص ١٧ — ٢٠ •

(١) انظر ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني ، المجلد الاول ، ص ٣٦ — ٣٧ •

ابن خاقان : القلائد ، ص ٧ — ٩ •

(٢) انظر عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٠٥ — ٢٠٦ •

(٣) انظر فيما بعد ، الباب الخامس ، ص ١٣٨

أنفسهم هنا ، رصد تلك الجوانب القائمة من شخصيته ، فقد نسوا ذلك أو تناسوه ، في خضم اهتماماتهم بمأساته المفجعة . ولكن التاريخ وكما هو معلوم لا مكان غده للمواطن ومن ثم فلا بد للمؤرخ المنصف أن يحكم بما له وبما عليه في موضوعية متجردة عن الهوى . فالمعتمد لم يكن ملاكا كما صورته لنا كتب التاريخ والادب ، ولكنه كان بشرا تختلج في نفسه جميع أحاسيس الانسان ومشاعره المتناقضة . ونستدرك فنقول ان هذا لا يعنى التماسا للمعذر والمبرر له ، فان تبعات المنصب ، وفداحة المسؤولية الملقاة على عاتقه تفرض عليه أن يكون في مستوى تلك المسؤولية فلا يترك لنزواته ورغباته وغرائزه الحسية والمعنوية العنان وينساق في لهات محموم في ارضاء واشباع تلك الرغبات مما لا يليق بملك له مسؤوليات خطيره وعليه تبعات جسيمة .

هذه المقدمة التي استهللنا بها حد يثنا عن الجانب السلبي من شخصية المعتمد ضرورية لنوضح نقطة هامة وهى أنه من الثابت والمسلم به عبر العصور ان عدم الاحساس بالمسؤولية والانغماس في اللهو واشباع النزعات والميئس الناعم هى أسباب غير مباشرة بطيئة شديدة المفعول في انحلال الدول وسقوطها يستوى في هذا ملوك الطوائف ومن كان قبلهم أو من جاء بعدهم على المستوى البشرى عموما .

نقول هذا لأننا قد رأينا تبريرا واهيا لانصراف المعتمد الى اللهو والتمتع والأنس بحجة أن الموضوع ليس موضوع وجود هذا الاتجاه أو عدم وجوده ، بل بالقدرة على خلق نوع من التوافق والتوازن بين تلك الرغبات وبين التبعات والمسؤوليات ، بدعوى أن هذا الاتجاه يعد مظهرا أصيلا في حياة أمراء وملوك الطوائف في الاندلس علاوة على أنه كان المظهر المميز للأرستقراطية الاندلسية ، ولكن هل كون هذا الاتجاه مظهرا أصيلا ومألوفا في المجتمع الاندلسي يعفى الأمراء والملوك من تبعات التفسخ الأخلاقي والتكر للمثل الأخلاقية الإسلامية ؟ هل يعفيهم هذا وهم الذين يقفون الجزء الأكبر من حياتهم الخاصة في البحث عن اللذائذ ومساكن المتعة كما يقول صلاح خالص نفسه ؟؟ (٢) .

(١) : انظر ، صلاح خالص : المعتمد بن عباد الاشبيلي ، ص ٥٦ - ٥٩ ،

و ص ٩١ - ٩٣ .

(٢) : نفس المرجع ، ص ٩١ .

أى انسجام وتوافق ذلك الذى استطاع المعتمد أن يكيف به حياته العملية والشخصية ؟؟ لم نجد فى حقيقة الامر عند استقراءنا لتاريخ المعتمد بالذات ما يدل على انه كان صاحب انجاز تاريخى عظيم لا فى حياة الاندلس عموماً ولا فى حياة اشبيلية خاصة . فما هى اسهامات المعتمد البارزة على المستوى المحلى والقومى التى تفرضه على التاريخ فرضاً كشخصية تاريخية ؟؟ حتى فى النواحي الانشائية العمرانية لم نعثر على اسهامات بارزة واضحة تسجل فى صفحته . نعم لقد فرض المعتمد نفسه كشاعر وكإنسان وملك متفرد ، وكبائس فقير خاصمه الزمن وناهضه الدهر . أما فيما عدا هذا فلا . ولهذا فان اتهام بعض المؤرخين للمعتمد بأن انكبابه على اللهو الى درجات جاوزت الحد كان سبباً من أسباب تدخل المرابطين لتدارك الوضع المتدهور . لا ينفى عنه نقض المستشرق الفرنسى بيريز له أو غيره . فالقضية قضية عامة تنسحب على الدول فى أى مكان وزمان ، ولمنحصها أن عدم الاحساس بالمسؤولية والانغماس فى اللهو والمترفات الحضارية الى حدود غير معقولة هى أسباب جوهرية لسقوط الدول وانحدارها .

وهذا ما يفسر تحاملنا على المعتمد بالله فالظرف الذى كانت تمر به الاندلس وقتذاك كان حرجاً ودقيقاً . ^{كان} ان نصارى يشددون ضغطهم على املاك الاسلامية . فكان الواجب عليه باعتباره اقوى ملوك الطوائف ، وأفسحهم ملكاً ، وأوسعهم ثراءً وجاهاً أن يصرف النظر عن اهتماماته الخاصة ويعطى الاهمية القصوى لتدارك الموقف العصيب الذى تعرضت له الاندلس وقتها . ولكن عدم المبالاة وعدم الاحساس بخطورة هذا الموقف العصيب كان ما يدور فى الاندلس ليس بمفترض اليه . كل هذا يجعلنا ننحى باللائمة عليه . ونعتقد اعتقاداً راسخاً أنه كان بمقدور مملكة اشبيلية تزعم ممالك الاندلس وقيادتها نحو شكل من أشكال الوحدة أو الاتحاد على الأقل فى أمر مواجهة النصارى .

(١) : يوى المستشرق هنرى بيريز Henri Peres فيما ينقله صلاح خاليس عنه فى كتابه (عن الشعر الاندلسى) أن تهم الفسق والانحلال التى وجهت لملوك الطوائف هى من وضع مؤرخين عاشوا فى عصرى المرابطين والموحدين . ومن هنا جاء تفسيرهم لسلوك هؤلاء الملوك بتلك القسوة . وفى رأيه أن ملوك الطوائف لا يختلفون عن غيرهم ممن كان قبلهم أو من جاء بعدهم .
أنظر : صلاح خاليس : المعتمد ابن عباد الاشبيلي ، ص ٩٢ - ٩٣ .

ومهما يكن من أمر فقد أسرف المعتمد اسرافاً شديداً
 فى تحقيق رغباته ولذائذه الحسية والمنوية ، فقد كان يعبّ من تلك
 اللذائذ الحسية والمنوية عباً • إذ كان له فى تلك اللذائذ الحسية
 كالخمر والشغف بالنساء ، أو اللذائذ المنوية كجالس الطرب والتفزل
 بالفلمان جولات وصولات لا يزيد بحثنا أهمية تبيانها وإيضاحها •
 فقد أسرف فى العبّ من هذه اللذائذ الى حد التهلك والخلاعة^(١) •
 ويكفى أن نشير الى أن سلفيه قد عفا مروءة وشهامة عن التفزل بالفلمان
 والتهلك فى أوصافهم • كما يكفى أن نشير الى أننا لم نعثرفى حياة سلفيه
 بالذات على موقف فقد أحدهما فيه وعيه تحت تأثير الخمرة وممرأى
 من أبنائه كما حدث للمعتمد^(٢) •

ويؤسفنا أن نشير الى أن المعتمد استعان بالنصارى
 لتحقيق مآربه وأهدافه التوسعية • وهو أمر لم يقدم عليه أبوه وجده من
 قبل كما قلنا سابقاً • كما يؤسفنا أن نشير الى أنه كان انتهازياً ومتقلباً •
 وظهر ذلك واضحاً عندما داهم مملكة قرطبة ، وهو الذى جاء لنجدها
 ونصرتها • كما ظهر ذلك واضحاً أيضاً عندما طلب من يوسف بن تاشفين
 أن يعهد اليه بمملكة غرناطة بعد خلع مليكها عنها كما سنرى بعد^(٣) •

على أن الموقف الإيجابى الواضح والحسنة المميّزة الناصبة
 فى سجله هى موقفه الإسلامى المشرف باستدعاء المرابطين لتدارك أمر
 الأندلس بعد تهوّر الأوضاع واشتداد ضغط النصارى عليها كما سنرى بعد
 أن شاء الله^(٤) • وكذلك موقفه فى موقعة الزلاقة التى أبلى فيها بلاءً حسناً
 مخلصاً النية لله ثم لبني قومه وأخوته من المسلمين •

(١) : انظر ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ٣٦-٣٧ •

— عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٦٠-١٦١ • —

صلاح خالسى : المعتمد بن عباد الاشبلى : ص ٤٢-٤٣ ، ص ٥٥-٩١ •

(٢) : انظر صلاح خالسى : نفس المرجع ، ص ٩٣-٩٥ •

(٣) : انظر بعد ، الباب الرابع ، ص ٣٢٢ •

(٤) : انظر بعد ، الباب الرابع ، ص ٣٧٠-٣٧١ •

الباب الرابع

تطور الأوضاع السياسية في الأندلس ونهاية دولة بني عباد

- اشتداد حركة الاسترداد المسيحي وسقوط طليطلة •
- تدهور العلاقات السياسية بين الفونسو والمعتمد
- وقية ملوك الطوائف والتفكير في الاستعانة بالمرابطيين •
- موقعة الزلاقة •
- قضاء يوسف بن تاشفين على مملكة بني عباد وعلى غيرها
- من ممالك الطوائف •

اشتداد حركة الاسترداد المسيحى ، وسقوط طليطلة :
=====

عند حد يثنا عن الحرب الاهلية بين ابناء فرديناند الاول رأينا
أن الغلبة والنصر كانا من نصيب سانشو الأخ الأكبر الذى عهد له والده بحكم قشتالة .
ورأينا يوغم أخاه الفونسو بالتزام أحد الاديرة ، وارتداء مسح الرهبان . ورأينا
الفونسو يفر من الديو بمساعدة أخته أوراكا ويلتحق لاجئا ببلاط الملك المسلم المأمون
ابن ذى النون صاحب طليطلة كما مر بنا سابقا (١) وماتركنا بسطه وتفصيله من تلك
الاحداث نعود هنا الى ذكره والتحدث عنه لارتباط ذلك بهذه النقطة بالذات .
فالفونسو فر الى المأمون بن ذى النون الذى استقبله احسن استقبال . فاکرم
وفادته وأحسن عشرته وعظمه معاملة الضيف الملكى العزيز المجلل لا معاملة اللاجئ
السياسى أو الأمير المطرود المخلوع (٢) ونحن هنا لا نملك تأكيداً واضحاً من أن
وراء تلك المعاملة اللطيفة اهدافاً سياسية رغب المأمون فى جنى جناها فيما لو تغيرت
وتطورت الامور لصالح الفونسو . ولكننا لا نستبعد ان يكون هذا خاطر قد غن
للمأمون وهو يعامل الفونسو تلك المعاملة الكريمة المفرطة . وما يحكى عن تلك الفترة
التي اقام فيها الفونسو فى طليطلة أنه سمع ذات يوم وهو فى مكان قصى حواراً دار
فى مجلس المأمون عن المدن وحصانتها ومناعتها والوسطا لى للقليلة بالتغلب عليها . الخ
فكان مما سمعه ان مدينة طليطلة لا يمكن ان تسقط بسهولة فى يدى مهاجميها لضعف
موقعها وشدة تحصيناتها الدفاعية الطبيعية أو البشرية ، وأنه اذا اريد الاستيلاء عليها
فان الامر يستوجب ارهاقها بالحصار الطويل ، وتنضيق السبل عليها بقطع المؤونة
عنها ، واث الفرع والرعب فى نفوس أهلها . الخ . جرى هذا الحوار والفونسو
يستمع اليه بانتباه بالغ ، فملق ذلك فى ذهنه وملك عليه خاطره (٣)

ومهما يكن من امر فان اقامة الفونسو ببلاط المأمون لم تطل كثيراً ، اذ تطورت

- (١) : انظر قبل الباب الثالث ، ص ١٨٤ .
(٢) : انظر :
- J.B. Bury: Op cit. , p 396
- Jan Read: Op cit. , p 102

- محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ٣٩٠ .
(٣) : محمد عبد الله عنان : نفس المرجع ، ص ٣٩١ ، ص ٣٩٣ .

الأمور في اسبانيا النصرانية وانجلت عن مقتل سانشو تحت اسوار قلعة أخته اوراكا .
فبعث اشراف قشتالة وليون كما رأينا الى الفونسو يطلبون منه القدوم لتسليمه مملكة
أخيه^(١) . ويذكر أن الفونسو أخفى نبأ موت أخيه عن المأمون ، وتأهب لمفادرة
المدينة خفية ، ولكن المأمون فطن الى هذه الحيلة فأمر باعتقاله ، غير
أن الفونسو استطاع أن ينجو بنفسه . على ان هذه الرواية لا يعتد بها ، لانه
ثبت ان الفونسو ابلغ الخبر للمأمون الذي اظهر غبطته وسروره لذلك^(٢) ،
وسمح له بمفادرة المدينة ، ولم يطلب منه سوى أن يتعهد بعدم مهاجمة أراضيه
ومساعدته ضد اعدائه من ملوك الطوائف . ثم قدم له من جليل النفائس
وشمين التحف ما أوجب شكر الفونسو له . ولم يتكف بهذا بل خرج يودعه في
موكب ملوكي عظيم^(٣) .

وعلى أية حال فقد ترجع الفونسو على عرش مملكة أبيه أو أخيه
— لافرق — كما مربنا ، ورأيناه يصبح سيد اسبانيا النصرانية النافذ ، وصاحب
الكلمة الاولى والاخيرة فيها . كما مربنا في ثنايا تلك الاحداث ذكر شيء من
خصائص سياسته ومعالم شخصيته مما لا حاجة له الآن هنا^(٤) .

وما علاء الفونسو عرش قشتالة وليون وجليقية اخذت حركة الاسترداد
(La Reconquista) مسارا ذا صبغة صليبية^(٥) . اذ حاول الفونسو أن يوحد
صفوف مملكتي ارغونة ونبرة التابعتين لابناء عميه سانشو وراميرو الأول . وبعث
في نفوس حكام تلك المملكتين روح الوحدة والتآلف ، ونبذ الفرقة والخصومات
والتعاون ضد المسلمين . ثم أخذ يعمل لأول مرة في تاريخ اسبانيا النصرانية على
التقرب الى الكنيسة الرومانية . فبدل الطقوس الاسبانية القوطية بطقوس
كنيسة روما ، وفتح قنوات للاتصال ببابا روما جريجورى السابع . وفتحت أبواب اسبانيا

(١) : حسين مؤنس : مقال بعنوان : السيد القبيطور وعلاقته بالمسلمين ، المجلة
التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، العدد الاول ، ص ٤٤ — ٤٥ .
محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ٣٩١ — ٣٩٣ .

(٢) : محمد عبد الله عنان : نفس المرجع ، ص ٣٩٣ .

(٣) : نفس المرجع والصفحة .

(٤) : انظر قبل الباب الثالث ، ص ٢٠٧ .

(٥) : نذكر بهذه المناسبة بأن البابا اويان الثاني حرم على الاسبان أن يشتركوا في
الحرب الصليبية في المشرق لأن اعداء النصرانية (المسلمون) يهددونهم في عقور
دارهم وانه يكفي النصارى الاسبان فخرا أن يقاتلوا المسلمين في الغرب (اسبانية) :
انظر : يوسف اشباح : نفس المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

(١) امام الرهبان الكيلونيين • وانضوت بذلك الكنيسة القوطية القديمة تحت ظل كنيسة روما • ومن جهة اخرى وسع اتصالاته مع فرنسا جارته في الشمال والمتزعة للحروب الصليبية آنذاك • ولتأكيد الانفتاح على أوروبا التي تدن بالولاء لكنيسة روما تزوج من الاميرة كونستانس ابنة احد امراء برجونييه الذين ينتمون الى اسرة كلابيه التي تحكم فرنسا وقتها (٢) •

وبدا كما لو أن اسبانيا عادت الى المعسكر الاوسمى الصليبي بعد طول انفصال وغربة • وبات في امكاننا ان نعتبر ان اسبانيا النصرانية غدت تدور في فلك الكنيسة الرومانية وتخضع لرغبات بابواتها • رغم ما قيل من أن الفونسو كان يعارض في كثير من الاحيان رغبات الكنيسة والبابا معا (٣) •

وعندما تولى الفونسو تلك المملكة النصرانية شبه الموحدة ، كانت احوال المسلمين في حالة سيئة من التفكك والتمزق ، وتبعث في نفس الوقت على المزيد من الاسى والحزن كما تثير الشفقة والسخط معا • فمملكة طليطلة كانت تدخل آنذاك في نزاع مميت مع جاراتها الممالك الاسلامية • كما كانت ترنو ببصرها الى تحقيق حلم مليكها القديم الجديد وهو الاستيلاء على قرطبة وانتزاعها من يد مليكها

(١) : نسبة الى مدينة كلوني Cluny في فرنسا ، حيث اسس فيها حركة اصلاح ديني مسيحي عرفت بحركة الاصلاح الكيلونية • وقد انبثقت منذ القرن العاشر الميلادي ، حيث اسس وليم الاول التقى دوق اوكستين ديرا في سنة ٩١٠ م • وكانت هذه الحركة تهدف الى تصحيح مسار الكنيسة المسيحية الغربية ، وكذلك تفادي الاخطاء والمفاسد التي تردت فيها بقية الاديرة الماصرة الاخرى • وقد قام هذا النظام الذي يرى الجديد على ركيزتين اساسيتين هما التبعية المباشرة للبابوية فقط دون ان يكون للحكام العلمانيين او الاساقفة المحليين حق الاشراف على هذه الاديرة الكلونية • وثانيهما قام هذا النظام على اساس الطاعة المطلقة ، وتقديم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد • وقد انتشرت هذه الحركة الاصلاحية الديرية في القرن الحادي عشر الميلادي وشملت معظم اوربا •

انظر : سعيد طشور : اوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩ ، ج ٢ ، ص ١٣ ، وح ١ من نفس الصفحة •

(٢) : انظر : حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٢٥٢ - ٢٥٣ • يوسف اشباح : تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ، الجزء الاول ، ص ١٣٨ وما بعدها • حسين مونس : السيد القميطور وعلاقته بالمسلمين ، ص ٤٧ - ٤٨ • محمد عبد الله غان : دول الطوائف ، ص ٣٩٧ ، ص ٤٠١ - ٤٠٢ •

(٣) : محمد عبد الله غان : نفس المرجع ، ص ٤٠٢ •

الجد يد المعتمد * وقد تحقق لهذا ذلك بفضل الظروف التي سنحت له وقتذاك كما رأينا ^(١) .
 أما المعتمد بالله فقد كان يدبر مع وزيره ابن عمار مشاريع الاحتلال والتوسع على حساب
 الممالك المجاورة كفرنطة وغيرها ^(٢) . وبالنسبة لمملكة سرقسطه فإنها كانت تمر آنذاك
 بأدوار سيئة في نزاعاتها العائلية المستمرة بين الأخوة من أبناء سليمان المستعين ابن
 هود ، ولم يكن بعضهم يتورع من الاستعانة بأمرأ الامارات النصرانية المجاورة كأرغونة
 ونبرة . بينما نرى البعض الآخر منهم يشغلون في احيان اخرى في رد عادات هؤلاء
 الامراء انفسهم ، وكذلك رد عادات امارة برشلونة الجارة المسيحية الثالثة الواقعة في
 الشمال الشرقي من سرقسطه ^(٣) . أما مملكة بطليوس فقد كان ملكها عمر المتوكل مشغولا
 في نزاع مع اخيه يحيى المنصور ، وخلافه مع ابن ذى النون ^(٤) . وأما الممالك الاخرى
 فقد كانت اضعف وأبعد من أن تؤثر في مجريات الامور السياسة والعسكرية .

وهكذا فما ان اعتلى الفونسو العرش سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٢ م حتى وجد
 أمامه ظمأ اسلاميا مفككا مضطربا متناحرا . وهياً له هذا تشديد ضغطه على
 المسلمين وارهاق ملوكهم بطلب الاتاوات المضمومة عليهم سنويا منذ عهد ابيه
 فرديناند . ولم يستثن احدا من ذلك ، حتى حليفه ومضيفه المأمون بن ذى النون ،
 فقد فرض عليه جزية سنوية كان يؤديها له طوط او كرها ^(٥) . وتعتبر هذه الفترة من عهد
 الفونسو السادس التي تبدأ من سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٢ م التي تولى فيها عرش قتالاه
 وليون وجليقية ، وتنتهي في عام ٤٨٤ هـ / ١٠٨٦ م ازهى فترات حكمه وخاصة بعد
 استيلائه على طليطلة ^(٦) .

ولكى نزيد هذا الرأي توضيحا وتأكيذا ننقل عن ابن الكردبوس وصفه
 لتلك الفترة الحرجة من تاريخ المسلمين ، اذ يقول (وخلص الملك للقدس بن فردلند ^(٨) ،
 واستبد به واستفحل امره ، واستحكم في المسلمين طمعه ، وصح في قياسه الفاسد أن

- (١) : انظر قبل ، الباب الثالث ، ص ١٩٤-١٩٦ .
- (٢) : انظر قبل الباب الثالث ، ص ٢٠٥ وما بعدها .
- (٣) : محمد عبد الله خان : دول الطوائف ، ص ٢٧٩ - ٢٨١ .
- (٤) : محمد عبد الله خان : نفس المرجع ، ص ٨٨ .
- (٥) : محمد عبد الله خان : نفس المرجع ، ص ١٨٠ .
- (٦) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٧٦ - ٧٧ .
- (٧) : ابن الكردبوس : نفس المصدر ، ص ٧٦ - ٧٨ .
- (٨) : اي الفونسو السادس .

يستخلص جزيرة الاندلس لنفسه • فلم ينم عن شن الفارات ومواصلة الغزوات ، وصادف ملكه نفاقا كثيرا بين المسلمين واختلافا عظيما • وضعف بعضهم عن بعض بأنجاد الرجال ، واللعين في اثناء ذلك لما بينهم من الفتنة مسرورا • وهم مع ذلك مشغولون بشرب الخمر واقتناء القيان ، وركوب المصاوي وسماع العيذان • وكل واحد منهم يتنافس في شراء الذخائر الملوكية ، متى طرأت من المشرق كي يوجهها الى الفتح هدية ليتقرب بها اليه ويحظى دون مطالبه لديه الى ان ضعف من أولئك الثوار الطالب والمطلوب وذل الرئيس والمرؤس ، وافترقت الرعية ، وفسدت احوال الجميع بالكلية ، وزالت من النفوس الانفة الاسلامية ، وأذعن من بقي منهم خارج الذمة الى أداء الجزية ، وصاروا للفنش عمالا يجبون له الاموال لا يخالف امره احد ، ولا يتجاوز له احد • ووكلوا امور المسلمين الى اليهود ، فعاثوا فيهم عيث الاسود ، وجعلوهم حجابا ووزرا • وكتابا • وتطوف الروم في كل عام على الاندلس يسبون ويغنمون ويحرقون ويهدمون ويأسرون •

وقبل ان نختتم الحديث عن هذه النقطة المتعلقة باشتداد حركة الاسترداد

المسيحي لابد ان نشير الى الاحداث التي سبقت سقوط طليطلة في يد الفونسو • فقد توفي المأمون بن ذي النون بعد قليل من دخوله قرطبة ظافرا ، وخلفه في حكم مملكته حفيده يحيى الملقب بالقادر • اذ كان ابنه هشام قد توفى في حياته ^(١) • فخلف يحيى جده في وسط هذا الجو المشحون المليء بالاطماع الشخصية للاقتراض والتسلط • عدا عن كونه لم يكن على شاكلة جده قوة وحزما وحنكة ودهاء ، بل كان ضعيفا فاسقا • فكان من الطبيعي ان يستغل كل الاعداء والطامحين الفرصة لتحقيق مقاصدهم • فأعلن ابو بكر بن عبد العزيز حاكم بلنسية وصاحبها استقلاله الكامل التام الناجز عن مملكة طليطلة • ومعنى هذا انها لم تعد ترتبط بها ذلك الارتباط الاسمي الذي كانت عليه في عهد المأمون • وبدأ المقتدر ابن هود يعد العدة للانقضاض على معاقله واستطاع بالفعل الاستيلاء ^{الضبط} بمدينة شنتبرية • ومن ناحية أخرى أخذ أمير ارغونة وابن عم الفونسو : سانشو راميرز يشدد ^{الضبط} على بعض اطرافها وكذلك فعل المعتمد بن عباد الذي استطاع ان يستأثر ببعض القلاع التابعة لمملكة طليطلة •

(١) : محمد عبد الله خان : دول الطوائف ص ١٠٦ •

(٢) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ص ٧٩ - ٨١ • محمد عبد الله

خان : نفس المرجع ص ١٠٦ - ١٠٧ •

هذا بالنسبة للجبهة الخارجية ، أما الجبهة الداخلية فإنه أى يحيى القادر لم يكن موفقا فيها أيضا ، إذ بدأ خطواته الأولى فى الحكم بالتخلص من وزير جده السياسى الحكيم المدعو بابن الحديدى وكان ذلك بمشورة بعض أعدائه الحاقدين عليه ، وشمر القادر وكأنه قد تخلى من حمل ثقيل . ولكنه كان واهما إذ ما لبث أولئك الذين أشارو عليه بقتل ابن الحديدى أن أثاروا فى وجهه المتاعب والمصاعب مع الخاصة والعامة من أهل المملكة . ولذلك فقد فقد بقتل ابن الحديدى النصير والمؤازر والمستشار . وأضافت هذه الأحداث هما ثقيلًا الى صدره بجانب تلك الهموم التى ذكرناها . ولذلك فعندما تطلع حوله يلتمس المعون والتأييد . لم يجد سوى الفونسو لىستمد منه المعون ويطلب منه النصرة .

ولبى الفونسو د عوته شريطة ان يتنازل له عن بعض الحصون والقللاع التى
ييينها له بالاضافة الى الجالغ الطائلة التى كان يرهقه بها . واستطالت تلك الاوضاع
الحرجة المضطربة من حياة طليطة حتى عام ٤٧٢هـ / ١٠٨٠م فتخرج فيها الموقف
الداخلى والخارجى وتد هورت الامور فى البلاد الى الحد الذى نضبت فيه الخزائن ،
وشحت الاقوات ، وغلّت الاسعار . مما افضى اخيرا الى قيام ثورة شعبية ضده ، فأضطر
الى الفرار من المدينة بأهله وولده الى احد الحصون التابعة له (٢) ورأى أهل طليطة
ان البلاد فى حاجة الى امير او حاكم قوى حازم يستطيع ان يفرج كربتها ويعيد لها
عزتها ، وينقذها من تلك الضائقة التى حاقت بها . فاستقر رأيهم على ان يستنفيثوا بالملك
عمر المتوكل صاحب بطليوس جارهم القريب منهم . فلبى المتوكل د عوتهم وقد مالى
طليطة واستقر بها فى اعقاب سنة ٤٧٢هـ / ١٠٨٠م واقام هناك نحو من عشرة شهور (٣)

XX

وفى تلك الاثناء راسل القادر الفونسو السادس مستصرخا به طالبا نجده
وعونه ضد مناوشيه ، وضد عمر المتوكل مذكرا اليه بسالف المودة والصداقة بينه وبين
جده . ودهى ان يغتبط الفونسو لهذه الدعوة وان يظهر قلقه وجزعته على مصير
حفيد المأميون حليفه الراحل . ولكنه اشترط عليه مقابل ذلك ان يتنازل له عن بعض
الحصون التى سماها له . (فأعطاها له ، فادخل فيها اللعين ثقاته فى الحين

(١) : محمد عبد الله خان : تراجم اسلامية مشرقية واندلسية ٢٢٠ - ٢٢١ .

—J.B. Bury: Op. cit., p 397 : انظر : (۲)

(٣) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الرابع - المجلد الاول ، ص ١٢٤ - ١٢٥

(١) وحصنها أشد تحصيناً (٢) ثم أصطحب معه القادر نحو طليطلة • وضرب عليها الحصار ونازلها منازلة شديدة • ولم يجد المتوكل معها بداً من الانسحاب تحت جنح الظلام مؤثراً السلامة تاركاً المدينة تواجه قدرها المحتوم • ولن ندخل فى تفاصيل أحداث الحصار الذى ضربه الفونسو على المدينة، فلما يهبطنا هو الإشارة الى ان القادر استطاع ان يعود الى مد ينته تحت ظلال الحراب النصرانية عام ١٠٨١ هـ / ١٠٨١ م، وأن ينكل بخصومه • ومناوئيه أشد تنكيل • كما يهبطنا ان نشير الى ان الفونسو قد استحصل على ثمن باهظ جدا من الاموال والتحف والهدايا التى قدّمها له القادر حتى شعر بالرضى ثم انصرف الى قشتالة ظافراً غنائماً (٣) •

أما القادر فقد نفرت منه النفوس، اذ اجتمع على أهل طليطلة عسفـه وعنته، وعيث الفونسو وانتهاكه لاراضى ومزارع الاهالى • وجرى من صروف المصائب والمتاع ما أثقل كاهل السكان وجعلهم يستصرخون من حولهم دونما مجيب أو سميع • ورأى الفونسو ان الوقت قد حان للاستيلاء على طليطلة، وأنه لما من شىء يحول بينه وبينها ولا سيما وقد أعطته وفاة المأمون جد القادر التى أشرنا اليها سابقاً الفرصة للتحلل من عهده له الذى كان قد وعده اياه وهو يفادر طليطلة متوجها الى ليون لتسلم الملك مكان اخيه • ويقوم هذا العهد على أساس احترام الفونسو لسيادة أراضى المأمون وعدم التعرض لها. (٤) أما الآن فالظروف التى تجتازها طليطلة على الصعيد الداخلى تتيح لالفونسو فرصة ذهبية لتشد يد الضغط عليها، ولا سيما وهو يعرف بأنها لن تسقط فى يده الا بعد ان ينهكها الحصار ويهدّها الجوع وقلة المون، وجاء

(١) : هذان الحصنان هما حصن سرية، وحصن قورية • ويعتقد احمد مختار العبادى فى تحقيقه لكتاب ابن الكردبوس ج ٤ ص ٨٣ انهما كانا يقعان بالقرب من الحدود القشتالية، وانهما هما المعروفان اليوم باسم Soria أو Coria أو Conceria •

(٢) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ص ٨٣ - ٨٤ •

(٣) : ابن الكردبوس : نفس المصدر والصفحات •

(٤) : انظر :

— ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس ص ١٢٨ • (نقلا عن المؤرخ الاسبانى منندث بيدال صاحب كتاب : اسبانيا فى عهد السيد •)

— محمد عبد الله غان : دول الطوائف ، ص ٣٩٥

استئناف ملوك الطوائف للدور الذى مارسوه مع القادر فى مهاجمة اراضيها وانتزاعها من يده ليضيف ورقة رابحة تضاف الى اوراقه الرابحة الأولى (١).

ويمهنا هنا أن نذكر بموقف المعتمد بالله من تلك الاحداث اى أحداث مهاجمة طليطلة من قبل الطامعين فى خيراتها وارضيتها ، وعلى رأسهم الفونسو . فالمعتمد عقد بوساطة وزيره ابن عمار مع الفونسو معاهدة يتعهد فيها بدفع الجزية له ، كما يتعهد فى الوقت نفسه - وهذا هو المؤسف - باطلاق يده لمهاجمة اى مملكة من ممالك الطوائف بما فيها طليطلة . فلم يعد يعترض مشاريعه التى يعدها للاستيلاء عليها (٢) بل ان الموقف المؤسى الذى انحدر اليه بعض ملوك الطوائف انهم لم يكتفوا بمساعدة الفونسو فى حصاره لطليطلة فحسب ، بل امدوه بالميرة والمونة (٣) كما أصم البعض الآخر آذانهم عن صيحات استغاثة اهالى طليطلة اثناء محاصرة الفونسو لها . وقد استمر الفونسو يشدد ضغطه على المدينة بكل تصميم وغزيرة . ويرى أن استمراره فى الحصار سيفضى بلاشك الى النتيجة التى يرجوها . ويكفى ان نشير الى ان حصار قرطبة قد استمر من طم ٤٧٤ الى طم ٤٧٨ هـ / ١٠٨٦ - ١٠٨٥ م .

ولم تجد محاولة الملك عمر المتوكل ملك بطليوس وهى المحاولة الوحيدة التى اتسمت بالشهامة والنخوة ، لم تجد شيئاً فى انقاذ طليطلة ، وارتدت الكتيبة التى بعثها بقيادة ابنه مهزومة كسيفة (٤).

سقوط طليطلة :

لم يكن من المستطاع على اى قائد عسكري افتتاح طليطلة عنوة لاستحالة ذلك ، فقد كانت تتحجب بموقع طبيعى حصين ، فهى تقع على المنحدر الصخرى الوعر لنهر التاجه ويحيط بها شبه جزيرة تزيد من مناعتها منعة وتحصينا . وكانت فى الواقع شجراً دائماً فى حلوق الحكام والملوك ، ولم يكن من السهل الاستيلاء عليها . وعندما وقعت فى يد المسلمين الفاتحين لم يهنا الولاة الامويون ومن ثم الامراء فالخلفاء

- (١) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ٨٤ .
- (٢) : محمد عبد الله خان : تراجم اسلامية شرقية واندلسية ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ .
- (٣) : على ادهم : المرجع السابق ، ص ١٩٩ .
- (٤) : محمد عبد الله خان : نفس المرجع اعلاه ، ص ٢٧٢ .

من بنى امية ايضا بحكمها ، فقد ظلت طيلة تلك الفترة مدينة نائرة متمردة على السلطة المركزية وخاصة ايام حكم الحكام الضعاف . ومما كان يزيد من مقاب السلطة المركزية ان غالبية سكانها كانوا من المولدين الاسبان الذين ظلوا مصدر مضايقات ومشاغبات للحكام والخلفاء دائما . ولهذا فان مدينة بهذه الاوضاع لا يمكن ان تسقط بسهولة الا اذا تعرضت للحصار الطويل واقتلت عليها السكك والدروب لكي لاتمد باليون والميرة ويمشش الفزع والوهن في نفوس سكانها ، وهو ما استطاع الفونسو ان يستغله احسن استغلال . وكان واثقا من أن المدينة ستضطر أجلا أو عاجلا خاضعة مستسلمة . وبالفعل فقد حدث ما خطط لاجله الفونسو ، انه ما لبث أهل طليطلة ان ضاقوا ذرعا بذلك الحصار الرهيب الطويل وضافت عليهم الارض ما رحبت ، فرأوا أن يداخلوا الفونسو ويستصرخونه ويستعطفونه ، فجاءهم وفد منهم يرجون ذلك ويلوحون له في نفس الوقت بانهم سيطلبون مساعدة ملوك الطوائف ، غير ان الفونسو استهزأ بهم وسفّه آراءهم تلك واستخفها وبعث بطلب رسل ملوك الطوائف اليه ، وعلى رأسهم رسل المعتمد ابن عباد الذين تسابقوا الى خطب مودته والحصول على رضائه فخطبهم جميعا بكل عجرة وكبرياء ، وطردهم من مجلسه بطريقة مخزية ذليلة . فاسقط في يد الطليطليين ، وخاب كل امل في نفوسهم لانفراج ذلك الكرب عنهم ، وشعروا وقتها ان لامناص من التسليم او الاستسلام بمعنى أدق . واخيرا توصل أهل طليطلة الى عقد معاهدة مع الفونسو تنص على ان يسلموا المدينة له مقابل ان يتعهد بالحفاظ على ارواحهم وممتلكاتهم واماكن عاداتهم .

واخيرا دخل الفونسو السادس طليطلة مكلا بالفار في ١٠ محرم ٤٧٨ هـ / ٦ مايو ١٠٨٥ م ^(٣) ظافرا منتصرا . وعادت طليطلة الى الاسبان مرة اخرى والى الابد ^(٤) .

(١) : عن المولدين ودورهم في مضايقة السلطة المركزية الاسلامية واتعابها يمكن

مراجعة

عبادة كحيلة : الرسالة السابقة ، ص ١٨٩ - ١٩٣ ، و ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٢) : ابن بسام : المصدر السابق ، ص ١٢٨ - ١٣٠ .

(٣) : اعتمدنا في الاخذ بهذا التاريخ على المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال ، الذي ينقل هذا التوقيت بالشهر الهجري عن مؤرخ أندلسي بلنسي معاصر لاحداث سقوط طليطلة . ويسمى ابن علقمة صاحب كتاب البيان الواضح في الملوك القادح المفقود ، وقد توفي عام ٥٠٩ هـ ، وقد بقيت منه اجزاء مهمة غير عليها بروفنسال . اما التوقيت الميلادي لسقوط طليطلة فيقول بروفنسال ان يوم ٦ مايو ١٠٨٥ م هو الصحيح على خلاف ما يراه معظم المؤرخين المحدثين من ان سقوط طليطلة قد

حدث في ٢٥ مايو ١٠٨٥ م . انظر الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ١٤٦ ، ق ٢ من نفس الصفحة .
(٤) : للاطلاع على مزيد من اخبار سقوط طليطلة في المراجع الأجنبية يراجع مثلا : —

وقد عهد الفونسو بحكم المدينة الى احد رجاله المستعربين • ومما يؤسف له ان الفونسو لم
يُف بتعهداته لاهل طليطلة ، اذ لم يمض غير قليل من الوقت حتى تحول جامع طليطلة
بايعاز من الرهبان وزوجة الفونسو الفرنسية الى كنيسة كبيرة ظلت كذلك حتى اليوم ^(١) واستولى
الفونسو بعد ذلك على كافة الاراضي التابعة لمملكة طليطلة الواقعة في شمال نهر
التاجه ^(٢) وغادر القادر المسلوب الملك والارادة طليطلة تحت ظلال الحراب النصرانية
التي ساندته في الدخول اليها قبل ذلك • فاستقر بمعسكر الفونسو • ثم طلب
القادر من الفونسو ان يساعده في الاستيلاء على بلنسية • وقيل بل تنازل له عن طليطلة
مقابل ان يعهد له بملك بلنسية • وقد استطاع القادر بفضل مساعدة الفونسو ان يستولى
على بلنسية • وان يسلم له اهلها قيادها ^(٤)

XX

وهذه الصورة المؤسسية سقطت مدينة طليطلة المنيعة الحصينة. ونزل خبر سقوطها على المسلمين مدويا كالصاعقة ليس في الاندلس وحدها بل وفي بقية العالم الاسلامي ، وترك سقوطها رنة اسي محزنة لدى المسلمين وخاصة الاندلسيين بالذات .

وقاضت المشاعر الدينية والوطنية في نفوسهم . وعمت الاندلس وقتها موجة من الاستنكار والتنديد ، وانبرى الشعراء والفقهاء والمفكرون يحذرون من مغبة ذلك وينبهون ويلفتون الانظار الى الخطر الحقيقي الملاحق القادم . وتنقلوا بين اصقاع الاندلس يبحثون في نفوس الاهالي روح المقاومة والجهاد . وذهب بعضهم الى ملوك الطوائف يبحثونهم

- Joseph F. O'Callaghan: A History of -
MEDIEVAL SPAIN. p 204 - 206

- J.B. Bury, *op. cit.*, 397

- Jan Read: Op. Cit., p. 1036122-123

(١) : جامع طليطلة : هو جامع باب مردوم نسبة الى باب مجاور له يعرف بالباب المردوم ، وقد بنى عام ٣٩٠ هـ . وقد اقام عليه الاسبان بعد استرداد طليطلة بوقت يسير كنيسة سانتا كروث . وهو المعروف اليوم باسم كنيسة الكريستوى لا لوث .
انظر : مانويل جوميث مورينو : الفن الاسلامى فى اسبانيا ، ص ٢٢٧ . — عبد العزيز سالم : المساجد والقصور فى اسبانيا ، ص ٥٠ — ٥١ .

(٢) : محمد عبد الله خان : تراجم اسلامية شرقية واندلسية. ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

(٣) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ص ٨٤ •

(٤) : محمد عبد الله عثمان : نفس المراجع أعلاه ٢٢٦٦ •

مخاوف الأمة من الاخطار المترتبة على سقوط طليطلة واسطة عقد الاندلس ودرة جيدها • وسفح الشمو ضمير الأمم وصوتها العالى ووسيلة اعلامها فى أفراحها وأتراحها وخطوبها مدادا باكيا فيه حرقة الأسى والتفجع، وفيه لوعة الحزن والاسف لحال المسلمين وتخاذلهم واستسلامهم للهوان والذل • وتناقلت الألسن قصيدة رائية باكية لشاعر مجهول تنضح وتفيض أسى وحزنا • وهى فى حوالى السبعين بيتا ويقول مطلعها (١) :

لشكلك كيف تبتسم الثغور سرورا بعد ما يؤست ثغور

وطفى فى البلاد تيار تشاؤمى يعبر أصدق تعبير عن مخاوف المسلمين الاندلسيين ويدعو الى الهروب والهجرة خوفا من المستقبل القاتم • وقد عبر عن هذا التيار الشاعر المشهور المهرورف بابن العسال وهو عبد الله بن فرج اليحصى عندما قال (٢) -

يا أهل أندلس حثوا مطيكم فما المقام بها الا من الفلط
الثوب ينسل من اطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياة مع الحيات فى سبط

أما عن الموقف الذى ساد الاندلس فى اعقاب سقوط طليطلة مباشرة ، فينقله لنا ابن الكردبوس فى شئ من المرارة والاسى عندما يقول (ولما حصل الطاغية الفنش لعنه الله بطليطلة ، شمع بأنفه ورأى أن زمام الاندلس قد حصل فى كفه ، فشن غاراته على جميع اعمالها ، حتى فاز باستخلاص جميع أقطار ابن ذى النون واستئصالها ، وذلك ثمانون منبرا سوى البنيات والقرى المعمورة • وحاز وادى الحجارة الى طليطلة (٤)

(١) : للاطلاع على هذه القصيدة يراجع :

المقرى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٩٣ وما بعدها •

(٢) : المقرى : نفس المصدر السابق ، ص ٨٤ - ٨٦ •

(٣) : يرى أحمد مختار العبادى نقلا عن المستشرق الهولندى دوزى أن المدن الكبرى كانت تسمى أمهات ، فى حين كانت المدن الصغرى التابعة لها تسمى بنيات •

أنظر : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨٧ •

(٤) : طليطلة هى المعروفة باسم Talavera de la Reina فى مديرية طليطلة ، وتقع على نهر تاجه على ١٥٠ كيلو مترا غربى طليطلة على مجرى النهر • وهى اليوم مركز ادارى فى مديرية طليطلة ، وعلى بعد ٣٠ كيلو مترا منها توجد اليوم مدينة اصغر تسمى طليطلة القديمة Talavera la Vieja وهذه تابعة لمدينة قصرش

(١) وفحص اللج وأعمال شنتمرية كلها ، فلم يكن بالجزيرة من يلقى أقل كلب من كلابهم ، فعند ذلك وجه كل رئيس بالاندلس رساله الى الفئش مهنئين ، وبأنفسهم وأموالهم مقتدين ، وفي أن يشركهم في بلادهم له عاملين ، ولأموالهم اليه جابين ، حتى أن صاحب شنتمرية حسام الدولة ابن رزين (٢) نهض اليه بنفسه وتحمل هدية عظيمة القدر سنوية مقربا اليه ، وراغا أن يقره في بلده عاملا بين يديه ، فجازاه على هديته بقرد وهبه اياه ، فجعل ابن رزين يفخر به على سائر الرؤساء ، ويعتقد أنه جنته (٣) مما كان يحذر من الفئش من وقوع البأساء . وانتحى الفئش انتحاء الجبابرة ، وأنزل نفسه منازل القياصرة ، وداخله من الاعجاب ما أحقر به كل ماش على التراب ، وتسمى بالانبراطور ، وهو بلفتهم أمير المؤمنين ، وجعل يكتب في كتبه الصادرة عنه من الانبراطور ذي الملتين ، وأقسم لارسال (٤) الرؤساء أنه لا يترك في الجزيرة من الثوار أحدا ولا يبقى لهم ملتحدا ، سوى من اكتنفه رعايته ، وشملته غايته . (٥)

ويضيف ابن الكردبوس قائلا (وكان رسول ابن عباد اليه يهوديا يعرف بابن مشعل فقال له : كيف أترك قوما مجانين تسمى كل واحد

وقد سقطت طلبيرة في يد الفونسو السادس سنة ٨٢٠/٤٧٥ م ، أي قبل سقوط طليطلة بثلاث سنوات .

انظر ، ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، ح ٢ ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(١) : الفحص Alfoz اسم يطلق على عدة مواضع بالاندلس وهو يعنى كل موضع يسكن سواء كان سهلا او جبلا بشرط أن يزرع . وهو فى اللغة شدة الطلب . أما فحص اللج فقد اختلفت المصادر العربية فى تسميته وتحديد مكانه ، فتارة يسمى بحصن اللج وتارة يسمى بحصن الثلج ، وتارة يسمى بالبسيط . وابن الكردبوس يجعله فى منطقة طليطلة .

انظر ، ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ح ٤ ، ص ٨٧ - ٨٨ .

(٢) : حسام الدولة ابن رزين : هو يحيى بن عبد الملك بن هزيل بن خلف بن رزين صاحب شنتمرية الشرق أو سهلة بنى رزين كما كانت تعرف

فى الجغرافية الاسلامية . وقد تولى حكم شنتمرية الشرق سنة ٤٩٦ هـ ، غير أنه ما لبث أن خلع على يد المرابطين بعد ذلك بوقت قصير .

انظر ، ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، ص ١٠٩ ، وح ١ ، ص ١١٠ .

(٣) : الجنة بالضم كل ما وقى . المصدر السابق ، ح ٤ ، ص ٢١٢ .

(٤) : أى رسل الرؤساء .

(٥) : تاريخ الاكفاء ، ص ٨٧ - ٨٩ .

منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمراءهم المعتضد ، والمعتصم ،
والمعتصم ، والمتوكل ، والمستعين ، والمقتدر ، والأمين ، والمأمون .
وكل واحد منهم لا يسأل في الذنب عن نفسه سيفا ، ولا يرفع عن
رعيته ضيما ولا حيفا ، قد أظهروا الفسوق والمصيان ، واعتكفوا
على المغانى والعيدان ؟ ! وكيف يحل ببشر أن يقرّ منهم على رعيته
أحدا ، وأن يدعها بين أيديهم سدى ! ؟ (١)

ورغم أن هذا الكلام الذي فاه به الفونسو يعبر عن
وجهة نظره في ملوك الطوائف ، ويعنى في نفس الوقت أنه يجد لنفسه
المبرر لمهاجمتهم والاستيلاء على أراضيهم . نقول رغم أن هذا الكلام
صحيح للأسف الشديد ، فإن المسلمين لم ينصبوه حكما ليقضى لهم
حقوقهم من ملوك الطوائف ، ولم يكلفوه برفع الضرر والحيث عنهم ، بل
ان رغباته الشخصية ، وحماسه القومية والدينية هي التي دفعتة الى قول
هذا .

(١) : تاريخ الاكتفاء ٤ ص ٨٩ .

تدهور العلاقات السياسية بين الفونسو والممتمد ومقية ملوك الطوائف والتفكير فى الاستعانة بالمرابطين

اعطى سقوط طليطلة لالفونسو زخما هائلا من الاعتداد والتعالى ، ونفخ فيه ذلك الانتصار الذى لم يكن ليتاح له لو لم يسهم المسلمون بسوء سياستهم فى التعجيل به . نقول نفخ فيه ذلك الانتصار بهيب مقيت من العظمة والكبرياء أوحى له بشعور زائف بأنه بساعات امجاد النصرانية ومضى رسومها ، وأب وحدثها وقائدها الملهم . وصور له ذلك أنه الرجل المنتظر لاهياء ملك القوط القدامى (١) . ولذلك فقد مضى فى استفزاز المسلمين واستثارتهم شوطا بعيدا موقنا بعظم جدوى الورقة التى يلعب بها دائما . وهى اختلاف كلمة المسلمين وتفرق وحدتهم . ولم يكن يخطر على باله بأن هناك خاصية من صميم خطئ المسلمين والعرب بصفة خاصة وهى ان المحن والمصائب الكبرى التى تحل بهم تفضى دائما الى جمع كلمتهم وتوحيد صفوفهم ، فسرعان ما ينسى او يتناسى كل واحد منهم خلافاته ونزاعاته الشخصية فى سبيل الذب عن الهدف المشترك والمصير المشترك .

ولذا فان الفونسو ما ان استطاع الاستيلاء على طليطلة حتى بدأ يسيطر على بقية المناطق التابعة لها ، فاستولى باسم القادر ابن ذى النون على بلنسية وملكة أياها . او بمعنى ادق جعله نائبا عنه فى حكمها ، وحث الى المقاطعات التى استطاع السيطرة عليها من ينوب عنه فى حكمها . يجبون له الجزية والاتاوات . ثم توجه نحو سرقسطه التى مزقتها الحروب الاهلية بين المؤتمن ابن المقتدر الذى خلف ابيه وبين اخيه المنذر صاحب لاردة . وبعد ان توفى المؤتمن عام ٤٧٨هـ / ١٠٥٨م استمرت الحروب والمنازعات بين المستعين ابن المؤتمن وبين عمه المنذر ايضا . فقد توجه الفونسو عقب استيلائه على طليطلة نحو سرقسطه وضرب حولها الحصار ، وأقسم بايمان مغلظة ان لا يبرح مكانه حتى يفتحها او يموت دونها . ولم تجد شيئا محاولات المستعين معه باغرائه بدفع الاتاوات والجزية (٢) ولم شاء من الاموال والتحف والهدايا التى يرغب فيها شريطة ان يرفع حصاره عن المدينة . واخذ عيونه وجواسيسه يندسون فى

(١) : حسن احمد محمود : المرجع السابق . ص ٢٤٥ - ٢٥٥ .

(٢) : حسن احمد محمود : نفس المرجع . ص ٢٥٥ .

(٣) : انظر : J.B. Bury: OP. Cit. p. 397-398 .

- حسن محمود : نفس المرجع ص ٢٥٥ .

صفوف سكان المدينة ويثبون اعلانات براقه زاهية ، ودعايات كاذبة مضلة من أن الفونسو سوف يحسن معاملتهم ويعدهم بالخير ويفنيهم بالاحسان والتجلة . ويذكرونهم بألدهى الفونسو البيضاء على اهل طليطلة عندما فرق على ضفائها الساكنين مائة الف دينار . وكان هذا بطبيعة الحال من قبيل ذر الرماد فى العيون لتطمينهم ليس الا ، والا فلم يفض غير وقت يسير حتى تنكر لهادئه وتعهداته .

وفى نفس الوقت تحركت قوات قشتالية نحو غرناطة وضربت حولها الحصار ، كما استولت بعض القوات ايضا على حصن لبيط Ale d o وهاجمت قوات أخرى بعض اطراف مملكة المرية . وتناقلت بعض كتب التاريخ رواية مفادها ان الفونسو ذهب به الاستعلاء والطمع والفرور حدا جعله يخترق نهر التاجه واتاح له هذا ان يجتاز بقواته القشتالية والليونية لأول مرة نهر التاجه جنوبا الذى كان يشل وقتها حدا فاصلا بين الممالك الاسلامية والنصرانية . فقد ذهب به تعالى حدا جعله يخترق نهر التاجه جنوبا حتى وصل الى جزيرة طريف فى اقصى جنوب الاندلس ، فحضر بقوائم فرسه البحر ثم تبجح قائلا بأنه قد وطأ ارض الاندلس كلها رغم انوف المسلمين وملوكهم وفى الواقع ان وصول الفونسو الى جزيرة طريف حدث بعد ان ساءت العلاقات بينه وبين المعتمد ، وبعد حادثة الرسول اليهودى التى سنعرض لها بعد قليل . وقد بحث الفونسو وهو فى طريف بخطاب الى يوسف ابن تاشفين الذى يستعين به المعتمد ومقية ملوك الطوائف كما سنرى بعد قليل ايضا .

تدهور العلاقات بين الفونسو وملوك الطوائف : —

مانقلناه سابقا من ردود فعل تجاه سقوط طليطلة ، كان مجرد رد فعل

شعبى فى جميع الاندلس . وكان من الطبيعى ان يأتى رد الفعل ذلك غويا قويا

- (١) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ٩١ .
 - (٢) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٥٥ .
 - (٣) : جزيرة طريف هى عبارة عن رأس بارز فى الطرف الاقصى الجنوبى لشبه جزيرة ايريا جنوب غربي الجزيرة الخضراء بقليل . وتنسب الى طريف بن زرق الذى ارسله طارق بن زياد فى مهمة استطلاعية لاختبار احوال شبه الجزيرة قبل عبور المسلمين اليها . وهى اليوم مدينة صغيرة تسمى بنفس الاسم Tarifa .
 - انظر : ابن البار : المصدر السابق والجزء ٣ ، ص ١٩٩ .
 - (٤) : حسن محمود : نفس المرجع السابق ، ص ٢٥٥ (نقلا عن ابن بسام) .
- وانظر كذلك : MUHAMMAD BENABOUD Y ANGUS MACKAY :
THE AUTHENTICITY OF ALFONSO VI'S LETTER
TO YOSUF B. TASHUFIN. in AL-ANDALUS,
VOL, XL III, 1978, P. 234

يترجم مخاوف الناس ، ويعبر عن قلقهم ثم لاشئ سواه - وهم معذورون في ذلك - فلم يكن لديهم من الامكانيات ما يغيرون به الوضع رغم تلويحهم بالثورة . وقد ترجم عن معاناة أولئك الناس الشاعر الاديب ابو القاسم خلف ابن فرج الالبيري المعروف بالسميسر عندما قال :

ناد الملوك وقل لهم	مالذي احدثتم
اسلمتم الاسلام في	اسر العدا وقعدتم
وجب القيام عليكم	اذ بالنصاري قمتم
لا تنكروا شق المصا	فصا النبي شققتم
سنصبر والزمان له انقلاب	وانتم بالاشارة تفهموا

وقال ايضا :

ومع هذا فلم يشق الناس عصا الطاعة ، ولم يثوروا على ملوكهم . ولكن ما جد من ظروف واحداث قلب الاوضاع وخلط الاوراق ، وجعل ملوك الطوائف يفكرون في اتخاذ اجراء حاسم ، ومن ثم كان رد الفعل الرسمي الذي سنتحدث عنه هنا .

ويبدو ان ملوك الطوائف لم يستوعبوا الخطر الحقيقي من سقوط طليطلة في يد الفونسو في بادئ الامر . وانهم شعروا بأن ذلك الحادث انما هو خاص بمملكة طليطلة وحدها ، وانهم اذا ما وطموا علاقاتهم مع الفونسو فانهم سيفهمون بقاء عروشهم . ومن المحتمل ان شيئا من هذا حدث وفكر فيه ملوك الطوائف . وربما يفسر لنا هذا الكلام ما جاء في رواية صاحب الاكتفاء - ان صحت - من ان ملوك الطوائف ومن ضمنهم المعتمد بالله قد بحثوا برسلهم لالفونسو في اعقاب سقوط طليطلة مباشرة مهنيين بذلك الفتح العظيم .

وعلى هذا فاننا نقول بكل اسف اننا لم نعثر على رد فعل رسمي تجاه سقوط طليطلة من ملوك الطوائف وخاصة من المعتمد . ولا يقلل من أهمية كلامنا ما رواه يوسف أشباخ عن رد فعل مزعوم للمعتمد تجاه سقوط طليطلة . فهو يقول ان المعتمد بحث بخطاب الى الفونسو الذي استكمل احتلال بقية أراضي طليطلة يحذر فيه من التمدد في الهجوم على مملكة طليطلة . وطلب منه ان يحترم بنود المعاهدة

(١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الثاني ، ٣٧٤ .

(٢) : انظر قبل ص ٢٥٥ .

الموقعة بينهما والتي كنا قد أشرنا الى أن المعتمد عدها بوساطة وزيره ابن عمار، فإذا لم يحترم الفونسو نصوص الاتفاقية ، فإن ذلك يعتبر خرقا واضحا لها . ويعقب يوسف اشباخ بقوله : ان الفونسو بحث للمعتمد خطابا ينفي فيه خرقه لنصوص الاتفاقية ، ويشعره بأن ما حدث انما تم بالاتفاق مع صاحب طليطلة القادر نفسه ، ولكي يسبرهن عن حسن نواياه بحث له بخمسمائة فارس ليساعده في حربه ضد ملك غرناطة . وبالفعل توجهت تلك القوة الى اشبيلية ، وان الفونسو عندما شعر بتصميم المعتمد على رأيه ،^(١) يئس من أمر اشبيلية ، فتوجه نحو بلاد الألفيس^(٢) يهاجم أراضيمهم ويعيث فيها .

فنحن نستبعد هذا ، ان هل كان المعتمد بتلك القوة التي يستطيع بها أن يناطح الفونسو ويهاجمه ؟؟ فكلنا نعرف أن المعتمد كان يتهالك فسى استجداء الفونسو لطلب مساعدته ؟؟ هذا من جهة ومن جهة أخرى فالنزاع بين مملكتي اشبيلية وغرناطة كان قد حسم بزوال ابن عمار وزوال سياسته ، وانشغاله بفتح مرسية ثم مقتبله أخيرا بشهادة عبد الله بن زيرى ملك غرناطة نفسه^(٣) كما رأينا سابقا . وكان هذا قبل سقوط طليطلة كما هو واضح .

وعلى أية حال فإن أماننا عدة روايات عن بداية تدهور العلاقة السياسية بين المعتمد وزملائه ملوك الطوائف ، وبين الفونسو السادس . بادئ ذي بدء لنصف فتور العلاقة بين الفونسو وعمر المتوكل صاحب بطليوس ، ثم نخرج على النقطة المهمة في موضوعنا وهي فتور العلاقة بين المعتمد والفونسو ، وما أفضت اليه بعد ذلك . فيرى ان الفونسو بحث في أعقاب سقوط طليطلة الى عمر المتوكل خطابا فيه من الصلف والعتو ما فيه ، ان جرت كما يقول صاحب الحلل الموشية (بينه وبين ملك الجلالة خطوب كثيرة آل حال المسلمين بعمالته الى الضعف ، والاستيلاء على بلادهم ، وخاطبه ملك الجلالة بكتاب يرعد فيه ويسبرق ويتشطط عليه في أداء وظيف من المال كل سنة)^(٤) ويقول صاحب الحلل الموشية أيضا أن عمر المتوكل أجابه بخطاب أورد نصه ويهمننا اشارته فيه الى أنه مستعد هو وزملائه ملوك الطوائف الى مقاومة الفونسو ومواجهته .

أما أسباب توتر العلاقة بين المعتمد والفونسو فقد قيل فيها الكثير ،

(١) : تاريخ الاندلس : في عهد المرابطين والموحدين ، ج ٢ ، ص ٢٣ .

(٢) : انظر قبل ، الباب الثالث ، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٣) : مجهول ، ص ٢٢ - ٢٣ .

واختلفت فيها الروايات اختلافاً بيناً ، فمن تلك الروايات ما يعود بفتور العلاقات وتدهورها الى ما قبل سقوط طليطلة . ان يروى ابن اللبانة معاصر المعتمد وصديقه وشاعره الاثير لديه في كتابه الذي القه عن بنى عباد ، والمعروف بلقيط الدر وسقيط الزهر المفقود فيما ينقله عنه المقرئ انه في عام ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م جاء رسل الفونسو كالمعتاد لتسلم الجزية السنوية من المعتمد ، وكان على رأس البعثة سفير يهودى يدعى ابن شالب ، فوجه لهم المعتمد البالغ المعتاد ، الا أن اليهودى رفض أخذه ، واحتج بأن الذهب على غير العيار المعتاد ، وهدد بأنه فى العام القادم سوف لن يأخذ مالا ، بل سسأخذ بدلا من ذلك الحصون والقرى . ويببدو أن السفير اليهودى قد تجاوز مهمته دون ان يكون عنده تفويضا من الفونسو نفسه ، ويببدو ان ما دفعه الى هذا الموقف المتعجرف هو وثوقه من قوة سيده وتأكيده من الحالة السيئة التى بلغها المسلمون وقتها . ولذلك جاء صلفه هذا من موقع قوة . وهنا نشعر برد فعل المعتمد عنيفا قويا حازما فيه من الانتصار للكرامة ما يهت على الاعجاب ، عندما امر بقتل السفير وصلبه ^(١) . ومع هذا فنحن نتساءل هل كان رد فعل المعتمد الذى جابه به السفير اليهودى هو انتصار شخصى للمهانة التى الحقها به السفير ؟؟ ام انه كان رد فعل قومى ؟؟

يلوح لنا من هذه الرواية رأيان هما : اما ان يكون ابن اللبانة قد وهم فى تحديد التاريخ الذى ذكره وهو عام ٤٧٥ هـ . وفى هذه الحالة يصعب علينا ان نعتبر هذه الحادثة سببا مباشرا لفتور العلاقات بين المعتمد وبين الفونسو وهى التى تشير معظم روايات المؤرخين على انها قد حدثت فى اعقاب سقوط طليطلة فى عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م . اما الرأى الثانى فهو ان هذا الحادث قد جرى فى التاريخ المحدد الذى اشار اليه ابن اللبانة الذى كان على اطلاع واسع على مجريات الامور فى اشبيلية آنذاك بحكم وجوده الدائم فى البلاط الاشبيلي . وفى هذه الحالة يمكن اعتبار هذه الحادثة مجرد سحابة قاتمة فى العلاقات بين الحليفين

ساق السفير برعونته المعتمد اليها سواق .

(١) : نفح الطيب : ج ٥ ، ص ٣٧٧ - ٣٧٨ .
وقد اشارت الى هذه الحادثة ايضا بعض المراجع الاوربية الحديثة التى طبقت روايتها رواية المؤرخين المسلمين .
انظر مثلا : ANGUS MACKAY and MUHAMMAD BENABOUD :
Alfonso VI of León and Castile
BHS, LVI (1979) p. 97

وعلى أية حال فقد كان رد فعلها لدى الفونسو غاضبا ،
(١) فأقسم بأن يأتى بجنود كثيفة (بعدد شعر رأسه حتى يصل بحر الزقاق)
لينتقم منه جزاء فعلته تلك .

هذه الرواية رواها ابن اللبانة كما ذكرنا ، ورواها من بعده
المقرى الذى نقل عنه ، ومن المحدثين دوزى ، كما رواها فى شئ من الاختلاف
يسير صاحب الحلل الموشية الذى جعل تاريخ هذا الحادث عام ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م .

على أن هناك من الروايات الاخرى ما تؤكد على أن القتور الذى
ساد العلاقات الاشيلية النصرانية قد حدث فى اعقاب سقوط طليطلة . وهذه الروايات
تروى شأنها شأن ما سبق ذكره أسبابا مباشرة لهذا القتور . فصاحب الحلل
الموشية يقول : فى معرض حديثه عن هذه الواقعة : (وكان الطاغية ادفنش فى سنة
٤٧٨ هـ قد غلب على طليطلة ، واستولى على اعمالها ، وحازها لنفسه ، وكثر السروع
على الاندلس واشتد الخوف وتطرف المعتمد على الله ابن عباد ، ولما ملك ادفنش
اعمال طليطلة وطمع فى الاستيلاء على الجزيرة كلها ، وهابت الملوك أمره لكون
طليطلة نقطة دائرتها خايب المعتمد على الله أبا القاسم ابن عباد يطلب منه
تسليم اعماله الى رسله وعماله ، وتشطط عليه فى الطلب وأظهر له السرور بالطلب .)
(٢) والواقع أن خطاب الفونسو للمعتمد يفيض تبجحا وتهكما وتقريعا ،
فلما وصل كتابه الى المعتمد بعث له بخطاب شديد اللهجة يعلن له بأن ما حصل
(٣)

(١) : المقرى : المصدر السابق ، ص ٣٧٧ - ٣٧٨ .

(٢) : المرجع السابق ، ص ٢٦٧ - ٢٧٠ .

(٣) : مجهول : ص ٢٨ - ٣٠ .

(٤) : مجهول : ص ٢٤ - ٢٦ .

(٥) : خطاب الفونسو للمعتمد ، ورد المعتمد عليه كان مثار شك لدى بعض المؤرخين
الأوربيين . ومصدر الشك نشأ من أن الخطابات المتبادلة بين الفونسو والمعتمد -
وبين الفونسو ويوسف بن تاشفين كما سنرى بعد - لم ترد فى المصادر العربية
سوى فى كتاب الحلل الموشية المذكور سابقا . ومن هنا كان مصدر الشك ،
غير أن أنجوس ماكاي ومحمد بن عبود كتبا مقالا فى مجلة :

BHS, LVI (1979)

حاولا فيه اثبات صحة الخطابين المتبادلين بين الفونسو والسادس والمعتمد ابن عباد .

أنظر : ANGUS MACKAY and MUHAMMAD BENABOUD ; op. cit., P. 96 .

(٦) : عن نص الخطابين المتبادلين بين الفونسو والمعتمد ، انظر بعد الملاحق ،

من تخاذل عن الجهاد واستكانة الى اللهو والمجون هو ما أتاح له تحقيق أغراضه ، ويبدى فى نفس الوقت استعداده هو وزملاؤه من ملوك الطوائف للقاء والفداء والجهاد .

(١) أما رواية عبد المنعم الحميرى فهى تروى ما حدث بشكل مفاير دون أن تعرف بالضبط متى حدث الفتور بين الملكين المسلم والنصرانى . ولكن ما يلوح فى رواية الحميرى يشير الى أن الاحداث تلك وقعت بمعد سقوط طليطلة . المهم أن سبب فتور العلاقة بين الرجلين عند الحميرى تعود الى أن الفونسو طلب من المعتمد أن يسمح لأمرته القبيطية (الكوتيسة) بأن تدخل جامع قرطبة ، وتلد فى الجانب الغربى منه . وكان فيما سبق موضع الكيسة قبل تحويله الى جامع فى عهد الامويين . كما سأل أن تنزل زوجته فى مدينة الزهراء التى بناها عبد الرحمن الناصر لطيب هوائها . فجاء الرسول الى المعتمد وأبلغه تلك الرسالة . فوضح له المعتمد استحالة ذلك ، فما كان من اليهودى أى السفير من قبل الفونسو ، الا أن شرع يتبجح فى حديثه مع المعتمد ويهدد ويتوعد ، فاستشاط المعتمد غضبا وتناول محبره كانت فى يده ، فرمى بها رأسه ، ثم أمر به فصلب .

وحاول المعتمد أن يأخذ فتوى العلماء فيما فعله ، فأجابه بعضهم بأن ما فعله لا غبار عليه ، لأن الرسول تجاوز حدود مهمته فجاز قتله . وبلغ هذا الخبر الفونسو فأغضبه ، وأقسم أن يفتزو المعتمد فى اشبيلية ويحصره فيها . وحشد على وجه السرعة جيشين سيرا أولهما الى مدينة باجة فى غربى الاندلس ، وطلب منه أن يتقابل واياه عند قرية طريانة ، وحشد جيشا آخر تولى قيادته بنفسه ، واتجه به فى مسار آخر بمحاذاة النهر الأعظم أى الوادى الكبير الذى تقع عليه اشبيلية (٢) .

أما ابن الاثير فيروى رواية أخرى عن فتور العلاقات بين المعتمد والفونسو مفادها أن الفونسو بعد أن استولى على طليطلة ، بعث اليه المعتمد الضريبة المعتادة ، فلم يقلها منه ، وأرسل يهدده ويتوعدده بالمسير الى قرطبة ليفتحها ، أو يسلم اليه جميع الحصون المنيعه ، ويبقى

(١) : صفة جزيرة الاندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الاقطار ، ص ٨٣-٨٤ .

(٢) : نفس المصدر ، ص ٨٤-٨٦ .

له وللمسلمين السهل • وكان الرسول في نحو خمسمائة فارس • كما يروى ابن الاثير أن المعتمد قد بادر الى قتل اولئك الرسل ، ولم ينج الا عددا قليلا جدا منهم • فذهبوا الى القونسو وأخبروه ذلك ، فطار صوابه • وكان القونسو يعثر محاصرة قرطبة ، فعدل عنها الى طليطلة ليجمع آلات الحصار ^(١) •

تلك خلاصة الروايات التي تناقلتها كتب التاريخ في شرح الاسباب المباشرة لتدهور العلاقات بين المعتمد والقونسو • ومهما يكن من أمر ، ومهما تعددت تلك الآراء التي دفعت بالعلاقات بين الحليفين السابقين نحو الطريق المسدود ، فأننا نعتبرها أسبابا هامشية ثانوية ليست هي السبب الاساسي الجوهرى الذى أدى الى هذا التأزم فى العلاقات • أما الشيء الواضح والأكيد الذى جعل العلاقات تسوء بين الرجلين ، فانه بلا شك الخطر الذى استشعره ملوك الطوائف بعد سقوط طليطلة ، وعندما (تيقن كل من ثار ورأس ولا سيما رؤساء غرب الاندلس كابن عباد وابن الافطس مذهب الفتن فيهم ، وأنه لا يفتح منهم بجزية ولا هدية ، وأوا الرجوع الى الحق أحق ^(٢)) • وشعر المعتمد وغيره من ملوك الطوائف لأول مرة بأن موسى التى حلقت - ان جاز هذا التعبير - لفيره ستطاله هو نفسه لامحالة ، وأحسوا جميعا بخطورة الحالة السيئة التى بلغت الاندلس آنذاك وأحسوا أكثر بأنهم قد أسهموا بسياساتهم تلك بترك الجبل على الغارب لالقونسو ليحقق ما يشاء ويريد • واثنا ينظرون بأسى بالغ بأن ميزان القوى بدأ يميل بشكل واضح الى جانب النصارى ^(٣) • وربما شمعوا أيضا بأن بقاء الممالك الاسلامية فى الاندلس أمر مشكوك فيه لاسيما وأن القونسو يشدد ضغطه على تلك الممالك كلها • وكانت ملكنا أرغونة ونبرة فى الوقت نفسه تشددان ضغطهما أيضا على ملكة سرقسطة • وكذلك كانت تفعل اماره برشلونة ^(٤) • وأفاق

(١) : الكامل ج ١٠ ، ص ١٥٠ - ١٥١ •

(٢) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ٨٩ •

(٣) : انظر : ANGUS MACKAY and MUHAMMAD BENABOUD :
Op Cit. , p. 96

(٤) : انظر : J. B. BURY : Op. Cit. , p. 398

ملوك الطوائف من سباتهم ، واستشعر المعتمد الخطر باعتباره أقوى ملوك الطوائف ، واعتبار مملكته أوسع ممالك الطوائف مساحة وشرافاً . وجاءت الرسالة اليهودى لتضيف الى تلك الاسباب سبباً آخرها مباشراً يمس هذه المرة كرامته وعزته الشخصية . وجعلت كل هذه الامور المعتمد ينسف كل خطوط التلاقى مع الفونسو ، ويصل بالعلاقات بينهما نحو الطريق المسدود كما ذكرنا . وجاءت بعد ذلك الخطابات المتبادلة بينهما لتقضى على كل بارقة أمل فى تحسين العلاقات .

ونظر المعتمد حوله ، فوجد أنه أمام خطر نصرانى ماثل وضابط ، وبين جبهة أندلسية مفككة ، وموقف عسكري ضعيف لا يسمح بخوض معركة مع النصراني . وسأت مجالات الاختيار أمامه ضيقة محصورة فى اختيارين أو ثلاثة أحلاماً مر . ومع هذا فقد صمم على أن يختار أهون الاختيارين وقعا رغم خطورته ، وهو الاستعانة بالمرابطين . وهو ما سفتناوله بالحديث على التو ان شاء الله .

الاستعانة بالمرابطين :-

لسنا معنيون هنا مباشرة ببسط الحديث عن المرابطين ، وتفصيل نشاطهم وحياتهم ، وركائز دعوتهم . فلما يهمنى الإشارة اليه كمدخل الى معرفة الجماعة التى أخرجت بقاء الوجود الاسلامى فى الاندلس الى ما يزيد عن قرنين من الزمن هو معرفة الخطوط الرئيسية لهذه الدعوة وأصحابها معاً . فالمرابطون جماعات من البربر ينتمون الى عدة قبائل منها : لمتونة ، وجدالة ، ولمطة وغيرها . وتنتمى هذه القبائل بدورها الى قبيلة صنهاجة القبيلة الأم التى ينتسب لها البربر البرانسنة فى المغرب والاندلس . وقد تبنى هؤلاء دعوة سلفية تهدف الى نبذ الخرافات والشعوذات التى كانت قد سادت آنذاك فى المغرب . كما تهدف الى الزهد والتقشف والعودة بالاسلام الى ما كانت عليه فى زمن الرسول عليه السلام وخلفائه الراشدين من بعده نقياً صافياً . وقاد هذه الدعوة السلفية وعمل على نشرها بين البربر الأمير يحيى ابن ابراهيم أمير قبيلة جدالة التى هى صنو لمتونة شرقاً ومحتدا . وكان هذا

الأمير قد أهّمه ما آل اليه أمر البربر قومه وقتها من انتشار الجهل والعموّة والخرافات في صفوفهم • وعندما ذهب الى المشرق ليحج التقى في طريق عودته في القيروان بتونس بأحد العلماء البارزين فيها ، وأوضح له حالة قومه تلك فكان أن أشار عليه بمراجعة عالم في المغرب الأوسط ليُدلّه على رجل صالح يذهب معه لتفقيه قومه ، ونشر الدعوة السلفية بينهم • وبالفعل فقد دلّوه على رجل يدعى عبدالله بن ياسين ، أبدى استعدادّه للذهاب الى مضارب الجداليين واللمتونيّين والتي كانت تقوم فيما يعرف اليوم باسم (مورتانيا) • ومن هناك بدأ الشيخ عبدالله بن ياسين يبثّ دعوتّه ، وقد أثّرت فيهم تلك الدعوة فتبنّوها • وقد كانوا يعرفون أيضا باللمثمين ، لأن رجالهم كانوا يتلثمون ، في حين كانت النساء سافرات الوجه • وفي هذا أقوال كثيرة لا مجال لها في بحثنا • وقد سمى عبدالله بن ياسين أتباعه بالمرابطين لكونهم قد وافقوه على المراقبة معه في الرباط الذي أقامه للتعبّد وللتدرب على حياة الجهاد •

وهناك تقاطرت أعداد كبيرة من أولئك الرجال على الرباط الذي رابط فيه عبدالله بن ياسين وأتباعه ، وازداد عددهم يوما بعد يوم • ثم اذن لهم عبدالله بن ياسين بنشر الدعوة والجهاد في سبيل الله بين قبائل البربر الملمثمين الآخرين الذين كانت قد تفشت فيهم الوثنيّة • وخاض ابن ياسين هو والامير يحيى بن ابراهيم الجدالي حروب الدعوة • وشغلت هذه الاحداث الفترة من بداية القرن الخامس الهجري حتى الثلث الأخير منه • وبعد يحيى بن ابراهيم تعاقب على إمارة المرابطين أبوبكر ابن ابراهيم أمير قبيلة لمتونة ، وخلفه بعد ذلك عدد آخر من أمراء المرابطين • وكان آخرهم الامير يوسف بن تاشفين اللمتوني الذي تنازل له ابن عمه الامير ابوبكر بن يحيى اللمتوني عن إمارة المرابطين وملك المغرب ،

(١) : احمد مختار العبادي : دراسة حول كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، مجلة تطوان ، منشورات وزارة التربية الوطنية والشبيبة والرياضة ، مجلة للأبحاث المغربية والاندرلسية ، العدد الخامس ، سنة ١٩٥٦ م ، ص ١٤٦ - ١٥١ •

وتوجه للصحراء بحيث تفرغ للعبادة ، ولم يكد يطل العقد السابع من القرن الخامس الهجرى / العقد الثامن من القرن الحادى عشر الميلادى حتى كان يوسف بن تاشفين قد بسط نفوذه على معظم أجزاء المغربين الأوسط والاقصى ، وأصبح سيد بلاد المغرب الفعلى (١) .

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

من الثابت والأكيد أن التفكير بالاستعانة بالمرابطين

والاستصراخ بهم تم على مستويين اثنين : مستوى شعبى ، ومستوى رسمى . ومن الثابت أيضا أن المبادرة الشعبية قد سبقت المبادرة الرسمية ، كما أن بعض هذه المبادرات الشعبية قد سبقت سقوط طليطلة . فصاحب الحل الموشية يذكر أنه فى عام ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م وفدت على يوسف بن تاشفين وفود أندلسية فشكوا اليه ما حل ببلادهم من ضرر النصارى ، فوعدهم خيرا ، وصرفهم الى أوطانهم ، ثم بعث الى الاندلس رسلا لشراء آلات

(١) : عن دعوة المرابطين وقيلام دولتهم أنظر المصادر والمراجع التالية :
— صالح ابن عبد الحليم : الانيس المطرب بروض القوطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس . — ابو عبيد البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، المستخرج من كتابه المسالك والممالك نشر البارون (دى سلان) . — ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، نشر ليفى بروفنسال ، تحقيق ومراجعة احسان عباس . — مجهول : الحل الموشية . — ابن خلدون : العبر . — المقرئ : المصدر السابق ، . — السلوى الناصرى : الاستقصا فى اخبار دول المغرب الاقصى . وهناك بعض المصادر الاخرى وعلى رأسها مصدر مهم للغاية فى التاريخ لمصر المرابطين ودولتهم وعنوانه : الانوار الجليلية (الجليلة) فى محاسن الدولة المرابطية لابی بكر بن الصيرفى ، وقد نشر عليه ليفى بروفنسال أخيرا الا أنه من حسن الحظ أن نقل ابن عذارى فى كتابه المذكور سابقا مادة مهمة من هذا الكتاب . وهناك المصادر المشرقية كالكمال لابن الاثير ، ووفيات الأعيان لابن خلكان وغيرها .

أما المراجع العربية والفريقية فأهمها :

— حسن محمود : قيام دولة المرابطين . — محمد عبد الله غان : دولة الاسلام فى الاندلس المرابطين والموحدين . — عبد الحيق حموش : ابن تاشفين . — يوسف أشباخ : تاريخ المرابطين والموحدين . — وقد نشر حسين مؤنس ومحمود مكى فى مجلة معهد الدراسات المصرية بمدريد وثائق تلقى الضوء على فترة مهمة من تاريخ المرابطين . فشر حسين مؤنس

الحرب والعدد والسلاح . وحتى بعد سقوط طليطلة توافدت على يوسف أعداد كبيرة من أهل الأندلس لما بلغهم عنه ما كان عليه من القوة والنفوذ ومن حب للجهاد ، فأخبروه بما حدث من تكالب العدو ، كما أخبروه عن الأحداث الجسيمة المتمثلة بسقوط طليطلة ^(١) .

ويسرى لنا الحميري أن فقهاء الأندلس كانوا يذهبون إلى بلاط يوسف بن تاشفين ويسرون أمامه وأمام رفاقه المرابطين ما يدور من فواجع وأحداث دامية تجري في بلادهم . ويوسف بن تاشفين نفسه يشير إلى أنه قد جاز إلى الأندلس بناءً على الحاح الأهالي الذين بعثوا إليه مستصرخين الكرة بعد الكرة ، بل إنه لم يشر صراحة إلى مراسلة ملوك الطوائف له مع ما يفهم من هذا ضمناً ^(٢) . وهكذا فإن مسألة التفكير في الاستعانة بالمرابطين كانت أملاً وحلماً راود الكثير من أهل الأندلس فقهاء وشعراء ومفكرين سمعوا عند يوسف بن تاشفين إلى تحقيقه ، وتحملوا من أجل ذلك مشاق الجواز ، وهم يعلمون أن المرابطين هم القوة الوحيدة القادرة على رد هجمات النصارى ، بل وعلى الأهم من هذا هو عرقلة السقوط الإسلامي الوشيك في الأندلس ، بل وإيقافه . كما لمس أولئك المفكرون أن ملوك الطوائف أبعد وأضعف من أن يتداركوا ذلك الخطر الماحق لما كانوا عليه من الاختلاف والفرقة والتناحر والتباغض .

أما مسألة الاستصراخ الرسمي فلا شك أن الفضل يعود فيه إلى المعتمد ابن عباد . وفي الواقع أن قضية استئذان المرابطين

-
- في العدد ١ - ٢ ، المجلد الثاني ، سنة ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م بحثاً بعنوان : سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس . وكان قد نشر في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، مجلد ١١ ، جزء ٢ ، ١٩٤٩ م أربع قطع تتعلق بتاريخ الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين . أما محمود مكي فنشر في مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلدان السابع والثامن ١٩٥٩ م - ١٩٦٠ م بحثاً بعنوان : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين . وغير ذلك من المراجع الأخرى .
- (١) : مجهول : ص ٢٢ - ٢٥ .
 (٢) : المصدر السابق ، ص ٨٦ .
 (٣) : محمد عبد الله خان : دول الطوائف " نص رسالة يوسف بن تاشفين إلى المعز ابن باديس صاحب إفريقية " ، ص ٤٤٦ - ٤٤٨ .

احتلت مساحات واسعة من كتب المؤرخين القدامى ومع ذلك لم تستطع أن تشفى غلة ، كما لم تستطع تلك الروايات الكثر أن تقرر حقيقة تاريخية متفق عليها لا لبس فيها ولا غموض . ذلك لأننا لم نجد فى تلك الروايات رغم الحشد الهائل من التفاصيل ما يزيل الغموض عن طريق الباحث الثبت . على أننا نستطيع أن نقرر ونؤكد شيئاً واحداً هو : أن المعتمد ابن عباد هو الوحيد من ملوك الطوائف الذى أتاح بدعوته الرسمية للمرابطين أن ينقذوا الاندلس من خطر سقوط محقق .

وقبل أن نورد تلك الأقوال التى أشارت الى دعوة المعتمد للمرابطين وجهوده فيها ، يحسن بنا أن نلقى الضوء على موضوع هو من الأهمية بمكان . وهو هل كان المرابطون يهدفون الى مواصلة جهادهم فى الاندلس بعد أن استتب لهم الأمور فى المغرب ؟؟ . وهل لو لم يدعهم أهل الاندلس الى انقاذهم من الخطر النصرانى لكانوا أقدموا هم أنفسهم على ذلك ؟؟ .

بإدنى ذى بدء نجد رواية لابن خلكان ^(١) - ان صحت - تؤيد ذلك الرأى الذى يقول بأن المرابطين كانوا يتمنون العبور الى الاندلس ومواصلة الجهاد هناك ، بل انهم عقدوا العزم على ذلك . وابن الأبار ^(٢) يشير بما يفهم منه أن يوسف بن تاشفين صمم على الجواز الى الاندلس ، والجهاد فى سبيل الله رغبة واحتساباً ، بل وافتح مدينة سبتة عنوة وقتل أميرها فى سبيل ذلك . وعندما علم ملوك الاندلس بذلك رأوا أن يتخذوا بادرة سريعة لتدارك ذلك . ونحن فى الحقيقة لانستبعد أن المرابطين كانت تحذوهم رغبة عارمة فى مواصلة الجهاد . ونتفق فى هذا مع القائلين بهذا الرأى ^(٣) ، فالواقع أنه ما كاد العقد السابع من القرن الخامس الهجرى يطل حتى كان يوسف بن تاشفين قد استطاع أن

-
- (١) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ٨ مجلدات ، المجلد ٧ ، ص ١١٢-١١٤ .
 (٢) : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٩٨ - ١٠٠ .
 (٣) : انظر : حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٢٦٣-٢٦٥ ،
 وص ٢٦٧ - ٢٦٨ . - أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والاندلس ،
 ص ٣٢٩ - ٣٣٠ . - عبد الحق حموش : ابن تاشفين ، ص ٦٢ - ٦٣ .

يبسط دعوة المرابطين على معظم ارجاء المغربين الاوسط والاقصى • فمن الطبيعي ان يفكر المرابطون بمواصلة جهودهم نحو الاندلس التى تعاني فى ذلك الوقت بالذات من الانقسامات وهجمات النصارى الكثير • هذا من جهة ومن جهة أخرى فان التماثل التاريخى والجغرافى بين العدوتين الاندلسية والمغربية يفرض على المغرب ومنطق الاحداث التاريخية والجغرافية ذاته أن يمارس دوره فى انقاذ الاندلس وانتشالها من هوة السقوط فى براثن النصارى • ومن المؤسف ان نرى هذا الامر مثار شك وسوء ظن من قبل بعض المؤرخين الاوربيين مثل :
 يوسف بن تاشفين الى المغرب على انه غزو سعى الى تحقيقه على وجه السرعة دونما انتظار الاذن من ملوك الطوائف ، وماكره منه • وهو قول مفروض فسر به المؤلف مبدأ النجدة الاخوية الاسلامية بتفسير مادي دنيوى • ومهما يكن فاننا نتفق مع القائمين بانه لو لم يبادر الاندلسيين خاصة على المستوى الرسمى الذى ذكرناه الى طلب الاستجداء بيوسف بن تاشفين ، لكان المرابطون هم السباقون الى التدخل الاسلامى المشروع لتدارك البلاد الاندلسية من الخطر النصرانى المذكور ، سيما وأن صرخات الفقهاء والمفكرين كانت قد توالى على يوسف بن تاشفين تستحثه على عون الاندلس ونصرتها •

أشرنا الى أن الفضل فى مسألة الطلب الرسمى للمرابطين بانقاذ اخوتهم المسلمين يعود للمعتد ولا شك ، وحتى هذا الطلب الرسمى من المعتد لاقى من التناقض فى الروايات حدا بعيدا • فصاحب كتاب الانيس المطرب برووض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس^(٣) وتابعه فى ذلك صاحب كتاب

(١) : انظر :

(٢) : عبد الحق حموش : المرجع السابق ، ص ٦٢ - ٦٣ •

(٣) : صالح بن عبد الحليم : ص ٩٩ - ١٠٠ •

وصالح بن عبد الحليم : هو مؤلف كتاب : الانيس المطرب برووض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، المعروف اختصارا بكتاب روض القرطاس او القرطاس فقط بعد أن ظهر مؤلفا لمؤلف يدعى العلمى اسمه الانيس المطرب • فاسقط هذا الجزء من كتاب ابن عبد الحليم ، واصبح يطلق عليه القرطاس فقط • واشارتنا الى أن صالح بن عبد الحليم هو مؤلف كتاب القرطاس ، تضع حدا للملابسات التى وقع فيها كثير من المؤرخين القدامى ، وكذلك كثير من المستشرقين والمؤرخين المحدثين فى تحد يد مؤلف هذا الكتاب • ان الشائع أن الكثيرين ينسبون هذا الكتاب لابن ابي زرع ، وهو ابو العباس احمد ابن ابي زرع أحد علماء وفقهاء فاس فى القرن الثامن الهجرى ، ومصدر الخلط هذا الذى وقع هنا بسبب

الاستقصا للسلوى الناصري^(١) يرويان انه فى عام ١٠٨٢/٥٤٧٥م ورد كتاب من المعتمد الى يوسف يخبره بحال المسلمين وما آل اليه أمرهم ، فرد عليه يوسف بأنه سيعمد الى مساعدة الاندلسيين اذا استطاع أن يفتح مدينة سبتة ، ولكن يبدو أن هناك خلطا عند هذين المؤرخين السابقين^(٢) فى تاريخ هذه المراسلة بين المعتمد ويوسف ، فهما قد انفردا أولا بهذه الرواية دون غيرهما من المؤرخين ، وثانيا كان المعتمد فى تلك الفترة مشغولا بقضية تمرّد ابن عمار وخرجه عليه كما ذكرنا سابقا . اضيف الى ذلك ان الحس القومى والاحساس بالمسؤولية لم يثبثا فى نفس المعتمد بعد . ومن جهة ثالثة فاننا نعترف بأن تحريك ملوك الطوائف لم يحدث الا بعد سقوط طليطلة .

وسبق أن ذكرنا أن العلاقة قد ساءت بين المعتمد والقونسو بعد سقوط طليطلة ، وبعد حادثة السفير اليهودى ، وان القونسو حشد جيشين وجه احدهما نحو مدينة باجة ، ووجه الآخر نحو مدينة اشبيلية ، فحضر عليها الحصار وهناك عن المعتمد أن يلجأ الى وسيلة يرفع بها الخطر النصرانى الماحق .

لا يمكن أن نصدق بأن فكرة الاستعانة بالمرابطين هى فكرة طارئة لمعت فجأة فى خيال المعتمد وسرعان ما حققها ؟ فبنو عباد أنفسهم كانوا يشعرون بقوة المرابطين وأهميتها ، حتى ان المعتضد بالله والد المعتمد ، كان يوصد عيونه فى المغرب ليعرف المدى الذى بلغوه فى توسيع رقعة دولتهم فى المغرب ، وعندهما علم

وجود شخصيتين ألقا كتابا فى تاريخ المغرب أطلقا عليه اسما واحدا

هو الانيس المطرب بروض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس .

كما أن منشأ الخلط وقع بحكم كون هذين المؤلفين عاشا فى عصر واحد . غير أن محمد الفاسى الاديب والمؤرخ المغربى المعروف اثبت بما لا يدع مجالا الى الشك أن كتاب الانيس المطرب ، أو القرطاس المطبوع والمنشور هو من تأليف ابنى على صالح ابن ابنى صالح عبد الحليم الذى توفى سنة ٧٢٦هـ . أما كتاب ابن ابنى زرع فهو فى حكم الضائع .

أنظر : مقال بعنوان : المؤرخان ابن ابنى زرع ، وابن عبد الحليم ، مجلة تطوان ، معهد مولاي الحسن للأبحاث المغربية الاندلسية ، العدد الخامس ، السنة ١٩٦٥ م ، ص ١٥٩ - ١٦٤ .

(١) : ص ٣١ - ٣٢ .
(٢) : من الواضح ان السلوى ينقل فى كتابه الاستقصا كثيرا عن صاحب الانيس المطرب . وقد لقي مؤلف القرطاس انتقادا كثيرا من المؤرخين والمستشرقين حديثا للخلط الذى يقع فيه دائما .

أنظر : مقال بعنوان : دراسة حول كتاب الحلل الموشية ، مجلة تطوان ، نشر معهد مولاي الحسن ، العدد ٥ ، سنة ١٩٦٥ م ، ص ١٣٩ - ١٥٨ مع الحواشى .

بسيطرتهم على معظم المغرب (١) ، أمر عماله ان يحصنوا مد ينتى جبل طارق والجزيرة الخضراء اللتين كانتا تابعتين له ، كما ان المعتمد شعربان المرابطين هم القوة الوحيدة القادرة والمهيئة للوقوف امام خطر النصارى وتدارك الاندلس قبل فسوات الاوان ، كما أنه لابد ان يكون على اطلاع بالسفارات الشعبية التى كان بعض أهل الاندلس يقومون بها عند يوسف بن تاشفين لا قتاه بالتدخل فى الاندلس . ولذا فان المعتمد عندما بحث له الفونسو وهو يحاصره فى أراضى اشبيلية خطابا يتهمهم فيه ويذكر بموقفه ويقول له (كثر بطول مقامى فى مجلس الذبان ، واشتد على الحره فالقنى من قصر ك بمروحة اروح بها عن نفسى واطرد بها الذباب غى) (٢) نقول ان المعتمد عندما ورد له هذا الخطاب فكر ان يطبق فكرته الجريئة وهى الاستعانة بالمرابطين ، فرد على الفونسو بخطاب قوى حازم يقول فيه (قرأت كتابك وفهمت خيالك واعجابك ، وسأنظر لك فى مراح (٣) من الجلود اللطيفة فى ايدى الجيوش المرابطية ، تروح منك لا تروح عليك ان شاء الله) وقد ذاع غم المعتمد هذا فى ارجاء الاندلس لما له من الاهمية والخطورة ، ولقى بطبيعة الحال الكثير من التأييد والمعارضة .

ولعل أول المؤيد بين هم العامة فى الاندلس بطبيعة الحال ، ان هذا العمل - ان كتب له ان يحدث - فسيخفف حتما عن كاهلهم ثقل الحصار والخراب والفساد الذى يحل باراضيهم . وفى نفس الوقت سيريحهم من الضرائب الباهظة التى يدفعونها لملوك الطوائف ليدفعوها بدورهم الى الفونسو . ونستطيع أن نتفهم هذا الشعور عندما نطلع على المحاوراة التى دارت بين المعتمد وابنه وولى عهده الرشيد الذى اعترض على مسألة الاستعانة بالمرابطين كما سنرى بعد قليل .

وأما الجانب الآخر من المؤيد بين لهذا العزم فهم القضاة والمفكرون الذين كانوا يتحرثون شوقا الى عمل اى شىء فى سبيل تجميع القوى الاسلامية ضد النصارى بعد ان استشرى خطرهم . ولذلك فما ان ذاع خبر تلك المراسلات بين المعتمد والفونسو ، وعلم الناس بان المعتمد سيطلب نجدة المرابطين ، حتى عقد الفقهاء فى مدينة قرطبة مؤتمرا عرضت فيه الحالة السيئة التى كانت عليها الاندلس آنذاك حتى لقد خشى أن تعود البلاد نصرانية كما كانت . ولقد اشار بعض الحاضرين من الفقهاء بالاستعانة

(١) : انظر قبل ، الباب التاسع ، ص ١٧٥ - ١٧٦ .

(٢) : الحميرى : المصدر السابق ، ص ٨٥ - ٨٦ .

(٣) : الحميرى نفس المصدر السابق ، والصفحات

(٤) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣٠ - ٣١

(١) من

بحرب افريقية وهم مجموعة القبائل العربية التي رحلت الى افريقية وطاشت فيها .
للاستعانة بهم ضد النصارى ، غير ان قاضي قرطبة عبد الله بن محمد بن ادهم ،
أبدى تخوفه من قدوم هؤلاء ، وخشى ان يفعلوا بالاندلس مثما فعلوا بافريقية ، ولكنه اقترح
الاستعانة بالمرابطين . وقد اطلع المعتمد على ما دار فسي هذا المؤتمر ، وأقر ما
توصلوا له من نتائج ، بل وطلب من ابن ادهم ان يكون سفيره الى يوسف بن تاشفين
وبالفعل ذهب الى المغرب وأخبره بذلك .

على اننا لا نعتقد بأن المعتمد اتخذ قراره هذا بسهولة ، فقد كان
يقيس حساباته بدقة بالغة وكان يرى ان مجال الاختيارات امامه ضيقة . فما
من سبيل امامه الا خيار واحد او خيارين . ولذا فقد اختار اهون الاختيارين وقعا
كما ذكرنا . ولقد لقي تفكيره هذا من يؤيده ، كما لقي من يعارضه . واذا كنا قد
عرفنا ردود الفعل المؤيدة ، فان ردود الفعل المعارضة تحتاج منا الى وقفة مهمة .
فالمعتمد لقي معارضة قوية من ملوك الطوائف ومن مستشاريه ورجال دولته ايضا ، اذ
جاءته كتب ملوك الطوائف تحذر من خطوته تلك ، وتلفت نظره الى عاقبة ذلك . غير
ان المعتمد رأى ان خطر المرابطين - ان وجد - سيكون ولا شك اقل ضررا من خطر

(١) : كتب حسين مؤنس في تحقيقه لكتاب ابن الابار : الحلة السيرة حاشية
مهمة بخصوص عرب افريقية هؤلاء رأينا من الفائدة ان نعتمد عليها هنا .
فالقصود بحرب افريقية : الحرب الهلالية وهم قبائل (الاشج) وورماح ،
وزغبة ، وعدى . . . وكانت هذه القبائل تقطن في صعيد مصر على الضفة
الشرقية من نهر النيل . وكان يلى افريقية (تونس الحالية) من قبل
الدولة الفاطمية في مصر وقتذاك البربر السنهاجيين المعروفين ببني زيري .
وعندما انقلب هؤلاء على الفاطميين وطردوا للمذهب السني وتركوا المذهب
الشيعى ، ودعوا لبني العباس في بغداد . رأى الوزير الفاطمى الجرجرائى
او البطائحي على الأرجح ان يبعث بهذه القبائل العربية الى افريقية ،
فوصلوا الى برقة وخربوها ثم خربوا بعد ذلك معظم ما طافوه في طريقهم .
ثم اتصلوا بالامير المعز بن باديس الصنهاجى صاحب افريقية الذى صانعهم
واستعان بهم على ابناء عمه بنى حماد اصحاب قلعة بنى حماد فى الجزائر
الآن . كما استعان بهم على اعدائه من قبيلة زنماتة المؤيدة للامويين .
فطلب المعز بن باديس من زعيم الهلاليين قدوم تلك القبائل من برقة ، وعهد ما
جاء أولئك الى افريقية خربوا مدينة القيروان ، وانقلبوا عليه ، فاضطر الى اللجوء
الى مدينة المهدية والاعصام بها . وقد وقعت هذه الاحداث فى النصف الاول
من القرن الخامس الهجرى .

انظر : ابن الابار ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ح ١ ، ص ٢١
(٢) : ابن الاثير : المصدر السابق ، مجلد ١٠ ، ص ١٥١ - ١٥٢ .
(٣) : الحميرى : المصدر السابق ، ص ٦٥ - ٨٢ .

النصارى • وكان يدرك بان ملكه وملك ملوك الطوائف معه سيفيغ سواء أكان ذلك على يد المرابطين أم على يد النصارى • ولذا فقد جاء جوابه لملوك الطوائف وغيرهم من المعارضين على ما يدل على شعوره ذلك • وفى نفس الوقت يدل جوابه هذا على نظرة موضوعية واقعية للأمور • ويوضح هذا الجواب بما لا يدع مجالاً الى الشك على الضرورة الحتمية للاستعانة بالمرابطين فى ذلك الوقت بالذات • مهما تكن نتائج ذلك العمل (١) ولم يصغ الى نصائح بعض المستشارين الذين أشاروا عليه بمداواة الفونسو ، وعقد السلم معه ، واعطائه ما يريد ، بدلا من الاستعانة بالمرابطين • وعندما طرضه ابنه وولسى عهده الرشيد أجابه بانه يدرك تماما مخاطر الاستعانة بالمرابطين • ولكنه تجاه تلك الاوضاع الخارجية السيئة ، وتجاه النقمة الشعبية العارمة على سياسة ملوك الطوائف طمة ، رأى ان لا مناص من طلب معونة المرابطين •

ولسنا فى حاجة الى التذكير بان الدافع الاساسى لهذا الاستصراخ هو

الخوف من درس سقوط مدينة طليطلة ، ولا نستبعد ايضا ان وخزات الضمير ، وتحرك الاحساس بالندم لديه عندما اتسع المجال للفونسو ليصل الى ماوصل اليه قد اذكى فى نفسه ذلك الشعور القومى ، وسطا به وقتها - على الاقل - الى ان يضحى اذا كان لا مناص من ذلك بملكه وامجاده مقابل ان يسعى لبقاء الاسلام والوجود الاسلامى فى الاندلس • ولقد اجاب ابنه الرشيد بتلك الاقوال الخالدة: والله لا يسمع عني انى قد

اعدت الاندلس دار كفر ، ولا يمكن لى ان اتركها للنصارى فتقوم على اللعنة فى المنابر الاسلامية : حيز الجمال والله عندى خير من حرز الخنازير (٢) أو رعى الجمال خير من رعى الخنازير •

(١) : اجاب المعتمد كل معارضيه بقوله : (يا قوم أنا من أمرى على حالتين ، حالة يقين وحالة شك ، ولا بد لى من احدهما ، أما حالة الشك فانى ان استندت الى ابن تاشفين او الى ابن فرذند ففى الممكن أن يفيا لى ويبقيا على • ويمكن الا يفعل ، فهذه حالة الشك • وأما حالة اليقين • فهى انى ان استندت الى ابن تاشفين فأنا ارضى الله ، وان استندت الى ابن فرذند أسخطت الله ، فاذا كانت حالة الشك فيها طرضة فلائى شئ أدع ما يرضى الله وأتسى ما يسخطه • وحينئذ اقصر اصحابه عن لومه •)

(٢) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣١ •

(٣) : مجهول : نفس المصدر ، ص ٣١ - ٣٢ •

(أى ان كونه مأكولا لابن تاشفين أسيرا • يرى جماله فى الصحراء خيرا من كونه ممزقا لابن فردند أسيرا يرى خنازيه فى قشتالة) (١)

وهكذا ومعيدا عن التفاصيل الواسعة والجزئيات الدقيقة ، نستطيع أن نقول ان مسألة استدعاء المرابطين أصبحت محورا أساسيا لسياسة المعتمد الخارجية وقتذاك • فقد بحث من فوره بخطابات من انشائه هو نفسه ، ومن انشاء بعض كتابه ايضا الى يوسف يستحثه ويستصرخه • (٢)

ورغم اننا قد أفدنا حقا من رواية صاحب الحلل الموشية فى شرح أحداث تلك الفترة ، والخطابات المتداولة بين الفونسو والمعتمد ، وبين الفونسو ويوسف بن تاشفين • إلا انه لم يتطرق الى كثير من الأحداث الاخرى المهمة • وكان لابن عبد المنعم الحميرى فضل كبير فيها ، فقد أشار الى ان المعتمد عندما غزم على رأيه وصمم على تنفيذ خاتبة كلا من عمر المتوكل ملك بطليوس ، وعبد الله بن بلقين بن زيوى ملك غرناطة ، فأثفق رأيهم جميعا على ان يبحثوا قضاة مدنيهم اليه • وقد ضم اليهم القاضى ابن أدهم قاضى قرطبة ، والوزير أبو بكر بن زيدون وزير المعتمد • وتوجهت هذه الهيئة مفوضة من ملوكها لمقابلة يوسف بن تاشفين ومواجهته على شروط لا يتعدونها كما يقول ابن زيوى نفسه ، وكذلك ابن البار • وقد حدد ابن زيوى تلك الشروط بقوله (وقد كان رسلنا مضوا مع رسل المعتمد الى أمير المسلمين ، على اتفاق ضم بعضنا فيه بعضا الى حقيقة وعاقبنا امير المسلمين على ان تتصل الايدى على غزو الروم بمعونته ، والا يعرض لاحدنا فى بلده ولا يقبل عليه رعيته بمن يروم الفساد عليه) •

قضية الاستيلاء على الجزيرة الخضراء :-

كثر خوض المؤرخين القدامى فى هذا الموضوع ، ولم نجد للأسف فيما أوردوه فى هذا الصدد اراء مقنعة موضوعية ، فان تركوا للخيال والتشكيك مكانا كبيرا ، مع انها قضية ليست بذى بال وهى قضية منتهية مهتومة ، قوامها ان يوسف ابن تاشفين رأى هو ومستشاروه عندما جاءتهم دعوة الاندلسيين للانقاذ والنجدة ، رأوا وهم البعيدون

(١) : الحميرى : المصدر السابق ، ص ٨٥ - ٨٦ •

(٢) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣٠ - ٣٦ •

(٣) : المصدر السابق ، ص ٨٦ - ٨٧ •

(٤) : التبيان : ص ١٠٣ • - الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٩٨ - ٩٩ •

(٥) : نفس المصدر السابق ، ص ١٠٣ •

عن تلك البلاد وطبيعتها الحربية والجغرافية ان يتبصروا أمرهم قبل ان يجتازا الى بلاد لا يعرفونها ، فكان ان أشار عليه أحد كتابه ومستشاريه الاندلسيين بطلب مدينة الجزيرة الخضراء من المعتمد بن عباد وهي الشجر البحري المطل على الضفة الاندلسية من بحر الزقاق أو المجاز ، والتابعة لابن عباد (١) ، كما رغب يوسف بن تاشفين أيضا ان يضع يده على شجر سبتة المطل على الضفة المغربية الاخرى من بحر الزقاق ، ليسهل عليه الجواز الى الاندلس .

(٢) أما مدينة سبتة فقد انعقدت حولها الآراء ، وندر وجود تناقض في الاقوال بشأنها ، فقد طلب يوسف بن تاشفين من صاحبها سقوت البرغواطي ان يسمح بالنزول عليها لأهميتها في مواصلة الفتح والجهاد . فأبى صاحبها ذلك ، فأخبر يوسف بن تاشفين ابن عباد بذلك فسير اليه أسطولاً بحرياً ضرب عليها الحصار ، وسير يوسف بن تاشفين في نفس الوقت جيشاً برياً حاصرها وعلى هذا فلم ينثن صاحبها عن رأيه ، فأقنى الفقهاء بقتاله ، فقتل ودخل المرابطون البلد هوة وقتلوا صاحبها (٤) . هذه الروايات لا خلاف فيها بين المؤرخين كثيراً كما قلنا .

أما مسألة الجزيرة الخضراء ، فيقال ان الوفد الذي ذهب برئاسة أبي بكر ابن زيدون وزير المعتمد اقترح على يوسف بن تاشفين أخذ مدينة جبل طارق بدلاً من الجزيرة الخضراء ، غير ان يوسف بن تاشفين أصر على أخذ الجزيرة . ولما لم يكن مع الوفد صلاحية للتفاوض ، فقد طالبت المدة التي تستلزم المراسلة بين الوفد وبين المعتمد حول هذا الموضوع مما أعطى الفرصة للشائعات المغرضة ان تظهر وتكبر . فتظهر المعتمد بمظهر المتعاضد عن التنازل عن الجزيرة الخضراء ، أو تظهره بمظهر المراوغ الذي يبيت أمراً يعود فيه النفع له وحده . ومن هذه الروايات رواية عبد الله بن زيري ملك غرناطة الذي أشار صراحة الى ان المعتمد راوغ في اعطاء رأيه بسرقة حتى يتدبر أمره

- (١) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣٦ - ٣٨ .
- (٢) : من الاقوال المتناقضة بشأن افتتاح سبتة ما ورد في كتاب روض القرطاس لصالح ابن عبد الحليم ، وكتاب الاستقصا للسلاوي الناصري الذين يجعلان القتل في سبتة ابن سقوت البرغواطي يحيى الملقب بضياء الدولة وذلك في سنة ٤٧٧ هـ . أما أبوه سقوت فقد قتل في حصار طنجة الذي شهده المرابطون حولها قبل ذلك . انظر : الروض القرطاس ، ص ٩٩ - ١٠٠ . الاستقصا ، ص ٣١ - ٣٤ .
- (٣) : سقوت البرغواطي اصله من قبيلة برغواطة الزناتية ومنازلها على ساحل المغرب الاقصى جنوبي طنجة الى اصيلا . وقد تولى سقوت حكم طنجة وسبتة من قبل الحموديين . وقد قتل في سنة ٤٧٦ هـ على يد المرابطين عندما طاروا دعوة المرابطيين . انظر : ابن الابار : المصدر السابق والجزء ١ ، ص ٥١ .
- (٤) : ابن خلدون : المصدر السابق ، جلد ٦ ، ص ٣٨١ - ٣٨٢ .
- (٥) : ابن الابار : المصدر السابق والجزء ١ ، ص ٩٨ - ١٠٠ .

مع الفونسو السادس ، مما يعنى ان ابن زيوى كان يقصد بأن المعتمد كان يلعب بورقة الجزيرة الخضراء لثنى الفونسو عن رأيه فى مهاجمة مملكته ، فاننا رأى ان الفونسو ماض فى غرضه عاد الى يوسف ابن تاشفين وأعطاه الجزيرة الخضراء .

ومن الاقوال الاخرى ان الراضى بن المعتمد حاكم الجزيرة الخضراء كان مترددا فى النزول عنها للمرابطين الذين عبروا البحر نحوها ، رغم انه قد امدّهم بالموونة والميرة . فما كان من المرابطين الا ان احدثوا بالجزيرة وحشوا له من يفهمه بأنه سيجد نفسه امام الامر الواقع . ولذا فلا مناص امامه من التسليم . فبعث الى ابيه على وجه السرعة بذلك ، فأمره باخلاء الجزيرة والتوجه نحو مدينة رندة (٢) .

والواقع انه يخيل الينا ان المعتمد لم يكن مترددا فى اخلاء الجزيرة الخضراء . واما تلك الاقوال التى تشير الى غير ذلك ، فاننا نعتقد انه لا يمكن أن يعتد بها كثيرا ، فعبد الله ابن زيوى خصم المعتمد وقريبه له الحق فى ان يروى ما يروق له . والروايات الاخرى لم تعمل على ان تظهر للمسألة وجهتها الموضوعية .

صحيح ان طلب الجزيرة الخضراء قد فاجأ العباديين بدليل ما أورده صاحب الحلل الموشية من استنكار ابن المعتمد وولى عهده الرشيد الذى قال لابيه معترضاً : الا تنظر الى ما يطلبه هذا الرجل ؟؟ . ولكن المعتمد الذى بات يشعر ان نهاية ملكه محققة سواء اكانت على يد الفونسو او على يد المرابطين اجاب ابنه بقوله : ان طلب الجزيرة قليل فى حق النصر والعمون (٣) . هذا هو المعقول ، فالمعتمد الذى سلم للمرابطين ان يتحكموا فى شؤون البلاد — على الاقل فى فترة الاستنجاد — لا يضيره ان يتخلى عن الجزيرة لهم ليجتازوا منها الى الاندلس . كما انه اعتل من ان يخلق لنفسه ازمة مع هؤلاء الذين جاءوا لمساعدته وهو المحاصر بأكثر من جيش نصرانى ، كما انه المعنى اكثر من غيره من ملوك الطوائف بعداوة الفونسو .

ومهما يكن فقد اجتازت الجيوش المرابطية بقيادة يوسف بحر الزقاق من ثغر سبتة ، واتجهت نحو الجزيرة فدخلتها واستقرت فيها ، وجاء المعتمد بنفسه وتبعته وفود ملوك الطوائف ترحب بيوسف بن تاشفين ، وتقدم له واجبات الضيافة ومراسم التكريم .

(١) : انظر : المصدر السابق ، ص ١٠٢ — ١٠٣ .

(٢) : انظر : على ادهم : المرجع السابق ، ص ٢١٨ .

(٣) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣٨ .

ولم يتخلف عن المسير الى الترحيب به الا من أقعدته ظروف مرضية أو كبر سن
كحاكم المدينة ، أو ظروف أمنية كالمستعين ابن هود الذي كان محاصرا
وقتها من قبل الفونسو^(٢) .

وأخيرا فهناك عدة نقاط بقيت جد يوة بلغت الاهتمام اليها
وهي أولا : أن ما سقناه من احداث لجواز يوسف بن تاشفين الاول للاندلس هو خلاصة
يتراعى لنا أنها موضوعية واقعية لكل ذلك الكم من الروايات الكثيرة المتناقضة^(٣) .

والأمر الثاني ان الفونسو كان على علم بتلك الاتصالات التي كانت
تدور بين العدوتين ، بدليل أنه بحث الى يوسف بن تاشفين بخطاب ملئ بالتهديد
والوعيد ، يدل على أن الفونسو السادس كان منزعا جدا لتلك الاتصالات لخطورتها

(١) : عبدالله ابن زيري : المصدر السابق ، ص ١٠٤ .

(٢) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ٩٢ .

(٣) : للاطلاع على ذلك الحشد الكثير من التفاصيل التي يظهر فيها التناقض بوضوح
نحيل القراء الى الكتب التالية :

— عبدالله ابن زيري : المصدر السابق ، ص ١٠١ وما بعدها . —

ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، ص ٩٨ — ١٠٠ . — عبدالواحد

المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٩٠ — ١٩٢ . — ابن الأثير : المصدر

السابق ، مجلد ١٠ ، ص ١٥١ — ١٥٣ . — ابن خلكان : المصدر السابق ،

مجلد ٧ ، ص ١١٤ — ١١٦ . — صالح بن عبد الحليم : روض القراءات ،

ص ٩٧ وما بعدها . — الحميري : المصدر السابق ، ص ٨٣ — ٩٠ . —

ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ٩٠ وما بعدها . — مجهول : الحلل

الموشية ، ص ٣٢ — ٤٠ . — ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٦ ،

ص ٣٨١ — ٣٨٤ . — السلوى القاصري : المصدر السابق ، ص ٣١ وما بعدها .

(٤) : خطاب الفونسو ليوسف بن تاشفين كان بعد توتر العلاقات بين المعتمد والفونسو ،

وبعد أن وصل الفونسو الى جزيرة طريف . ومن المحتمل أن يكون الفونسو قد

اطلع ساعته على الاتصالات التي جرت بين المعتمد ويوسف بن تاشفين ،

فبحث بخطابه المذكور في المتن الى يوسف . وقد أورد صاحب الحلل الموشية

أيضا دون غيره من المؤرخين المسلمين نص الخطابين المتبادلين بين الفونسو

ويوسف بن تاشفين . وقد توصل محمد بن عبيد وأنجوس ماكاي

الى صحة الخطابين المذكورين . وذلك في المقالة التي كتبها في مجلة :

الأندلس ، وقد استند الكاتبان للدلالة على صحة

على موقفه رغم ما يسبب له من عدم اكتراث ولا مبالاة (١)

والأمر الثالث وهو أنه إذا لم يكن للمعتمد ابن عباد فضل المبادرة

الأولى بالاستعانة بالمرابطين ، فإن له الفضل بلا شك في تبني تلك الرغبة الشعبية

التي تتوق إلى نصرته المرابطين ، أو لنقل أنه كان له الفضل في القيام بالمبادرة

الرسمية لذلك . لذا فنحن لسنا مضطرين إلى تبني وجهة نظر حسن محمود (٢) التي

تفهم المعتمد حقه في هذه النقطة بالذات وتتكسر عليه سابقته ، والتي تصور

أيضا دعوته ليوسف وكأنه قد اضطر إليها اضطرارا وسبق إليها سوفا عندما رأى

المرابطين يدقون أبواب الاندلس (٣) . نحن لا نتفق مع وجهة النظر هذه .

والأفأين هي المصادر الاندلسية التي تصور المرابطين كقوم يأترون بأمر أمراء

اشبيلية ويلبون نداءهم للجهاد تبليبة السيد التابع ٤٤ .

نحن لانكر الرغبة الجامحة للمرابطين للتدخل في الاندلس احتسابا

ورغبة في الجهاد التي اشرنا إليها سابقا ، إلا أن المبادرة جاءت من الاندلسيين

أولا ، وجاءت من المعتمد نفسه كضرورة ملحة نعم . وفي هذا ما نعتقد الكفاية

للاشادة بصاحب المبادرة التي أخرجها من طي الأمانى والأحلام إلى حيز الواقع والحقيقة .

== الخطابين على مؤرخ مصرى عاش في القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى

وهو شهاب الدين محمد بن سليمان الحلبي (توفي عام ٧٢٥هـ / ١٣٢٤-١٣٢٥م) .

والذى كان يشغل وظيفة ديوان رئيس الانشاء في مصر المملوكية في كتابه :

حسن التوصل إلى صناعة الترسل (القاهرة ، ١٨٨٠م ، ص ٤) ومن

الجائز جدا ان يكون المؤرخ المصرى قد نقله عن معاصره صاحب الحلل الموشية

الذى عاش في القرن الثامن الهجرى أيضا .

أنظر :

(١) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٢٨ - ٣١ . — أحمد مختار العبادى :

المرجع السابق ، ص ٣٣٠ - ٣٣١ .

(٢) : انظر ، قيام دولة المرابطين ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ ، ص ٢٦٩ .

(٣) : انظر ، حسن محمود : نفس المرجع ، ص ٢٦٧ .

موقعة الزلاقة

يحمد للمؤرخين القدامى في الواقع جهودهم العظيمة في تتبع أحداث معركة الزلاقة ، والاحداث التي أعقبتها ، والالام بمعظم جزئياتها وتفاصيلها رغم التباين والتناقض في هذه الروايات بين مؤرخ وآخر ، ولذا فان موقعة الزلاقة خلّدت لحسن الحظ بمعظم أحداثها الجسام ، وما من شك في أنه كان لأهمية المعركة السبب الاساسي لهذا الاهتمام البالغ .

وانذ ذهبنا نتقصى أحداث معركة الزلاقة ذات النتائج البالغة الأهمية والتي سنعرض لها بعدئذ نجد وسط ذلك الحشد من التفاصيل المتباينة خطوط تلاقي أساسية بينها ، كما نجد مجموعة من الحقائق متناثرة نجدها من هنا وهناك .

ولعل أول ما نستطيع استخلاصه من تلك الروايات السالفة ان جهود أمراء الاندلس للجهاد وقتها كانت صادقة وكانت عزائمهم لا تشوبها شائبة ، فقد وحّد المصير المشترك القائم الذي تبينوا خطره ، صفوفهم وقلوبهم ربما لأول مرة ، وشعروا بان الوقت يعمل لخير صالحهم ، فأصدقوا الله ثم الناس النية ، وتوجهوا بكل أحاسيسهم نحو انقاذ الوطن والنفس من ذلك المصير الذي ينتظرهم . ولذا فما أن وطئت أقدام يوسف بن تاشفين أرض الاندلس حتى جاءت وفود ملوك وأمراء معظم بلاد الاندلس وعلى رأسهم المعتمد بن عباد ، فقابلوه بالترحاب الشديد ، وقد موّاه الضيافات والهدايا كل بحسب طاقته حتى أنه (١) لم يبق من ملوك الطوائف بالاندلس الا من بادر وأعان وخرج وأخرج (٢) . ويروي عبد الله ابن زبير متهججا حقيقة هذا الموقف الجماعي النادر فيقول (٣) والمعجب في تلك السفارة من حسن النيات ، واخلاص الضمائر ، كأن القلوب انما جمعت على ذلك) . ويشير أيضا الى مواقف ملوك الطوائف التي كانت تتوق الى الجهاد ، وقد أعمل كل منهم جهده ، ووطن نفسه على الموت والفداء .

- وقد سارت الجيوش المرابطية تحفها قلوب الاندلسيين ومهجمهم نحو اشبيلية شمالا ، وهناك بقوا في بطحائها مدة ثلاث أيام قدّم لهم المعتمد فيها من ضروب
- (١) : الحميري : المصدر السابق ، ص ٨٦ - ٨٨ - عبد الله بن زبير : المصدر السابق ص ١٠٤
- (٢) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٧٠ . (نقلا عن النضبي صاحب بغية الملتصق)
- (٣) : عبد الله بن زبير : نفس المصدر ، ص ١٠٤ .

الاکرام والاتحاف حدا عظيما ، جعل لسان يوسف بن تاشفين يلهمج بالشكر ، كما سبب ذلك الاتحاف الزائد تصورات خاطئة لدى بعض المؤرخين ، اذ استشفوا من ذلك مواقف سياسية ليوسف بن تاشفين لسنا معنيون هنا بايرادها على الاقل في هذه الفقرة (١)

والمهم في الامران الاستعدادات للقاء الفاصل قد اتخذت في اشبيلية ، فهيات أسبابها من مؤن وذخائر وعدد وكل ما يلزم للمعركة الفاصلة . وتوافدت الكتائب الاندلسية من كل صوب نحو اشبيلية ، كما توافدت من المغرب بقية المتطوعين من قبائله ، فلم تتخلف قبيلة عن المشاركة في هذه المعركة . وكان تشوق المرابطين الى الجهاد (٢) والفداء عظيما الى الحد الذي أثروا فيه على يوسف بن تاشفين باجابه الاندلسيين ونصرتهم (٣) وهذا كما لو ان كل شيء قد أهدى للمعركة المصيرية بين المسلمين والنصارى .

أما على الصعيد النصراني ، فمن الطبيعي ان تزعم تلك الاخبار الفونسو وكان في ذلك الوقت محاصرا للمستعين بن هود في سرقسطة ، فما ان بلغه عبور المرابطين حتى أهدى العدة للتوجه جنوبا ليتخذ من الاجراءات السريعة ما يوجه به الموقف العصيب ، وبعث لابن هود الذي بلغته اخبار قدوم المرابطين ، يطلب منه الاموال التي كان قد رفضها من قبل كشرط للارتحال عن طاعته . ولكن المستعين ابى ذلك عليه ، فأضطر الفونسو الى الانسحاب سراطا نحو طليطلة (٤) .

واستبشعر الفونسو لأول مرة خطورة الموقف ولم يعد في مقدوره ان يلعب بورقة الخلافات والفرقة بين ملوك الطوائف ، بل ووجد امامه صفا موحدا وجيشا

(١) : من الذين شككوا في هذا الاكرام الزائد عبد الواحد المراكشي ، وفي الواقع لا يمكن قبول رواياته على غلاتها ، فهو قد كتب كتابه سالف الذكر في عصر الموحدين . وكان بوقا من ابواقهم في ذلك الوقت رغم انهم قد اساءوا اليه اخيرا . فهو يقول عند ما اخذ يصف لقاء المعتمد بيوسف (. . .) واظهر من بره واكرامه فوق ما قد يظنه امير المؤمنين ، وقد م اليه من الهدايا والتحف والذخائر الملوكية ما لم يظنه يوسف عند ملك . وكان هذا اول ما وقع في نفس يوسف التشوف الى مملكة جزيرة الاندلس (. . . الخ)

انظر : المعجب ، ص ١٩٠ - ١٩١

(٢) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٦٩

(٣) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣٢ - ٣٣

(٤) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ٩٢ .

اسلاميا كيفا • وشعر أن المعركة القادمة ستكون ^{معركة} حيدة ومصير وليست معركة حصن أو اتاوات • ولذا فقد سارع إلى ترميم علاقاته المتدهورة مع ممالك النصارى وأشعرهم بخطورة المعركة • فهي مواجهة حاسمة فاصلة بين الاسلام والنصرانية • فبعث إلى ابن عمه سانشو راميرز ملك أرغونة • يطلب منه الامداد • كما جاءته امدادات من مملكة نبرة وورشلون • وجند على وجه السرعة قوات من ليون وجليقية واستوريش وقشتالة • وطلب النجدة من ولايات فرنسا فجاءته كتائب من الفرسان من لانجدوك وبروفانس ومرجندييه • كما طلب من قائده اليرمون البرهانس ^(١) الذى بعثه مع القادر بن ذى النون نحو بلنسية ليملكه اياها • فاجتمعت له بذلك اعداد هائلة أسلمت له قيادتها بطبيعة الحال ^(٢)

تحديد مكان المعركة :-

لم يأت تحديد مكان المعركة بخط عشوائي • أو من قبيل الصدفة المحضة • بل كان مبنيا على حسابات دقيقة اسلامية ونصرانية على السواء • فلقد كان المكان الذى شهد احداث تلك المعركة يتبع من الناحية الجغرافية ملكة بطليوس وغير بعيد منها • وهو الذى تسميه المصادر الاسلامية الزلاقة • بينما تسميه المراجع الاسبانية *Sacralias* وتعرف الآن باسم *Sagras* • ولم يكن يفصل هذا المكان عن المعسكرين سوى ثلاثة أميال هي القدر الذى يشكل عرض نهر وادي يانه والذى يبعد شمالا

(١) : البرهانس أو البارهانس *Alvar Fañez* هو قائد قشتالي مسيحي • ويقال انه كان ابن أخ للسيد القمبيطور الذى استولى على بلنسية • وقد قتل فى عام ٥٠٧ هـ / ١١١٤ م • ويعتبر من أكبر قواد الملك الفونسو السادس • انظر ابن القطان : نظم الجمان • ج ٢ ص ٦ • وج ١ ص ٧ •

(٢) : انظر : حسن محمود : المرجع السابق • ص ٢٧٢ • - سعيد عاشور : اوربا فى العصور الوسطى • ص ٥٣٣ • - محمد عبد الله عنان : مواقف حاسمة • ص ٢٨٠ - ٢٨٢ • - على أدهم : المرجع السابق •

فى اتجاه نهر التاجية ويسمى اليوم جـورد (١) ، وتقع الزلاقة بين بطليوس وقورية (٢) .

فعلى الصعيد الاسلامى كان يوسف بن تاشفين يميل على عاداته الى التوردة والحذر الشديد ، فخشى من التوغل شمالا نحو طليطلة ومقبة اراضى الفونسو ، وكان يميل كما يفهم من رواية عبد الله بن زبير الى أن يكون اللقاء على ارض اسلامية حتى اذا تجلت المعركة لصالح المسلمين يكون قد ضمن السلامة وهو فى ارض اسلامية ، أما اذا انجلت المعركة عن هزيمة المسلمين فتكون اراضى المسلمين مأوى يلجئون اليه . بل اننا نفهم من رواية ابن زبير أيضا أن يوسف بن تاشفين كان يؤثر عدم اللقاء أصلاً . فلربما كان يتمنى أن يكون النصارى قد أخافهم وأربعهم وصوله الى الاندلس ، فلا تحدث معركة ، وهو الفريب عن تلك البلاد التى لا يعرف لقصر المدة خباياها وجغرافيتها بعد (٣) . كما أن التحليل الحديث لدوافع ذلك التدبير الحرسى الهادف الى اختيار بطاح بطليوس مكانا مناسباً للمعركة ، يلقى الضوء على فهم تلك الحسابات الدقيقة التى بنى عليها ذلك الاختيار . وفى هذا فنحن نؤيد تحليل عبد الحق حموش (٤) لذلك التدبير الحرسى . فالواقع أن يوسف بن تاشفين خرج من المغرب وهو يعلم أن أمامه أكثر من لقاء وأكثر من معركة ، فلو أنه فكر فى شئ سلسلة من الحروب الصغيرة الخاطفة مع الاسبان حتى ولو كان ذلك للمناوشة ، لكان قد حكم على جيشه بالتبديد والانهاك والتفريط فى القوة فيما لا طائل منه . ولذا فقد فضل لقاء رئيسيا حاسما تجتمع فيه زهرات شباب الجيش وفتوته المتأججة التى لم تهدأ بعد تلك المعارك الصغيرة ، فكان أن رنا بنظرته العسكرية الفاحصة أن ينصرف الى الجانب الغربى من الاندلس ، إذ عرف أنه مركز الثقل فى الممالك الاسلامية والاسبانية على السواء . فطليطلة عاصمة الفونسو غير بعيد عن بطليوس ، واشبيلية وأراضيها الواسعة ، فضلا عن أن

(١) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٣ . - محمد عبد الله غان :

دول الطوائف ، ج ٢ ، ص ٣٢١ .

(٢) : ابن الكردبوس : نفس المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

(٣) : نفس المصدر والصفحة .

(٤) : ابن تاشفين ، ص ٦٧ - ٦٨ .

مملكة بطليوس تقع غير بعيد عن الجزيرة الخضراء جسر عبوره وامداداته • ولهذا فقد كان اختيار هذا المكان منى على الحسابات الدقيقة ، وليس على الصدفة وحدها ^(١) • وما يماثل هذا التحليل تقريرا رأينا تفسيرات أخرى مشابهة ، فالواقع أن يوسف بن تاشفين ومن معه لو فكروا في التوجه صوب طليطلة ومحاصرتها لكان قد ازداد توغلبهم في بلاد النصارى ، ولطالت بذلك خطوط مواصلاتهم ولسهل من ثم على الفونسو أن يقضى عليهم وهم منهكين • ولذا فقد آثر يوسف بن تاشفين وأركان حربه أن يكون اللقاء - إن تم - في بطحاء بطليوس لاسيما وأنهم قد علموا بتحريك الفونسو نحو بطليوس ^(٢) •

أما على الصعيد النصراني فقد كان لالفونسو حساباته الدقيقة أيضا ، فهو قد رغب أن يكون اللقاء في أرض المسلمين ، فإذا أسفرت المعركة عن هزيمته انسحب إلى بلاده وهو مطمئن إلى أن المسلمين سوف لن يتبعوه إلا بعد أن يتخذوا استعداداتهم لجولة أخرى تحتاج بطبيعة الحال لبعض الوقت ، هو نفسه الذي يكتنه من النجاة بنفسه من الهزيمة ليستعد لجولة أخرى من جديد • وصان بلاده في نفس الوقت من آثار المعركة والقتال ، أما إذا كان النصر حليفه فهو بلا شك المستفيد • تلك كانت وجهة نظره ^(٣) ، والواقع أن حساباته هذه لها ما يبررها ، مما يعنى أن النصارى لم يكونوا بأقل اضطرابا من المسلمين في أن تكون الحرب في بطحاء بطليوس وعلى أراضى المسلمين ^(٤) • ولكن رغم وجاهة هذه النظرية العسكرية النصرانية ، إلا أنه كان عليه من الأولى أن يجبر المسلمين إلى الدخول معه في معركة يختار لها هو مكان اللقاء • فلأنه استقر في طليطلة وتحصن بها ، لكان أغرى المسلمين إلى محاصرته ، ولقطموا تلك المسافة بين بطليوس وطليطلة ، حتى إذا أنهكهم التعب وكدهم الإرهاق ، انقضّ عليهم فأثخن في صفوفهم ^(٥) •

(١) : عبد الحق حموش : المرجع السابق ، ص ٦٧ - ٦٨ •

(٢) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٧٣ - ٢٧٥ •

(٣) : الحميرى : المصدر السابق ، ص ٨٧ - ٨٨ •

(٤) : حسن محمود : نفس المرجع أعلاه ، ص ٢٧٥ •

(٥) : نفس المرجع أيضا ، ص ٢٧٤ •

المعركة الفاصلة :-

كان على يوسف بن تاشفين أن ينظم صفوف القوات الإسلامية ، وكانت قد بلغت من الكثرة ما تستوجب معه فصلها الى معسكرين . فارتأى أن يكون الاندلسيون في جيش أو معسكر خاص ، ويكون هو نفسه في معسكر آخر من المرابطين . وولى كما يفهم من الروايات سالفة الذكر المعتمد قيادة المعسكر الاندلسي ، في حين تولى هو قيادة جيش قواته المرابطية ذات الثقل الحرس الكبير^(١) . وتلاقى الجيوش الإسلامية والنصرانية في بطحاء الزلاقة وجهها لوجه ، وبدأت المراسلات بين الفريقين ، فبعث يوسف الى الفونسو بخطاب يطلب منه على مقتضى السنة النبوية أن يختار واحدا من الأمور التي نصت عليها السنة عند لقاء الكفار وهي : الاسلام أو الجزية أو الحرب ، غير أن الفونسو غضب من هذا الخطاب وبعث لملوك الطوائف يقرعهم ويؤتبههم^(٢) . وكان قد حصلت بينه وبين يوسف بن تاشفين من قبل خطابات متبادلة . تهجم فيها الفونسو على يوسف بن تاشفين كثيرا . فكان رد يوسف بن تاشفين عليه موجزا قويا حازما هو ذاته جواب هارون الرشيد لنقفور ملك البيزنطيين عندما قال له " الجواب ما تراه لا ماتسمعه " ^(٣)

وعلى أية حال فلم يبق الا أن تحدد ساعة اللقاء بين الفريقين كما كانت عليه المادة العسكرية وقتذاك . فجرت مراسلات بين الفريقين حدد فيها يوم المعركة ، غير أن الفونسو كان يببّيت في الواقع مكيدة للمسلمين ، تنبّه لها المعتمد ابن عباد ولقت نظر يوسف بن تاشفين اليها . والفعل فلم يهاجم الفونسو قوات المسلمين في اليوم المتفق عليه ، ولكنه هاجمهم في اليوم السابق له^(٤) . ونشبت في ذلك

- (١) : الحميري : المصدر السابق ، ص ٨٩ - ٩٠ .
- (٢) : الحميري : نفس المصدر ، ص ٩٠ - ٩١ .
- (٣) : مجهول : الحلل الموشيه ، ص ٢٨ - ٣٠ - المقرئ : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٨٨ - ٩٩ .
- (٤) : أنظر ، عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٩٣ - ١٩٦ .
- ابن الاثير : المصدر السابق ، مجلد ١٠ ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .
- المقرئ : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٩٧ - ١٠١ .

الوقت المعركة الهائلة بين المسلمين والنصارى ، وكانت فى الواقع معركة غير متكافئة فى العدد والمعدة • فصدم الاندلسيون صدمة شديدة وارتبكت صفوفهم وتمزقت • وفى الحقيقة ان ما حدث كان نتيجة لحدوث خلل فى تنفيذ الخطة • اذ كانت الخطة العسكرية التى وضعها يوسف بن تاشفين كما يتراعى لنا تقوم على أساس ان يتلقى الاندلسيون الصدمة أو الضربة الاولى حتى اذا تورط النصارى فى مهاجمتهم معتقدين بان هؤلاء هم الجيش كله ، فبادر يوسف الى معسكر النصارى ، فاشعل فيه النار وقضى على الموجودين فيه ، فيعود الفونسو لتدارك ذلك ، فقصده قوات يوسف المستعدة والنشطة حتى ذلك الوقت • وفى نفس الوقت تطبق عليه القوات الاشبيلية الاخرى • غير أنه لم يكتب لهذه الخطة ان تطبق بخذا فبرها ، اذ يبدو ان تدخل الفونسو بكل قواته وثقله قد أربك صفوف الاندلسيين ^(١) ، فبدأت صفوفهم تتمزق ، وكثرت الانسحابات فى صفوفهم ، وتحمل المعتمد ابن عباد وصحبه القليل عتب ذلك الموقف الحرج • وأبلى فيه بلاءا حسنا ، فكان يومى بنفسه فى النزال حتى أنه أصيب أصابات بالغة • ^(٢) كل ذلك وضغط النصارى يزداد على الاندلسيين ويزداد تحمل المعتمد لعبء ذلك ، حتى كاد الامل يذوى فى نفسه • وهنا طلعت عليه كتيبة مرابطية بقيادة القائد المرباطى المعروف داود بن عائشة • فنفسست الكثير عن الاندلسيين ، وفى نفس الوقت تحول يوسف لتنفيذ الشق الثانى من الخطة بكامل قواته وكامل قواه • وأعطت هذه الخطة ثمارها مباشرة ، وتحول النصارى من موقع الهجوم الى موقع الدفاع ، وتنفس الاندلسيون الصعداء ، والمعتمد بالذات • واخيرا اتجلى المعركة عن انتصار المسلمين انتصارا باهرا خالدا • وقد وقعت هذه الموقعة على الأرجح فى ١٢ رجب سنة ٤٧٩هـ / ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦م ، ونزل المعتمد وهنا يوسف بن تاشفين على ذلك الفتح المبين • كما هناك أيضا بقية ملوك الطوائف ، وبعث المعتمد الى ابنه وولى عهده الرشيد يعلمه نبأ النصر العظيم ويطلب منه ان يوفى ذلك النبأ للمسلمين فى المملكة ^(٣) .

وهكذا انتهت هذه المعركة بانتصار الاسلام على النصرانية فى لقاء تاريخى

يضاف الى الايام الخالدة فى تاريخ المسلمين كبدر والقادسية واليرموك وغيرها •

(١) : عبد الحق حموش : المرجع السابق ، ص ٦٦ •

(٢) : الحميرى : المصدر السابق ، ص ٩١ - ٩٢ •

(٣) : الحميرى : نفس المصدر ، ص ٩٣ - ٩٤ •

ومن المفيد أخيراً أن نلسم بالاسباب او العوامل الحربية التي أدت الى انتصار المسلمين فى هذه المعركة ، فقد استخدمت فيها خطط عسكرية جديدة • كما استخدمت فيها اسلحة جديدة من قبل المرابطين لم يعهد لها النصارى من قبل •

وفى الحقيقة ان المسلمين كانوا أحكم وأزكى فى خططهم العسكرية التي وضعوها من النصارى • فالخطة التي اعتمدها النصارى وكانوا يعتقدون أنها جديدة تلاشت أمام الخطة التي وضعها يوسف وأركان حربه ، فالنصارى كانوا يعتمدون خطة الفارس الفرد ، فيما وضع المسلمون خطة تحتوى تلك الخطة النصرانية وهى خطة الجيش الكامل • فكما ان أبرز ما يميز خطة النصارى العسكرية عثف وقوة الفارس المثقل بالدروع والحديد ، كان أبرز ما يميز الخطة الاسلامية هو المواجهة بقطائع كاملة من الجيش تدك الخطة النصرانية دكا كما أن خطة الكمان القديمة الجديدة التي تلجأ لها الجيوش الاسلامية دائماً كانت عاملاً آخر من عوامل النصر •

واضافة الى هذا فقد أنزل المرابطون الى ميدان القتال فرقاً يمكن أن نسميها مع شئ من التجاوز فرق الصاعقة • وتتكون من كتائب مشاة كان عددها فى تلك المعركة أربعة آلاف مقاتل من السودان ، مسلحين (٢) بدرق اللط (٣) وسيوف الحديد ، ومزاريق الزان (٤) وفى ايديهم السهام ، فأخذوا يطعنون الخيل التي فزعت بفرسائها وأحجمت عن التقدم ، فجمحت بأصحابها •

أما بالنسبة للأسلحة التي استخدمت لأول مرة فى تلك المعركة ،

فقد كان لها دور رئيسى فى النصر ، ان كان من عوامل النصر نزول الجمل لأول مرة (٥) فى تاريخ الحروب الاسلامية النصرانية فى اسبانيا • فقد أمر يوسف كما يقول ابن خلكان (بعبور الجمل فعبور منها ما أغشى الجزيرة ، فارتفع رغاؤها الى عنان السماء ، ولم يكن أهل الجزيرة (ولا خيلهم) رأوا جملاً قط ، فصارت الخيل تجمع من رؤية الجمل ومن رغاؤها) ويضيف قائلاً (وكان ليوسف رأى مصيب فكان يحدق بها عسكرة

(١) : عبد الحق حموش : المرجع السابق ، ص ٦٥ - ٦٦ •

(٢) : المقرئ : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٠٠ - ١٠١ (نقلاً عن ابن خلكان) •

(٣) : نقل ابن خلكان عن ابن حوقل فى كتابه المسالك والممالك ، ان لمطه : بلية عند السوس الاقصى (فى المغرب الاقصى) بينها وبين مدينة سجلماسة (يومًا •

انظر : وفيات الاعيان ، ص ١١٤ - ١١٥ •

(٤) : المقرئ : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٠٠ - ١٠١ (نقلاً عن ابن خلكان) •

(٥) : المقرئ : نفس المصدر والجزء والصفحات •

(٦) : العبارة فى الاصل جاءت على هذا النحو (ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جملاً قط ولا خيلهم) وقد أعدت صياغتها على هذا النحو فى المتن زيادة فى الايضاح وضما لأى لبس •

ويحضرها للحرب ، فكانت خيل الفرنج تجمع منها (٠)

وبالإضافة الى الجمال فقد استخدم المرابطون الطبول الكبيرة التي كانت تشقى بأصواتها الهائلة عنان السماء ، فكانت ترتعد لها قلوب النصارى وتصمم آذانهم . والواقع أن الشعوب الصحراوية التي كانت ولا تزال تعيش في الصحراء في افريقية تعرف أهمية ذلك النوع من الاسلحة المعنوية في حروبها . فقد عرف المرابطون من القبائل الزنجية التي كانت تعيش في نواحي نهر السنغال والذعر الطبل المعروف بطبل جنادة الذي ينسب الى غينيا GUINEE ، كما يذكر (١) أن المرابطين استخدموا سلاحا خفيفا كان له دور في القتال شديدا حتى لقد كاد أن يذهب ضحيته الفونسو نفسه . هذا السلاح هو الخناجر المقوسة والتي يطلق عليها المرابطون الاطاس أو الطاس (٢) .

هذه العوامل المادية والمعنوية أدت الى كسب المسلمين لهذه

المعركة الفاصلة . ولكن هناك عامل قبل هذا ومعه هو سلاح الحمية والحماس الذي ينشأ أو لنقل سلاح العقيدة ، فقد كان لهذا السلاح الدور الاساسي في الانتصار ، فقد كانت النفوس صادقة في اللقاء ، مخلصه في الأداء ، مرابطين وأندلسيين على السواء رغم النكسة الأولى . أخلصوا النية لله وطدقوا العزم ، وكان يذكي هذا العزم الفقهاء الذين انتشروا في صفوف الجيش الاسلامي برمته يلهبون الحماس ويذكرونهم الفضائل الالهية ورياح الجنة ، ويذكرونهم الشهادة أو النصر المؤزر المشرف . فأعطى هذا كله شحنات هائلة من القوة ، فاندفعوا الى القتال دفعا يرومون الفوز بأحد الحسنيين النصر أو الشهادة . وهكذا تحقق لهم ذلك النصر العظيم المؤزر .

بقيت أخيرا عدة نقاط لم نشأ أن نتحدث عنها في سياق حديثنا

عن وصف معركة الزلاقة حفاظا على هذه الصورة الرائعة التي رسمناها لمعركة الزلاقة من أن تشوه . باعتبار أن هذه المعركة من المعارك المهمة في تاريخ الاسلام عامة ، وفي تاريخ الاندلس خاصة والتي تمثل ذروة حركة جهاد المرابطين والاندلسيين ضد النصارى والأسبان . وأول هذه النقاط محاولات التشكيك في ولاء المعتمد ويوسف لبعضهم البعض ، وبالتالي ولاء المرابطين والاندلسيين لبعضهم البعض قبل وأثناء وبعد المعركة . وقد أشار الى هذه المواقف بعض المؤرخين القدامى وتابعهم فيها

(١) : احمد مختار العبادي : المرجع السابق ، ص ٣٣١ - ٣٣٢ .

(٢) : احمد مختار العبادي : مقال بعنوان : دراسة حول كتاب الحلل الموشى في

ذكر الاخبار المراكشية ، مجلة تطوان ، العدد الخامس ، سنة ١٩٥٥ م .

(١) بعض المستشرقين . فمن مواقف التشكيك بموقف المعتمد قبل معركة الزلاقة ما رواه ابن الأثير بدون رواية من أنه عندما تراعى الجمعان " المسلمون والنصارى " جاء من ينصح يوسف بأن يأمر المعتمد بأن يكون في المقدمة خوفا من ألا ينصح المعتمد يوسف ولا يبذل نفسه ، ففعل ذلك يوسف . ()

أما عبد الواحد المراكشي^(٢) فيشكك كعادته في صدق نيات يوسف وينظر إليه كأي طامع انتهازى ، وليس كرجل عمت شهرته في التمسك بأهداب الدين . العالم الاسلامي فيقول في معرض روايته لاحداث استنجاد المعتمد بيوسف انه لم يقدر المواقب تماما . ولا يدرك أنه قد سئل شيئا عليه يحسبه له . وهو موقف تشكيكي ظالم بلا شك . وكان قد أشار في مكان آخر الى ان يوسف كان حريصا على ان يظهر للاندرلسيين وللمعتمد انه لم يأت إلا للجهاد فقط ، وأنه دائم الحرس على أن يظهر التعفف والتأفف من الأقسام في الاندلس بل انه يروى ان يوسف كان يقول في أكثر أوقاته (كان أمر هذه الجزيرة عدنا عظيما قبل أن نراها ، فلما رأيناها وقعت دون الوصف وهو في ذلك كله يسرحسوا في ارتقاء^(٣)) .

أما أثناء معركة الزلاقة فيروى ابن الكردبوس رواية غريبة وهي انه عند احتدام المعركة وعند هزيمة الاندرلسيين في الصدمة الاولى أعلم يوسف بذلك (فقال اتركوهم قليلا للفناء فكلا الفريقين من الاعداء ، فلما تحقق ان اكثرهم قد أسر وقتل رأى انه قد آن أن يفترس العدو ، ان قد تباعد عن محنته . . .) .

أما دورى فيقول في معرض وصفه لاحداث معركة الزلاقة ان المعتمد بحث الى يوسف يستحثه أن يتقدم بجيشه على عجل ، أو أن يوافيه على الأقل بالمدد الكبير الكافى ، وقد كان (يوسف قد وضع خطة لا يستطيع التحول عنها ، فلم يبادر الى تلبية طلبه ، وكان قليل الاهتمام بما يصيب الاندرلسيين ، وقد صاح لهذه المناسبة قائلا : وماذا يهمنى اذا كان نصيب هؤلاء جميعا الهلاك ، انهم جميعا أعداء) .

-
- (١) : انظر الكامل ، ج ١ ، ص ١٥٣ .
 (٢) : انظر : المعجب ، ص ١٩٠ - ١٩٢ .
 (٣) : يسرحسوا في ارتقاء : مثل عربى مشهور يضرب لمن يريك أنه يعينك ، وإنما يجبر النفع الى نفسه .
 انظر : الميداني : مجمع الامثال ، ج ١ ، ص ٤١٧ .
 (٤) : انظر : الاكتفاء ، ص ٩٤ .
 (٥) : انظر : المرجع السابق ، ص ٣٠٢ .

وهذا ولا شك موقف مفروض لا يمكن ان يقدم عليه يوسف اطلاقا .

اما بعد معركة الزلاقة فقد رأينا عدة مواقف تشكيكية في موقف يوسف والمعتد على السواء ، فمن هذه المواقف ما رواه عبد الواحد المراكشى ايضا ^(١) ان يوسف بعد انتصار الزلاقة رغب في التجول في بلاد الاندلس للتفرغ وهو يقصد غير ذلك ، اى للاطلاع على ~~البلاد~~ الاندلس والناس . فشحقق له ذلك اى الاطلاع على احوال البلاد . وكان في كل ذلك يظهر اجلال المعتد وثأبيده واعتراعه بافضله ، وانه اى يوسف رهن اشارته . ويبدو لنا هذا مستحيلا ، اذا علمنا بأن يوسف قد اضطر الى الانسحاب الى المغرب مباشرة بعد معركة الزلاقة فأتجه الى اصبيلية فبقى فيها ثلاثة أيام ثم توجه نحو الجزيرة الخضراء ومنها الى المغرب ^(٢) .

وعلى نفس نغمة عبد الواحد المراكشى اى نغمة اعجاب يوسف بالاندلس ومناظرها وخيراتها ، ورغبته في امتلاكها على نفس هذه النغمة يضرب المستشرق الفرنسى ل . أ . سيديو ^(٣) . عندما يقول : بأن يوسف طمع في تملك الاندلس التى اعجبته خيراتها ومناظرها . وان اهل الاندلس عندما شعروا بنياته الخفية ، فكروا فى احباط مآرمي اليه .

وفى الحقيقة ان هذه المواقف التشكيكية لا يمكن الاعتداد بها ، ويكفى ان نشير للاستدلال على وجهة نظرنا الى تلك الرسالة التى بعثها يوسف بن تاشفين الى المعز بن باديس امير افريقية يشرح له ما حدث قبل واثناء وبعد معركة الزلاقة من احداث بالتفصيل فهى تدل دالة واضحة على سلامة موقف الاندلسيين ، وموقف المعتد بالذات - على الاقل فى تلك الفترة فقط - .

كما ان من النقاط التى صرفنا النظر عن الاهتمام بها هى البالغة المفقوتة من جانب المؤرخين المسلمين فى تقديراتهم الخاطئة لعدد المشتركين فى القتال من النصارى ، وفى عدد القتلى وعدد الناجين ايضا . وهى تقديرات لاتمثل الحقيقة .

(١) : انظر : المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

(٢) : انظر : الحميرى : المصدر السابق ، ص ٨٩ .

(٣) : انظر : تاريخ العرب العام امبراطورية العرب ، وحضارتهم ، ومدارسهم الفلسفية والعلمية والادبية ، ص ٢٨٥ .

(٤) : انظر نص رسالة يوسف لامير افريقية المنقولة من مخطوط رقم ٤٤٨ الفزيرى بمكتبة الاسكوريال التى اوردها محمد عبد الله عنان فى كتابه : دول الطوائف ، ص ٤٤٧ - ٤٤٩ .

كثيرا ، فكل ما يمكن أن نستخلصه من تلك الروايات المختلفة أن عدد الجيش النصراني كان يفوق بلا شك عدد الجيش الاسلامي أندلسيين ومرابطين . وعلى هذا فنحن نستبعد ما أوردته الروايات الاسلامية من أرقام مبالغ فيها ^(١) . حتى ما جاء في رسالة يوسف لأمير افريقية السابقة لانستطيع أن نتقبلها بسهولة . ان تقول الرسالة ان عدد الذين نجوا من النصاري بعد المعركة واستطاعوا الفرار بما فيهم الفونسو وحاشيته لا يزيد ألفي فارس ، لانستطيع قبول هذه الرواية ، اذا علمنا بأن أقل تقديرات المؤرخين عن عدد جيش النصاري تصل الى ثمانية وأربعين ألف فارس ، بل ان بعض الروايات تجعل عدد الناجين من المعركة من النصاري لا يزيد عن عشرة فرسان فقط .

وأخيرا فائنا نقرر كما قلنا سابقا بان معركة الزلاقة قد وقعت على الأرجح في يوم ١٢ رجب عام ٤٧٩ هـ / ٢٣ أكتوبر عام ١٠٨٦ م غاضين النظر عن الاقوال المتناقضة في هذه النقطة بالذات ^(٢) .

نتائج معركة الزلاقة :-

نكاد نجزم بأن معركة الزلاقة - على عظم أهميتها - لا يمكن ومنظرة موضوعية فاحصة لسير الحوادث في الاندلس في تلك الفترة أن نستخلص منها وهذا أي المعركة النتائج والآثار البعيدة المدى

(١) : تصل اقصى تلك التقديرات المبالغ فيها حدا وصلت به رواية صاحب الحلل الموشية أن عدد القتلى ٣٠٠ ألف فارس ، اما بقية التقديرات الاخرى فتعددت ، فمنها ما يقدر عدد جيش النصاري ٢٨٠ ألف فارس ، ورواية اخرى تقول ان عدد الجيش النصراني ٦٠ ألف فارس ، في حين قالت رواية اخرى ١٥٠ ألف فارس . اما عدد الفارين فتصل رواية الحميري بهم الى تسعة اشخاص فقط ، وبعض الروايات الاخرى تصل بهم الى مائة فارس والبعض الاخر الى ٥٠٠ فارس . وهكذا فهي تقديرات مبالغ فيها لا يمكن قبولها .

أنظر : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٤٩ ، وص ٥٠ . الحميري : المصدر السابق ، ص ٨٨ . ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ١٥٣ - ١٥٤ . محمد عبد الله هان : مواقف حاسمة ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ . ودول الطوائف ، ص ٣٢٥ - ٣٢٨ ، وص ٤٤٩ .

(٢) : اختلف المؤرخون ايضا في تحديد السنة والشهر الذين وقعت فيهما معركة الزلاقة ، فبصرف النظر عن رواية النويري كما جاء في كتاب حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، التي تؤرخ لمعركة الزلاقة بأنها وقعت في عام ٤٧٧ هـ ،

التي تركت بصماتها لردح من الزمن على الصعدين الاسلامي والنصراني معا . فالنظرة التاريخية الموضوعية للأحداث تجعلنا نقرر في أن قوة المرابطين الفتية وحماهم للجهاد منذ أن قامت دعوتهم في غربي افريقية كان هو العامل الرئيسي في تحقيق هذا الانتصار الحاسم على النصرانية في موقعة الزلاقة ، وهو الانتصار الذي مد في عمر الوجود الاسلامي في الاندلس بمعنى أنه وكما أشرنا سابقا أن التدخل المرابطي ترتبت عليه نتيجة مهمة توازي في أهميتها جميع ما ترتب على موقعة الزلاقة من آثار . هذه النتيجة هي الفسحة الطويلة من الزمن التي بلغت أربعة قرون في عمر الوجود الاسلامي في الاندلس ، فبقاء الوجود الاسلامي لأربعة قرون أخرى كان نتيجة مباشرة كما يتراءى لنا للتدخل المرابطي . ونردد بهذه المناسبة مع القائلين بأننا لانستطيع أن نقرر على وجه التحقيق ما الذي كانت ستؤول اليه الأمور لو لم تتح للأندلسيين ساحة قدوم المرابطين ؟؟ . ولكن ما نستطيع اقراره هو أن التدخل المرابطي قد أنقذ الاندلس وقتها من خطر السقوط ، فكان تدخلهم في الوقت المطلوب سببا أساسيا في شل تقدم حركة الاسترداد المسيحي وتعطيل مسيرتها .^(١)

====
وبغض النظر عن رواية ابن خلدون وابن الكردبوس اللذين يجعلان تاريخ وقوعها عام ٤٨١ هـ ، بغض النظر عن هذه الروايات فإن الثابت أنها وقعت في عام ٤٧٩ هـ ، وفي ١٢ من شهر رجب منها . أما بعض الروايات الأخرى كرواية ابن الاثير وعبدالواحد المراكشي فتجعل وقوعها في شهر رمضان من نفس السنة ، في حين كانت رواية صالح ابن عبدالحليم صاحب روض القرطاس هي الرواية العربية الصحيحة والدقيقة التي حددت تاريخ المعركة حتى بالوقوعت المعجمي (الميلادي) .

أنظر : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ٩٨ ، وح ١ ، ص ٩٢ .
عبدالواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٩٣ - ١٩٤ .
ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٦ ، ص ٣٨١ . ابن خلكان :
المصدر السابق ، (فيما ينقله عنه المقرئ في ج ٦ ، ص ٩٤ - ٩٥ ،
و ص ١٠٠ - ١٠١) . الحميري : المصدر السابق ، ص ٩٣ - ٩٤ .
ابن الأبار : المصدر السابق ، ص ٩٨ - ١٠٠ . ابن الاثير : المصدر
السابق ، ج ١٠ ، ص ١٥٣ . صالح بن عبدالحليم : المصدر السابق ،
ص ٩٦ . حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٨١ . محمد عبدالله
عنان : دول الطوائف ، ص ٣٢٣ .

(١) : عبدالحق حموش : المرجع السابق ، ص ٦٨ .

ومعد هذا اذا ذهبنا نتقصى ما ترتب على معركة الزلاقة من نتائج وآثار بعيدة ، فاننا سنشعر بالقبضة لتلك النتائج . فلقد صححت المعركة في الواقع خلافا حدث في توازن القوى في شبه الجزيرة الاسبانية . فبانتصار الزلاقة عاد لشبه الجزيرة توازن القوى - وان لم يعمر طويلا - (١) وزالت على الاقل وقتها - فكرة قشتالة التي لا تقهر . وتبين للمسلمين في الاندلس آنذاك أنه بحد أدنى من الترابط والتآلف والوحدة يمكن لهم الوقوف في وجه المؤامرات والمواجهات النصرانية الخطرة . ومنفس أهمية هذه النتيجة وفي موازاتها كان انتصار الزلاقة انتصارا للكرامة والمزة الاندلسية ، وعادت للأندلسيين الثقة بأنفسهم . وارتفعت روحهم المعنوية . (٢) وتخلصوا في ذروة الانتشاء بالانتصار من الآثار النفسية المتردية التي كانوا عليها قبل المعركة . وعاد لأسبانيا المسلمة وقتها شعاع هائل من روح الثقة والأمل ، وهبت فيها روح المعزية والاصرار والثقة - وان كان هذا لم يعمر طويلا أيضا للأسف .

أما بالنسبة لأسبانيا النصرانية فقد تركت تلك المعركة بما ترتب عليها من نتائج بصماتها على الفكر والنفسية النصرانية . فالواقع أنه لم يكتب لحالة الشعور باليأس والأسى اللتين ترتبتا على هزيمة النصاري أن يستمر طويلا . صحيح ان المعركة قلبت الموازين وهزلت حركة الاسترداد التي سار بها القونسيو الى الأوج . وأصيب النصاري بحالة من الذهول والتفجع ، الا أن ذلك لم يستمر طويلا - والتبعة في هذا تقع على الاندلسيين بالذات - فهب النصاري من عثارهم يجمعون القوى من جديد . وأدت فورة المرابطين المتأججة بالحماسة الدينية الى رد فعل نصراني مواز لها في القوة ، فحل الاصرار والمعزية على تدارك الأمور بسرعة مكان الذهول والأسى . وأذكت الكتيبة المسيحية في غربي أوروبا شعور النصاري بأن ما حدث لا يعدو أن يكون نكسة مؤقتة ، واندفعت تحثهم على تجاوز هذه النكسة والعمل بسرعة على صد شعور اليأس والذهول واحلال الحماس الديني والقومي مكانه استعدادا للقاء آخر .

(١) : صلاح خالص : المعتمد بن عباد الاشبيلي ، ص ٢٦٠ .

(٢) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٨٥ .

فالكيسة اعتبرت الموقعة صفحة من صفحات الحروب الصليبية . ظللها العثار والتخبط .
ولذا فلا بد من طي هذه الصفحة سريعا . والاستعداد لصفحة أخرى مشرقة (١) .

أما على الصعيد المرباطى فقد تركت هذه الموقعة أكثر من أثر ونتيجة
فبادء ذى بدء قررت هذه المعركة ابتداء من ذلك الوقت ارتبطا . الاندلس بالقلك
المغربى . فأصبحت لاكثر من قرن ونصف تدور حوله ، وثقتى بهداه . وأصبحت العدوتان
تكونان دولة واحدة قوية عاصمتها مراكش فى عهدى المرباطين وبعدهم الموحدين . ويأتى
بعد ذلك النتيجة المهمة الثانية التى جعلت من المرباطين الامل والمنقذ والمسيحل بعد
الله . فقد زاد انتصار الزلافة من تعلق قلوب الاندلسيين بالمرباطين وسط هذا الحب
لهم ، والاعجاب بهم الى الذروة . والتفت حولهم قلوب المسلمين من الطبقات العامة
والوسطى . وكان يذكى هذا الشعور ويؤججه الفقهاء الذين اوحوا للناس - حتى ولو
لم يكونوا فى حاجة الى ذلك - ان المرباطين هم ملهم الوحيد بعد الله ، وهم
المنقذين لهم من عسف وجور وظلم وتقاوس ملوكهم وامرائهم . وتحقق لديهم هذا الشعور
ورسخ عند ما طالب يوسف بن تاشفين الملوك بعد الموقعة برفع المكوس والضرائب عن
كاهل السكان والتخفيف عنهم . فأشربت النفوس جبه هو وصحه . ولم يعارض هذا
الشعور الفياض بالمحبة والاعجاب والتقدير الا بعض المتزلفين والنفعيين من الادباء
والشعراء والوزراء الذين خشوا على مكاسبهم من ان تتعرض للخطر . وهم الشعور
بالاعجاب والثناء للمرباطين ويوسف ابن تاشفين بالذات بقية انحاء العالم الاسلامى ،
حيث بلغت اصدااء المعركة اسماع المسلمين فى المشرق . فاشنى عليه كثير من الفقهاء
والادباء والمفكرين واعتبروه القائد الاسلامى الحكيم المثالى الذى تتحل فيه معظم صفات
الحاكم الاسلامى الحقيقى (٢) .

واخيرا فقد اسهمت هذه المعركة فى رفع شأن يوسف ابن تاشفين فى المغرب ذاته ،
وساعدت على حل جميع مشكلاته الداخلية ، فاستكانت له القبائل الثائرة ، وخشى كثير
من الحاقدين عليه ان يمرضوا به بعد ان احاطت به هالات المجد والفخار بوصفه علمنا
من اعلام الجهاد (٣) .

(١) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٨٦ . - محمد عبد الله خان : مواقف

حاسمة ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

(٢) : احمد مختار العبادى : المرجع السابق ، ص ٣٣٤ .

(٣) : حسن محمود : نفس المرجع اعلاه . ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

(٤) : نفس المرجع اعلاه ، ص ٢٨٤ .

(٥) : نفس المرجع ، ص ٢٨٥ .

قضاء يوسف ابن تاشفين على مملكة بنى عباد وعلى غيرها من ممالك الطوائف

الموقف السياسى بعد معركة الزلاقة :-

لم تكن معركة الزلاقة رغم الانتصار الباهر الذى حققه المسلمون فيها معركة حاسمة قاطمة ، فهي قد وضعت العلاج للمشكلة أو الداء ولكنها لم تستمر فى تقديمه أو بمعنى آخر هي قد عرفت الداء ولكنها لم تعالج بكل الدواء ، ولذلك فقد جاء ذلك الانتصار ناقصا مهتورا ، حتى لقد بدا بعد بضعة شهور من انتصار الزلاقة وكأن الأمور قد عادت الى ما كانت عليه سابقا ، فلا أثر ماضى لذلك الانتصار لا على الصعيد الاسلامى ولا على الصعيد النصرانى . فعلى الصعيد الاسلامى عادت الأمور لما كانت عليه سابقا من التفكك والانحلال والانصراف الى ما تعطل من حياة العبث والمجون ، واتضح لكل ذى بصيرة أن الاندلسيين قد استمروا ذلك التفكك ونسوا فى غمار ذلك الاهتمام الاقليمى الضيق أو تناسوا بمعنى أوضح بأن وحدة الاندلس باتت شيئا من مخلفات الماضى غير ذات قيمة وتلاشت من أفكارهم أى فكرة أو طردوا منها بالأحرى أى فكرة تهدف الى الحفاظ على الوطن والحفاظ على وحدته ، بأى شكل من أشكال الوحدة أو الاتحاد - على الأقل فى تلك الظروف الحرجة التى اشتدت فيها الحملة النصرانية الشرسة - وبات الوطن فى نظر أولئك السلوك لا يحمى تلك الرقعة الصغيرة التى يضمون أيديهم عليها ، وتلك التى سعوا الى توسيعها مع الزمن بشتى الطرق المشروعة وغير المشروعة . أما أن يقبضوا الى أذنانهم أن المدو لا يفرق بينهم ولا يستثنى أحدا ، أما أن يفكروا بأنهم ليسوا قادرين على تحمل عبء القتال والدفاع عن وجودهم بتلك النظرة والسياسة الاقليمية الضيقة ، أما أن يقبضوا الى أذنانهم بأن الوحدة ولا شئ غيرها المنفذ الوحيد من الخطر المائل ، أما كل هذا فقد نسوه أو تناسوه مدفوعين فى ذلك برغبات ذاتية آتية ضيقة ليست من الدين والقومية والوطنية فى شئ إطلاقا ^(١) بل أننا افقدنا ذلك الموقف الرسمى الموحد الذى ظهر على المسرح السياسى فى ابان

(١) : للاطلاع على مزيد من هذه المواقف المؤسسية أنظر :

- على حبيبته مع المسلمين فى الاندلس ، ص ٢٣١ - ٢٤٠ و ص ٢٥٢ - ٢٥٦ .

اشتداد حركة الاسترداد المسيحي في عهد فرديناند الأول - حتى وان كان ذلك الموقف لم يخرج عن حدود الاستنكار والشجب والتنديد - ولم نجد مثلاً من يبادر الى عقد مؤتمر وطني تطرح فيه سلبيات وإيجابيات ما حدث قبل وأثناء وبعد موقعة الزلاقة ، ان كان حرياً بهم عقد هذا المؤتمر لتدارس الأمر لاسيما وأن المرابطين قد أفسحوا المجال أمامهم لاتخاذ ما يرونه من تدابير وبدائل عسكرية وسياسية أخرى . بل ان المرابطين أرهاقوا أنفسهم بالاستعجال بالعودة الى المغرب تاركين بعض الحاميات لمساعدتهم وشد أزهم . فعلوا ذلك لتطمين أولئك الملوك من أن تتبادر الى أذهانهم وساوس أو أي فييات سيئة تجيش بها صدور المفرضين . وعندما انتهت المعركة أصر يوسف بن تاشفين على مفارقة الأندلس سراعاً^(١) خوفاً من أن يفسر تباطؤه في العودة بتفسيرات سيئة - وقد كان -^(٢) والشئ الوحيد الذي أصر عليه يوسف بن تاشفين ومن منظار إسلامي بحث وليس من منظار فوقى استعلائى هو الرغبة في نبذ الخلافات والفرقة ونسيان الأحقاد والأضغان لاتناسيها فقطه وتوحيد الكلمة وجمع الصفوف^(٣) . ولكن من يسمع ومن يعقل ؟؟ حتى لو وجد المدرك لخطورة ذلك الموقف ولصدق وجهة نظر يوسف بن تاشفين وغيره من الداعين الى الوحدة والتجمع . حتى هذا خشى من ذلك المد أن يؤثر في مكاسبه وامتيازاته^(٤) . نقول انه كان حرياً بهم أن يتداعوا الى عقد مؤتمر وطني تطرح فيه سلبيات وإيجابيات تلك الفترة ، ولكنهم لم يعملوا الدرس أبداً . لأن ذلك كان في نظرهم يعد تفريطاً في المكاسب والامتيازات رغم أن الكل خاسر . صحيح أن هذا التباين والتناقض

(١) : عبدالواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٩٨ .

(٢) : انظر الحميرى : المصدر السابق ، ص ٩٤ .

(٣) : انظر عبدالواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٩٤ وما بعدها .

وانظر أيضاً ، عبدالكريم التواتى : مسألة انهيار الوجود العرسى بالاندلس بالاندلس ، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

(٤) : عبدالله بن زيرى : المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

(٥) : على حبيبته : المرجع السابق ، ص ٣٣٨ .

فى المواقف والسياسه جاء وليد واقع اجتماعى مفكك الى طوائف واجناس واعراق وأديان مختلفة ^(١) • لكن المحنة الواحدة تسمو بالخلافات وتترفع عن الصفائر والاحسن العرقية والطبقية والمذهبية • والمحن توحد القلوب والمواقف • وهذه خاصية من أبرز خصائص التاريخ البشرى عموما وهى عند العرب والمسلمين اظهر وأبرز •

نعم نحن لانظلم ملوك الطوائف، فقد اجتمعت كلمتهم لأول مرة فى معركة الزلاقة ، ولكن ما نؤاخذهم عليه هو عدم استغلال تلك الفرصه التى توحد وافيها لأول مرة • فما ان انتهت الزلاقة حتى غدوا سيرتهم الاولى •

ولذا فإننا نعتبر نتائج انتصار الزلاقة المادية نتائج آفية فقط فيما يخص الاندلسيين بغض النظر عن الآراء التى تجعل فضل بقاء الوجود الاسلامى فى الاندلس أربعة قرون أخرى نتيجة رئيسية لمعركة الزلاقة • نقول بغض النظر عن هذا فالحقيقة ان رغبة المرابطين فى التدخل فى الاندلس رغبة واحتسابا ، واستدعاء الاندلسيين للمرابطين الذى جـاء متوافقا مع تلك الرغبة يعتبر فى حد ذاته نتيجة لاشتداد حركة الاسترداد المسيحى والتى وافقت فى نفس الوقت تأجج روح الجهاد لدى المرابطين منذ قيام دولتهم • وليس نتيجة فورية لمعركة الزلاقة • ولا نتصور بأنه لو لم ينتصر المسلمون فى معركة الزلاقة لكان المرابطون قد انسحبوا مؤثرين السلامة وتركوا الاندلس لمصيرها المظلم • لا نتصور أن هذا كان سيحدث • فالمرابطون كان يحركهم فى تدخلهم فى الاندلس هدف وروح جهادية طارئة لا يعطل سيرها ولا يوقف امتدادها الهزيمة فى معركة أو فى معركتين • اننا نعتقد أن الهزيمة لو وقعت سوف لن تثنيهم عن هدفهم الاستراتيجى القاضى الى ابقاء الوجود الاسلامى فى الاندلس • وبالتالى حماية الجناح الشمالى للدولة المرابطية من خطر النصارى • ولا سيما وقد رأينا الفونسو السادس يصل بقواته حتى جزيرة طريف على الساحل الاندلسى المواجهة للساحل المغربى ومحت من هناك برسالة ليويسف ابن تاشفين يهدده فيها ويتوعده • اننا نعتقد ان المرابطين كانوا مستعدين من أجل ذلك الى خوض معركة او عدة معارك لاتهمهم نتيجتها بقدر ما يهمهم الوصول اخيرا الى تحقيق الهدف الاستراتيجى الذى اتضح لهم وقتها •

(١) : انظر قبل التمهيد ، ص ٤٣ - ٥٠

(٢) : من الذين تبناوا هذا الرأى كثير نذكر منهم على سبيل المثال :

— محمد عبد الله غان : مواقف حاسمه ، ص ٢٩٠ - ٢٩٢ • — عبد

الكريم التواتى : مأساة انهيار الوجود العربى بالاندلس ، ص ٢٩٨ •

(٣) : محمد عبد الله غان : عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس

ص ٢٥ - ٣٠ •

أما لماذا لم يجعل المرابطون من موقعة الزلاقة موقعة حاسمة ؟؟ وهم القادرون لو شاءوا - فان الامر يقتضى ان نشير الى انهم ربما قد فكروا بآدى ذى بدء ان يتركوا قضية الوطن الجريح لملوك الطوائف ، لعلمهم يكونوا قد تعلموا من الدرس القاسى الذى مرّ بهم . لا ندعى ان هذه هى سياسة المرابطين فى تلك الفترة . ولكننا نضمن ان يوسف بن تاشفين فضل ان يكون منقذا وقت الشدة فقط أو بمعنى آخر ، يجوز ان المرابطين آثروا ان تكون المواجهة بين ملوك الطوائف الذين سيتحملون بالضرورة مسؤولياتهم وبين النصارى باعتبارهم أى ملوك الطوائف هم أصحاب الارض والحق . ويكونون هم ورائهم يمدّونهم بالتأييد السياسى والعسكرى والبشرى أيضا . ذلك لانه حتى تلك اللحظة لم يدرك فى خلد المرابطين ان ملوك الطوائف سيتقاعسون عن انقاذ الوطن ، كما لم يدرك بخلد هم ان يبادر أولئك الملوك الى خيانة قضيتهم الاولى وطعن حلفائهم المرابطين فى الظهر بطلب المعونة من النصارى . (١) لذا فاننا قد نضمن بان المرابطين شاءوا ان يكونوا ردفاً للاندلسيين لا نواباً عنهم فى مقاتلة النصارى . ويبدو لنا ان هذا الهدف كان استراتيجياً فى تفكير المرابطين ثم جاءت بعد ذلك عوامل أخرى ، وجدت ظروف أخرى جعلت المرابطين يتوقفون عند ذلك الحد من الانتصار الذى حققوه فى موقعة الزلاقة . من تلك العوامل أن المرابطين كانوا حريصين على تنفيذ الاتفاق الذى بموجبه جازوا الى الاندلس وهى الشروط المحددة التى اشترطها ملوك الطوائف للسماح للمرابطين بالجواز الى الاندلس والى اشرنا اليها سابقاً . والشئ الآخر انه لا يمكن ان يثق يوسف بن تاشفين ثقة عمياء بملوك الطوائف وهو الذى يعلم علماً اكيداً بأنهم لولا الحاجة الاضطرارية الفائقة له لما طلبوا منه المساعدة . وصحيح أننا قلنا انه فى أبان معركة الزلاقة كانت نيات ملوك الطوائف صادقة مخلصه لله ، ثم لعباده . ولكن من يستطيع ان يضمن ليوسف بن تاشفين ان ذلك الموقف الموحد الذى اضطروا اليها اضطراراً سوف يستمر ويمتد اجله ؟؟ أما الشئ الثالث الذى يجب ان لا يغيب عن بالنا من تلك العوامل فهو ان المرابطين لهم التزاماتهم ذات الاولوية تجاه مملكتهم فى المغرب وهى التزامات مهمة جداً لا يمكن ان تتسيبهم اياها التزاماتهم الجديدة فى الاندلس . بل انه قد حدثت دواعى واعتبارات مغربية فى تلك الفترة بالذات اى بسميد موقعة الزلاقة . فرضت على يوسف ان يعود

(١) : انظر بعد ص ٣١٨ - ٣١٩

(٢) : عبد الله بن زيوى : المصدر السابق ، ص ١٠٣ . - ابن الأبار : المصدر

السابق والجزء ، ص ٩٨ - ٩٩ . - عبد الواحد المراكشى : المصدر

السابق ص ١٩٨ .

سريما الى بلاده . هذه الدواعى والاعتبارات هى وفاة ابن عمه ابوبكر بن عمر أمير
المرابطين السابق على الأرجح^(١) . فاضطر الى القفول مباشرة الى المغرب ليأخذ
البيعة لنفسه . تحسبا لأى حادث يبادر فيه بعض أمراء المرابطين لاغتصاب
الامارة مستغلا غيبة يوسف بن تاشفين وانشغاله بحركة الجهاد^(٢) . يعتقد جازمين
بأنه ليس فى هذا الموقف ما يسبب الخجل ليوسف بن تاشفين أو يقدح فى موقفه
اطلاقا سواء أكان ذلك لتركه ساحة المعركة ، أو لاسراعه الى المغرب .

ويؤسف المرء ان يجد لدى بعض المؤرخين القدامى مواقف تشكيكية
استخلصوها من تباين وجهات نظر كل من يوسف بن تاشفين والمعتد بعد معركة
الزلاقة ، فالحميرى يقول فى معرض وصفه لمعركة الزلاقة : (ولما انحاز الطاغية
بشرذمته جعل ابن عباد يحرض على اتباع الطاغية وقطع دابره ، فأتى ابن تاشفين
واعتذربأن قال : لو اتبعناه اليوم لقى فى طريقه اصحابنا المنهزمين راجعين اليها
منصرفين ، فيهلكهم بل نصبر بقية يومنا حتى يرجع اليها اصحابنا ويحتموا بنا
ثم نرجع اليه فنحسم داءه . وابن عباد يرغب فى استعجال اهلاكه ويقول ان فر
أماننا لقيه اصحابنا المنهزمون فلا يعجزون عنه . ويوسف مصر على الامتناع
من ذلك ، ولما جاء الليل تسلل ابن فرندلند وهو لا يلقى على شئ وأصحابه
يتساقطون فى الطريق واحدا بعد واحد من أثر جراحيهم فلم يدخل طليطلة الا فى
دون المائة . وتكلم الناس فى اختلاف ابن عباد وابن تاشفين ، فقال شيخ ابن عباد : لم يخف

(١) : تخطيط للاسف لبعض من المؤرخين القدامى فى تفسير استعجال يوسف بن تاشفين
للذهاب للمغرب بعد أن بلغته اخبار وفاة ابن عمه ابى بكر بن عمر . فأكثر
الروايات القديمة وتبعهم بعض المحدثين تقول انه رجع الى بلاده هناك ما بلغه
خبر وفاة ابنه ابوبكر ، فيما يقول البعض الاخر ان السبب فى رجوعه هو استيائه
من الاحوال التى رأى عليها ملوك وأمراء الطوائف . ولكن كل من هذين التفسيرين
لا يبدو مقنعا . ولكن التفسير الصحيح لذلك هو وفاة ابن عمه ابى بكر بن عمر
عام ٤٨٠ هـ ، كما اشار الى ذلك حسن محمود ، واحمد مختار القبادى فى
تحقيقه لكتاب الاكتفاء .

أنظر : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٨٦ - ٢٨٨ . ابن الكردبوس :
المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٩٥ .

(٢) : حسن محمود : نفس المرجع ، ص ٢٨٧ .

على يوسف ابن عباد اصاب وجه الصواب والرأى فى معاجلته ، ولكن خاف أن يهلك العدو الذى من اجله استدعاه ، فيقع الاستغناء عنه ، وقالت شيع يوسف : انما أراد ابن عباد قطع حبال يوسف من المودة الى جزيرة الاندلس (١) . ويبدو ان هذا القول غير مقنع ولا موضوعى ايضا ، فحتى تلك اللحظة لم تجد بوادى سوء تفاهم أو خلاف بين المعتمد ويوسف . بل ان يوسف أشاد فى رسالته التى بعثها للمعز بن باديس المشار اليها سابقا ، يشيد بالمعتمد ويشنى عليه ويشكره على كرمه الفائق وموقفه الوطنى هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى هل كان المعتمد بتلك السذاجة التى يعتقدها البعض من أن تتبع الفونسو وقتله - ان حدث - هل كان سيقضى على حركة الاسترداد التى دشنها النصارى من عهد فرديناند الاول منهاجا ودستور حياة ؟؟ . قد يقتل الفونسو ، وقد يؤثر ذلك على حركة الاسترداد نفسها . ولكن لن تقف حركة الاسترداد أبداً فبهاك عدة ممالك نصرانية هذا قشتالة وليون وجليقية تتحرق شوقا الى شن حملات الاسترداد كملكة نبرة وأرغونة وورشلونه . كما ان الطابع الصليبي الذى اتخذته موقعة الزلاقة سوف يذكى تلك الحركة ويؤجلها (٢) ، وسوف تدفع هذه العوامل خلفاء الفونسو نحو مواصلة سياسته تلك . لانجد تفسيراً واقعياً لرغبة المعتمد فى المتابعة سوى الرغبة للجائحة فى استغلال تلك الوحدة التى تحققت فى الاجهاز على العدو لانهاكه على الاقل أو لتعطيل حركة الاسترداد الى امد يستطيع فيه المسلمون أن يحققوا شأواً بعيداً . أما اذا نظرنا الى المسألة من ناحية اصرار يوسف على عدم المتابعة ، فاننا نرى ان ذلك التفسير الذى استخلصه المؤرخون تبسيطاً ساذجاً للأمور ، وتحليلاً سطحياً خالياً من الموضوعية والمنطق . فيوسف لديه أكثر من سبب وسبب لعدم المتابعة . هى التى ذكرناها سابقاً ، فضلاً عما عرف عن يوسف دائماً من التحوط والحذر . فهل كان يسمح فى لحظة فرح عاطفى متفاجج بتحمل مغيبة التورط فى لقاء آخر مع النصارى وداخل اراضيهم هذه المرة ؟؟ .

وعلى أية حال فقد انصرف يوسف الى المغرب مبشياً من قبل المعتمد وغيره من ملوك الطوائف بالاحترام والثناء (٣) . وطلب من ملوك الطوائف أو طلبوا منه هم ذلك - لا فرق - ان تظل بعض القوات المرابطية فى الاندلس للمساعدة على رد غديات

(١) : انظر ، الروض المعطار ، ص ٩٣ - ٩٤ .

(٢) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٨٦ .

(٣) : الحميرى : المصدر السابق ، ص ٩٤ .

النصارى • وارهباهم فى نفس الوقت • لا لشيء آخر رغم ما تذهب اليه استنتاجات
(١)
• بعد الواحد المراكشى

ترى لو لم يضع يوسف تلك الاعتبارات فى مخيلته ، ولو لم تأت الاخبار
من المغرب التى أزعجته الى هناك بسرعة ، هل كان يكتب بعد المشيئة الالهية
لموقعة الزلافة ان تكون حاسمة ؟؟ • نعم قد نخمن هذا ، ولكن جاءت تلك الظروف
وأملت عليه تلك الاعتبارات ان يكتفى بذلك القدر من الانتصار ، فجاء نصر الزلافة
ناقصا وهتورا •

الموقف العسكرى بعد معركة الزلافة : —

قلنا ان الامور طادت الى ما كانت عليه قبل موقعة الزلافة ، وانصرف كل أمير
الى الاهتمام بقضايه الاقليمية فقط ، وانعكس انسحاب المرابطين على الموقف العسكرى
المسيحى ، فالفونسو الذى كان قد خاطب امراء النصارى والقوى النصرانية فى أوربا
بناشدهم المساعدة الفورية عقب هزيمته فى معركة الزلافة ، فقدّم عليه من فرنسا كل
من دوق برجنديا ولانجدوك وبعض فرسان مقاطعة نورماندى • رأى بـ—————
انسحاب المرابطين ان يصرفهم الى بلادهم اذ ليس ثمة ما يدعو الى وجودهم بعد هذا •
ولكن هؤلاء فضلوا القيام باستعراض للقوى النصرانية الصليبية • فارتدوا الى انحاء
نهر الابرو شمالا وتوقفوا عنده (٢) وساعدوا من هناك سانشو راميرز ملك ارغونيه
فى حربه مع ابن هود ملك سرقسطه • وتعرضت مدن مملكة بنى هود كطليطة ووشقة
وطرطوشة الى عيث هؤلاء وتخريبهم (٣) • وانصرف الفونسو الى تركيز هجماته وطلعاته
العسكرية المتعددة ، فهاجم اراضى المسلمين حتى وصل الى اشبيلية فعكس فى اراضيها •
وظهر فى الافق خطر نصرانى ماحق جاء هذه المرة من حصن بـ—————
الذى كنا قد اشرنا اليه سابقا فقد بنى الفونسو هذا الحصن عقب استيلائه على طليطلة
فى منطقة تقع بين مرسية ولورقه على رأس جبل شاهق ، وشحن ووزود بالسلاح والعتاد

(١) : انظر المعجب ٦ ص ١٩٩ — ٢٠١ •

(٢) : انظر حسن محمود : المرجع السابق ٦ ص ٢٨٨ — ٢٩٠ • — محمد

عبد الله خان : مواقف حاسمة ٦ ص ٢٩٠ — ٢٩١ •

(٣) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ٦ ص ٩٩ • — حسن محمود

نفس المرجع ٦ ص ٢٩٠ •

وأُسند الفونسو قيادته الى احد فرسانه النبلاء وهو الكونت غرسيه خيمينيس^(١) ، واتخذ الفونسو من هذا الحصن قاعدة للهجوم على اراضي المسلمين في مرسية ولورقه وعصوم شرقى الاندلس^(٢) ، وكان في الواقع شوكة في حلق المسلمين تخرج منه الفلوات الخاطفة مرة ناحية الشرق ، ومرة أخرى ناحية الغرب تعيث وتفسد^(٣) ، وتعرض شرق الاندلس ومدنه مرسية وشاطبة ودانية وغيرها من مدن الشرق الى خطر صليبي حقيقي كان يشنه وينذيه القائد القشتالي المشهور القمبيطور أو القمبيطور^(٤) أو القمبيطور الذي كان قد انشق على سيده الفونسو السادس من قبل ، وبدأ يعرض خد ماته على ملوك المسلمين وخاصة ملوك سرقسطة يحارب أعداءهم من المسلمين والنصارى على السواء . وعندما سحب الفونسو جيشه وقائده البرهانس المذكور سابقا من بلنسية للاستعداد لمعركة الزلاقة ، عرض القمبيطور خد ماته على القائد ابن ذى النون صاحبها الذي ملكه اياها الفونسو كما ذكرنا سابقا .

والواقع انه لا يمكن أن يمر بنا ذكر القمبيطور أو السيد كما كان يطلق عليه دون أن نلم بنبذة قصيرة عن هذا الرجل الذي أفردت له كتب التاريخ والادب والملاحم الاسبانية مكانا قلما حظى به مواطن اسباني حتى الآن . فقد قيل الكثير الكثير حول هذا الرجل ، وحول سيرته وخاصة بعدما تحول الى بطل اسطوري قومي عند الاسبان ، رغم أن البحث العلمي الحديث قد أثبت انه لم يكن يوما من الايام بالفارس النبيل ، وبالوطني المجيد ، بل ثبت انه كان أفاقا متجولا فى الاندلس يقدم خد ماته لمن يدفع له أكثر .

الاسم الحقيقي للقمبيطور أو السيد هو رودريجو دياز ديبيبار^(٥) Rodrigo Diaz de Vivar . وكان أبوه فصلا تابعا للملك فردناند الأول

(١) : غرسيه خيمينيس : GARCIA GIMENEZ ، أحد قواد الملك الفونسو السادس ، وهو الذي احتل قلعة لبيط من قبله . ومن هناك اخذ يشن الفارات على المدينة ونواحيها .

انظر : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٠٠ .

(٢) : محمد عبدالله غان : دول الطوائف ، ص ٣٣٤ .

(٣) : محمد عبدالله غان : نفس المرجع والصفحات .

(٤) : ابن الكردبوس : نفس المصدر السابق ، ص ٩٢ . — مجهول : الحلل الموشية ، ص ٥٤ — ٥٥ .

(٥) : نشأ نظام الافصال كنتيجة مباشرة لنشوء نظام الاقطاع في أوروبا في القرن

وقد ولد فى عام ٤٣٦هـ / ١٠٤٥م ، ودخل هو ابنه فى خدمة البيت المالكة ، والتحق الابن خاصة بسانشو الابن الاكبر لفرد يناند وأصبح تابعا له ، ثم رسمه هذا فارسا عام ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م . وقد خاض رودريجو معاركه ضد شقيقه غارسيا وراميرو ملكى نبرة وأرغونة ، ثم حارب فى محبة الجيش القشتالى الذى استنجد به المقتدر بن هود ملك سرقسطة ضد اعداءات ، راميرو الاول ملك أرغونة الذى قتل فى تلك المعركة . وعندما توفى فرد يناند وقسمت مملكته بين ابنائه الثلاثة سانشو والفونسو وفارسيا ، وكذلك بين ابنتيه أوراكوا والبيره كما قلنا سابقا . قام نزاع بين الاخوة ، واستطاع سانشو ان يستولى على مملكتى أخويه الفونسو وفارسيا . ولعب رودريجو دورا رئيسيا فى المعركة التى انتصر فيها سانشو على أخيه الفونسو . وكان هذا اول نفور بين الرجلين . وقد كافأ سانشو رديقى بأن عينه القائد العام للجيش ، فعلا صيته وتنامى مجده . ومن ذلك الحين اخذ لقب القبيطور - الكبيطور (الكبيادور) يلصق به . وقد قيل الكثير حول معنى هذا اللقب ، وكان يعتقد انه يعنى الفارس البطل ، ولكن التفسير

===== فى القرن الثامن الميلادى . وقد جاء نظام الاقطاع كحتمية ضرورية عسكرية وسياسية نشأت فى دولة الفرنجة عندما تعرضت فى ذلك الوقت لغارات الفكيكج والمسلمين والمجريين . ولذلك وجد الفرد العادى فى ظل تلك الاوضاع الامنية المتدهورة نفسه امام خيارين لتأمين السلامة لذاته : اما ان يكون عبدا قن تكون حمايته من واجبات السيد ، او ان يصبح جنديا لدى الملوك والامراء الذين ازدادت حاجتهم الى اتباع المسلحين آنذاك لدرجة ملحّة شديدة . ونظام الافصال يعنى ببساطة التفسيرات ان يسلم مالك الارض ذات المساحة المحدودة ارضه لسيد او نبيل قوى ، ثم يعود فيسلمها منه كأقطاع ، وبذلك يصبح فصلا او تابعا اقطاعيا له . او هو بمعنى آخر تعاقد بين السيد او النبيل ومالك الارض ذات المساحة المحدودة يقوم على اساس من الحقوق والواجبات المتبادلة .

اما حقوق السادة على اتباعهم (افصالهم) فهى حقوق مالية واجتماعية وحربية . ملزمة تجب عليهم تأديتها والوفاء بها فى حدود ما يقضى به العرف الاقطاعى . اما اهم الحقوق والالتزامات التى القاها النظام الاقطاعى على السيد فهى حماية افصاله ورضيته وتحقيق العدالة لهم .

ويجب ان نلاحظ اخيرا ان نظام الافصال يتخذ شكلا هرميا يأتى الملك فى قمته . والفارس العادى فى اسفله .

انظر : سعيد طشور : اوربا فى العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ - ٢٦٨ .

الصحيح الذي استقرت عليه معظم الآراء للمستشرقين المهتمين بالدراسات الاسبانية تقول ان معناه القائد صاحب الفارات في السهول والفحوص^(١) . وعندما قتل سانشو تحت اسوار سمورة قلعة اخته اوراكا واستنحى اشراف قشتالة وليون شقيقه الفونسو من بلاط المأمون ليلي العرش مكانه كما ذكرنا آنفا . ويحكى هنا الكثير عن بداية النفور والكراهية بين الرجلين ، فردريق باعتباره القائد العام للجيش وابرز كونتات الدولة ورجالاتها هو الذي اسقده على حكم العرف الفونسو ليتولى عرش اخيه . وقد أرتأى ردريق هو والاشراف الاخرين ان يحلف الفونسو قسما يعلن فيه براءته من مقتل اخيه . وتولى ردريق نفسه مهمة تلاوة القسم ، وكان هذا مما اوغر صدر الفونسو عليه . ولذا فما كاد يستقر في عرشه عام ٤٦٢هـ / ١٠٧٢م حتى غل ردريق عن قيادة الجيش ، وتولى مكانه احد الفرسان الاخرين المناوئين له وهو غرسيه اوردينيز^(٢) . ولكنه مع هذا لم يصرفه عن خدمته ، بل ظل تابعا له ثم زوجه من احدى فتيات الاسرة الحاكمة وهي قريبة الفونسو وتدعى خمينا او شمينا Jimena . وعندما بدأ الفونسو يطالب مملكة اشبيلية بالجزية باعتباره وارث حق اخيه غارسيا (الذى قبض عليه) في اخذ الجزية من ملوك بنى عباد بحث برسل من جملتهم رودريجو (أورنريق) لآخذ الجزية فبقوا هناك . وعندما ساءت العلاقات بين مملكتي اشبيلية وغرناطة على النحو الذي رأيناه سابقا تطلع عبد الله بن زيرو ملك غرناطة الى طلب مساعدة الفونسو وبحث له بجملة رسل من بينهم قائد الجيش العام غرسيه اوردينيز والسيد ومنافسه . وحدث ان تلاقت كتاب اشبيلية وغرناطية في تلك الفترة فخرج كلا من ردريق وغرسيه لمساندة حليفى الفونسو : المعتمد وعبد الله بن زيرو . وتلاقى الخصمان وجها لوجه لحساب المسلمين ، وانتصر في هذا اللقاء ردريق على خصمه غرسيه فقبض عليه ، ولكنه اطلق سراحه فيما بعد . وقد ذهب القائد العام للجيش القشتالى الليونى غرسيه اوردينيز الى ملكه الفونسو وشكيا له ما حدث فاغضبه ذلك . ويبدوان مهمة ردريق (رودريجو) لم تكن محدودة بزمان معين ، فقد مكث في اشبيلية لدى المعتمد فترة ، ثم عاد عام ٤٧٣هـ / ١٠٨٠م الى عاصمة ملكه ، فاغلظ عليه الفونسو وانبسه لما فعل . على انه لم يمض بعد ذلك وقت قصير حتى ضاق الفونسو من تابعه للاخطاء التى كان يرتكبها ، فطرده ونفاه عن مملكته وكان نظام الافصال يحفظ للتابع المنفى حقوقه التى كانت له كاملة

(١) : عن الفحص انظر قبل ص ٤٣٥ .

(٢) : غرسيه اوردينيز Garcia Ordonez او غارسيا ردونس قائد قشتالى من فرسان سانجه (الثانى) ملك ليون ، ثم اصبغ من اتباع الفونسو السادس ملك قشتالة ، وهو الذى يسمى فى المصادر العربية (غرسيه ذا القم النبوز او القم المعوج) .

انظر : ابن القطان : المصدر السابق ج ١ ، ص ٧

وخرج رديق من قشتالة ، واتجه نحو مملكة سرقسطة . وهناك تدخل في نزاع
الاخوة من ابناء سليمان المستعين ثم بين احفادهم . وبدأت من تلك الفترة اسطورة
السيد الكبيادور بطل الملاحم والاساطير .

وكانت احوال ممالك الطوائف وقتها تبحث على الاسى والحزن فقد خل
رديق ليعمل لحساب هذا مرة ولحساب ذاك مرة اخرى ، وحارب في احايين اخرى
بنى قومه النصرى امراء نبرة وارغوشة وشرشونة . وغدا في ذلك الوقت رجل شرقى
الاندلس القوي يعيش هنا وهناك ، ويعرض خدماته لمن يدفع له اكثر ، واصبح حرا طليقا
بعد انفصاله عن سيده الفونسو ليعمل ما يريد . واضطر حكام منطقة شرقى الاندلس
الى مداراته ومهادنته في احايين كثيرة .

وعندما اعلن ابو بكر بن عبد العزيز حاكم بلنسية الفعلى استقلاله
الكامل عن طليطلة في اعقاب وفاة المأمون بن ذى النون تطلع امراء سرقسطة الى
ضمها الى مملكتهم . وأوحوا الى قائدهم المرتزق رديق بذلك ، فبدأ يعد العدة
لهذا . غير ان الامور تطورت في وسط الاندلس عن احداث خطيرة اسفرت عن سقوط
طليطلة وخروج يحيى القادر حفيد المأمون بن ذى النون كما ذكرنا سابقا . ثم رأينا
الفونسو يرضى القادر بتسهيل احتلاله لبلنسية التى اسلمت له قيادها بالفعل ، ثم
رأينا رد فعل سقوط طليطلة وهو استدعاء المرابطين ، وما أدى الى حشد الحشود ،
فاضطر الفونسو ان يستدعى قائده البرهانس لمشاركته الحرب ضد المسلمين . وهنا يعلن
رودريجو عن خطته المفاجئة التى استغل^{فيها} ذلك الطرف اللقيق ، فاتفق مع المستعين
ابن هود ملك سرقسطة على ان يهاجم بلنسية في ذلك الوقت الذى كان فيه الفريقان :
المسلم والنصراني يستعدان لخوض معركتهما الفاصلة . وجرى الاتفاق ايضا انه
اذا استولى رودريجو (القمبيطور) على المدينة تكون الفنائم له ، والمدينة ذاتها
تكون من نصيب ابن هود . وعندما اسفرت معركة الزلاقة عن انتصار المسلمين
تيقظ الحس الوطنى عند رودريجو (السيد) وهو اللقب الذى اطلقه عليه المسلمون
عندما كان في سرقسطة . فبادر الى سيده القديم فصالحه عام ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م .
وقد عهد اليه الفونسو لخبرته الطويلة بمحاكمة منطقة شرقى الاندلس ، وهى الاحداث
التي عرضنا لها من قبل . ومن هنا فقد اخذت اعماله تستعيد الطابع الشرعى

فى نظر النصرارى بطبيعة الحال • ولكن روح المغامرة والانتهازية جعلته سرعان ما يتذكر لمليكه • فيعود ليعمل لحسابه الخاص • اذ مضى يعاود اعماله العدوانية فى اراضى المسلمين وشرقى الاندلس كلها • ولم يكف بهذا بل هاجم الممالك النصرانية ايضا كملكة برشلونة • وشدد ضغطه على امارة بنى رزىن • والبونت • ومريطر وغيرها من الحصون • كما شدد من تضيقه على اهل بلنسية وارهاقهم بطلب الاتاوة والهدايا والتحف • ووافقت هذه الاحداث الفترة التى افاق منها الفونسو بعد معركة الزلاقة • وبعد انسحاب المرابطين الى المغرب • فبدأ يستفيق من هول الفاجعة • وتنامى الى سمعه ما يحدث فى شرقى الاندلس فرغب ان يسبق رودريجو اليها • واستعان لهذا الغرض بقوات بحرية من جنوة • وبيزا • ولكن رودريجو هاجم اراضى ملكة سيده اى قشتالة نفسها • فأخطر الفونسو الى العودة لبلاده •

وهكذا فقد غدا السيد القمبيطور يعمل لحسابه الخاص بعيدا عن مضايقات سيده الفونسو • وبعد ان بنى هود الدين دهمتهم بعد موقعة الزلاقة القوات الفرنجية التى حشدتها الفونسو فى اعقاب المعركة كما ذكرنا سابقا • والتى كانت قد توقفت عند سرقسطة بعد ان صرفها الفونسو الى بلادها •

كل هذه الامور كانت تحدث والقادر الضعيف يتراعى على اعتبار السيد القمبيطور الذى غدا بعد انشغال الفونسو حاميه الوحيد • وكان السيد القمبيطور يشتط فى طلب الجزية • فقد طلب من القادر فى ذلك الوقت ان يعطيه مائة الف مثقال من الذهب كضريبة سنوية • مما جعل الاهالى يضيّقون بتلك الاوضاع الصعبة والحرجة حتى تدخل المرابطون تدخلهم الثانى فى شؤون الاندلس • وهو التدخل الذى آثرنا التحدث عنه بعد ان نلّم بحياة السيد القمبيطور • واعماله التى افضت هى واعمال الفونسو العدوانية الى التدخل المرابطى الذى سنتحدث عنه على التو • (٢)

(١) : انظر قبل ص ٣٠٢

(٢) : هذا العرض عن السيد ونشاطه الذى بدأ فى قشتالة ووصل الى اكثر اجزاء

الاندلس • استخلصناه من الكتب والدوريات العربية والمعرفة التى تحدثت عن السيد وحياته • ولعل اهم ما يمكن الاشارة اليه من مراجع مهمة فى حياة السيد :

— ليفى بروفينسال : الاسلام فى المغرب والاندلس • الفصل السادس ص ١٦٦ —

١٩٧ • • الفصل السابع ص ٢٠٠ — ٢٣٦ • — حسين مؤنس : السيد القمبيطور • المجلة التاريخية المصرية • المجلد الثالث • العدد الاول • مايو

١٩٥٠ م • ص ٣٧ — ٨٧ • — شكيب ارسلان : الحلل السندسية • ج ٢

٢٣٥ — ٢٣٦ مع الحواشى • ج ٣ • ص ٥٠ — ٧٢ مع الحواشى •

على ملكه المعتمد ، اذ رأينا وقتها ان ابن رشيق الذى ساعد الوزير بن عمار على احتلال مدينة مرسية قد استغل فرصة غياب محمد بن عمار عن حماية المدينة للأسباب التى ذكرناها سابقا . واستغل ايضا من قبل تقاعد ابن عمار عن حماية استقلاله بالمدينة واقتضاه الى مواصفات رجل الدولة أو مواصفات القيادة . استغل ابن رشيق هذا وأعلن استقلاله بالمدينة لحسابه الشخصى (١) . ولقد ساءت العلاقات بين المعتمد وابن رشيق ، فالمعتمد كان يشعر وهو على حق أن المدينة فتحت باسمه وبجيشه ، وهى لذلك تعتبر حقا من حقوقه أو جزءا من ملكه . وابن رشيق يرى غير ذلك ويرى نفسه أنه أحق من المعتمد بالمدينة . وما الذى يميز غيره من المنترين والمتسلطين عنه ؟؟ . لاشئ فى رأيه اللهم الا التفاوت الزمنى . ولذا فقد استقل بالمدينة وأعلن للملأ ان أهلها قد اختاروه حاكما لها ، بل انه أعلن ان المعتمد لم يقدمه على مرسية وانما الذى قدمه عليها هو ابن عمار (٢) . وبه هى أن تسود حالة من الفتور والنفور علاقة المعتمد بابن رشيق . وجاء ضغط الاحداث وما أفضى اليه من سقوط طليطلة ، فتدخل المرابطيين ، فموقعة الزلاقة لبصرف نظر المعتمد عن حسم خلافه مع ابن رشيق .

ولقد أضرت هجمات النصارى سواء أكانت تلك التى يشنها الفونسو أم السيد القمبيطور أم حامية لبيط بالاهالى فى شرقى الاندلس ، وتعرضت أراضيهم وممتلكاتهم للنهب والسلب والتخريب والفساد ، وجأروا بالشكوى دونما مجيب أو سميع . فقرر رأيهم أن يجتازوا البحر نحو يوسف بن تاشفين يشكون له ما حصل ببلادهم ممن عدوان النصارى ، ويستصرخون شهيقه ودينه ومروءته . فأصغى اليهم ووعدهم خيرا ، وصرفهم الى بلادهم وكان ذلك فى عام ٤٨١هـ / ١٠٨٩م . ولقد ألفت هذه الاحداث الخطيرة تبعات كثيرة على المعتمد باعتبار مملكته اقوى الممالك ، وباعتباره اقوى ملوك الاندلس قاطبة وباعتباره المعنى أكثر من غيره بهجوم النصارى واعتداءاتهم المتكررة ، خاصة وأن اعتداءاتهم قد وصلت الى امانة المرية المجاورة التى تعرضت لهجوم القائد القشتالى غارسيا خيمينس ، وفى نفس الوقت تعرضت مرسية لاعتداءات القائد النصرانى

-
- (١) : انظر قبل ، الباب الثالث ، ص ٢٢٨ .
 (٢) : عبد الله بن زبير : المصدر السابق ، ص ٨١ .
 (٣) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٥٤ .

الآخر البرهانس . وتعرضت مدينة لورقة التابعة اسميا للمعتمد لاعتداءات بقية قواد الفونسو^(١) فرأى المعتمد ان الصب قد ألقى عليه وحده أكثر من أى ملك آخر فعمل على اتخاذ اجراء سريع فجهز جيشا بقيادة ابنه المعتمد بعد ان تقاعس ابنه الآخر الراضى عن اداء المهمة مما أدى الى ان يحتب عليه والده ويتندربه كثيرا كما رأينا سابقا^(٢) ولكن هذا الجيش هزم عند لقاءه بالقوات القشتالية وعاد ادراجه نحو اشبيلية^(٣) وحاول المعتمد ان يوثق علاقاته مع المعتصم بن صمادح امير المريسة والوقوف فى وجه الاعداء صفا واحدا . غير ان هذا لم يجد شيئا^(٤) ورأى المعتمد وقتها ان لا مانع من الاستعانة بيوسف بن تاشفين مرة أخرى .

وفى الواقع لم يكن عبور المعتمد الى المغرب ومقابلته ليوسف بن تاشفين خالصا لوجه الله ، رغم ما حاول تأكيده ليوسف من أنه لم يأت الا رغبة واحتسابا وانتصارا للاسلام وللمسلمين^(٥) . قد يكون هذا أحد أسباب توجسه نحو المغرب والتمنى على يوسف بالجواز ، الا اننا لانرى مانعا من قبول كلام الملك عبد الله بن زيوى الذى يقول (وان المعتمد بن عباد ، لما رأى من خلاف ابن رشيق عليه وأنه أراه ان يضع ابنه الراضى بمرسية عوضا عن الجزيرة صار بنفسه الى أمير المسلمين ، وجاز اليه البحر يريسه الطمانينة ويحكم معه ما شاء من عمل مرسية وغيرها) . وفى نفس الوقت شرح له الحالة الحرجة التى يمانى منها المسلمون من جراء وجود الحامية النصرانية فى حصن لسيط . (وعظم له شأن لسيط) وأنه فى قلب البلد وان لراحة للمسلمين (لا يفقده)^(٦)

وعلى أى الاحوال وحتى وان كان المعتمد قد صدر فى جوازه الى يوسف عن رغبة شخصية ، فان الاوضاع قد باتت لا تطاق . والواجب الدينى يفرض على يوسف

- (١) : انظر ابن الكردبوس : المصدر السابق ص ١٠٠ - ١٠١
- (٢) : انظر قبل الحساب الثالث ص ٢٣٥
- (٣) : يقول ابن الكردبوس ان الذى قاد الجيش هو الراضى وأنه قد هزم وقتل اكثر جنوده ، ولكن هذا وهما من ابن الكردبوس ، فالمعتمد بعد ان شعر بعدم اهتمام ابنه الراضى وتقاعسه غضب عليه ، وسعت واحدا آخر من ابناؤه وهو المعتمد الى لورقة . وقد انهزم هذا الجيش فعلا وطد ادراجه نحو اشبيلية .
- انظر : الاكفـاء ص ١٠١ . - الفتح ابن خاقان : القلائد ص ٣٤ .
- (٤) : انظر عهد الواحد المراكشى : المصدر السابق ص ١٩٦ - ١٩٧ .
- (٥) : انظر مجهول : الحلل الموشية ص ٥٤ - ٥٥ .
- (٦) : المقصود بها طبعها الجزيرة الخضراء التى اخلاها المعتمد للمرابطين ، وطلب من ابنه الراضى ان يتوجه الى مدينة رنده .
- (٧) : المصدر السابق ص ١٠٨ .

ان يبادر مرة ثانية الى التدخل • ويتراعى لنا انه من تلك اللحظة قد انضج له عدم أهلية ملوك الطوائف وصلاحياتهم • وشعر في هذا الوقت أكثر من أى وقت آخر ان وصيته لملوك الطوائف بعد موقعة الزلاقة بنبذ الفرقة والتناحر قد ذهبت أدراج الرياح (١) كما تحقق لديه ما كان قد راوه وهو منصرف الى المغرب بعد أن أطلع على خلافات ملوك الطوائف من عدم أهليتهم وصلاحياتهم (٢)

ومع ذلك فقد لبى يوسف نداء المعتمد له وجاز الى الاندلس وسبع من هناك الى رؤساء الاندلس ليوافوه عند قدومه • وبالفعل وافاه معظم رؤساء الاندلس ورافقه من الجزيرة الخضراء حتى حصن لسيط • حيث ضرب عليه الحصار (٣) وقد تحصنت بداخله الحامية النصرانية واثقة من مناعة الحصن وقوة تحصيناته ، وواثقين أيضا من تحوطهم للأمر بشكك يس الطعام والمون ، وفوق هذا كانوا واثقين من مجيئ الفونسو لانقاذهم (٤)

وفى الحقيقة محمد هذه الفترة التى كان الحصار مضروبا فيها على لسيط هى التى قررت مصائر ملوك الطوائف • فلقد صمد الحصن أمام الحصار الرهيب الذى ضربه يوسف والاندلسيون عليه ، ولم تجد شيئا كل الوسائل العسكرية التى لجأ الى وضعها وتنفيذها الجيش الاسلامى (٥) واستطالت بهذا مدة الحصار • وظهرت ليوسف وقتذاك حقيقة الوضع المؤلم فى الاندلس وقد رسم ابن زيرى نفسه صورة واضحة دقيقة لذلك الوضع الذى شهده وعاصره وشارك فيه أيضا • فيقول (وكانت تلك سفرة أخرج الله فيها أصفان سلاطين الاندلس ، ورعيتهم فى ذلك يأتون أفواجا ، شاكين لما وجدوا لمن اسندوا اليه ، فالراضى منهم يلتمس الزيادة ، والساهط يرجو الانتقام ، ووصلوا فى شكاويهم فقها ، وسائط يقصدون نحوهم : منهم الفقيه ابن القليمى قد صار خباؤه

(١) : عبد الله بن زيرى : المصدر السابق ، ص ١٠٦

(٢) : عبد الله بن زيرى : نفس المصدر ، ص ١٠٧

(٣) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٥٤ - ٥٥

(٤) : انظر : عبد الله بن زيرى : نفس المصدر اعلاه ، ص ١٠٨ •

(٥) : انظر نفس المصدر ، ص ١٠٨ - ١٠٩ •

(٦) هو الفقيه يحيى بن محمد بن حسين الفسائى المعروف بابن القلاعى (ت ٤٤٢ هـ /

١٠٥٠ - ١٠٥١ م) • وقد نأى به حبه للسياسة والوظائف عن سميت العلماء ووقارهم •

وقد قام بدور رئيسى لدى المرابطين فى خلع عبد الله ابن زيرى ملك غرناطة •

انظر : عبد الله ابن زيرى : المصدر السابق ، ص ١٠٩ - ١١٢ ، ص ١١٦ - ١١٨ •

١٢٧ - ١٢٨ • - حسين مؤنس : شيوخ العصر ، ص ٨٥ - ٨٦ •

بتلك المحلة مشنطيسا لكل صادر ووارد ، يجد بهم السبيل الى الطلب للقدر الذى قدره الله . ورأى سلاطين الاندلس عند ذلك من تحاقق رعاياهم وامتناعهم عن مفارم الاقطاع التى كانت عليهم ، مع احتياجهم الى الانفاق ، ماقلق به وساء الظن من أجله ، جيش يكلفونه كل عام ، ومجاملات تلزم المرابطين كثيرة ، وتحف متوالية ، لو فرط منها فى شئ ، لانخرمت عليهم الاحوال ، ثم رعايا تمتنع من تأديته ما تقوم به الحال الموصوفة ، فلا حيلة الا بين صبر يؤدى الى ملامة توجب غوطة ، أو امتناع يؤدى الى استئصال كالذى جرى . ونسمع فى هذا كله من أهل جهاتنا تهديدا وعصيانا انكرناه ، لا تتم به مملكة ، ولا يتهيأ معه قضاء حاجة . ولقد كان القليمى المذكور فى تلك المحلة يخاطب اخوانه بحضرتنا الا يعطونا شيئا ، ويعدهم بما كان ، فلما كان يأتيتهم الحفز منا ، يقعدون بنا ، ونحن احوج ما كنا اليه للانفاق ، ولا سيما فى تلك المحلة التى عدتنا فيها الاقوات الا بالشراء كل يوم ، فدخل علينا من ذلك ضرر شنيع . وطالت تلك المحلة الملعونة ، فكانما مطلق آبان الطيب من الخبيث ، وكشف العورات ، فلم يزد الرؤساء الا توحشا ولا الرعية الا شمسلا ، ولا الداخلون على مثل هذه النصب الا طمعا ، وحق لهم ، مع اختلاف كلمة الرؤساء ، وهم فى اسباب الخرق : فمن اغتر منهم طالب صاحبه ، وهو المطلوب وشغله ذلك ما هو فى سبيله ، ومن ميز انفراد ، لم يجد معينا حتى توغل فى اللجة واخذته الحملة ، وكانت مقدمات سوء ، وزمانا على السلاطين عسيرا ، وسعدا للمرابطين مقبلا . (٢)

هذا التصوير الدقيق للاوضاع يوضح لنا عدة حقائق منها : ان الرعية فى معظم ممالك الطوائف وصلت الى حد لا يمكن معه ان تستمر تدفع ثمن خلاقات ونزوات الملوك والرؤساء فى تحقيق مجد ذاتى ، وتوسع تصب خيراته فى جيوشهم وخدمهم . ولذا فعندما لمحووا بريقا من عطف يوسف وشقيقته عليهم ، تطلعوا نحوه راغبين اليه ان ينقذهم من عسف ملوكهم وأمرائهم الذين يفرضون عليهم الضرائب والمكوس الباهظة . ورأوا فى قوة المرابطين الفتية ما يمكن معه التفاوض بانقشاع الخطر النصارى الذى اسهم الرؤساء بسوء سياستهم فى انكاسه . بل ولاح لهم بريق من الامل والتفاوض بسحق ذلك الخطر المائل .

والامر الثانى او الحقيقة الثانية ان الفقهاء تزعموا وقتها رفع راية الاستنكار والاحتجاج على الوضع المزرى الذى وصلت اليه الامور فى الاندلس . بل انه تزعموا

(١) : المقصود به بداهة المعسكر الذى ضرب الحصار على الحصن .

(٢) : المصدر السابق ص ١٠٩ - ١١٠ .

(٣) : انظر قبل ص ٢٦٧ وما بعدها .

التعبير عن رغبات الرعية ومطالباتها ، ومضوا في عداوتهم لملوك الطوائف حدا بعيدا جدا . قطعوا فيه كل خطوط الرجعة وجبائل الود مع هؤلاء الملوك . وتعلقوا بيوسف يرجونه ويستعطفونه ان يضع حدا لتلك الاوضاع . وأصبح الفقهاء في حقيقة الامر قوة خطيرة يحسب ملوك الطوائف حسابها . وسنرى بعد قليل صورا لهذه المكانة التي بلغوها . والتي يلوح لنا انهم ما كانوا ليلفوها لو لم يشجعهم يوسف بن تاشفين على ذلك . وقد وصل الامراخيرا الى ان ينتصر تيارهم الداعي الى خلع ملوك الطوائف وتسليم الاندلس جملة الى ابن تاشفين ^(١) .

اما الحقيقة الثالثة التي نستخلصها من كلام ابن زيري ، فهي ان هناك بعضا من المنتقمين من امراء المرابطين كانوا يوهقون ملوك الطوائف وامرائها بطلباتهم التي لا تنتهي . ولا نستبعد ان يحدث هذا فهو شيء مألوف يقع دائما . ولقد كلف اغصاب ابن زيري لاحدهم كثيرا ، فقد كلفه ضيقه من طلبات احد قواد المرابطين ملكه وعرشه كما سنرى بعد ان شاء الله .

والمهم ان هذه الصورة هي التي كانت تسير الامور وفقها في حصار ليبيط وأتضح ليوسف ان هناك هوة عميقة تفصل الرعية عن ملوكها ، كما ان هناك هوة عميقة ايضا تفصل بين الملوك والفقهاء والعلماء على النحو الذي رأيناه . بل ان هناك تباينا واضحا واختلافا مريعا بين الملوك انفسهم ، فقد طفت خلاقاتهم الى السطح ، وبدأوا ينشرون خلاقاتهم واحقادهم علانية وجهارا . واخذ كل واحد منهم يدس على الآخر ماشاء له من اشاعات ودعوى مضللة . وبدأت المزادات بين هؤلاء الملوك بعضهم البعض تقوى وتشتد . ان اعلن ابن رشيق حاكم مرسية انه قائم بدعوة يوسف بن تاشفين ، بل افضى به الامر الى ان جعل الخطبة في مملكته باسم يوسف بن تاشفين ، واستمال اليه الامير سينر بن ابي بكر ودفع له الاموال والتحف . اما المعتمد فقد سام ذلك وعمل من ثم على استمالة احد قواد يوسف وهو المدعو قرور الحشى ودفع ^(٢) ^(٣)

(١) : أنخيل جنتالت بالانشيا : تاريخ الفكر الاندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، ص ٩٨ .

(٢) : عبد الله بن زيري : المصدر السابق ، ص ١١٠ .

(٣) : هذا القائد هو : قرور او جرور الحشى كما كان يعرف في بعض المصادر

المرسية ايضا هو احد ابرز قواد المرابطين في الاندلس . وقد كان وصوليا

انتهازيا هدف في كثير من الاوقات الى خدمة مصالحه الخاصة . وقد اسهم

بدور ملحوظ في خلع عبد الله بن زيري ملك غرناطة .

أظهر : عبد الله بن زيري : المصدر السابق ، ص ١١٠ ، وص ١١٤ - ١١٦ ،

ص ١٥٥ - ١٦١ . ابن الأبار ، المصدر السابق والجزء ، ج ٢ ،

ص ٦٢ .

(١١)

لله الكثير كما يقول ابن زيري ، واشتكى ليوسف من ان ابن رشيق خارج عليه ، وان
المدنية من الناحية الرسمية لا تزال تحت سلطته بدليل انه كان يدفع جزيتها السنوية
للفونسو . واستشار يوسف الفقهاء في ذلك فاقترحوا بان تعود السلطة في مرسية
للمعتمد . فسمح يوسف للمعتمد بالقبض على ابن رشيق ، ولكنه طلب منه ان لا
يقتله . والظاهر ان يوسف رأى في ذلك الوقت الحرج ان مداراة المعتمد والتودد
اليه اجدى من مداراة ابن رشيق حتى وان كان قد دعى باسمه . فلقد خير في تلك
الفترة الاعيب ملوك الطوائف وأحاييلهم . ورأى ان ابن رشيق لم يفعل ذلك الا من
أجل الايقاع بينه وبين المعتمد ، وانه انما فعل ذلك ليتخلص من الملامة والمواخذة في
مده يد العون والمساعدة للتصاري في حصن لييط . وفي الوقت الذي كان فيه يوسف
يحاول تهدئة خواطر ملوك الطوائف ، كان البعض منهم يمارس هواية الصيد في الاحوال ،
فيحكي ان المعتمد بن صامح صاحب المرية أخذ يتودد لامير المسلمين يوسف بن
تاشفين ويظهر له الودعة والاخلاص والنصح حتى استطاع ان يتمكن من قلب يوسف .
ومن ثم عمل على ان يوغر صدره على المعتمد ، ويلقى اقوالا سيئة على لسان المعتمد
حتى تمكن بالفعل من ايفار صدره عليه . ويروي عبد الواحد المراكشي هنا ان حوارا
دار بين المعتمد والمعتصم حول يوسف ، فقام هذا بنقله الى ابن تاشفين . ونحن
لا نستبعد ان يكون المعتمد قد أفصح لزميله ملك المرية عما يدور في خلده وخلق غيره
من ملوك الطوائف . ويخيل لنا انه لم يكن يتوقع ان يبادر المعتمد بنقل مآدار
بينهما الى يسوسف ومهما يكن فان عبد الواحد المراكشي يروي ان المعتصم قال
للمعتمد في معرض حوارهما ان اقامة يوسف قد طالت في الجزيرة فاجابه المعتمد :
(لو عوجت له اصبعي ما اقام بها ليلة واحدة هو ولا اصحابه . كأنك تخاف غائلكه ،
واي شيء هذا المسكين واصحابه ؟) وانما هم قوم كانوا في بلادهم في جسد
من العيش ، وغلاء من السمر ، جئنا بهم الى هذه البلاد نطعمهم حسبة وائتجارا ،
فاننا شبعوا اخرجناهم عنها الى بلادهم . . . الى امثال هذا القول من تحقير امرهم
وأعانه على ذلك قوم من وجوه الاندلس .)

- (١) : عبد الله ابن زيري : المصدر السابق ، ص ١١٠ .
- (٢) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٥٥ - ٥٦ .
- (٣) : عبد الله بن زيري : نفس المصدر السابق ، ص ١١٠ - ١١١ .
- (٤) : انظر : ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، ص ٨٥ - ٨٧ . -
عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٩٦ - ١٩٨ . - الفتح
ابن خاقان القلائد ، ص ١٤ - ١٥ .
- (٥) : نفس المصدر السابق ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

وعلى اية حال فمهما يكن في هذا الحوار من المكابرة والتحدى والضيق الذي جاش به صدر المعتمد في ساحة ضيق وغم ، فانها تعطينا المثل على انحطاط الاخلاق والمثل الى درجة سحيقة لدى ملوك الطوائف وقتها ، حتى بين الاخ واخيه . ان يروى ابن زيرو ان اخاه تميم صاحب مالقة قد عاود تشكيه وتظلمه منه لدى يوسف ابن تاشفين ، وكان تميم الذي شكى اخاه عبد الله بعد موقعة الزلاقة مباشرة ، عاد مرة اخرى ليشكوه الى يوسف ويكرر ذلك حتى ضاق يوسف ذرعا بهذا الاسفاف ولكنه مع هذا بعث لعبد الله يطمئنه ويهدئ من روعه ويعلمه (ان غرناطة أكد عليه من مالقة لاحتياجه الى الاجتياز عليها في غزواته ، وما اشبه ذلك من المرافق) . (١)

استطالت مدة الحصار الى نحو بلغت فيه اربعة شهور . لم يجد معها (٢)

كما ذكرنا كل الوسائل التي استخدمها الجيش الاسلامي في الحصار ، بل انه ما كان يزيد المعاناة الاسلامية حرجا ان مجموعات من هؤلاء المحاصرين النصارى كانت تتسلل خارج الاسوار وتفتك بمحلة المسلمين ، ثم تعود ادراجها نحو الحصن ثانية . وعندما حسم الخلاف بين المعتمد وابن رشيق على النحو الذي رأيناه ، غضب اتباعه واقاربه ، فانسحبوا من المعركة والتحقوا بمد ينتهمهم . ومن هناك حصنوا المدينة وقفلوها في وجه المعتمد والمرابطين ، بل وقطعوا الميرة عن المعسكر الاسلامي . ومن الطبيعي ان يؤدي هذا الى اختلال الامور ، فانتشرت المجاعة في المعسكر وقلت الاسعار ، كما ادى هذا الى حدوث ارتباك داخل صفوف الامراء والملوك ، فخافوا ان يصيبهم ما حل بابن رشيق . وساء ظنهم بيوسف ، وساء ظن يوسف بهم اكثر . وشعر يوسف بحض طول هذه المدة ان من المستحيل الاستمرار في الحصار لا سيما في وسط ذلك الجو المحموم من الاقاويل والشائعات ، ووسط ذلك التفتت والتمزق مع استمرار المقاومة الشديدة من النصارى . وصدق ان نقلت عيون المسلمين وجواسيسهم المنبثة داخل المعسكر النصراني غم الفونسو للتقدم نحو الحصن وانقاذ حاميته المحاصرة . (٦)

-
- (١) : عبد الله ابن زيرو : المصدر السابق ، ص ١١٣ .
 (٢) : صالح بن عبد الحليم : المصدر السابق ، ص ١٠٦ .
 (٣) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٩٣ .
 (٤) : عبد الله بن زيرو : نفس المصدر السابق ، ص ١١٢ - ١١٣ . - مجهول :
 الحلل الموشية ، ص ٥٥ - ٧٧ .
 (٥) : حسن محمود : نفس المرجع السابق ، ص ٢٩٤ .
 (٦) : عبد الله بن زيرو : نفس المصدر ، ص ١١٤ .

وتبين ليوسف ان رفع الحصار والانسحاب عن الحصن الى اقرب مدينة اسلامية هو الحل
الواجب عليه اتباعه . والفعل انسحب نحو مدينة لورقة ومكث فيها بعض الوقت ،
ومن هناك اتجه نحو بلاد . والفعل ما كاد يوسف يتم الانسحاب حتى جاء الفونسو
الى حصن لبيط (١) فأنقذ حاميته ، ثم انسحب الى عاصمته طليطلة ، فجاء المعتمد
فوضع يده عليه ، وفي قول آخر ان الفونسو احرقه وسحب الحامية القشتالية منه .

وهكذا فقد جاء جواز يوسف هذه المرة مخيبا لآماله ، كما يتبين تمام
التيقن ان ملوك الطوائف لا يمكن الاعتماد عليهم في هذه المرحلة الخطرة من تاريخ
الصراع بين الاسلام والنصرانية ، وتلاشت من ذلك الوقت فكرة الجبهة الموحدة ، وسأت
على يوسف اذا ما أراد ان يصيد التوازن السياسي والعسكري في الاندلس بين المسلمين
والنصارى ان يتخلى نهائيا عن ان يكون رديفا لملوك الطوائف . ومعنى هذا ان يتخلى
تماما عن فكرة الجبهة الموحدة ، ليواجه ملوك النصارى مباشرة وجها لوجه ، ومعنى هذا
ايضا ان يعمل منذ الآن على ان يستعد للمواجهة بين القوة المرابطية الفتية المتأججة
حماسا للجهاد ، وبين القوى النصرانية الصليبية المتأججة حماسا هي الاخرى
الى مواصلة حركة الاسترداد . وشعر يوسف انه لا يمكن ان يحقق ما تبلور في ذهنه
بعد حصار لبيط الفاشل الا باتخاذ خطوة جريئة مع ملوك الطوائف ، هذه الخطوة هي
ازاحتهم لمصلحة الجهاد الاسلامي ضد الزحف النصارى في الاندلس فقد فرضت عليه
الظروف التزاما دينيا وادبيا تجاه الاسلام والوجود الاسلامي في الاندلس . ومقتضى
هذا الالتزام تهيأت النفوس في الاندلس والعالم الاسلامي الى قبول اي قرار او اي خطة
يتخذها يوسف ابن تاشفين .

وكانت الفترة الاخيرة من حصار حصن لبيط والفترة التي اعتبتها بعد ذلك
حالة السواد في حياة ملوك الطوائف ، فقد آذنت شمسهم بالمغيب ، ولم يعد الزمن
يعمل لصالحهم ، فقد انخفضت همم العامة ، والخاصة ، وشمت بهم ممالك النصارى وطمعت
ونفر منهم المرابطون . وعدوا ، بل انهم فقدوا الثقة وحسن الظن في بعضهم البعض .
واخذوا هم انفسهم يحيكون الدسائس والاقاويل ضد بعضهم بعضا . وحمل الفقهاء

(١) : المسلاوي الناصري : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٢ .

(٢) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٥٥ - ٥٧ .

(٣) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٩٦ .

لواء الدعوة للاطاحة بهم وصرحوا بذلك ، وساحت لهم المكانة العالية التي تحققت لهم والتي فرضتها الاحداث على ملوك الطوائف فرفضوا ان تحكموا بموافقة يوسف وتأيبده في مصائر هؤلاء . الامراء والملوك كما حدث لابن رشيق ، ودفعهم هذا الى ان جاهدوا ملوك الطوائف بأنهم سيكررون ذلك ويفعلوه .

وفي هذا الصدد يوسفنا ان تشير الى ان بعض الروايات الغربية فسرت رغبة الفقهاء هذه بتفسيرات بعيدة عن النزاهة والموضوعية ، اذ يقول ان فقهاء الاندلس سعوا لدى يوسف بن تاشفين الى خلع ملوك الطوائف لتبرمهم من الحرية الدينية الواسعة الممنوحة من قبل ملوك الطوائف انفسهم . ويخيل اليها ان هذا القول فيه من المغالطة والمجافاة لتعاليم الاسلام التي اثبتت رحابة افقها في منح جميع الطوائف الدينية حرياتها في ممارسة شعائرها الخاصة بها . والظاهر ان المؤلف الغربي كان يصدر في ذلك عن روح مسيحية متعصبة تبدو في ثنايا كتابه اذ يبدو انه كان حانقا من وقوع الاندلس تحت سلطة قوة اسلامية فتنية ، بدلالة انه كان يستعمل عند الحديث عن دفاع المسلمين عن انفسهم عبارات الفزور والانتهاك *INVASION* . وكان يشدد على ان الصراع هو صراع ديني باستعماله دائما لفظي : المسيحية والاسلام في مواجهة عدائية .

وايا ما كان الامر فان تلك الفترة التي اعقبت حصار لييط حفلت بالكثير من الاخطاء السياسية الفادحة ، كما حفلت بانعدام الكثير من الاخلاق والقيم والهادي . فبات كل من تهيأ له قدر من المسؤولية ، او وضعته الظروف في مواجهة الاحداث يعمل لحسابه الخاص . وسادت الاندلس وقتها اجواء محمومة من حالات الريبة والتشكك والابتزاز والانتهازية والخيانة . حتى أولئك الذين كانوا يعملون تحت قيادة الامير المرابطي المسلم ، او الملك النصراني ، او ملك من ملوك الطوائف لم يتخرجوا من ان يعملوا لحسابهم الخاص ، وتجلت وقتها روح العصر بأبرز صورها . نقول حتى بعض قواد المرابطين انساق في لهات محموم للاستفادة من ذلك الوضع كما رأينا سابقا ، وكما حدث لعبد الله بن زيري مع القائد المرابطي قرور الذي مارس معه عملية ابتزاز واضحة .

- (١) : انظر عبد الله بن زيري : المصدر السابق ص ١١١
 (٢) : انظر : J. B. Bu Ry : Op. Cit. , p 399
 (٣) : انظر عبد الله بن زيري : نفس المصدر السابق ص ١١٤ - ١١٦ .

ولسنا هنا نقف مدافعين عن ابن زيرو وغيره من ملوك الطوائف ، ولن ننزلق في الاخذ باقواله على علانها ، كما لن ننزلق في الحكم عليه دون أن نخضع ما حدث للتحليل الموضوعي . فلا ننظر الى ما حدث الا من خلال منطق العصر ، ولن نأخذ من كلام عبدالله بن زيرو الا ما يتفق وسير الحوادث فقط . فالواقع أننا اذا نظرنا الى الامور نظرة تحليلية موضوعية كما ذكرنا نجد أن ما فعله ابن زيرو لم يخرج عن منطق وروح العصر ابداً . واذا أردنا أن نقيم ما فعله في تلك الفترة يجب علينا أن ننظر اليها بالمقاييس التي كانت سائدة آنذاك ، وليس بالمقاييس المثالية والحالية أيضاً . فابن زيرو كان يتعرض وقتها لضغوط داخلية وخارجية مما ضغوط داخلية يشنها عليه الفقهاء وخاصة قاضي حضرته القليسي بدافع ديني ربما أو بدافع شخصي^(١) ، أو ربما بالاثنتين معاً ، كما كان يتعرض في نفس الوقت لمضايقات القائد المرابطي قرور له ، ويعانى هو وغيره من ملوك الطوائف من تدمير السكان وسخطهم من جهة ثالثة . أما الضغوط الخارجية فقد بدأ الفونسو يشن غاراته على ممالك الطوائف وبالذات على مملكتي غرناطة واشبيلية^(٢) .

وفوق هذا وذاك فقد سيطرت حالة من الشك على اذهان وعقول ملوك الطوائف من نوايا يوسف ، مثلما سيطرت عليه هو نفسه ، فالامراء وقد رأوا ما حل بابن رشيق قد اثابهم حالة من الريبة والجزع . وفي نفس الوقت بلغ يوسف من التقزز حدا جعله يرفض ما طلبوه من بقاء مجموعات من الجيش المرابطي^(٣) في الاندلس ، بل وخاطبهم مؤثماً (اصلحوا نياتكم ، تكفوا عدوكم) .

اذا فنحن لا نحلل مواقف كل من الفريقين الا من هذا المنظار ، أى منظار فقدان الثقة وحسن الظن ، ومن منظار الريبة والتشكك المتبادل تبعا لذلك . وعلى هذا فنحن نتفهم دوافع ابن زيرو فيما فعله من وجهة نظرة الخاصة . فقد أوجت اليه كل تلك الاعتبارات التي اشرنا اليها بأن يحصن مملكته^(٤) ويأخذ اسباب التحوط والحذر من النصارى والمرابطين على السواء رغم ما حاول أن ينفيه عن نفسه من أنه لم يفعل ذلك الا تحوطا من اعتداءات النصارى ، أو على أسوأ الأحوال - في تقديره -

(١) : انظر : عبدالله بن زيرو : المصدر السابق ، ص ١١٢ ، ص ١١٦ - ١١٩ .

(٢) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٨٩ .

(٣) : عبدالله بن زيرو : نفس المصدر السابق ، ص ١٢٢ .

(٤) : نفس المصدر ، ص ١١٩ - ١٢٠ .

أن يجد ما فعله تفهما من يوسف لما في ذلك من النفع للمرابطين (١) فسيكون بذلك للمسلمين حماية وانجرار الى غد (٢٠٠) نقول رغم الدفاع المستميت الذي أظهره عبدالله ابن زيبري من انه لم يفعل ذلك الا للأسباب التي ذكرناها (٢) فانه قد قصد في الواقع المرابطين أكثر مما قصد به النصاري .

أما قضية تعاقد مع الفونسو السادس ودفعه الجزية له ، فتحتاج الى وقفة متأنية . فعبدالله ابن زيبري شعر أكثر من غيره بتهديد يدات الفونسو وقواده له ، وعندما جاءه القائد القشتالي البرهانس المذكور سابقا يطلب منه مالا له خاصة ، أعطاه اياه (٣) . وتأكد هنا ما ذكرناه سابقا من أن الكل كان يعمل لحسابه بطريقة أو بأخرى . ثم لما جاء الفونسو وهدد ابن زيبري بالقتال ان لم يعطه الجزية ، عقد معه هذا مضطرا معاهدة ودفع له بموجبها جزية مقدارها ثلاثين ألف شقال عن ثلاثة أعوام (٤) .

هذه هي المسألة التي أخذت على عبدالله بن زيبري ، وهي التي جعلت البعض يرميه بالخيانة ، مع اننا لو نظرنا الى الأمر بنفس النظرة الموضوعية التي عالجنا بها ما سبق لرأينا أنه لم يكن بدعا في الأمر وحده ، فقد دفع ابن هود صاحب سرقسطة الجزية لالفونسو اتقاء لشربه (٥) ثم ان منطق العصر وقتها كان يستسيغ ذلك ولا يستغربه ، فقد حصلت سابقا قبل موقعة الزلاقة وقبل حصار لبيط من معاهدات مع النصاري لدفع شربهم ، بمعنى اننا لم نجد في هذا الموقف وخاصة أن عبدالله ابن زيبري دفع الجزية من أمواله الخاصة ما يدل على خيانة للمرابطين ، فالأندلس لم تكن تقع وقتها من الناحية الرسمية الصرفة تحت سلطة المرابطين ، كما أن عبدالله ابن زيبري لم يكن نائبا عن نواب يوسف بن تاشفين في الأندلس . هذا

(١) : عبدالله ابن زيبري : المصدر السابق ، ص ١٢٠ .

(٢) : نفس المصدر ، ص ١٢٠ - ١٢٢ .

(٣) : نفس المصدر ، ص ١٢٢ - ١٢٤ .

(٤) : نفس المصدر ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

وأنظر كذلك :

(٥) : عبدالله ابن زيبري : نفس المصدر ، ص ١٢٢ .

(٦) : نفس المصدر ، ص ١٢٦ .

من جهة ، ومن جهة اخرى لو ان المعاهدة نصت على كف يد مملكة غرناطة عن مساعدة المرابطين ، ولو ان المعاهدة نصت على ان تسمح مملكة غرناطة لالفونسو لمهاجمة الممالك الاخرى^(١) كان ذلك طعنا للمرابطين ما في ذلك شك . نعم هي استسلام ذليل وتغليب للمصلحة الخاصة على المصلحة العامة ، بل هي خيانة للقضية الاسلامية نفسها انزلق فيها عبد الله ابن زيوي هو وغيره من ملوك الطوائف .

اما غضب يوسف بن تاشفين على عبد الله بن زيوي ، وجوازه الى الاندلس للقضاء على استقلال مملكة غرناطة فانه في نظرنا يعود الى ان يوسف بن تاشفين فرضت عليه الاحداث والتبعات الدينية والقومية والادبية ان يتدارك امر الاندلس عموما لئلا ينزلق غير واحد من ملوك الطوائف الى نفوذ يده من القضية والعودة للاهتمام بالقضايا الاقليمية البحتة . فرضت عليه هذه التبعات ان يتدارك الاندلس ويفرض عليها هيمنتته وسلطته بعد ان اتضح له ان ممالك الطوائف لا يمكن الركون اليها . فضلا عن ذلك فيوسف بن تاشفين هو الذي فرضت عليه جماهير الاندلسيين وفئات اخرى كالفقهاء وغيرهم ان يكون صاحب السلطة والنفوذ في الاندلس دون ملوكهم .

وهكذا فقد فوضت تلك الالتزامات والاعتبارات يوسف بن تاشفين لاتخاذ ما يراه من اجراء مع ملوك الطوائف ، حتى ولو افضى ذلك الى خلعهم وازاحتهم . ولذا فقد بادر الى بحث خطاب ذي لهجة حادة الى عبد الله بن زيوي يستنكر فيه ما اقدم عليه ويتهدده بالمعاقبة^(٢) . والواقع ان عبد الله بن زيوي شعر بجزع شديد وشعر بانه مطلوب حتما ، فقد كان يمانى وقتها من تمزق داخلي وحركة عصيان يقودها الفقهاء وبعض قواد الدولة ورجالها الذين ما ان راوا علاقاته تسوء مع يوسف بن تاشفين ، حتى بادروا الى الاستفادة من هذا لحسابهم الخاص ، فأخذوا يزايدون عند يوسف بن تاشفين^(٣) على مليكهم ، ويروونه بكل صفات الضعف والخيانة ، وعدم قدرته على قيادة الدولة . . . الخ

وساءت ايضا علاقة عبد الله بن زيوي بالمعتمد الذي شعر بأن المعاهدة التي عقدها مع الفونسو ستؤثر عليه وعلى مملكته ، ولذا فقد بدأ يظهر العداء له

(١) : عبد الله بن زيوي : المصدر السابق ، ص ١٢٥ - ١٢٧ .

(٢) : نفس المصدر ، ص ١٢٧ .

(٣) : نفس المصدر والصفحة .

رغم انه نفى في دفاعه الحار عن نفسه كل ذلك نفيا قاطعا ، بل انه اشار الى انه قد صرف رسل الفونسو الذين جاءوا اليه يعتذرون عما سبب له تعاقدتهم معهم من اللفظ وسوء الظن ، فصرفهم منعاً لاي التباس .

على ان التردد الذي كان يطبع تصرفاته ، واصغائه الى آراء المستشارين المتناقضة والتي كان يطبقها دون تمييز جعله يدخل في خلافات مع سكان مملكته من اليهود والبربر الزناتيين وغيرهم ، كما دخل في نزاعات مع بعض قواده ورجال دولته ، وسائر هؤلاء الى الدس عليه عند يوسف بن تاشفين مما أوغر صدره عليه كثيراً ولم تجد شيئاً محاولاته ارساله الرسل الى يوسف بن تاشفين كما تدهورت اخيراً علاقته بالمعتمد كثيراً عندما اراد ان يستفيد من نزاع المعتمد مع أقارب ابن رشيق الذين استقلوا بالمدينة بعد قبض المعتمد على ابن رشيق كما قلنا . وقد أضر عبد الله ابن زيوى لارسال الرسل مراراً الى يوسف بن تاشفين ليشرحوا له وجهة نظره . ولكن حتى هؤلاء الرسل رأوا ان دولة عبد الله بن زيوى قد دالت أو اوشكت على الزوال فدسوا عليه وهم المبعوثون من قبله عند يوسف بن تاشفين . ويقول احد رسل عبد الله ابن زيوى الذي ذهب مع أحد قضاة غرناطة الى يوسف بن تاشفين سفيراً (٤) أرسلنا للخدمة له في زعمه ، ولم نصنع غير أنى كفتته هو القاضي ضرب عنقه .

جهز يوسف بن تاشفين جيشاً وتوجه نحو سبتة ومن هناك عبر البحر الى الجزيرة الخضراء وتوجه منها الى قرطبة حيث اجتمع هناك بالمعتمد الذي شكى له ما فعله ابن زيوى مما أوغر صدره عليه أكثر . ولكن يوسف بن تاشفين اراد ان يهاجم النصارى قبل ان يصفى حسابه مع مملكة غرناطة . وكان يهدف من ذلك الى ان يفهم الفونسو انه صاحب النفوذ في الاندلس ويفهمه ويحذره في نفس الوقت من مد يد العون لمملكة غرناطة . او ربما كان يهدف الى بث الذعر في نفوس النصارى حتى لا يبادر الفونسو باستغلال تلك الفرصة وطعنه من الخلف .

(١) : عبد الله بن زيوى : المصدر السابق ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٢) : نفس المصدر ، ص ١٣٠ - ١٤٤ .

(٣) : نفس المصدر ، ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(٤) : نفس المصدر ، ص ١٤٥ - ١٤٦ .

والقاضي الذي يقصده ابن زيوى في المتن هو ابو الاصبغ عيسى بن سهل ابن عبد الله الاسدي . وكان عالماً جليلاً ولكنه تورط في الاشتغال بالسياسة .

انظر : حسين مؤنس : شيوخ العصر ، ص ٨٥ .
(٥) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٣٠٣ .

والمهم ان المرابطين توجهوا نحو طليطلة وحاصروها وشنوا عليها هجمات
مركزة ، ووصلوا في هجومهم الى اقصى حدود مملكة طليطلة سابقا . وعندما
شعر المرابطون انهم قد حققوا ما أرادوا توجهوا نحو مملكة غرناطة حيث يقبع عبد الله
ابن زيرو خائفا ، يتربص ، فبعث اليه يوسف بن تاشفين طالبا منه القدوم بسرعة . ولم
يتردد يوسف بن تاشفين فبدأ يهاجم مدن وأراضي مملكة غرناطة فكانت تستسلم اليه
بسرعة مذهلة ، فالكل كان يطمع في ان يتبدل حاله نحو الاحسن ، حتى سكان غرناطة
كلهم ، ابدوا فرحهم وسرورهم حتى الخدم من النساء والخصيان (١) كل طامع فسى
اقبال الدنيا عليه ، والخروج عن ثقاف القصر الى راحة التسريح . . . الخ (٢) .

وأخيرا بعث يوسف بن تاشفين الى عبد الله ابن زيرو يؤمنه في نفسه
دون امواله ، ولم يجد ابن زيرو بدا من التسليم ، فسلم نفسه الى امير المرابطين رغم
انه قد قلب الامر على جميع الواجه ووضع (٣) شتى الاحتمالات ومنها الاستعانة بالنصارى
ولكنه لم يجد امامه الا ان يسلم نفسه له . وكان ذلك في ١٣ رجب ٤٨٣ هـ وقد نفى
الى المغرب واستقر في مدينة اغمات اخيرا . ورأى يوسف بن تاشفين ان يضع حدا للججاج
تميم شقيق عبد الله وتشكياته المتكررة ، فاطبق عليه واستصفى امواله ، ومعه مئتي
الى المغرب الاقصى شأنه شأن اخيه (٤) .

وهكذا فقد قضى يوسف بن تاشفين في جوازه الثالث على استقلال كل من
مملكتي غرناطة ومالقة ، وفقى عليه ان يصفى ببقية حساباته مع ممالك الطوائف الاخرى .
قضاء يوسف بن تاشفين على مملكة اشبيلية وعلى بقية ممالك الطوائف :-

كانت علاقة المعتمد بيوسف بن تاشفين والمرابطين عموما حتى اثناء حصار
يوسف لمملكة غرناطة حسنة على وجه العموم ، ولكن خطأ المعتمد انه كان يرى نفسه صاحب
الفضل في ذلك التحول الايجابى الذى جاء لصالح المسلمين في الاندلس . كما أنه
اعتقد انه لم يعد للمرابطيين غنى عنه في تحقيق سياستهم واهدافهم في الاندلس . وجاءت
مسألة تسليم ابن رشيق له لتمطيه (٥) خمسا يروى فيه ذلك الاعتقاد . وقد يكون في هذا

(١) : عبد الله بن زيرو : المصدر السابق ، ص ١٤٧ - ١٥١ .

(٢) : نفس المصدر ، ص ١٥١ .

(٣) : نفس المصدر ، ص ١٥٢ - ١٥٤ .

(٤) : نفس المصدر ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

شيء من الصحة ، ولكنه يبدو أنه قد أغرق كثيرا في ذلك الاعتقاد حتى لقد ظن ان يوسف بن تاشفين سوف يعهد اليه بمملكة غرناطة التي قضى على استقلالها ونفسى ملكها الى المغرب على التو . ويقول عبد الله بن زيري ان يوسف بن تاشفين قد ألح للمعتمد بذلك صراحة ، وانه تلقف هذا الوعد بالابتهاج والسرور (١) . ولكننا نرى المعتمد يشكك بينه وبين نفسه في ذلك الوعد (٢) ومع ذلك فانه مضى في تصويره لأهمية دوره الى حد بعيد جعله هو وزملاؤه ملوك الطوائف ينفضون أيديهم عن عبد الله ابن زيري وقت محنته بل ويزايدون عليه عند يوسف بن تاشفين باطلا على ما كتبه لهم عبد الله بن زيري يحذرهم من أن الأمر سيطلبهم هم من بعده (٣) . وكان المعتمد يتمجل سقوط غرناطة لتفضي اليه لقمة سائفة ، ولكن يوسف ابن تاشفين لم يكن بتلك السذاجة حتى يسلم المعتمد ملكة غرناطة . فهو قد كون عن ملوك الطوائف والمعتمد بالذات تصور واضح جلى وهو عدم أهلية هؤلاء في قيادة بلاد الاندلس ، كما رسخ لديه تصور واضح وهو أن انقاذ الاندلس من خطر الهجمات النصرانية الشرسة لن يتحقق الا باقصاء هؤلاء عن الاندلس . ولذا فعندما استنجز المعتمد يوسف وعده ، قابله هذا بكل فتور ولم يصغ له . ووقتها فقط أدرك المعتمد حقيقة نفسه وحقيقة الوضع السياسى فى الاندلس .

والواقع أن رأى يوسف فى المعتمد لم يكن بأحسن من رأيه فى

ابن زيري وغيره من ملوك الطوائف ، فيوسف بن تاشفين قد لمس عيانا عند قفوله الى بلاده بعد موقعة الزلاقة المدى الكبير الذى بلغه المعتمد فى الانصراف الى المترفات ووسائل المتعة والاهتمام الفائق بالتأنق بالقصور وتزيينها الى غير ذلك من الأمور التى تستنزف موارد الدولة . ولمس أيضا مقدار العنت والارهاق الذين تعانيهما العامة والطبقات الكادحة التى تدفع ثمن هذا الترف والبدخ المقوت (٤) . كما أن الأمير سير بن أبى بكر الذى تركه يوسف فى الاندلس لمساعدة ملوك الطوائف فى رد عادات النصرارى ضج بالشكوى من حال ملوك الطوائف وخاطب يوسف بقوله (ان الجيوش بالثغور مقيمة على مكابدة العدو وملازمة الحرب والقتال فى أشقى المشى وأنكده ، وملوك الاندلس فى بلادهم وأهليهم فى أرغد عيش وأطيبه (٥)) ولكن يوسف ابن تاشفين لم يظهر منه بعد ذلك ما يريب المعتمد ويجزعه ، ولما شعر بأن المعتمد ربما يعتقد أنه قادر على استغلاله كمخلب قط

(١) : عبد الله بن زيري : المصدر السابق ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٢) : نفس المصدر ، ص ١٦٥ .

(٣) : نفس المصدر ، ص ١٦٦ .

(٤) : المقرئ : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٠٨ - ١١٠ .

(٥) : المقرئ : نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ١٠٤ .

لخدمة مصالحه ومشاريعه ابدى نفوره منه عندما استنجزه وعده • وفى هذه اللحظة فقط بدأت علائق الرجلين ببعضهما تسوء وتفسد •

اذا فقد حدث هذا الاحتكاك والنفور الاول بين حليفى الامس فى بطحاء غرناطة بعد القضاء على استقلالها • وللتو نشط الوشاة والانتهازيون الى الاستفادة من هذا الوضع • وكثرت بينهما السعيات والوقيعة ^(١) • واقترح بعض المرابطين القبض على المعتمد وثقافه • ولكن يوسف بن تاشفين لم يشأ ^(٢) ان يفعل ذلك دونما ذنب ظاهر يبرر القبض عليه • ولذلك رفض مطلبهم •

وتنهياً المعتمد لمفادرة معسكر يوسف بن تاشفين وقد وضحت النهاية امام ناظره وعرف حقيقة ذاته وحقيقة الوضع الذى وصل اليه ملوك الطوائف كما ذكرنا • ولذلك اتخذ ائمة المفادرة على وجه السرعة • وقد تفادى مقابلة يوسف بن تاشفين عندما طلب اليه ان يقابله فاعذر عن مقابلته وقفل مسرط الى بلاده والتقى فى طريقه بالمتوكل بن الافطس فحذره مما لمسه من المرابطين قائلا له (والله لا يسد له ان يسقينا من الكأس الذى اسقى به عبد الله بن بلقين •) ثم عاد الى بلاده • وبدأ بالفعل يتخذ اجراءات التحصن والتسحوط تحسباً لما تحمله الايام القادمة •

وأراد يوسف بن تاشفين قبل ان يتوجه الى بلاده مقابلة المعتمد بصفة رسمية للتفاوض فى شأن الاحداث الراهنة • غير ان المعتمد اجاب يوسف اجابة لبقية وواقعية فى نفس الوقت كان منها (ان ذلك كان وقت كنت ضيفاً • وتريد السفزو فلزمتنى معونتك بنفسى وجميع اموالى • والآن انما انت جار لى مثل باديس وحفيده • وانت اقدر منى على الشر بجنودك فلا يمكنى التفرير بنفسى • عسى انك تريد اخذ بلدى • اذ لاتصح لك غرناطة الا بما يضاف اليها من الاندلس ^(٤)) •

-
- (١) : محمد عبد الله خان : دول الطوائف • ص ٣٨٣ •
 - (٢) : عبد الله بن زيرى : المصدر السابق • ص ١٦٨ •
 - (٣) : مجهول : الحلل الموشية • ص ٥٧ - ٥٨ •
 - (٤) : عبد الله بن زيرى : نفس المصدر السابق • ص ١٦٩ •

وهذه المواجهة المكشوفة التي جابه بها المعتمد يوسف بن تاشفين لم تعد هناك أى خطوط التقاء بين الفريقين: الاندلسيين والمرابطين، وحل العداء المكشوف والاستياء السافر الصريح محل المجاملات ودواعي الضيافة وغيرها • وبدأ المعتمد وغيره من ملوك الطوائف ينظرون الى المرابطين كهريق خصيم وليس كأخوان يفتقدون، وفي نفس الوقت أراد يوسف بن تاشفين بعد ان اتضح له موقف المعتمد ان يحذره من أى خطوة طائشة يفكر فيها، وكذلك طلب منه ان يطبق احكام الشرع ويلقى المظالم والمكوس • ويلتزم المراقبة ومداقة النصارى (فامتنع ابن عباد جهده ونهى على الشر •)

وعلى أية حال فقد غادر يوسف بن تاشفين الاندلس متوجها الى بلاده وقد اتضحت له معالم الصورة • والظاهر انه كان يخشى ان يتخذ أى اجراء فى حق ملوك الطوائف حتى لا يلام عليه • ولذلك فقد قبح فى بلاده هناك طيلة الشهور التى انقضت على مفاد رتبته للاندلس بعد سقوط مملكة غرناطة فى شهر رجب ٤٨٣ هـ •

والظاهر أنه كان مترددا ايضا فى اتخاذ أى اجراء لا يستند على الشريعة ولم يكن الفقهاء فى حاجة الى ان ينتظروا الاشارة منه ، فقد كانوا متلهفين على ازاحة ملوكهم وتسليم البلاد الى المرابطين دفاط عن العقيدة والوطن ولذا لم يفتقد اجتماعهم على وجه السرعة واصدروا فتوى شرعية صريحة تجيز ليوسف بن تاشفين خلع ملوك الطوائف جزاء لهم على ما اقترفوه فى حق الله والعباد والوطن وحلّوا يوسف بن تاشفين من عهده لهم بعدم الاضرار بهم • وأفتوه بان خلعهم ليس حقا من حقوقه باعباره مفوض شرعى من المسلمين فى الاندلس فحسب بل هو واجب دينى مسؤول عنه أمام الله • وقالوا له (هؤلاء الرؤساء لا تحل طاغتهم ولا تجوز امارتهم لانهم فساق فجرة ، فأخلعهم ها ، فقال لهم وكيف يجوز لى ذلك وقد طهدهم وارتبطت معهم على ابقائهم ؟ فقالوا له ان كانوا طهدهم فكيفهاهم قد ناقضوك ، وأرسلوا الى الفتن ان يكونوا معه عليك ، حتى يوقعوك بين يديه ، ويعود امرهم اليه ، فبادرهم بخلعهم بجمعهم ، ونحن بين يدي الله المحاسبون ، فان اذنبتنا فنحن لا أنت المعاقبون •

فانك ان تركتهم وانت قادر عليهم ، اعطوا بقية بلاد المسلمين الى الروم . وكنت انت
المحاسب بين يدي الله تعالى . (١)

ومع هذا التفويض الواضح الصريح ، فقد رأى يوسف بن تاشفين ان يحصل
على تأييد علماء المشرق الاسلامي في خطوته تلك ، فبعث برسلا الى المشرق لمقابلة
الامام الفزالي وغيره من علماء الاسلام هناك لينقلوا اليهم رغبته في التخلص من ملوك
الطوائف ورغبته في الحصول منهم على سند شرعي . ويبدو ان تطورات الاحداث في
الاندلس قد دفعت الى المبادرة بتنفيذ خطته في القضاء على ملوك الطوائف دون الانتظار
الى الحصول على فتوى الامام الفزالي وغيره من علماء الاسلام بالمشرق ، اذ ان ممن
المعروف ان رد الامام الفزالي واعتراف الخليفة العباسي المقتدى بيوسف اميرا للمسلمين
انما جاءه بعد ذلك ، وبعد ان قرر يوسف القضاء على مملكة اشبيلية وغيرها من ممالك
الطوائف في اعقاب قضائه على استقلال مملكتي غرناطة ومالقة . (٢)

- (١) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .
(٢) : محمد عبد الله خان : عصر المرابطين والموحدين ، ج ١ ، ص ٤١ - ٤٢ .
(٣) : بعث يوسف بن تاشفين للخليفة العباسي المقتدى بامر الله رسولين من قبله
هما عبد الله بن محمد بن العربي المصافري الاشبيلي وولده القاضي ابو بكر ،
وذلك لاختد التفويض الشرعي من الخليفة بخلق ملوك الطوائف ، ولأخذ مرسومه
الخلافي بتولي العدوتين واليا عليها من قبله . وقد وصل السفيران الى
بغداد وقابلا الخليفة واستحصلوا منه على المرسوم الخلافي بذلك . وقد
قابل السفيران في بغداد الامام ابو حامد الفزالي حيث نقلوا اليه رغبة
يوسف في خلق ملوك الطوائف ، ورغبته في الحصول على سند شرعي من
علماء وفقهاء المشرق بعد ان استحصل على تأييد فقهاء المغرب . وقد اصدر
الامام الفزالي فتوى شرعية تبيح ليوسف خلعهم ، كما حملها رسالة مؤيدة
ليوسف بن تاشفين . وقد اتجه القاضي ابو بكر بن العربي بعد وفاة والده الى
مصر حيث تقابل مع العلامة الاندلسي الاصل الاسكندري السكتي ابا بكر بن
الطرطوشي صاحب كتاب سراج الملوك ، وقد حصل منه على فتوى اخرى تبيح
ليوسف خلع ملوك الطوائف ايضا .

واخيرا وبعد بضعة اعوام من خروج القاضي ابن العربي عن الاندلس عاد
الى موطنه حاملا رسالتى الفزالي والطرطوشي ، ومرسوم الخليفة المقتدى ليوسف
ابن تاشفين .

ويجب ان نلاحظ هنا ان يوسف بن تاشفين بعث رسوليه الى الخليفة
المقتدى وليس المستظهر ابنه كما توهم البعض ، وذلك لان السيوطي صاحب
كتاب تاريخ الخلفاء اشار الى ذلك ، بالإضافة الى ابن الاثير في كتابه : الكامل

ولقد رأى يوسف بن تاشفين أن يترك لقواده المشهورين آنذاك مهمة اقضاء ملوك الطوائف ، فاضطلع قائده العام الامير سير بن ابي بكر بالدور الرئيسي في ذلك . ولقد تضاربت الاقوال في وصف ما جرى في ذلك الوقت ، فبعض الروايات تشير الى أن يوسف بن تاشفين أشار على الامير سير بأن يخلع ملوك الطوائف عرشاً الا المعتمد ، فقد أمره بأن لا يتعرض له أبداً الا عندما ينتهي من اقضاء بقية ملوك الطوائف في حالة رفضهم . لما عرضه عليهم من الانخلاع عن ممالكهم والرحيل الى العدو ، اذ كان يوسف قد أمره بذلك وأمره أيضاً بمقاتلتهم اذا رفضوا ذلك ، وعندما استطاع الامير سير أن يقضى على استقلال ملوك الطوائف بعث ليوسف بن تاشفين يطلب منه رأييه تجاه المعتمد ، فكتب اليه يأمره بأن يعرض عليه ما عرضه على زملائه فاذا رفض قاتله شأنه شأنهم . ولكن المعتمد لم يرد على خطاب الامير سير بن ابي بكر بشيء فنازله هذا وقتله . هذه رواية ، اما الرواية الأخرى فتقول أن يوسف بن تاشفين (١) لما انتهى الى مراكش ولّى على الاندلس قائده الامير سير بن ابي بكر اللطوني وفوض اليه جميع أمورها كلها ، ولم يأمره في شأن ابن عباد بشيء ، فسار الامير سير بن ابي بكر نحو اشبيلية وهو يظن أن ابن عباد اذا سمع به فانه سيخرج اليه ويتلقاه على بعد ويحمل اليه الضيافات فلم يفصل ، وتحصن منه ولم يلتفت اليه . فواصل سير بن ابي بكر أن يسلم اليه البلاد ويدخل في طاعة أمير المسلمين ، فامتنع ابن عباد فعند ذلك تقدم سير الى حصاره وقتاله (٢) .

ويبدو خلافاً لكل ما قيل ان هذه السفارة بدأت بعد القضاء على ملكتي غرناطة ومالقة عام ٤٨٣ هـ ، وبعد أن وقر في ذهن يوسف من عدم صلاحية ملوك الطوائف . أما مسألة التلقب بأمره أمير المسلمين فنحن نتفق مع حسين مؤنس في انه لقب محلي اطلقه المرابطون على يوسف بعد أن رفض التلقب بأمير المؤمنين كما نصح بذلك . ولذلك فقد تلقب بأمير المسلمين وناصر الدين ، ولم يتعرض الخليفة العباسي المقتدى وخاصة بعد بلاء يوسف الحسن في موقعة الزلاقة ، وهذا خلافاً لما اعتقده السيوطي وغيره من أن المقتدى هو الذي لقب يوسف بذلك اللقب ، اذ يذكر حسين مؤنس في مقاله بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدرين : سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين ، ان الخليفة المستظهر بن المقتدى بعث لعلي بن يوسف بن تاشفين بخطاب اطلق عليه فيه لقب : مقسيم الدولة العباسية وزعيم جيوشها المرابطية . مما يعني أن لقب أمير المسلمين لقب محلي .

أنظر : ابن الاثير : المصدر السابق ، مجلد ٨ ، ص ١٤٣ . — مجهول : الحبل الموشية ، ص ١٩ — ٢٠ . — السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٢٤ — ٤٢٥ . — حسين مؤنس : سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدرين ، المجلد الثاني ، العدد ١ ، ٢ ، ص ٦٣ — ٦٤ . —

محمد عبدالله غان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٤١ — ٤٢ .

(١) : المقرئ : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٠٤ — ١٠٥ .

(٢) : السلاوي الناصري : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٣ — ٥٤ .

ويخيل لنا ان هاتين الروايتين لا يمكن الركون اليهما ، فالواجهة المكشوفة مع ملوك الطوائف بعد سقوط مملكة غرناطة كانت مع المعتمد بن عباد . وقد رأينا ابن زيري يروي لنا جواب المعتمد ليوسف الذي سقاه ، وابن زيري شاهد عيان واقرب للاحداث وتبدو روايته معقولة منطقية ، ولذلك فنحن نستبعد ان يكون يوسف قد آثر ترك المعتمد حتى تسقط ممالك الطوائف كما تقول رواية المقرئ ، كما نستبعد ان يكون الامير سيري قد تصرف من تلقاء نفسه كما تومى رواية السلاوى . ولكن الرواية الاقرب للمنطق والوجهة العسكرية البحتة هي رواية صاحب الخلل الموشية . ان يذكر انه عندما استقر رأى يوسف بن تاشفين على اقصى ملوك الطوائف ، واتجه نحو ثغر سبتة ط ١٠٨٤ هـ / ١٠٩١ م كما ذكرنا . ومن هناك اشخذ الاستعدادات لمنازلة ملوك الطوائف ، وجهز قطائع او كتاب كل كسبة عبارة عن جيش كامل وعين عليها اربعة من قواده عهد الى كل واحد منهم بمهمة معينة فى منطقة معينة ايضا . ويظهر من خلال هذه الخطة ان يوسف قد وضع خطة عسكرية استراتيجية تهدف الى الاطهاد على كل نواحي مملكة اشبيلية وبقيّة ممالك الطوائف فى آن واحد . فعهد لابن عمه الامير سير بن ابي بكر بالتوجه نحو اشبيلية ، ثم اذا فرغ من امرها توجه نحو بطليوس حيث ابن الافطس . وعهد لقائده الآخر ابي عبد الله بن الحاج بالتوجه نحو قرطبة ومنازلة الفتح ابن المعتمد فيها ، وعهد لقائده الثالث قرور او جرور الحشى بالتوجه نحو مدينة رندة التى كان يتولاها يزيد الراضى بن المعتمد . وعهد اخيرا الى قائده الرابع زكريا بن واسنو بالتوجه نحو المرية حيث المعتمد بن صمادح (١) .

وهكذا فقد تهيأت الجيوش المرابطية لممارسة دورها كل فيما يخصه ، فاتجه الامير سير بن ابي بكر نحو اراضى مملكة اشبيلية فنازل بعض المواقع وافتتح فى طريقه جزيرة طريف التابعة لها . وتوجهت كسبة اخرى نحو مدينة جيان فحاصرتها ودخلتها صلحا كما فى رواية صاحب القوطاس (٢) . وهنا لرواية لابن الخطيب تقول ان القوات المرابطية انهزمت امام القوات النصرانية التى استنجد بها المعتمد عندما بدأت مضايقة المرابطين له (٤) .

والواقع ان ما اشار اليه ابن الخطيب من مجئ النصارى لمساعدة المعتمد امر لم يقم عليه الدليل ، فلم يذكر احد غيره ذلك . ولكن هذا لا ينفي اطلاقا ان المعتمد

-
- (١) : مجهول : الحلل الموشية : ص ٥٩ - ٦١ .
 (٢) : عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ص ٢٠٠ - ٢٠١ .
 (٣) : صالح بن عبد الحليم ص ١٠٠ .
 (٤) : اعمال الاعلام ص ١٦٣ .

فكر في الاستعانة بالنصارى والفونسو على وجه التحديد • وهو ما كان يتوقعه يوسف بن تاشفين ، ولذلك كان مترددا في الاجهاز على ملكة ابن عباد حتى تبين له علانية خبيثة اتصاله بالنصارى • والمعتمد نفسه لم ينكر ذلك ، فعندما وجد نفسه محاصرا من قبل الجيوش المرابطية (وقامت عليه الرعايا بكل قطر ، فأرسل اذ ذاك الى الرومى يستغيث به ففقد عنه خيفة من التفسير ، وهى حجة أمير المسلمين على بن عباد ان قال له : ظفرت بك بكتاب الى الرومى ، وارسالك عنه (١) • ولقد كانت اجابة المعتمد على خطاب يوسف بن تاشفين تدل دلالة قاطعة على انه غير مستعد اطلاقا الى تسليم مملكته الى المرابطين حتى لو أفضى به الامر الى مواجهة يوسف بن تاشفين • وفى الواقع ان هذا الاجراء من الناحية البشرية الصرفة ربما يتيح لنا أن نتفهم - من وجهة نظره - دوافعه الى الاستعانة بالنصارى •

وعلى أية حال فقد أتاح المعتمد بجوابه ليوسف ابن تاشفين المبرر لأقصائه وخلصه مستندا في ذلك على سند شرعى ملموس • وثقول رسالة المعتمد ليوسف بن تاشفين التى دافع فيها عن نفسه فى طسب الاستعانة بالنصارى : (لو فعلته قبل أن تؤخذ بلادى بطرا واشرا ، كنت ألام ! • وأما بعد أن رأيت طلبى فى الروح ، اضطرتنى الضرورة الى ذلك للمدافعة ولو يوما واحدا (٢) •)

ومن كلام عبد الله بن زيرى نتبين أن الفونسو قد تقاعس عن مد يد العون الى المعتمد خوفا من التفسير به فى أول الأمر ، ولكنه عاد الى تقديم نصرته بعد قليل كما سنرى بعد •

كانت جيان أول قاعدة عبادية تسقط فى يد المرابطين ، وقد توجهوا بعد ذلك نحو مدينة قرطبة عاصمة الخلافة القديمة وضرب عليها القائد المكلف بافتتاحها محمد بن الحجاج حصارا شديدا طال لمدة شهور عدة ، مما اضطر حاكمها الفتح بن

(١) : عبد الله بن زيرى : المصدر السابق ، ص ١٦٩ •

(٢) : نفس المصدر والصفحة •

(٣) : وفى رواية أخرى لصالح بن عبد الحليم صاحب كتاب روض القرطاس تقول (ان الذى

فتح قرطبة هو القائد : بطى بن اسماعيل) •

المعتمد الملقب بالمأمون الى أن يبحث بآله وولده الى حصن المدور الذى حصنه وشحنه بالاسلحة والعتاد^(١) ويقول ابن خاقان ان اهل قرطبة كانوا يتوقون الى أن تقع مد ينتهم في ايدي المرابطين ولذلك اخذوا يدعون داخل المدينة شعابهم . وعلى اية حال فان الفتح لم يستطع البقاء طويلا فى حصاره ، فقد استطاع المرابطون التسلل ناحية السور ومن ثَم أُطبقت جيوشهم على المدينة فى شهر صفر من عام ٤٨٤هـ / مارس ١٠٩١م . وافتتحت المدينة عنوة وقتل الفتح بن المعتمد وقطع رأسه وحز ، ثم طيف به على سن زمرح^(٢) .

واتجه المرابطون اثر ذلك الى الاستيلاء على بقية معاقل المملكة الاشبيلية فاستولوا على كل من مدينة ابدة ، وسياسة ، وشقورة ، ثم استولوا على حصن المدور وأخيرا قلعة رباح . مما يعنى أنهم قد استطاعوا احكام سيطرتهم على معظم اراضى الوادى الكبير ، ولم يبق من معاقل مملكة اشبيلية سوى رندة وقرمونة واشبيلية ومرتلة^(٣) . على انه لم يمض وقت يسير حتى سقطت قرمونة بدورها فى ربيع الاول عام ٤٨٤هـ / مايو ١٠٩١م . ثم جاء الامير سيور بن أبى بكر نحو اشبيلية فحاصرها بقوات ضخمة أوحى للمعتمد أنها قضية حياة أو موت ، وسقوطها تسقط مملكته كلها . ولذلك بحث مرة أخرى الى الفونسو السادس يستصرخه . وهنا تحرك الفونسو السادس عندما شعر بخطورة ما يجرى فى احيائها الاسلامية . مات ينظر للخطر المرابطى على انه ليس قاصرا على الممالك الاسلامية ، بل يتعداها الى شبه الجزيرة الاسبانية كلها . ولذا فقد بادر فوراً الى تجهيز حملة الى وجه السرعة بقيادة قائده البرهانس اختلف فى عددها ، وكذلك اختلف فى عدد الجيش المرابطى^(٤) . والتقت الجيوش المرابطة والقشتالية بالقرب من اشبيلية ، وانتهى اللقاء بانتصار المرابطين انتصارا باهرا^(٥) .

وفهم من خلال الروايات المتعددة لاحداث حصار اشبيلية عدة أمور منها : أن حصار اشبيلية قد طال الى نحو أربعة شهور ، وان المدينة قد

-
- (١) : ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ٢٢ .
 - (٢) : نفس المصدر والصفحة .
 - (٣) : محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٣٤٩ - ٣٥٠ .
 - (٤) : نفس المرجع والصفحة .
 - (٥) : نفس المرجع ، ص ٣٥٠ - ٣٥١ .
 - (٦) : نفس المرجع والصفحات .

استبسلت في الدفاع حتى لقد أثار إعجاب واستفراب القائد المرابطي الأمير سيرين أبي بكر^(١) كما يفهم من سياق تلك الروايات أن ثورة شعبية داخلية قد نشبت في الأيام الأخيرة من الحصار بالتواطؤ مع المرابطين وقد دعت بدعوتهم هذه فت إلى إثارة جموع البلبلة والقلق في المدينة تدج للمرابطين الدخول إلى البلد في ذروة الانشغال بذلك . غير أن المعتمد الذي وقف على مخططاتهم هذا لم يشأ أن يعاقبهم بالقتل كما هو متوقع ولكنه أثار الصفح عنهم^(٢) . كما يفهم أيضا أن ثورة أخرى قد نشبت وكاد المعتمد يذهب ضحيتها قتيلا على يد أحد الفرسان المرابطين الذين استطاعوا بمساعدة أولئك الثوار أن يتسللوا إلى المدينة غير أن المعتمد بذل جهدا واضحا في الدفاع عن نفسه وعن مد ينته . إلا أن الأمير سير وضع خطة عسكرية تهدف إلى إحراق السفن الراسية في شاطئ الوادي الكبير . فقد وضع هذه الخطة لتصادف في الوقت نفسه الثورة الداخلية بواسطة أعوانه هناك وبالفعل ما كاد يتنفس المعتمد الصعداء في ذلك اليوم الذي نشبت فيه الثورة الثانية حتى كانت القوات المرابطية قد أنهت مهمتها بإحراق السفن في عصر ذلك اليوم نفسه وهو الثاني والعشرين من شهر رجب ٤٨٤ هـ / سبتمبر ١٠٩١ م^(٣) . وعم الفزع والرعب سكان المدينة وبذل المعتمد جهده في الدفاع واستمات في سبيل ذلك . وعندما يأس من المقاومة عن له أن يتحجر ويقتل نفسه بيده ولكنه عاد بعد ذلك (فصرقه ثقاه عما كان نواه)^(٤) . وسقطت المدينة أخيرا في يد المرابطين وقتل في أثناء ذلك عدد

(١) : عبدالله بن زيري : المصدر السابق ، ص ١٢٠ . — محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٣٥١ .

(٢) : عبدالواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ — ٢٠٢ .

(٣) : هذا هو التاريخ الصحيح كما جاء في رواية عبدالله بن زيري المعاصرة ، وكما ورد في الروايات النصرانية التي تؤرخ ذلك بتاريخ ٧ سبتمبر الموافق تماما للتاريخ الهجري المذكور كما يقول محمد عبدالله عنان .

أنظر : عبدالله بن زيري : المصدر السابق ، ص ١٢٠ . — محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٣٥٢ . ح ١ من نفس الصفحة .

(٤) : ابن خاقان : قلائد المقيان ، ص ٢٢ — ٢٥ .

كبير من الجيش الاشبيلي وأفراد من الشعب . كما قتل ابن للمعتمد اسمه مالك . أما المعتمد فقد قبض عليه وقيّد وكبل وانتهب الجنود القصور الفخمة وجميع ما قد روا عليه (١) .

وهكذا كانت نهاية هذا الملك الذي كان يعتبر وقتها أقوى ملوك الطوائف ، وتعتبر مملكته أكبر تلك الممالك وأقواها ، فسقطت سراعاً في مدة يسيرة . وهذا إنما يدل على وهن الأساس الذي قامت عليه ، وعلى ما أصابها من تصدع داخلي اجتماعي خطير جعل السكان يتوقنون إلى استبدالها بعد أن ملّ الناس هذه الدولة (٢) وضجوا بالشكوى من تصرفات وسياسات ملوكها التي تستنزف الموارد والمحاصيل .

وقد أشرنا إلى أن فرقة من الجيش المرابطي توجهت بقيادة قرور أو جرور الحشمي إلى زنده لمحاصرة يزيد الراضى بن المعتمد وحاصره فعلاً . وامتنع هذا بالقلعة وكانت زنده حصينة تماماً بتحصيناتها الطبيعية والبشرية . ولذا فلم يكن في إمكان المرابطين الاستيلاء عليها بسرعة لأنها كانت قادرة على مواصلة المقاومة طويلاً بفضل ما كان لها من حصانة . وقد حاصرها المرابطون في الوقت الذي كانوا يحاصرون

(١) : يرجع في اخبار ثورة وسقوط اشبيلية إلى :

- عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ — ٢٠٤ .
- ابن يسام : المصدر السابق ، القسم الرابع — المجلد الاول ، ص ٤٢ .
- و ص ٤٥ — ٤٦ . — عبدالله بن زيري : المصدر السابق ، ص ١٧٠ .
- ١٧١ . — صالح بن عبد الحليم : المصدر السابق ، ص ١٠٠ — ١٠١ .
- ابن خاقان : قلائد المعقيان ، ص ٢٣ — ٢٥ . — المقرئ : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٧٨ — ٣٧٩ (نقلاً عن ابن اللبانة معاصر تلك الاحداث) . — ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ص ١٦٤ — ١٦٥ .
- والاحاطة ، ج ٢ ، ص ١١١ — ١١٢ . — محمد عبدالله غان : دول الطوائف ، ص ٣٥٠ — ٣٥٥ .

(٢) : المقرئ : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٧٨ .

فيه اشبيلية ، وعند ما سقط المعتمد أسيرا في يد المرابطين امتنع
 يزيد الراضى فيها ولم يصغ لنداءات المرابطين له ، وصمم على المقاومة
 حتى النهاية ، غير أنه استجاب لنداء أبيه له واستعطافه إياه .
 ويبدو أن المعتمد تعرض لضغط مرابطى شديد ليطلب إلى ابنه بالاستسلام ،
 فاضطر الابن تحت الحاح والده وبعد تأكيدات من المرابطين بضمان حياته
 هو وأولاده وخاصته إلى النزول عن المدينة وتسليمها إلى القائد المرابطى .
 غير أن هذا القائد ما عثم أن غدربه فقتله ^(١) . ويحمل ابن زيرى ^(٢) على
 عدوه قروور ويتهمة بالقيام بأعمال شنيعة في رندة . ولكن ما يهمنا هنا
 هو أن رندة قد سقطت في يد المرابطين ، وأنهم لم يفوا بتعهداتهم
 نحو الراضى فقتلوه .

أما مدينة مرتلة أو مردلة التي تحصن بها الابن الثالث
 للمعتمد وهو الملقب بالمعتد ، فقد حاصرتها القوات المرابطية ، فامتنع
 بها وتحصن . وكانت مرتلة منيعة حصينة على غرار حصانة رندة .
 ولكنه استجاب لنداء أبيه ووالدته اعماد الرميكية ، فنزل عن المدينة
 للمرابطين ، فقبضوا عليه ، وصادروا جميع أملاكه وأمواله ^(٣) .

وبهذه النهاية زالت دولة بنى عباد في عام ٤٨٤هـ / ١٠٩١ م
 بعد حكم ناهز سبعين عاما . كانت فيه دولة بنى عباد دولة الممالك
 الإسلامية في الأندلس آنذاك وأقواها وأبرزها رونقة وساء . وحمل
 المعتمد بآله وأهله إلى المغرب الأقصى حيث استقر به المقام هناك
 في مدينة أغمات ، حيث بقى هناك يتجرع المرارة والأسى ، ويجتر
 الذكريات السعيدة لمملكه وهنائه .

ومن الضروري أن نشير هنا إلى أنه قد جرت محاولة
 فاشلة لإعادة سلطان دولة بنى عباد قام بها ابنه عبد الجبار الذى

(١) : انظر عبد الله بن زيرى : المصدر السابق ، ص ١٧١ . — عبد الواحد المراكشى :
 المصدر السابق ، ص ٢٠٣ — ٢٠٤ . — ابن خاقان : قلائد المقيان ،
 ص ٢٢ — ٢٣ .

(٢) : انظر المصدر السابق ، ص ١٧١ .
 (٣) : عبد الواحد المراكشى : نفس المصدر السابق ، ص ٢٠٣ — ٢٠٤ .

استقر بمدة أركش مدة من الزمن وتحصن بها ، غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل والخذلان وقتل عبد الجبار على يد الموابطين وسحقت ثورته . وقد تركت ثورته هذه مضاعفاتها السيئة على أبيه في منفاه ، فشدد الموابطون عليه الخناق . وخاف الموابطون من جراء ذلك أن تؤدي تلك الثورة الى احداث وردود فعل أخرى ، فاشتطوا في معاملته وتقييده وتكبيله .^(١)

ويبقى أخيراً في قصة مأساة المعتمد ما أتهم به ظلماً وعدواناً ، وما لحق بشخصه من فريسة واختلاق ، أعنى بذلك قصة زائدة (ابنة المعتمد) التي عرضت قضيتها كتب المؤرخين النصاري قديماً^(٢) . ولقد عرضت قضية زائدة (ابنة المعتمد) كما يزعم أولئك المؤرخون وسط ستار من الشك والتضليل . وقد ظلت هذه القضية مشار جدل منذ القرن الثامن عشر الميلادي وحتى أوائل القرن العشرين^(٣) عندما أثبت البحث العلمي خطأ ذلك الاعتقاد ، وأثبت أن زائدة ليست ابنة المعتمد ، كما أثبت البحث

(١) : أنظر ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ٢٨ - ٢٩ . - المقرئ : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٤٩ - ٣٥٠ .

(٢) : الواقع أن المؤلفات الأسبانية هي التي أشارت الى هذه القضية . ولم تشر أية رواية إسلامية لهذه الاحداث اطلاقاً اللهم الا الروايتين اللتين اعتمد عليهما ليفي بروفنسال في تحقيقه لشخصية زائدة ، وهي رواية ابن عذارى في كتابه البيان المغرب في اخبار سنة ٥٠١ هـ (١١١٨ م) ، وكذلك رواية النشري صاحب كتاب المعيار المغرب والجامع المغرب من فتاوى أهل إفريقية والاندلس والمغرب ، طبع فاس سنة ١٣١٤ هـ . نقول : هذا هذين النصين في المصادر الإسلامية لم تشر الى تلك الاحداث الا الروايات النصرانية : كمدونة الاسقف رودريغ الطليطلي المؤرخ الرسمي في عهد الملك فرديناند القديس والتي وضعها عام ١٢٤٣ م وهي رواية بعيدة عن الاحداث تماماً ، وكذلك رواية للمؤرخ بلايو أوفيدو معاصر الفونسو والتي رواها من بعده أسقف توي في كتابه : *Chronicon Mundi* الذي يعود الى عام ١٢٣٦ م . حتى لقد نشأ في ظل تلك الروايات النصرانية ما يعرف بملحة زائدة المسلمة :

انظر ، ليفي بروفنسال : الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ١٥٥ .

(٣) : ليفي بروفنسال : نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٥٣ .

العلمي أن المعتمد لم يقدم زائدة ولا غيرها إلى الفونسو كما تزعم الروايات النصرانية المذكورة .

وخلاصة تلك القضية أن الروايات النصرانية تشير إلى أن المعتمد عندما رأى خطر المرابطين يحدق بمملكته اتصل بالفونسو وعرض عليه أن ينزل له عن قونقة وويدة ، وأقليش وأوكانيا وكونسوجرا ، وغيرها من الأماكن ، كما أنه قدم له - وهنا مكان التشكيك والتضليل - ابنته زائدة لتكون زوجة له . كل ذلك مقابل أن يساعده في مواجهته للمرابطين . وبالفعل وافق الفونسو على ذلك وتزوج زائدة وأنجب منها ابنه الوحيد سانشو الذي قتل في معركة اقليش عام ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م . بين المرابطين والنصارى والتي انتهت بانتصار المرابطين (٢) . ولقد أشارت تلك الروايات النصرانية أيضا إلى أن المرابطين عبروا إلى الأندلس لمحاربة المعتمد ومعاقبته لأنه زوج ابنته لألفونسو (٣) .

وفي الحقيقة أن ليفي بروفنسال قد استوفى في كتابه " الاسلام في المغرب والأندلس " جميع ماورد حول هذه القضية . ووصل إلى خلاصة منطقية وتاريخية قاطعة بأن المرأة التي أشارت إليها المراجع النصرانية قد إما وحدها ليست ابنة المعتمد . بل كتته أى زوجة ابنه الفتح الملقب بالمأمون حاكم قرطبة الذي قتل كما قلنا على يد المرابطين . ولقد ذكرنا أن الفتح عندما رأى محاصرة المرابطين له بعث بزوجته وأبنائه إلى حصن المدور . وقد عي هذه الزوجة زائدة فعلا . ومن هنا ربما اختلط الأمر على المراجع النصرانية . فجعلتها ابنة المعتمد . وعندما رأت زائدة المرابطين يطبقون على حصن المدور بعد مقتل زوجها الفتح ، توجهت فارة بنفسها وأولادها إلى قشتالة فدخلت في حماية الفونسو السادس . وهناك استطاع الفونسو اغراءها واقناعها بأن تكون خليلته له . وأثمر هذا اللقاء عن انجاب زائدة مولودا ذكرا

(١) : تسمى معركة اقليش في كتب التاريخ المسيحية باسم : معركة القوامس السبعة

لاشتراك سبعة من كبار قوامس قشتاله فيها .

انظر ، ابن القطان : نظم الجمان ، ج ١ ، ص ٧ .

(٢) : ليفي بروفنسال : الاسلام في المغرب والأندلس ، ص ١٥٢ - ١٥٤ .

(٣) : نفس المرجع ، ص ١٥٦ .

سمى بسانشو ، وكان الابن الوحيد لألفونسو . وقد تنصرت زائدة ، وعدت باسم ايزابيلا ، وفي رواية أخرى باسم ماريّا . وقد توفيت زائدة عند ولادتها ابنها سانشو عام ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م . ثم ما لبث ولدها سانشو أن توفى صبيا لما يتجاوز العاشرة من عمره في موقعة اقليش كما أشرنا منذ قليل^(١) .

وهكذا استطاع ليفي بروفنسال أن يثبت أن التي اتخذها الفونسو عشيقة وخليلة هي زائدة كُتبه المعتمد وليست ابنته . ونفى بالأدلة المنطقية التي لاتجيز وقوع ذلك عقلا من أمير مسلم كان في ذلك الوقت على خلاف مع فقهاء حضرته وفقهاء الاندلس عموما حدوث ذلك كما أثبت بالأدلة التاريخية الاسلامية حقيقة شخصية زائدة^(٢) . كما أن من المفيد أن نذكر هنا بالمرافعة المنطقية والتاريخية التي وردت في كتاب دول الطوائف لمحمد عبدالله عنان^(٣) .

غير أن هذه القضية رغم كونها قد بست فيها منذ العقد الثالث من القرن العشرين ، الا أن هناك من المؤرخين الأسبان المعاصرين من لم يقتنع بمد بحقيقة ذلك كالمؤرخ الاسباني رامون منندث بيدال صاحب كتاب أسبانيا في عهد السيد^(٤) ، كما وجد من المحدثين العرب أيضا من لم يقتنع بذلك أيضا^(٥) .

-
- (١) : أنظر ليفي بروفنسال : المرجع السابق ، ص ١٥٤ ، وص ١٥٧ ، وص ١٦٠ .
 (٢) : انظر النص في المرجع السابق ، ص ١٥٢ - ١٦٢ . والحواشى .
 (٣) : ص ٣٤٥ - ٣٤٨ والحواشى .
 (٤) : أنظر ليفي بروفنسال : نفس المرجع ، ص ١٥٢ - ١٦٣ مع الحواشى في نفس الصفحات أيضا .
 (٥) : أنظر مثلا : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٣٠٤ ، وح ١٠ من نفس الصفحة .

الأيام الأخيرة فى حياة المعتمد بالله :-

استولى المرابطون على اشبيلية ، واستولوا من قبل على قرطبة وبقية معاقل المملكة العبادية ، وقتل فى أثناء تلك المواجهة المسلحة بين المرابطين والعباديين بعض أبناء المعتمد ، فبكاهم أحر بكاء . وسبق هو وبقية عائلته الى المغرب الاقصى . وعبر البحر نحو طنجة . ثم استقر به المطاف أخيرا فى مدينة أغمات (١) حيث طس فى شظف من العيش مدة أربع سنوات تقريبا من عام ٤٨٤هـ / ١٠٩١م وهو العام الذى خلع فيه كما قلنا حتى عام ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م الذى توفى فيه ولم يتعد السادسة والخمسين من عمره على الأرجح (٣)

وهذه النهاية المأساوية أقل نجم ذلك الملك الفريد المترف الاديب السياسى الذى أثار بأعماله وسياسته من الاشفاق والمطف عليه أكثر مما أثار من الثقبض والقدح له . أقل نجمه وغابت شمسها التى كانت تسطح فى سماء الاندلس عطرا وشذا وألقا أدبيا رفيعا . وسبق الى منفاه فى مشهد حزين رقت له القلوب وسالت فيه المبرات . وأذكت مأساته هذه ومحنته التى اتخذت مسحة روائية كانسان طريق منفى فقير بعد العزة القمصاء والملك الفسيح والمجد

- (١) : أغمات بليدة وراء مراكش (فى المغرب الاقصى) بينهما مسير عشرين ساطة وهى الان قرية صغيرة .
- انظر ، عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .
- (٢) : اتفقت أقوال معظم المؤرخين أن وفاة المعتمد كلت فى طم ٤٨٨هـ . انظر مثلا : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ص ٤٦ ، وكذلك ج ١ من نفس الصفحة . ابن الخطيب : الاحاطة فى اخبار غرناطة ، مجلد ٢ ، ص ١١٩ . ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ١٦٤ جزءا ، ج ٥ ، ص ١٥٧ .
- (٣) : ذلك لان البعض قال انه كان يبلغ عند وفاته الحادية والخمسين ، وقال البعض الاخر الخامسة والخمسين ، وقال عبد الواحد المراكشى الحادية والستين ، وكان قد قال قبل ذلك الحادية والخمسين . غير أن الثابت أنه ولد عام ٤٣١هـ فى حياة جده القاضى أبى القاسم . انظر : عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ٢٠٧ ، وكذلك ج ٣ من نفس الصفحة .

الأثيل والذكر التالد . نقول أذكت مأساته ومحنته هذه عطف المؤرخين والادباء والناس قد يما وحد يثا ، واستدرت لفترة طويلة من الزمن عطفهم وجوبهم عليه ^(١) .

والحقيقة أن ما آلت اليه نهاية المعتمد تحز في النفس وتؤثر في الحشا . فلقد عمول للأسف بقسوة لامعنى لها من قبل يوسف بن تاشفين والمرابطين على السواء ، معاملة لاتليق بملك مخلوع أذله الزمن . ولم يراع يوسف بن تاشفين معاملته بما تستوجبه الشريعة من الرحمة بكبير أو عزيز في القوم خاصه الزمن وأذله . ويكفى أن نشير في وسط ذلك الكم الكبير من العاطفة الجياشة نحو المعتمد الذي تناول فيه أولئك المؤرخون والادباء حياته في النفس ، يكفى أن نشير الى عدة حقائق مؤلمة مرة منها أن المعتمد عاش للأسف الشديد طوال مدة النفس تلك في فاقة وعوز شديد ين وضيق عليه المرابطون الخناق وكفوا عنه أسبابا من المعيشة لاتليق حتى بلغ (من حال المعتمد على الله بأغصات أن أثر حظيانه وأكبر بناته ألجئت الى أن تستدعى غزلا من الناس . تسد بأجرته بعض حالها وتصلح به ما ظهر من اختلالها فأدخل عليها قيما أدخل غزل لبنت عريف شرطة أبيها ، كان بين يديه يزع الناس يوم بروزه لم يكن يراه الا في ذلك اليوم ^(٢)) هل كنا نصدق - لو لم يشر المعتمد نفسه لذلك ^(٣) - ان يبلغ ضيق ذات اليد والحال بالمعتمد وناته ان يعملن في الغزل والنسيج ؟؟ . وهل كنا نصدق أن تبلغ به وأبنائه الفاقة الى أن يعمل أبناءه في الحدادة أو الصياغة ؟؟ ^(٤) . هذا ما حدث فعلا ورواه المعتمد في أشعار باكية حزينة .

والحقيقة المؤلمة الثانية في نهاية المعتمد الفاجعة أن المعتمد عمول بقسوة شديدة من قبل يوسف بن تاشفين الذي كان يكن

(١) : ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ٥ ، ص ٥٨ - ٥٩ . - على أدهم :

المرجع السابق ، ص ٣٣٥ - ٣٣٦ .

(٢) : عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢١٧ .

(٣) : انظر ابن خاقان : القلائد ، ص ٢٧ - ٢٨ . - عبد الواحد المراكشي :

نفس المصدر السابق ، ص ٢١٨ .

(٤) : انظر المقرئ : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٣٦ - ٣٣٧ (نقلا عن ابن الليث)

(١) يكن له حتى وقت قريب كل امارات السود والاعجاب . ولكن هذا الاعجاب والود انقلب الى كره عميق وقسوة بالغة ليست مستساغة اطلاقا .
اذ يذكر المعتمد نفسه ان يوسف بن تاشفين لم يكف باذلاله بالعيشة الضنكة التي رتبها له وقبل ذلك نفيه واستيلائه على ملكه لم يكف بذلك بل وكبله بالاغلال والقيود ومعظم أيامه تلك زيادة فى اهانتة وذلك (٢) وهو موقف غير محمود من أمير المسلمين . وما يزيد الاستياء أكثر ان يوسف بن تاشفين قد صدر فى معاملته للمعتمد تلك عن تحيز وكره عصى . والا فما الفرق بين المعتمد وعبد الله وتميم ابني زيرى البربريين ؟؟ فقد عامل يوسف بن تاشفين عبد الله وشقيقه معاملة حسنة وفك اسارهما وأطلق لهما بعض أموالهما وأجرى عليهما رزقا كفاهما معيرة السؤال والاحاف . حتى ان عبد الله بن زيرى عاش عيشة هنية كما يقول هو نفسه وأنجب أولادا وبناتا ومات وقد ترك لهم ثروة لابأس بها (٣) . أما المعتمد فقد عامله بنفى ذلك كما رأينا وكذلك عامل أمراء بنى الافطس الذين قضى عليهم . مما جعل مسألة اتهامه بالتحيز والعنصرية مطروحة للتساؤل . بل وقد نقص احباب بعض المؤرخين بيوسف بن تاشفين لمعاملته القظة للمعتمد . حتى لقد حمل عليه بعضهم فى ذروة تعاطفه مع المعتمد بعبارات قاسية غير مستساغة . كما استغل المؤرخ الهولندى دوزى ذلك الموقف فاتهم يوسف بأنه كانت تنقصه فضيلة الشهامة ازاء المغلوبين .

على أنه يجب أن ننبه الى أن دوزى كان يصدر فى حكمه ذلك عن بغض يكاد يكون شخيصا ، لان اعجابه بالمعتمد بن عباد جعله يكره من خلعوه عن عرشه (٦) .

-
- (١) : كما جاء فى رسالة يوسف بن تاشفين الى المعز بن باديس امير افريقية المذكورة سابقا التى يدح فيها المعتمد ويثنى عليه .
انظر : محمد عبد الله خان : دول الطوائف ، ص ٢٤٦ - ٢٤٨ .
(٢) : انظر ، ابن خاقان : القلائد ، ص ٣٣ - ٣٤ . - رضا الحبيب السويى : ديوان المعتمد بن عباد ملك اشبيلية ، ص ١٧٦ .
(٣) : ابن الخطيب : الاحاطة فى اخبار غرناطة ، ح ١ ، ص ٣٨١ .
(٤) : نعتى بذلك ابن الاثير .
انظر النص فى كتاب : المعتمد بن عباد لعلى أدهم ، ص ٣٣٣ - ٣٣٤ .
(٥) : ملوك الطوائف ، ص ٣٦٤ .
(٦) : حسين مؤنس : بحث بعنوان : سبع وثائق جديدة ، ص ٥٧ .

والحقيقة الثالثة المؤلمة أنه حتى وإن كان للمعتمد أخطاء مميتة وقاتلة - وانها في بعضها كذلك - فإن الأمر يقتضى من الناحية الانسانية البحتة حسن المعاملة والحفاظ على الكرامة والعزة من أن تداس وتمرغ . هذا فضلا عن الناحية الدينية التى تفرض كما قلنا على الغالب معاملة المغلوب بالحسنى وتفرض كذلك الرحمة والرأفة به . ثم اذا كان يوسف ابن تاشفين قد أخذ على المعتمد استعانته بالنصارى وتأليبهم على المسلمين فيجب عليه حينئذ أن لا يفرق فى المعاملة بين أمراء وملوك الطوائف الذين وقعوا فى الخطأ ذاته ومع ذلك وضع يوسف بن تاشفين يده فى أيديهم . ونعنى بنو هود فى سرقسطة فقد صانعهم أمير المسلمين وهادئهم وهم الذين لم يستعينوا بالفرنسوف قط ، بل واستعانوا من قبل ومن بعد بممالك النصارى المجاورة كبرى وأرغونة وبرشلونة ، كما استعانوا بالسيد القبيطور لتحقيق أغراض ذاتية ضيقة كما قلنا . ومع هذا فقد صانعهم يوسف بن تاشفين وهادئهم وأبقى على ملكتهم بل ومعت للمستعنين بنو هود يطمئنه ويهدئ من روعه ^(١) . وألح على ابنه وولى عهده على أن يصانع أمراء سرقسطة ويهادئهم حتى يكونوا فيصلا وحاجزا بينه وبين النصارى ^(٢) . وفى هذا ما يثير التساؤل من أن يوسف بن تاشفين كانت تحركه أغراض أخرى غير الدوافع الدينية . والا ألم تكن قوة المرابطين الفتية بقيادة على مواجهة ممالك النصارى والوقوف أمامها وجها لوجه مطمئنة هذه المرة على نفسها من أن تطعن من الخلف أى من ملوك الطوائف الذين انمحق أثرهم وذهب رسمهم ؟ ؟

والحقيقة الرابعة أنه لم يكن هناك مبرر لتلك القسوة حتى من الناحية الأمنية المحضة . فالمعتمد لم يكن له ثقل سياسى أو عسكرى فى الاندلس يخشى منه . ومعنى آخر لم يكن المعتمد حاكم عموم الاندلس الذى تجمعت القلوب حوله . فالمعتمد لم يزد على أن يكون

(١) : كما تشير الى ذلك الخطابات المتبادلة بين يوسف بن تاشفين والمستعنين بنو هود

التي تطمئن المستعنين ، وتظهر رضا يوسف عليه .

انظر ، مجهول : الحل الموشية ، ص ٥٩ - ٦١ .

(٢) : انظر ، محمد عبدالله عان : دول الطوائف ، ص ٣٧٢ .

أحد ملوك تلك الممالك الكثيرة التي كانت تموج بها الاندلس وقتها .
نعم هو أعظم ملوك الطوائف ودولته كذلك ولكنه في كل الأحوال لم يكن
الاحكاما إقليميا لمنطقة معينة من الاندلس لم تكن هي نفسها تكن البوذة
والمجبة للمعتمد وآله . اذاً فليس هناك ثقل سياسى أو عسكرى يخشى
منه يوسف بن تاشفين فيضطر حذرا الى معاملته بتلك القسوة وافهيام
مؤيدى المعتمد بمقم جدوى التفكير بأى محاولة لاعادة سلطانه وسيطرته
على أراضى مملكته الذاتية . بل ان الرعية رغم ما أظهرته من تعاطف مع
المعتمد عند خلعهم وخروجه من طصته كانت تتوق الى التخلص من
العباديين ومن كل ملوك الطوائف جملة وتتوق أيضا الى الانضواء تحت
السلطة الاسلامية العادلة الجديدة (١) . حتى ثورة ابنه عبد الجبار فى آرکش
لم يكن لها أى مضمون سياسى واسع . صحيح ان عبد الجبار استطاع
أن يجتذب اليه أعدادا كبيرة من المؤيدين والمنافحين ولكنه لم يدع يوما
من الايام باسم أبيه ولم تكن ثورته على عنفها لتؤلب الاندلسيين جميعا
ضد المرابطين وتفرض على يوسف كارها أن يطلق سراح المعتمد ويعيده
الى عرشه مثلا . فهى مجرد فقاعة توفيرة غضب لم تلبث يسيرا حتى تلاشت
بمقتل عبد الجبار . ومع هذا فقد عمل المعتمد بعد ثورة ابنه معاملة
اقسى كثيرا من سابقها (٢) .

وعلى أى الأحوال فقد ظلت هذه المعاملة القاسية
المهينة للمعتمد تاريخ يوسف بن تاشفين المشرق وسجله الناصح بظلال
قائم دأكن . وقد شقى المرابطون كما يقول عبد القادر زمامة بقضية المعتمد
وكيل لهم بالحق والباطل مانشاهده فى آثار الاقلام الشرقية والغربية (٣)
وغدت مسألة تلك المعاملة جزءا لا يتجزأ من تاريخ يوسف تواجه كل من
تعرض لتاريخ يوسف بن تاشفين بالكتابة والقراءة ، أو تعرض للأحداث
السياسية التى لازمت سقوط ممالك الطوائف .

(١) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣١ . — عبدالله بن زيرى : المصدر

السابق ، ص ١٠٩ .

(٢) : على أدهم : المرجع السابق ، ص ٣٠٧ .

(٣) : عبد القادر زمامة : مقال بعنوان المعتمد بن عباد فى المغرب ، مجلة تطوان ،
العدد الخامس ، السنة ١٩٦٥ م ، ص ٣٠٣ .

وقد حمل بعض من المؤرخين والادباء قد يما وحده يشا
على يوسف بن تاشفين واتهموه بأوصاف نابها أن نضمها رسالتنا ، ومن
هؤلاء المؤرخين القدامى ابن الاثير الذى أساء الى يوسف اساءة بالغة .
ومن المستشرقين دوزى (٢) أما من الأدباء المحدثين فقد كتب الشاعر المصرى
احمد شوقى مسرحية شعرية عنوانها (غانية الاندلس) تتعرض لنكبة
المعتمد ونفيه فى عبارات يشوبها التهكم والحقده على المرابطين ويوسف
ابن تاشفين بالذات .

وقد انبرى بعض الادباء والمفكرون المنابر حديشا الى
الرد على اولئك الذين اتهموا يوسف بن تاشفين . فقد كتب مصطفى القصرى
مقالا فى مجلة : البحث العلمى المغربية عنوانه : الشعر فى خدمة الحقيقة
والتاريخ ، وقد انصب فى أساسه على الرد على أحمد شوقى الذى كتب
مسرحية غانية الاندلس وعاب عليه أن يسخر الفن لخدمة الفن وحده
بدلا من أن يسخره لخدمة الحقيقة والحياة . وكانت مناسبة هذا المقال
هو أنه أقد عرضت فى مدينة مراكش عام ١٩٣٣ م مسرحية غانية الاندلس
على مسرحها الشعبى . فانبرى شاعر مراكش آنذاك محمد بن ابراهيم
الى الرد على شوقى ، فكان من جملة ما نظم متعرضا لمحنة المعتمد :

بنى العرب أوطانا بنى الشرق وحدة	بنى الضاد ، أبناء الحنيف بنى المجد
يعز علينا القصر يفقد مجده	ويمسى ابن عباد به نحس السعد
يعز علينا أن نراه مصفدا	يساق الى أغمات يوسف فى القيود
ولكن لنصر الدين دين محمد	وانقاده من بؤرة الهلك والنكد
نضحى بعباد وآخر كابنه	ومثله ممن لا يفيد ولا يجدى (٣)

وقد أوجت هذه الأجواء لمصطفى القصرى كتابة مقال المذکور ،
وقد تناول مسألة معاملة يوسف للمعتمد بالتحليل والتعليل . وقد أورده

(١) : انظر النص فى الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٣٦ .

(٢) : انظر قبل ، ٣٨ ، ٣٩ .

(٣) : مصطفى القصرى : مقال بعنوان الشعر فى خدمة الحقيقة والتاريخ ، مجلة

البحث العلمى المغربية ، المركز الجامعى للبحث العلمى ، العدد الاول ،
السنة الاولى ، ابريل ١٩٣٤ ، ص ١١٢ - ١٢٨ .

نقاطا مهمة جيدة تساؤلها في معرض حديثه عن نية يوسف في خلع ملوك الطوائف جملة بما فيهم المعتمد ، فقد قال (ولما تحقق المعتمد من نوايا يوسف لم يقل مرة ثانية بأنه يفضل : رعى الجمال عند أمير المسلمين على رعى الخنازير عند ملوك النصارى ، بل فضل رعى الخنازير واستنجد بالفونسو الذي ما كان أسرعه لتلبية طلبه ^(١) ، ومن هذه النقاط أيضا التي أخذها القصرى على المعتمد - وهو على حق في هذا - متفاخر به المعتمد ذات مرة :

واغدوا الى فعل المعاصى مهرولا وان أطلب الطاعات فالقيد فى رجلى ^(٢)

ومع هذا فان القصرى لم يتخلل عن مفرطته فى معرض تحليله لهذه القضية ، وكان عليه أن ينظر للأمر من كل جوانبه كما نزعم أننا قد فعلناه .

بقى أن نشير أخيرا الى حياته البائسة فى المنفى ، فقد رصدتها كتب الادب قد يما وحد يثا بدرجة أوسع ورصدتها كتب التاريخ بدرجة أقل ، كما أنكت حياته هذه شاعريته وأجبتها . وقد نفى كما ذكرنا الى أغصان وأقام فيها كما يقول على أد هم ^(٣) (أسيرا قد ضيق عليه ، كاسف البال كسير القلب ، يسام سوء المعاملة ويتجرع مر الهوان وتزدحم على خواطره الهموم ، وتطوف به ذكريات ملكه السابق ومجده السالف ، وليس الى جانبه صاحب ولا خد ين يفضى اليه بالأمه ومواجهه ، ويطارحه الحديث الذى يرفه به عن نفسه ، ويخفف من أساه ولوحه ، ولكنه مع ذلك كان يتجلك ويماسك ، ويتذرع بالصبر) .

ومما كان يؤنس وحشته ووحدته زيارة بعض من شعراء دولته الأوفياء الذين أذهلتهم نهايته وأدهشتهم مخنته ، فقد موا عليه فى ظل تلك الظروف الدقيقة الحرجة ، ووفدوا عليه (وفادة وفاء لا وفادة استجداء ^(٤)) ، فمدحوه وشهدوا من روحه المعنوية وعزيمته . وتكررت

(١) : انظر ، مصطفى القصرى : المقال السابق ، ص ١١٤ ،

(٢) : انظر ، مصطفى القصرى : نفس المقال ، ص ١٢٨ .

(٣) : المرجع السابق ، ص ٢٩٢ .

(٤) : ابن خلكان : المصدر السابق ، ص ٣٤ - ٣٥ .

زيارات بعض منهم له . كالشاعر ابو بكر الداني المعروف بابن اللبانة الذي ألف كتابا في أيام بنى عباد والبقاء على انتشار نظامهم وضمنه مقطوعات شعرية في رثائهم ومدحهم وسماه " نظم السلوك في مواظب الملوك " ، كما ألف كتابا آخر غيره هو كتاب " سقيط الدر ، ولقيط الزهر " وكلها كتب مفقودة للأسف تعرضت لتاريخ بنى عباد من نشأة دولتهم حتى نهايتها . وكانت ويارات هؤلاء الشعراء الاصفياء توقد ليله القاتم وتبعث فيه ضياءا مألقا لا يلبث أن يخبو سريما بعد مفارقتهم اياه .

وعندما أحس بنهايته وشعر بدنو الاجل نظم قصيدة

باكية أمر بكتابتها على قبره ويقول مطلعها :

(١)

قبر الفريب سقاك الراح الفادى حقا ظفرت بأشلاء ابن عباد

ولن نمضى طويلا في تتبع أيامه الاخيرة فقد رصدتها كتب الادب والتاريخ قد يما (٢) وحديثا كما قلنا ، وكان فيها من المأسى والفاجعات ما لا تحتاج معه الى خيال ناثر ومهالفة شاعر .

وتوفى المعتمد اخيرا في شهر شوال عام ١٠٩٥/٥٤٨٨م

وكانت جنازته متواضعة مهسية . وكان من المفارقات كما يقول ابن بسام (من النادر الفريب أنه نودى في جنازته بالصلاة على الفريب بعد عظيم سلطانه وجلالة شأنه فبارك من له البقاء والعزة والكبرياء) (٣) وقد ظل قبره لفترة من الزمن مزارا لعدد كبير من محبيه على مر العصور (٤)

(١) : رضا الجيب السويسى : المرجع السابق ، ص ١٨٧ .

(٢) : للاطلاع على مزيد من حياة المعتمد فى المنفى تراجع الكتب التالية :-

- ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ٤٦-١٩٤

والقسم الرابع ، المجلد الاول ، ص ٤٦-٦٧ . - ابن البار : المصدر

السابق والجزء ، ص ٥٨-٧٠ . - المقرئ : المصدر السابق ، ج ٦ ،

ص ٢٠٣-٢٣٨ . - ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٧٤٨-

٢٥٠ . - ابن الخطيب : الاحاطة فى اخبار غرناطة ، ج ٢ ، ص ١١٢-١٢٠ .

- رضا الجيب السويسى : المرجع السابق ، ص ١٤٧-١٩٤ . - صلاح خالص :

المعتمد بن عباد الاشبيلية ، ص ١٨٢-٢٥٠ . - على أدهم : المرجع السابق ،

ص ٢٨٥-٣٢٧ . - عبد الوهاب غزام : المرجع السابق ، ص ٧٢-٨٤ . -

مصطفى الشكعة : الادب الاندلسى ، موضوعاته وفنونه ، ص ٥٣٣-٥٤٠ .

(٣) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ٤٦ .

(٤) : المقرئ : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٣٧-٢٣٨ ، و ص ٣٥٦-٣٥٧ .

القضاء على ممالك : ألمرية ، وبطليوس ، وسرقسطة ، وبلنسية
وغيرها من ممالك الطوائف :-

وأخيرا فلن نمضي طويلا في تتبع مجريات سقوط بقية ممالك
الطوائف الاخرى ، فلننا معنيون بهذا من جهة ، ومن جهة أخرى
لم تمن كتب المؤرخين القدامى في استقصاء ذلك ، فقد اكتفت في معظمها
بتتبع سقوط مملكة اشبيلية بحكم عطفهم على المعتمد من جهة ، وبحكم
أهميتها القصوى دون هذه الممالك من جهة أخرى . ومع ذلك فادبا نشير
في اقتضاب بالغ الى أن المرابطين استطاعوا القضاء على استقلال مملكة
ألمرية في اعقاب سقوط اشبيلية مباشرة ^(١) ، كما استطاعوا أن يسقطوا
الامارات الصغيرة في شرقي الاندلس ويضموها الى نفوذهم في عامي
٤٨٤ و ٤٨٥ هـ / ١٠٩١ - ١٠٩٢ م . ثم سقطت مملكة بطليوس بيد المرابطين
في عام ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م بعد أن حاول المتوكل بن الافطس الاستعانة
بالفونسو شأنه شأن المعتمد فلم يفده ذلك . ولم يستطع الفونسو أن
يقدم مساعده له . وقد سقطت بطليوس بيد المرابطين وقبضوا على
ملكها ثم ما لبثوا أن قتلوه هو وولده . وسقوط بطليوس بيد المرابطين
انضوى كل غرب الاندلس تحت سيادة المرابطين ^(٢) .

ولم يبق من ممالك الطوائف في الاندلس التي لم تقع
تحت سلطة المرابطين سوى مملكتي بلنسية وسرقسطة . أما سرقسطة
فقد أراد المرابطون الإبقاء عليها كحاجز يفصل بينهم وبين النصاري كما
أشرنا . وكان هذا من حظ أميرها الذي كان يهدد النصاري بالمرابطين
ويهدد المرابطين بالنصاري ^(٣) . ولم تسقط مملكة سرقسطة بيد المرابطين

-
- (١) : ابن الأبار : المصدر السابق ، ص ٨٨ - ٩٠ .
(٢) : انظر ، محمد عبدالله غان ، ص ٣٦٦ .
(٣) : انظر ، عبدالله بن زيري : المصدر السابق ، ص ١٧٢ - ١٧٤ .
محمد عبدالله غان : نفس المرجع اعلاه ، ص ٣٦٨ - ٣٧٠ .
(٤) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٦١ .

(١) الا فى عام ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م ، وان بقى بعض أبناء المستعين بن هود يتولون بعض حصون مملكتهم النسيمة حتى عام ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م عندما أجبر النصارى هؤلاء على اخلاء ذلك المعقل ، وهو مدينة روطنة (٢) فى الثغر الأعلى .

أما بالنسبة فقد تعرضت وقتها لخطوب كثيرة ومحن شديدة أكثر من أى مملكة من ممالك الطوائف الأخرى . وجعلها السيد القبيطور حلبة لممارساته العدوانية وهجماته المركزة . وقد ثارت ثورة ضد القادر حاكمها وذهب ضحيتها أخيرا ، ثم تولى إدارة شؤونها القاضى ابن جحاف أحد أعيان بيوتاتها وقاضيهما آنذاك . غير أن السيد القبيطور استطاع فى ذروة انشغال يوسف بن تاشفين بملوك الطوائف الاستيلاء على بنسية والقبض على القاضى ابن جحاف ثم أحرقه بعد ذلك فى حادثة قل نظيرها فى التاريخ البشرى عموما . وأصبح هو حاكمها المطلق (٣) .

ولسنا هنا فى صدد شرح الاحداث التى وقعت بعد ذلك . فما يهنا هو الاشارة الى أن يوسف بن تاشفين لم يستكن الى الدعة تاركا بنسية تقع تحت يدى السيد القبيطور . فلم يكن حال يوسف بن تاشفين كذلك ولكن انشغاله بتصفية ممالك الطوائف حال دون تقدمه اليه العمون لها . ومع هذا فقد بحث بقواته لمساعدة القاضى ابن جحاف حاكمها الجديد . وابتدأت محاولات المرابطين لنجدة بنسية فى شكل كئائب وفرق قليلة العدد حتى توجه الجيش المرابطى برمه بعد أن انتهى من قضية اقضاء ملوك الطوائف واستطاع هذا الجيش بقيادة الأمير مزدلى الاستيلاء على بنسية من يد زوجة السيد القبيطور الذى كان قد توفى قبل ذلك . وكان تاريخ سقوط بنسية فى يد المرابطين عام ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م .

- (١) : محمد عبدالله خان : دول الطوائف ، ص ٢٩١ - ٢٩٣ .
(٢) : روطنة Rueda : فى التقسيم الادارى الاندلس كانت تابعة لمدينة سرقسطة (الثغر الأعلى) وهى اليوم تابعة لمدينة وشقة Huesca .

انظر ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ٢ ، ص ٢٤٦ .

- (٣) : حسين مؤنس : السيد القبيطور وعلاقته بالمسلمين ، المجلة التاريخية المصرية ، ص ٥٦ - ٦١ .

(٤) : يراجع فى اخبار بنسية واستيلاء السيد القبيطور عليها : ———

وهذا الاستيلاء على بلنسية دانت معظم الاندلس الاسلامية الى دولة المرابطين الفتيحة وأصبحت المدوتان المغربية والاندلسية دولة واحدة عاصمتها مراكش .

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

وهكذا سقطت ممالك الطوائف صريعة تصرفات ونزق ملوكها . وسقطت صريعة أهوائها الاقليمية الضيقة . ومطامعها التوسعية التي لا تهدف الا الى امتلاء جيوب ملوكها وأمراءها فقط . والواقع أن القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى يعتبر من القرون الفاصلة فى تاريخ شبه الجزيرة الايبيرية بقسميها الاسلامى والمسيحى . ولقد شهد أحداثا جساما ، وترتب على كل حدث من هذه الاحداث نتائج خطيرة . فلقد شهد هذا القرن زوال الدولة الأموية التي بسطت سيطرتها المركزية على معظم أجزاء شبه الجزيرة الايبيرية فى معظم الأوقات وكانت النتيجة المباشرة لهذا أن تصدعت وحدة الاندلس ولم تعد قط حتى فى ظل المرابطين والموحدين الى سابق وحدتها وتماسكها . وكانت النتيجة التالية لسقوط الدولة الأموية هى ظهور ممالك الطوائف التي دخلت فى منازعات مع بعضها البعض ، وشغلت أحداثها ومشكلاتها بلاد الاندلس منذ سقوط الدولة نهائيا عام ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م وحتى نهاية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى . وشهد هذا القرن أيضا اشتداد ساعد الممالك النصرانية وظهور معظمها كامارات مستقلة مارست كل واحدة منها سياسة الاسترداد منفردة فى أحيان كثيرة . ومجموعة فى أحيان أخرى فى الأقل . وكان من جراء قيام ممالك النصارى كدول مستقلة أن وضعت هذه الممالك سياسة الاسترداد نصب عينها . ودخلت فى نزاع مع ممالك الطوائف المتفككة المتنازعة وأدى هذا فى النهاية الى حدوث مضاعفات خطيرة لهذا التدخل الذى أدى

== ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس ، الفصل السادس ، والفصل السابع . مع الحواشى . - حسين مؤنس : نفس البحث اعلاه ، المجلة التاريخية المصرية ، ص ٣٧ - ٨٤ مع الحواشى . - محمد عبد الله غان : دول الطوائف ، ص ٢٣١ - ٢٥٢ مع الحواشى . - شكيب أرسلان : الحلل السندسية ، ج ٢ ص ٤٢٥ - ٤٢٦

بدوره في النهاية الى تدخل المرابطين ، وكان هذا تحولا عظيما في سير الحوادث أيضا . فقد أدى هذا الى أن تقع بلاد الاندلس لأول مرة تحت السيادة المغربية وأدت تبعيتها السياسية للمغرب هذه الى أن تدخل طرفا في نزاع المرابطين مع خصومهم الموحديين في المغرب ، ولذا فعندما مالت الكفة لصالح الموحديين في المغرب ، دخلت الاندلس في تبعيتهم السياسية حتى سقوط دولتهم في المغرب . وفي خلال ذلك كانت القوى السياسية النصرانية تعمل جاهدة على استرجاع الأراضي والاصقاع شيئا فشيئا من يد المسلمين حتى انتهى بهم الأمر أخيرا الى أن سقطت الاندلس الاسلامية في أيديهم نهائيا في نهاية القرن الثامن الهجري / الخامس عشر الميلادي .

وإذا ذهبنا نتقصى أخطاء ملوك الطوائف والأسباب التي أدت الى سقوط دولتهم ، فاننا نشير الى أن قدر الاندلس بحكم جغرافيتها وحكم وضعه الاجتماعي هو الوحدة . والوحدة المركزية المستندة على قوة حكم مركزي ، أما التفتت والتجزؤ فهو شيء شاذ ، فالقاعدة هي الوحدة وما عداها هو الشاذ . أما عن أخطاء ملوك الطوائف التي أسهمت في التمجيل بسقوط دولهم فهي عديدة ولن نجد في هذا المقام أبليغ من عبارات مصطفى الشكعة في وصف ملوك الطوائف ان يقول (لقد اسقطوا أنفسهم بأيديهم وليس بأيدي أعدائهم ، لأن الذي يعطى عدوه وسائل الغلبة ويسلمه أدوات الانتصار بتصميمه على بث التفرقة وانماء التباعد ، وتوسيع شقة الخصام ، ومحاربة أخيه وابن عمه والاعتداء على بني قومه في غر دارهم ، والتوسع على حسابهم فتحا وأرضا عوضا عن أن يبسط يده للاتحاد ويفتح قلبه للحب ويشد أزر أخيه ويؤلف قلبه ، وينطلق الجميع صفا واحدا لحرب العدو . أقول أن الذي يصنع ذلك باشمال نار الفرقة واشاعة روح البغضاء ، وإثارة الحرب بين الاهل ، والانصراف عن مد جسور المودة والمحبة بينهم فضلا عن ايقاع الظلم والكت بمواطنيه وقرض الجور والظفيان على محكوميه ومصادرة حرياتهم وسلب أموالهم وفرض الحرمان والفقر عليهم فرضا . نقول ان مثل هذا الحاكم يكون هو نفسه صانع الهزيمة بقومه ، ويكون هو نفسه مقدم النصر هدية لاعدائه

وأعداء قومه ، ولقد فعل بعض زعماء المسلمين ذلك في الاندلس ،
فضاعت الاندلس بمجدها ، وباء المتعاصون أو الظالمون من زعمائها
بمار الهزيمة ولعنة التاريخ (١) .

كما لن نجد في وصف حالة البذخ واللهو التي كان
عليها ملوك الطوائف أفضل من عبارات السياسي الاديب الفقيه
ابن حزم فيما ينقله عنه محمد كرد على عندما يصف انشغال هؤلاء
في اللهو (وهمة أحدهم كأس يشربها ، وقينة تسمعه ، ولهو يقطع
به أيامه) (٢) ، كما لا نجد أفضل من كلام ابن بسام فيما ينقله عنه
حسن محمود في شرح واقع ملوك الطوائف (ولم يزل ادبارهم على
ما ذكرت يستشري ، وغارب بعضهم على بعض تدب وتسرى حتى أذن
الله لأمير المسلمين رحمه الله في افساد سعيهم وحسم أدواء بنفيهم
والانتصار لكواف المسلمين من فعلهم الذميمة ورأيهم ، فجعلت البلاد
عليه تنثال والمنابر باسمه تزهر وتختال واستمر ينشر نجومهم
ويطمس رسومهم (٣) .

وفي الحقيقة ان كل شيء كان يؤذن بالخطر في
شبه الجزيرة الايبيرية منذ زمن طويل وحتى قبل سقوط طليطلة
وما أدى ذلك الى احداث متعاقبة انتهت بسقوط ممالك الطوائف . ذلك
لأننا لو عدنا قليلا الى الوراء ، لهالنا أن نعترف بأن حادثة سقوط
طليطلة وما تبعها من احداث جسام كانت ستحدث في عهد الملك
فرديناند الأول والد الفونسو السادس .

فلقد رأينا هذا الملك يشدد ضغطه على ممالك الطوائف
ولاسيما الكبرى منها ، ويلعب بورقة المساعدات والاستعصاخ به للحصول
على ما يريد . وبدأ يترجم في كثير من أعماله وغزواته ضد المسلمين
لما رسمه من سياسة واضحة تهدف الى استرداد أراضي الآباء

(١) : الادب الاندلسي ، موضوعاته وفنونه ، ص ٥٠٧ - ٥١٠ .

(٢) : الاسلام والحضارة العربية ، ط ٣ ، ج ١ ، ص ٢٦٦ .

(٣) : قيام دولة المرابطين ، ص ٢٩٧ .

والأجداد ، وكانت حراجة الوقت وبقوة الظروف فى ذلك الوقت تنذر بالخطر المائل المحدث ، ولكن العناية الالهية أخرت أو أجلت ذلك السقوط بوفاة فرد يساند نفسه ، فتتفلس المسلمون الصعداء .

وقد وثق فرد يساند فى نفس الخطأ الذى وقع فيه أبوه سانشو العظيم من قبل وهو تقسيمه مملكته بين ابنائه كما ذكرنا سابقا . وقد استقر الأمر أخيرا بعد خطوب كثيرة لألفونسو السادس وغدا بعد ذلك الملك الأقوى والأكثر نفوذا فى اسبانيا كلها بعد أن انضوت تحت حكمه معظم مملكة أبيه ، وأصبح خطره يلاحق كل ملوك الطوائف . واختط لنفسه كما قلنا سياسة تقوم على تجويع أعدائه واقتصاص قواهم العسكرية والمالية حتى يسهل عليه بعدئذ الانقضاض عليهم وذلك رأياه ينفذو بكل أسى الشخص الوحيد فى الاندلس القادر على فرض رأيه ، أو قل رغباته بمعنى أدق .

والواقع أن تلك الفترة من تاريخ اسبانيا كانت مضطربة شديدة الاضطراب ، فكما أن الاندلس الاسلامية كانت تعاني من الانقسام والتفتت والتجزؤ ، كانت ممالك النصارى تعاني من الحروب الاهلية العائلية ، ويعانى سكانها كثيرا من المصاعب والمقاعب التى جرت بها عليهم هذه الحروب . فاذا كان ملوك الطوائف قد دخلوا فى نزاعات مسلحة مع بعضهم البعض للفوز بأكبر قدر من الأراضى والاصقاع فان الممالك النصرانية دخلت هى الاخرى فى احداث أخطر وهى الحروب الاهلية المدمرة بين الأخ وأخيه .

ونحن اذا أردنا أن نتقصى السياسة التى سار عليها الفريقان المتنازعان ، فلا يمكننا أن نتفاضى عن أخطائهما السياسية . ولا يمكننا ألا أن نؤاخذ كلا الفريقين على سياستيهما تلك . فملوك الطوائف دخلوا فى حروب واقتتال على حساب أراضى بعضهم البعض . وكان هذا خطأ استراتيجيا صرف أنظارهم عن الحقيقة الكبرى وهى أن الوجود الاسلامى أصبح فى كل بقعة محاطا بالأعداء النصارى المترصين بالمسلمين ولانقضاض على أراضيهما وانتزاعها منهم القطعة تلو القطعة .

وكان الخطأ الاستراتيجي الثاني الذي وقع فيه ملوك الطوائف هو الاستعانة بالنصارى ضد بعضهم البعض ، إذ انعدم عندهم كل شعور بالايمان والوطنية ، وندر لديهم كل احساس باستشعار الخطر الآتي من الشمال . واهتموا بالصفائر والترهات والرغبات الجامحة للتوسع على حساب بعضهم البعض . ونسوا في غمار ذلك أو تناسوا كما قلنا عدوهم اللدود المتبرصين بهم . وكانوا لا ينظرون الى أبعد من أنوفهم ، ففرقت كلقتهم وتمزق شملهم . وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل سموا بكل ابتذال الى الاستعانة بالنصارى كما قلنا في سبيل الوصول الى هدف شخصي ضيق محدود ، وسمحوا لأنفسهم على موافقة النصارى على ما يطلبونه شريطة مد يد المساعدة لهم ، واستساغوا التفريط في القلاع والحصون وتسليمها للنصارى في سبيل تلك الاهواء والاغراض الشخصية . فعلوا ذلك دون أن يرف لهم جفن حياء أو دون أن يعقد لهم حاجب خجل انتصارا للاسلام والعزة الوطنية . وهانوا على أنفسهم فسهل على النصارى اهانتهم واذلالهم ، وانتهى بهم الانحطاط الى الترامى على أحباب ملوك النصارى فاستحقوا قسوة ابن حزم الفقيه الاندلسي عليهم عندما قال فيما ينقله عنه محمد عبد الله عنان (والله لو علموا ان في عبادة الصليبان تمشية أمورهم لبادروا اليها ، فتحسن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسارى الى بلادهم وربما يجمونهم عن حريم الأرض وحشروهم معهم آمنين ، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعا ، فأخلوها من الاسلام ، وعصروها بالنواقيس ، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفا من سيوفه)^(١) .

ونعتقد أن في رأى ابن حزم هذا وقسوته عليهم مالا حاجة بعده الى الاسترسال في ذكر أخطائهم السياسية والدينية والوطنية . أما ممالك النصارى فكان من الممكن لها أن تحقق ماتريد لو لم يقع ملوكها في أخطاء سياسية تماثل بعض الأخطاء التي ارتكبتها

(١) : دول الطوائف ، ص ٤٢٢ .

ملوك الطوائف المسلمين • فان المتروصد لاحداث تلك الفترة يلاحظ أن ممالك النصارى لم تكن بأحسن حالا من ممالك المسلمين • فقد اضطرتهم الخلافات بينهم الى أن يطلبوا العون والمساعدة من المسلمين • أعدائهم مما يعنى أنهم لم يكونوا أصدق حسا فى وطنيتهم من المسلمين • ومعنى هذا أيضا أنه لم تكن تحركهم الفيرة الوطنية فقط • بل كانت الأثرة والأهواء الشخصية تلمب دورا مؤثرا • وكأشلة على ذلك أن غارسيا وراميرو أبناء سانشو العظيم شقيقى فرديناند طلبا المساعدة والعون من المسلمين • ورأينا الفونسو السادس كمال آخر يلجأ الى بلاط المأمون ابن ندى النون • ويلتجئ أخوه غارسيا الى بلاط المعتمد بالله •

ونحن هنا نتفق تماما مع على أد هم فى تحليله لأحداث تلك الفترة المضطربة من تاريخ أسبانيا كلها • اذ يقول - ونحن معكم فى أن الظرف السياسى فى الصراع الدائرين أسبانيا الاسلامية وأسبانيا النصرانية كان متوقفا على من من الفريقين المتخاصمين يسبق الآخر الى لم الشعب وتوحيد الجهود • ورض الصفوف • وجمع القوى (١) •

ومع ذلك فاننا نمترب بأن ملوك النصارى كانوا أكثر وعيا وفهما لحقيقة الصراع بينهم وبين المسلمين • فقد كانوا يرون فيها مسألة حياة أو موت • وقضية كرامة وعزة كما هى قضية أرض وتراث شرعى لهم وقع غصبا فى يد أجنبية وعليهم أن يرفعوا عنها تلك اليد (٢) • ولذلك فقد جاءت تحالفاتهم التى اضطروا اليها اضطراارا تخدم بلفتة هذا العصر الناحية التاكتيكية وليست الاستراتيجية • ولا يقلل من قيمة هذا الجهد ظهور الرغبات الشخصية والأهواء الذاتية فى سلوكيات بعض من ملوكهم وأمراءهم • ولذا فعندما أتحت لهم الفرصة لرض الصفوف وتوحيد القلوب بادروا مدفوعين بتلك الرغبات الجامحة الى الانقضاض على المسلمين وانتزاع أراضيهم • ولقيت حماستهم الدينية أصدا • واسعة من الترحيب فى اوربا • فانبهر هؤلاء يقدمون لهم العون للاسهام فى ذلك الواجب الدينى كما حدث فى أحداث برشتر • وعندما ساعدت مجموعة من الاوربيين الفونسو السادس فى حصاره لطليطلة • وعند حدوث موقعة الزلاقة وما بعدها •

(١) : المعتمد بن عباد ٥ ص ١٩٣ •

(٢) : نفس المرجع والصفحة •

(الباب الخامس)

أهم مظاهر التطور الحضارى فى اشبيلية فى عهد بنى عباد

- نظم الحكم
 - الحياة الاجتماعية
 - الحياة الاقتصادية
 - الحياة العلمية والأدبية
 - الممران
-

نظم الحكم

أولا : النظم السياسية :-

لم تكن النظم السياسية فى مملكة اشبيلية تختلف كثيرا عن بقية النظم السياسية فى ممالك الطوائف الأخرى . فقد كان يجمع تلك الممالك التى بلغ تعدادها أزيد من عشرين دولة نظم حكم متطابقة ، وهى النظم التى كانت سائدة بصفة عامة فى الدولة الأموية فى الأندلس^(١) ، على أن مملكة بنى عباد تميزت هى ومملكة قرطبة فى مبدأ نشأتيهما بنظم حكم جديدة لم تألفها الدول الإسلامية ليس فى الأندلس فحسب ، بل وفى المشرق الإسلامى أيضا .

أ - نظام الحكم الرئاسى القائم على الشورى :

ان مما يشهد الانتباه ، أن نشهد قيام نظام متطور فى مملكة اشبيلية وقرطبة . ان قام فيهما خاصة بنظام حكم رئاسى يقوم على الشورى . وهى خطوة سياسية حضارية رائدة نالت وقتها الكثير من الثناء والاعجاب وان لم يكتب لها الاستمرار للأسف ، كما لم يكتب لها أن تسمى الممالك الإسلامية الأخرى فى الأندلس .

ولقد أعطى هذا النوع المتطور غير المألوف من نظم الحكم وقتها نتائج بالغة الأهمية فى تلك الملكتين الناشئتين . وان كانت هذه النتائج أبرز وأوضح فى مملكة قرطبة منها فى مملكة اشبيلية . ان أحسن السكان تلك النتائج فى حياتهم المعاشية اليومية كما تذكر

(١) : عن نظم الحكم فى الأندلس فى عهد الدولة الأموية ، أنظره هشام سليم عبد الرحمن أبو رميلة : نظم الحكم فى الأندلس فى عصر الخلافة ، رسالة ماجستير قدمت الى كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥ م (لم تطبع) .

كتب التاريخ نقلاً عن ابن خيكان المعاصر وغيره من تبدل نحو الأحسن والأصلح^(١) . ولم يكن انفراد رئيسى قرطبة واشبيلية بالسلطة العليا التنفيذية فى ذلك النظام الرئاسى الشورى ليؤثر من بعيد أو قريب فى الحياة المعيشية للسكان ، مع ما فى ذلك من تكاسل لتلك الخطوة الحضارية الرائدة .

غير أن هذا النظام المتطور لم يكتب له الاستمرار كما أسلفنا . وإذا كان قد ظل ينظر اليه طويلاً فى مملكة قرطبة على أنه حكم رئاسى شورى متميز ، إلا أنه لم يكتب له الاستمرار فى اشبيلية نفسها . إذ أنه استمر قائماً فى قرطبة منذ خلمت طاعة بنى أمية نهائياً فى عام ٤٢٢ هـ وحتى وفاة الرئيس أبى الحزم ابن جهور عام ٤٣٥ هـ . وعند ما توفى الرئيس أبى الحزم لم يسم خليفة له . وفى هذا ما يعنى أنه لم يكن ينظر الى الحكم وكأنه ارث شرعى ، بيد أن الاهمال وقد رأوا ما تحقق لمملكتهم على يد رئيسهم الراحل من رخاء ومجوعة ، فضلاً عما يتمتع به ابنه أبى الوليد محمد بن جهور من صفات الصلاح والرشاد ، ندادوا بتعيينه خلفاً لأبيه^(٢) . على أن ما تجدر الإشارة اليه أن هذه الظاهرة هى أول وآخر سابقة فى حياة قرطبة ، إذا غدا نظام الحكم بعدها ورائى عائلى شأن ممالك الطوائف الأخرى .

أما مملكة اشبيلية فلم يطل بها عمر ذلك النظام ، الشورى طويلاً ، إذ سرعان ما ضاق القاضى محمد بن اسماعيل كما أسلفنا ذرعاً بأعضاء المجلس الرئاسى ، فعمل من ثم على تقليص نفوذه شيئاً فشيئاً حتى اضمحل شأنه تماماً ، فانفرد القاضى بالأمر وحده^(٣) . ومع هذا لم يتخل (عن رسم القضاة ، ولم يتسم بسمة الملك) . على أنه كان من الواضح جداً رغم

(١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الثانى ، ص ١١٤ -

ص ١١٢ . - ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، ص ٣١ - ٣٢ .

ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٨٦ - ١٨٧ . - الضبى :

المصدر السابق ، ص ٣٥ (نقلاً عن الحميدى فى جذوة المقتبس) .

(٢) : انظر خالد الصوفى : المرجع السابق ، ص ٧٢ .

(٣) : ابن خاقان : مطمح الانفس ، ص ١٢ .

هذه القناعة الشكلية المحضة أن القاضي كان يسير قدما في تحويل الأمر الى نظام حكم ملكي وراثي . وظهر هذا جليا عندما سمي ابنه اسماعيل حاجبا للخليفة هشام المزعوم . الأمر الذي يعني أنه المؤهل من بعده لقيادة البلاد . وعندما قتل اسماعيل في قتله مع البربر كما مر بنا سمي القاضي ابنه الآخر عبادا حاجبا للخليفة مكان أخيه . ولما توفي القاضي خلفه ابنه عباد على التو في تسلم أزمة الحكم بهدوء ودون الحاجة الى التشاور والتباحث كما حدث في مملكة قرطبة . ولم يعد يمتلك المعتضد وابنه المعتمد من بعده ذلك الاستحياء والتعفف من التلقب بالملك واتخاذ الألقاب السلطانية .

ب - نظام التفويض الخلفي :-

أما نظام الحكم الثاني الذي ميز الحياة السياسية في اشبيلية عن مثيلاتها في ممالك الطوائف الأخرى ، فهو مسألة إعادة الخلافة الأموية في ظل قضية ظهور الخليفة هشام المؤيد على النحو الذي رأيناه سابقا . فقد ادعى العباديون أنهم قائمون دونه ، وأنهم المفوضون من قبله في حكم بلاد الاندلس عموما ، وليس في اشبيلية فحسب . ومن هنا فقد اتخذ أولياء العهد في هذه الدولة لقب حاجب الخليفة^(٢) . وهو لقب كان له في قاموس الحكم آنذاك أهمية بالغة ويشبه منصب رئيس الوزراء الآن . وهذه الصفة رأى العباديون فرص سلطانهم على ممالك الطوائف إذ أنهم يستمدون هذا السلطان من سلطان الخلافة صاحبة السلطة الشرعية في الاندلس .

ولقد شغلت هذه المسألة بكل انعكاساتها السلبية والايجابية المملكة العبادية ردحا من الزمن . وأخيرا أسدل الستار عليها نهائيا عندما زعم المعتضد أن الخليفة هشام قد توفي ، وأنه عهد

(١) : انظر قبل ، الباب الأول ، ص ١٠١ .

(٢) : انظر بعد ، (النظم الادارية) ، ص ٣٦١ - ٣٦٣ .

اليه أن يكون أميرا على الأندلس كلها (١) .

ولعل الأثر الحضارى الذى نستخلصه من هذه القضية السياسية بكل ما لها وما عليها ، هو أنه بصرف النظر عن أهمية الخلافة الشرعية فى نفوس السكان ، فإن ملكة اشبيلية كانت تطمح من ذلك كله الى أن تسبغ على نظام حكمها الاستبدادى الصبغة الشرعية .

خصائص الحياة السياسية فى اشبيلية :-

وفىما عدا هذين النظامين ، فإن الحياة السياسية فى اشبيلية فى عصر بنى عباد قد اتسمت بسمات خاصة لا غنى لنا عن الإشارة إليها ، لتتضح لنا - فى ظلها - صورة نظام الحكم بصفة عامة فى هذه الدولة . فلو أردنا فى الواقع أن نقيم نظام الحكم العبادى فى عدة كلمات لقلنا بأنه نظام ملكى وراثى فردى استبدادى مطلق يضطلع فيه الملك بكل السلطات ، ما عدا السلطة القضائية بطبيعة الحال .

أما الخاصية السياسية الأخرى التى ميزت الحياة السياسية فى اشبيلية فهى كنه ما يعنيه اصطلاح الوزارة ، ومن ثم صلاحيات الوزراء المطلقة أو المقيدة فى الدولة العبادية . فالوزارة فى اشبيلية بل وفى معظم ممالك الطوائف هى وزارة تنفيذ وليست وزارة تفويض . ومع ذلك فأننا نلاحظ أن وزارة التنفيذ هذه لم يكن لها ثبات المعنى الذى كانت تعنيه فى المشرق الاسلامى . فاستخدامنا لهذا الاصطلاح السياسى هو محض محاولة للفهم والتقريب ، إذ أن لقب الوزير كان شائعا جدا فى الأندلس ، وكان يطلق على كل من يتولى إدارة دائرة حكومية ، كما كان يطلق على كل من كان قريبا من بلاط أحد ملوك أو أمراء الطوائف فى الأندلس ، وهو ما سنراه لاحقا عند حديثنا عن النظم الادارية فى دولة بنى عباد .

(١) : أنظر قبل الباب الثانى ، ص ١٢١ .

أما الشخص الذي كان يساعد ملوك الطوائف بشكل رئيسي على جميع الأصعدة فقد كان يطلق عليه ذو الوزارتين • وزير السيف والقلم •

أما في اشبيلية ، فلم يكن لدى الوزارتين ، فضلا عن الوزير أى أهمية بالغة في صناعة القرارات ، ووضع الخطط ، فلم يكن الوزير الا موظفا لدى الملك المبادى ينفذ قراراته ويتلقى تعليماته • أما الخطة ، أما القرار ، أما تقرير السياسة الواجب اتباعها عند كل ظرف سياسى ناشئ فقد كانت في يد الملك المبادى وحده ، فلم يتمتع أحد من ذوى الوزارات ، أو الوزراء بسلطات واسعة وصلاحيات عريضة في تلك المملكة • والظاهرة الوحيدة التى خالفت هذه القاعدة هى حالة الوزير محمد بن عمار الذى شفعت له صداقته الأثيرة للمعتمد ، ودالته العظيمة عليه ، أن يتمتع بصلاحيات واسعة • ومع هذا فقد ذهب ضحية تجاوزه لصلاحياته على النحو الذى أسلفناه •

وتكاد مملكة بنى عباد تكون الوحيدة التى تميزت بهذه الخاصية السياسية • أما غيرها من ممالك الطوائف الأخرى ، فقد كان للوزير فى بعضها أهمية بالغة فى تقرير وتوجيه سياسة الدولة ، حتى لقد طفى نفوذ بعض الوزراء على نفوذ الملوك والأمراء أنفسهم كما حدث فى مملكة قرطبة حيث طفى نفوذ الوزير ابن السقاء على حاكم البلاد نفسه ^(١) ، وكما حدث فى مملكة المرية ابان حكم زهير العامري ، حيث طفى نفوذ الوزير العربى أحمد بن عباس على نفوذ زهير نفسه ^(٢) • وكما وقع فى مملكة غرناطة حيث استأثر بعض الوزراء فيها فى عهد باديس ابن حبوس بمعظم النفوذ والسلطات • بل وقد تحولت الوزارة فى عهد الوزير اليهودى ابن تفرالة الى ما يشبه وزارة التفويض ^(٣) •

-
- (١) : خالد الصوفى : المرجع السابق ، ٧٥ - ٧٦ •
 (٢) : ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ١٦٩ - ١٧٢ •
 (٣) : عبد الله بن زوى : المصدر السابق ، ص ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٤٦ ، ٦٠ - ٦٣ •

ونخلص من هذا كله الى أن الوزارة افتقدت في مملكة بنى عباد
أى قيمة سياسية لها ، وقبّع الوزير في دائرته وخاصة في عهدى القاضى محمد
ابن عباد وولده المعتضد خائفاً متوجساً من غضبهما عليه ، أو تعرضه عقبة نزوة
من نزواتهما . ويصدق هذا أكثر ما يصدق على عهد المعتضد بالله على الأخص .

وهناك خاصة سياسية أخرى تميزت بها الحياة السياسية في المملكة
العبادية أكثر من بقية ممالك الطوائف في الأندلس آنذاك ، هذه الظاهرة هى أن
بنى عباد لم يكونوا يطبقون سماع أصوات الانتقاد لهم ، وكانوا يعطون على الإيقاع
بخصومهم بالبطش والقوة آناً ، وبالحييلة والخديعة آناً آخر . فقد كان القاضى
وولده المعتضد يسميان من خلال وسائل البطش والتكيد الى أفهام
خصومهما بأن الدور سيطالهم تالياً . فيضطر هؤلاء الى مغادرة مدّ ينتهمهم
والالتجاء الى الدويلات الأخرى ، أو يضطربعضهم الى مبارحة الأندلس
كلها . ونذكر فى هذا الصدد قصة الوزير أبى حفص عمر بن الحسن
ابن عبد الرحمن الهوزنى الذى كان أحد علماء اشبيلية المرموقين . وكان
صديقاً أثيراً للمعتضد قبل إفشاء الأمر اليه ، ولكن المعتضد توجس منه ،
وأحس هذا أن المعتضد قد تضايق منه ، فاستأذنه فى السفر الى
خارج اشبيلية ، فأذن له ، وغادر بلاده واستقر بمرسية أخيراً .

وعندما هاجم النورمان برشتر على النحو الذى رأيناه
سابقاً لم يستطع الهوزنى السكوت على ذلك الاغضاء المتعمد فى نصرة
المسلمين الذى قابل به المعتضد الحادثة . فبعث له بخطاب يرجو
منه اتخاذ الاجراءات اللازمة للدفاع عن الاسلام . وقد مرتبنا تلك
المراسلات بين الرجلين التى لم تسفر عن شئ . وقد عرفنا آنذاك موقف
المعتضد وجوابه على رسالة الهوزنى . ولكن ما لم نذكره آنذاك هو
الشق الثانى من جواب المعتضد له الذى يشير عليه بالعودة الى بلاده .
وبالفعل عاد الهوزنى الى اشبيلية واسند له المعتضد بعض الأعمال
الجليلة ، على أنه كان طوال فترة بقاء الهوزنى فى بلاطه يحبك له
الجائل حتى استطاع ذات يوم أن يقضى عليه ويقتله بنفسه (١) .

(١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى ، المجلد الأول ، ص ٦٨-٩٠ .

ابن بشكوال : الصلة ، قسطن ، القسم الاول ، ص ٤٠٢ .

والقصة الثانية تدل دلالة واضحة على أن المعتضد لم يكن يطبق سماع أصوات الناقدين له الحاقدين عليه حتى وإن لم يكونوا ذوى أهمية سياسية واجتماعية فى اشبيلية . هذه القصة رواها عبد الواحد المكنى (١) عند ذكره لقصة التحايل التى كان يتحايل بها المعتضد للقضاء على خصومه . وخلصتها أنه اعتدى على اموال أحد رجال اشبيلية ، وكان ضريرا ، مما اضطره الى الارتحال عن الاندلس كلها . والتوجه الى مكة المكرمة . ومن هناك أخذ يدعو على المعتضد فيلغى ذلك فيحث له بدنانير غمسها فى السم . ورفض الرجل أخذها فى بادئ الأمر ، بل واستعجب لذلك ، ولكن تحت الحاح رسول المعتضد تسلمها منه ، فتمكن السم فى جسمه . فمات من ليلته ، ومن هذه القصص ما يروى من أنه بعث لرجل من عامة اشبيلية من الذين نفاهم عنها فن قتل وحمل رأسه له .

كما أن هناك خاصية سياسية طبعت الحياة السياسية فى اشبيلية بطابع خاص ، وهى أن العباديين وخاصة فى عهدى القاضى وولده المعتضد ، حرصوا على أن يبعدوا بقية العائلات الأرستقراطية الاشبيلية عن المشاركة فى الحكم ، ودفعوهم قهرا الى اعتزال الحياة العامة . وكان ذلك يتم كثيرا بالترغيب والترهيب ، حتى اضطرت بعض عناصر من هذه الطبقة الى مهاجرة الوطن والالتجاء الى الدويلات الأخرى . مثال ذلك ما حدث للفقير والطبيب الاشبيلى محمد ابن مروان بن زهر جد الأسرة الطبية الاشبيلية المشهورة الذى اضطرت مضايقات القاضى محمد بن اسماعيل الى مفارقة وطنه ، فلحق بشرقى الاندلس وأقام بها بقية عمره (٢) . أما البعض الآخر فقد اضطرت مضايقات العباديين وخاصة المعتضد الى الابتعاد عن الحياة السياسية والانغماس فى حياة اللهو والطرب والمتع الحسية ، مع الاهتمام بجمع الثروات من عقارات وأراض ومساكن (٣) .

(١) : المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

(٢) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .

(٣) : انظر صلاح خالص : اشبيلية فى القرن الخامس الهجرى ، ص ٤٦ ،

و ص ١٥١ - ١٥٤ ، و ص ١٦١ - ١٦٥ .

كما تميزت الحياة السياسية فى اشبيلية شأن معظم ممالك الطوائف بانتهاج سياسة الاحلاف والمحاور التى شقيت بها معظم هذه الممالك . فعملت كل واحدة منها الى الدخول فى محالقات ثنائية وأحيانا ثلاثية ضد بعضها البعض كما مر بنا سابقا مما لا حاجة الى اعادته تكراره ثانية .

ويخيل لنا أخيرا أن ملوك بنى عباد كانوا لا يشذون فى نظرتهم للحكم والسلطان عن غيرهم من ملوك الطوائف الآخرين ، إذ كان بعض ملوك الطوائف يرى أنه جد ير وحقيق بالدولة التى أقامها على ظلال الحراب والسيوف ، أو ربما كانوا يعتقدون أن العناية الالهية قد اختارتهم لذلك . ويحضرنا فى هذا المقام ما فاه به اسماعيل بن ذى النون مؤسس دولة بنى ذى النون فى طليطلة وهو ما يصور من وجهة نظره أحقيته وجدارته فى الاستئثار بحكم مملكته . وقد بلغ فى هذا القول حدا جعله يفتئت حتى على الصحابة الراشدين رضى الله عنهم . يقول ابن بسام (فقد كان اصحابه حفظوا عنه كلمات فى سبيل ذكر السلف الصالح زيادة الى مساوئه ، وذلك أنه نوظر فى شأن الأمير لبنى أمية ، فقال والله لو نازعنى سلطانى هذا الصديق لقاتلته ، ولما سلمت له ، فكيف أسلم سلطانى لمن يدعى اليه بنى أمية : ممن لا يوجب الله طاعتهم ، عترة مروان ، خبط باطل الذين لم يسبق لهم صجة ولا أدخلهم السلف الصالح فى شورى الامامة .)

(١) : أنظر قبل الباب الاول ، ص ٨٥ وما بعدها ، والباب الثانى ، ص ١١٦ وما بعدها .

(٢) : المصدر السابق ، القسم الرابع - المجلد الاول ، ص ١١١ .

٢ - النظم الادارية :-

=====

أما عن النظم الادارية فلم يستطع ملوك الطوائف بصفة عامة ولا بنو عباد بصفة خاصة أن يضيفوا شيئاً جديداً اليها أو أن يقوموا بتطويرها هو قائم منها . فقد اكتفوا بما وصل الى أيديهم من التنظيمات الادارية التي ورثوها عن الدولة الأموية والدولة العباسية اقتناعاً منهم ربما بأن هذه التنظيمات - وقد بلغت أوجها في عهد الدولة الأموية - كافية ووافية بمقتضيات الحكم في عهدهم ، فضلاً عن أن الاهتمام الأكبر في عصر ملوك الطوائف كان موجهاً الى الاشتغال بالعلم والأدب ، والأخذ بمظاهر العمران وفخامة الملك .

وهكذا فإذا أردنا أن نعرف التنظيمات الادارية وغيرها من التنظيمات الحضارية الأخرى التي سارت وفقها ممالك الطوائف يجب أن لا تنسب عن بالنا هذه الحقيقة ، وهي أن هذه التنظيمات تعتبر استمراراً لما سبقها في عصر الدولة الأموية أو بمعنى أنه إذا أردنا التحدث عن التنظيمات الادارية في دولة بني عباد - وهي موضوع فقرتنا هذه - فأنما نتحدث عن التنظيمات الأموية بعينها مع الأخذ في الاعتبار بأنه قد جرى في عهد هذه الدولة بعض التحويل والتغيير الطفيف في تلك التنظيمات .

المناصب الادارية العليا في الدولة :-

الحجابة :-

نعال منصب الحجابة في الاندلس أهمية سياسية بالغة ، وكان يعتبر وخاصة في خلال عهد الدولة الأموية ، والدولة العباسية ، وأبان الفترة أهم منصب سياسي إداري تنفيذي بعد منصب الخليفة مباشرة . ذلك لأن طبيعة وظيفة الحاجب في الاندلس في عهد الدولة الأموية اختلفت عن طبيعة وظيفة الحاجب في الدولة العباسية بعض الشيء .

ان عدا فن أن وظيفة الحاجب في الأندلس حجب الأمير أو الخليفة
عن الخاصة والعامة كما هو الشأن أيضا في الدولة العباسية ، فان من
خصائص وظيفته أن يكون واسطة بينه وبين الوزراء ومن دونهم ففى
المسئوليات الوظيفية فى الدولة .^(١)

وكان الحاجب يختار عادة من بين تلك الجماعة التى
كان يختصها بنو أمية لاعتنتهم والتشاور معهم فى مجريات الأمور
الهامة فى الدولة . فكان يختار من بين هذه الجماعة ، ويسمى بعدئذ
بالحاجب .^(٢)

ولسنا معنيين هنا ببسط الحديث لتتبع وتطور
وظيفة الحجابة ، فإنا يهمنا الإشارة إليه هو أن الحاجب غدا فى عهد
الدولة الاموية وخاصة فى عهدى الخليفة الحكم المستنصر وابنه الخليفة
هشام المؤيد أهم شخصية سياسية بعد الخليفة مباشرة ، بل ان
اهميته كسفت مكانة الخليفة هشام المؤيد . وكان الحاجب يضطلع
بمعظم السلطات فى الدولة وكانت مهمته تمنى القيام بممارسة سلطات
الخليفة نيابة عنه ، فكان هو الرئيس المباشر للإدارة المركزية والعسكرية
والمدينة والمسؤول عن ولايات الدولة ، والأمن العام ، وكان له حق
مقابلة الخليفة يوميا وتقديم تقريره له .^(٣)

ومفهوم هذا العصر يمكن اعتبار الحاجب بمثابة رئيس
للوزراء ، ويهمنا أن نشير الى أن منصب الحجابة فى الأندلس كان وراثيا
فى أغلب الأحيان .

ولعل من نافلة القول أن نشير الى أن أعظم الحجاب
ذكرنا فى الأندلس وأبعدهم صيتا هو الحاجب المنصور محمد بن أبى طمر .^(٤)

(١) : ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٠٠ .

(٢) : شكيب أرسلان : الحلل السندسية ، فى الاخبار والاثار الاندلسية ، ج ١ ،

ص ٢٥٠ - ٢٥١ . (نقلا عن ابن سعيد صاحب كتاب المغرب فى حلى المغرب) .

(٣) : هشام سليم ابورميلا : رسالة عن نظم الحكم بالأندلس فى عصر الخلافة ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٤) : عن المفهوم الذى أضفاه الحاجب محمد ابن أبى عامر ونيه لمنصب

وفى عصر ملوك الطوائف حافظ هذا المصوب على نفس أهميته التى كان عليها فى تلك المهود دون أن يعنى ذلك وجوده فعليا . فكان الملك منهم كما يقول ابن سميح فيما ينقله عن شكيب أرسلان (٠٠٠) لعظم اسم الحاجب فى الدولة المروانية ، وأنه كان نائبا عن خليفتهم سمي بالحاجب ، ويرى أن هذه السمة أعظم ما تنوفس فيه وظفريه ، وهى موجودة فى أمداح شعرائهم وتواريخهم (٢) .

وعلى هذا فقد استشرى كثير من ملوك الطوائف الى التلقب بلقب الحاجب . ومن هؤلاء الحاجب منذر بن يحيى التجيبى حاكم سرقسطة قبل سليمان بن هود (٣) والحاجب محمد بن عبد الله البرزالي أمير قرمونة وغيرهما .

أما بنو عباد أنفسهم فمن الطبيعى أن يحرسوا على التمسك بنظم الدولة الاموية السياسية والادارية ، وخاصة بعد أن تبنا قضية الخليفة هشام المزهوم . ولقد رأينا ملوكهم يعهدون بحجابه باب الخليفة لأبنائهم الكبار وأولياء عهودهم . فقد سمي القاضى ابو القاسم ابن اسماعيل ابنه اسماعيل حاجبا للخليفة هشام . ولما قتل اسماعيل بن القاضى محمد سنة ٤٣١ هـ ولى القاضى ابنه الثانى عباد (المعتضد فيما بعد) مكانه . وحرص المعتضد عندما آل اليه الأمر أن يسير على نفس السياسة فولى ابنه اسماعيل الحجابه ثم لما قتل اسماعيل على يد أبيه انتدب المعتضد ابنه المعتمد ليحل محله . واستمر ذلك التقليد حتى بعد أن انقطعت دعوة الخليفة هشام أيضا . وقد حرص المعتمد بدوره على أن يطلق هذا اللقب على غير واحد من أبنائه على سبيل التشريف (٥) .

== الحجابه ، والدور المؤثر الذى مارسوه من خلال ذلك فى حياة الاندلس أنظر :

هشام سليم ابورميلا : الرسالة السابقة ، ص ١٣٣ - ١٤٩ .

(١) : أى أحد ملوك الطوائف آنذاك .

(٢) : الحلل السندسية ، ج ١ ، ص ٢٥١ .

(٣) : أنظر ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الاول ، ==

عمالة الأقاليم :-

درج العباديون بعد موجة التوسع والسيطرة التي تهيأت لهم ، وخاصة في عهدى المعتضد ، والمعتد ، على أن يولوا أبناءهم عمالة أو ولاية الاقاليم المفتوحة . وقد مرّ بنا أن المعتضد ولى ابنه المعتد حكم مدينة شلب بعد سقوطها في يده ، كما أن المعتد نفسه عهد لكثير من أبنائه بولاية المدن والأقاليم في مملكته كسراج الدولة عباد الذى تولى حكم مدينة قرطبة بعد سقوطها بيد العباديين . وعندما قتل سراج الدولة على يد ابن عكاشة كما أسلفنا عهد المعتد لابنه الفتح الملقب بالمأمون بحكم المدينة حتى سقطت على يد المرابطين كما ذكرنا ، وأسند لابنه الثالث يزيد الراضى حكم مدينة الجزيرة الخضراء ، ثم رنده . كما أسند لابن الآخر المعتد حكم مدينة شلب ثم أركش كما مرّ بنا . ومن المؤكد أنه كان لهذا التنظيم الإدارى بعدا ومغزى سياسيا أكثر مما يعنى مجرد التشريف .

الوزارة :-

أشرنا فيما سبق الى أن ممالك الطوائف استمرت تطبق فى دولها الأنظمة السياسية والإدارية التى كانت سائدة بصفة عامة فى الدولة الأموية ، ومن هذه الأنظمة : نظام الوزارة . ولذا فنحن مضطرون هنا الى معرفة نظام الوزارة فى الدولة الأموية ليسهل علينا فهم طبيعة هذا النظام وأهميته فى الدولة العبادية موضوع الرسالة .

== ص ١٥٣ - ١٥٤ . — محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ،

جزءان ٢ ج ٢ ، ص ٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٤) : انظر قبل الباب الاول ، ص ٨٢

(٥) : انظر قبل الباب الاول ، ص ٩١ ، والباب الثانى ، ص ١٤٧

والباب الثالث ، ص ٢٣٣ - ٢٣٨

والواقع أن الوزارة في الأندلس مرت بأطوار متعددة ،
فالأمراء الأمويون الأول اختاروا جماعة من الذين استرشدوا فيهم الصلاح
والخير وأسندوا اليهم مهمة اعانتهم في تصريف شؤون الدولة ، ثم
أسندوا لهذه الجماعة أعمال ووظائف مختلفة يقوم كل واحد من هذه
الجماعة بإدارة جهازها . ويقول ابن خلدون (وأما دولة بني أمية
بالأندلس ، فأبقوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة ، ثم قسموا
خطته أصنافا ، وأفردوا لكل صنف وزير فجعلوا الحسبان المال وزيرا ،
وللترسيل وزيرا ، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيرا ، وللنظر في أحوال
أهل الثغور وزيرا ، وجعل لهم بيت يدرسون فيه على فرش مضطدة
لهم ، وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له وأفرد للتردد
بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بجاشرة السلطان في
كل وقت فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب ، ولم ينزل
الشان هذا إلى آخر دولتهم ، فارتفعت خطة الحاجب على سائر
الخطط) (١)

وقد تطور نظام الوزارة في الدولة الأموية على مر الزمن
إلى أن أصبح يشكل ما يعرف اليوم بمجلس الوزراء (٢) وكان الأندلسيون
يستعملون كلمة خطة بمعنى وزارة (٣)

على أن هذا المنصب فقد دلالاته العملية شيئا فشيئا
مذ دالت دولة بني عامر ، وما تبع ذلك من أحداث أدت إلى ظهور
خلفاء أمويين ضعاف ثم الفتنة فقيام ممالك الطوائف . فأصبح لقب
الوزارة يطلق على من كان قريبا من بلاط أحد ملوك أو أمراء
الطوائف بحيث (صار اسم الوزارة عاما لكل من يجالس الملوك ويختص
بهم) (٤)

-
- (١) : المقدمة ، ص ١٩٩ .
(٢) : عن الوزارة وتطور نظامها في عهد الإمارة فالخلافة الأموية انظر :
هشام سليم ابورميلا انظر ، الرسالة السابقة ، ص ١٤٩ - ١٥٢ .
(٣) : هشام سليم ابورميلا : نفس الرسالة السابقة ، ص ١٥٦ .
(٤) : ابن سعيد المغربي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٨١ .

على هذه الصورة كانت الوزارة في ممالك الطوائف
وان لم تسمحنا المصادر الأندلسية وغيرها بذكر تفاصيل تنظيم الخطط
أو الدوائر الحكومية التي كانت موجودة في ممالك الطوائف عامة وفي
مملكة بنى عباد خاصة ، فكلما حملته اليينا من أسماء الوزراء في مملكة
بنى عباد لا يمدو أن يكون لقباً تشريفياً حصل عليه ذلك الشخص
من خلال مصاحبته لملوك بنى عباد واختصاصه بهم . وقد عرفت
دولة بنى عباد كثير من الذين كان يطلق عليهم لقب وزير مثل : الوزير
ابن اللبانة ، وابى الحسن^{بن} أبى اليسع ، وابى بكر ابن القصيرة وغيرهم .
أما المنصب الوزارى الذى كان له مدلول ادارى تنفيذى كبير فهو
منصب ذى الوزارتين الذى يعنى وزارتى السيف والقلم^(١) ، وكانت مهمة
حامل هذا اللقب هى أن ينوب عن الملك كما يقول ابن سعيده^(٢) فى
الشؤون المدنية والعسكرية معاً^(٣) . ومن الذين اشتهروا بهذا المنصب
الرفيع فى عهد المعتضد ابن عباد الشاعر القرطبى الأشهر ابو الوليد
أحمد ابن زيدون الذى كان يطلق عليه دائماً ذو الرياستين ، وذو
الوزارتين^(٤) .

ومن الذين اضطلموا بهذا المنصب فى عهد المعتضد
الشاعر المشهور محمد ابن عمار الذى سما بهذا المنصب الى مكانة
سياسية بارزة قل نظيرها فى ممالك الطوائف جميعها^(٥) لدرجة أن
المعتضد كان يفوضه فى التحدث باسمه مع ملوك النصارى واطلاق
يده فى عقد المعاهدات معهم^(٦) .

- (١) : ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٠٠ .
- (٢) : شكيب أرسلان : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٥١ . (نقلاً عن ابن سعيد) .
- (٣) : انظر هشام سليم ابورميكة : الرسالة السابقة ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .
- (٤) : انظر عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٦٢ .
- صلاح خالص : اشبيلية فى القرن الخامس الهجرى ، ص ١٨١ .
- (٥) : عن المكانة السياسية التى بلغها الوزير محمد ابن عمار انظر :
صلاح خالص : محمد ابن عمار الاندلسى ، ص ٧٠ - ١٠٣ .
- (٦) : انظر قبل ، الباب الثالث ، ص ٢٠٤ .

خطة الكتابة :-

تعتبر هذه الخطة أو الإدارة الحكومية بالضبط من أجل مناصب الدولة الرفيعة في الدولة الأموية ، ثم في ممالك الطوائف أيضا وقد صنفَت هذه الخطة إلى ادارتين أو ديوانين هما : كاتب الرسائل ، وكاتب الزمام (كاتب الجهبة أو كاتب الاشغال الخراجية) (١)

أما كاتب الرسائل فقد كان له أهمية مرموقة أكثر من الأهمية التي حظى بها كاتب الزمام ، وجاءت هذه الأهمية من كون صاحبها مكلفا بتحرير المراسلات الخلافية ، والقرارات السلطانية ، وانشاء الرسائل وعثها للعمال والملوك والأمراء الأجانب . وقد شهدت خطة الكتابة تطورا متعاقبا في الاندلس منذ الفتح حتى قيام الخلافة . فقد كان الكاتب في عصر الولاة ثم الإمارة الأموية وحتى عهد الأمير عبدالرحمن الأوسط يضطلع بكتابة الرسائل الرسمية للدولة ويطلق عليه لقب كاتب الرسائل (٢)

أما في عهد عبدالرحمن الأوسط فقد تطورت خطة الكتابة بحيث أصبح كتاب الرسائل بمثابة وزراء ، فكانوا يحملون لقب وزير بالإضافة إلى لقب الكاتب ، ويقال للكاتب : الكاتب الوزير (٣) وكان الأمير عبدالرحمن الأوسط أول من اتخذ كاتباً خاصاً له ، وسار الأمراء والخلفاء من بعده على هذا النظام حتى سقوط الخلافة (٤)

والتطور الآخر الذي شهدته خطة الكتابة كان في عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر ، ذلك لأن تشعب مسؤوليات كاتب الرسائل

-
- (١) : محمد كرد علي : المرجع السابق ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .
 - (٢) : انظر هشام سليم ابورميلا : الرسالة السابقة ، ص ١٦٢ .
 - (٣) : انظر ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .
 - (٤) : انظر هشام سليم ابورميلا : نفس الرسالة السابقة ، ص ١٦٢ .

وكثرتها جعلت الخليفة عبد الرحمن الناصر يبادر الى توزيع مسؤولياتها بين أربعة من كبار الموظفين ، يحمل كل واحد منهم لقب وزير ويختص فقط بالأمر الموكل اليه وحده .^(١)

أما الخطة الادارية الأخرى بالنسبة للكتابة فهي ادارة كاتب الزمام أو الجهبذة أو الأشغال الخراجية . وكان مجال عمله الأساسي هو الاشراف على ادارة الأموال العامة واحصاء الجند وتقديم أرزاقهم وأعطياتهم^(٢)

وبالنسبة لممالك الطوائف عامة ومملكة بنى عباد خاصة لم تسعفنا كتب التاريخ والأدب بشيء ذي بال عن هاتين الخطتين ، وان كان الأمر يختلف بعض الشيء بالنسبة لخطة كاتب الرسائل . ان يبدو أن الأمر استمر على ما كان عليه في عهد الدولة الأموية ، بل يمكننا أن نخمن بأن مكانة كاتب الرسائل قد ازدادت أهميتها آنذاك بسبب التنافس بين ملوك الطوائف في الاستئثار بالموهوبين من العلماء والادباء والكتاب .

ومن أشهر الكتاب في عهد المعتضد بالله ابن عبد البر^(٣) واسمه عبدالله بن يوسف . أما في عهد المعتمد فقد كان أشهر كتابيه هما أبو بكر ابن القصيرة ، وأبو بكر ابن الجند^(٤)

(١) : أنظر هشام سليم ابورميعة : الرسالة السابقة ، ص ١٦٢ . (نقلا عن ابن غداري) .

(٢) : هشام ابورميعة : نفس الرسالة السابقة ، (نقلا عن ابن خلدون) .

(٣) : هو ابن الحافظ الفقيه الاندلسي الشهير يوسف بن عبدالله المعروف

بابن عبد البر أيضا . صاحب التصانيف الواسعة التي أشهرها

كتاب : الاستيعاب في الفقه .

أنظر : ابن غداري : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٤٥ - ٢٤٨ .

ابن خلكان : المصدر السابق ، مجلد ٧ ، ص ٦٦ .

(٤) : أنظر مجهول : الحل الموشية ، ص ٣٢ - ٣٦ .

خطة الشرطة :-

ومن أهم المناصب الادارية فى الأندلس فى عهد الدولة الأموية ، وفى عصر ملوك الطوائف خطة الشرطة •

وكان يطلق على من يليها لقب صاحب الشرطة ، ومن صلاحياته النظر فى الجرائم الجنائية وغيرها • ومن اختصاصاته أيضا حق اقامة الحدود على شاربى الخمر ، ومرتكبى الزنا • وقد يعهد اليه ان كان ذا مكانة عظيمة فى الدولة بايقاع القتل شرعا بدون استئذان من السلطان • كما كان يطلق عليه أيضا صاحب الليل ، وتنقسم خطة الشرطة الى ثلاثة أقسام : الشرطة العليا ، والشرطة الوسطى ، والشرطة الصغرى (١) • وكانت هناك خطة أخرى تشبه خطة صاحب الشرطة ، ويطلق على القائمين عليها ، لقب الدرابين ، وتشبه خطة العسس أو الارباع فى المشرق (٢) •

وفى عهد بنى عباد رأينا من خلال محنة المعتمد بالله فى المنفى أنه كان هناك خطة من خطط الشرطة يطلق على متوليها لقب : عريف الشرطة • وأن مهمته الرئيسية كانت تنظيم خروج ودخول المعتمد من قصره واليائه (٣) •

وهكذا فقد رأينا أنه كان لبنى عباد بعض التنظيمات الادارية الخاصة بهم التى ابتكروها ، أو طوروها ، كما شاهدناهم يستفيدون من بعض التنظيمات الادارية الأخرى فى تصرف شؤون دولتهم •

(١) : عن خطة الشرطة وتنظيماتها وصلاحيات صاحبها ، أنظر :

هشام سليم أبو رميلة : الرسالة السابقة ، ص ٢٨٧ - ٢٩٢ •

(٢) : محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ •

(٣) : انظر قبل الباب الرابع ، ص ٣٣٧ •

٣ - النظام المالي :-

أولا : الموارد :-

.....

لم تسعنا المصادر الأندلسية بشيء ذي بال عن هذا النظام الهام من أنظمة الحكم . ولعل السبب في ذلك يعود لعدم وجود أنظمة عبادية مالية بحتة أصلا . وعلى ذلك فأننا نستطيع أن نخمن بأن النظام المالي سار في هذه المملكة على نفس النظام الذي سارت عليه الدولة الاموية تقريبا .

أما الموارد المالية في دولة بنى عباد فأننا نستطيع أن نؤكد بأنها هي نفسها الموارد التي كانت مطبقة في بقية أنحاء الاندلس ، لابل في الممالك الاسلامية انطلاقا من كون هذه الدولة دولة اسلامية بطبيعة الحال . مع ملاحظة وجود الاختلاف بين دولة وأخرى بحكم ظروفها وأوضاعها الخاصة .

وعلى هذا فان الموارد المالية في مملكة بنى عباد لابد أن تكون على النحو التالي :-

أ - الموارد الثابتة :-

=====

١ - زكاة المشور : وهي الزكاة المفروضة شرعا على الأراضي الزراعية ، وقطعان الماشية ، وكانت تستحصل من المسلمين بطبيعة الحال بحكم كونها أحد أركان الاسلام الخمس .

٢ - الخراج : ومن الموارد الثابتة لخزينة الدولة

الخراج ، وكان على صنفين :-

الصنف الأول : هو ما كان الملاك يؤدونه عن أملاكهم مسلمين وذميين على السواء فيما كان يعرف بأرض الأخصاس ، والأرض المقطعة ، وأرض الصلح . فكان المسلمون والذميون يدفعون خراج أرضهم حسبما

(١)

نصبت عليه الشريعة الإسلامية .
أما الصنف الآخر : فهو الذى كان يعرف بالمكوس . وهذه
تحصل من التجار وتفرض على السلع البضائع القادمة الى الدولة
وخاصة عن طريق البحر . وكانت فى دولة بنى عباد تحصل على
ضفة نهر الوادى الكبير الذى يشطر عاصمتها اشبيلية . وكان
تحصيل المكوس على درجة من الأهمية للدولة العبادية اذ كانت
عائداتها من أهم موارد الدولة بحكم اتساع الدولة العبادية
وحكم الحركة التجارية التى شهدتها . وكان للمكوس أنظمة
وقوانين مرعية ، ينفذها ويشرف عليها شخص يدعى بالمتقبل^(٢) .
ومماثل المكوس ما يعرف اليوم بـ (الرسوم الجمركية) .

٣- الجزية : وهى مورد أساسى لخزينة الممالك الإسلامية

بصفة عامة . وكانت مملكة اشبيلية تزخر بعدد كبير
من الذميين (أى النصارى واليهود) ، وهى جزية
تستحصل من هؤلاء الذميين الذين لم يعتنقوا الاسلام
وعلى هذا فيجب على (أولى الأمر أن يضعوا الجزية
على رقاب من دخل الذمة من أهل الكتاب ليقروا بها
فى دار الاسلام ، ويلتزم لهم ببذلها حقان ، أحدهما
بالكف عنهم ، والثانى الحماية لهم ليكونوا بالكف آمنين ،
وبالحماية محروسين)^(٣) .

-
- (١) : أنظر هشام سليم أبورميعة : الرسالة السابقة ، ص ٢٢٠-٢٣١ .
محمد بركات البيللى : الرسالة السابقة ، ص ٤٧ - ٦٩ .
(٢) : للاطلاع على المزيد من هذه الفقرة ، أنظر :
محمد بركات البيللى : الرسالة السابقة ، ص ٧١ - ٧٢ .
(٣) : هشام سليم أبورميعة : الرسالة السابقة (نقلا عن الماوردى
فى الأحكام السلطانية) ، ص ٢١٨ .

وتختلف الجزية المأخوذة من الذمى باختلاف وضعه المالى ،
ولا تؤخذ الا من الرجال الأقوياء القادرين على القتال والحرب ،
ومما يذكر أن هذه الجزية كانت تتناقص دائما بسبب اعتناق
هؤلاء الذميين للإسلام (١)

ب- الموارد غير الثابتة :-

وبالإضافة الى الموارد المالية الثابتة فهناك موارد أخرى ،
كانت الممالك الإسلامية فى الأندلس • تستوفيها من السكان •
ومن هذه الموارد المائدات المالية التى كانت ترد عن طريق
نظام المشاركة • ونظام المشاركة يعنى أن يشارك الملاك
الفلاحين فى المحصول الناتج عن أراضيهم ، أى أن يقدم
الملاك أراضيهم للفلاحين يزرعونها لهم بالمشاركة ، فلهؤلاء
حصصة من المحصول ، ولأولئك حصصة أخرى • وكان هذا النظام
يعرف أيضا بالمقاسمة والمناصفة (٢)

وعرفت الأندلس موردا ماليا آخر يعرف بالحشد ، وهو
(ضريبة مالية كانت تفرض فى الأندلس على أصحاب الضياع
فى الريف ، وعلى الناس فى المدن مميونة للخليفة على شؤون
الحرب ، وكان الناس أولا مكلفين بالخروج الى الحرب ، وكان عليهم
أن يخرجوا الى الحشد عندما يجيئ أوان الصائقة ، ثم
استبدلت بضريبة مالية أو عينية لمن لا يريد الخروج ، ثم
أصبحت ضريبة مالية خالصة تؤدى للحشد أو الحشاد
فى كل منطقة (٣) .

-
- (١) : أنظر محمد بركات البيلى : نفس الرسالة السابقة ، ص ٦٨ - ٦٩ .
 - (٢) : ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، حاشية رقم ٤ ، ص ٣٦ .
 - (٣) : ابن الأبار : نفس المصدر والجزء ، حاشية رقم ٢ ، ص ١٠ .
- وأنظر كذلك هشام سليم ابورميعة : الرسالة السابقة ، ص ٢٣٥ .

وهناك مورد آخر يسمى ضريبة القطيع أو المشاهرة ، وتعنى
فى مطلق الأحوال جزية على الرؤوس (١) .

وهناك أيضا منارم مفروضة على أموال السكان فى الاندلس
واشبيلية بطبيعة الحال ، وكانت تفرض على الفئم والدواب
وغير ذلك . وكذلك كانت هناك ضريبة تفرض على بعض
البهيمات فى الأسواق فى بعض البلاد (٢) .

وأخيرا كان هناك نوع آخر من الموارد المالية وهو ما كان
يعرف بالقبالة . ومقتضى ذلك النظام كانت تمنح بعض القرى
والمقاطعات لمتقبلين من حاشية الأمير أو المتعهدين بلفسة
هذا العصر ، تعطى لهم بقبالة معينة محددة ، فيأخذونها
ويستخرجوا منها أقصى ما يمكن استخراجه ، كى يوفروا
لأنفسهم ما يزيد على قيمة القبالة (٣) .

ثانيا : النفقات :-

تلك هى أهم موارد الدولة العبادية ، وهى تنقص
وتتزايد تبعا للظروف والأحوال فى الدولة . ومن الطبيعى أن تكون
هناك نفقات عامة تصرف فيها الدولة الكثير من هذه العائدات
المالية . ويأتى على رأس هذه النفقات العامة ، رواتب الجنود
والموظفين . ولقد مررنا سابقا أن بنى عباد قد جندوا قوات
نظامية وقوات أخرى من المرتزقة والمبيد (٤) ، ومن البدهى أن تدفع
لهؤلاء أعطيات جزيلة لتنفذ مشروعاتها التوسعية دائما (٥) .

-
- (١) : انظر محمد بركات البيللى : الرسالة السابقة ، ص ١٨ - ١٩ .
(٢) : انظر هشام سليم ابورميلا : نفس الرسالة السابقة ، ص ٢٣٣ - ٢٤٠ .
محمد بركات البيللى : نفس الرسالة السابقة ، ص ٧٠ .
(٣) : انظر احسان عباس : المرجع السابق ، ص ٤١ .
(٤) : انظر قبل الباب الاول ، ص ٨٣ .
(٥) : احسان عباس : نفس المرجع السابق ، ص ٤٠ . — محمد بركات البيللى :
الرسالة السابقة ، ص ٧٤ - ٧٥ .

أما القناة الأخرى التى تصرف فيها موارد الدولة ،
فهى الثغرة التى فتحها ملوك الطوائف على أنفسهم بالاستعانة
بملوك النصارى وخاصة الفونس والسادس ، فقد كانت الجزية التى
يستحصلها الفونسو من الدولة العبادية وخاصة فى عهد المعتمد
ثقيلة باهظة ، تستنزف قدرا هائلا من موارد الدولة .^(١)

وأما القناة الثالثة التى كانت تستنزف موارد الدولة ،
فهى النفقات الباهظة التى كان العباديون ينفقونها على بذخهم
ومترفاتهم الخاصة ، كبناء القصور ، والدور ، واقتناء فاخر الأثاث
والرياش ، وسائر صنوف المتعة والأبهة والفخامة ، وكذلك صلاتهم
وأعطياتهم للشعراء والأدباء وغيرهم .^(٢)

٤ - الجيش والبحرية :-

- الجيش :-

لا نملك فى الواقع تفاصيل واسعة عن الجيش العبادى
سواء أكان ذلك فى مسألة عدد أفراد قواته المسلحة ، أم عن
كوادره ورتبه ٠٠٠ الخ . وكل ما نملكه من تفاصيل عنه هو ما يتعلق
بالعناصر البشرية المكونة له . وقد سبق لنا أن رأينا القاضى
محمد بن اسماعيل يكوّن على وجه السرعة جيشا تنوعت قواته من
جنسيات مختلفة ، كالعرب ، والصقالبة ، والبربر ، والنصارى ٠٠٠ الخ .^(٣)

والأمر الثانى الذى عرفناه عن الجيش الاشبيللى
أنه كان يستعين فى بعض الأحيان بقوات مرتزقة من النصارى ،

- (١) : احسان عباس : المرجع السابق ، ص ٣٩ .
- (٢) : أنظر احسان عباس : نفس المرجع السابق ، ص ٤١ - ٤٤ .
- (٣) : أنظر قبل الباب الاول ، ص ٨٣ وما بعدها .

والبربر وغيرهم • ويبدو أن ذلك كان أمرا شائعا في الأندلس آنذاك (!)

والأمر الثالث أن المباديين حرصوا كثيرا على أن يعهدوا لأبنائهم في معظم الأحيان بقيادة الجيش ، وكانت قيادة الجيش غالبا ما تكون لولى العهد الذى يجمع بين هذين المنصبين • وقد رأينا عدد حديثنا عن دولة القاضى محمد ابن اسماعيل • أن ولده اسماعيل ولى العهد كان فى ذات الوقت القائد العام للجيش ، الذى يضطلع دائما بمهمتى المواجهة والتوسع • وما ينطبق على اسماعيل ابن القاضى محمد ينطبق على اسماعيل بن المعتضد • وقد رأينا هذا أيضا فى معرض حديثنا عن انشقاقة وتمرده على والده المعتضد • وعندما قتل اسماعيل عين المعتضد ابنه الآخر محمدا وليا للعهد ، وقائدا عاما للجيش ، واضطلع شأن غيره من قادة الجيش بمهمتى المواجهة والتوسع أيضا • وحتى فى دولة المعتمد ، فقد عهد لأبنائه بقيادة الجيوش • وقد رأينا يفضى على ابنه يزيد الراضى الذى أظهر تقاعسا لموسا ، فعهد لابنه الآخر المعتضد بقيادة الجيش المتوجه لصد غارات النصارى عن مدينة لورقة (٢) •

ونادرا ما كان يتولى قيادة الجيش اناس آخرون من غير أبناء المباديين أنفسهم • وقد عثرنا على حالتين فقط ، قاد فيها أحد القادة من عامة الشعب ، الجيش العبادى : الحالة الاولى هى عندما شكلت القوات البربرية المتحالفة ضد القاضى محمد ابن اسماعيل جيشا توجه نحو أراضي اشبيلية • فمات فى مزارعها

-
- (١) : رأينا صورا عديدة لهذا كما حدث عندما استعان ملك سرقسطة وغيرهم بالسيد القمبيطور وغيره من الذين كانوا يقدمون خدماتهم لمن يدفع لهم • أنظر : حسين مؤنس : السيد القمبيطور ، المجلة التاريخية المصرية •
- (٢) : أنظر قبل الباب الاول ، ص ٨٨ - ٩٠ ، وص ٩٩ - ١٠٢ ، والباب الثانى ، ص ١١٩ ، وص ١٢٦ - ١٣٠ ، والباب الثالث ، ص ٢٣٧ •

وأراضيها • فتصدى لهم قائد احدى فرق الجيش العبادى : أيوب ابن عامر اليحصبى وفرق شملهم^(١) • والحادثة الثانية هى عندما ولى المعتضد قائده عبدالله بن سلام قيادة الجيش الذى عهد له بفتح الجزيرة الخضراء • وقد تم له ذلك فعلا •

البحرية :-

أما بالنسبة للبحرية ، فلم يكن يضاهى الدولة العبادية فيها سوى مملكة دانية التى أسس فيها مليكها مجاهد العامرى أسطولا بحريا حرييا كبيرا استطاع به أن يفتح جزيرة سردينيا وغيرها من الجزر الشرقية فى البحر المتوسط^(٢) ، ولذا فان دولة بنى عباد تعتبر الدولة الثانية من دول الطوائف التى اهتمت بالاسطول البحرى سواء أكان ذلك فى وقت السلم ، أم فى وقت الحرب • وقد أفادتنا بعض كتب التاريخ والأدب فى ذكر بعض الاشارات عن ذلك الاسطول •

أما الاسطول البحرى الحرسى ، فقد رأينا عدة اشارات له فى كتب التاريخ مررنا بها فى بعض الفصول السابقة • من هذه الاشارات ما رواه المؤرخون من أن مدينة الجزيرة الخضراء التى كانت تابعة لأمرأ بنى حمود قد حوصرت برا وبحرا الى أن سقطت نهائيا فى يد المعتضد عام ٤٤٦ هـ^(٣) • ومن تلك الاشارات أيضا ما رويناها عن الحميرى عن الاسطول الحرسى الذى بعثه المعتمد لمساعدة يوسف بن تاشفين عند افتتاحه لمدينة سبته^(٤) •

أما كتب الأدب^(٥) فقد حفظت لنا فى أشعار الشعراء الذين مدحوا المعتمد بن عباد ما يلقى بعض الضوء عن ذلك الأسطول ،

-
- (١) : يوسف أشباخ : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٤١ •
 - (٢) : أنظر محمد عبدالله غان : دول الطوائف ، ص ١٩٠ - ١٩٤ •
 - (٣) : ابن غدارى : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٣١ •
 - (٤) : السروض المعطار ، ص ٨٧ •
 - (٥) : أنظر محمد بركات البيللى : الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى اشبيلية فى عصر بنى عباد (رسالة ماجستير) ، ص ١٠٩ مع الحواشى •

ووصف قطعه ومنشأته • وقد أجمعت هذه الأشعار على أنه كان للعباديين اسطول حرسى ساعد هم فى الكثير من مشاريعهم التوسعية وغيرها •

أما الاسطول التجارى البحرى ، فقد كان له أيضا (١) مهمة اقتصادية رئيسية فى نقل صادرات وواردات الدولة العبادية •

٥ - النظام القضائى :-

كانت خطة القضاء تعتبر أعظم الخطط الشرعية فى الاندلس بطبيعة الحال • وكان الاندلسيون يطلقون على من يتولى القضاء فى المدن الكبيرة والعواصم : اسم القاضى ، أما فى المدن الصغيرة وبقية القرى ، فقد كان يطلق على من يتولى القضاء فيها : مسدد الخاصة • ويطلق على الشخص الذى يشغل منصب قاضى القضاة فى الاندلس قاضى الجماعة (٢) •

ويلحق بخطة القضاء مجموعة من الخطط ، مثل خطة الموارث ، وخطة المظالم ، وخطة الأجاس (الأوقاف) ، وخطة السوق ، وخطة الشورى (٣) • وخطة السوق يطلق عليها أيضا وهو الشائع خطة الحسبة أو الاحتساب • وتشبه مهمة هذه الخطة أو الإدارة ، مهمة البلديات فى العصر الحاضر كمرافقة الأسواق ، وعمليات البيع والشراء ، ومراقبة المكييل والموازين ... الخ وكان لهذه الخطة أنظمة وقوانين مدونة يعمل بمقتضاها المسؤولون عن هذه الخطة (٤) •

أما خطة الشورى فقد كانت خطة أخرى لصيقة بخطة القضاء • ويقول حسين مؤنس (كان يقوم بأمر القضاء فى الاندلس هيئتان : الفقهاء المشاورون ، والقضاة ، فأما المشاورون فكانوا جماعة من كبار الفقهاء

-
- (١) : الرسالة السابقة ، ص ٨٧ •
 - (٢) : عن خطة القضاء أنظر المادة الواسعة التى كتبها هشام سليم أبورميلى : الرسالة السابقة ، ص ٢٦١ - ٢٧٢ ، وكذلك ص ٢٨٠ - ٢٨٦ •
 - (٣) : محمد عبدالله غان : الخلافة الاموية والدولة العباسية ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ •
 - (٤) : محمد كرد على : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٨ •

والعلماء يختارهم الأمير أو الخليفة ليستشيرهم فى أمر القضاء والاحكام . ولم يكونوا هيئة بمعنى الكلمة تجتمع معا فى مجلس خاص كالوزراء ، بل كانوا فرادى يختار الأمير من يراه صالحا للشورى ، ثم يبعث اليه بما يريد ليفتى فيه ، وقد يستقدمه الى القصر .

وكان المشاورون أعلى من القضاة مرتبة ، بل كانوا فى مراتب الوزراء من حيث المكانة والجاه . وفى بعض المصور ، تميز بعض المشاورون ، حتى صار كالرئيس لهؤلاء المفتين ، ويسمى لهذا برأس الفتياء ، أو رأس المشيخة ، وقد يسمى شيخ المراسين ، أو شيخ البلد . وكانت المشورة أو الفتيا أعلى المناصب التى يطمح اليها الفقيه ، وان لم تكن منصبا حكوميا محدد الوظيفة والراتب والسلطان . وكان المشاورون يبدون رأيهم فى القضاة فلا يعين كبارهم الا برأيهم . أما القضاة ، فهم المعروفون ، وأكبرهم قاضى قرطبة أو قاضى الجماعة ، وكانوا فى منزلة الفقهاء المشاورين ، وقد يمتاز عليهم اذا أهلتهم مكانته لذلك (١) .

وقد تولى منصب قاضى الجماعة بقرطبة فى عهد المعتمد مجموعة من القضاة منهم القاضى محمد بن أحمد بن عيسى بن منظور القيسى ، ثم القاضى عبدالرحمن بن سوار بن أحمد بن سوار ، ثم عبد الله بن أد هم وغيرهم (٢) . كما تولى خطة الشورى فى اشبيلية ، كما يفهم من رواية ابن البار عبيد الله الرشيد بن المعتمد ، وكان يساعده فى المشاورة بعض الفقهاء منهم القاضى أحمد بن منظور القيسى (٣) .

-
- (١) : ابن البار : المصدر السابق والجزء ، ح ١ ، ص ٢٠٢ .
 وأنظر كذلك حسين مؤنس : شيوخ العصر ، ص ٢٧ - ٣٤ .
- (٢) : ابن بشكوال : المصدر السابق ، القسم الاول ، ص ٣٠٤ . والقسم الثانى ، ص ٣٣٧ ، وص ٥٤٧ .
- (٣) : المصدر السابق والجزء ، ص ٦٨ .

الحياة الاجتماعية

تعمدنا ببادئ ذي بدء أن نقسم الحياة الاجتماعية الى قسمين : مظاهر الحياة الاجتماعية لدى العامة ، ومظاهر الحياة الاجتماعية لدى الخاصة . ذلك لأن المؤرخين والأدباء القدامى لم يمتثلوا بالنسبة للنواحي الاجتماعية بالذات في أحايين كثيرة الا بالاهتمام بحياة الأمراء والحكام والوجهاء والخاصة بدرجة أساسية . أما عن مظاهر الحياة الاجتماعية لدى عامة الناس فلم تقل من اهتمامهم الا اليسير وداخل نطاق المظاهر الأساسية للحياة الاجتماعية كالأعياد والمواسم والمناسبات . الخ . ومن هنا فقد رأينا أن نتحدث عن أهم مظاهر الحياة الاجتماعية لدى العامة أولا حسبما استخلصناه من كتب التاريخ والأدب ، ثم نشنى بعد بالحياة الاجتماعية لدى الخاصة .

أ - أهم مظاهر الحياة الاجتماعية لدى العامة :-

الأعياد والمواسم :-

من الطبيعي أن يكون على رأس الأعياد في كل مجتمع اسلامي عيدى الأضحى والفطر . والمجتمع الاشبيلي شأنه شأن غيره من المجتمعات الاسلامية كان يحتفل باستطلاع هلال شوال ، وكان العامة يتجمعون لرؤية الهلال حتى يفوز أحد هم بالسبق في رؤيته لتحديد يوم عيد الفطر .

أما بالنسبة لعيد الأضحى ، فقد كان الاحتفاء به عظيما . وكان من عادات أهل اشبيلية والاندلسيون عامة شأنهم في ذلك شأن اخوانهم المسلمين أن يخرجوا الى الصلاة في أبيي حلالهم وأناقيتهم ثم يعودون الى بيوتهم فيذبحون أضحياتهم ، وكان المهدم منهم

يكفى بجمع رؤوس الخراف والقيام بتشبيطها أى عرضها على النار
حتى تنضج (١) .

وكانت الأعياد مواسم اقتصادية مزدهرة لبائعى الخراف
والعطور وغيرهم . وكان العطارون يعرضون فى حوانيتهم أرقصى
العطور وأغلاها وأجودها (٢) .

ومن الأعياد الأخرى التى احتفل بها الاشبيليون :
عيد النيروز ، وهو حلول أول يوم من أيام فصل الربيع وهو عيد
فارسى الأصل . كما احتفل الاشبيليون النصارى أيضا بأعيادهم
الدينية وعلى رأسها عيد الفصح وغيره (٣) .

الأزياء والملابس :-

وكان للتقليد الاجتماعى الرفيع الذى أدخله المغنى المشرقى
المشهور زرياب على الملابس الاندلسية دورا مؤثرا فى حياة الاندلسيين ،
فقد شغفوا بذلك وطبقوه بسرعة ، وساعدتهم طبيعة الأندلس الخلابة
أيضا فى أن ترقى شاكلتهم وترهف أحاسيسهم وانعكس ذلك على
أزيائهم وعلى غيرها من مظاهر الحياة الاجتماعية .

فقد ألف الاندلسيون والاشبيليون بطبيعة الحال لباس
الملابس الخفيفة البيضاء المنسوجة من الكتان والقطن فى فصل الصيف ،
كما ألفوا لبس الملابس الصوفية الثقيلة ذات الألوان الداكنة فى فصل
الشتاء (٤) .

وكان عامة السكان فى الاندلس يسرون حاسرى الرأس
من غير غطاء ، والوحيدون الذين كانوا يتعممون هم العلماء والفقهاء ،

(١) : محمد بركات البيلى : الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى اشبيلية ، رسالة
ماجستير مقدمة الى كلية الآداب - جامعة القاهرة ، طم ١٩٧٨ ، ص ١٥١ .

(٢) : محمد بركات البيلى : الرسالة السابقة ، ص ١٥١ .

(٣) : الرسالة السابقة ، ص ١٥٣ .

(٤) : الرسالة السابقة ، ص ١٤٣ .

أما الطيلسان فقد كان شائعا فى الأندلس وكان الشيوخ يلقونه على رؤوسهم ، وكان الخضاب أى صبغ الشعر واللحية بالحناء شائعا أيضا (١) .

أما المرأة الاشبيلية فقد كانت ترتدى ثوبا يسمى " الاتب " وهو عبارة عن ثوب يلقى على عاتق المرأة من غير كم ولا جيب . وكانت الاشبيليات يرتدين اليعطاف وهو عبارة عن تاج صغير مرصع بالجواهر وأعلاه ريش الطواويس ، كما أكثرت المرأة الاشبيلية من استخدام الحناء والمطور والكحل (٢) .

وقد خالف الأندلسيون المشاركة فى التقيد بملابس معينة فى أفراحهم وأتراحهم . فقد كان الأندلسيون عموما يلبسون اللباس الأبيض فى الحزن على عكس المشاركة الذين يلبسون الملابس السوداء عند الموت (٣) .

الارتداد الى الاماكن العامة :-

المتنزهات :

تمتعت اشبيلية نفسها بالطبيعة الخلابة التى حفتها من كل الجوانب . وكان نهر اشبيلية أو الوادى الكبير الذى يشطر المدينة الى شطرين أحد معالم التنزه والسياحة فى المدينة ، فقد كانت المراكب والسفن الصغيرة تقطعه ليلا ونهارا (٤) .

ومن أهم الضواحي الجميلة التى كان يرتادها أهل اشبيلية ، ضاحية طريانة التى لا تبعد كثيرا عن العاصمة ، ثم جزيرة تيطل ووادى الطلح (٥) . كما كان مرج القضة ومتنزه السلطانية من أهم

(١) : محمد بركات البيللى : الرسالة السابقة ، ص ١٤٤ .

(٢) : الرسالة السابقة والصفحة .

(٣) : المقري : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ ، و ص ٣٩٩ .

(٤) : محمد بركات البيللى : الرسالة السابقة ، ص ١٥٤ .

(٥) : أنظر المقري : نفس المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨٥ .

المتنزهات الاشبيلية التى كانت متنفسا للأهالى يمارسون فيها هواياتهم
فى السباق والطيراد . وقد تميزت هذه المتنزهات بوجود الفساقى
المائية الرائعة ^(١)
الحمامات : ^(٢)

كانت الحمامات فى القرون الوسطى الاسلامية من أهم
مظاهر الحياة الاجتماعية للمجتمع الاسلامى ، وقد تميزت مدينة اشبيلية
بوجود أعداد كبيرة من الحمامات فيها . وكان للنساء حمامات خاصة
بهن ^(٣) .

ويعتبر الذهاب للحمام فرصة عظيمة للرجال والنساء
للتخلص من جهامة الحياة ، واغلال التقاليد ، وكانت الحمامات
تزخر بوجود الخدم الذين يقومون بخدمة المستحمين ، كالحلاقين
والطيبابين . وكذلك كان الحمام يزخر بالخدم الذين كانوا يلبسون
ظهور وأجساد الرجال ويطلق عليهم الحكاكين ^(٤) .

ب - أهم مظاهر الحياة الاجتماعية لدى الخاصة :-

لكى نستطيع أن نتعرف على الحياة الاجتماعية للخاصة
أو الطبقة الأرستقراطية ، ولكى نتعرف على أهم مظاهر التطور الاجتماعى
فى المجتمع الاشبيلى ، لابد لنا من العودة الى التذكير بالتركيب
الاجتماعى للمجتمع الاندلسى حتى يسهل علينا فهم تلك الحياة
الاجتماعية الطبقيّة ، وفهم أهم مظاهر تطورها .

(١) : محمد بركات البيللى : الرسالة السابقة ، ص ١٥٤ .

(٢) : عن الحمامات الاسبانية الاسلامية أنظر :

ليوبولد و توريس يلباس : بحث بعنوان الأبنية الاسبانية الاسلامية .
تعريب عليه ابراهيم العنانى ، مجلة المعهد المصرى للدراسات
الاسلامية ، العدد الاول ، ١٩٥٣/١٣٧٢ م ، ص ١٠٨ - ١١٣ .

(٣) : محمد بركات البيللى : الرسالة السابقة ، ص ٤٨ .

(٤) : محمد بركات البيللى : نفس الرسالة ، ص ٥٣ .

فأشبيلية شأنها شأن غيرها من ممالك الطوائف كانت تضم أخلاطا بشرية عرقية ودينية مختلفة ، كالمغرب والبربر والصقالبة ، والمستعربين ، والمولدين ، واليهود ... الخ . وكان المولدون يشكلون ثغلا سكانيا مهما في المجتمع الأندلسي^(١) . ومن الطبيعي جدا أن يكون لكل فئة أو مجموعة من هذه المجموعات العرقية والدنية عاداتها وتقاليدها وأعرافها التي تحرص على أن لا تذوب وتتلاشى في وسط ذلك الخضم البشري المتعدد الأجناس .

على أن هذا يجب أن لا يسوقنا الى البالفنة والتهويل كثيرا . فالمجتمع الأندلسي في الواقع - والمجتمع الأشبيلي جزء منه - كان قد بلغ في الفترة منذ الفتح وحتى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، من التآلف والانسجام والتزواج الاجتماعي والاقتصادي والثقافي مرحلة أو تركيبا اجتماعيا بمعنى أدق يمكننا نعمته بالمجتمع الأندلسي بكل خصائصه ومميزاته المعروفة في كتب التاريخ والأدب^(٢)

وعندما نفعل أو نسقط من التوافق والتماذج السكاني لهذا المجتمع الأندلسي الناحية السياسية ، فإننا نؤكد على ظاهرة عامة مميزة في هذا المجتمع . هذه الظاهرة هي أن العناصر المكونة لهذا المجتمع الأندلسي دخلت طوال تلك الفترة أي منذ الفتح وحتى القرن الخامس الهجري موضوع بحثنا في مطاحنات ومعارك حربية ضد بعضها البعض دفاعا عن كينونتها ووجودها ومصالحها . ولم تنس فئة من تلك الفئات السكانية من الناحية السياسية فقط حقيقة التركيب الاجتماعي لمجتمعها الذي تعيش فيه ، فلم تتخرج عن الأخذ بأسباب المناحي الأخرى للحياة ، الاجتماعية منها والثقافية والاقتصادية والعمرانية أيا كان مصدرها .

(١) : لطفى عبد البديع : الاسلام في اسبانيا ، ص ٢٤ - ٢٦ .

(٢) : انظر التمهيد ، ص ٤٣ - ٤٩ .

ويتوجب علينا ثانية التعرف على ميزة أخرى فى طبيعة تركيب المجتمع الأندلسى ليسهل علينا فهم أهم مظاهر التطور الاجتماعى فى حياة المجتمع الأرسطى الاشبيلى . فالمجتمع الأندلسى كما أسلفنا لم يكن مجتمعا طبقيا عنصريا ، وإنما كان مجتمعا طبقيا ينقسم بكل عناصره المرقية والدينية الى طبقات ثلاث هى الطبقة الأرسطية أو طبقة الخاصة ، والطبقة الوسطى ، والطبقة العامة . بمعنى أن كل طبقة من هذه الطبقات الثلاث تجمع فى رحابها كل أو معظم تلك العناصر المرقية والدينية الموجودة فى الأندلس^(١) . وكان لكل طبقة من هذه الطبقات تطلعاتها وأوضاعها وهمومها الذاتية وفلسفتها ونظرتها الخاصة للحياة .

على أن ما نستطيع الخلوص اليه من ذكرنا لذلك الواقع الاجتماعى الطبقي ، هو أن الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، والعلمية ، والأدبية ، فضلا عن الحياة السياسية ، كانت مرتبطة أولا وأخيرا ببلاطات ملوك الطوائف ، والطبقة الخاصة التى تدور فى فلكها والتى تشترك أولئك الملوك فى ذلك الدفع الحضارى^(٢) . فضلا عن ذلك فإن هذا التطور الحضارى الذى شهدته بلاطات ملوك الطوائف فى شتى مناحى الحياة ، إنما تم بفضل العائدات المالية الضخمة التى تنهيات لهؤلاء الملوك والأمراء ، وبسبب التنافس الشديد بين ملوك الطوائف فى هذا العصر فى جعل بلاطاتهم مركزا من مراكز التقدم الحضارى طلبا للمجد والشهرة والصيت الذائع .

(١) : أنظر التمهيد ، ص ٤٣ - ٤٩ .

(٢) : عقد صلاح خالص فى كتابه : اشبيلية فى القرن الخامس الهجرى ، فصلا مهما جدا أوضح فيه ما أشرنا اليه فى المتن ، من أن الحياة الأندلسية فى شتى مناحيها قد ارتبطت بالطبقة الأرسطية ، فهى الموجهة وهى المنفذة ، وهى المضلعة بكل الأدوار بحكم ما تنهيات لها .

بقى أن نشير أخيراً إلى أن المجتمع الاشبيلي الأرستقراطي
في عهد بني عباد وعلى الخصوص في عهدى المعتضد والمعتد غلبت
عليه حياة المجنون والخلاعة والتهاك^(١) . ويعد المعتد بالذات أنموذجاً
حيث لهذا اللون من الحياة .

وقد يعزى شيوع تلك الجوانب الانحلالية داخل المجتمع
الاشبيلي الأرستقراطي إلى البيئة الاسبانية السهلة المرححة .

على أن هذا يجب ألا يقودنا إلى قبول هذا القول
على علته . صحيح أن للبيئة تأثيرها في حياة الفرد والجماعة ،
غير أنها لا يمكن أن تكون السبب الرئيسى الذى صرف طبقة الخاصة
إلى ذلك اللون من الحياة المباشرة والآهية ، ذلك لأن حياة المجنون
والانحلال والتهاك لا يمكن أن تسود في مجتمع مسلم إلا إذا ضعف
الوازع الدينى فى النفوس .

(١) : أنظر فى هذا الخصوص :

- ابن حزم : طوق الحمامة فى الألفة والآلاف ، ص ١١٥ — ١١٦ ، ص ١١٩ .
- ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى ، المجلد الأول ، ص ٣٦ .
- ٣٧٠ — ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، ص ٤٩ ، ص ٦٠ .
- ص ٧٤ ، ص ١٧٢ . — ابن خاقان : القلائد ، ص ٦ — ١١ .
- المقرئ : المصدر السابق ج ٢ ، ص ٢٠٧ ، ص ٢٨٠ ، ص ٣٩٥ .
- ابن دحية الكلبي : المطرب فى أشعار أهل المغرب ، ص ٧ — ٨ .
- صلاح خالص : اشبيلية فى القرن الخامس الهجرى ، ص ٩٠ — ١٠١ .
- والمعتد بن عباد : ص ٦٠ — ٧٢ ، ص ٩٣ — ٩٦ .
- ومحمد بن عمار الاندلسى : ص ٢٩٧ — ٣٠٠ .
- جودت الركابى : فى الأدب الاندلسى ، ص ١٦٨ . — احسان عباس :
- تاريخ الادب الاندلسى ، ص ٥٢ . — أحمد هيكىل : الأدب الاندلسى ،
- ص ٢٣٥ . — رضا الحبيب السويسى : ديوان المعتد بن عباد ،
- ص ١٠٣ .

ونعتقد في أنه ليس ثمة ما يدعو إلى رصد جوانب تلك الحياة اللاحية للمجتمع الاشبيلي الأرستقراطي ، ذلك لكونها لا تتطوى بطبيعة الحال على أي مضمون حضاري يتماشى مع ما أخذنا نفسنا عليه في هذا البحث .

وما يجب الإشارة والتأكيد عليه في هذا الصدد هو أن ذلك الانحلال ، وتلك المظاهر العجونية الخلاعية كانت ظملا من عوامل انهيار ممالك الطوائف أمام الزحف النصراني الذي أدى من ثم إلى تدخل الروابطين وقضااتهم على ممالك الطوائف وعلى رأسها مملكة بني عباد .

الصيد والسباق :-

فيما عدا تلك الاهتمامات العجونية لطبقة الخاصة التي عرضنا صفحا عن ذكرها ، فإن هناك مظاهر اهتمام أخرى ميزت الحياة الاجتماعية للخاصة . ولم تخل منها حياة الأسرة المبادية المألوفة ، وحياة الوزراء وطبقة الأرستقراطية .

ويأتى في مقدمة هذه الاهتمامات الصيد . فكون اشبيلية مدينة نهريّة وسريّة جعل أهلها يخرجون للصيد في نهري الوادي الكبير وفي البر . ولسنا في حاجة إلى التذكير بأنه من الطبيعي أن تختلف نظرة الأهالي للصيد باختلاف وضعهم الاجتماعي والمادي ، فإذا كانت العامة تخرج للصيد ابتغاءا للمعيشة وطلبها للرزق ، فإن طبقة الخاصة تطلبه للتسلية . وكان الاهتمام بالصيد البري أكثر من الصيد النهري للثمة التي تضفيها مطاردة الطيور والفرلان والأرانب وغير ذلك ، وقد استعمل الاشبيليون في عملية الصيد الكلاب والبزاة كما هو الشائع في الصيد . وغالبا ما كانت تشهد رحلات الصيد هذه جلسات اخوانية قبل وأثناء وبعد تناول ذلك الصيد الشهى (١) .

(١) : أنظر محمد بركات البيلي : الرسالة السابقة ، ص ١٥٥ .

واهتمت الخاصة بالسباق أيضا • وكان العباديون أنفسهم يشاركون في تلك السباقات • وأبرز من اهتم بالسباق المعتد بطبيعة الحال • وكثيرا ما كان يتخلل هذه السباقات الفكاهات الأدبية والاستجازات الشعرية (١) •

الفناء والموسيقى :-

أما الفناء والموسيقى فقد اشتهر الاشبيليون بالمرح والدعابة والتهكم والتندر ، وأثر ذلك في نفسياتهم وفي نظرتهم للأمور فبمدت حياتهم عن الجد والتجهم ومالت الى الهزل والرقصة (٢) فكانوا كما يقول ابن سعيد المقرئ (أخف الناس أرواحا وأطبعهم نواذرا ، وأجملهم لمزاح بأقبح ما يكون من السب قد مزنوا على ذلك ، فصار لهم ديدنا حتى صار عندهم من لا يبتذل فيه ولا يتلاعن ممقوتا (٣)) •

ونخلص من هذا الى أن هذه الحياة المرحية السهلة لأهل اشبيلية جعلتهم يتعلقون بالفناء والموسيقى ، وقد غدت اشبيلية في عهد بني عباد مركزا رئيسيا للفناء والموسيقى ، وكانت في الوقت نفسه مركزا مهما لصناعة الآلات الموسيقية التي تصدرها الى بقية بلدان الأندلس • وأهم هذه الآلات هي : العود والكرباج ، الخيال ، والبروطجة ، والرباب ، والقانون ، والمؤنس ، والزلامي ، والبوق ، ... الخ (٤) •

-
- (١) : أنظر المقرئ : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٤٢ - ١٤٣ •
 - (٢) : أنظر : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٧ - ٣٨ •
 - (٣) : المقرئ : نفس المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٥٠ •
 - (٤) : المقرئ : نفس المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٥١ • — محمد كرد علي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٣٧ •

ولقد استشهد كثير من المؤرخين والادباء قد يما وحديثا
للدلالة على الحياة المرحية الضاحكة التي تميّزت بها اشبيلية بحسب
الفيلسوف الاندلسي المشهور ابن رشد في مجلس المناظرة بشبان
فضائل مد يمتى اشبيلية وقرطبة ، وكانت هذه المناظرة قد حصلت
بينه وبين الطبيب الاشبيلي ابي بكر محمد بن زهر في مجلس الخليفة
الموحدى المنصور . وقد طال الجدال بين الرجلين الى أن ختمه
الفيلسوف القرطبي بقوله (ما أدري ما تقول ، غير أنه اذا مات عالم
بأشبيلية فأريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها ، وان
مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت الى اشبيلية^(١)) .

الألعاب الرياضية الذهنية :-

ومن الألعاب الرياضية الذهنية التي مارستها الخاصة
كالوزراء والوجهاء وغيرهم الشطرنج ، وقد مرينا سابقا الحماسة
اللطيفة التي لجأ اليها الوزير محمد ابن عمار لرد غارات الفونسو
السادس ، وكيف أنه قد استطاع الوصول الى ذلك عندما ثغلب على
الملك النصراني في لعبة الشطرنج ، كما مارست الخاصة أيضا
اللعبة بالنرد ، كما عرف أهل اشبيلية لعبة اللطمة والمقارع ،
وغير ذلك^(٢) .

(١) : أنظر المقرئ : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٢) : أنظر محمد بركات البيللى : الرسالة السابقة ، ص ١٥٦ .

الحياة الاقتصادية

أ - النشاط الاقتصادي :-

بقى أن نشير أخيرا الى أهم أوجه النشاط الاقتصادي في الدولة العبادية ، وهى الزراعة والتجارة والصناعة . ونجد من الضروري هنا التأكيد على نقطة هامة فى هذا الصدد ، وهى أن معظم ما كتب عن هذه الفاعليات الاقتصادية الثلاث ، إنما يركز على عمومياتها الاشبيلية الموروثة . وذلك لأن بنى عباد لم يكن لهم جهد مذكور فى سن أنظمة وقوانين ، أو عمل مشاريع بارزة للارتقاء بهذه الفاعليات ، ربما لانشغالهم بالتوسع والسيطرة ، الذى أقحمهم فى نزاع ومشكلات مع جيرانهم من ملوك الطوائف ، أو ربما اعتقادا منهم بأن هذه الفاعليات كافية واقية لمسيرة الدولة الاقتصادية . ولهذا فإن هذه الفاعليات أو الأوجه الاقتصادية فى دولة بنى عباد تعتبر امتدادا للعصور الاسلامية السابقة ، واستمرارا لأنظمة وقوانين موروثة مرعية .

أما الزراعة ، فقد كانت أبرز أوجه النشاط الاقتصادي على الإطلاق ، بفضل الطبيعة الزراعية للاندلس عموما ، وبفضل الطبيعة الزراعية التى امتازت بها اشبيلية ، من حيث خصوبة التربة ، ووفرة المياه ، وللقوانين والانظمة التى وضعها الاشبيليون للارتقاء بالزراعة . كنظام الملكية العقارية ، الذى يقوم على أساس تفتيت الملكية القروية الكبيرة الى مجموعة متعددة من الملكيات الصغيرة^(١) ، وكنظام المشاركة^(٢) الذى مربنا ذكره . حيث يقاسم الفلاحون الملاك المحصول الزراعى ، وكان هذا عاملا مهما فى تحسين أوضاع أولئك المموزين الذين لا يمتلكون الأرض ، فكان الملاك الأغنياء يشاطرونهم الانتاج الزراعى مقابل جهدهم العضلى .

(١) : أنظر محمد بركات البيلى : الرسالة السابقة ، ص ٨١ .

(٢) : أنظر الباب الخامس قبل ، ص ٣٧٢ .

وقد زرعها شبيلية معظم الفلات الزراعية المعروفة ،
ولكن أهم الفلات الاشبيلية على الاطلاق الزيتون ، والقطن ^(١) ، والتين ،
ثم قصب السكر . وكان الفلاح الاشبيلي ذا خبرة ودراية عظيمة
بالفلاحة وطرق الري ، وكان لطرق الري والسدود التي أنشأها
المسلمون في الاندلس أثر كبير في تقدم الزراعة الأندلسية عموما .
وقد عرف الاشبيليون أيضا طريقة تخصيص أنواع معينة من النباتات
لكل نوع من أنواع التربة كما أدخلوا نباتات أخرى جديدة ، وأدخلوا
السواقي والقنوات وغيرها ^(٢) .

ومما يدل على شدة اهتمام الاشبيليين بالزراعة ، أن ألف
بعضهم كتباً مهمة عن الفلاحة وشؤونها ومن هؤلاء ، ابن بصال ^(٣)
الذي عاش في عصر المهاديين ، وألف عن الفلاحة كتاباً مهماً أسماه
كتاب الفلاحة ، وقد عاش في عصر المماليك وأنشأ بستاناً زرع فيه جميع
ما جمعه أثناء رحلاته خارج الاندلس وقد سمي هذا البستان : بستان
السلطان ثم تبعه بعد ذلك بفترة غير بعيدة ، ابن العوام الاشبيلي
الذي ألف كتاباً عن الفلاحة أسماه كتاب الفلاحة أيضاً ^(٤) .

-
- (١) : أنظر محمد بن عبد النعمان الحيمري : المصدر السابق ، ١٩ - ٢١ .
(٢) : محمد بركات البيلي ، الرسالة السابقة ، ص ٧٩ ، و ص ٨٤ .
(٣) : هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن بصال ، أو ابن البصال الطليطلي ،
عاش في اشبيلية في القرن الخامس الهجري ، وقد كان يخدم المهتمسند
ابن عباد - فيما يظن - في مجال الزراعة . وقد ألف كتابه : الفلاحة
الذي يقع في ١٦ فصلاً . وقد نشره وعلق عليه وترجمه كل من : خوسيه
ماريا مياس بيكروسا الأستاذ بجامعة برشلونة ، ومحمد عزيزمان
السكرتير العام لوزارة التريسة والثقافة للمنطقة الخليفة بالمغرب ،
منشورات معهد مولاي الحسن - تطوان - ١٩٥٥ م ، وقد كتبت
نبذة عن هذا الكتاب في مجلة معهد الدراسات الإسلامية منقولة من
مقدمة مجلة تطوان التي قدمت لكتاب ابن بصال .
أنظر ابن بصال : كتاب الفلاحة . نشره وترجمه خوسيه مياس بيكروسا .
زاوية الكتب : نقد وعرض المجلد الخامس ، العدد ١ - ٢ ، ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م
(عدد خاص بمناسبة مرور خمس سنوات على انشاء الصحيفة) ص ٨ .
(٤) : محمد بركات البيلي : نفس الرسالة أعلاه ، ص ٧٩ - ٨١ .

الصناعة :

عرفت لشبيلية بحكم الطبيعة الوفيرة والزراعة لها ،
عدة صناعات قامت على الانتاج الزراعى والحيوانى ، كصناعة النسيج ،
وصناعة عصر الزيتون واخراج الزيت منه ، وصناعة السجاد وصناعة
طحن الفلال وغير ذلك .

وجانب هذه الصناعات ، توجد صناعات أخرى ،
كصناعة آلات الحرب ، كالسيفوف والدروع وغير ذلك ، وصناعة مواد
البناء ، وما يتصل بها من صناعة المواد الخشبية ، كالشراحيب^(١) ،
والنوافذ والأحواض الخشبية ، وغيرها^(٢) .

وقد اشتهرت اشبيلية بصناعة السفن بحكم كونها
أول مدينة أندلسية تقام فيها دار لصناعة السفن ، وذلك فى عهد
الأمير عبدالرحمن الأوسط . كما اشتهرت اشبيلية بصناعة الآلات
الموسيقية كما قلنا سابقا ، وكانت هذه الآلات تنقل منها الى مدن
الاندلس والى خارج الأندلس أيضا^(٣) .

التجارة :

ومن الطبيعى أن يهتم الاشبيليون بتصريف انتاجهم
الزراعى والحيوانى والذى يفهم عن حاجتهم ، كما أن من الطبيعى أن
يحتاجوا الى استيراد ما ينقصهم من الضروريات والكماليات التى تزخر
بها المدن الأخرى ، ولذلك فقد اهتموا بالاعتناء بشبكة الطرق
البرية التى تربط مدینتهم ببقية مدن الأندلس . واهتموا أيضا
بانشاء الاسطول بحكم كون مدینتهم تطل على الوادى الكبير
أو نهر اشبيلية كما يعرف أيضا ، الذى يتصل بالمحيط الأطلسى .

-
- (١) : لعلمها الرواشيون كما تعرف فى الحجاز أو المشريات كما تعرف فى مصر .
(٢) : محمد بركات البيللى : الرسالة السابقة ، ص ٩١ - ١٠٤ .
(٣) : محمد بركات البيللى : نفس الرسالة ، ص ٩٨ - ١٠٣ .

وقد مربنا في حديثنا عن البحرية العبادية ، أن العباديين
أنشأوا أسطولين ، حرسى وتجارى .

وقد شهدت اشبيلية في عهد بنى عباد حركة
تجارية كبيرة بفضل هذه العوامل ، وكانت لهم علاقات تجارية
مع مدن الأندلس ، ومع المغرب ، وبلدان المشرق الاسلامى (١).

ب - النقود :-

بقى أن نشير اتماما للحالة الاقتصادية في الدولة
الى السكة العبادية ، فلقد ضرب العباديون عملة خاصة بهم
تحمل اسماءهم ، ويبدو أن أبا القاسم ابن عباد كان أول من ضرب
عملة عبادية من ملوك بنى عباد ، ولكن يظهر أنه لم يضربها باسمه ،
بل ضربها باسم خليفته المزعوم هشام ، وأضاف اليها لقب الحاجب
عباد . وكان لهذا العمل ولاشك مغزى سياسى واضح . وقد
وجدت عملة مؤرخة في سنة ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ هـ ، كتب عليها في
الوجه الامام المؤيد بالله هشام ، اضافة الى اسم الحاجب عباد
في الجهة الأخرى من العملة . وقد ضرب المعتضد نقودا باسمه ،
مكتوب على الوجه الامامى فيها عبارة : المعتضد بالله ، وعلى الوجه
الاخر اسم أحد أبنائه ، كالحاجب اسماعيل ، أو الحاجب محمد ،
أو الحاجب الظافر محمد . الخ .

وكانت العملة تضرب حتى عام ٤٦٤ هـ تحت عبارة
(دار الضرب بالأندلس) . أما في عام ٤٦٥ هـ ، فقد بدأت تضرب
تحت عبارة (ضرب في اشبيلية) .

أما السكة في عهد المعتمد بالله ، فقد ضرب بعضها
في اشبيلية ، والبعض الآخر في قرطبة ، وكذلك ضربت نقود أخرى

(١) : محمد بركات البيلي : الرسالة السابقة ، ص ١٠٣ - ١٠٧ .

في مدينة مرسية ، وكانت تحمل عبارة المعتمد على الله في الوجه الأمامي
وفي الوجه الآخر كتب اسم أحد أبناء المعتمد كالحاجب سراج
الدولة ، وغيره .

ويبدو أن العملة المبادية قد استمرت تضرب حتى
عام ٤٧٨ هـ ، وهو العام الذي وقعت فيه موقعة الزلاقة ، ثم انقطع
أي ذكر لها بعد ذلك . وربما يعود ذلك إلى أن ضغط الأحداث
التي أعقبت موقعة الزلاقة قد عرقل سكها أو ربما ذهبها
تتابع الأحداث تلك فانعدم بعد ذلك العام أي ذكر النقود
عبادية (١)

(١) : للاطلاع على مزيد من التفاصيل عن العملة المبادية يراجع :
محمد بركات البيللي : الرسالة السابقة ، ص ١١٥ - ١١٧ .

الحياة العلمية والأدبية

الأثر الحضارى لقيام ممالك الطوائف :-

ذكرنا فيما مضى أنه رغم التفتت والانحلال والتمزق السياسى الذى ساد الاندلس فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى الا أن هذا القرن شهد اشراقا حضاريا وثقافيا كبيرا ، ولم تكن الثقافة الاندلسية كما يقول ليفى بروفنسال (فى يوم من الايام أكثر ازدهارا وخصبا منها خلال هذا القرن) (١) .

وفى حقيقة الأمر فان الازدهار العلمى والأدبى الذى ساد الاندلس خلال عصر ملوك الطوائف كانت له ارهاصاته ومقدماته منذ عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر ، ثم عهد الحاجب المنصور بن أبى عامر . وهى الفترة الزمنية السابقة مباشرة لعصر ملوك الطوائف .

وقد سما هؤلاء بالاندلس سياسيا وعلميا وأدبيا وعمرانيا الى درجات رفيعة من السمو والرفعة . وتجلت مظاهر ذلك السمو فى المنشآت العمرانية كعمارة جامع قرطبة ، وعمارة مدینتى الزهراء والزاهرة ، كما تجلّى ذلك التقدم فى الجانب الادبى أيضا ، وشهد ذلك العصر بالإضافة الى ذلك تقدما علميا ليس أدل عليه من أن ملوك أسبانيا النصرانية كانوا يؤمنون بلاطات خلفاء بنى أمية طلبا للعلاج والشفاء (٢) .

-
- (١) : حضارة العرب فى الاندلس ، ترجمة ذوقان قرقوط ، ص ١٩ .
(٢) : للاطلاع على النهضة العلمية والأدبية والثقافية فى عصر الخلافة والدولة المأمورية أنظر :

ليفى بروفنسال : حضارة العرب فى الاندلس ، ص ١٩ - ٢٠ .
مانويل جوميث مورينو : المرجع السابق ، ص ٧١ - ٢٠٠ .
أحمد هيكمل : الادب الاندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة : الفصل الرابع ، ص ١٩٥ الى نهاية الكتاب . — جودت الركابى : فى الأدب الاندلسى ، ص ١٩ - ٢٠ . — عبدالرحمن على الحجى : أندلسيات ، ص ١٩ - ٢٠ .

ولذلك فإن القرن الخامس الهجرى يعد مكملاً لتلك الاتجاهات الحضارية . وأسهم ملوك الطوائف فى ازكاء ذلك ودفعه حتى ليصدق القول بأن جوانب الحضارة والتمدن (قد اكتملت أو كادت حتى وصلت الى مرحلة لا بد لها من جنوح أو هبوط) (١)

وقد أخذ ملوك الطوائف على عاتقهم مهمة ذلك الدفع الحضارى والثقافى لأغراض شخصية محضة لاضفاء هالات المجد والصيت على بلاطاتهم فى معظم الاحايين ، أو لارضاء نزعات علمية وأدبية وتاريخية ذاتية كما كان شأن بلاطات اشبيلية وبلطاس وسرقسطة . وكان تأثير عواصم ممالك الطوائف على الفن والعمارة عظيمًا ، وذلك لأن كل عاصمة من هذه العواصم اندفعت جاهدة لتتفوق على العواصم الأخرى وتدل عليها بما حققته من تقدم علمى وأدبى وعلمى (٢) رفيع .

ولقد استوقفت هذه المفارقة التاريخية أى ظاهرة الاشراق الحضارى والثقافى فى قلب أزمة الانحلال والتمزق السياسى الكثير من الادباء والمؤرخين فلفتوا النظر اليها فى دهشة واستغراب شديد (٣) وان لم يقتهم أن يستدركوا أن هذه المفارقة التاريخية كانت تصدق دائما فى عصور الانحلال والتمزق . لأن تفتت أى نظام حكم مركزى الى ممالك وامارات متناثرة يفضى دائما الى ظهور تيارات من المنافسات والمشاحنات ، وتدفع هذه التيارات المتنافسة الممالك المتناحرة الى تشجيع العلم

(١) : احسان عباس : المرجع السابق ، ص ١٠٧ وما بعدها .

(٢) : أنظر محمد عبدالعزيز مرزوق : المرجع السابق ، ص ٦٢ - ٦٣ .

(٣) : أنظر ليفى بروفنسال : حضارة العرب فى الاندلس ، ص ١٩ - ٢٠ .

وسلسلة محاضرات عامة فى أدب الاندلس وتاريخها ، ترجمة

عبد الهادى شميرة ، ومراجعة عبد الحميد العبادى ، ص ١٣ - ١٤ .

— محمد كرد على : غابر الاندلس وحاضرها ، ص ٢١ وما بعدها .

والأدب . والحبو على رجالتهما وتكريمهما ، لتدل بذلك على غيرها
كما ذكرنا . ولتسبغ على شخصيات قادتها أكالييل المجد والشار .

ونحن هنا في هذا المقام لا يعنينا دراسة الأدب
والعلوم والثقافة ، والتطور الذي رافق مسيرة الحضارة الاندلسية في
عصر ملوك الطوائف ، فليس ذلك في منهاجنا . وإنما ما يعنينا هو
التأريخ لتلك الأوجه الحضارية لنخلص الى نتيجة ذات مساس ببحثنا
الا وهي معرفة الحياة العلمية والادبية في مملكة بني عباد موضوع بحثنا .

وما نستطيع الخلو من اليه من كل ما قيل حول التطور
الحضاري في القرن الخامس الهجري ، هو التأكيد على حقيقة مفادها
أن بلاطات ملوك الطوائف قد أصبحت مراكز أدبية حامية حولها العلماء
والادباء والشعراء يقدمون الى الملوك نتاج عقولهم وقرائحهم ، ومكنونات
عواطفهم ومواهبهم ، وينالون على ذلك الأعطيات الجزيلة ، حتى
لقد دفع هذا التشجيع بعض الشعراء الى رفع أسعار أشعارهم
لدرجة جعلت أحدهم لكثرة المنافسات عليه يقسم أن لا يمدح أميراً
من الأمراء بأقل من مائة دينار .^(١)

كما أن ما نستطيع استخلاصه من أثر حضاري
لقيام ممالك الطوائف ، تلك الملاحظة التي دأب كثير من الادباء
والمؤرخين على ترديد ها للاستدلال بها على النهضة الأدبية في
عصر ممالك الطوائف . هذه الملاحظة هي التي وردت على لسان
المؤرخ المشرقي القزويني مفادها أنه (من احدى عجائب مدينة
شلب ، أنه قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعراً ، ولا يعاني الأدب ،
ولو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألت عن الشعر قرض من ساعته
ما اقترحت عليه ، وأى معنى طلبته منه)^(٢)

(١) : اميليو غارسيا غومس : الشعر الاندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، ص ٤٦ .

(٢) : كامل كيلاني : نظرات في تاريخ الادب الاندلسي ، ص ٣٤٠-٣٤١ .

ومما نستطيع استخلاصه أيضا من أثر حضارى لقيام
ممالك الطوائف ، هو أن المعرفة والتراث الاندلسى فى عصر هذه الممالك
قد شهدا تطورا مطردا فى شتى المناحي . فزخر بوجود عدد
كبير من الاعلام فى شتى نواحي المعرفة ، فكان هناك علماء فى
الهندسة ، والفلك والرياضيات ، والرصد ، وحركات النجوم ، وكان
هناك علماء فى الفلسفة والطب ، والمنطق والصيدلة ... الخ .

وفىما يتعلق بالعلوم العقلية كان هناك علماء فى
الفقه والتفسير والفرائض ، والنحو والتاريخ والجغرافيا . ولسنا
هنا فى ذكر أسماء الاعلام الذين أسهموا فى هذه المجالات
الحضارية المختلفة لأن ذلك ليس من منهجنا أولا ، ولأن كثيرا من كتب
المحدثين قد كفتنا مؤونة ذلك من جهة أخرى (١)

وفىما يتصل بالحياة الادبية باعتبارها أهم مظهر
حضارى فى عصر ملوك الطوائف ، فان المقام يضيق بذكر اعلامها
الأفذاذ . وكانت أى الحياة الادبية فى الاندلس فى عهد ممالك
الطوائف مجالا رحبا لمصنفات حديثة أوسمتها بحثا وثقوبا (٢)

(١) : أنظر مثلا :

— محمد كرد على : غابر الاندلس وحاضرها ، ص ٥١ — ٩٣ .
— عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ط ٣ ، الفصل الثالث
والفصل الرابع من الكتاب . — حسين مؤنس : شيوخ العصر ،
ص ٨١ — ٨٤ .

(٢) : أنظر مثلا :

— احسان عباس : المرجع السابق . — مصطفى الشكعة : الأدب
الاندلسى موضوعاته وفنونه . — أنخل جنثالث بالنتيا : تاريخ
الفكر الاندلسى . — اميليو غارسيا غومس : المرجع السابق
وغير ذلك .

على أننا نجد أنفسنا مضطرين الى أن نفسح لبعض الاعلام الأفذاذ في هذا المقام ذكرا ، لأن أولئك الاعلام الأفذاذ الذين تنوعت اهتماماتهم وتباينت اتجاهاتهم ومشاربهم قد فرضوا أنفسهم على كل من اضطلع بدراسة أو تاريخ الحياة العلمية والأدبية والفكرية بوجه عام .

فمن هؤلاء العلماء الأفذاذ : ابن حزم الفقيه والمفكر الاندلسي المشهور ، وفي هذا ما يكفي للتعريف به ^(١) . ومن هؤلاء أيضا الفقيه الاندلسي المشهور ابن عبد البر الذي كان يقال له حافظ أهل القصر ^(٢) ومن الاعلام الذين خلدت أسماؤهم أيضا : الفقيه أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي ^(٣) أما أبرز شخصيات ذلك العصر الأدبية ، فهم ابن شهيد ^(٤) ، وابن زيدون ^(٥) ، وابن عمار ^(٦) ، وابن اللبانة ^(٧) وغيرهم .

-
- (١) : أنظر ترجمته في :
 - ابن خلكان : المصدر السابق ، مجلد ٢٨ ، ترجمة رقم ٤٤٨ .
 - ابن كثير : البداية والنهاية ، ١٦ جزءا ، ج ١٢ ، ص ٩١-٩٢ .
 - ابن تفرى بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٧٥ .
- (٢) : أنظر ترجمته في :
 - ابن خلكان : نفس المصدر السابق ، مجلد ٧ ، ترجمة رقم ٨٣٧ .
 - ابن بشكوال : المصدر السابق ، ص ٦٤ .
- (٣) : أنظر ترجمته في :
 - ابن خلكان : نفس المصدر السابق ، مجلد ٧ ، ترجمة رقم ٢٠٥ .
 - ابن شاکر : فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٣٥٦-٣٥٧ .
- (٤) : أنظر ترجمته في :
 - ابن خلكان : نفس المصدر السابق ، مجلد ١ ، ترجمة رقم ٤٨ .
 - احمد هيكل : المرجع السابق ، ص ٤١٠ - ٤١٩ .
 - أميليو غارسيا غومس : نفس المرجع السابق ، ص ٣٩ .
- (٥) : عن ابن زيدون أنظر :
 - علي عبد العظيم : ديوان ابن زيدون ورسائله .
- (٦) : عن ابن عمار أنظر :
 - صلاح خالص : محمد ابن عمار الاندلسي .
- (٧) : أنظر بعد ، ص ٤١٢ .

بقى أن نشير إلى أن ملوك الطوائف أنفسهم كانوا

ذوي علم وأدب ومعرفه ، وكان لكل واحد منهم ميزة اختصاصها دون
جيرانه ، (فامتاز المتوكل صاحب بطليوس بالعلم الفيزي^(١)) وامتاز
ابن ذي النون صاحب طليطلة بالبذخ البالغ ، وفاق ابن رزي^(٢)
صاحب السهلة أفناده في الموسيقى ، واختص المقتدر بن هود
صاحب سرقسطة بالعلوم وميز ابن طاهر صاحب مرسية أقرانه
بالنثر الجميل المسجوع ، أما الشعر فكان أمرا مشتركا بينهم
جميعا ، يلقي منهم كل رعاية^(٣) .

ان ذلك القرن الحادي عشر الاندلسي لعالم عجيب

متدفق الحركة : عصر كانت الفاسلة فيه تنتقل من ضفة النهر
إلى الم^(٤)رش ، وكان الملوك فيه ينزعون عن عروشهم ويسلمون
إلى أنياب المنيعة ، أو يلقي بهم في ظلمات المنفى ! ان اشعاره
الغالبة عليه هي الانهيار^(٥) .

(١) : أنظر قبل الباب الرابع ، ص ٢٥٥

(٢) : هي سهلة بنى رزي^(١)ن أو شنتمرية الشرق كما كانت تعرف
في الجغرافيا الإسلامية أيضا .

(٣) : اميليو غارسيا غومس : المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(٤) : المقصود بذلك اعتماد الرميكية زوج المعتمد بن عباد التي
تعرف عليها لأول مرة على ضفة نهر الوادي ، ثم اشتراها
من سيدها وتزوجها ، وأنجب منها كل أولاده المشهورين
في كتب التاريخ والأدب .

(٥) : اميليو غارسيا غومس : نفس المرجع أعلاه ، ص ٤٥ .

الحياة العلمية والأدبية في مملكة بني عباد :-

من أسف أن المؤرخين والادباء القدامى رغم اهتمامهم الشديد ببني عباد وبدولتهم لم يسعفونا بالمادة التاريخية اللازمة لمعرفة الحياة العلمية والأدبية على وجه التخصيص . فكلما نشاهد من ذلك الحشد من الاشعار وأسماء عديدة لشعراء وأدباء وكتاب زخرت بهم دولة بني عباد لا يعد ونطاق أغراض الشعر والنثر التي كانت سائدة في الاندلس في هذه الفترة . كما لم نتح لنا سائحة المشور على أخبار عن المدارس والمعاهد والمكتبات التي أنشأها العباديون لخدمة العلم والمعرفة في المملكة .

فكل ما يمكننا الاشارة اليه - بالنسبة للحياة العلمية والأدبية في اشبيلية في عهد بني عباد - هو ذلك الثبت الجرم من الأسماء لأدباء وشعراء زخرت بهم بلاطات بني عباد . ومهمتنا في هذا الصدد تقتصر على رسم صورة واضحة المعالم للحياة الأدبية والعلمية في اشبيلية في هذه الفترة موضوع الدراسة .

العباديون في دولة الأدب :-

بادئ ذي بدء نجد أن الاتجاه الشعري هو الغالب على ملوك بني عباد ، فقد كان ملوك هذه الدولة ابتداءً من عهد القاضي أبي القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد ، ومرورا بالمعتضد ابنه ، وانتهاءً بالمتعمد وأبنائه يقرضون الشعرو ينظمونه على درجات متفاوتة في علو الكعب وسمو الدرجة .

وقد حفظت للقاضي أبي القاسم عدة أبيات يصف فيها الطبيعة بعناصرها المختلفة كالأزهار والرياحين^(١) .

(١) : أنظر المقرئ : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٥٩ ، وص ٣٧٢-٣٧٣

(نقلا عن ابن اللبانة - والفتح بن خاقان في مطمح الأنفس) .

ويبدو أن القاضي كان مقلا جدا في قول الشعر ونظمه ، فمندا ما ذكرنا عن تلك الأبيات التي نظمها في وصف الطبيعة ، لم يحفظ له شيء من الشعر سوى ما أثبتته ابن بسام له من أبيات عارض فيها بعض شعراء بلاطه (١) .

والظاهر أن مشاغل تأسيس الدولة من جهة ، والاهتمامات السياسية للقاضي نفسه من جهة ثانية حالت دون اهتمامه بالأدب في عهده بصفة عامة . وإن كان هذا لم يكن أمرا مطلقا دائما ، فبلاط القاضي شهد أكثر من شاعر بلاطي متخصص ، كما شهدت الحياة الأدبية والعلمية صور من المعارضة الشعرية التي كانت تستهوي دائما ملوك تلك الفترة .

أما الممتضد فله شعر يضعه في مراتب الشعراء المبرزين ، وإن كانت له أشعار تجعل المرء يشكك كما يقول على أدهم في شاعريته (٢) .

على أنه فاق أباه في نظم الشعر وقرضه ، والاجازة عليه وتشجييمه . وقد طرق معظم أغراض الشعر ، وأغرق كثيرا في مدح نفسه والتفاخر بأعماله (٣) ، ويقول أنخل جنثالت بالنشيد عنه (وقد كان ذا مزاج متناقض غريب ، يجمع بين الدهاء والقسوة ، وكانت له - إلى ذلك - ذاكرة واعية ، وقريحة شاعرية طيبة جعلت معاصريه يضمونه في صفوف المبرزين من القراء ، وأحاط الممتضد

(١) : أنظر الذخيرة ، القسم الثاني ، المجلد الأول ، ص ١٧٢ - ١٧٥ .

(٢) : المرجع السابق ، ص ٧٢ .

(٣) : عن شعر الممتضد بالله أنظر :

ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، ص ٦٧ - ٨٠ .

نفسه بهالة من الشعراء جعلت همها مدحه ، وأفرغ عليهم الأموال
فبدا في حياة خلافة من العظيمة ^(١) .

أما المعتمد فشهرته كشاعر أشهر منها كملك وكسياسي .
ولم يبلغ الشعر من الانتشار والاشراق مثلما بلغه في أيامه . وقد
أفردت لشاعريته وأدبه صفحات جمّة وفيرة في كتب المؤرخين
قديميما وحديثا . ولم ينل ملك من ملوك بني عباد فضلا عن ملوك
الطوائف ما ناله المعتمد من عناية واهتمام الدارسين للأدب .

وهو في الواقع حقيق بذلك . فالجانب العاطفي من
شخصيته أسمى كثيرا وأرق من الجانب السياسي . وهو جانب
(لا ينهض بحقه من غير شك) ^(٢) إذ أن هذا الجانب العاطفي
أشدّ خلافة وأسرا كما يقول ليفي برونفسال أيضا ^(٣) .

والمعتمد من أكبر شعراء الاندلس لا في عهد ممالك
الطوائف فحسب ، بل في كافة العصور الإسلامية الأخرى في الاندلس ،
لا بل هو من شعراء العربية الأعدان على مستوى العالم الإسلامي
في العصور الوسطى .

ويحار المرء في اختيار المبارات التي يطرقها
لوصف شاعرية المعتمد ، وتزداد المهمة صعوبة لكوننا بعيدين
عن مجالات الأدب . ولكن يحسن بنا أن نشير الى أقوال القدامى
والمحدثين في شاعرية هذا الملك الذي أسربلاطه أولئك

(١) : تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ٨٦ - ٨٧ . — الفتح بن خاقان :

القلائد ، ص ١٣ - ١٤ .

(٢) : ليفي برونفسال : سلسلة محاضرات عامة في أدب الاندلس وتاريخها ،

ص ١٤ - ١٦ .

(٣) : نفس المرجع والصفحة .

المؤرخين والأدباء • يقول ابن الخطيب فيما ينقله عنه عبد الوهاب عزام (والمعتمد على الله محمد بن عباد نسيج وحده في الجود ، وأصلب نظرائه مكسر عود ، فذ في البلاغة ، طرف في الشعر والكتابة ، بارع النظم والنثر ، كثير الأدب ، جذل الألفاظ ، كثير المعاني ، حسن المآخذ ، له من معاطف الكلام ، رقيق الحاشية ، كثيف المتن ، كثير البديع ، رائق الديباجة ، لائق الاستمارة ، حسن الإشارة ، جم التوليد ، لم ينشده من الوزراء والشعراء أشعر منه على كثرة ما اجتلب اليه من أعلامه الثناء ، ونثر عليه من در الحمد ، ووضع في يديه من حر القريض ^(١) .

تري هل يكفي هذا الحكم النقدي في إبقاء المعتمد حقه ؟؟ نعتقد أنه لا يكفي فما زال في جمعيتنا من أحكام الأدباء والمؤرخين الكثير مما يؤيد ما جاء في المتن • غير أنه بحسبنا هنا أن نكتفي بذلك ، لننتقل الى العصر الحديث فننقل اعجاب المؤرخين المحدثين به • يقول أنخل جنثالت بالنيثيا ^(٢) (وكان الحال في اشبيلية شبيها بما كان عليه في ألمرية ، إذ حظى الشعر فيها على ما عداه من أضرب الأدب في ظل بنى عباد • ولقد كان المعتمد والمعتمد من أعلام الشعراء ، ومن ثم لا نستغرب أن يكون بلاطهما مدرسة تخرج فيها أهل الآداب • وقد وصلت الخمریات وشعر النسيب والفزل أعلى درجات الكمال في ذلك البلاط المصقول ، حيث عجز شعراء مجيدون من طبقة علي بن حصن وابن حمد يس الصقلي ، وأبى بكر بن زيدون ، وأبى بكر بن اللبانة ، وغيرهم كثيرون عن ادراك ما وصل اليه ابن عمار ، وزير المعتمد النابيه الذكر المنكود الحظ من تحليق بعيد في سماء الشعر ، وقصروا كذلك في ملاحقة اعتماد نفسها زوج المعتمد وجارية رميك التاجر الاشبيلي قبله ، فضلا عن مجارة الملك الشاعر المعتمد فيما أبدعه من

(١) : المعتمد بن عباد الملك الجواد الشجاع الشاعر المرزا ، ص ١٧-١٨ .
(٢) : تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ٨٨-٩٠ .

رائع القصيد • والحق أن المعتمد وفق في أيام سموده ومجده ، الى درجة من التجويد مكنت له أن يصل بشعره - في أبواب الفزل ، ووصف مجالس السرور ، ووصف الحرب والنصر - الى آفاق استدرت اعجاب البدو أنفسهم ، فلما تنكرت له الأيام ، وعانى أوصاب السجن والهوان ، أخذت نفسه الفتانة تجود بدرر من الشعر لازالت تثير في أنفسنا الى اليوم الاجلال لهذا الملك الفارس الشهم الكريم •

أما اميليو غارسيا غومس فيقول في معرض تقييده لمصر ملوك الطوائف (واذا كان لابد من تصوير المحنة العامة التي شملت الشعر خلال ذلك العصر في صورة شخص واحد من أهله ، فليس أوفق لذلك من المعتمد ابن عباد صاحب اشبيلية (٤٦١هـ / ١٠٦٨م - ٤٨٤هـ / ١٠٩١م) كان أبوه المعتضد (٤٣٤هـ / ١٠٤٢م - ٤٦٢هـ / ١٠٦٩م) - صاحب الأفاعيل الشنيعة - وأبناءؤه جميعا ، وخاصة " الراضى " الرقيق صاحب رعدة ، كلهم شعراء • ولكنه بزهم جميعا وفاق كل معاصريه في ذلك المضمار لأنه كان يمثل الشعر من ثلاثة وجوه : أولها أنه كان ينظم شعرا يثير الإعجاب ، وثانيها أن حياته نفسها كانت شعرا حيا ، وثالثها أنه كان راعى شعراء الأندلس أجمعين بل شعراء الغرب الاسلامي كله ، فالى بلاطه لجأ شعراء افريقية وصقلية ، عند ما غزا النورمان بلادهم واستولوا على بعضها ، وتهددوا الباقي (٢)

بحسبنا هذه الأحكام لنستدل بها على علو درجة المعتمد الشاعرية وعلو كعبه الأدبي • وبالإضافة الى ذلك كان المعتمد ناقدا محلا • عرف عنه ذلك واشتهر حتى كان الشعراء يخرجون عند القاء قصائدهم بين يديه وحتى كانوا يتحامونه لعلو كعبه في النقد الأدبي (٣) وبالإضافة الى ذلك كان شديد الاهتمام بالمسلم والمعرفة ، شغوبا الى فهم ما استشكل

(١) : المرجع السابق ، ص ١٥ - ١٦ •

(٢) : المرجع السابق ، ص ٤٦ - ٤٧ •

(٣) : أنظر المقرئ : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١١٠ - ١١١ •

منها • وخير دليل على ذلك السؤال الذى وجهه المعتمد الى الاعلم الشنتمرى المذكور سابقا يستفسر فيه عن النطق الصحيح لكلمة (المسهب)^(١) •

وقد بقيت هذه الذكرى المطرة للمعتمد حية مشرقة • تتناقلها الاجيال حتى الوقت الحاضر • ودفع هذا الاعجاب للشاعر الكثير من القدامى والمحدثين الى تتبع حياته وأدبه وثقافته الواسعة العريضة • كما استهوت حياته البائسة وأشعاره الشجية الرقيقة الباحثين قد يما وحديثا^(٢) • وظلت أشعاره تجتذب أنظار الأدباء والدارسين والنقاد وسائر غواة الأدب المحض والثقافة الحقة كما يقول على أدهم • وقد جمع شعره فى ديوان أطلق عليه اسمه^(٣)

هذا غيض من فيض هذا الشاعر وقليل من كثير ألقه وأمجاده الأدبية • ولم يكن أبناء المعتمد ليشذون عن النهج — بالشعر لا بل تذوقه وقرضه عن آبائهم • ولعل أبرزهم ظهورا فى هذا الميدان : يزيد الراضى صاحب الاشعار الرقيقة الجزلة^(٤) •

-
- (١) : أنظر المقرئ : نفس المصدر والمجلد • ص ٢١٦ — ٢١٨ •
 (٢) : من المؤلفات التى ألقت حول شخصية المعتمد الشعرية أنظر :
 عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة • ص ٦٤٤ •
 — على أدهم : المرجع السابق • — عبد الوهاب عزام : المرجع السابق • — صلاح خالص : المرجع السابق وغيرهم •
 أما بالنسبة للدوريات فهناك العديد منها التى تناولت شخصية المعتمد الادبية نذكر منها على سبيل المثال : ابراهيم حركات : شعر المعتمد بالله فى المغرب • مجلة البحث العلمى • ١٩٦٥ م • —
 الصديق بن العربى : المعتمد فى المغرب • مجلة تطوان • العدد ١٠ • ١٩٦٥ م • —
 عبد القادر زمامة : شعر المعتمد فى المنفى • مجلة البحث العلمى المغربى • الرباط • ١٩٦٤ م •
 (٣) : أنظر احمد احمد بدوى وحامد عبد المجيد : ديوان المعتمد بن عباد • —
 رضا الحبيب السويسى : ديوان المعتمد بن عباد أيضا •
 (٤) : أنظر ابن الابار : المصدر السابق والجزء • ص ٧٠ — ٧٦ •

أبرز شعراء الدولة العبادية :-

ذكرنا أن الحركة الأدبية في عهد القاضي أبي القاسم محمد أول ملوك الدولة العبادية لم تبلغ من التمكين والانتشار ما يصدق القول معها بأن ثمة نهضة أدبية كانت تعيشها الدولة في عهده ، بيد أننا من خلال استطلاعنا لأحوال الدولة في عهد القاضي لا نعدم وجود حركة فكرية وأدبية محدودة . وكان على رأس شعراء الدولة أبو الحسن ابن الأستجى ، وابن القوطية ، وأبو الأصمغين ابن عيسى^(١).

أما في عهد المعتضد بالله فقد بلغت دولة الأدب في عهده شأواً بعيداً بحكم عدة أسباب منها : اتساع رقعة الدولة واتساع خيراتهم بالتالي ، ومنها ميول المعتضد نفسه الميالة إلى الأدب والمعرفة ، ثم التطور الطبيعي للأدب الذي شاهده بلاطات ملوك الطوائف آنذاك إلى حد قاربت فيه مدارج الكمال . وأخيراً إلى شيوع ظاهرة التنافس بين ملوك وأمراء الطوائف في الاستئثار بالموهوبين من الشعراء والادباء لبلاطهم وحدهم .

والمتمم للحركة الأدبية في اشبيلية في عهد المعتضد يلحظ ثبوتا كبيرا من الأسماء لأدباء كان لهم وقتها صيتا وذكر ، أحاط المعتمد بهم بلاطه . وان لم يتدخل عن ممارسة سياسته في الإيقاع بهم والتخلص منهم .

ونذكر في اقتضاب بالغ بعضاً من هؤلاء الشعراء والادباء . فمنهم أبو الوليد حبيب بن عامر الذي ألف كتابه المسمى بـ: البديع في فصل الريع . وقد توفي شاباً في شرح الصبابة^(٢) .

(١) : أنظر ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الأول ، ص ١٢٠ - ١٢٥ .

(٢) : ابن بسام : نفس المصدر والقسم والمجلد ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

ومنهم أبو الوليد محمد بن عبد المزيو المعلم^(١)، ثم أبو بكر الخولاني^(٢)، ثم الشاعر المشهور ابن الأبار وهو غير ابن الأبار القضاعي صاحب الحلة السيرة^(٣)، واسمه الكامل أبو جعفر أحمد ابن الأبار وهو أحد شعراء الخلاعة والمجون في دولة المعتضد بالله^(٤)

ومن مشاهير شعراء المعتضد أيضا الأديب أبي الحسن علي بن حصن الاشبيلي . وكان شاعرا مقلدا ، غير أن مكانته الأدبية كسفها ظهور الشاعر الأشهر ابن زيدون الذي التحق بالبلاط العبادي ، فبدأت المنافسات بين الرجلين ويبدو أن ابن حصن كان يلي بالاضافة إلى كونه أحد أبرز شعراء البلاط منصبا حكوميا هاما . ولذلك بدأ يعرض بالوزير الشاعر ابن زيدون ويتهكم عليه . وكان المعتضد نفسه يزكي هذه العداوة بين الشاعرين حتى ارتكب ابن حصن خطأ فادحا - لانعلم كنهه - فقتله المعتضد وتخلص منه^(٥)

ومن شعراء دولة المعتضد بالله ابن جاح البطليوسي . وقد تولى في عهده رئاسة الشعراء . وقد استفدنا حق الاستفادة من ترجمة حياته في معرفة ناحية مهمة عن الشعر في عهد المعتضد بالله ، إذ يبدو أنه كانت هناك دار مخصصة للشعراء والأدباء أو قل ديوان للشعر يجتمعون فيه وينالون إعطياتهم من الملك جزاء أشعارهم ، بمعنى أنهم كانوا شعراء ملتزمون بخدمة السلطان برواتب معينة . كما عرفنا أن المعتضد كان يجتمع في ذلك الديوان بالشعراء في يوم معين من الأسبوع وهو يوم الاثنين ، فيستمع إلى أمداحهم فيه^(٦)

(١) : أنظر ترجمته في :

ابن بسام : نفس المصدر والقسم والمجلد ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) : أنظر ترجمته في :

الحميدى : المصدر السابق ، ص ٣٩٢ .

(٣) : أنظر ترجمته في :

صلاح خالص : اشبيلية في القرن الخامس الهجري ، ص ١٦١ - ١٦٤ .

(٤) : أنظر ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الأول ، ص ١٣٣ -

(٥) : أنظر المقرئ : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٧٤ - ٢٧٦ .

أما أشهر كتاب النثر فى عهده فهو الكتاب المعروف
ابن عبد البر ، وهو الذى حرر ارتجالا خطاب المعتضد لملوك الطوائف
الذى يشرح فيه أسباب فتكه بآبائه اسماعيل كما ذكرنا . وكان كاتبها
مفلقا ، الا أنه تعرض لنزوة غضب المعتضد فحاول القتلك به . وكاد
أن يفعل ذلك لولا وصول والده العالم الفقيه المشهور ابن عبد البر
الذى توسط له عند المعتضد فعفا عنه (١).

ومن هؤلاء الشعراء أيضا ابن شرف القيروانى الذى
تحاشى الوصول الى المعتضد بالله وكان يرسل له أمداحه من موطنه ،
ورفض كل اغراءات المعتضد له للقدوم اليه خوفا على حياته من هذا
الملك الذى لم يكن يؤمن له جانب (٢).

أما أبرز شعراء الدولة فى عهد المعتضد طرا
وأبعدهم ذكرا ليس فى بلاط المعتضد فحسب ، ولا فى اشبيلية أيضا ،
وانما فى الاندلس عامة ، فهو أبو الوليد أحمد بن زيدون المخزومي
القرطبى الذى ترك موطنه قرطبة لاجئا ببلاط المعتضد بالله .
فأكرم وفادته هذا وبالغ فى تكريمه وتشجيعه . وبادله ابن زيدون
حبا بحب ، وكانت العلاقات بين الرجلين علاقة تفهم واكبار . وقد
عهد المعتضد لأبى الوليد بن زيدون بمنصب ندى الوزارتين . وقد
صاغ فيه ابن زيدون أجمل القصائد . وظل ابن زيدون موفور الكرامة ،
عزيز الجانب - الا فيما ندر - حتى وفاة المعتضد ، وكان هذا
شيئا غريبا ، ان لم يسلم أحد من شرور المعتضد وأحابيله (٣).

(١) : انظر ابن خاقان : القلائد ، ص ٢٠٦ . —
وانظر كذلك ابن الأبار : اعتاب الكتاب ، ط ١ ، ص ٢٢٠ - ٢٢٢ .

(٢) : انظر ترجمته فى :
ابن بسام : نفس المصدر السابق ، القسم الرابع ، المجلد الاول ،
ص ١٣٥ - ١٤١ .

(٣) : عن ابن زيدون أنظر :
على عبد العظيم : ديوان ابن زيدون ورسائله . جمع فيه كل ما قيل
عن الشاعر وعن علاقته بدولة بنى عباد ومناصبه . . . الخ .

كما ظلت علاقة ابن زيدون بالمعتمد فوق كل شبهة وشك ، وبذلك حافظ على مكانته في بلاطه .

ثم الشاعر محمد ابن عمار الذي ذكرنا سابقا أنه اتصل بالمعتضد بادئ ذي بدء ، فمدحه ووصله ، ثم توثقت علاقته بالمعتمد بعد ذلك ، الى أن كانت نهايته على يديه كما سبق أن ذكرنا (١).

أما في عهد المعتمد فقد كان شعراء البلاط العبادي أكثر من أن يحصيهم الفرد ، فقد أصبح بلاطه كمبة القصاد من كل مكان و صوب .

ولن نمضي طويلا في ذكر أسماء شعراء دولته . وبحسبنا أن نشير الى الاسماء الالمة جدا في سماء اشبيلية وفي حياتها الادبية مثل الشاعر عبد الجليل بن وهب (٢) ، والشاعر الصقلي ابن حمد يس الذي كان أبرز شعراء الدولة وقد زار المعتمد في منفاه ، ورثاه كثيرا (٣).

ثم الشاعر المشهور المعروف بابن اللبانة وهو محمد بن عيسى الداني ، وكان ذا شعر جيد ، وكان المعتمد يميزه عن غيره ويعجب لما يأتي به من النادر الفريب ، وكانت علاقته بالمعتمد أقرب الى علاقات الأصدقاء منها الى علاقات المخدمين . وقد أوقف جل حياته في مدح العباديين والمعتمد بالذات ، وعند ما خلع المعتمد زاره في منفاه بأغمت كثيره ورثاه أحر رثاء دل على شديده وفائه وكريم أصله (٤).

(١) : انظر قبل الباب الثالث ، ص ٢٢٥ - ٢٣١ .

(٢) : انظر عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

(٣) : انظر المقرئ : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٤١ - ١٤٣ .

احسان عباس : ديوان ابن حمد يس ، ص ٦ - ٧ .

(٤) : عن ابن اللبانة : انظر :

ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني ، المجلد الاول ، ص ٥٠ .

— ابن خاقان : القلائد ، ص ٢٨٢ . — عبد السلام الهراس : مقال

بعنوان ابن اللبانة ، مجلة تطوان ، العدد الخامس ، السنة ١٩٦٥ م .

العمـران

لعل من المؤسف أن نجد العمران هو أقل أوجه الحياة الحضارية في الدولة العبادية ذكرا ونصيبا في كتب الادب والتاريخ والفنون . فما ورد في هذه الكتب عن العمران في عهد العباديين ، إنما هو عبارة عن اشارات مقتضبة موجزة عن الانشاءات العمرانية التي تنسب لهم . وحتى القصور الملكية العبادية التي حرص المؤرخون على أن يذكروا لنا أسماءها لم تنل نصيبا من الوصف والتدقيق . ويشعر المرء الاستغراب وهو يرى أن المؤرخين - على اهتمامهم الفائق بالدولة العبادية - لم يهتموا بذكر منشأتها العمرانية في الوقت الذي استطعنا أن نعرف المقدار العظيم من التقدم العمراني الذي بلغته بعض ممالك الطوائف الاخرى من خلال الوصف الدقيق لبعض منشأتها ، كقصر المأمون بن ذي النون ملك طليطلة ، وقصر الجعفرية في سرقسطة .

ومهما يكن ، فإن الاشارات المقتضبة التي ورد ذكرها عن الناحية العمرانية في دولة بني عباد ، توضح أنه كان لبنى عباد دورا لا بأس به في الاسهام في الناحية العمرانية في اشبيلية ، وقد تركزت هذه الأعمال الانشائية في القصور ، والمساجد بصفة خاصة ، ثم في بقية المرافق الأخصى للمدينة .

المساجـد :

بادئ ذي بدء يجب أن نشير الى أنه قد أنشئ في اشبيلية اiban الفتح مسجد جامع ، ويسمى مسجد روسينة ، وكان جزءا من كنيسة سانتا روفينا ، وهو الذي قتل فيه والى الأندلس عبد العزيز ابن موسى بن نصير في سنة ٩٧ هـ / ٧١٦ م^(١) وفي عهد الأمير عبد الرحمن ابن الحكم بنى قريبا من هذا المسجد ، مسجد آخر ، عرف بمسجد

(١) : عن هذا المسجد والمساجد الاندلسية الاخرى أنظر : مانويل جوميث مورنيو ، الفن الاسلامي في اسبانيا . — ليوبولد توريس ريلاس : بحث بعنوان الابنية الاسبانية الاسلامية ، مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية ، العدد الاول ، المجلد الاول ، السنة الاولى ، ١٣٧٢ / ١٩٥٣ م ، ص ١٠٠ .

ابن عدبس ، وقد أصبح المسجد الجامع الكبير فى اشبيلية الذى تقام فيه الصلوات والجمع ، وظل كذلك حتى عهد الدولة العبادية ، وكانت البيوت تحيط به من جميع الجهات ، ويقع بالقرب منه قصر الامارة ، وقد سمي بمسجد ابن عدبس لأن الذى بناه هو عمر بن عدبس قاضى اشبيلية فى عام ٢١٤ هـ / ٨٢٩ - ٨٣٠ م بناءً على أمر الأمير عبدالرحمن ابن الحكم (الأوسط) وقد استخدم فى بنائه أحجار مأخوذة من أنقاض السور الرومانى القديم الذى بدأ يتهادى بفعل الزمن من الفتح الاسلامى وكان مسجد ابن عدبس آية فى روعة الهندسة والبناء . أما صومعته فقد كانت تحفة فنية نادرة أيضا ، ونيت كذلك من أحجار السور الرومانى المذكور (١) .

وقد رمت هذه الصومعة فى عهد المعتمد ابن عباد ، ووجد الأثريون لوحة تذكارية تؤرخ لترميم المعتمد لهذه الصومعة مؤرخة فى سنة ٤٧٢ هـ . وهذه اللوحة الجصية التى عثر عليها عبارة عن لوحة رخامية محفوظة بكنيسة (سلفادور) التى أقامها الأسبان على أنقاض جامع ابن عدبس بعد استيلائهم على اشبيلية من يد المسلمين فى عهد فرناندو القديس . وهذه اللوحة مكتوبة بخط كوفى ونصها : (بسم الله ... وصلى الله على محمد خاتم أنبيائه ، وخيرة أصفائه وعلى آله الطيبين الابرار ، وسلم تسليما . أمر المعتمد على الله المؤيد بنصر الله أبو القاسم محمد ابن عباد أدام الله تأييد أموره ، ووصل اعزازه نصه أعلى هذا المنار ، ولا زال عزيزا بدعوة الاسلام عند انهدامه لكثير الزلازل الكائنة ليلة الأحد مستهل ربيع الأول من سنة اثنين وسبعين وأربعمائة (١٠٧٠ م) فتم بحول الله وتأيد به فى عقب الشهر المؤرخ . قبل الله فيه مشفاله ، ونى له بكل حجر فيه مقرا فى جنانه بمنه ولطفه) . كما توجد قطعة رخامية أخرى

(١) : انظر السيد عبدالعزيز سالم : المساجد والقصور فى الاندلس .

كتيب فى سلسلة اقرأ ، عدد ١٩٠ - أكتوبر ١٩٥٨ م ،

ص ٤٤ - ٤٦ . - محمد بركات البيلى : الرسالة السابقة ،

ص ٢١ - ٢٥ ، مع الحواشى .

صغيرة مكتوب عليها (أبو القاسم محمد) (١) .

وقد ظل هذا المسجد - المسجد الجامع الكبير في اشبيلية حتى عصر الموحدين ، عندما ضاق بالمصلين ، لتكاثف السكان ونمو المدينة ، فبنى الموحدون مسجد هم المشهور بصومعته المعروفة بالجيرالدا في سنة ٥٦٧ هـ / ١٠٧٢ م . والذي تحول بعد ذلك الى كنيسة عام ١٠٤٢ م . وهي الكاتدرائية العظيمة الموجودة في اشبيلية حتى اليوم (٢)

مقد بنى العباديون عدة مساجد في اشبيلية ، مثل مسجد والدة المعتضد بالله الذي بنته في عهد ابنتها ، ثم مسجد الأميرة اعتماد زوجة المعتضد ، وقد وجدت لوحة رخامية محفوظة في كنيسة سان خوان دي لا بالما مكتوبة بالخط الكوفي وتوجد الآن في متحف اشبيلية الاقليمي . ونصها : (بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، أمرت السيدة الكبرى أم الرشيد أبي الحسين عبد الله ابن المعتضد على الله المؤيد بنصر الله أبي القاسم محمد بن عباد أدام الله تأييده ، وأمره وأعزازه ، باقامة هذه الصومعة بمسجدها ، صانه الله ، طلبا لجزيل الأجر والثواب ، فتمت بعمون الله على يدي الوزير الكاتب الأمر أبي القاسم بن حجاج وفقه الله ، وذلك في شعبان من عام ثمانية وسبعين وأربع مائة (٣)) وبالإضافة الى هذين المسجدين ، فقد كان هناك عدد آخر من المساجد في عهد بني عباد ، مثل مسجد ابن خير ، ومسجد المريف ، وغيرهما . (٥)

-
- (١) : محمد عبد الله غان : الاثار الاندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال ، ط ٢ ، ١٣٨١ - ١٩٦١ ، ص ٦٦ - ٦٧ . السيد عبد العزيز سالم : المساجد والقصور في الاندلس ، ص ٤٦ .
 - (٢) : محمد عبد الله غان : نفس المرجع اعلاه ، ص ٤٦ - ٤٧ . السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع اعلاه ، ص ٤٦ - ٤٩ .
 - (٣) : عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة لكتابي الصلة والموصول ، تحقيق احسان عباس - قسطنطين - القسم الثاني ، ص ٥٣٨ - ٥٣٩ .
 - (٤) : محمد عبد الله غان : نفس المرجع اعلاه ، ص ٦٦ - ٦٧ .
 - (٥) : محمد بركات البيلي : الرسالة السابقة ، ص ٢٧ - ٢٩ .

سور اشبيلية فى عهد الدولة العبادية :-

أشرنا آنفا الى أن المسلمين استخدموا فى بناء مسجد هم الجامع المعروف بمسجد ابن عبدس أحجارا من السور الرومانى القديم المتداعى • وكان هذا السور الرومانى القديم الذى جدد بنيانسه فى زمن القوط قد تداعى وتهاوى بفعل الاحداث التى شهدتها اشبيلية منذ عهد القوط وحتى الفتح الاسلامى (١) وأول سور اسلامى بناه المسلمون هو ذلك السور الذى أنشأه الامير عبد الرحمن ابن الحكم (الاولى) بعد غزوة النورمان الاولى على الاندلس (٢) ويعتقد السيد عبد العزيز سالم أن استخدم فى بنائه هو الآخر أحجارا من السور الرومانى القديم (٣) وقد تهدم هذا السور فى أعقاب قضاء عبد الرحمن الناصر على ثورة المولدين التى شهدتها اشبيلية طوال عهد الامراء الامويين الذين تعاقبوا على حكم الدولة الاموية بعد عبد الرحمن الاوسط وحتى عهد الناصر • وقد أمر الناصر قائده ابن السليم بهدم السور • فهدمه وألحق " اطليله بأسافله " للحيلولة دون أى محاولة للشغب يقوم بها المولدون بعد ذلك • وقد بنى الناصر اثر ذاك قصر الحكم (وحصنه بسور صخرى وابراج ضيقة) •

وفى ابان الفتنة التى شهدتها الاندلس فى أعقاب انحلال الدولة الاموية فى بداية القرن الخامس الهجرى بنى حول اشبيلية سور ترابى لحمايتها من الغزو الخارجى • ويعتقد السيد عبد العزيز سالم أن هذا السور قد بنى قبيل قيام دولة بنى عباد مباشرة • وهو السور الذى ظل يحيط بالمدينة طوال عهد الدولة العبادية وحتى الفتح المرابطى (٥)

وقد مر بنا من قبل ان المرابطين استطاعوا احداث فجوة فى سور اشبيلية عند مهاجمتهم للمعتمد ابن عباد الذى تحصن بالمدينة • وقد استطاع المرابطون اقتحام المدينة بسبب العيب الاساسى الذى كان عليه سور اشبيلية الذى بنى فى ابان الفتنة • ان يقول السيد عبد العزيز سالم وكان ارتفاع اسوار اشبيلية فى زمن الفتنة على ما يبدو متوسطا ، ان كان من اليسير على الناس تسنمها والترامى من اعلاها •

- (١) : السيد عبد العزيز سالم : مقال بعنوان : تحقيق اسماء قصور بنى عباد باشبيلية الواردة فى شعر ابن زيدون ، نشر فى مجلة الاوراق التى يصدرها المعهد الاسبانى العربى للثقافة ، عدد ١٩٧٩م ، ص ٣٤ •
- (٢) : انظر السيد عبد العزيز سالم : نفس المقال اعلاه ونفس الصفحة •
- ولعل من المهم هنا أن نذكر بأن غزوة النورمان الثانية على الاندلس كانت فى سنة ٤٥١ هـ كما ذكرنا سابقا •

- (٣) : السيد عبد العزيز سالم : نفس المقال ، ص ٣٢ - ٣٣ •
- (٤) : السيد عبد العزيز سالم : نفس المقال ، ص ٣٣ •
- (٥) : السيد عبد العزيز سالم : نفس المقال ، ص ٣٣ - ٣٤ •
- (٦) : السيد عبد العزيز سالم : نفس المقال ، ص ٣٤ •

وعندما سقطت الدولة العبادية على يد المرابطين عام ٤٨٤هـ / ١٠٩١م . ظل السور العبادي يحيط باشبيلية حتى اضطر المرابطون تحت ضغط هجمات النصارى الى بناء سور جديد في عام ٥٢٦ هـ . وقد جدد هذا السور على فترات متتالية من الزمن ورسم اكثر من مرة في عهد الدولة الموحدية (١) .

بقى أن نشير الى أن سور اشبيلية المعروف بسور اشبيلية . كان له في عهد بني عباد عدة ابواب منها : باب الفرج ، وهو الذي دخل منه المرابطون الى اشبيلية في عهد المعتمد وسقطت المدينة على ايديهم من ثم ويعرف اليوم بباب شريش (Jerez) ، ثم باب جهور الذي عرف فيما بعد بباب اللحم Puerta de carne .

في الجهة الشرقية من السور . ويقول السيد عبد العزيز سالم في معرض ذكره لابواب اشبيلية الاخرى : (. . .) ثم كان يليه باب قرونة في القطاع الشمالي الشرقي من السور . وكذلك وصل الينا باسم باب حميدة ، وكان يفتح في سور اشبيلية الغربي في العصر الاموي ، وكان هذا الباب يفضي الى مقبرة الفخارين ، كما وصلنا اسم باب آخر من ابواب سور اشبيلية زمن الفتنة هو باب الصهاغين . وكان يفتح في السور من جهة القصر ، ولعله كان يقع في الركن الجنوبي الشرقي من المدينة ما بين بابي الفرج وجهور . ونضيف الى هذه الابواب بابا يعرف بباب غير . ثم باب أبي القليس وكان من الابواب الغربية ومنه كان يتم الخروج الى الشرق (٢) .

القصور :-

أشرنا من قبل الى أنه قد بنى في بداية الفتح الاسلامي بجوار المسجد الجامع ، قصر الحكم المعروف بدار الامارة . وقد تم بناؤه على فترات متتابعة بدأت منذ الفتح الاسلامي لاشبيلية وقد وضع اساس هذا القصر عبد العزيز بن موسى بن نصير ، ثم قام ولاية اشبيلية بعد ذلك وعلى فترات متباعدة بتجديده وتوسيعه ، وقد عمل له سور صخري وابراج منيعة حتى عهد العباديين .

(١) : عن الجهود المرابطية والموحدية في ترميم سور اشبيلية - انظر :

السيد عبد العزيز سالم : المقال السابق ، ص ٣٥ - ٣٦ .

(٢) : السيد عبد العزيز سالم : نفس المقال ، ص ٣٧ .

وقد سكن المباديون في بداية نشأة دولتهم في هذا القصر .
واتخذه القاضي ابن عباد مقرا وسكنا له (١) والواقع ان هذا القصر المعروف باللفسة
الاسبانية الكازار ما زال كما يقول محمد عبدالعزيز مرزوق (في حاجة ماسة الى ابحاث
عميقة من الناحية الاثرية والفنية ، ومن الناحية التاريخية ايضا لاثبات ما اذا كان
من انشاء العرب او الاسبان بعد خروج العرب من البلاد) .

فعبد الرحمن الحجى ومحمد عبدالله عنان يعتقدان أن هذا
القصر هو ذاته قصر الامارة الذى اتخذه الذين قاموا بتجديده وتوسيعه ، وأن
المعتمد بن عباد عندما تولى الملك زاد فيه ووسعه وأنقعه وفرشه بفاخر الاثاث
والرياش ، وسماه المبارك وهو الذى ورثه بعد ذلك الموحدون فالمسيحيون بعد
ما سقطت اشبيلية في ايديهم (٢)

أما محمد عبدالعزيز مرزوق فيرجح أن هذا القصر المعروف بالكازار
قد شيد في عهد ملوك الطوائف في عهد المعتمد بالله وأنه هو الذى شيده ،
وهو الذى ورثه الموحدون بعد ذلك وجددوه وزينوه وزخرفوه ، ثم جاء
المسيحيون فزادوا فيه وزخرفوه بالزخرفة الاندلسية المغربية في عهد الملك
بدر والقاسى .

(١) : عبد الرحمن على الحجى : أندلسيات ، نشر دار الارشاد للطباعة والنشر ،

ط ١ ، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م ، ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٢) : الفنون الزخرفية في المغرب والاندلس : نشر دار الثقافة ، بيروت ،

لبنان ، حاشية رقم "١" ، ص ٩٢ .

(٣) : عبد الرحمن على الحجى : نفس المرجع اعلاه ، ص ١٦٥ - ١٦٦ .

محمد عبدالله عنان : الاثار الاندلسية الباقية ، ص ٥٨ .

(٤) : الفنون الزخرفية الاسلامية في المغرب والاندلس ، ص ٩٢ .

أما السيد عبدالعزيز سالم فيرجح أن قصر المبارك هذا
أنشأه المعتقد ابن عباد * ويرجح كذلك أنه قد أقامه لمحاكاة خلفاء بني أمية
بقرطبة (١).

ويقول السيد عبدالعزيز سالم عن هذا القصر (وكان القصر المبارك يشتمل
على مجالس منها قصر الثريا الذي كان يتوسط المبارك توسط الخال في الوجه *
وقصر الوحيد الذي قرأناه في شعر ابن اللبانة * ونعتقد أن الوحيد مجلس من
المجالس الرئيسية بالقصر المبارك * أما الروضة فكانت تشغل ركنا من بساطين القصر *
وفيها دفن المعتقد ابن عباد أباه المعتقد في نفس التربة التي دفن فيها
القاضي أبو القاسم محمد بن اسماعيل * ويغلب على الظن أنها كانت تقب لصق قصر
الإمارة القديم * وعلى نسق هذه الروضة اتخذ الموحدون لأنفسهم روضة
خارج باب جهوز خصصت للسادة * وكان للقصر بركة نصب في جانبها تمثال
فيل يمشي الماء من فيه * وقد وصف عبد الجليل وهبون هذا التمثال فقال :

ويقرع فيه مثل البصل بدع من الأنفال لا يشكو ملالا

رعى رطب اللجين فجاء صلدا تراه قلما يخشى هذا

وكثيرا ما كان المعتقد يجلس على حافة البركة في الأمسيات وبأمر بإيقاد الشموع
ويمتد نظره برؤية المياه تنساب من الفيل إلى البركة وضوء الشموع الباهت
يمتد شاحبا شحيحا فيها حوله (٢).

وقد تفنن الأدباء والشعراء في وصف هذا المنظر * وفي وصف ذلك
القصر * ومنهم ابن زيدون الذي شبه قصر الثريا الذي يتوسط قصر المبارك كخال
يتوسط وجنة فيقول (٣):

أما الثريا فالثريا نصبة واقادة واناقة وجمالا

وتمثل القصر المبارك وجنة قد وسطت فيها الثريا خالا

(١) : السيد عبدالعزيز سالم : المقال السابق ، ص ٣٨ .

(٢) : السيد عبدالعزيز سالم : نفس المقال ، ص ٣٩ .

(٣) : السيد عبدالعزيز سالم : نفس المقال ، ص ٣٠ .

وأيا ما كان الأمر فقد كان قصر المليك أحد القصور
المبادية الرائعة ، وقد تألق المعتمد في زخرفته وتأنيقه
وفرشه ، وهو الذي كان يتذكره دائما في منغاه بأغصان .

ومن القصور الاخرى التي أنشأها المعتمد بن عباد
القصر الزاهر (أو قصر التاج) . ويقع بتاج الشرف من اشبيلية
على الضفة اليمنى من الوادى الكبير (١) . ويعرف أيضا بحصن الزاهر -
أو الحصن الزاهر . وكان كما يقول ابن خاقان من أجمل المواضع
لدى المعتمد ، ومن أحب قصوره اليه (لاطلاله على النهر
واشراقه على القصر وجماله فى الميرون واشتماله بالشجر والزيتون) (٢)

ومن القصور الاخرى التي كان يرتادها المعتمد
القصر الزاهى وهو غير القصر الزاهر وهو الذى كان يتشوق اليه
حنينا فى منغاه بأغصان . وكان له قبة تعرف بسعد السمود
غاية الروعة والابداع (٣)

والاضافة الى هذا القصر كان للمعتمد عدة قصور
أخرى فى اشبيلية منها : المؤيد ، والمكرم وغير ذلك . وقد وصف
ابن بسام فيما ينقله عنه المقرئ قصرا للمعتمد لم يذكر اسمه يقول عنه
انه كان رائعا وانه قد أقيم فيه تمثال فيل من الفضة على حافة بركة
وقد أوقد بجواريه شمعتين . وكان الفيل يقذف بالماء ، وقد
تفنن الأدباء والشعراء فى وصف هذا المنظر ، وفى وصف ذلك
القصر (٤).

-
- (١) : السيد عبدالعزيز سالم : المقال السابق ، ص ٤٠ .
(٢) : ابن خاقان : قلائد الحقيان ، ص ٢٧ .
(٣) : أنظر المقرئ : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١١ ، وكذلك
حاشية رقم ٢ ، ص ١١ . — السيد عبدالعزيز سالم :
المقال السابق ، ص ٤٠ .
(٤) : المقرئ : نفح الطيب : ج ٥ ، ص ٣٩٥ - ٣٩٦ .

ومن القصور الأخرى التى اتحفتنا كتب الأدب بذكرها
قصر الشراييب فى مدينة شلب ، وقد رأينا الممتد ينظم عدة
أبيات يتفنن فيها بالأيام التى قضاهما هو ووزيريه ابن عمار فى
ذلك القصر ، عندما ولاه أبوه حكم مدينة شلب بعد سقوطها فى يده (١)

أما المعتضد فلم تسمحفنا كتب التاريخ والأدب بذكر
أوصاف القصور التى بناها ، فضلا عن أسمائها ، وكلما عرفناه عنه
فى هذا الصدد أنه كان مولعا ببناء القصور السامية الفخمة .

هذا كل ما نعرفه عن جهود العباديين العمرانية
على وجه التدقيق ، أما بالنسبة للمنشآت المدنية فى الدولة ، فلا نعرف
عنها شيئا البتة ، وكلما نعرفه بهذا الصدد ما أورده ابن سعيد
عن مدينة طريانة إحدى المدن التابعة لمملكة اشبيلية ، فقد قال :
(هذه مدينة ممتدة على شاطئ النهر الأعظم فى مقابلة النصف من
حضرة اشبيلية ، وهى مسورة من جهة الصحراء ، وفيها الحمامات
والأسواق الضخمة ، وقد بنيت على تاج مطل على النهر ، ومناظرها
التي من جهة النهر ، سنّ فيها المعتمد بن عباد أن تبيخها للكلس
لئلا تنبو الصين عنها ومن لا ينهض الى ذلك ، فيبنى من جهة
الصحراء ، ولا يترك يبنى من جهة النهر ، فجاءت بديمة فتانة
المنظر أكثر شراييبها منقوشة مذهبة تخطف الأبصار ، ويكون
فيها من أصناف الطرب فى الليالى القمرية ما هو مشهور فى
البلاد (٢))

(١) : أنظر محمد عبد الله عنان : الآثار الأندلسية الباقية ، ص ٤٤ .

— رضا الجيب السويى : ديوان المعتمد بن عباد ، ص ١٥٩ .

(٢) : المغرب فى حلى المغرب ، ج ١ ، ص ٢٩٣ .

(((خاتمة))))

كان القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى من القرون الفاصلة فى تاريخ أسبانيا الاسلامية والنصرانية معا . وقد شهد أحداثا جساما ، وترتب على هذه الأحداث نتائج خطيرة . ففيه سقطت الدولة الأموية التى كانت قد بلغت الأوج قوة وازدهارا ، صريعة أخطاء سياسية آنية ، وصريعة ظروف اجتماعية وعنصرية وجغرافية وسياسية أيضا . وترتب على سقوطها أن تصدعت والى الأبد وحدة الأندلس . وقام على أثر سقوطها أنظمة محلية اتخذت من كل مدينة أو معقل من المعاقل مكانا أسست فيه دولة لها ، مستغلة تفتت وحدة الدولة وانتشار عقدها . هذه الأنظمة هى التى عرفت تاريخيا بممالك الطوائف . وقد تأسست آنذاك من الفئات الاجتماعية المتناحرة : العرب والبربر والصقالبة . وبلغ تعدادها أزيد من بضع وعشرين دولة .

وانتهجت هذه الدويلات سياسة خاطئة ، وممارسات بعيدة عن مصلحة الوطن والرعية وقضت أوقاتها فى حبك المؤامرات ضد بعضها البعض . حتى لقد كانت سياسة هذه الممالك الاقليمية الضيقة أحد عوامل زوال الوجود الاسلامى فى الأندلس .

وكان من جراء سقوط الدولة الأموية ومن ثم قيام ممالك الطوائف وما مارسته من سياسة خاطئة أن اشتد ساعد المقاومة النصرانية . فعملت وقد أتاح لها المسلمون ذلك على ابعاد المسلمين من أرض الأندلس . وانتهجت كل مملكة من الممالك

النصرانية سياسة تهدف الى عودة سيادة الأسبان على أراضيهم
فيما عرف تاريخيا بحركة الاسترداد النصرانية . حتى لقد صرح
ملور حركة الاسترداد ومنظمها آنذاك فرديناند الأول ملك قشتاله
بهذا المطلب ، وخطب ملوك الطوائف بقوله : انما نطلب
بلادنا التي غلبتمونا عليها قد يما في أول أمركم ، وقد سكتموها
ما قضى لكم . وقد نصرنا الآن عليكم بردا عكم فارحلوا الى عدوتكم
وأتركوا لنا بلادنا . . . الخ .

وترتب على ظهور حركة الاسترداد المسيحي عدة
نتائج منها : أن ممالك الطوائف قعدت بها خلافتها الاقليمية ،
ومصالحها الذاتية الضيقة عن أن تقاوم تلك الحركة . فظلت
واقفة لا تحير شيئا أمام الضربات النصرانية التي توالى عليها ،
الى أن أدى بها تقاعسها وخلافتها الى سقوط طليطلة واسطة
عقد الأندلس . كما ذكرنا مرارا . فهبت هذه الممالك متأخرة
طالبة النجدة من قوة العدو المغربية الفتية آنذاك وهي المرابطين .
فكان التدخل المرابطي الذي ترتب عليه تمدد

أجل البقاء الاسلامي في الاندلس أربعة قرون أخرى . وترتب على
ذلك بالاضافة الى هذا أن غدت الاندلس بدلا من التدخل المرابطي
وحتى زوال الوجود الاسلامي في أسبانيا في عهدى فرديناند
وايزابيلا تدور في الفلك المغربي . وبات المغرب منطاط
أحلامها في كل خطب وملمة .

وبالاضافة الى ما استطعنا التوصل اليه في عرضنا

لاحداث ذلك القرن ، أي القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي .
توصلنا الى نتائج تاريخية منطقية . وهي أن الاندلس بحكم أوضاعها

الجغرافية والمنصورية كانت دائما في حاجة ماسة الى قوة مركزية حازمة ، تمتد سلطانها على معظم أرض الاندلس مستتدة على سواعد ملوك أقوياء ذوي هممة وجأش غير عاديين . وهذا يقودنا بالضرورة الى القول بأن القاعدة في اسبانيا التفكك . وما عداها فهو الشاذ . ولذلك فهي في حاجة دائما الى قوة مركزية حازمة شديدة تحسم قبضتها على ذلك البلد المتشعب الأجناس والأعراق . الوعر المسالك والدروب .

وخلصنا كما خلد غيرنا أيضا الى حقيقة مؤلمة وهي أن أدوات السقوط لأي دولة قديما وحديثا واحدة ، تتمثل في الخيانة والانحلال ، والأثرة . والمصالح الذاتية الضيقة . وان هذه الصفات التي ذكرناها هي السبب المباشر في سقوط ممالك الطوائف . كما خلدنا الى نتيجة مؤسفة ، وهي أنه على الرغم من أن التاريخ يعيد نفسه إلا أن ملوك الطوائف لم يأبهوا الى تدارك أخطاء أسلافهم وأخطائهم . كما لم يعملوا على تحقيق الوحدة والتآلف فيما بينهم ازا . هذا الخطر النصراني الموجه اليهم جميعا كان ما كان يحدث لآخوانهم من عنت وجور لا يفضى اليهم أو كأنهم في منأى عنه . (١)

وقد قادنا هذا الى التذكير دائما بأن قدر المسلمين

هو الوحدة والتآلف وجمع الشمل ، وببذ الفرقة والخلاف ، بها وحدها - بعد المشيئة الالهية - يتم لهم التمكين والنصرة والميزة ، وبدونها لا تقوم لهم قائمة ، ولا يعز لهم جانب .

ذلك هو قدر المسلمين ، وتلك هي مشيئة الله فيهم . وقد نسي الاندلسيون هذا أو تناسوه فباؤا بالخسران ، وسقطت بلادهم أخيرا بيد النصارى ، وزال الوجود الاسلامي في الأندلس وأصبحنا ننتمى بالفردوس المفقود .

على أننا استطعنا وسط هذا الجو من التفكك والانحلال
السياسى أن نركز على مفارقة تاريخية حضارية وهى أنه بالرغم من ذلك
التفكك فقد شهد القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى
أبرز صور الاشراق الحضارى والثقافى ، حتى أصبح - مع ما فى ذلك
من الفجأة - نقطة مضيئة فى تاريخ الاندلس تغطى بالقها
واشعاعها صفحات من التاريخ السياسى قائمة داكبة .

وفىما يتعلق بأسبانيا النصرانية ، فقد استخلصنا
عدة نتائج منها ، انها قد انتهجت سياسة الاسترداد المسيحى
على مسمع ومرأى ، بل وفى بعض الأحيان مشاركة من المسلمين .
بل أن أهم ما استخلصناه بالنسبة لممالك النصارى . هو أنها كانت
محظوظة فما كانت لتحقيق ما حققته لولا أن الاندلسيين أتاحوا
بسياستهم الخاطئة لها الفرصة لتحقيق سياستها الهادفة
الى انتزاع أراضى الآباء والأجداد ، كما كانوا يصرحون دائما .

ولاحظنا فى عجب أن ملوك الممالك النصرانية
لم يكونوا أصدق حس فى وطنيتهم من المسلمين . فلم يكن يحكم
تصرفاتهم الغيرة الوطنية والمصلحة القومية فحسب ، وإنما كانت
الأثرة والأهواء الشخصية هى التى تحكم تصرفاتهم وأفعالهم غالبا ،
فهذه هى روح العصر فى أسبانيا الاسلامية والنصرانية على السواء .
ومع ذلك فقد لاحظنا أن ملوك النصارى كانوا أكثر

وعيا وفهما لحقيقة الصراع بينهم وبين المسلمين . فقد كانوا ينظرون
الى الأمر وكأنه قضية حق وتراث شرعى لهم وقع قوة تحت يد
أجنبية . وعليهم أن يرفموا عنها تلك اليد .

لاحظنا ذلك من خلال تحليلنا لظروف قيام مملكة
بنى عباد . ولاحظناه من خلال سياسة هذه المملكة وغيرها من
مالك الطوائف .

وفيما يتعلق بمملكة بنى عباد ، فقد أعطيناها حقها
من البحث والدراسة ، ولم نقصر أو نتوان في مناقشة سلبياتها
وايجابياتها . وناقشنا فيما يبدو لنا أنه ضرب من التحليل
الموضوعي التاريخي مسألة ظهور الخليفة الأموي هشام الذي ادعى
العباد يون أنهم مفوضون في حكم الاندلس من قبله ووضعنا فيما
يتراءى لنا ملوك الدولة العبادية وخاصة المعتمد بن عباد على
المحك ، وناقشناه في سياسته وأعماله ، وأنحينا باللائمة عليه
في مواطن استحقها . وان كان هذا لم يدفعنا الى اغفال
الاشارة الى ايجابياته وحسناته .

وقد قادنا هذا الى مناقشة مسألة الاستعانة
بالمرابطين . وشرحنا في تحليل واسع هذه القضية وخلصنا
الى القول بأنه لو لم يجادر الاندلسيون عامة والمعتمد خاصة
لاسيما بعد اشتداد حركة الاسترداد المسيحي باستدعاء
المرابطين الى الاندلس لكان المرابطون أقدموا على ذلك من
تلقاء أنفسهم تحت ضغط ظروف وأسباب دينية وسياسية
وأمنية .

*

(١)
ملحق رقم (١)

خطاب الفونسو السادس للمعتمد بن عباد
الذى يتهدده فيه ويتوعده ويطلب منه أداء الجزية له

من الانبيطور دى الملتين الملك المفضل الادفنش بن شانجه
الى المعتمد بالله سدد الله آراءه ومصره مقاصد الرشاد سلام عليك
من مشيد ملك شرفته القنى ، ونبتت فى ريعه المنى ، باهتزاز الريح
بعامله ، والسيف بساعد حامله ، وقد أبصرتم مانزل بظليطة وأقطارها
وما حاق بأهلها حين حصارها ، فاسلمتم اخوانكم ، وعظمت بالدعة
زمانكم ، والحذر من أيقظ بآله ، قبل الوقوع فى الجباله ، ولولا
عهد بيننا تحفظ ذمامه ، ونسعى بنور الوفاء أمامه ، لنهض
بنا نحوكم ناهض المعزم ورائده ، ووصل رسول الفوز ووارده ،
لكن الانذار ، يقطع الاعذار ، ولا يعجل الا من خاف القوت
فيما يرومه ، وخشى الغلبة على ما يسومه ، وقد حملنا على
الرسالة اليك القرمط البرهانس وعنده من التسديد الذى تلقى
به أمثالك ، والعقل الذى تدبر به بلادك ورجالك ، ما أوجب
استنابته فيما يدق ويجل ، وفيما يصلح لا فيما يخل ، وأنت
عند ما تأتیه من آرائك ، والنظر بعد هذا من ورائك ، والسلام
عليك ، يسعى بيمينك ، وسين يدك .

ملحق رقم (٢)

رد المعتقد بن عباد على خطاب الفونسو
يعلن له فيه رفضه لطلبه واستعداده هو
وملوك الطوائف لمزلاته

من الملك المنصور بفضل الله ، المعتقد على الله ، محمد
ابن المعتز بالله ، ابي عمر بن عباد الى الطاغية الباغية اذفشي بن شانجه
الذى لقب نفسه بملك الملوك وسماها بذى الملتين قطع الله بدعواه ، سلام على من
اتبع الهدى أما بعد فانه أول ما نبدأ به من دعواه ، انه ذو الملتين والمسلمون أحق
بهذا الاسم لأن الذى تملكوه من أمصار البلاد ، وعظيم الاستعداد ، ومحبي الملكة
لا تبلغه قد رتكم ، ولا تعرفه ملتكم ، وانما كانت سنة سعد أيقظ منها مفاديك ،
وأعقل عن النظر السديد جميل مباديك ، فركبنا مركب عجز نسخه الكيس ، وعطيناك
كفوس دعة قلت فى أثنائها ليس ، ولا تستحى أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك ، وانا
لنمجب من استعجالك (١) لم نرى لم تحكم أنحاؤ ، ولا حسن انتحار ، وأعجابك
بصنع وافقتك فيه الاقدار ، واغترت بنفسك أسوأ الاغترار ، أما تعلم أنا فى العدد
والعدد ، والنظر السديد ، ولدينا من كرامة انفرسان ، وحيل الانسان ،
وحماة الشجعان ، يوم يلتقى الجمعان ، رجال تدرعوا الصبر ، وكرهوا القبر ،
تسيل نفوسهم على حد الشفار ، وينعاهم المنام فى القفار ، يد يبرون رضى
المنون بحركات العزائم ، ويشفون من خبط الجنون بخواتم العزائم ، قد أعبدوا
لك ولقومك جلادا رتبة الاتفاق ، وشافارا حدادا شحذا الاصفاق ، وقد يأتي المحبوب
من المكروه ، والندم من عجلة الشره ، نهبت من غفلة طال زمانها ، وأيقظت من
نومة تجدد أمانها ، ومتى كانت لاسلافك الأقدمين يد صاعدة ، أو وقفة متساعدة ،
الا نل تعلم مقداره ، وتحقق مثاره ، والذى جرك على طلبا لا تدركه قوم كالحق
لا يقاتلونكم جميعا الا فى قرى محصنة أو من وراء جدران (٢) طنوا المعازل تعقل ، والدول
لا تنتقل ، وكان بيننا وبينك من المسالمة ما أوجب القعود عن نصرتهم ، وتدبير
أمرهم ، ونسأل الله سبحانه المغفرة فيما أتينا فى أنفسنا وفيهم ، من ترك الحزم
واسلامهم لا غد بهم ، والحمد لله الذى جعل قوتنا توحيك وتقريبك ، بما الموت
دونه وبالله نستعين عليك ، ولا نستبطأ فى مسيرتنا اليك ، والله بنصرك ينة الكريم
ولو كره الكافرون والسلام على من علم الحق فاتبعه ، واجتنب الباطل وخذعه .

(١) : العبارة فى الأصل : استعجالك ، فجعلناها استعجالك اقتضاء للسياق .
(٢) : الآية الكريم (لا يقاتلونكم جميعا الا فى قرى محصنة أو من وراء جدران) ، وقد
جاءت فى الأصل (حذر) ، سورة الحشر ، آية ١٤ .

(١)
ملحق رقم (٣)

خطاب المعتمد الى يوسف بن تاشفين
يطلب منه معاونة اخوانه المسلمين في الاندلس

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه وسلم تسليما الى حضرة الامام أمير المسلمين وناصر
الدين ، محيي دعوة الخلافة الامام أمير المؤمنين ، أبي يعقوب يوسف
ابن تاشفين (من) القائم بعظيم اكبارها ، الشاكر لجلالها ، المعظم
لما عظم الله من كريم مقدارها ، الايد بحزمها ، المنقطع الى سمو
مجدها ، المستجير بالله وطولها ، محمد بن عباد سلام الله
يخس الحضرة العلية ، المعظمة السامية ، ورحمة الله وبركاته وكتب
المنقطع الى كريم سلطانها من اشبيلية غرة جمادى الاولى سنة ٤٧٩ وأنه
أيد الله أمير المسلمين ، ونصر به الدين ، فانا نحن العرب في هذه الاندلس
قد تلفت قباثلنا ، وتفرق جمعنا ، وتغيرت أنسابنا ، بقطع المادة عنا
من صنيعتنا ، فصرنا فيها شعوبا لا قبائل وأشتاتا لا قرابة ولا عشائر
فقل ناصرنا ، وكثر شامتنا ، وتوالى علينا هذا العدو المجرم اللعين
أذفئش وأناخ علينا بكل كلة ووطئنا بقدمه ، وأسر المسلمين وأخذ
البلاد والقلاع والحصون ونحن أهل هذه الاندلس ليس لأحد منا طاقة
على نصرة جاره ولا أخيه ولو شاوروا لفعلوا الا أن الهواء والماء منعهم
عن ذلك وقد ساءت الاحوال ، وانقطعت الامال ، وأنت أيدك الله
سيد حمير ومليكها الأكبر وأميرها وزعيمها نزعنا بهمتي اليكم ،
واستنصرت بالله وكم ، واستعنت بحرمكم لتجوزوا لجهاد هذا العدو
الكافر وتحيون شريعة الاسلام ، وتذبون عن دين محمد عليه الصلاة والسلام ،
ولكم بذلك عند الله الثواب الكريم ، والأجر الجسيم ، ولا حول ولا قوة الا بالله
العلي العظيم ، والسلام الكريم على حضرتكم السامية ، ورحمة الله وبركاته .

ومما كتب في استدعائه من انشاء كتابه وينسب لابي بكر
ابن الجند : الى الملك المؤيد بفضل الله أمير المسلمين ، وناصر الدين وزعيم
المرابطين ، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ، نور الله به الآفاق ،

وجمل ببهاء الجيوش والرفاق ، من الملك المفضل بنعمة الله ، المستجيب
برحمة الله ، المعتمد على الله ، محمد بن عباد سلام على حضرة تجدد
أيمانها ، واشتهر أمانها ، أما بعد فإن الله سبحانه أيد دينه بالاتفاق
والائتلاف ، وحرم مسالك الشتات ودواعي الاختلاف ، وأنعم على عباده
بأمر جديد ، قوم أولى بأس شديد ، وتطول علينا بمعلوم جدك ، ومشهور
جدك ، وقد جعلك رحمة يحيى غيثها رسوع الشريعة ، وخلقك سلما السى
الخير وذريعته ، وقد طرأ على الاسلام حادث أنسى كل هم ، وهمت النكبات
بوقوعه دهم ، وذلك عدو أطمعه فى البلاد شتات وبين ، واختلاف سببه
لم تطرق له فى الدعة عين ، يقوى ونضصف ، ويتفق ونختلف ، وننام
مطمئنين من آفات الزمان ، وتناسخ الأمان ، وقد جأنا ابراقه وارعاده ،
ووعده وايعاده ، لنسلم له المناير والصوامع ، والمحارب والجوامع ، ليقم
بها الصلبان ، ويستتيب بها الرهبان ، ومما يطعمه استمالته ايسانا^(١)
بالدعة ، واملاؤه فى الرحب والسعة ، استجارا لما أبطنه ، واهجاما علينا
وطنه ، وقد وطد الله لك ملكا شكر الله عليه جهادك ، وقيامك بحقه
واجتهادك ، ولك من نصر الله الخير باعث يبعثك الى نصر مفاره ، واقتباس
نوره وناره ، وعندك من جنود الله من يشتري الجنة بحياته ، ويحضر
الحرب بآلاته ، فان شئت الدنيا فقطوف دانية ، وجنات عالية ، وعيون
آتية ، وان أردت الأخرى فجهاد لا يفتر ، وجلاد يجز الفلاصم ويهزم
هذه الجنة ادخرها الله لظلال سيوفكم ، واجمال معروفكم ، تستعين
بالله وملائكته هكم على الكافرين ، كما قال الله سبحانه وهو أكرم القائلين :
قاتلوهم يذبهم الله بأيدىكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين *
والله يجمعنا على كلمة التوحيد ننصرها • ونعمة الاسلام نشكرها ، ورحمة
الله نتحدث بها وننشرها ، والسلام الموصول الجزيل على أمير المسلمين ،
وناصر الدين ، ورحمة الله وبركاته .

-
- (١) : العبارة فى الأصل : ومما يطعمه ، فجعلتها يطعمه اقتضاء للسباق •
(٢) : العبارة فى الأصل : وقد وطد الله له ، فجعلتها وطد الله لك
اقتضاء للسباق •

(١)
ملحق رقم (٤)

خطاب يوسف بن تاشفين الى المعتمد بن عباد
يخبره بموافقته على طلبه لنصرته ونصرة المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا
محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، من أمير المسلمين ، وناصر
الدين ، معيد دعوة أمير المؤمنين ، الى الأمير الأكرم المؤيد بنصر
الله ، المعتمد على الله ، أبي القاسم محمد بن عباد آدام الله
كرامته بتقواه ، ووفقه لما يرضاه ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .
أما بعد فانه وصل خطابكم المكرم فوقتنا على ما تضمنه من استدعائنا
لنصرتك ، وما ذكرته من كبريتك ، وما كان من قلة حماية جيرانك فنحن
يمين لشمالك ومبادرون لنصرتك وحمايتك ، وواجب علينا ذلك
من الشرع وكتاب الله تعالى وأنه لا يمكننا الجواز الا أن تسلم لنا
الجزيرة الخضراء تكون لنا لكي يكون جوازنا اليك على أيدينا
ممتى شئنا فان رأيت ذلك فاشهد به على نفسك وابعث الينا بعقودها
ونحن في أثر خطابك ان شاء الله والسلام ورحمة الله تعالى
وبركاته .

(١) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣٧ - ٣٨ .

(١)
ملحق رقم (٥)

خطاب الفونسو السادس ليوسف بن تاشفين
الذى يتحداه ويتهدده هو وملوك الطوائف

من أمير الملتين أذفش بن فرنداه الى الأمير يوسف بن
تاشفين أما بعد فلا خفاء على ذى عينين أنك أمير المسلمين بل
الملة المسلمية ، كما أنا أمير الملة النصرانية ، ولم يخف عليك ما عليه
رؤساؤكم بالاندلس من التخاذل والتواكل والاهمال للرعية والاخلاد الى الراحة وأنا
أسومهم الخسف فأخرب الديار ، وأهتك الاستار ، واقتل الشبان ،
وأسر الولدان ، ولا عذر لك فى التخلف عن نصرهم ان أمكتك فرصة هذا
وانتم تعتقدون أن الله تبارك وتعالى فرض على كل واحد منكم بعشرة
منا وأن قتالكم فى الجنة وقتلانا فى النار ونحن نعتقد أن الله أظفرنا
بكم ، وأطنتا عليكم ، ولا تقدرون دفاعا ، ولا تستطيعون امتناعا ، وبلغنا
عنك أنك فى الاحتفال ، عن نية الاقبال ، فلا أدري أكان الجبن يبطئ بك ،
أم التكدب بما أنزل عليك ، فان كنت لا تستطيع الجواز فابصت الى ما عندك من
المراكب تجوز اليك ، وأنا صرك فى أحب البقاع اليك ، فان غلبتني فتلك غيمة
جلبت اليك ، ونعمة مثلت بين يديك ، وان غلبتك كانت لى اليد العليا
واستكملت الامارة والله يثم الازادة .

فأمر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين أن يكتب اليه على ظهر كتابه
جوابا يا أذفش ما تراه لا ما تسمعه ان شاء الله وأردف الكتاب ببیت
أبى الطيب المتنبى :

ولا كتب الا المشرفية والقنا ×××× ولا رسل الا الخميس المعروف

(١) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٢٩ - ٣٠ .

المصادر والمراجع والدوريات

المصادر :

ابن الآبار : (ت ٦٥٨ هـ) :

- (١) الحلة السيرة ، جزآن ، حققه وعلق حواشيه حسين مؤنس ،
الطبعة الاولى ، القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ،
١٩٦٣ م .
- (٢) أغصان الكتاب ، حققه وعلق عليه وقدم له صالح الأشتري ،
طبعة اولى ، دمشق ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، ١٣٨٠ هـ -
١٩٦١ م .

ابن الاثير : عز الدين ابوالحسن على بن محمد الشيبانى الجزرى

(ت ٦٣٠ هـ) :

- (٣) : الكامل فى التاريخ ، ٩ أجزاء ، تحقيق نخبة من العلماء ،
مطبعة الاستقامة ، القاهرة .

ابن بسام : (ت ٥٤٢ هـ) :

- (٤) : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة .
- القسم الأول : المجلد الثانى ، نشر وتحقيق لجنة من جامعة
القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ،
القاهرة ، ١٣٦١ هـ - ١٩٤٢ م .
- القسم الثانى : المجلد الاول ، تحقيق لطفى عبد البديع ، الهيئة
المصرية العامة للكتاب ، مركز تحقيق التراث ،
القاهرة ، ١٩٧٥ م .
- القسم لثالث : المجلد الاول ، نشر وتحقيق لجنة من جامعة القاهرة ،
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ،
١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م .

ابن بشكوال : (ت ٥٧٨ هـ) :

(٥) الصلة في تاريخ علماء الاندلس ، قسطن ، القاهرة ، الدار المصرية
للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ م .

البكري : (ت ٤٨٧ هـ) :

(٦) جغرافية الاندلس وأوروبا ، من كتاب المسالك ، تحقيق
عبد الرحمن علي الحجى ، طبعة أولى ، بيروت دار الارشاد ،
١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م .

ابن تيمرى بردى : (ت ٨٧٤ هـ) :

(٧) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ١٦ جزء ، القاهرة ،
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر ، ١٩٦٤ م .

الحميدى : (ت ٤٨٨ هـ) :

(٨) جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف
والترجمة ، ١٩٦٦ م .

الحميرى : (ت أواخر القرن الثامن الهجرى) :

(٩) صفة جزيرة الاندلس منتخبة من كتاب الروض المطار في خبر الأقطار ،
نشر وتصحيح وتعليق ليفى بروفنسال ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر ، ١٩٣٧ م .

ابن حزم : (ت ٤٥٦ هـ) :

(١٠) طوق الحمامة في الألفاظ والآلاف ، حققه وصوبه وفهرس له حسن

كامل الصيرفى ، قدم له ابراهيم الابيارى ، القاهرة ، مطبعة الاستقامة .

(١١) نطق العروس في تواريخ الخلفاء ، بقلم شوقى ضيف ، فصلية من مجلة كلية الآداب ،

المجلد الثالث عشر ، الجزء الثانى مطبعة جامعة فؤاد الأول ، ديسمبر ١٩٥١ م .

ابن حيان : (ت ٤٦٩ هـ) :

(١٢) المقتبس من أنباء أهل الاندلس .

— قطعة تتناول عصر الحكم الرضى وجزءاً من عصر عبدالرحمن
الاولى ، تحقيق ونشر وتعليق محمود على مكي ، القاهرة ، منشورات
المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، لجنة احياء التراث الاسلامى ،
الكتاب ٢١ — ١٣٩٠ هـ — ١٩٧١ م .
— قطعة تتناول عصر الحكم المستنصر ، تحقيق عبدالرحمن
على الحجى ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٥ م .

ابن خاقان : (ت ٥٢٨ أو ٥٢٩ هـ) :

(١٣) قلائد العقيان فى محاسن الايمان ، نسخة مصورة عن طبعة باريس ،
قدم له ووضع فهرسه محمد العنابى بدار الكتب الوطنية بتونس ،
منشورات المكتبة المتينة ، تونس ، سلسلة من تراثنا الاسلامى
رقم ١ ، ١٣٨٦ هـ — ١٩٦٦ م .

(١٤) مطمح الأنفس ومسرح التانس فى ملح أهل الاندلس ، طبعة اولى ،
القسنطينية ، مطبعة الجوائب ، ١٣٠٢ هـ .

ابن الخطيب : (ت ٧٧٦ هـ) :

(١٥) الاحاطة فى اخبار غرناطة ، ٣ مجلدات ، تحقيق محمد عبدالله عنان ،
القاهرة ، دار المعارف بمصر ، ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٥ م .

(١٦) اعمال الاعلام ، تحقيق احمد مختار العبادى ، ومحمد ابراهيم الكنانى
(تاريخ المغرب فى العصر الوسيط) القسم الثالث من المخطوطة ،
الدار البيضاء ، دار الكتاب ، ١٩٦٤ م .

(١٧) القسم الثانى من اعمال الاعلام ، نشر أ . ليفى بروفنسال تحت
عنوان (تاريخ اسبانيا الاسلامية) بيروت ، دار المكشوف ، ١٩٥٦ م .

ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ) :

(١٨) العبرود يوان المتدأ والخير في أخبار العرب والعجم والبربر
ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر ، ٣ مجلدات ، بيروت ،
دار الكتاب اللبناني ، ١٩٥٨ م .

(١٩) مقدمة ابن خلدون ، بيروت ، ١٨٦٥ م .

ابن خلكان : (ت ٦٨١ هـ) :

(٢٠) وفيات الاعيان وأنباء أهل الزمان ، جزآن ، القاهرة ،
مطبعة بولاق ، ١٣٨٣ هـ .

ابن دحية : (ت ٦٣٣ هـ) :

(٢١) المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق ابراهيم الابيارى
وحامد عبد المجيد ، مراجعة طه حسين ، بيروت ، دار العلم
للجميع للطباعة والنشر والتوزيع .

ابن زيرى : عبد الله بن بلقين بن زيرى (ت بعد ٤٨٣ هـ) :

(٢٢) مذكرات الامير عبد الله آخر ملوك بنى زيرى بفرنطة المسماة
بكتاب التبيان ، تحقيق ليفى بروفسال ، القاهرة ، دار المعارف ،
١٩٥٥ م .

ابن سعيد المغربي : (ت ٦٨٥ هـ) :

(٢٣) المغرب فى حلى المغرب . حقق شوقى ضيف فى جزئين
منفصلين ، القسم الثانى تحت عنوان وشى الطرس فى حلى
جزيرة الاندلس ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٤ م .

السلوى الناصرى : (ت ١٣١٥ هـ / ١٨٣٥ - ١٨٩٧ م) :

(٢٤) الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى ، تحقيق وتعليق جعفر
الناصرى ومحمد الناصرى ، ١٠ أجزاء ، الدار البيضاء ، مطبعة
دار الكتب ، ١٩٥٤ م .

السيوطي : (ت ٩١١ هـ - ١٥٠٥ م) :

- (٢٥) تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، مطبعة الفجالة الجديدة ، الطبعة الرابعة ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .

ابن الشباط التوزري : (ت ٦٨١ هـ) :

- (٢٦) صلة السمط وسمة المرط . تحقيق احمد مختار العبادي ، مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمديرية ، المجلد الرابع عشر ، مدريد ١٩٦٧ م .

ابن شاکر الكتبي : (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ - ١٣٦٣ م) :

- (٢٧) فوات الوفيات ، جزآن ، القاهرة ، بولاق ١٢٩٩ هـ / ١٩٠١ م .

صالح بن عبد الحلیم : (عاش في القرن الثامن الهجري) :

- (٢٨) الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، الرباط ، ١٩٣٦ م .

الضبي : (ت ٥٩٨ هـ / ١٢٠٢ م) :

- (٢٩) بغية الملمس في تاريخ رجال أهل الاندلس ، القاهرة ، ١٩٥٥ م .

ابن عذارى : (ت ٦٩٥ هـ) :

- (٣٠) البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ، ٣ أجزاء ، تحقيق ج . س . كولان ، وليفي بروفنسال ، بيروت ، دار الثقافة .

ابن غالب الاندلسي : (محمد بن أيوب بن غالب الفرناطي) :

عاش في القرن السادس الهجري) :

- (٣١) كتاب فرحة الأنفس في تاريخ الاندلس . وهو قطعة من الكتاب تتعلق بجغرافية الاندلس ، نشر وتحقيق لطفى عبد البديع ، فصلة من مجلة معهد المخطوطات ، القاهرة ، ١٩٥٥ م .

الفيروز آبادى : (ت ٨١٧ هـ) :

- (٣٢) القاموس المحيط ، ٤ أجزاء ، بيروت ، دار الجبل ،
ابن القطان (ابو الحسن على بن محمد الكاظمى القاسى ،

ت ٦٣٨ هـ - ١٢٣٠ م) :

- (٣٣) نظم الجمان فى اخبار الزمان ، تحقيق محمود على مكي ، نشر
كلية الاداب بجامعة محمد الخامس ، الرباط ، الجزء السادس ،
١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م .

القلشندى : (ت ٨٢١ هـ - ١٤١٨ م) :

- (٣٤) صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، ١٤ جزءا .

ابن كثير : (ت ٧٧٤ هـ) :

- (٣٥) البداية والنهاية فى التاريخ ، ١٦ جزءا ، نشر مطبعة السعادة ،
القاهرة .

ابن الكردبوس : (ت أواخر القرن السادس الهجرى) :

- (٣٦) الاكتفاء فى اخبار الخلفاء ، تحقيق احمد مختار العبادى ، مجلة
معهد الدراسات الاسلامية بمديرية ، المجلد الثالث عشر ،
١٩٦٥ - ١٩٦٦ م .

مجهول : (عاش فى القرن الثامن الهجرى) :

- (٣٧) الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية ، نشرى . س علوش ،
الرباط ، مطبوعات معهد الدراسات العليا المغربية ، ١٩٣٦ م .

مجهول :

(٣٨) ذيل مضاف الى البيان المغرب ، يتعلق بأخبار بعض ملوك الطوائف بالاندلس والمغرب ، لمؤلف مجهول الاسم مبتور الأول والاخر ، تحقيق ليفى بروفنسال ، بيروت ، دار الثقافة .

مجهول : (عاش بعد سنة ٧١٢هـ "سنة تأليف الكتاب") :

(٣٩) نبذ تاريخية جامعة فى اخبار البربر فى القرون الوسطى ، منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر ، نشر ليفى بروفنسال ، الرباط ، مطبوعات معهد العلوم المغربية ، ١٣٥٢هـ - ١٩٣٤ م .

المراكشى : أبو محمد عبدالواحد بن على التميمي (ت ٦٤٧هـ) :

(٤٠) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، منشورات المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، لجنة تحقيق التراث الاسلامي ، الكتاب الثالث ، القاهرة ، ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م .

المراكشى : محمد بن عبدالملك (ت ٧٠٣هـ - ١٣٠٤م) :

(٤١) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، قسمان ، قاموس عام لرجال الاندلس ومن وصل اليها من المغاربة والمشاركة فى آخر القرن السابع الهجرى ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ، دار الثقافة .

المقرئ : (ت ١٠٤١هـ - ١٦٣١م) :

(٤٢) نفع الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان بن الخطيب ، تحقيق وتمليق محمد محي الدين عبدالحميد ١٠ أجزاء ، مطبعة السعادة ، طبعة أولى ، القاهرة ، ١٣٦٩هـ / ١٩٤٩ م .

الميداني : (ت ٥١٨ هـ) :

(٤٣) مجمع الامثال ، جزآن ، تحقيق وتعليق محمد محي الدين
عبد الحميد ، القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية ، ١٣٧٤ هـ /
١٩٥٥ م .

النباهي : (كان حيا سنة ٧٩٣ هـ) :

(٤٤) تاريخ قضاة الاندلس (سماه المرقبة العليا فيمن يستحق
القضاء والفتيا ، بيروت ، المكتب التجاري للطباعة والنشر
والتوزيع ، ١٩٣٧ م .

المراجع :

احسان عباس :

١ - تاريخ الادب العربي - عصر الطوائف والمرابطين ، سلسلة
المكتبة الاندلسية رقم ٣ ، بيروت ، دار الثقافة ، الطبعة الخامسة ،
١٩٧٨ .

٢ - ديوان ابن حمد يس ، نشر دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ،
١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م .

احمد ابراهيم الشعراوى :

٣ - الأمويون أمراء الأندلس الأول ، القاهرة ، دار النهضة العربية ،
١٩٦٥ م .

أحمد هيكـل :

٤ - الادب الاندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة ، القاهرة ،
مكتبة الشباب ، طبعة ثانية ، ١٩٦٣ م .

أحمد مختار المبادى :

٥ - فى تاريخ المغرب والاندلس ، الاسكندرية ، مؤسسة الثقافة الجامعية ،

أ . ليفى بروفنسال :

٦ - الاسلام فى المغرب والاندلس ، ترجمة السيد محمود عبدالعزيز سالم
ومحمد صلاح الدين حلى ، مراجعة لطفى عبد البديع ، القاهرة ،
مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٦ م .

٧ - حضارة العرب في الاندلس ، ترجمة ذوقان قرقوط ، بيروت ، مكتبة الحياة .

٨ - سلسلة محاضرات عامة في أدب الاندلس وتاريخها ، ترجمة محمد عبد الهادي شميرة ، و عبد الحميد العبادي ، القاهرة ، كلية الاداب ، جامعة فاروق الاول ، ١٩٥١ م .

أميليو غرسييه غومس :

٩ - الشعر الاندلسي ، بحث في تطوره وخصائصه ، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٦ م .

آنخل جنثالت بالثيا :

١٠ - تاريخ الفكر الاندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، طبعة أولى ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٥ م .

جودت الركابي :

١١ - في الادب الاندلسي ، ط ٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٥ م .

حسن ابراهيم حسن و على ابراهيم حسن :

١٢ - النظم الاسلاميه ، ط ٤ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٠ م .

حسن محمود :

١٣ - قيام دولة المرابطين ، القاهرة ، ١٩٥٧ م .

حسين مؤنس :

١٤ - شيوخ العصر ، المكتبة الثقافية ، ١٤٦ ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٥ م .

خالد الصوفي :

- ١٥ - تاريخ العرب في أسبانيا (جمهورية بنى جهور) ، دمشق ،
المطبعة التعاونية ، ١٩٥٩ م .

رجب محمد عبد الحليم :

- ١٦ - دولة بنى حمود في مالقة بالاندلس (رسالة ماجستير) ،
مقدمة لكلية الاداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٦ م . (لم تطبع) .

رضا الجيب السويسى :

- ١٧ - ديوان المعتمد بن عباد ملك اشبيلية ، تونس ، الدار التونسية ،
١٩٧٥ م .

رينيه رتدوزى :

- ١٨ - ملوك الطوائف ، وهو الجزء الذى ترجمه كامل الكيلى
من كتاب تاريخ مسلمى أسبانيا ، الطبعة الاولى ، ١٣٥١ هـ / ١٩٣٣ م .

سميد عبدالفتاح عاشور :

- ١٩ - أوربا في العصور الوسطى ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٦١ م .

السيد عبدالعزيز سالم :

- ٢٠ - تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس من الفتح العربى حتى سقوط
الخلافة بقرطبة ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٢ م .
٢١ - المساجد والقصور في الاندلس ، سلسلة اقراء ، عدد ١٨٠ ،
اكتوبر ، ١٩٥٨ م .

شكيب أرسلان :

- ٢٢ - الحلل السندسية في الاخبار والآثار الاندلسية ، ٣ أجزاء ،
بيروت ، دار مكتبة الحياة .

صلاح خالص :

٢٣ - محمد بن عمار الاندلسى ، دراسة أدبية وتاريخية لألمع شخصية
سياسية فى تاريخ دولة بنى عباد فى اشبيلية ، بغداد ،
مطبعة الهدى ، ١٩٥٧ م .

٢٤ - المعتمد بن عباد الاشبيلى ، دراسة أدبية وتاريخية لقطب
الحركة الادبية وأبرز سلاطين الاندلس فى عصر ملوك الطوائف .
بغداد ، نشر شركة بغداد للطبع والنشر والتوزيع المحدودة ،
١٩٥٨ م .

٢٥ - اشبيلية فى القرن الخامس الهجرى ، دراسة أدبية وتاريخية
لنشوء دولة بنى عباد فى اشبيلية وتطور الحياة الادبية
فيها ، ٤١٤ - ٤٦١ هـ ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٥ م .

عبادة كحيله :

٢٦ - المولدون فى التاريخ الاندلسى منذ الفتح العربى حتى نهاية
عصر الامارة (رسالة ماجستير) مقدمة الى كلية الاداب ، جامعة
القاهرة ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م . (لم تطبع) .

على أدهم :

٢٧ - المعتمد بن عباد ، سلسلة أعلام العرب رقم ٢ ، القاهرة ،
مكتبة مصر .

على جيبه :

٢٨ - مع المسلمين فى الاندلس ، طبعة ثانية ، جده ، دار الشروق
للنشر والطباعة ،

على عبد العظيم :

٢٩ - ديوان ابن زيدون ورسائله ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ،
١٩٥٧ م .

عبدالحق حموش :

- ٣٠ - ابن تاشفين ، الدار البيضاء ، دار الكتاب .

عبد الرحمن على الحجى :

- ٣١ - أندلسيات ، الطبعة الاولى ، بيروت ، دار الارشاد للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م .

عبد السلام الطود :

- ٣٢ - بنو عباد بأشبيلية ، مطبعة كريمادس ، ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م .

عبد الكريم التواتى :

- ٣٣ - مأساة انهيار الوجود المربى بالاندلس ، الطبعة الأولى ، الدار البيضاء ، مكتبة الارشاد ، ١٩٦٧ م .

عبد المنعم ماجد :

- ٣٤ - تاريخ الحضارة الاسلامية فى المصور الوسطى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٣ م .
- ٣٥ - العلاقات بين الشرق والغرب ، بيروت ، مكتبة الجامعة العربية ، ١٩٦٦ م .

عبد الوهاب عزام :

- ٣٦ - المعتمد بن عباد الملك الجواد الشجاع الشاعر المرزأ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٩ م .

عمر رضا كحالة :

- ٣٧ - معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٥ مجلدات ، طبعة ثانية ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

كامل كيلانى :

٣٨ - نظرات فى تاريخ الادب الاندلسى ، الطبعة الاولى ، نشر المكتبة التجارية بأول شارع محمد على ، ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م .

ل . أ . سيدىو :

٣٩ - تاريخ العرب العام ، امبراطورية العرب ، حضارتهم ، مدارسهم الفلسفية والعلمية والادبية ، ترجمة محمد عادل زعيتير ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م .

لطفى عبد البديع :

٤٠ - الاسلام فى اسبانيا ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨ م .

محمد بركات البيللى :

٤١ - الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى اشبيلية فى عصر بنى عباد ، (رسالة ماجستير) مقدمة الى كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م . (لم تطبع) .

محمد عبدالله عنان :

٤٢ - دولة الاسلام فى الاندلس : من الفتح الى عهد الناصر - العصر الأول ، القسم الأول ، الطبعة الرابعة ، مكتبة الخانجي ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .

٤٣ - دولة الاسلام فى الاندلس : الخلافة الأموية والدولة العامرية ، العصر الأول ، القسم الثانى ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .

٤٤ = دولة الاسلام فى الأندلس : الدولة العائمة وسقوط الخلافة الأندلسية ،
الطبعة الأولى ، القاهرة ، مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية ،
١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م .

٤٥ - دولة الاسلام فى الأندلس : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح
المرابطى ، العصر الثانى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ،
١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .

٤٦ - دولة الاسلام فى الأندلس : عصر المرابطين والموحدين ، العصر
الثالث من كتاب دولة الاسلام فى الأندلس ، القاهرة ، مكتبة
الخانجى ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .

٤٧ - الآثار الأندلسية الباقية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مكتبة
الخانجى ، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .

٤٨ - تراجم اسلامية شرقية وأندلسية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ،
مكتبة الخانجى ، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .

٤٩ - مواقف حاسمة : الطبعة الرابعة ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ،
١٣٨٣ هـ / ١٩٦٢ م .

محمد عبد العزيز مرزوق :

٥٠ - الفنون الزخرفية الاسلامية فى المغرب والأندلس ، بيروت ، دار الثقافة .

محمد كرد على :

٥١ - الاسلام والحضارة العربية ، جزآن ، القاهرة ، مطبعة لجنة
التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٨ م .

٥٢ - غابر الأندلس وحاضرها ، القاهرة ، المطبعة الرحمانية ، ١٩٢٣ م .

٤٤ = دولة الاسلام فى الأندلس : الدولة العاصرية وسقوط الخلافة الأندلسية ،
الطبعة الأولى ، القاهرة ، مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية ،
١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م .

٤٥ - دولة الاسلام فى الأندلس : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح
المرابطى ، العصر الثانى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ،
١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .

٤٦ - دولة الاسلام فى الأندلس : عصر المرابطين والموحدين ، العصر
الثالث من كتاب دولة الاسلام فى الأندلس ، القاهرة ، مكتبة
الخانجى ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .

٤٧ - الآثار الأندلسية الباقية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مكتبة
الخانجى ، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .

٤٨ - تراجم اسلامية شرقية وأندلسية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ،
مكتبة الخانجى ، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .

٤٩ - مواقف حاسمة : الطبعة الرابعة ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ،
١٣٨٣ هـ / ١٩٦٢ م .

محمد عبدالعزيز مرزوق :

٥٠ - الفنون الزخرفية الاسلامية فى المغرب والأندلس ، بيروت ، دار الثقافة .

محمد كرد على :

٥١ - الاسلام والحضارة العربية ، جزآن ، القاهرة ، مطبعة لجنة
التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٨ م .

٥٢ - غابر الأندلس وحاضرها ، القاهرة ، المطبعة الرحمانية ، ١٩٢٣ م .

مصطفى الشكمة :

- ٥٣ - الادب الاندلسى موضوعاته وفنونه ، الطبعة الثانية ، بيروت ،
دار العلم للملايين ، ١٩٧٣ م .

مانويل جوميث مورينو :

- ٥٤ - الفن الاسلامى فى اسبانيا ، ترجمة لطفى عبد البديع
والسيد محمود عبد المزيو سالم ، مراجعة جمال محرز ، الدار
المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٧٧ م .

هشام سليم عبد الرحمن أبورمييلة :

- ٥٥ - نظم الحكم فى الاندلس فى عصر الخلافة (رسالة ماجستير) ،
مقدمة الى كلية الآداب جامعة القاهرة ، ١٩٧٥ م . (لم تطبع) .

يوسف أشباح :

- ٥٦ - تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة محمد
عبد الله عنان ، القاهرة ، مؤسسة الخانجى ، مطبعة لجنة
التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م .

- J. B. BURY, M.A., F.B.A. , : THE CAMBRIDGE MEDIEVAL — 5Y
HISTORY. , VOLUME VI, CAMBRIDGE AT THE UNIVERSITY ,
PRESS. 1929.
- JAN READ : THE MOORS IN SPAIN AND PORTUGAL , LONDON. — 5A
1974 .
- JOSEPH. F. O'CALLAGHAN : A HISTORY OF MEDIEVAL — 59
SPAIN., CORNELL UNIVERSITY PRESS LONDON 1974 .

الدوريات :

ابراهيم حركات :

- ١ - حياة المعتمد بن عباد في الاندلس كشاعر . مجلة البحث
العلمي المغربي ، ١٩٦٥ م .

أحمد مختار المبادي :

- ٢ - دراسة حول كتاب الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية .
مجلة تطوان للأبحاث المغربية الأندلسية ، العدد الخامس ،
السنة ١٩٦٠ م .

- ٣ - الصقالية في أسبانيا ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية
بمدريد ، المجلد الثالث عشر ، السنة ١٩٥٣ م .

حسين مؤسس :

- ٤ - السيد القبيطور وعلاقته بالمسلمين ، المجلة التاريخية المصرية ،
المجلد الثالث ، العدد الاول ، سنة ١٩٥٠ م .

- ٥ - سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين ، مجلة معهد
الدراسات الإسلامية المصرية بمدريد ، المجلد الثاني ، العدد
١ - ٢ ، سنة ١٩٥٤ م .

خليل ابراهيم صالح السامرائي :

- ٦ - الدعوة الى توحيد الاندلس في أيام الطوائف ، مجلة زانكو
العلمية الانسانية ، نيسان ، ١٩٧٧ م .

خوسيه مارياس بيكروسا :

- ٧ - ابن بصال ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، زاوية
نقد وعرض ، المجلد الخامس ، العدد ١ - ٢ ، ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧ م .

السيد عبدالعزيز سالم :

- ٨ - مقال بعنوان : تحقيق أسماء قصور بني عباد باشبيلية الواردة في شعر ابن زيدون ،
مجلة ثقافية يهدرها المعهد الإسباني العربي للثقافة ، العدد الثاني ، ١٩٧٩ م .

الصدیق بن المرینی :

- ٩ - شعر المعتمد فی منفاہ ، مجلة تطوان ، العدد الخامس ،
١٩٦٥ م .

عبد السلام الهراس :

- ١٠ - ابن اللبانة ، مجلة تطوان ، ١٩٥٥ م .

عبد القادر زمامة :

- ١١ - المعتمد بن عباد فی المغرب ، مجلة البحث العلمی المغربي ،
١٩٦٥ م .

ليبولد و توريس يلباس :

- ١٢ - الأبنية الاسبانية الاسلامیة ، مجلة المعهد المصری للدراسات
الاسلامیة ، العدد الأول ، المجلد الاول ، السنة الأولى ،
١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣ م .

محمود علی مکی :

- ١٣ - وثائق تاریخیة جدیدة فی عصر المرابطين ، مجلة معهد
الدراسات الاسلامیة المصری بمدرید ، المجلد السابع والثامن ،
مدرید ، ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ م .

محمد الفاسی :

- ١٤ - المؤرخان ابن أبی زرع وابن عبد الحليم ، مجلة تطوان ، العدد
الخامس ، السنة ١٩٦٠ م .

مصطفى القصري :

- ١٥ - الشعر فی خدمة الحقيقة والتاریخ . مجلة البحث العلمی
(المركز الجامعی للبحث العلمی) ، العدد الأول ، السنة الأولى ،
ابريل ، ١٩٣٤ م .

— ANGUS MACKAY AND MUHAMMAD BEN ABOUD : — 17

AL FONSO VI OF LEON AND CASTILE., AL IMBRATUR
DHU -L- MILLATAYN' in BHS, LVI, 1979, UNIVERSITY
OF EDINBURGH .

— MUHAMMAD BENABOUDLY ANGUS MACKAY : — 18

THE AUTHENTICITY OF AL FONSO VI's LETTER TO
YUSUF B. TASUFIN, in AL-ANDALUS, VOL, XLIII,
1978, FASC, I .

(فهرست)

الموضوع :	رقم الصفحة
<u>مقدمة</u>	١ - ٢١
<u>تمهيد :</u> حالة الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية	٢٢ - ٢٧
- سقوط الدولة الأموية .	٢٣
- قيام ممالك الطوائف وأشهرها .	٥٤
<u>الباب الأول :</u> قيام دولة بني عباد	٦٨ - ١٠٢
- أصل بني عباد .	٦٩
- الموقف السياسي في الأندلس قبل قيام دولة بني عباد .	٧٣
- اشبيلية مسرحا للصراع بين بني حمود وسكانها .	٧٦
- دولة القاضي أبي القاسم محمد ٤١٤ - ٤٣٣ هـ / ٨٠	١٠٢٤ - ١٠٤٢ م .
<u>الباب الثاني :</u> الدولة العبادية في عهد المعتضد بالله	١٠٣ - ١٧٦
- تولي المعتضد السلطة بعد وفاة أبيه وآراء المؤرخين فيه .	١٠٤
- التوسع العسكري على حساب الإمارات العربية الغربية المجاورة .	١١٥
- انشقاق اسماعيل بن المعتضد وقضاء المعتضد عليه .	١٢٦
- توقف المعتضد عن الدعوة لهشام المؤيد الأموي المزعم .	١٣٠
- التوسع العسكري على حساب الإمارات البربر في الجنوب .	١٣٤
- نشاط حركة الاسترداد المسيحي في عهد المعتضد بالله .	١٤٩
- حياة المعتضد الخاصة ووفاته .	١٧١

الموضوع

رقم الصفحة

٢٤٣-١٧٧

الباب الثالث : الدولة العبادية في عهد المعتمد بالله

- ١٧٨ - تولي المعتمد السلطة بعد وفاة أبيه وآراء المؤرخين فيه
- ١٨٤ - الموقف السياسي في الاندلس غداة تولي المعتمد السلطة
- ١٨٩ - جهود المعتمد في توسيع رقعة دولته
- ٢١٧ - خروج الوزير ابن عمار على المعتمد والقضاء عليه آخر الأمر
- ٢٣٣ - حياة المعتمد العائلية والسمات المميزة لشخصيته

الباب الرابع : تطور الأوضاع السياسية في الاندلس ونهاية دولة بني عباد

- ٢٤٤ - اشتداد حركة الاسترداد المسيحي وسقوط طليطلة
- ٢٥٧ - تدور العلاقات السياسية بين الفونسو والمعتمد
- وتقية ملوك الطوائف والتفكير بالاستعانة بالمرابطين .
- ٢٨٥ - موقعة الزلاقة
- ٢٩٥ - قضاء يوسف بن تاشفين على مملكة بسني عباد
- وعلى غيرها من ممالك الطوائف .

الباب الخامس : أهم مظاهر التطور الحضاري في اشبيلية في عهد بني عباد

- ٣٥٣ - نظم الحكم
- ٣٧٩ - الحياة الاجتماعية
- ٣٨٩ - الحياة الاقتصادية
- ٣٩٤ - الحياة العلمية والأدبية
- ٤١٥ - العمارة

الخاتمة :

الملاحق :

قائمة المصادر والمراجع والدوريات :

٤٤٩-٤٣٠

رقم الصفحة	الخطا	الصواب
٩١	قصوات أخرى تابعة	قصوات أخرى تابعة
٩٦	آمال وأمان	آمال وأمان
١٠٥	الدم في الاغسلان	الدم في الاغسلان
١٠٥	نصار	نصار
٢٢٦	تأيد صلاح خالص	تأيد صلاح خالص
٢٢٧	هناك عدد من	هناك عدد من
٢٦٥	لينا مختصون	لينا مختصون
٢٧٩	كنسورة محاسبة	كنسورة محاسبة
٢٢٢	أشر حاسبانية	أشر حاسبانية
٢٢٨	وأجوى طيهمسة	وأجوى طيهمسة
٢٤٢	قصور الأجدور	قصور الأجدور
٢٦٥	بيت به رسون قيد	بيت به رسون قيد
٢٧٢	خروجية باليمنة	خروجية باليمنة